

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس
الدين القرطبي

باب النهي عن تمني الموت و الدعاء به لضر نزل في المال و الجسد

روى مسلم [عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد متمنيا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي و توفي إذا كانت الوفاة خيرا لي] أخرجه البخاري و عنه قال : [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يتمنين أحدكم الموت و لا يدع به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله و إنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا]

و قال البخاري : لا يتمنين أحدكم الموت : إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا و إما مسينا فلعله أن يستعقب الزار [عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تموتوا الموت فإن هول المطلع شديد و إن من السعادة أن يطول عمر العبد حتى يرزقه الله الإناة]

فصل : قال العلماء : الموت ليس بعدم محض و لا فناء صرف و إنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن و مفارقتها و حيلولة بينهما و تبدل حال و انتقال من دار إلى دار و هو من أعظم المصائب و قد سماه الله تعالى مصيبة و في قوله { فأصابتكم مصيبة الموت } فالموت هو المصيبة العظمى و الرزية الكبرى قال علماؤنا : و أعظم منه الغفلة عنه و الإعراض عن ذكره و قلة التفكير فيه و ترك العمل له و إن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر و فكرة لمن تفكر و في خبر يروى عن النبي صلى الله عليه و سلم : [لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلت منها سمينا]

و يروى أن إعرابيا كان يسير على جمل له فخر الجمل ميتا فنزل الأعرابي عنه و جعل يطوف به و يتفكر فيه و يقول : مالك لا تقوم ؟ مالك لا تبعث هذه أعضاؤك كاملة و جوارحك سالمة ما شأنك ؟ ما الذي كان يملكك ؟ ما الذي كان يبعثك ؟ ما الذي صرعتك ؟ ما الذي عن الحركة منعك ؟ ثم تركه و انصرف متفكرا في شأنه متعجبا من أمره و أنشلوا في بعض الشجعان مات حتف أنفه :

(جائته من قبل المنون إشارة ... فهو صريعا لليدين و للفم)

(و رمى بمحك درعه و برمحه ... و امتد ملقى كالتقيق الأعظم)

(لا يستجيب لصارخ إن يدعه ... أبدا و لا يرجى لخطب معظم)

(ذهب بسالته و مر غرامه ... لما رأى حبل المنية يرتقي)

(يا ويحه من فارس ما باله ... ذهب مروته و لما يكلم)

(هذي يده و هذه أعضاؤه ... ما منه من عضو غدا بمثل)

(هيهات ما حبل الردى محتاجة ... للمشري و لا اللسان اللهنم)

(هي و يحكم أمر الإله و حكمه ... و الله يقضي بالقضاء المحكم)

(يا حسرتا لو كان يقدر قدرها ... و مصيبة عظمت و لما تعظم)

(خبر علمنا كلنا بمكانه ... و كأننا في حالنا لم نعلم)

و روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول حدثنا قتيبة بن سعيد و الخطيب بن سالم عن عبد العزيز الماجشون عن محمد بن المنكدر قال : مات ابن لآدم عليه السلام فقال يا حواء قد مات ابنك فقالت : و ما الموت ؟ قال : لا يأكل و لا يشرب و لا يقوم و لا يقعد فرنت فقال آدم عليه السلام : عليك الرنة و على بناتك أنا و بني منها برآء فصل : قوله : فلعله أن يستعجب الاستعجاب طلب العتبي و هو الرضى و ذلك لا يحصل إلا بالتوبة و الرجوع عن الذنوب قال الجوهري :

استعجب : طلب أن يعتب تقول : استعجبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني و في التنزيل في حق الكافرين { و إن يستعجبوا فما هم من المعتبين }

و روى عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال : لا يتمنى أحدكم الموت إلا ثلاثة : رجل جاهد بما بعد الموت أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه أو مشتاق محب للقاء الله عز و جل و روي أن ملك الموت عليه السلام جاء إلى إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن عز و جل ليقبض روحه فقال إبراهيم : يا ملك الموت هل رأيت خليلًا يقبض روح خليله ؟ فعرج ملك الموت عليه السلام إلى ربه فقال قل له : هل رأيت خليلًا يكره لقاء خليله ؟ فرجع فقال اقبض روعي الساعة و قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما من مؤمن إلا و الموت خير له فمن لم يصدقني فإن الله تعالى يقول : { و ما عند الله خير للأبرار } و قال تعالى { و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم } و قال حيان بن الأسود : الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب

باب جواز تمني الموت و الدعاء به خوف ذهاب الدين

قال الله عز و جل مخبراً عن يوسف عليه السلام : { توفي مسلماً و أحقني بالصالحين } و عن مريم عليها السلام في قولها : { يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسياً منسياً } [و عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى يمر حتى بقبر الرجل فيقول فيقول : يا ليتني مكانه] فصل : قلت : لا تعارض بين هذه الترجمة و التي قبلها لما نبينه أما يوسف عليه السلام فقال قتادة : لم يتمن الموت أحد : نبي و لا غيره إلا يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النعم و جمع له الشمل : اشتاق إلى لقاء ربه عز و جل فقال : { رب قد آتيتني من الملك و علمتني { الآية فاشتاق إلى لقاء ربه عز و جل و قيل إن يوسف عليه السلام لم يتمن الموت و إنما تمنى الموافاة على الإسلام أي إذا جاء أجلي توفي مسلماً و هذا هو القول المختار في تأويل الآية عند أهل التأويل و الله أعلم

و أما مريم عليها السلام فإنما تمنى الموت لوجهين :

أحدهما : أنها خافت أن يظن بها السوء في دينها و تعير فيفتنها ذلك

الثاني : لتلا يقع قوم بسببها في البهتان و الزور و النسبة إلى الزنا و ذلك مهلك لهم و الله أعلم

و قد قال الله تعالى عز و جل في حق من افتري على عائشة رضي الله عنها { و الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم } و قال : { و تحسبونه هينا و هو عند الله عظيم } و قد اختلف في مريم عليها السلام : هل هي صديقة لقوله تعالى : { و أمه صديقة } أو نبيهة لقوله تعالى : { فأرسلنا إليها روحنا } و قوله : { إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك } الآية و عليه فيكون الافتراء عليها عظيم أعظم و البهتان في حقها أشد و فيه يكون الهلاك حقاً فعلى هذا الحد الذي ذكرناه من التأويلين يكون تمني الموت في حقها جائز و الله أعلم

و أما الحديث فإنما هو خبر : أن ذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين و ضعفه و خوف

ذهابه لا لضر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك من ذهاب ماله مما يحط به عنه خطاياهم و مما يوضح هذا المعنى و يبينه قوله عليه السلام : [اللهم إني أسألك فعل الخيرات و ترك المنكرات و حب المساكين و إذا أردت — و يروى أدرت — في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون] رواه مالك و مثل هذا قول عمر رضي الله عنه : اللهم قد ضعفت قوتي و كبرت سني و انتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع و لا مقصر فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض رحمه الله رواه مالك أيضا

و ذكر أبو عمر بن عبد البر في التمهيد و الاستذكار من حديث زاذان أبي عمر عن عليم الكندي قال : كنت جالسا مع أبي العباس الغفاري على سطح فرأى ناسا يتحملون من الطاعون فقال : يا طاعون خذني إليك يقوها ثلاثا فقال عليم : لم تقول هذا ؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه و سلم : [لا يتمنين أحدكم الموت فإنه عند ذلك انقطع عمله و لا يرد فيسعتب] فقال أبو عباس : [أنا سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : بادروا بالموت سنا : إمرة السفهاء و كثرة الشرط و بيع الحكم و استخفافا بالدم و قطيعة الرحم و نشنا يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليغيبهم بالقرآن و إن كان أقلهم فقها] و سيأتي لهذا مزيد بيان في الفتن — إن شاء الله تعالى

باب ذكر الموت و الاستعداد له

النسائي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكثروا ذكر هادم اللذات] يعني الموت أخرج ابن ماجه و الترمذي أيضا و أخرجه أبو نعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس [عن يحيى بن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكثروا من ذكر هادم اللذات قلنا يا رسول الله : و ما هادم اللذات ؟ قال : الموت]

ابن ماجه [عن ابن عمر قال : كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء رجل من الأنصاري فسلم على النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقا قال : فأبي المسلمين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكرا و أحسنهم لما بعلمهم استعدادا أولئك الأكياس] أخرج مالك أيضا و سيأتي في الفتن — إن شاء الله تعالى

الترمذي [عن شداد بن أوس قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم : الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله]

و روي عن أنس قال : [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكثروا ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب و يزهدي في الدنيا] و روي عنه عليه السلام أنه قال : [كفى بالموت واعظا و كفى بالموت مفرقا] و قيل له يا رسول الله : [هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكر الموت في اليوم و الليلة عشرين مرة] و قال السدي في قوله تعالى : { الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا } أي أكثركم للموت ذكرا و له أحسن استعدادا و منه أشد خوفا و حذرا

فصل : قال علماؤنا رحمه الله عليهم [قوله عليه السلام : أكثروا ذكر هادم اللذات الموت] كلام مختصر و جيز قد جمع التذكرة و أبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة و منعه من تمنيتها في المستقبل و زهده فيما كان منها يؤمل و لكن النفوس الراكدة و القلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعظ و تزويق الألفاظ و إلا ففي قوله عليه الصلاة و السلام : [أكثروا ذكر هادم اللذات] مع قوله تعالى : { كل نفس ذائقة الموت } ما يكفي السامع له و يشغل الناظر فيه و كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

(لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله و يودي المال و الولد)

(لم تغن عن هرمنز يوما خزائنه ... و الخلد قد حاولت عاد فما خلدوا)

(و لا سليمان إذ تجري الرياح له ... و الإنس و الجن فيما بينها ترد)

(أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد ؟)

(حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوما كما وردوا)

فصل : إذ ثبت ما ذكرناه فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية و التوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق و سعة و نعمة و محنة فإن كان في حال ضيق و محنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه فإنه لا يدوم و الموت أصعب منه أو في حال نعمة و سعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها و السكون إليها لقطعه عنها و لقد أحسن من قال :

(اذكر الموت هادم اللذات ... و تجهز لمصرع سوف يأتي)

و قال غيره :

(و اذكر الموت تجد راحة ... في إذكار الموت تقصير الآمل)

و أجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم و لا زمن معلوم و لا مرض معلوم و ذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعدا لذلك و كان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة : الرحيل الرحيل فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه فقيل : إنه قد مات فقال :

(ما زال يلهج بالرحيل و ذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال)

(فأصابه متيقظا متشمرا ... ذا أهبة لم تلهه الآمال)

و كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : و يحك يا يزيد من ذا يترضى عنك ربك الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون و تتوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ من الموت طالبه و القبر بيته و التراب فراشه و الدود أيسه و هو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر يكون حاله ؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشيا عليه

و قال التيمي : شينان قطعنا عني لذة الدنيا : ذكر الموت و ذكر الموقف بين يدي الله تعالى و كان عمر بن عبد

العزير رضي الله عنه يجمع العلماء فيتذاكرون الموت و القيامة و الآخرة فيكون حتى كأن بين أيديهم جنازة

و قال أبو نعيم : كان الثوري إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياما فإن سئل عن شيء قال : لا أدري لا أدري و قال

أسباط : ذكر عند النبي صلى الله عليه و سلم رجل فأنى عليه فقال عليه السلام : [كيف ذكره للموت ؟ فلم

يذكر ذلك عنه فقال : ما هو كما تقولون]

و قال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة و قناعة القلب و نشاط العبادة و من

نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويق التوبة و ترك الرضى بالكفاف و التكاسل في العبادة فتفكر يا مغرور في

الموت و سكرته و صعوبة كأسه و مرارته فيما للموت من وعد ما أصدقه و من حاكم ما أعدله كفى بالموت مقرحا

للقلوب و مبكيا للعيون و مفرقا للجماعات و هادما للذات و قاطعا للأمنيات فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم

مصرعك و انتقالك من موضعك و إذا نقلت من سعة إلى ضيق و خانك الصاحب و الرفيق و هجرك الأخ و

الصديق و أخذت من فراشك و غطائك إلى عرر و غطوك من بعد لين لحافك بتراب و مدر فيا جامع المال و المجتهد

في البنيان ليس لك و الله من مال إلا الأكفان بل هي و الله للخراب و الذهاب و جسمك للتراب و المآب فأين

الذي جمعته من المال ؟ فهل أتقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك و قدمت بأوزارك على من لا

يعذرك و لقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى : { و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة } أي : اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة و هي الجنة فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في الطين و الماء و التجر و البغي فكأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن و نحو هذا قول الشاعر :

(نصيبك مما تجمع الدهر كله : ... رداءان تلوى فيهما و حنوط)

و قال آخر :

(هي القناعة لا تبغي بما بدلا ... فيها النعيم و فيها راحة البدن)

(انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن و الكفن ؟)

فصل : و قوله عليه الصلاة و السلام : [الكيس من دان نفسه] دان حاسب و قيل : ذل قال أبو عبيد : دان نفسه : أي أذها و استعبدها يقال : دنته أدينه إذ ذلته فيدل نفسه في عبادة الله سبحانه و تعالى عملا يعده لما بعد الموت و لقاء الله تعالى و كذلك يحاسب نفسه على ما فرط من عمره و يستعد لعاقبة أمره بصالح عمله و التنصل من سالف زلله و ذكر الله تعالى و طاعته في جميع أحواله فهذا هو الزاد ليوم المعاد و العاجز ضد الكيس و الكيس : العاقل و العاجز : المقصر في الأمور فهو مع تقصيره في طاعة ربه و اتباع شهوات نفسه متمن على الله أن يغفر له و هذا هو الاعتزاز فإن الله تعالى أمره و نماءه و قال الحسن البصري : [إن قوما آهتتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا و ما لهم حسنة و يقول أحدهم : إني أحسن الظن بري و كذب لو أحسن الظن لأحسن العمل] و تلا قوله تعالى :

{ و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين } و قال سعيد بن جبیر : [الغرة بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية و يتمنى على الله المغفرة] و قال بقيقه بن الوليد : كتب أبو عمير الصوري إلى بعض إخوانه :

أما بعد [فإنك قد أصبحت تؤمل الدنيا بطول عمرك و تتمنى على الله الأمانى بسوء فعلك و إنما تضرب حديدا باردا و السلام] و سيأتي لهذا مزيد بيان في باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة إن شاء الله تعالى

في أمور تذكر الموت و الآخرة و يزهد في الدنيا

مسلم [عن أبي هريرة قال : زار النبي صلى الله عليه و سلم قبر أمه فبكى و أبكى من حوله فقال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي و استأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت] و عن ابن ماجه [عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كنت هيتكم عن زيارة القبور فزورها فإنها تزهد في الدنيا و تذكر الآخرة] فصل : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء مختلف فيه للنساء أما الشواب فحرام عليهن الخروج و أما القواعد فمباح هن ذلك و جائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال و لا يختلف في هذا إن شاء الله تعالى و على هذا المعنى يكون قوله عليه الصلاة و السلام : [زوروا القبور] عاما و أما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال و النساء فلا يجوز و لا يحل فيينا الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن و بالعكس فيرجع كل واحد من الرجال و النساء مأزورا مأجورا و هذا واضح و الله أعلم و قد رأى بعض أهل العلم : أن لعن النبي صلى الله عليه و سلم زوارات القبور كان قبل أن يرخص في زيارة القبور فلما رخص دخل الرجال و النساء و ما ذكرناه لك أولا أصح و الله أعلم

و روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خرج إلى المقبرة فلما أشرف عليها قال : يا أهل القبور أخبرونا عنكم أو نخبركم أما خبر من قبلنا : فالمال قد اقتسم و النساء قد تزوجن و المسكن قد سكنها قوم غيركم ثم قال :

أما والله لو استطاعوا لقالوا : لم نر زادا خيرا من التقوى
و لقد أحسن أبو العنابية حيث يقول :
(يعجبنا للناس لو فكروا ... و حاسبوا أنفسهم أبصروا)
(و عبروا الدنيا إلى غيرها ... فإنما الدنيا لهم معبر)
(لا فخر إلا فخر أهل التقى ... غدا إذا ضمهم المحشر)
(ليعلمن الناس أن التقى ... و البر كانا خير ما يدخر)
(عجبت للإنسان في فخره ... و هو غدا في قبره يقبر)
(ما بال من أوله نطفة ... و جيفة آخره يفجر)
(أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو و لا تأخير ما يجذر)
(و أصبح الأمر إلى غيره ... في كل ما يقضي و ما يقدر)

فصل : قال العلماء رحمة الله عليهم : ليس للقلوب أففع من زيارة القبور و خاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ و التذكر و التخويف و الترغيب و أخبار الصالحين فإن ذلك مما يلين القلوب و ينجع فيها

الثاني : ذكر الموت من ذكر هادم اللذات و مفرق الجماعات و ميمم البنين و البنات كما تقدم في الباب قبل يروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت لها : أكثرى من ذكر الموت يرق قلبك ففعلت ذلك فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي و يلين القلب القاسي و يذهب الفرح بالدنيا و يهون المصائب فيها

الثالث : مشاهدة الخضرين فإن في النظر إلى الميت و مشاهدة سكراته و نزعاته و تأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها و يطرد عن القلوب مسراتها و يمنع الأجفان من النوم و الأبدان من الراحة و يبعث على العمل و يزيد في الاجتهاد و التعب

يروى أن الحسن البصري دخل على مريض يعود فوجده في سكرات الموت فنظر إلى كربه و شدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم فقالوا له : الطعام يرحمك الله فقال : يا أهلاه عليكم بطعامكم و شرابكم فو الله لقد رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه و لزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه و يستصرخ بها على فتن الشيطان و إغوائه فإن انتفع بها فذاك و إن عظم عليه ران القلب و استحكمت فيه دواعي الذنب فزيارة قبور الموتى تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول و الثاني و الثالث و لذلك قال عليه السلام [زوروا القبور فإنما تذكر الموت و الآخرة تزهدي في الدنيا] فالأول : سماع بالأذن و الثاني : إخبار للقلب بما إليه المصير و قائم له مقام التخويف و التحذير في مشاهدة من احتضر و زيارة قبر من مات من المسلمين معاينة فلذلك كانا أبلغ من الأول و الثاني

قال صلى الله عليه و سلم : [ليس الخبر كالمعاينة] رواه ابن عباس و لم يروه أحد غيره إلا أن الاعتبار بحال الخضرين غير ممكن في كل الأوقات و قد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات و أما زيارة القبور : فوجودها أسرع و الانتفاع بها أليق و أجدر فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بأدائها و يحضر قلبه في إتقانها و لا يكون حظه منها الطواف على الأجداد فقط فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة و نعوذ بالله من ذلك بل يقصد

بزيارته : وجه الله تعالى و إصلاح فساد قلبه أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى و يجتنب المشي على المقابر و الجلوس عليها إذا دخل المقابر و يخلع نعليه كما جاء في أحاديث و يسلم إذا دخل المقابر و يخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول : [السلام عليكم دار قوم مؤمنين] كذلك كان عليه الصلاة و السلام يقول و كفى بالدار عن عمارها و سكانها و لذلك خاطبهم بالكاف و الميم لأن العرب تعبر بالمنزل عن أهله و إذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرف سلم عليه أيضا فيقول : عليك السلام روى الترمذي في جامعه : [أن رجلا دخل عبي النبي صلى الله عليه و سلم فقال : عليك السلام فقال صلى الله عليه و سلم : لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت] و ليآته من تلقاء وجهه في زيارته كمنخاطبته حيا و لو خاطبة حيا لكان الأدب استقباله بوجهه فكذلك ههنا ثم يعتبر بمن صار تحت التراب و انقطع عن الأهل و الأحباب بعد أن قاد الجيوش و العساكر و نافس الأصحاب و العشائر و جمع الأموال و الذخائر فجاءه الموت على وقت لم يحتسبه و هول لم يرتقبه فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه و درج من أقرانه الذين بلغوا الآمال و جمعوا الأموال كيف انقطعت آمالهم و لم تغن عنهم أموالهم و محا التراب محاسن وجوههم و افرقت في القبور أجزاءهم و ترمل بعدهم نساؤهم و شمل ذل اليتيم أولادهم و اقتسم غيرهم طريقهم و بلادهم و ليتذكر ترددهم في المآرب و حرصهم على نيل المطالب و اتخادعهم لمؤاتاة الأسباب و ركونهم إلى الصحة و الشباب و ليعلم أن ميله إلى اللهو و اللعب كميلهم و غفلته عما بين يديه من الموت الفظيع و الهلاك السريع كغفلتهم و أنه لا بد صائر إلى مصيرهم و ليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه و كيف تقدمت رجلاه و كان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله و قد سالت عيناه و يصول ببلاعة نطقه و قد أكل الدود لسانه و يضحك لمؤاتاة دهره و قد أبلى التراب أسنانه و ليتحقق أن حاله كحال و ماله كماله و عند هذا التذكر و الاعتبار يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية و يقبل على الأعمار الأخروية فيزهد في دنياه و يقبل على طاعة مولاه و يلين قلبه و يخشع جوارحه و الله أعلم

فصل : جاء في هذا الباب : حديث يعرض حديث هذا الباب و هو ما خرجه أبو بكر أحمد بن علي الخطيب في كتاب السابق و اللاحق و أبو حفص عمر بن شاهين في الناسخ و المنسوخ له في الحديث بإسناديهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : [حج بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم حجة الوداع فمر بي على عقبة الحجون و هو باك حزين مغتم فيكيت لبكائه صلى الله عليه و سلم ثم إنه طفر أي وثب فنزل فقال : يا حميراء استمسكي فاستندت إلى جنب البعير فمكث عني طويلا ثم عاد إلي و هو فرح مبتسم فقلت له : بأي أنت و أمي يا رسول الله نزلت من عندي و أنت باك حزين مغتم فيكيت لبكائك يا رسول الله ثم إنك عدت إلي و أنت فرح مبتسم فعن ماذا يا رسول الله ؟ فقال : مررت بقبر أمي آمنة فسألت الله ربي أن يحييها فأحيها فأمنت بي — أو قال — فأمنت و ردها الله عز و جل] لفظ الخطيب و قد ذكر السهيلي في الروض الأنف بإسناد فيه مجهولون [أن الله تعالى أحيا له أباه و أمه و آمن به]

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : و لا تعارض و الحمد لله لأن إحياءهما متأخر عن النهي بالاستغفار لهما بدليل حديث عائشة رضي الله عنها : أن ذلك كان في حجة الوداع و كذلك جعله ابن شاهين ناسخا لما ذكر من الأخبار قلت : و يبينه حديث مسلم [عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله : أين أبي ؟ قال : في النار فلما قفا دعاه قال : إن أبي و أباك في النار] و حديث سلمة بن يزيد الجعفي و فيه : [فلما رأى ما دخل علينا قال : و أمي مع أمكما] و هذا إن صح إحياءهما و قد سمعت : أن الله تعالى أحيا له عمه أبا طالب و آمن به و الله أعلم

وقد قيل : إن الحديث في إيمان أمه و أبيه موضوع يرده القرآن العظيم و الإجماع قال الله العظيم { و لا الذين يموتون و هم كفار } فمن مات كافرا لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة بل لو آمن عند المعينة لم ينتفع فكيف بعد الإعادة ؟ و في التفسير أنه عليه السلام قال : ليت شعري ما فعل أبوي فتزل { و لا تسأل عن أصحاب الجحيم } قال المؤلف : ذكره الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية و فيه نظر و ذلك أن فضائل النبي صلى الله عليه و سلم و خصائصه لم ترال تتوالى و تتابع إلى حين مماته فيكون هذا مما فضله الله تعالى و أكرمه به ليس إحياءهما و إيمانها بمنتهى عقلا و لا شرعا فقد ورد في الكتاب إحياء قتيل بني إسرائيل و إخباره بقاتله و كان عيسى عليه السلام يحيى الموتى و كذلك نبينا عليه الصلاة و السلام أحيا الله تعالى على يديه جماعة من الموتى و إذا ثبت هذا فما يمنع من إيمانها بعد إحيائهما زيادة في كرامته و فضيلته مع ما ورد من الخبر في ذلك و يكون ذلك خصوصا فيمن مات كافرا و قوله : فمن مات كافرا إلى آخر كلامه مردود بما روي في الخبر أن الله تعالى رد الشمس على نبيه عليه السلام بعد مغيبهما ذكر أبو جعفر الطحاوي و قال : إنه حديث ثابت فلو لم يكن رجوع الشمس نافعا و أنه لا يتجدد الوقت لما ردها عليه فكذلك يكون إحياء أبوي النبي صلى الله عليه و سلم نافعا لإيمانها و تصديقهما بالنبي صلى الله عليه و سلم و قد قبل الله إيمان قوم يونس و توبتهم مع تلبسهم بالعذاب فيما ذكر في بعض الأقوال و هو ظاهر القرآن و أما الجواب عن الآية فيكون ذلك قبل إيمانها و كونهما في العذاب و الله بغيبه أعلم و أحكم

باب منه و ما يقال عند دخول المقابر و جواز البكاء عندها

أبو داود [عن بريدة بن خصيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة] و ذكر النسائي [عن بريدة أيضا عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من أراد أن يزور قبرا فليزره و لا تقولوا هجرا] بمعنى سوءا و ذكر أبو عمر [من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فسلم عليه إلا رد عليه السلام] روي هكذا موقوفا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [فإن لم يعرفه و سلم : رد عليه السلام]

مسلم [عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : كيف أقول إذا دخلت المقابر ؟ قال : قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين و المسلمين و يرحم الله المستقدمين منا و المتأخرين و إنا إن شاء الله بكم لاحقون]
خرجه مسلم من حديث بريدة أيضا و زاد : [أسأل الله لنا و لكم العافية] و في الصحيحين [أنه عليه السلام مر بامرأة تبكي عند قبر لها فقال لها : اتقي الله و اصبري] الحديث

فصل : هذه الأحاديث تشتمل على فقه عظيم و هو جواز زيارة القبور للرجال و النساء و السلام عليها و ورد الميت السلام على من يسلم عليه و جواز بكاء النساء عند القبر و لو كان بكاءهن و زيارتهن حراما لنهى النبي صلى الله عليه و سلم المرأة و لزجرها زجرا يزجر مثله من أتى محرما و ارتكب منهيا و ما روي من نهى النساء عن زيارة القبور فغير صحيح و الصحيح ما ذكرت لك من الإباحة إلا أن عمل النساء في خروجهن مما لا يجوز لهن من تبرج أو كلام أو غيره فلذلك المنهى عنه و قد ذكرت لك في الباب قبل الفرق بين المتجالة و الشابة فتأمله و قد أبيض لك أن تبكي عند قبر ميتك حزنا عليه أو رحمة له مما بين يديه كما أبيض لك البكاء عند موته و البكاء عند العرب يكون البكاء المعروف و تكون النياحة و قد يكون معهما الصياح و ضرب الحدود و شق الجيوب و هذا محرم بإجماع العلماء و هو الذي ورد فيه الوعيد من قوله عليه السلام : [أنا بريء ممن حلق و سلق و حرق]

خرجه مسلم

و أما البكاء من غير نياحة فقد ورد فيه الإباحة عند القبر و عند الموت و هو بكاء الرأفة و الرحمة التي لا يكاد يخلو منها إنسان و قد بكى النبي صلى الله عليه و سلم لما مات ابنه إبراهيم و قال عمر : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة [النقع : ارتفاع الصوت و اللقلقة : تتابع ذلك و قيل : النقع : وضع التراب على الرأس و الله أعلم

باب المؤمن يموت بعرق الجبين

ابن ماجه [عن بريدة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : المؤمن يموت بعرق الجبين] خرجه الترمذي و قال فيه : حديث حسن

و روى [عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ارقبوا للميت عند موته ثلاثا : إن رشح جبينه و ذرفت عيناه و انتشر منخراه فهي رحمة من الله قد نزلت به و إن غط غطيظ البكر المخنوق و حمد لونه و ازبد شدقاها فهو عذاب من الله تعالى قد حل به] خرجه أبو عبد الله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول له و قال : قال عبد الله : إن المؤمن يبقى عليه خطايا من خطاياها فيجازف بها عند الموت أي يجازي فيعرق لذلك جبينه و قال بعض العلماء : إنما يعرق جبينه حياء من ربه لما اقترف من مخالفته لأن ما سفل منه قد مات و إنما بقيت قوى الحياة و حركاتها فيما علا و الحياء في العينين و ذلك وقت الحياء و الكافر في عمى عن هذا كله و الموحد المعذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد حل به و إنما العرق الذي يظهر لمن حلت به الرحمة فإنه ليس من ولي و لا صديق و لا بر إلا و هو مستحي من ربه مع البشرى و التحف و الكرامات قلت : و قد تظهر العلامات الثلاث و قد تظهر واحدة و تظهر اثنتان و قد شاهدنا عرق الجبين وحده و ذلك بحسب تفاوت الناس في الأعمال و الله أعلم و في حديث ابن مسعود : [موت المؤمن بعرق الجبين تبقى عليه البقية من الذنوب فيجازف بها عند الموت] أي يشدد لتمحص عنه ذنوبه

باب منه في خروج نفس المؤمن و الكافر

خرج أبو نعيم [من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن نفس المؤمن تخرج رشحا و إن نفس الكافر تسل كما تسل نفس الحمار و إن المؤمن ليعمل الخطيئة فيشدد عليه عند الموت ليكفر بما عنه و إن الكافر ليعمل الحسنة فيسهل عليه عند الموت ليجزى بها]

باب ما جاء أن للموت سكرات و في تسليم الأعضاء بعضها على بعض و فيما يصير

الإنسان إليه

وصف الله سبحانه و تعالى شدة الموت في أربع آيات :

الأولى : قوله الحق : { و جاءت سكرة الموت بالحق } {

الثانية : قوله تعالى : { و لو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت } {

الثالثة : قوله تعالى : { فلولا إذا بلغت الحلقوم }

الرابعة : { كلا إذا بلغت التراقي }

روى البخاري عن [عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت بين يديه ركوة أو علبه فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه و يقول لا إله إلا الله إن للموت سكرات ثم نصب يديه فجعل يقول : في الرفيق الأعلى حتى قبض و مالت يده] و خرج الترمذي عنها قالت : [ما أغبط أحدا بموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه و سلم]

و في البخاري عنها قالت : [مات رسول الله صلى الله عليه و سلم و إنه لبين حاقني و ذاقني فلا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد النبي صلى الله عليه و سلم] الحاقنة : المطمئن بين الترقوة و الحلق و الذاقنة : نقره الذقن و قال الخطابي : الذاقنة : ما تناوله الذقن من الصدر

و ذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده [عن جابر بن عبد عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تحدثوا عن بني إسرائيل فإنه كانت فيهم أعاجيب] ثم أنشأ يحدثنا قال : [خرجت طائفة منهم فأثروا على مقبرة من مقابرهم فقالوا لو صلينا ركعتين و دعونا الله يخرج لنا بعض الأموات يخبرنا عن الموت قال : ففعلوا فيبينما هم كذلك إذا طلع رجل رأسه بيضاء أسود اللون خلا شيء بين عينيه أثر السجود فقال يا هؤلاء ما أردتم إلي ؟ لقد مت منذ مائة سنة فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن فادعوا الله أن يعيدني كما كنت]

و روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن العبد ليعالج كرب الموت و سكرات الموت و إن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقني و أفارقك إلى يوم القيامة]

و ذكر الحاسبي في الرعاية : أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام : [يا خليلي كيف وجدت الموت ؟ قال : كسفود محمى جعل في صوف رطب ثم جذب قال : [أما إنا قد هونا عليك يا إبراهيم] و روى أن موسى عليه السلام لما صار روحه إلى الله قال له ربه : [يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالعصفور الحي حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح و لا ينجو فيطير و روى عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة تسلخ بيد القصاب و هي حية و قال عيسى بن مريم عليه السلام : [يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون عليكم هذه السكرة] يعني سكرات الموت

و روي : أن الموت أشد من ضرب بالسيوف و نشر بالمناشير و قرض بالمقاريض و ذكر أبو نعيم الحافظ في كتاب الحلية من [حديث مكحول عن وائلة ابن الأسقع عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : و الذي نفسي بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيوف] و سيأتي بكامله إن شاء الله تعالى و في الخبر من حديث حميد الطويل [عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم أن الملائكة تكتنف العبد و تحبسه و لولا ذلك لكان يعدو في الصحاري و البراري من شدة سكرات الموت] و جاءت الرواية بأن ملك الموت عليه السلام إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : [و عزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن] ذكره القاضي أبو بكر بن العربي

و عن شهر بن حوشب قال : [سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الموت و شدته ؟ فقال : إن أهون الموت بمنزلة حسكة كانت في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا و معها الصوف] ؟ قال شهر : و لما حضرت

عمرو بن العاص الوفاة قال له ابنه يا أبنا؟ إنك لتقول لنا : ليتني كنت ألقى رجلا عاقلا ليصا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد و أنت ذلك الرجل فصف لي الموت فقال : يا بني و الله كأن جنبي في تحت و كأني أتففس من سم إبرة و كأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي ثم أنشأ يقول :

(ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في تلال الجبال أرمي الوعولا)

و عن أبي ميسرة رفعه قال : [لو أن ألم شعرة من الميت وضع على أهل السماء و الأرض لماتوا جميعا] و أنشأوا :

(أذكر الموت و لا أرهبه ... إن قلبي لغليظ كالحجر)

(أطلب الدنيا كأني خالد ... و ورائي الموت يقفو بالأثر)

(و كفى بالموت فاعلم واعظا ... لمن الموت عليه قد قدر)

(و المنايا حوله ترصده ... ليس ينجي المرء منهن المفر)

و قال آخر :

(بينا الفتى مرح الخطا فرح بما ... يسع له إذ قيل : قد مرض الفتى)

(إذ قيل : بات بليلة ما نامها ... إذ قيل : أصبح مشخنا ما يرتجى)

(إذ قيل : أصبح شاخصا و موجها ... و معللا إذ قيل : أصبح قد قضى)

فصل : أيها الناس : قد آن للناسم أن يستيقظ من نومه و حان للغافل أن يتبته من غفلته قبل هجوم الموت بمرارة كأسه و قبل سكون حركاته و خمود أنفاسه و رحلته إلى قبره و مقامه بين أرماسه و روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أناس من أصحابه يوصيهم فكان فيما أوصاهم به أن كتب إليهم :

[أما بعد : فإني أوصيكم بتقوى الله العظيم و المراقبة له و اتحنوا التقوى و الورع زادا فإنكم في دار عما قريب تنقلب بأهلها و الله في عرضات القيامة و أهوالها يسألكم عن الفتيل و النكير فالله عباد الله اذكروا الموت الذي لا بد منه و اسمعوا قول الله تعالى : { كل نفس ذائقة الموت } و قوله عز و جل : { كل من عليها فان } و قوله عز و جل : { فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم } فقد بلغني — و الله أعلم — أنهم يضربون بسياط من نار و قال جل ذكره : { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون }

و قد بلغني — و الله أعلم و أحكم — أن ملك الموت رأسه في السماء و رجلاه في الأرض و أن الدنيا كلها في يد ملك الموت كالمصعة بين يدي أحدكم يأكل منها و قد بلغني — و الله أعلم و أحكم — أن ملك الموت ينظر في وجه كل آدمي ثلاثمائة نظرة و ستا و ستين نظرة و بلغني أن ملك الموت ينظر في كل بيت تحت ظل السماء ستمائة مرة و بلغني أن ملك الموت قائم وسط الدنيا فينظر الدنيا كلها برها و بحرها و جبالها و هي بين يديه كالبيضة بين رجلي أحدكم و بلغني أن لملك الموت أعوانا الله أعلم بهم ليس منهم ملك إلا لو أذن له أن يلتقم السموات و الأرض في لقمة واحدة لفعل و بلغني أن ملك الموت تفرغ منه الملائكة أشد من فزع أحدكم من السبع و بلغني أن حملة العرش إذا قرب ملك الموت من أحدهم ذاب حتى يصير مثل الشعرة من الفزع منه و بلغني أن ملك الموت ينتزع روح بني آدم من تحت عضوه و ظفره و عروقه و شعره و لا تصل الروح من مفصل إلى مفصل إلا كان أشد عليه من ألف ضربة بالسيف و بلغني أنه لو وضع و جمع شعرة من الميت على السموات و الأرض لأذاها حتى إذا بلغت الحلقوم و لي القبض ملك الموت و بلغني أن ملك الموت إذا قبض روح مؤمن جعلها في حريرة بيضاء و مسك أذفر و إذا قبض روح الكافر جعلها في خرقة سوداء في فخار من نار أشد نتنا من الجيف و في الخبر إذا دنت منية المؤمن نزل عليه أربعة من الملائكة : ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى و ملك يجذبها من

قدمه اليسرى و النفس تسلسل انسلال القطرة من السقاء و هم يجذبونها من أطراف البنان و رؤوس الأصابع و الكافر تسلسل روحه كالسفود من الصوف المبتل ذكره أبو حامد في كشف علوم الآخرة فمثل نفسك يا مغرور و قد حلت بك السكرات و نزل بك الأئين و الغمرات فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى و ماله قد احصى و من قائل يقول : إن فلانا تهل لسانه فلا يعرف جيرانه و لا يكلم إخوانه فكأنني أنظر إليك تسمع الخطاب و لا تقدر على رد الجواب ثم تبكي ابتك و هي كالأسيرة و تنضرع و تقول : حبيبي أبي من ليتمي من بعدك ؟ و من حاجتي ؟ و أنت و الله تسمع الكلام و لا تقدر على رد الجواب و أنشدوا :

(و أقبلت الصغرى تمرغ خدها ... على وجنتي حيناً و حيناً على صدري)

(و تخمش خديها و تبكي بحرقة ... تنادي : أبي إني غلبت على الصبر)

(حبيبي أبي من الليتامى تركتهم ... كأفراخ زغب في بعيد من الوكر ؟)

فخيل لنفسك يا ابن آدم إذا أخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك فغسلك الغاسل و ألبست الأكفان و أوحش منك الأهل و الجيران و بكت عليك الأصحاب و الإخوان و قال الغاسل أين زوجة فلان تحالله ؟ و أين الليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا ؟ و أنشدوا :

(ألا أيها المغرور ما لك تلعب ... تؤمل آمالا و موتك أقرب)

(و تعلم أن الحرص بحر مبعده ... سفينته الدنيا فإياك تعطب)

(و تعلم أن الموت ينقص مسرعا ... عليك يقينا طعمه ليس يعذب)

(كأنك توصي و الليتامى تراهم ... و أمهم الشكلى تنوح و تندب)

(تغص بحزن ثم تلطم وجهها ... يراها رجال بعد ما هي تحجب)

(و أقبل بالأكفان نحوك قاصد ... و يجشى عليك التراب و العين تسكب)

فصل : قول عائشة رضي الله عنها : [كانت بين يديه ركوة أو علية] العلية : قذح من خشب ضخم يحلب فيه قال ابن فارس في الجمل و قال الجوهري في الصحاح العلية محلب من جلد و الجمع علب و علاب و الملب الذي يتخذها

قال الكميت يصف خيلا :

(سقينا دما القوم طورا و تارة ... صبوحا لإقتار الجلود الملب)

و قيل : أسفله جلد و أعلاه خشب ملور مثل إطار الغربال و هو الدائر به و قيل : هو عس يحلب فيه و العس : القذح الضخم و قال اللغوي أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري في كتاب التلخيص له : و العلية : قذح للأعراب مثل العس و العس يتخذ من جنب جلد البعير و الجمع علاب و قوله : إن الموت سكرات أي شذائد و سكرة الموت شدته

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء و المرسلين و الأولين و المتقين فما لنا عن ذكره مشغولين ؟ و عن الاستعداد له متخلفين ؟ { قل هو نبياً عظيماً * أنتم عنه معرضون } قالوا : و ما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شذائد الموت و سكراته فله فائدتان إحداهما : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت و أنه باطن و قد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة و لا قلقا و يرى سهولة خروج روحه فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت و لا يعرف ما الميت فيه ؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم : شدة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى و هونيه على بعضهم قطع الخلق بشدة الموت الذي

يعانيه و يقاسيه الميت مطلقا لإخبار الصادقين عنه ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما يأتي ذكره الثانية : ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء : أحباب الله و أنبيأه و رسله فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ و هو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين كما قال في قصة إبراهيم : أما إنا قد هونا عليك فالجواب : [أن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل] كما قال نبينا عليه السلام خرج البخاري و غيره فأحب الله أن يتليهم تكميلا لفضلا لديه و رفعة لدرجاتهم عنده و ليس ذلك في حقهم نقصا و لا عذابا بل هو كما قال كمال رفعة مع رضاهم بمجمل ما يجزي الله عليهم فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد مع إمكان التخفيف و التهوين عليهم لرفع منازلهم و يعظم أجورهم قبل موته كما ابتلى إبراهيم بالنار و موسى بالخوف و الأسفار و عيسى بالصحارى و القفاز و نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم بالفقر في الدنيا و مقاتلة الكفار كل ذلك لرفعة في أحوالهم و كمال في درجاتهم و لا يفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم و مؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه و بين هذا

فصل : إن قال قائل : كل المخلوقات تجده السكرات ؟ قيل له : قال بعض العلماء قد وجب بحكم القول الصدق و الكلمة الحق أن الكأس مر المذاق و إن قد ذيق و يذاق و لكن ثم فريقان و تقديرات و أوزان و إن الله سبحانه و تعالى لما انفرد بالبقاء وحده لا شريك له و أجرى سنة الهلاك و القناء على الخلق دونه خالف في ذلك جل جلاله بين المخلوقات و فرق بين الحسوسات بحسب ما خالف بين المنازل و الدرجات فروع أرضي حيواني إنساني و غير إنساني و فوقه عالم روحاني و ملاً علواني رضواني كل يشرب من ذلك الكأس جرعته و بغض منه غصته قال الله تعالى : { كل نفس ذائقة الموت }

قال أبو حامد في كتاب الكشف علوم الآخرة : و ثبت ذلك في ثلاثة مواضع من كتابه و إنما أراد سبحانه بالموتات الثلاث للعالمين : فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت و المتحيز إلى العالم الملكوتي يموت و المتحيز إلى العالم الجبروتي يموت فالأول آدم و ذريته و جميع الحيوان على ضروره و الملكوتي و هو الثاني أصناف الملائكة و الجن و أهل الجبروت هم المصطفون من الملائكة

قال الله تعالى : { الله يصطفى من الملائكة رسلا و من الناس } فهم كروبيون و حملة العرش و أصحاب سر دقات الجلال كما و صفهم الله في كتابه و أثنى عليهم حيث يقول { و من عنده لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون } * يسبحون الليل و النهار لا يفترون { و هم أهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى : { لو أردنا أن نتخذ هوا لا اتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين } و هم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى و القرية و ليس زلفهم بمانع لهم من الموت قال ابن قسي : و كما تفرقت الطرق بهذه العوالم كذلك تفرقت طرقت الإحساسات في اجتراع الغصص و المرات فإحساس روحاني للروحانيات كما يجده النائم في سنته أو الغصة الوجيعة تغصه في نومته فيغص منها في حال رقدته و يتململ ذلك إلى حين يقتظه حتى إذا استيقظ لم يجده شيئا و وجد الإنس عنده فأزال ألمه و وافاه أمانه و نعمه و إحساس علوي قدسي كما يجده الوستان الروحانية و هو ما لا يدركه العقل البشري إلا توهمها و لا يبلغه التحصيل إلا تخيلا و توسما و إحساس بشري سفلي إنسي و جنني و هو ما لا يكاد أن توصف شدائده و غصصه فكيف و قد قالوا بالغصة الواحدة منه كآلف ضربة السيف فما عسى أن يعنت و يوصف و هذا الذي لا يمكن أن يعرف ؟ و الخلق أيضا في هذا الإحساس فرق يختلفون باختلاف المنازل و الطرق فالفرقة الإسلامية في نفسها لا تجد منه غير الإسلامية ثم الإسلامية نفسها لا تجد منه النبوية كما تجد التبعية ثم النبوية في ذاتها و مقاماتها إحساساتها

تختلف على حكم الكلمة و صدق القيا باختلاف التقديم و الفضيل قال الله تعالى { تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله و رفع بعضهم درجات } الآية و قد نهبت الخلة الذاتية عزت سبحانه و تقدست صفاتها على صفة ذلك عن إبراهيم و أشارت إلى تهوين الأمر عليه و تبين ما خفف عنه صلوات الله و سلامه عليه فقال : أما إنا قد هونا عليك يا إبراهيم و ما وصفه الحق جل جلاله بالهون فلا أهون منه كما ما كبره و عظمه فلا أكبر و لا أعظم منه و لا فرق بين أن قال : موتا هينا و ملكا عظيما كبيرا و قال في نعيم الجنة { و إذا رأيت ثم رأيت نعيما و ملكا كبيرا } فكما أنه لا أكبر من ملك الجنة كذلك لا هون من موت الخلة و الله أعلم

فصل : إذا ثبت ما ذكرناه فاعلم : أن الموت هو الخطب الأفظع و الأمر الأشنع و الكأس التي طعمها أكره و أبشع و أنه الحارث الأهدم للذات و الأقطع للراحات و الأجلب للكريهات فإن أمرا يقطع أو صالك و يفرق أعضاءك و يهدم أركانك هو الأمر العظيم و الخطب الجسيم و إن يومه هو اليوم العظيم

و يحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه أحضر طبيبا طوسيا فارسيا و أمر أن يعرض عليه ماؤه أي بوله مع مياه كثيرة لمرضى و أصحابه فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال : قولوا : لصاحب هذا الماء يوصي فإنه قد انحلت قواه و تداعت بنيته و لما استعرض باقي المياه أقيم فذهب فينس الرشيد من نفسه و أنشد :

(إن الطيب بطبه و دوائه ... لا يستطيع دفاع نحب قد أتى)

(ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان أبرأ مثله فيما مضى)

(مات المداوي و المداوى ... و الذي جلب الدواء أو باعه و من اشترى)

و بلغه أن الناس أرجفوا بموته فاستدعى حمرا و أمر أن يحمل عليه فاسترح فخذاه فقال : أنزلوني صدق المرجفون و دعا بأكفان فخير منها ما أعجبه و أمر فشق له قبر أمام فراشه ثم اطلع فيه فقال : ما أغنى عني مالية هلك عني سلطانية فمات من ليلته فما ظنك — رحمك الله — بنازل ينزل بك فيذهب روثك و بهاك و يغير منظرك و رؤياك و يمحو صورتك و جمالك و يمنع من اجتماعك و اتصالك و يردك بعد النعمة و النصرة و السطوة و القدرة و النخوة و العزة إلى حالة يبارد فيها أحب الناس إليك و أرحمهم بك و أعطفهم عليك فيحذفك في حفرة من الأرض قريبة أنحاؤها مظلمة أرجاؤها محكم عليك حجرها و صيدانها فتحكم فيك هوامها و ديدانها ثم بعد ذلك تمكن منك الأعدام و تختلط بالرغام و تصير ترابا توطأ بالأقدام و ربما ضرب منك الإناء فخار أو أحكم بك بناء جدار أو طلي بك محس ما أو موقد نار

كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه يأتي بإناء ماء ليشرب منه فأخذه بيده و نظر إليه و قال : الله أعلم كم فيك من عين كحيل و خذ أسيل

و يحكى أن رجلين تنازعا و تحاصما في أرض فأطلق الله عز وجل لبنة من حائط من تلك الأرض فقالت : يا هذان فيم تنازعا؟ و فيم تتخاصما؟ إني كنت ملكا من الملوك ملكت كذا و كذا سنة ثم مت و صرت ترابا فبقيت كذلك ألف سنة ثم أخذني خزاف — يعني فخارا فعمل مني إناء فاستعملت حتى تكسرت ثم عدت ترابا فبقيت ألف سنة ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة فجعلني في هذا الحائط فقيم تنازعكما و فيم تحاصمكما؟

قلت : و الحكايات في هذا المعنى و الوجود شاهد بتجديد ما دثر و تغيير ما غير و عن ذلك أن يكون الحفر و الإخراج و اتخاذ الأواني و بناء الأبراج و لقد كنت في زمن الشباب أنا و غيري نقل التراب على الدواب من مقبرة عندنا تسمى بمقبرة اليهود خارج قرطبة و قد اختلط بعظام من هناك و عظمهم و لحومهم و شعورهم و

أبشارهم إلى الدميم يصنعون القرمذ للشقف

قال علماؤنا رضوان الله عليهم : وهذا التغير إنما يحل بجسدك و ينزل بيدك لا بروحك لأن الروح لها حكم آخر و ما مضى منك فغير مضاع و تفرقة لا تمتنع من الاجتماع قال الله تعالى : { قد علمنا ما تنقص الأرض منهم و عندنا كتاب حفيظ } و قال : { فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى }

باب الموت كفارة لكل مسلم

أبو نعيم [عن عاصم الأحول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الموت كفارة لكل مسلم] ذكره القاضي أبو بكر ابن العربي في سراج المريدين له و قال : فيه حديث صحيح حسن فصل : إنما كان الموت كفارة لكل ما يلقاه الميت في مرضه من الآلام و الأوجاع و قد قال صلى الله عليه و سلم : [ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها] خرجه مسلم و في الموطأ [عن أبي هريرة : عن رسول الله صلى الله عليه و سلم : من يرد الله به خيرا يصب منه] و في الخبر المأثور يقول الله تعالى : [إني لا أخرج أحدا من الدنيا و أنا أريد أن أرحمه حتى أوفيه بكل خطيئة كان عملها : سقما في جسده و مصيبة في أهله و ولده و ضيقا في معاشه و إفتارا في رزقه حتى أبلغ منه مثاقيل الذر فإن بقي عليه شيء شددت عليه الموت حتى يفضي إلى كيوم ولدته أمه] قلت : و هذا بخلاف من لا يجبه و لا يرضاه كما في الخبر يقول الله تعالى : [وعزتي و جلالتي لا أخرج من الدنيا عبدا أريد أن أعذبه حتى أعذبه حتى أوفيه بكل حسنة عملها بصحة في جسده و سعة في رزقه و رغد في عيشه و أمن في سربه حتى أبلغ منه مثاقيل الذر فإن بقي له شيء هونت عليه الموت حتى يفضي إلي و ليس له حسنة يتقي بها النار]

قلت : و في مثل هذا المعنى ما خرجه أبو داود بسند صحيح فيما ذكر أبو الحسن بن الحصار [عن عبيد بن خالد السلمى و كانت له صحبة عن النبي صلى الله عليه و سلم : موت الفجأة أخذة أسف للكافر] و رواه أيضا مرسلا و روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : إنها راحة للمؤمن و أخذه أسف للكافر و روى عن ابن عباس أن داود عليه السلام مات فجأة يوم السبت و عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : [إذا بقي على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت و شدائده درجته من الجنة و إن الكافر إذا كان قد عمل معروفًا في الدنيا هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم يصير إلى النار] ذكره أبو محمد عبد الحق

و خرج أبو نعيم الحافظ [من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : نفس المؤمن تخرج رشحا و إن نفس الكافر تسل كما تسل نفس الحمار و إن المؤمن ليعمل الخطيئة فيشدد بها عليه عند الموت ليكفر بها عنه و إن الكافر ليعمل الحسنة فيسهل عليه عند الموت ليجزي بها] ذكره أبو محمد عبد الحق و ذكر ابن المبارك أن أبا الدرداء رضي الله عنه — قال : [أحب الموت اشتياقا إلى ربي و أحب المرض تكفيرا لخطيئتي و أحب الفقر تواضعا لربي عز و جل]

باب لا يموت أحد و هو يحسن بالله الظن و في الخوف من الله تعالى

مسلم [عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول قبل وفاته بثلاثة أيام : لا يموتن أحدكم إلا و هو يحسن بالله] أخرجه البخاري

و ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله و زاد : فإن قوما قد أرادهم سوء ظنهم بالله فقال لهم تبارك و تعالی : { و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين }
ابن ماجه [عن أنس أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل على شاب و هو في الموت فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله يا رسول الله و أخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في مثل هذا الوطن إلا إعطاء الله ما يرجو و أمنه مما يخاف] ذكره ابن أبي الدنيا أيضا و خرج الترمذي و قال : هذا حديث حسن غريب

و قد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبي صلى الله عليه و سلم مرسلا
و ذكر الترمذي الحكيم في الأصل السادس و الثمانين من نوادر الأصول : [حدثنا يحيى بن حبيب عن عدي قال حدثنا بشر المفضل عن عوف عن الحسن أنه قال : بلغني عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : قال ربكم عز و جل : لا أجمع على عبدي خوفين و لا أجمع له أمنين فمن خافي في الدنيا أمنته في الآخرة و من أمني في الدنيا أخفته في الآخرة]

[حدثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال أبو مالك الجنبي عن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما يذكر من مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : يا موسى إنه لن يلقاني عبد لي في حاضر القيامة إلا فتشته عما في يديه إلا ما كان من الورعين فإني أستحيهم و أجلبهم فأكرمهم فأدخلهم الجنة بغير حساب] فمن استحي من الله تعالى في الدنيا مما صنع استحي الله تعالى من تفتيشه و سؤاله و لم يجمع عليه حياءين كما لا يجمع عليه خوفين

فصل : حسن الظن بالله تعالى ينبغي أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه في حال الصحة و هو أن الله تعالى يرحمه و يتجاوز عنه و يغفر له و ينبغي لجلسائه أن يذكروه بذلك حتى يدخل في قوله تعالى : [أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء]

و روى حماد بن سلمة [عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يموتن أحدكم حتى يحسن الظن بالله فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة]
و روى عن ابن عمر أنه قال : [عمود الدين و غاية مجده و ذروة سنامه : حسن الظن بالله فمن مات منكم و هو يحسن الظن بالله : دخل الجنة مدلا] أي منبسطا لا خوف عليه
و قال عبد الله بن مسعود : [و الله الذي لا إله إلا غيره لا يحسن أحد الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه و ذلك أن الخير بيده]

و ذكر ابن المبارك قال أخبر سفيان : أن ابن عباس قال : إذا رأيتم بالرجل الموت فبشروه ليلقي ربه و هو حسن الظن به و إذا كان حيا فخوفوه و قال الفضيل : الخوف أفضل من الرجاء ما كان العبد صحيحا فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف

و ذكر ابن أبي الدنيا : قال حدثنا يحيى بن عبد الله بن البصري قال حدثنا سوار بن عبد الله قال حدثنا المعتمر قال : قال أبي حين حضرته الوفاة : يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله و أنا أحسن الظن به
قال : و حدثنا عمرو بن محمد الناقد قال : حدثنا خلف بن خليفة عن حصين عن إبراهيم قال : كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت حتى يحسن ظنه بربه عز و جل
و قال ثابت البناني : كان شاب به رهق فلما نزل به الموت انكبت عليه أمه و هي تقول : يا بني قد كنت أحذرك

مصروعك هذا قال : يا أماه إن لي ربا كثير المعروف و إني لأرجو اليوم أن لا يعدمني بعض معروفه فقال ثابت :

C يحسن ظنه بالله في حاله تلك

و قال عمر بن ذر يوما في كلامه — و عنده ابن أبي داود و أبو حنيفة — أتعذبنا و في أجوافنا الوحيد ؟ لا أراك تفعل اللهم اغفر لمن لم يزل على مثل حال السحرة في الساعات التي غفرت لهم فإنهم قالوا : { آمننا برب العالمين } فقال أبو حنيفة : رحمك الله القصص بعدك حرام و كان يحيى بن زكريا إذا لقي عيسى بن مريم عليهما السلام :

عيس و إذا لقيه عيسى تبسم فقال له عيسى : تلقاني عابسا كأنك آيس ؟ فقال له يحيى : تلقائي ضاحكا كأنك آمن ؟ فأوحى الله تبارك و تعالى إليهما : إن أحبكما إلي أحسنكما ظنا بي ذكره الطبري

و قال زيد بن أسلم : [يؤتي بالرجل يوم القيامة فيقال : انطلقوا به إلى النار فيقول : يا رب فأين صلاتي و صيامي ؟ فيقول الله تعالى : اليوم أقنطك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي من رحمتي]

و في التنزيل : قال : { و من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون } و سيأتي لهذا الباب مزيد بيان في باب سعة رحمة الله و عفوه يوم القيامة إن شاء الله تعالى

باب تلقين الميت لا إله إلا الله

مسلم [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله] و ذكر ابن أبي الدنيا [عن زيد بن أسلم قال : قال عثمان بن عفان : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يجتهد له بها موته إلا كانت زاده إلى الجنة] و قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : احضروا موتاكم و لقنوهم : لا إله إلا الله و ذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون

و ذكر أبو نعيم [من حديث مكحول عن إسماعيل بن عياش بن أبي معاذ عتبة ابن حميد عن مكحول عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه و سلم : احضروا موتاكم و لقنوهم لا إله إلا الله و بشروهم بالجنة فإن الحكيم من الرجال يتحير عند ذلك المصراع و إن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصراع و الذي نفسي بيده لمعانية ملك الموت أشد من ألف ضربة السيف و الذي نفسي بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عرق منه على حياله] غريب من حديث مكحول لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل

فصل : قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون و ذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيحتم له بالسعادة و ليدخل في عموم [قوله عليه السلام من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة]

أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه صححه أبو محمد عبد الحق و لينه المحتضر على ما يدفع به الشيطان فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عليه عقيدته على ما يأتي

فإذا تلقهنا المحتضر و قالها مرة واحدة فلا تعاد عليه ليلا بفجر و قد كره أهل العلم الإكثار من التلقين و الإلحاح عليه إذا هو تلقهنا أو فهم ذلك عنه قال ابن المبارك : لقنوا الميت لا إله إلا الله فإذا قالها فدعوه قال أبو محمد عبد الحق : و إنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لج عليه بما أن يتبرم و يضجر و يتقلها الشيطان عليه فيكون سببا لسوء الخاتمة و كذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به قال الحسن بن عيسى : قال لي ابن المبارك : لقيت — يعني الشهادة — و لا تعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان و المقصود أن يموت الرجل و ليس في قلبه إلا الله عز و جل لأن المدار على القلب و عمل القلب هو الذي ينظر فيه و تكون النجاة به و أما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها و لا عبر عندها

قلت : و قد يكون التلقين بذكر الحديث عند الرجل العالم كما ذكر أبو نعيم أن أبا زرعة كان في السوق و عنده أبو حاتم و محمد بن سلمة و المنذر بن شاذان و جماعات من العلماء فذكروا حديث التلقين فاستحيوا من أبي زرعة فقالوا : يا أصحابنا تعالوا نتذاكر الحديث فقال محمد بن سلمة : حدثنا ضحاک بن مخلد حدثنا أبو عاصم قال حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب و لم يجاوزه و قال أبو حاتم : حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب و لم يجاوزه و الباقوت سكوت فقال أبو زرعة و هو في السوق : [حدثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب عن كثير بن مرة الحضرمي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة] و في رواية [حرمه الله على النار] و توفي رحمه الله

و يروى عن عبد الله بن شبرمة أنه قال : دخلت مع عامر الشعبي على مريض نعوذ فوجدناه لما و رجل يلقيه الشهادة و يقول له : لا إله إلا الله و هو يكثر عليه فقال له الشعبي ارفق به فكلم المريض و قال : إن تلقني أو لا تلقني فإني لا أدعها ثم قرأ { و ألزمهم كلمة التقوى و كانوا أحق بما و أهلها } فقال الشعبي الحمد لله الذي نجى صاحبنا هذا و قيل للجنيذ رحمه الله عند موته : قل لا إله إلا الله فقال ما نسيتته فأذكره قلت : لا بد من تلقين الميت و تذكيره الشهادة و إن كان على غاية من التيقظ فقد ذكر أبو نعيم الحافظ [من حديث مكحول عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه و سلم : احضروا موتاكم و لقنوهم : لا غله إلا الله و بشروهم بالجنة فإن الحكيم من الرجال و النساء يتحير عند ذلك المصرع و إن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع و الذي نفسي بيده لمعانية ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف و الذي نفسي بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حياله] و روي عن أبي هريرة قال : [سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : حضر ملك الموت رجلا قال : فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا إله إلا الله فغفر له بكلمة الإخلاص] ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المختصرين بإسناده و خرجه الطبراني بمعناه و سيأتي في آخر أبواب الجنة إن شاء الله

باب من حضر الميت فلا يلغو و ليتكلم بخير و كيف الدعاء للميت إذا مات و

في تغميضة

مسلم [عن أم سلمة رضي الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذ حضرتم المريض أو الميت فقولوا : خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون] قالت : [فلما مات أبو سلمة أتيت النبي صلى الله عليه و سلم فقلت يا رسول الله : إن أبا سلمة قد مات فقال : قولي : اللهم اغفر لي و له و أعقبني منه عقي حسنة قالت : فقلت فأعقبني الله من هو خير منه : رسول الله صلى الله عليه و سلم] و عنها قالت : [دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم على أبي سلمة و قد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة و ارفع درجته في المهديين و اخلفه في عقبه في الغابرين و اغفر لنا و له يارب العالمين و افسح له في قبره و نور له فيه]

فصل : قال علماؤنا : قوله عليه السلام : [إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا] أمر نذب و تعليم بما يقال عند المريض أو الميت و إخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك و لهذا استحباب العلماء : أن يحضروا الميت

الصالحون و أهل الخير حالة موته ليذكروه و يدعوا له و لمن يخلفه و يقولوا خيرا فيجتمع دعاؤهم و تأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت و من يصاب به و من يخلفه

باب منه و ما يقال عند التغميض

ابن ماجه [عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا حضرتم مؤتاكم فأغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح و قولوا خيرا فإن الملائكة تؤمن على ما قال أهل الميت] و ذكر الخرائطي أبو بكر محمد بن جعفر قال : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال حدثنا إسماعيل ابن علي عن هشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أم الحسن قالت : كنت عند أم سلمة فجاءها إنسان فقال فلان بالموت فقالت لها انطلقى فإذا احتضر فقولي السلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين و خرج من حديث سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن بكر ابن عبد الله المزني قال : إذا غمضت الميت فقل بسم الله و على ملة رسول الله صلى الله عليه و سلم و سيح ثم تلا سفيان { و الملائكة يسبحون بحمد ربهم } قال أبو داود : تغميض الميت إنما هو بعد خروج الروح سمعت محمد ابن أحمد المقرئ قال سمعت أبا ميسرة و كان رجلا عابدا يقول : غمضت جعفر المعلم و كان رجلا عاقلا في حالة الموت فرأيت في منامي يقول : أعظم ما كان علي تغميضك قبل أن أموت

باب ما جاء أن الميت يحضر الشيطان عند موته و جلساؤه في الدنيا و ما يخاف

من سوء الخاتمة

[روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان الواحد عن يمينه و الآخر عن شماله فالذي عن يمينه على صفة أبيه يقول له : يا بني إني كنت عليك شفيقا و لك محبا و لكن مت على دين النصرارى فهو خير الأديان و الذي على شماله على صفة أمه تقول له : يا بني إنه كان بطني لك و عاء و ثديي لك سقاء و فخذي لك و طاء و لكن مت على دين اليهود و هو خير الأديان] ذكره أبو الحسن القاسمي في شرح رسالة ابن أبي زيد له و ذكر معناه أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة و إن عند استقرار النفس في التراقي و الارتفاع تعرض عليه الفتن و ذلك أن إبليس قد أفنذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة و استعملهم عليه و وكلهم به فيأتون المرء و هو على تلك الحال فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحياء الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا كالأب و الأم و الأخ و الأخت و الصديق الحميم فيقولون له : أنت تموت يا فلان و نحن قد سبقناك في هذا الشأن فمت يهوديا فهو الدين المقبول عند الله تعالى فإن انصرم عنهم و أتي جاءه آخرون و قالوا له : مت نصرانيا فإنه دين المسيح و قد نسخ الله به دين موسى و يذكرون له عقائد كل ملة فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه و هو معنى قوله تعالى : { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة } أي لا تزغ قلوبنا عند الموت و قد هديتنا من قبل هذا زمانا فإذا أراد الله بعبده هداية و تشبثا بجاءته الرحمة و قيل : هو جبريل عليه السلام فيطرد عنه الشياطين و يمسح الشحوب عن وجهه فيبتسم الميت لا محالة و كثير من يرى متبسما في هذا المقام فرحا بالبشير الذي جاءه من الله تعالى فيقول : يا فلان أما تعرفني ؟ أنا جبريل و هؤلاء أعداؤك من الشياطين مت على الملة الحنيفة و الشريعة الجليلة فما شيء أحب إلى الإنسان و أفرح منه بذلك الملك و هو قوله تعالى : { و هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب } ثم يقبض عند الطعنة على ما يأتي و قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حضرت وفاة أبي أحمد و بيدي الخرقة لأشد لحبيه فكان يغرق ثم يفيق و يقول

بيده : لا بعد لا بعد فعل هذا مرارا فقلت له : يا أبت أي شيء ما يبدو منك ؟ فقال : إن الشيطان قائم بمخداتي
عاض على أنامله يقول : يا أحمد فتني و أنا أقول لا بعد لا حتى أموت
قلت : و قد سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بنصر الإسكندرية يقول : حضرت أخا شيخنا أبي
جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة و قد احتضر فقيل له : قل : لا إله إلا الله فكان يقول : لا لا فلما
أفاق ذكرنا له ذلك فقال : أتاني شيطانان عن يميني و عن شمالي يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان و
الآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان فكنت أقول لهما : لا لا إلي تقولان هذا ؟ و قد كتبت بيدي في كتاب
الترمذي و النسائي عن النبي صلى الله عليه و سلم [إن الشيطان يأتي أحدكم عند موته فيقول : مت يهوديا مت
نصرانيا] فكان الجواب لهما لا لكما

قلت : و مثل هذا عن الصالحين كثير يكون الجواب للشيطان لا لمن يلقيه الشهادة و قد تصفحت كتاب الترمذي
أبي عيسى و سمعت جميعه فلم أقف على هذا الحديث فيه فإن كان في بعض النسخ فالله أعلم
و أما كتاب النسائي فسمعت بعضه و كان عندي كثير منه فلم أقف عليه و هو نسخ فيحتمل أن يكون في بعضها
و الله أعلم

و روى ابن المبارك و سفیان عن ليث عن مجاهد قال : ما من ميت إلا تعرض عليه أهل مجالسه الذين كان يجالس إن
كان أهل له فاهل هو و إن كانوا أهل ذكر فأهل ذكر

و قال الربيع بن شبرة بن معبد الجهني و كان عابدا بالبصرة : أدركت الناس بالشام و قيل لرجل : يا فلان قل : لا
إله إلا الله قال : اشرب و اسقني و قيل لرجل بالأهواز يا فلان قل : لا إله إلا الله فجعل يقول : ده يازده دوازده
تفسيره : عشرة أحد عشرة اثنا عشر كان هذا الرجل من أهل العمل و الديوان فغلب عليه الحساب و الميزان ذكر
هذا التفسير أبو محمد عبد الحق قال الربيع : و قيل لرجل ها هنا بالبصرة يا فلان قل : لا إله إلا الله فجعل يقول :
(يا رب قاتلة يوما و قد لغبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب)

قال الفقيه أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن النجاد : هذا رجل قد استدلتته امرأة إلى الحمام فدلها إلى منزله فقال له
عند الموت

و ذكر أبو محمد عبد الحق هذه الحكاية في كتاب العاقبة له فقال : و هذا الكلام له قصة و ذلك أن رجلا كان
واقفا يزاء داره و كان بابه يشبه باب حمام فمرت به جارية لها منظر و هي تقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟
فقال لها : هذا حمام منجاب و أشار إلى داره فدخلت الدار و دخل وراءها فلما رأت نفسه معه في دار و ليس بحمام
علمت أنه خدعها أظهرت له البشر و الفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة و في تلك الدار و قالت له : يصلح
معنا ما نطيب به عيشنا و تقر به أعيننا فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين و بكل ما تشتهين فخرج و تركها
في الدار و لم يقفلها و تركها محلولة على حالها و مضى فأخذ ما يصلح لهما و رجع و دخل الدار فوجدها قد
خرجت و ذهبت و لم يجد لها أثرا فهام الرجل بها و أكثر الذكر لها و الجزع عليها و جعل يمشي في الطرق و الأزقة
و هو يقول :

(يا رب قاتلة يوما قد لغبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب)

و إذا بجارية تجاوبه من طاق و هي تقول :

(هلا جعلت لها لما ظفرت بما ... حرزا على الدار أو قهلا على الباب)

فراذ هيمنانه و اشتد هيجانه و لم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر فنعوذ بالله من الخن و الفتن

قلت : و مثل هذا في الناس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا و اهتم بها أو سبب من أسبابها حتى لقد حكى لنا أن بعض السماسرة جاء عنده الموت فقيل له : قل : لا إله إلا الله فجعل يقول : ثلاثة و نصف أربعة و نصف غلبت عليه السمسرة

و لقد رأيت بعض الحساب و هو في غاية المرض يعقد بأصابه و يحسب و قيل لآخر : قل : لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار القلانية أصلحوا فيها كذا و الجنان القلاني اعملوا فيها كذا و قيل لآخر : قل : لا إله إلا الله فجعل يقول : عقلك الحمارة و قيل لآخر : قل : لا إله إلا الله فجعل يقول : البقرة الصفراء غلب عليه حبها و الاشتغال بها نسأل الله السلامة و الممات على الشهادة بمنه و كرمه

و لقد حكى ابن ظفر في كتاب النصائح له قال : كان يونس بن عبيد [رحمه الله تعالى — بزازا و كان لا يبيع في طرفي النهار و لا في يوم غيم فأخذ يوما ميزانه فرضه بين حجرين فقيل له : هلا أعطيت الصانع فأصلح فساده ؟ فقال : لو علمت فيه فسادا لما أبقيت من مالي قوت ليلة قيل له : فلم كسرتة ؟ قال : حضرت الساعة رجلا احتضر فقلت له : قل : لا إله إلا الله فامعص فألححت عليه فقال : ادع الله لي فقال : هذا لسان الميزان على لساني يمنعني من قولها قلت : أفما يمنعك إلا من قولها ؟ فقال : نعم قلت : و ما كان عملك به ؟ قال : ما أخذت و لا أعطيت به إلا حقا في علمي غير أني كنت أقيم المدة لا أفنقه و لا أحبته فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتي بميزان و يزن بيده و إلا لم يبايعه

باب ما جاء في سوء الخاتمة و ما جاء أن الأعمال بالخواتيم

مسلم [عن أبي هريرة عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن الرجل ليعمل الزمان الطويل يعمل أهل الجنة ثم يجتم له عمله بعمل أهل النار و إن الرجل ليعمل الزمان الطويل يعمل أهل النار ثم يجتم له بعمل أهل الجنة] و في البخاري [عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن العبد ليعمل عمل أهل النار و إنه من أهل الجنة و يعمل عمل أهل الجنة و إنه من أهل النار و إنما الأعمال بالخواتيم] قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة — أعادنا الله منها — لا تكون لمن استقام ظاهره و صلح باطنه ما سمع بهذا و لا علم به — الحمد لله — و إنما تكون لمن كان له فساد في العقل أو إصرار على الكبائر و إقدام على العظائم فرما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة و يختطفه عند تلك الدهشة و العياذ بالله ثم العياذ بالله أو يكون ممن كان مستقيما ثم يتغير عن حاله و يخرج عن سننه و يأخذ في طريقه فيكون ذلك سببا لسوء خاتمه و شؤم عاقبته كإبليس الذي عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة و بلعام بن باعوراء الذي آتاه الله آياته فانسلك منها بخلوده إلى الأرض و اتبع هواه و برصيصا العابد الذي قال الله في حقه { كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر }

و يروى : أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدا للأذان و الصلاة و عليه بهاء العبادة و أنوار الطاعة فرقي يوما المنارة على عادته للأذان و كان تحت المنارة دار لنصراني ذمي فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها و ترك الأذان و نزل إليها و دخل الدار فقالت له : ما شأنك ما تريد ؟ فقال : أنت أريد قالت : لماذا ؟ قال لها : قد سلبت لبي و أخذت بمجامع قلبي قالت : لا أجيبك إلى ريبة قال لها : أتزوجك قالت له : أنت مسلم و أنا نصرانية و أي لا يزوجني منك قال لها : أنتصر قالت : إن فعلت أفعل فتتصر ليتزوجها و أقام معها في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلا هو بدينه و لا هو بما فعوذ بالله ثم فعوذ بالله من سوء العاقبة

و سوء الخاتمة

و يروى أن رجلا علق بشخص و أحبه فتمنع عنه و اشتد نفااره فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش فلم تزل
الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعود فأخبر بذلك ففرح و اشتد فرحه و سروره و انجلي عنه بعض ما كان يجده
فلما كان في بعض الطريق رجع و قال : و الله لا أدخل مداخل الريب و لا أعرض بنفسى لمواقع التهم فأخبر بذلك
البائس المسكين فسقط في يده و رجع إلى أسوأ ما كان به و بدت علامات الموت و أمارته عليه
قال الراوي : فسمعته يقول و هو في تلك الحال :

(سلام ياراحة العليل ... و برد ذل الدنف النحيل)

(رضاك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل)

قال : فقلت له : يا فلان اتق الله تعالى فقال : قد كان ما كان فقمتم عنه فما تجاوزت باب داره حتى سمعت صيحة
الموت قد قامت عليه فنعود بالله من سوء العاقبة و شؤم الخاتمة

قال المؤلف رحمه الله : [روى البخاري عن سالم عن عبد الله قال : كان كثيرا ما كان النبي يلف : لا و مقلب
القلوب] و معناه يصرفها أسرع من مر الريح على اختلاف في القبول و الرد و الإرادة و الكراهية و غير ذلك من
الأوصاف و في التنزيل { و اعلموا أن الله يحول بين المرء و قلبه } قال مجاهد : المعنى يحول بين المرء و عقله حتى لا
يدري ما يصنع بيانه : { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب } أي عقل و اختار الطبري أن يكون ذلك إخبارا من
الله تعالى بأنه أملك لقلوب العباد منهم و أنه يحول بينهم و بينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله
عز و جل

و قالت عائشة رضي الله عنها : [كان النبي صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على
طاعتك فقلت : يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى ؟ قال : و ما يؤمني يا عائشة و قلوب
العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلب]

قال العلماء : و إذا كانت الهداية إلى الله مصروفة و الإستقامة على مشيئة موقوفة و العاقبة مغيبة و الإرادة غير
مغالبة فلا تعجب بإيمانك و عملك و صلاتك و صومك و جميع قربك فإن ذلك و إن كان من كسبك فإنه من
خلق ربك و فضله الدار عليك و خيره فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره و ربما سلب عنك فعاد
قلبك من الخير أخلى من جوف البعير فكم من روضة أمست و زهرها يانع عميم فأصبحت و زهرها يابس هشيم
إذ هبت عليها الريح العقيم كذلك العبد يمسي و قلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح و هو بمعصية مظلم سقيم
ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم

روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه قال : [اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد
فعلقت امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها فطفت الجارية كلما
دخل بابا أغلقته دونه حتى أفضت إلى امرأة وضيئة أي جميلة عندها غلام و باطية حمر فقالت : إني و الله ما دعوتك
للشهادة و لكن دعوتك لتقع علي أو تشرب من هذه الخمر كأسا أو تقتل هذا الغلام قال فاستقني من هذه الخمر ؟
فسقته كأسا قال : زيدوني فلم يزل يشرب حتى وقع عليها و قتل الغلام فاجتنبوا الخمر فإنه و الله لا يجتمع الإيمان
و إيمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه]

و يروى أن رجلا أسيرا مسلما و كان حافظا للقرآن خص بخدمة راهبين فحفظا منه آيات كثيرة لكثرة تلاوته
فأسلم الرهبان و تصر المسلم و قيل له : ارجع إلى دينك فلا حاجة لنا فيمن لم يحفظ دينه قال : لا أرجع إليه أبدا

فقتل و في الخبر قصته و الحكايات كثيرة في هذا الباب نسأل الله السلامة و الممات على الشهادة و أنشد بعضهم :

(قد جرت الأقلام في ذي الورى ... بالختم من أمر الحكيم العليم)

(فمن سعيد و شقي و من ... مثر من المال و عار عديم)

(و من عزيز رأسه في السها ... و من ذليل وجهه في التخوم)

(و من صحيح شيدت أركانه ... و آخر واهي المباني سقيم)

(كل على منهاجه سالك ... ذلك تقدير العزيز العليم)

و قال الربيع : سئل الشافعي عن القدر فأنشأ يقول :

(ما شئت كان و إن لم أشأ ... و ما شئت إن لم تشأ لم يكن)

(خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى و المسن)

(على ذا مننت و هذا خذلت ... و هذا أغنت و ذا لم تعن)

(فمنهم شقي و منهم سعيد ... و منهم قبيح و منهم حسن)

(و منهم غني و منهم فقير ... و كل بأعماله مرتهن)

بالب ما جاء في رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد في الخبر : أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لملك الموت عليه السلام : أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لي و الله رسل كثيرة من الإعلال و الأمراض و الشيب و الموموم و تغير السمع و البصر فإذا لم يتذكر من نزل به و لم يتب فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول و نذيراً بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول و أنا النذير الذي ليس بعدي نذير فما من يوم تطلع فيه شمس و لا تغرب إلا و ملك الموت ينادي : يا أبناء الأربعين هذا وقت أخذ الزاد أذهانكم حاضرة و أعضائكم قوية شداد يا أبناء الخمسين قد دنا و قت الأخذ و الحصاد با ابتاء الستين نسيتم العقاب و غفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير } أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير { ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب روضة المشتاق و الطريق إلى الملك الخلاق

و في البخاري [عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال : أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة] يقال أعذر في الأمر أي بالغ فيه أي اعذر غاية الإعذار بعبد و أكبر الأعذار إلى بني آدم بعنة الرسل إليهم ليتم حجته عليهم { و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً } و قال { و جاءكم النذير } قيل : هو القرآن و قيل : هو الرسل إليهم و عن ابن عباس و عكرمة و سفيان و وكيع و الحسين بن الفضل و الفراء و الطبري قالوا : هو الشيب فإنه يأتي في سن الاكتهال فهو علامة لمفارقته سن الصبا الذي هو سن اللهو و اللعب قال :

(رأيت الشيب من نذير المنايا ... لصاحبه و حسبك من نذير)

و قال آخر :

(تقول النفس غير لون هذا ... عساك تطيب في عمر يسير)

(فقلت لها المشيب نذير عمري ... و لست مسودا وجه النذير)

و قال آخر :

(و قائلة : تخضب فالغواني ... نوافر عن معاينة النذير)
و للقاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمة الله تعالى عليه :
(كم تصابي و قد علاك المشيب ... و تعلمى جهلا و أنت اللبيب)
(كيف تلهو و قد أتاك نذير ... و شباك الحمام منك قريب)
(يا مقيما قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب)
(إن للموت سكرة فارتقبها ... لا يداويك إذا أتتك طبيب)
(ثم تنوى حتى تصير رهينا ... ثم يأتيك دعوة فتجيب)
(بأمور المعاد أنت عليم ... فاعلمن جاهدا لها يا أريب)
(و تذكر يوما تحاسب فيه ... إن من يذكر الممات ينيب)
(ليس في ساعة من الدهر إلا ... للمنايا عليك فيها رقيب)
(كل يوم ترميك منها بسهم ... إن يخطيء يوما فسوف يصيب)
و له أيضا رضي الله عنه :
(ثلاث و ستون قد جزئها ... فماذا تؤمل أو تنتظر)
(و حل عليك نذير المشيب ... فما ترعوي أو فما تزدجر)
(تمر الليالي مرا حنصينا ... و أنت على ما ألى مستمر)
(فلو كنت تعقل ما ينقضي ... من العمر لاعتضت خيرا بشر)
(فما لك — ويحك — لا تستعد إذن ... لدار المقام و دار المقر)
(أترغب عن فجأة للمنون ... و تعلم أن ليس منها وزر)
(فإما إلى الجنة أزلقت ... و إما إلى سقر تسعر)
و للفقهاء أبي عبد الله محمد بن أبي ذمينة رحمة الله تعالى آمين :
(الموت في كل حين ينشر الكفنا ... و نحن في غفلة عما يداوينا)
(لا تطمئن إلى الدنيا و بهجتها ... و إن توشحت من أثوابها الحسنات)
(أين الأحبة و الجيران ما فعلوا ... أين الذين همو كانوا لنا سكنا)
(سقاها الموت كأسا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا)
و روي أن ملك الموت دخل على داود عليه السلام فقال من أنت ؟ فقال من لا يهاب الملوك و لا تمتع منه القصور
و لا يقبل الرشاق قال : فإذا أنت ملك الموت قال : نعم قال : أتيتني و لم أسعد بعد ؟ قال يا دواد أين فلان قريبك
؟ أين فلان جارك ؟ قال : مات قال أما كان لك في هؤلاء عبرة لتسعد و قيل : النذير الحمى و منه قوله صلى الله
عليه و سلم [الحمى نذير الموت] أي رائد الموت
قال الأزهري معناه أن الحمى رسول الموت أي كأنها تشعر بقدمه و تنذر بمجيئه و قيل : موت الأهل و الأقارب و
الأصحاب و الإخوان و ذلك إنذار الرحيل في كل وقت و أوان و حين و زمان
قال :

(و أراك تحملهم و لست تردهم ... و كأني بك قد حملت فلم ترد)
و قيل : كمال العقل الذي تعرف به حقائق الأمور و يفصل به بين الحسنات و السيئات فالعقل يعمل لآخرته و

يرغب فيما عند ربه فهو نذير و النذير بمعنى الإنذار و الإعذار قريب يعضه من بعض و أكبر الإعذار إلى بني آدم بعثه الرسل إليهم ثم الشيب أو غيره كما بينا و جعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترك الدنيا و هو سن الإنابة و الخشوع و الاستسلام لله و ترقب المنية و لقاء الله ففيه إعذار بعد إعذار و إنذار بعد إنذار الأول : بالنبي صلى الله عليه و سلم

و الثاني : بالشيب و ذلك عند كمال الأربعين قال الله تعالى : ﴿ و بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾ فذكر عز و جل : أن من بلغ الأربعين فقط أن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه و على والديه و يشكرها قال مالك رحمه الله : أدركت أهل العلم ببلدنا و هم يطلبون الدنيا و يخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس

تنبيه : هذا الباب هو الأصل في إعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى و كان هذا لطفًا بالخلق و لتنفيد القيام عليهم بالحق

حكى عن بعض العلماء أنه كان يميل إلى الراحة و كثيرا و كان يخلو في بستان له بأصحابه فلا يأذن لأحد سواهم فبينما هو في البستان إذ رأى رجلا يتخلل الشجر فغضب و قال : من أذن لهذا و جاء الرجل فجلس أمامه و قال : ما ترى في رجل ثبت عليه الحق فزعم أن له مدافعة تدفعه عنه ؟ فقال ينظره الحاكم بقدر ما يرى قال السائل : قد ضرب له الحاكم أجلا فلم يأت بمنفعة و لا أقلع عن اللدد و المدافعة : قال يقضي عليه قال فإن الحاكم رفق به و أمهله أكثر من خمسين سنة فأطرق الفقيه و تحدر عرق و جهه و ذهب السائل ثم إن العالم أفاق من فكرته فسأل عن السائل فقال البواب : ما دخل أحد عليكم و لا خرج من عندكم أحد : فقال لأصحابه انصرفوا فما كان يرى بعد ذلك إلا مجلس يذكر فيه العلم

فصل : و قد رأيت أن أصل هذه الحكاية حكايات في الشيب على سبيل الوعظ و التذكير و التخويف و التحذير حكى عن بعض المترفين أنه رفض ما كان فيه بغتة على غير تدريج فستل عن السبب فقال ما معناه : كانت لي أمة لا يزيدني طول الاستمتاع منها إلا غراما بما فقلت شعرها يوما فإذا فيه شعرتان بيضاوان فأخبرتها فارتاعت : و قالت أرني فأريتها : فقالت { جاء الحق و زهق الباطل } ثم نظرت إلي و قالت : أعلم أنه لو لم تفترض علي طاعتك لما أويت إليك فدع لي ليلي أو نهارى لأتزود فيه لآخرتي فقلت لا و لا كرامة فغضبت و قالت : أتحوّل بيني و بين ربي و قد آذني بلقائه ؟ اللهم بدل حبه لي بغضا قال : فبت و ماشيء أحب إلي من بعدها عني و عرضتها للبيع فأتاني من أعطاني فيها ما أريد فلما عزم على البيع بكت فقلت أنت أردت هذا فقالت : و الله ما اخترت عليك شيئا من الدنيا هل لك إلى ما هو خير لك من ثمني ؟ قلت : و ما هو قالت : تعتقي لله عز و جل فإن أملك لك منك لي و أعود عليك منك علي فقلت : قد فعلت فقالت : أمضى الله صفقتك و بلغك أضعاف أملك و تزهدت فبغضت إلى الدنيا و نعيمها

و قال عبد الله بن أبي نوح : رأيت كهلا بمسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يزال يتفرض الغبار عن جدرانته فسألت عنه فقيل إنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه و أن له أولادا و موالى و نعمة موفورة و أنه اطلع في امرأته فصرخ و جن و لزم المسجد كما ترى و إذا أراد أهله أن يأخذوه ليداووه و يصونه هرب منهم و عاذ بالقبر المكرم فتركوه فرقبته نهارا فلم أرمنه اختلالا و رقبته ليلا فلما ذهب جنح من الليل خرج من المسجد فثبته حتى أتى البقيع فقام يصلي و يبكي حتى قرب طلوع الفجر فجلس يدعو و جاءت إليه دابة لا أدري أشاة أم ظبية أم غيرها فقامت عنده و تفاجت فالتقم ضرعها فشرب ثم مسح ظهرها و قال : اذهبي بارك الله فيك فولت تمزع

فانسللت فسبقتة إلى المسجد فأقمت ليالي أخرج بخروجه إلى البقيع و لا يشعر بي و سمعته يقول في مناجاته : اللهم إنك أرسلت إلي و لم تأذن لي فإن كنت قد رضيتني فائذن لي و إن لم ترضني فوفقني لما يرضيك قال : فلما حان رحيلي أتيتته مودعا فتهجمني فقلت : أنا صاحبك منذ ليال بالبيع أصلي بصلاتك و أؤمن على دعائك قال : هل اطلعت على ذلك أحدا ؟ قلت : لا قال : انصرف راشدا قلت : ما الرسول الذي أرسل إليك ؟ قال : اطلعت في المرأة فرأيت شبيبة في و جهي فعلمت أنها رسول الله إلي فقلت : ادع لي قال : ما أنا أهل لذلك ولكن تعال تنسول إلى الله برسوله فقممت معه تجاه القبر المكرم فقال ما حاجتك ؟ قلت : العفو فدعا دعاء خفيفا فأمنت ثم مال على جدار القبر فإذا هو ميت فتحييت عنه حتى فطن الناس له و جاء أولاده و مواليه فاحتملوه و جهزوه و صليت عليه فيمن صلى

و يقال أن ملكا من ملوك اليونان استعمل على ملبسه أمة أديها بعض الحكماء فألبسته يوما ثيابه و أرتته المرأة فرأى في وجهه شعرة بيضاء فاستدعى بالمقراض و قصها فأخذتها الأمة فقبلتها و وضعتها على كفها و أصغت بأذنها إليها فقال لها الملك : إلى أي شيء تصغين ؟ فقالت : إنني أسمع هذه المتبلاة بفقد كرامة قرب الملك تقول قولاً عجيباً قال : ما هو ؟ قالت : لا يجترى لساني على النطق به قال : قولي و أنت آمنة ما لزمته الحكمة قالت ما معناه أنها تقول : أيها الملك المسلط إلى أمد قريب إني خفت بطشك بي فلم أظهر حتى عهدت إلى بناتي أن يأخذن بناري و كأنك بمن قد خرجن عليك فإما أن يعجلن إلفتك بك و إما أن يقصن شهوتك و قوتك و صحتك حتى تعد الموت غنما فقال : اكتبي كلامك فكتبته فدبره ثم نبذ ملكه في حديث و هذا المقصود منه و في معناه قيل :

(و زائرة للشيب لاحت بمفرقي ...)

فبادرتها خوفا من الحنف بالنتف)

(فقالت : على ضعفي استطعت و وحدتي ...)

رويدك حتى يلحق الجيش من خلفي) و في الاسرائيليات أن إبراهيم الخليل لما رجع من تقريب ولده إلى ربه عز و جل رأت سارة في لحيته شعرة بيضاء و مان عليه السلام أول من شاب على وجه الأرض فأنكرتها و أرتته إياها فجعل يتأملها و أعجبتته و كرهتا سارة و طالبته بإزالتها فأبى فاتاه ملك الموت فقال : السلام عليك يا إبراهيم و كان اسمه ابرام فزاده في اسمه هاء و الهاء في السريانية للنفخيم و التفضيم ففرح بذلك فقال : أشكر إلهي و إله كل شيء فقال له الملك : إن الله قد صيرك معظما في أهل السموات و أهل الأرض و قد و سمك بسمه أهل الوقار في اسمك و في خلقك أم اسمك فإنك تدعى في أهل السماء و أهل الأرض إبراهيم و أما خلقك فقد أنزل وقارا و نورا على شعرك فأخبر سارة بما قال له الملك و قال هذا الذي كرهته نور و وقار قالت : إني كارهة له قال : لكني أحبه اللهم زدني نورا و وقارا فأصبح و قد ابيضت لحيته كلها

و في الآثار النبوية : من شاب شبيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة

و روي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [إن الله ليستحي أن يعذب ذا شبيبة] و الأخبار في هذا الباب كثيرة و كذلك الشعر اكفينا منه بما ذكرنا و بالله توفيقنا

و قال أعرابي في الشيب و الخضاب :

(يا برؤس من فقد الشباب و غيرت ... منه مفارق رأسه بخضاب)

(يرجو غصارة وجهه بخضابه ... و مصير كل عمارة لخراب)

(شيثان لو بكت الدماء عليهما ... عيناى حتى يؤذنا بذهاب)
(إني وجدت أجل كل مصيبة ... فقد الشباب و فرقة الأحباب)

باب متى تنقطع معرفة العبد من الناس و في التوبة و بيانهما و في التائب من هو ؟
ابن ماجه [عن أبي موسى الأشعري : سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم متى تنقطع معرفة العبد من الناس ؟
قال : إذا عاين]

فصل : قوله : إذا عاين يريد إذا عاين ملك الموت أو الملائكة و الله أعلم و هو معنى قوله عليه السلام في الحديث
الآخر : [إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] خرجه الترمذي أي عند الغرغرة و بلوغ الروح الخلقوم يعاين ما
يصير إليه من رحمة أو هوان و لا تنفع حينئذ توبة و لا إيمان كما قال تعالى في محكم البيان { فلم يك ينفعهم إيمانهم
لما رأوا بأسنا } و قال تعالى { و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت
الآن } فالتوبة مبسوطة للعبد حتى يعاين قابض الأرواح و ذلك عند غرغرة بالروح و إنما يغرغر به إذا قطع الوتين
فشخص من الصدر إلى الخلقوم فعندها المعاينة و عندها حضور الموت فاعلم ذلك فيجب على الإنسان أن يتوب
قبل المعاينة و الغرغرة و هو معنى قوله تعالى : { ثم يتوبون من قريب }
و قال ابن عباس و السدي : من قريب : قبل المرض و الموت
و قال أبو مجلز و الضحاك و عكرمة و ابن زيد و غيرهم : قبل المعاينة للملائكة و السوق و أن يغلب المرء على
نفسه و لقد أحسن محمود الوراق حيث قال : (قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات و قبل حبس الألسن)
(بادر به غلق النفوس فإنها ... ذخر و غنم للمنيب المحسن)

قال علماؤنا — رحمه الله — و إنما صحت منه التوبة في هذا الوقت لأن الرجاء باق و يصح الندم و العزم على
ترك الفعل و قيل : المعنى : يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار و المبادرة في الصحة أفضل و ألحق
لأمله من العمل الصالح و البعد كل البعد الموت و أما ما كان قبل الموت فهو قريب عن الضحاك أيضا
و عن الحسن : لما هبط إبليس قال : بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده قال الله تعالى [و عزتي لا
أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم تغرغر نفسه]

و التوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين لقوله تعالى : { و توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون } و
قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا }
و لها شروط أربعة : الندم بالقلب و ترك المعصية في الحال و العزم على أن لا يعود إلى مثلها و أن يكون ذلك حياء
من الله تعالى و خوفا منه لا من غيره فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة و قد قيل : من شروطها :
الاعتراف بالذنب و كثرة الاستغفار الذي يحل عقد الإصرار و يثبت معناه في الجنان لا التلفظ باللسان فأما من قال
بلسانه : أستغفر الله و قلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار و صغيرته لا حقة بالكبائر

و روي عن الحسن البصري أنه قال : استغفارنا يحتاج إلى استغفار
قال الشيخ المؤلف رحمه الله : هذا مقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبا على الظلم
حريصا عليه لا يقلع و البحة في يده زاعما أنه يستغفر من ذنبه و ذلك استهزاء منه و استخفاف و هو ممن اتخذ
آيات الله هزوا و في التنزيل { و لا تتخذوا آيات الله هزوا }
و روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلا قد فرغ من صلاته و قال : اللهم إني أستغفرك و أتوب إليك سريرا
فقال له : يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين و توبتك تحتاج إلى توبة قال يا أمير المؤمنين : و ما

التوبة ؟ قال : إسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة و لتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم إلى أهلها و إتاب النفس في الطاعة كما أذابتها في المعصية و إذافة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية و أن تزين نفسك في طاعة الله كما زينتها في معصية الله و البكاء بدل كل ضحك ضحكته
و قال أبو بكر الوراق : التوبة أن تكون نصوحا و هو أن تضيق عليك الأرض بما رحبت و تضيق عليك نفسك كالثلاثة الذين خلفوا

و قيل : التوبة النصوح هي رد المظالم و استحلال الخصوم و إدمان الطاعات
و قيل : غير هذا و بالجملة فالذنوب التي يثاب منها إما كفر أو غيره فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على سالف كفره و ليس مجرد الإيمان نفس التوبة و غير الكفر : إما حق الله و إما حق لغيره فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك غير أن منها ما لم يكتف الشرح فيها بمجرد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة و الصوم و منها ما أضاف إليه كفارة كالحث في الإيمان و غير ذلك و أما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها فإن لم يوجدوا تصدق عنهم و من لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعساره فعفو الله مأمول و فضله مبذول فكم ضمن من التبعات و بدل من السيئات بالحسنات و عليه أن يكثر من الأعمال الصالحات و يستغفر لمن ظلمه من المؤمنين و المؤمنات فهذا الكلام في حقيقة التوبة

و قد روي مرفوعا في صفة التائب من [حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه و سلم قال و هو في جماعة من أصحابه أندرون من التائب ؟ قالوا : اللهم لا قال : إذا تاب العبد و لم يرض خصماؤه فليس بتائب و من تاب و لم يغير لباسه فليس بتائب و من تاب و لم يغير مجلسه فليس بتائب و من تاب و لم يغير نفقته و زينته فليس بتائب و من تاب و لم يغير فراشه و وساده فليس بتائب و من تاب و لم يوسع خلقه فليس بتائب و من تاب و لم يوسع قلبه و كفه فليس بتائب] ثم قال النبي صلى الله عليه و سلم : [فإذا تاب عن هذه الخصال فذلك تائب حقا]
قال العلماء : إرضاء الخصوم يكون بأن يرد عليهم ما غصبهم من مال أو خانهم أو غلبهم أو اغتلبهم أو خرق أعراضهم أو شتمهم أو سبهم فيرضيهم بما استطاع و يتحللهم من ذلك فإن انقضوا فإن كان لهم قبله مال رده إلى الورثة و إن لم يعرف الورثة تصدق به عنهم و يستغفر لهم بعد الموت و يدعو : اللهم عوض الذم و الغيبة لا خلاف في هذا و أما تغيير اللباس فهو أن يستبدل ما عليه من الحرام بالحلال و إن كانت ثياب كبر و خيلاء استبدلها بأطمار متوسطة و تغيير المجلس : هو بأن يترك مجالس اللهو و اللعب و الجهال و الأحداث و يجالس العلماء و مجالس الذكر و الفقراء و الصالحين و يتقرب إلى قلوبهم بالخدمة و بما يستطيع و يصافحهم و تغيير الطعام بأن يأكل الحلال و بجانب ما كان من شبهة أو شهوة و يغير أوقات أكله و لا يقصد اللذيذ من الأطعمة و تغيير النفقة هو بترك الحرام و كسب الحلال و تغيير الزينة بترك التزين في الأثاث و البناء و اللباس و الطعام و الشراب و تغيير الفراش بالقيام بالليل عوض ما كان يشغله بالبطالة و الغفلة و المعصية كما قال الله تعالى : { تتجافى جنوبهم عن المضاجع } و تغيير الخلق هو بأن ينقلب خلقه من الشدة إلى اللين و من الضيق إلى السعة و من الشكاسة إلى السماحة و توسيع القلب يكون بالإففاق ثقة بالقيام على كل حال و توسيع الكف بالسخاء و الإيثار بالعطاء هكذا يبدل كل ما كان فيه كشرب الخمر بكسره و سقي اللبن و العسل و الزنا بكفالة الأرملة و اليتيمة و تجهيزهما و يكون مع ذلك نادما على ما سلف منه و متحسرا على ما ضيع من عمره فإذا كملت التوبة به على هذه الخصال التي ذكرنا و الشروط التي بينا تقبلها الله بكرمه و أنسى حافظيه و بقاع الأرض خطاياهم و ذنوبه قال الله تعالى : { و إني لغفار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى }

و الأصل في هذه الجملة : حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الرجل الذي قتل مائة نفس ثم سأل : هل له من توبة ؟ فقال له العالم : و من يحول بينك و بينها انطلق إلى أرض بني فلان فإن بها ناسا صالحين يعبدون الله فاعبد الله معهم و لا تعد إلى أرضك فإنها أرض سوء

الحديث أخرجه مسلم في الصحيح و في مسند أبي داود الطيالسي : [حدثنا زهير بن معاوية عن عبد الكريم الجزري عن زياد و ليس بابن أبي مريم عن عبد الله بن مغفل قال : كنت مع أبي و أنا إلى جنبه عند عبد الله بن مسعود فقال له أبي : أسمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : أن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله عز و جل تاب الله عليه ؟ فقال : نعم سمعته يقول : الندم توبة]

و في صحيح مسلم و البخاري [عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه]

و روى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له [عن أبي هريرة رضي الله عنه و أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم جلس على المنبر ثم قال : و الذي نفسي بيده ثلاث مرات ثم سكت فأكب كل رجل منا يكي حزيناً ليمين رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال : ما من عبد يؤدي الصلوات الخمس و يصوم رمضان و يجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى أنها لتصفق ثم تلا { إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم } [

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : فدل القرآن على أن في الذنوب كبائر و صغائر خلافاً لمن قال : كلها كبائر حسب ما بيناه في سورة النساء و أن الصغائر كاللمسة و النظرة تكفر باجتناب الكبائر قطعاً بوعده الصدق و قوله الحق لا أنه يجب عليه ذلك لكن بضميمة أخرى إلى الاجتناب و هي إقامة الفرائض كما نص عليه الحديث و مثله : ما رواه مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الصلوات الخمس و الجمعة إلى الجمعة و رمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر] على هذا جماعة أهل التأويل و جماعة الفقهاء و هو الصحيح في الباب و أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة منها و الإقلاع عنها كما بينا و قد اختلف في تعيينها ليس هذا موضع ذكرها و سيأتي في القصاص و في أبواب النار جملة منها إن شاء الله تعالى

باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر و أنه يصعد بها

ابن المبارك قال : أخبرنا حيوة قال : أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك يا ولي الله الله يقرئك السلام ثم نزع بهذه الآية { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم }

و قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام و عن البراء بن عازب في قوله : { تحيتهم يوم يلقونه سلام } فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه لا يقبض روحه حتى يسلم عليه

و قال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لقر عينه

ابن ماجه [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وأبشري روح وربحان ورب راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان بن فلان

فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة و أبشري بروح و ريحان و رب راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجني أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجني ذميمة و أبشري بجحيم و غساق لآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر] خرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة

قال : حدثنا شبابة بن يسار سوار عن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة و هذا إسناد صحيح ثابت اتفق على رجاله البخاري و مسلم ما عدا ابن أبي شيبة فإنه لمسلم وحده خرجه عبد بن حميد أيضا [عن ابن أبي ذئب قال محمد بن عمر فحدثني سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الميت تحضرة الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة] فذكره مسلم [عن أبي هريرة قال : إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها]

قال حماد : فذكر من طيب ريحها و ذكر المسك : قال و يقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك و على جسد كنت تعميرنه فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل و إن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : و ذكر من نتنها و ذكر لعنا و يقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض قال : فيقال : انطلقوا بها إلى آخر الأجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله صلى الله عليه و سلم ربطة كانت عليه على أنفه هكذا

البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه و من كره لقاء الله كره الله لقاءه] فقالت عائشة — أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت فقال : [ليس ذاك و لكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان من الله و كرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله و أحب لقاءه و إن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله و عقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله و كره لقاءه] أخرجه مسلم و ابن ماجه من حديث عائشة و ابن المبارك من حديث أنس رضي الله عنه

فصل : هذا الحديث و إن كان مفسرا مبينا فقد روي عن عائشة رضي الله عنها في تفسير هذا الحديث أنها قالت لشريح بن هاني و قد سألهما عما سمعه من أبي هريرة و ليس بالذي تذهب إليه و لكن إذا شخص البصر و حشرج الصدر و اقشعر الجلد تشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب لقاءه و من كره لقاء الله كره لقاءه خروجه مسلم

و روي عنها أيضا في تفسيره أنها قالت إذا أراد الله بعبد خيرا قيض به قبل موته بعام ملكا فسدده و وقفه حتى يقول الناس : مات فلان خيرا ما كان فإذا أحضر و رأى ثوابه تموع نفسه أو قال تموعت نفسه فذلك حين أحب لقاء الله و أحب لقاءه و إذا أراد الله بعبد شرا قيض له قبل موته بعام شيطانا فأضله و فتنه حتى يقول الناس مات فلان شرا ما كان فإذا أحضر و رأى ما ينزل به من العذاب تبلغ نفسه فذلك حين يكره لقاء الله و كره لقاءه و خرج الترمذي في أبواب القدر [عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله عز و جل إذا أراد بعبد خيرا استعمله فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت] قال أبو عيسى هذا حديث صحيح

قال الشيخ المؤلف رحمه الله و منه الحديث الآخر : [إذا أراد الله بعبد خيرا غسله قالوا يا رسول الله و ما غسله ؟

قال : يفتح الله له عملا صالحا بين يدي موته متى يرضى عنه من حوله [

و عن قتادة في تفسير قوله تعالى : { فروح و ريحان } قال : الروح : الرحمة و الريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت

و روى ابن جريج [عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال لعائشة : في تفسير قوله تعالى : { حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون } إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا : نرجعك إلى الدنيا ؟ فيقول إلى دار الهموم و الأحران ؟ و يقول قدما إلى الله عز و جل و أما الكافر فيقولون : نرجعك إلى الدنيا ؟ فيقول : { ارجعون * لعلي أعمل صالحا { الآية و أما قوله في الحديث حتى ينتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى فالعنى أمر الله و حكمه و هي السماء السابعة التي عندها سدرة المنتهى التي إليها يصعد ما يعرج به من الأرض و منها يهبط ما ينزل به منها] كذا في صحيح مسلم من حديث الإسراء

و في حديث البارء أنه ينتهي به إلى السماء و سيأتي إن شاء الله تعالى

و قد كنت تكلمت مع بعض أصحابنا القضاة ممن له علم و نظر و معنا جماعة من أهل النظر فيما ذكر أبو عمر بن عبد البر من قوله : { الرحمن على العرش استوى } فذكرت له هذا الحديث فما كان منه إلا أن بادر إلى عدم صحته و لعن رواته و بين أيدينا رطب نأكله فقلت له : الحديث صحيح خرجه ابن ماجه في السنن و لا ترد الأخبار بمثل هذا القول بل تتأول و تحمل على ما يليق من التأويل و الذين رووا لنا الصلوات الخمس و أحكامها فإن صدقوا هنا صدقوا هناك و إن كذبوا هناك و لا تحصل الثقة بأحد منهم فيما يرويه

و قد خرج الزوار في مسنده [من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك و ضبائر ريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين و يقال : { يا أيها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية } مرضيا عنك إلى روح الله و كرامته فإذا خرجت روحه و وضعت على ذلك المسك و الريحان و طبت عليها الحريرة و ذهب بها إلى عليين و إن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمره فتتزع روحه انتزاعا شديدا و يقال : أيها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى هوان الله و عذابه فإذا خرجت روحه و وضعت على تلك الجمره و يطوى عليها المسح و يذهب بها إلى سجين]

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : فقوله في روح المؤمن : يذهب بها إلى عليين هو معنى ما جاء في حديث أبي هريرة المتقدم إلى السماء التي فيها الله و الأحاديث يفسر بعضها بعضا و لا إشكال

و ذكرته عند بعض من يتسم بالعلم و الفقه و القضاء فلم يكن منه إلا أن بادر بلعن من رواه و نقله فظن منه التجسيم فقلت له : الحديث صحيح و الذين رووه هم الذين جاؤوا بالصلوات الخمس و غيرها من أمور الدين فإن كذبوا هنا كذبوا هنالك و إن صدقوا هنا صدقوا هنالك و التأويل مزيل ما توهمته و كان في ذلك كلام و حضره جماعة من أهل الفقه و النظر فذكرت له ما ذكرناه و ذكرت له حديث التنزيل و قوله تعالى : { الرحمن على العرش استوى } و ما تأوله العلماء في ذلك و سيأتي من ذلك في هذا الكتاب ما فيه كفاية لمن اهتدى و الحمد لله و أما قوله في حديث محمد بن كعب أول الباب إذا استنقعت نفس المؤمن فقال شمر لا أعرفه و سمعت الزهري يقول : يعني إذا اجتمعت في فيه حين تريد أن تخرج كما يستنقع الماء في قراره و النفس : الروح ها هنا حكاه الهروي

باب ما جاء في تلاقي الأرواح في السماء و السؤال عن أهل الأرض و في عرض

الأعمال

ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه يسألونه فيقول بعضهم لبعض : انظروا أحاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد قال : فيقبلون عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ فإذا سأله عن الرجل قد مات قبله فيقول : إنه هلك فيقولون : إنا لله و إنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية قال : فتعرض عليهم أعماله فإن رأوا حسنا فرحوا و استبشروا و قالوا : اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها و إن رأوا شرا قالوا : اللهم راجع بعبدك

قال ابن المبارك : و أخبرنا صفوان بن عمرو قال : حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفيل أن أبا الدرداء كان يقول : إن أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرون و يساؤون قال : يقول أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملا يخزي به عبد الله بن رواحة

و في رواية : اللهم إني أعوذ بك من عمل يخزيني عند عبد الله بن رواحة

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلي الثقفي قال : أخبرني عثمان بن عبد الله بن أوس أن سعيد بن جبير قال له : أستأذن لي على ابنة أخي و هي زوجة عثمان و هي ابنة عمرو بن أوس فاستأذنت له فدخل عليها ثم قال : كيف يفعل بك زوجك ؟ قالت : إنه إني لحسن فيما استطاع فأنفقت إني ثم قال : يا عثمان أحسن إليها فإنك لا تصنع بها شيئا إلا جاء عمرو بن أوس فقلت : و هل تأتي الأموات أخبار الأحياء ؟ قال : نعم ما من أحد له حميم إلا و يأتيه أخبار أقاربه فإن كان خيرا سر به و فرح و هنئ به و إن كان شرا ابتأس و حزن به حتى إنهم ليسألون عن الرجل قد مات فيقال : أو لم يأتكم ؟ فيقولون : لا خولف به إلى أمه الهاوية

و عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء فتلقاه أرواح المؤمنين فيسألونه فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقول أو لم يأتكم ؟ فيقولون : لا و الله ما جاءنا و لا مر بنا فيقولون : سلك به إلى أمه الهاوية فبئست الأم و بئست المربية

و قال وهب بن منبه : إن الله في السماء السابعة دارا يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين فإذا مات الميت في أهل الدنيا تلتفته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم إليهم ذكره أبو نعيم رحمه الله فصل : هذه الأخبار و إن كانت موقوفة فمثلها لا يقال من جهة الرأي

و قد خرج النسائي بسنده [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال الحديث و فيه : فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال : أو ما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية] و ذكر الحديث و سيأتي بكامله إن شاء الله تعالى

و خرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول قال : [حدثنا أبي رحمه الله قال : حدثنا قبيصة عن سفيان عن أبان بن أبي عياش عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أعمالكم تعرض على عشائركم و أقاربكم من الموتى فإن كان خيرا استبشروا و إن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تمديهم لما هديتنا]

و خرج من حديث عبد الغفور بن عبد العزيز [عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : تعرض الأعمال يوم الاثنين و يوم الخميس على الله و تعرض على الأنبياء و على الأباء و الأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم و تزداد و جوههم بياضا و تشرق فاتقوا الله عباد الله لا تؤذوا موتاكم بأعمالكم]

و روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [إن أرواحكم تعرض إذا مات أحدكم على عشائركم و موتاكم فيقول بعضهم لبعضهم : دعوه يستريح فإنه كان في كرب ثم يسألونه : ما عمل فلان ؟ و ما عملت فلانة ؟ فإن ذكر خيرا حملوا الله و استبشروا و إن كان شرا قالوا : اللهم اغفر له حتى أنهم يسألون هل تزوج فلان ؟ هل تزوجت فلانة ؟ قال : فيسألونه عن رجل مات قبله فيقول : ذاك مات قبلي ؟ أما مر بكم ؟ فيقولون : لا و الله فيقولون : إنا لله و إنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه المملوية فبئست الأم و بئست المريية حتى أنهم ليسألونه عن هر الميت [ذكره الثعلبي رحمه الله

و قد قيل في قوله عليه الصلاة و السلام : [الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف] : إنه هذا التلأهي و قد قيل : تلاقي أرواح النيام و الموتى و قيل غير هذا و الله أعلم

باب منه

روى من حديث ابن لهيعة [عن بكير بن الأشج عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الميت يؤذيه في قبره ما يؤذيه في بيته] قيل يجوز أن يكون الميت يبلغ من أفعال الأحياء و أقوالهم ما يؤذيه في قبره بلطفية يحدثها لهم : من ملك يبلغ أو علامة أو دليل أو ما شاء الله و هو القادر على ما يشاء و روي عن عروة قال : وقع رجل في علي رضي الله عنه عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر رضي الله عنه : ما لك قبحك الله : لقد آذيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في قبره قال علماؤنا : ففي هذا الحديث زجر عن سوء القول في الأموات

و في الحديث : أنه نهي عن سب الأموات و زجر عن فعل ما كان يسؤوهم في حياتهم و فيه أيضا زجر عن عقوق الآباء و الأمهات بعد موتهم بما يسؤوهم من فعل الحي

فقد روي في الحديث أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يهدي لصدائق خديجة صلة منه لها وبرا و إذا كان الفعل صلة وبرا كان ضده عقوبة و قطيعة و عقوقا و قيل : يجوز أن يكون معنى الحديث : الميت يؤذيه في قبره من كان يؤذيه في بيته إذا كان حيا فيكون [ما] بمعنى [من] و يكون ذلك مضمرا في الكلام ن و الإشارة إلى الملك الموكل بالإنسان

فقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه و سلم : إن الملك يتباعد عن الرجل عند الكذبة يكنجا ميلين من نتن ما جاء به و كذلك كل معصية لله تؤذي الملك الموكل به فيجزو أن يموت العبد و هو مصر على معاصي الله غير تائب منها و لا مكفر عنه خطاياها فيكون تمحيصه و تطهيره فيما يلحقه من الأذى من تغليظ الملك إياه أو تفريره له و الله سبحانه و تعالى أعلم

باب في شأن الروح و أين تصير حين تخرج من الجسد ؟

قال أبو الحسن القاسمي رحمه الله : الصحيح من المذهب و الذي عليه أهل السنة أنها ترفعها الملائكة حتى توقعها بين يدي الله تعالى فيسألها فإن كانت من أهل السعادة قال لهم : سيروا بما و أروها مقعدها من الجنة فيسيرون به في الجنة على قدر ما يغسل الميت فإذا غسل الميت و كفن ردت و أدرجت بين كفنه و جسده فإذا حمل على العرش فإنه يسمع كلام الناس من تكلم بخير و من تكلم بشر فإذا وصل إلى قبره و صلي عليه ردت فيه الروح و أقعد ذا روح و جسد و دخل عليه الملكان القناتان على ما يأتي

و عن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا روحه في يد ملك ينظر إلى جسده كيف يغسل و كيف يكفن و كيف يمشي به فيجلس في قبره
قال داود : و زاد في هذا الحديث قال : يقال له و هو على سريرته : اسمع ثناء الناس عليك ذكره أبو نعيم الحافظ في باب عمرو

و قال أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة : فإذا قبض الملك النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما رائحة طيبة فيلفونها في حرير من حرير الجنة و هي على قدر النحلة شخص إنساني ما فقد من عقله و لا من علمه المكتسب له في دار الدنيا فيعرجون بها في الهواء فلا يزال يمر بالأمم السالفة و القرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال للأمين : من أنت ؟ فيقول : أنا صلصائل و هذا فلان معي بأحسن أسمائه و أحبها إليه فيقول : نعم الرجل كان فلان و كانت عقيدته غير شاك ثم ينتهي به إلى السماء الثانية فيقرع الباب فيقال له : من أنت ؟ فيقول مقالته الأولى : فيقولون : أهلا و سهلا بفلان كان محافظا على صلواته بجميع فرائضها ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الثالثة فيقرع الباب فيقال له : من أنت ؟ فيقول الأمين مقالته الأولى و الثانية فيقال : مرحبا بفلان كان يراعي الله في حق ماله و لا يتمسك منه بشيء ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الرابعة فيقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فيقول : كدأبه في مقالته فيقال : أهلا بفلان كان يصوم فيحسن الصوم و يحفظه من أدران الرفث و حرام الطعام ثم ينتهي إلى السماء الخامسة فيقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فيقول كعادته فيقال : أهلا و سهلا بفلان أدى حجة الله الواجبة من غير سمعا و لا رياء ثم ينتهي إلى السماء السادسة فيقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فيقول الأمين كدأبه في مقالته فيقال مرحبا بالرجل الصالح و النفس الطيبة كان كثير البر بوالديه فيفتح له الباب ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء السابعة فيقرع الباب فيقال من أنت ؟ فيقول الأمين مقالته فيقال : مرحبا بفلان كان كثير الاستغفار بالأسحار و يصدق في السر و يكتل الأيتام ثم يفتح له فيمر حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال فيقرع الباب فيقال له : من أنت ؟ فيقول الأمين مثل قوله فيقول : أهلا و سهلا بالبعد الصالح و النفس الطيبة كان كثير الاستغفار و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يكرم المساكين و يمر بمأى من الملائكة كلهم يبشرونه بالخير و يصفحونه حتى ينتهي إلى سدرة المنتهي فيقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فيقول الأمين كدأبه في مقالته فيقال : أهلا و سهلا بفلان كان عمله عملا صالحا خالصا لوجه الله عز و جل ثم يفتح له فيمر في بحر من نار ثم يمر في بحر من نور ثم يمر في بحر من ظلمة ثم يمر في بحر من ماء ثم يمر في بحر من تلج ثم يمر به في بحر من برد طول كل بحر منها ألف عام ثم يخترق الحجب المضروبة على عرش الرحمن و هي ثمانون ألفا من السرادقات لها شراريف لكل سرادق ثمانون ألف شرافة على كل شرافة ثمانون ألف قمر يهللون لله و يسبحونه و يقدسونه لو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لعبد من دون الله و لأحرقها نورا فحينئذ ينادي من الحضرة القدسية من وراء أولئك السرادقات : من هذه النفس التي جتتم بها ؟ فيقال : فلان ابن فلان فيقول الجليل جل جلاله : قربوه فنعلم العبد كنت يا عبدي فإذا أوقفه بين يديه الكريمتين أخجله بعض اللوم و المعاتبة حتى يظن أنه قد هلك ثم يعفو عنه

كما روي عن يحيى بن أكنم القاضي و قد رئي في المنام بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ثم قال : يا شيخ السوء فعلت كذا و فعلت كذا فقلت : يا رب ما بهذا حدثت عنك قال : فبم حدثت عني يا يحيى ؟ فقلت : حدثني الزهري [عن معمر عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه و سلم عن جبريل عنك سبحانك أنك قلت : إني لأستحيي أن أعذب ذا شبيبة في الإسلام فقال : يا يحيى صدقت و صدق الزهري و صدق

معمر و صدق عروة و صدقت عائشة و صدق محمد و صدق جبريل و قد غفرت لك [و عن ابن نباتة و قد رئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين الكريمين و قال : أنت الذي تخلص كلامك حتى يقال : ما أفصحه ! فقلت : سبحانك إني أصفك : قال : قل ما كنت تقول في دار الدنيا قلت : أبادهم الذي خلقهم و أسكنهم الذي أنطقهم و سيجلهم كما أعدمهم و سيجمعهم كما فرقهم قال لي صدقت اذهب فإني قد غفرت لك

و عن منصور بن عمار أنه رئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه و قال لي : بماذا جئتني يا منصور ؟ قلت : بست و ثلاثين حجة قال : ما قبلت منها شيئا و لا واحدة ثم قال : بماذا جئتني يا منصور ؟ قلت : جئتك بثلاثمائة و ستين ختمة للقرآن قال : ما قبلت منها واحدة ثم قال : فبماذا جئتني يا منصور ؟ قال : جئتك بك قال سبحانه : الآن جئتني اذهب فقد غفرت لك و من الناس من إذا انتهى إلى الكرسي سمع النداء : رده فممنهم من يرد من الحجب و إنما يصل إلى الله عارفوه

فصل : و أما الكافر فخذ نفسه عنفا فإذا وجهه كأكل الحنظل و الملك يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير فإذا قبضها عزرائيلناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتني الرائحة بأيديهم مسوح من شعر فليفونها فيستحيل شخصا إنسانيا على قدر الجراحة فإن الكافر أعظم جرما من المؤمن يعني في الجسم في الآخرة و في الصحيح أن ضرس الكافر في النار مثل أحد فيعرج به حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين باب فيقال : من أنت ؟ فيقول : أنا دقيانيل لأن اسم الملك الموكل على زبانية العذاب دقيانيل فيقال : من معك ؟ فيقول : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه و أبغضها إليه في دار الدنيا لا أهلا و لا سهلا و لا مرحبا { لا تفتح لهم أبواب السماء و لا يدخلون الجنة } الآية فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه يده { أو تهوي به الريح في مكان سحيق } أي : بعيد و هو قوله عز و جل : { و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق } فإذا انتهى إلى الأرض ابتدرته الزبانية و سارت به إلى سجين و هي صخرة عظيمة تأوي إليها أرواح الفجار و أما النصارى و اليهود فمردودون من الكرسي إلى قبورهم هذا من كان منهم على شريعته و يشاهد غسله و دفنه

و أما المشرك فلا يشاهد شيئا من ذلك لأنه قد هوى به

و أما المنافق فمثل الثاني يرد ممقوتا مطرودا إلى هوى

و أما المقصرون المؤمنون فتحترف أنواعهم فمنهم ترده صلاته لأن العبد من إذا قصر في صلاته سارقا لها تلف كما يلف الثوب الخلق و يضرب بها وجهه ثم تعرح و تقول : ضيعك الله كما ضيعتني و منهم من ترده زكاته لأنه إنما يزكي ليقال : فلان متصدق و ربما وضعها عند النساء و لقد رأيتنا عافانا الله مما حل به و من الناس من يرده صومه لأنه صام عن الطعام و لم يصم عن الكلام فهو رفته و خسران فيخرج الشهر و قد بهرجه و من الناس من يرده حجه لأنه إنما حج ليقال فلان حج أو يكون حج بمال خبيث و من الناس من يرده العقوق و سائر أحوال البر كلها لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات و تخليص العمل الذي للملك الوهاب فكل هذه المعاني جاءت بها الآثار و الأخبار كالخبر الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه في رد الأعمال و غيره فإذا ردت النفس إلى الجسد و وجدته قد أخذ في غسله إن كان قد غسل فتقعده عند رأسه حتى يغسل فإذا أدرج الميت في أكفانه صارت ملتصقة بالصدر من خارج الصدر و لها خوار و عجيج تقول : أسرعوا بي إلى رحمة الله أي رحمة لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه و إن كان يبشر بالشقاء تقول : رويدا إلى أي عذاب لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه فإذا أدخل القبر وهيل عليه

التراب ناداه القبر : كنت تفرح على ظهري فالיום تحزن في بطني كنت تأكل الألوان على ظهري فالآن يأكلك الدود في بطني و يكشر عليه مثل هذه الألفاظ الموجحة حتى يسوى عليه التراب ثم يناديه ملك يقال له رومان و هو أول ما يلقي الميت إذا دخل قبره على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى و الله أعلم بغيبه و أحكم

باب كيفية التوفي للموتى ؟ و اختلاف أحوالهم في ذلك

ذكر الله التوفي في كتابه مجملا و مفصلا :

فقال الله تعالى : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين } و قال : { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم } و قال : { توفته رسلنا و هم لا يفرطون } و قال : { الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم } فهذا كله محمل و قد بينه رسول الله صلى الله عليه و سلم على ما يأتي بيانه إن شاء تعالى و قال : { و لو ترى إذ يوفى الذين كفروا الملائكة يضربون و جوههم و أذبارهم } و هذا مخصوص بمن قتل من الكفار يوم بدر باتفاق أهل التأويل فيما قاله بعض علمائنا و قد ذكر المهلوي و غيره في ذلك اختلافا و أن الكفار حتى الآن يتوفون بالضرب و الهوان و الله أعلم

و روى مسلم في حديث فيه طول قال أبو زميل : فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه و صوت الفارس يقول : أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قدم خطم أنفه و شق و وجهه لصربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : [صدقت ذلك من مدد السماء الثانية] فقتلوا يومئذ سبعين و أسروا سبعين و ذكر الحديث

و قال تعالى : { لو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطوا أيديهم } أي بالعذاب { أخرجوا أنفسكم } إلى قوله { يستكبرون } و قد زادت السنة هذا النوع بيانا على ما يأتي

فصل : إن قال قائل : كيف الجمع بين هذه الآي و كيف يقبض ملك الموت في زمن واحد أرواح من يموت بالمشرق و المغرب ؟ قيل له : اعلم أن التوفي مأخوذ من توفيت الدين و استوفيته إذا قبضته و لم يدع منه شيئا فتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك و تارة إلى أعوانه من الملائكة لأنهم قد يتولون ذلك أيضا و تارة إلى الله تعالى و هو المتوفي على الحقيقة كما قال عز و جل { الله يتوفى الأنفس حين موتها } و قال : { و هو الذي أحياكم ثم يميتكم } و قال : { الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم } فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره و قال الكلبي : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا و إلى ملائكة

العذاب إن كان كافرا و هذا المعنى منصوص في حديث البراء و سيأتي

و في الخبر عن النبي صلى الله عليه و سلم [إن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بقلوه أو فصيله ألا هلم ألا هلم] يهيب : يدعو يقال : أهاب الرجل بغنمه أي صاح بها لتقف أو لترجع و أهاب بالبعير قال طرفة يصف ناقته :

(تريع إلى صوت المهيب و تتقي ... بذي خصل روعات أكلب ملبدي)

تريع : معناه : تعود و ترجع

و قال الشاعر :

(طمعت بليلى إذ تريع و إنما ... تقطع أرقاب الرجال المطامع)

و الخصل : أطراف الشجر المتدلية و الروعات جمع روعة و هي الفرعة و أكلب الرجل إذا أكلت إبله و اتكلب شبيه بالجنون و قال جميعه الجوهرى
و قال العتاي الكلابي :

(أهابوا به فإزداد بعد وصدده ... عن القرب منهم ضوء برق و وابله)

يعني نصل السهم

فأخبر صلى الله عليه و سلم : [أنه يدعو الأرواح التي يتوفاها الله و يقبضها]

و في الخبر أن ملك الموت جالس و بين يديه صحيفة يكتب فيها له ليلة النصف من شعبان و هي الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم من الأرزاق و الآجال في قفول بعض العلماء عكرمة و غيره و الصحيح أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلة القدر من شهر رمضان و هو قول قتادة و الحسن و مجاهد و غيرهم يدل عليه قوله تعالى :

{ حم * و الكتاب المبين * إنا أنزلناه } يعني القرآن { في ليلة مباركة } يعني ليلة القدر و هذا بين

و قال ابن عباس : إن الله تعالى يقضي الأفضية في ليلة النصف من شعبان و يسلمها إلى أربابها في ليلة القدر و كان هذا جمعا بين القولين و الله أعلم فإذا انقضى عمر ذلك الشخص الذي حان قبض روحه سقطت ورقة من سدرة المنتهى التي فيها اسمه على اسمه في الصحيفة فعرف أن قدر فرغ أجله و انقطع أكله

و في الخبر أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش الصحف هنا : ورق السدرة و الله أعلم

و كما في الخبر قبله : فإذا نظر إلى الإنسان قد نفذ رزقه و انقطع أكله ألقى عليه سكرات الموت فغشيته كرباته و أدركته سكراته

و في خبر الإسراء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [مررت على ملك آخر جالس على كرسي إذا جمع الدنيا و من فيها بين ركبتيه و بيده لوح مكتوب ينظر فيه و لا يلتفت عنه يمينا و لا شمالا فقلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت قلت : يا ملك الموت كيف تقدر على قبض جميع أرواح من في الأرض برها و

بجرها ؟ قال : ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتي و جميع الخلائق بين عيني و يداي تبلغان المشرق و المغرب فإذا نفذ أجل عبد نظرت إليه فإذا نظرت إليه عرف أعواني من الملائكة أنه مقبوض غدوا فبطشوا يعالجون نزع روحه فإذا بلغوا بالروح الخلقوم علمت ذلك فلم يخف علي شيء من أمره مددت يدي فأنزعه من جسده و ألى قبضه

و في الخبر : أنه ينزل عليه أربعة من الملائكة : ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى و ملك يجذبها من قدمه اليسرى و ملك يجذبها من يده اليمنى و ملك يجذبها من يده اليسرى] ذكره أبو حامد

و قال : و ربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر فيعابن الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليه من عالمهم فإنه كان لسانه منطلقا حدث بوجودهم و ربما أعاد على نفسه الحديث بما رأى و ظن أن ذلك من فعل الشيطان به فيسكت حين يعقل لسانه و هم يجذبونها من أطراف البنان و رؤوس الأصابع و النفس تنسل

انسلا القداة من السقا

و الفاجر تسل روح كالسفود من الصوف المبلول هكذا حكى صاحب الشرع عليه السلام و الميت يظن أن بطنه ملئت شوكا كأنما نفسه تخرج من ثقب إبرة و كأن السماء انطبقت على الأرض و هو بينهما فإذا احتضرت نفسه إلى القلب مات لسانه عن النطق فما أحد ينطق و النفس مجموعة في صدره لسرين

أحدهما : أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المتجمعة فيه ألا ترى أن الإنسان إذ أصابته ضربته في الصدر بقي

مدهوشا فتارة لا يقدر على الكلام و كل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر فإنه يخر من غير تصويت و أما السر الآخر : فالآن الذي فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية فصار نفسه متغير الحالتين حال الارتفاع و البرودة لأنه فقد الحرارة فعند هذا الحين تختلف أحوال الموتى فمنهم من يطعنه الملك حيثئذ بحربة مسمومة قد سقيت سما من نار فتفر الروح و تفيض خارجة فيأخذ الملك في يده و هي ترعد أشبه شيء بالزئيق على قدر الجراة شخصا إنسانيا ثم يناولها الزبانية و من الموتى من تجذب نفسه رويدا حتى تنحصر في الحجرة و ليس يبقى في الحجرة إلا شعبة متصلة بالقلب فحيثئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : لم أجد لهذه الحربة في الأخبار ذكر إلا ما ذكره أبو نعيم الحافظ

قال : حدثنا أحمد بن عبد الله بن محمود قال : حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى قال : حدثنا سلمة بن شبيب قال : حدثنا الوليد بن مسلم قال : حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال : إن الملك الموت عليه السلام حربة تبلغ ما بين المشرق و المغرب فإذا انقضى أجل عبد من الدنيا ضرب رأسه بتلك الحربة و قال : الآن يزار بك عسكر الأموات

و روى سليمان بن مهران الكلابي قال : حضرت مالك بن أنس و أتاه رجل فسأله : يا أبا عبد الله البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها ؟ فأطرق مالك طويلا ثم قال : لها نفس ؟ قال : نعم قال : ملك الموت يقبض أرواحها ؟ الله يتوفى الأنفس حين موتها { ذكره الخطيب أبو بكر رحمه الله

باب ما جاء في صفة ملك الموت عن قبض روح المؤمن و الكافر

قال علماؤنا رحمهم الله : و أما مشاهدة ملك الموت عليه السلام و ما يدخل على القلب منه من الورع و الفزع فهو أمر لا يعبر عنه لعظم هول و فظاعة رؤيته و لا يعلم حقيقة ذلك إلا الذي بيتدئ له و يطلع عليه و إنما هي أمثال تضرب و حكايات تروى

روى عن عكرمة أنه قال : رأيت في بعض صحف شيث أن آدم عليه السلام قال : يا رب أرني ملك الموت حتى أنظر إليه فأوحى الله تعالى إليه : إن له صفات لا تقدر على النظر إليها و سأترله عليك في الصورة التي يأتي فيها الأنبياء و المصطفين فأنزل الله عليه جبريل و ميكايل و أتاه ملك الموت في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح منها جناح جاوز السموات و الأرض و جناح جاوز الأرضين و جناح جاوز أقصى المشرق و جناح جاوز أقصى المغرب و إذا بين يديه الأرض بما اشتملت عليه من الجبال و السهول و الغياض و الجن و الإنس و اللواب و ما أحاط بها من البحار و ما علاها من الأجواء في ثغرة نخرة كالخردلة في فلاة من الأرض و إذا عيون لا يفتحها إلا في مواضع فتحها و أجنحة لا ينشرها إلا في مواضع نشرها و أجنحة للبشرى ينشرها للمصطفين و أجنحة للكفار فيها سفافيد و كلاليب و مقاريض فصعق آدم صعقة لبث فيها إلى مثل تلك الساعة من اليوم السابع ثم أفاق و كان في عروفة الزعفران ذكر هذا الخبر ابن ظفر الواعظ المكنى أبو هاشم محمد بن محمد في كتاب النصائح

و روى عن ابن عباس أن إبراهيم خليل الرحمن سأل ملك الموت أن يريه كيف يقبض روح المؤمن فقال له : اصرف وجهك عني فصرف ثم نظر إليه فرآه في صورة شاب حسن الصورة حسن الثياب طيب الرائحة حسن البشر فقال له : و الله لو لم يلق المؤمن من السرور شيئا سوى وجهك كفاه ثم قال له : أرني كيف تقبض روح الكافر فقال له :

لا تطيق ذلك قال : بلى أرني قال : اصرف وجهك عني فصرف وجهه عنه ثم نظر إليه فإذا صورة إنسان أسود رجلاه في الأرض ورأسه في السماء كأقبح ما أنت راء من الصور تحت كل شعرة من جسده هيب نار فقال له : و الله لو لم يلق الكافر سوى نظرة إلى شخصك لكفاه
قال الشيخ المؤلف رحمه الله : و سيأتي هذا المعنى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه و سلم في الملائكة في حديث البراء و غيره إن شاء الله تعالى

و قال ابن عباس أيضا : كان إبراهيم عليه السلام رجلا غيورا و كان له بيت يتعد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا هو برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ؟ فقال : أدخلنيها ربما قال إبراهيم : أنا ربما قال : أدخلنيها من هو أملك بما منك قال : فمن أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت قال : أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ثم التفت إبراهيم فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه و حسن ثيابه و طيب رائحته فقال : يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه ثم قبض روحه صلى الله عليه و سلم

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يعجب من كون ملك الموت يرى على صورتين لشخصين فما ذلك إلا مثل ما يصيب الإنسان بتغير الخلقة في الصحة و المرض و الصغر و الكبر و الشباب و الهرم و كصفاء اللون بملازمة الحمام و شحوبه الوجه بتغير اللون بلفح الهواجر في السفر غير أن قضية الملائكة عليهم السلام يجري ذلك منهم في اليوم الواحدة و إن لم يجر هذا على الإنسان إلا في الأوقات المتباعدة و السنين المتطولة و هذا بين فتأمله

باب ما جاء أن ملك الموت عليه السلام هو القابض لأرواح الخلق و أنه يقف

على كل بيت في كل يوم خميس مرات و على كل ذي روح كل ساعة و أنه ينظر في وجه العباد كل يوم سبعين نظرة

قال الله تعالى : { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم } {

و روي عن ابن عمر قال : إذا قبض ملك الموت روح المؤمن قام على عتبة الباب و لأهل البيت ضجة فمنهم الصاكة و جهها و منهم الناشرة شعرها و منهم الداعية بويلها فيقول ملك الموت عليه السلام : فيم هذا الجزع فو الله ما أنقصت لأحد منكم عمرا و لا ذهبت لأحد منكم برزق و لا ظلمت لأحد منكم شيئا فإن كانت شكايتم و سخطكم علي فإني و الله مأمور و إن كان ذلك على ميتكم فإنه في ذلك مقهور و إن كان ذلك على ربكم فأنتم به كفرة و إن لي فيكم عودة ثم عودة فلو أنهم يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم و لبكوا على أنفسهم : خرج أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات له

و روى معناه مرفوعا في الخبر المشهور المروي في الأربعين [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من بيت إلا و ملك الموت يقف على بابه في كل يوم خمس مرات فإذا وجد الإنسان قد نفذ أكله و انقطع أجله ألقى عليه غمرات الموت فغشيته كرباته و غمرته غمراته فمن أهل بيته الناشرة شعرها و الضاربة و جهها و الباكية لشجوها و الصارخة بويلها فيقول ملك الموت عليه السلام : ويلكم مم الجزع و مم الجزع ؟ ما ذهبت لأحد منكم رزقا و لا قربت له أجلا و لا أتيته حتى أمرت و لا قبضت روحه حتى استأمرت و إن لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحدا]

قال النبي صلى الله عليه و سلم : [و الذي نفسي بيده لو يرون مكانه و يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم و

لبكوا على أنفسهم حتى إذا حمل الميت على النعش رفرفت روحه فوق النعش و هو ينادي : يا أهلي و يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله و من غير حله ثم خلفته لغيري فالمهناة له و التبعة علي فاحذروا ما حل بي]

و روى جعفر بن محمد [عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ملك الموت عند رأس رجلا من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه و سلم : ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال ملك الموت : يا محمد طيب نفسا و قر عينا فأني بكل مؤمن رفيق و اعلم أن ما من أهل بيت مدر و لا شعر في بر و لا بحر إلا و أنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم لأنفسهم و الله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها]

قال جعفر بن محمد : بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الموردي قال الشيخ المؤلف رحمه الله : و في هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل ذي روح و أن تصرفه كله بأمر الله عز و جل و بخلقه و اختراعه

قال ابن عطية : و روي في الحديث أن البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت كأنه يعدم حياتها قال : و كذلك الأمر في بني آدم إلا أنه نوع شرف يتصرف ملك الموت و ملائكة معه في قبض أرواحهم فخلق الله ملك الموت و خلق على يديه قبض الأرواح و انسلاها من الأجسام و إخراجها منه و خلق جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره

فقال تعالى : { و لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة }

و قال تعالى : { توفته رسلنا } و البارئ سبحانه خالق الكل الفاعل حقيقة لكل فعل

قال الله تعالى : { الله يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها } و قال : { الذي خلق الموت و الحياة } و قال : { يحيي و يميت } فملك الموت يقبض الأرواح و الأعوان يعالجون و الله يزهق الروح وهذا هو الجمع بين الآي و الحديث لكنه لما كان ملك الموت متولى ذلك بالوساطة و المباشرة أضيف التوفي إليه كما أضيف الخلق للملك

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : كما في حديث ابن مسعود قال : حدثنا عليه السلام صلى الله عليه و سلم و هو الصدوق [إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح] الحديث خرج ماله و غيره

قوله : يجمع خلقه في بطن أمه قد جاء مفسرا عن ابن مسعود رضي الله عنه رواه الأعمش عن خيشمة قال : قال عبد الله : إن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله سبحانه أن يخلق منها بشرا طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر و شعر ثم تمكث أربعين ليلة ثم تنزل دما في الرحم فذلك جمعها

و في صحيح مسلم أيضا : [عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إذا مر بالنطفة إثنتان و أربعون بعث الله إليها ملكا فصورها و خلق سمعها و بصرها و شعرها و جلدتها و لحمها و عظامها ثم يقول : أي رب أذكر أم أنثى ؟] و ذكر الحديث و ما قبله يفسره و يبينه لأن النطفة لا يبعث الملك إليها إلا بتمام اثنتين و أربعين ليلة فتأمله و نسبه الخلق و التصوير للملك نسبة مجازية لا حقيقة و إنما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عنه التصوير و التشكيل بقدره الله تعالى و خلقه و اختراعه ألا تراه سبحانه و تعالى قد أضاف إليه الخلق الحقيقية و قطع عنها نسب جميع الخليفة فقال تعالى : { و لقد خلقناكم ثم صورناكم } إلى غير ذلك من

الآيات مع ما دلت عليه قاطعات البراهين إذ لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين وهكذا القول في قوله :
 [ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح] أي أن النفخ فيه سبب يخلق الله فيه الروح والحياة وكذلك القول في سائر
 الأسباب المعتادة فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره فتأمل ذلك هذا هو الأصل وتمسك به ففيه النجاة من مذاهب أهل
 الضلال والقائلين بالطباع وغيرهم وأن الله هو القابض لأرواح جميع الخلق على الصحيح وأن ملك الموت و
 أعوانه وسائط و قد سئل مالك بن أنس عن البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها؟ فأطرق مليا ثم قال : أها نفس
 ؟ قال : نعم قال : ملك الموت يقبض أرواحها { الله يتوفى الأنفس حين موتها }
 و في الخبر : أن ملك الموت و ملك الحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء و قال ملك الحياة : أنا أحيي
 الموتى فأوحى الله إليهما : كونا على علمكما و ما سخرتما له من الصنع و أنا المميت و احيي لا مميت و لا يحيي
 سواي ذكره أبو حامد في الأحياء

و ذكر أبو نعيم الحافظ عن ثابت البناني قال الليل و النهار أربع و عشرون ساعة ليس منه ساعة تأتي على ذي روح
 إلا ملك الموت قائم عليها فإن أمر قبضها قبضها و إلا ذهب و هذا عام في كل ذي روح
 و في خبر الإسراء عن ابن عباس فقلت : يا ملك الموت كيف تقدر على قبض أرواح جميع من في الأرض برها و
 بحرها الحديد و قد تقدم
 و روى أبو هدية إبراهيم بن هدية قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن
 ملك الموت لينظر في وجوه العباد كل يوم سبعين نظرة قال : إذا ضحك العبد الذي بعث إليه قال : يقول عجا
 بعثت إليه لأقبض روحه و هو يضحك] و الله أعلم

باب ما جاء في سبب قبض ملك الموت لأرواح الخلق

روى الزهري و وهب بن منبه و غيرهما ما معناه : إن الله أرسل جبريل عليه السلام ليأتيه من تربة الأرض فأتاها
 ليأخذ منها فاستعادت بالله من ذلك فأعادها فأرسل ميكائيل فاستعادت منه فأعادها فبعث عزرائيل فاستعادت منه
 فلم يعدها فأخذ منها فقال الرب تبارك و تعالى : أما استعادت بي منك؟ قال : نعم قال : فهلا رحمتها كما رحمتها
 صاحبك؟ قال : يا رب طاعتك أوجب علي من رحمتي إياها قال الله عز و جل : اذهب فأنت ملك الموت سلطتك
 على قبض أرواحهم فبكي فقال ما يبكيك؟ فقال : يا رب إنك تخلق من هذا الخلق أنبياء و أصفياء و مرسلين و
 إنك لم تخلق خلقا أكره إليهم من الموت فإذا عرفوني أبغضوني و شتموني
 قال الله تعالى : [إني سأجعل للموت عللا و أسبابا ينسبون الموت إليها ولا يذكرونك معها] فخلق الله الأوجاع و
 سائر الحتوف

و قد روى هذا الخبر عن ابن عباس قال : رفعت تربة آدم من ستة أرضين و أكثرها من السادسة و لم يكن فيها من
 الأرض السابعة شيء لأن فيها نار جهنم قال : فلما أتى ملك الموت بالتربة قال له ربه : أما استعادت بي منك
 الحديث بلفظه و معناه ذكره القتيبي و زاد فقالت الأرض : يا رب خلقت السماوات فلم تنقص منها شيئا و
 خلقتني فنقصتني

فقال لها الرب : و عزتي و جلالي لأعيدنهم إليك برهم و فاجرهم فقالت : و عزتك لأنتقم من عصاك
 قال : ثم دعا بمياه الأرض مالحها و عذبها و حلوها و مرها و طيبها و منتنها فسقى منه تربة آدم فأقام يجره أربعين
 صباحا و قال آخرون : أربعين سنة لم ينفخ فيه الروح فكانت الملائكة تمر به فيقفون ينظرون إليه و يقول بعضهم

لبعض : إن ربنا لم يخلق خلقا أحسن من هذا و إنه خلق لأمر كائن و يمر به إبليس اللعين فيضرب بيده عليه فيسمع له صلصلة و هو الصلصال الفخار فقال إبليس : إن فضل هذا علي لم أطعه و إن فضلت عليه أهلكته هذا من طين و أنا من نار

و قد قيل : إن الذي أتى بترربة الأرض إبليس و إن الله بعثه بعد ملكين فاستغاثت بالله منه فقالت : إني أعوذ بالله منك ثم أخذ منها و صعد إلى ربه فقال : ألم تستعذ بي منك ؟ فقال : بلى يا رب فقال الله عز و جل : و عزتي لأخلقن مما جنت يداك خلقا يسؤوك و الله أعلم

باب ما جاء أن الروح إذا قبض تبعه البصر

ابن ماجه [عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم على أبي سلمة و قد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذ قبض تبعه البصر] خروجه مسلم أكمل من هذا و قد تقدم و روى مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره قالوا : بلى قال : فذلك حين يتبع بصره نفسه] و في غير الصحيح [عن النبي صلى الله عليه و سلم أن الميت أول ما يشق بصره لرؤية المعراج و هو سلم بين السماء و الأرض من زمردة خضراء أحسن ما رئي قط فذلك حين يمد بصره إليه]

فصل : في قوله عليه السلام : [إن الروح إذا قبض تبعه البصر] قوله : فذلك حين يتبع بصره نفسه ما يستغنى به عن قول كل قائل في الروح و النفس و إلهما اسمان لمسمى واحد و سيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى

باب ما جاء في تراور الأموات في قبورهم و استحسان الكفن لذلك

مسلم [عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه إن استطاع]

و خرج أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجستاني الحافظ في كتاب الإنابة على مذهب السلف الصالح في القرآن و إزالة شبه الرائيين بواضح البرهان

أخبرنا هبة الله بن إبراهيم بن عمر قال : [حدثنا علي بن الحسن بن بندار قال : حدثنا أبو عروة قال حدثنا محمد بن المصفي قال : حدثنا معاوية : قال حدثنا إبراهيم أن معاوية عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يتباهون و يتزاورون في قبورهم]
و قال ابن المبارك : أحب إلي أن يكفن في ثيابه التي كان يصلي فيها

باب الإسراع بالجنائز و كلامها

البخاري [عن أبي سعيد الخدري : كان النبي صلى الله عليه و سلم يقول : إذا وضعت الجنائز و احتملها الرجال على أعناقهم فإن كان صالحا قالت : قدموني قدموني و إن كانت غير صالحا قالت : يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان و لو سمعه لصعق] و قد تقدم من حديث أنس أنها تقول : [يا أهلي و يا ولدي] الحديث

البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أسرعوا بالجنائز فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه و إن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم] خرجه مسلم أيضا

فصل : صعق : مات و الإسراع قيل معناه : الإسراع بحملها إلى قبرها في المشي و قيل : تجهيزها بعد موتها لنلا تتغير و الأول أظهر لما رواه النسائي قال : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال : حدثنا خالد قال : حدثنا عيينة بن عبد الرحمن قال : حدثني أبي قال : شهدت جنازة عبد الرحمن بن سمرة و خرج زياد يمشي بين يدي السرير فجعل رجال من أهل عبد الرحمن و مواليتهم يستقبلون السرير و يمشون على أعقابهم و يقولون : رويدا رويدا بارك الله فيكم فكانوا يدبون حتى إذا كنا ببعض الطريق لحقنا أبو بكر رضي الله عنه يمشي على بغلة فلما رأى الذين يصنعون حمل عليهم ببغلته و أهوى عليهم بالسوط فقال : خلوا فو الذي كرم وجهه أبي القاسم لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و إنا لنكاد نرمل بها رملا فانبسط القوم صححه أبو محمد عبد الحق و روى أبو داود [من حديث أبي ماجدة عن ابن مسعود قال : سألتنا نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم عن المشي في الجنائز فقال : دون الخب إن يكن خيرا تعجل إليه و إن يكن غير ذلك فبعدا لأهل النار] ذكره أبو عمر بن عبد البر

و قال : و الذي عليه جماعة أهل العلم في ذلك الإسراع فوق السجية قليلا و العجلة أحب إليهم من الإبطاء و يكره الإسراع الذي يشق على ضعفه من يتبعها و قال إبراهيم النخعي : نصوا بما قليلا و لا تدبوا دبيب اليهود و النصرى السجية : العادة

باب بسط الثوب على القبر عند الدفن

أبو هدية إبراهيم بن هدية قال : [حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم تبع جنازة فلما صلى عليها دعا بثوب فبسط على القبر و هو يقول : لا تتطلعوا في القبر فإنها أمانة فلعسى يحل العقدة فيرى حية سوداء متطوقة في عنقه فإنها أمانة و لعله يؤمر به فيستمع صوت السلسلة]

و ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن الشعبي عن رجل أن سعد بن مالك قال : أمر النبي صلى الله عليه و سلم بثوب فستر على القبر حين دفن سعد بن معاذ قال : و قال سعد : إن النبي صلى الله عليه و سلم نزل في قبر سعد بن معاذ و ستر على القبر بثوب فكنت فيمن أمسك الثوب

فصل : اختلف العلماء في هذا الباب فكان عبد الله بن يزيد و شريح و أحمد بن حنبل يكرهون مد الثوب على الرجل و كان أحمد و إسحاق يختاران أن يفعل ذلك بقبر المرأة و كذلك قال أصحاب الرأي و لا يضر عندهم أن يفعلوا ذلك بقبر الرجل

و قال أبو ثور : لا بأس بذلك في قبر الرجل و المرأة و كذلك قال الإمام الشافعي و ستر المرأة عند ذلك أكد من ستر الرجل ذكره ابن المنذر

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : و يستر الرجل و المرأة للعلة التي جاءت في حديث أنس اقتداء بفعله عليه السلام في ستر سعد بن معاذ و الله أعلم

و لقد أخبرني بعض أصحابنا : أنه سمع صوت جو السلسلة في قبر و أخبرني صاحبنا الفقيه العالم شيخ الطريقة أبو عبد الله محمد بن أحمد القصري رحمه الله أنه توفي في بعض الولاة بقسطنطينة فحضر له فلما فرغوا من الحفر و أرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر فهابوا أن يدخلوه فيه فحضروا له قبرا آخرا فلما أرادوا أن يدخلوه إذ

بتلك الحية فيه فحفروا له قبرا آخر فإذا بتلك الحية فلم يزلوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً وإذا بتلك الحية
تعرض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفوه فيه فلما أعياهم ذلك سألوها ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها نسأل
الله السلامة والستر في الدنيا والآخرة

باب ما جاء في قراءة القرآن عند القبر حالة الدفن وبعده وأنه يصل إلى

الميت ثواب ما يقرأ و يدعى و يستغفر له و يتصدق عليه
ذكره أبو حامد في كتاب الأحياء و أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له
قال محمد بن أحمد المرورودي سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: إذا دخلتم المقابر فاقروا بفتحة الكتاب و
المعوذتين و قل هو الله أحد و اجعلوا ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم
و قال علي بن موسى الحداد: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة و محمد بن قدامة الجوهري يقرأ فلما دفنا الميت
جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة على القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد
بن قدامة لأحمد: يا أبا عبد الله: ما تقول في مبشر بن إسماعيل؟ قال: ثقة قال: هل كتبت عنه شيئا؟ قال: نعم
قال: أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن الحجاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه
بفتحة البقرة و خاتمتها و قال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك

قال أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ

قلت: و قد استدلت بعض علمائنا على قراءة القرآن على القبر بحديث العسيب الرطب الذي شقه النبي صلى الله
عليه و سلم باثنين ثم غرس على هذا واحدا و على هذا واحدا ثم قال: [لعله أن يخفف عنهما ما لم يبسا] خرجه
البخاري و مسلم

و في مسند أبي داود الطيالسي: [فوضع على أحدهما نصفاً و على الآخر نصفاً و قال: إنه يهون عليهما ما دام
فيهما من بلوقمما شيء] قالوا: و يستفاد من هذا غرس الأشجار و قراءة القرآن على القبور و إذا خفف عنهم
بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن

و قد خرج السلفي [من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من
مر على المقابر و قرأ قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ثم وهب أجره للأمم أعطي من الأجر بعدد الأموات
و روي] من حديث أنس خادم رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:
إذا قرأ المؤمن آية الكرسي و جعل ثوابها لأهل القبور أدخل الله تعالى في كل قبر مؤمن من المشرق إلى
المغرب أربعين نورا و وسع الله عز و جل عليهم مضاجعهم و أعطى الله للقارئ ثواب ستين نبيا و رفع له بكل ميت
درجة و كتب له بكل ميت عشر حسنات]

و قال الحسن من دخل المقابر فقال: اللهم رب الأحساد البالية و العظام الناخرة خرجت من الدنيا و هي بك
مؤمنة فأدخل عهليها روحاً منك و سلاماً مني إلا كتب بعددهم حسنات

و روي عن النبي صلى الله عليه و سلم [من حديث ابن عباس أنه قال خير الناس و خير من يمشي على جديد
الأرض المعلمون كما أخلق الدين جدوده أعطوهم و لا تستأجروهم فنحروهم فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم
الله الرحمن الرحيم كتب الله للصبي و براءة للمعلم و براءة لأبويه من النار] ذكره الثعلبي:

قال الشيخ المؤلف رحمه الله: أصاب هذا الباب الصدقة التي لا اختلاف فيها فكما يصل للميت ثوابها فكذلك تصل

قراءة القرآن و الدعاء و الاستغفار إذ كل ذلك صدقة فإن الصدقة لا تختص المال و قال صلى الله عليه و سلم : [و قد سئل عن قصر الصلاة في حالة الأمن فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته]

و قال عليه السلام : [يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة فإن كل تسيحة صدقة و كل تلهيلة صدقة و كل تكبيرة صدقة و كل تحميدة صدقة و أمر بالمعروف صدقة و نهي عن المنكر صدقة و يجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى] و لهذا استحب العلماء زيارة القبور تحفة الميت من زائره روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [ما الميت في قبره إلا كالغريق المغوث ينظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحب إلي من الدنيا و ما فيها و إن هدايا الأحياء للأموال الدعاء و الاستغفار و قد حكى أن امرأة جاءت إلى الحسن البصري رحمه الله فقالت : إن ابنتي ماتت و قد أحببت أن أراها في المنام فعلمني صلاة أصليها لعلني أراها فعلمها صلاة فرأت ابنتها و عليها لباس القطران و الغل في عنقها و القيد في رجلها فارتاعت لذلك فأعلمت الحسن فاغتم عليها فلم تمض مدة حتى رآها الحسن في المنام و هي في الجنة على سرير و على رأسها تاج فقالت له يا شيخ : أما تعرفني ؟ قال : لا قالت له : أنا تلك المرأة التي علمت أمي الصلاة فرأتني في المنام قال لها : فما سبب أمرك ؟ قالت : مر بمقبرتنا رجل فصلى على النبي صلى الله عليه و سلم و كان في المقبرة خمسمائة و ستون إنسانا في العذاب فنودي : ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل عن النبي صلى الله عليه و سلم

و قال بعضهم : مات أخ لي فرأيتني في المنام فقلت : ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قالت : أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به و الحكايات عن الصالحين بهذا المعنى كثيرة ذكرها أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له و قد ذكر في هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رضي الله عنه في كتاب عيون الأخبار له حكاية فيها طول رأينا ذكرها لاشتمالها على وعظ و تذكير و تخويف و تحذير و تضرع و ابتهاج و دعاء بالموت و الانتقال

روي عن الحارث بن نيهان أنه قال : كنت أخرج إلى الجبانات فأرحم على أهل القبور و أتفكر و أعتبر و أنظر إليهم سكوتا لا يتكلمون و جيرانا لا يتراوون و قد صار لهم من بطن الأرض وطاء و من ظهرها غطاء و أنادي : يا أهل القبور محيت من الدنيا آثاركم و ما محيت عنكم أوزاركم و سكنتم دار البلاء فتورمت أقدامكم قال : ثم يبكي بكاء شديدا ثم يميل إلى قببة فيها فينام في ظلها

قال : فبينما أنا نائم إلى جانب القبر إذ أنا بحس مقمعة يضرب بها صاحب القبر و أنا أنظر إليه و السلسلة في عنقه و قد ازرق عينا و اسود وجهه و هو يقول : يا و يلي ما ذا حل بي لو رأني أهل الدنيا ما ركبوا معاصي الله أبدا طولبت و الله باللذات فأوبقتني و بالخطايا فأغرقتني فهل من شافع لي أو مخبر أهلي بأمرى ؟ !

قال الحارث : فاستيقظت مرعوبا و كاد أن يخرج قلبي من هول ما رأيت فمضيت إلى دارى و بت ليلتي و أنا متفكر فيما رأيت فما أصبحت قلت دعني أعود إلى الموضع الذي كنت فيه لعلني أجد به أحدا من زوار القبور فأعلمه بالذي رأيت قال : فمضيت إلى المكان الذي كنت فيه بالأمس فلم أر أحدا فأخذني النوم فمتم فإذا أنا بصاحب القبر و هو يسحب على وجهه و يقول : يا ويلتاه ماذا حل بي ساء في الدنيا عملي و طال فيها أجلي حتى غضب علي رب الأرباب فالويل لي إن لم يرحمني ربي

قال الحارث : فاستيقظت و قد توله عقلي بما رأيت و سمعت فمشيت إلى دارى و بت ليلتي فلما أصبحت أتيت

القبر لعلي أجد أحدا من زوار القبور فأعلمه بما رأيت ثم نمت فإذا أنا بصاحب القبر قد قرن بين قدميه و هو يقول :
ما أغفل أهل الدنيا عني ضوعف علي العذاب و تقطعت عني الحيل و الأسباب و غضب علي رب الأرباب و غلق
في وجهي كل باب فالويل لي إن لم يرحمني ربي العزيز الوهاب

قال الحارث : فاستيقظت من منامي مرعوبا و هممت بالانصراف فإذا بثلاث جوار قد أقبلن فتباعدت لهن عن القبر
و تواريت لكي أسمع كلامهن فتقدمت الصغرى و وقفت على القبر و قالت : السلام عليك يا أبتاه كيف هددوك
في مضجعك و كيف قرارك في موضعك ذهبت عنا بودك و انقطع عنا سؤالك فما أشد حسرتنا عليك ثم بكّت
بكاء شديدا ثم تقدمت ابنتان فسلمتا على القبر ثم قالتا : هذا قبر أئبنا الشفيق علينا و الرحيم بنا أنسك الله بملأكة
رحمته و صرف عنك عذابه و نقمته يا أبتاه جرت بعدك أمور لو عاينتها لأوهمتك و لو اطلعت عليها لأحزنتك
كشف الرجال و جوهنا و قد كنت أنت سترها

قال الحارث : فبكيت لما سمعت كلامهن ثم قمت مسرعا إليهن فسلمت عليهن و قلت لهن : أيتها الجواري إن
الأعمال ربما قبلت و ربما ردت على صاحبها فما كان عمل أيكن المخلد في هذا القبر الذي عاينت من أمره ما
أحزني و اطلعت من حاله على ما آلني ؟

قال الحارث : فلما سمعت كلامي كشفن وجوههن و قلن : أيها العبد الصالح و ما الذي رأيت ؟ قلت لهن : لي
ثلاثة أيام و أنا أختلف إلى هذا القبر أسمع صوت المقمعة و السلسلة فيه قال : فلما سمعت ذلك مني قلن لي : بشارة
ما أضرها و مصيبة ما أحزنها نحن نفضي الأوطار و نعلم الديار و أبونا يحرق بالنار فو الله لا قر بنا قرار و لا ضمنتنا
للذة العيش دار أو تنضرع للجبار فلعله أن يعتق أبانا و يقده من النار ثم مضين يتعثرن في أذيالهن

قال الحارث : فمضيت إلى داري فبت ليلتي فلما أصبحت أتيت القبر فجلست عنده فغلبني النوم فمتم فإذا أنا
بصاحب القبر له حسن و جمال و في رجليه نعل من ذهب و معه حور و غلمان
قال الحارث : فسلمت عليه و قلت له : رحمك الله من أنت ؟ قال : أنا الرجل الذي عاينت من أمري ما أحزنتك و
اطلعت منه على ما أفجعك فجزاك الله خيرا فما أئمن طلعتك علي فقلت له : و كيف حالك ؟ فقال لي : لما اطلعت
علي و أخبرت بناتي بالأمس بحالي أعرين أبدأهن و أسبلن شعورهن و تضرعن لمولاهن و مرغن حدودهن في التراب
و أهملن دموعهن بالانسكاب و استوهبوني من العزيز الوهاب فغفر لي الذنوب و الأوزار و استتقذني من النار و
أسكنني دار القرار بجوار محمد المختار فإذا رأيت بناتي فأعلمهن بأمرى و ما كان من قصتي ليزول عنهن روعهن و
يفارقهن حزنهن و تعلمهن إني قد صرت إلى جنات و حور و مسك و كافور و عندي غلمان و سرور و قد عفا
عني العزيز الغفور

قال الحارث : فاسيقظت فرحا مسرورا لما رأيت و سمعت ثم مضيت إلى داري و بت ليلتي فما أصبحت أتيت القبر
فوجدت حافيات الأقدام فسلمت عليهن و قلت لهن : أبشرن فقد رأيت أباكن في خير عظيم و ملك مقيم و قد
أعلمني أن الله تعالى أجاب دعاءكن و لم يجيب مسعاكن و قد وهب لكن أباكن فاشكرنه على ما أولاكن
قال : فقالت الصغرى : اللهم يا مؤنس القلوب و يا ساتر العيوب و يا كاشف الكروب و يا غافر الذنوب و يا
عالم الغيوب و يا مبلغ الأمل المطلوب قد علمت ما كان من مسألتي و رغبتى و اعتذاري في خلوتي و استغاثتي من
ذلي و تنصلي من خطيئتي و أنت اللهم تعلم همتي و المطلع على نيتي و العالم بطويئتي و مالك رقيبتي و الآخذ
بناصيتي و غاييتي في طلبتي و رجائي عند شدتي و مؤنسي في وحدتي و راحم عبرتي و مقيل عثرتي و مجيب دعوتي فإن
كنت قصرت عما أمرتني و ركبت إلى ما عنه نهيتني فبحلمك حملتني و بسترني فبأي لسان أذكرك و على

أي نعمك أشكرك ضاق بكثرة ذرعي فيا أكرم الأكرمين و منتهى غاية الطالبين و مالك يوم الدين الذي يعلم ما أخفي في الضمير و يدبر أمر الصغير و الكبير فإن كنت قضيت الحاجة بفضلك و شفعتني في عبدك فأقبضني إليك و أنت على كل شيء قدير ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا رحمة الله عليها

قال : ثم قامت الثانية فنادت بأعلى صوتها : يا رب فرج كربتي و خلص من الشك قلبي يا من أقامني من صرعتي و أقالني من عثرتي و دلني من حيرتي و أعانني في شدتي إن كنت قبلت دعوتي و قضيت حاجتي و أنجحت طلبتي فألحقني بأختي ثم صاحت صيحة فارقت الدنيا رحمة الله عليها

قال : ثم قامت الثالثة : فنادت بأعلى صوتها يا أيها الجبار الأعظم و الملك الأكرم العالم بمن سكت و تكلم لك الفضل العظيم و الملك القديم و الوجه الكريم العزيز من أعززه و الدليل من أذلتته و الشريف من شرفته و السعيد من أسعدته و الشقي من أشقىته و القريب من أذنبته و البعيد من أبعدته و الخروم من حرمته و الرباح من أوهبته و الخاسر من عذبتة أسألك باسمك العظيم و وجهك الكريم و علمك المكنون الذي بعد عن إدراك الأفهام و غمض عن مناولة الأوهام باسمك الذي جعلته على الليل فدجى و على النهار فأضاء و على الجبال فدكدكت و على الرياح فتناثرت و على السموات فارتفعت و على الأصوات فخشعت و على الملائكة فسجدت اللهم إني أسألك إن كنت قضيت حاجتي و أنجحت طلبتي فألحقني بصواحباتي ثم صاحت صيحة فارقت الدنيا رحمة الله علينا و عليهم و على جميع المسلمين أجمعين آخر الحكاية و الحمد لله رب العالمين

و [روي من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم و كان له بعدد من فيها حسنة]

و يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة و قد روى إباحة قراءة القرآن عند القبر عن العلاء بن عبد الرحمن و ذكر النسائي و غيره من [حديث معقل بن يسار المدني عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال اقرأوا يس عند موتاكم] و هذا يجتمل أن تكون القراءة عند الميت في حال موته و يجتمل أن تكون عند قبره

قال أبو محمد عبد الحق : حدثني أبو الوليد إسماعيل بن أحمد عرف بابن أفرند و كان هو و أبوه صالحين معروفين قال : مات أبي رحمه الله فحدثني بعض إخوانه ممن يوثق بحديثه قال لي : زرت قبر أبيك فقرأت عليه حزبا من القرآن ثم قلت يا فلان هذا قد أهديته لك فماذا لي ؟ قال : فهبت علي نفحة مسك غشيتني و أقامت معي ساعة ثم انصرفت و هي معي فما فارقتني إلا و قد مشيت نصف الطريق

قال أبو محمد : و رأيت لبعض من يوثق به قال : ماتت لي امرأة فقرأت في بعض الليالي آيات من القرآن فأهديتها لها و دعوت الله عز و جل و استغفرت لها و سألت فما كان في اليوم الثاني حدثتني امرأة تعرفها قالت لي : رأيت البارحة فلانة في النوم — تعني الميتة المذكورة — في مجلس حسن في دار حسنة و قد أخرجت لنا أطباقا من تحت سرير كان في البيت و الأطباق مملوءة قوارير أنوار فقالت لي : هذا أهداه لي صاحب بيتي قال : و ما كنت أعلمت بذلك أحدا

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : و في هذا المعنى حديث مرفوع من حديث أنس يأتي في باب ما يتبع الميت إلى قبره و قد قيل : إن ثواب القراءة للقارئ و للميت : ثواب الاستماع و لذلك تلحقه الرحمة قال تعالى : { وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون }

قلت : و لا يبعد في كرم الله تعالى أن يلحقه ثواب القراءة و الاستماع جميعا و يلحقه ثواب ما يهدى إليه من قراءة

القرآن و إن لم يسمعه كالصدقة و الدعاء و الاسغفار لما ذكرنا و لأن القرآن دعاء و استغفار و تضرع و ابتهاج و ما يتقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل القرآن

قال صلى الله عليه و سلم : [يقول الرب تبارك و تعالى : من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته ما أعطي السائلين] رواه الترمذي و قال فيه حديث حسن غريب

و قال عليه السلام : [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له] و القراءة في معنى الدعاء و ذلك صدقة من الولد و من الصاحب و الصديق و المؤمنين حسب ما ذكرنا و بالله التوفيق

فإن قيل : فقد قال الله تعالى { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى } و هذا يدل على أنه لا ينفع أحدا عمل أحد قيل له : هذه آية اختلف في تأويلها أهل التأويل

فروي عن ابن عباس : أنها منسوخة بقوله تعالى : { و الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } فيجعل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه و يشفع الله تعالى الآباء في الأبناء و الأبناء في الآباء يدل على ذلك قوله تعالى : { آباؤكم و أبناءكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا } و قال الربيع بن أنس : { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى } يعني : الكافر و أما المؤمن فله ما سعى و ما سعى له غيره

قلت : و كثير من الأحاديث تدل على هذا القول و يشهد له و أن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم : [من مات و عليه صيام صام له و ليه]

و [قال عليه السلام للرجل الذي حج عن غيره قبل أن يحج عن نفسه : حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة] و روي أن عائشة رضي الله عنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن بعد موته و اعتقت عنه و [قال سعد للنبي صلى الله عليه و سلم : إن أمي توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : نعم قال : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : سقي الماء] و في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن عمته أنها حدثته عن جدته أنها جعلت على نفسها مشيا إلى مسجد قباء فماتت و لم تقضه فأفتى عبد الله بن عباس ابنتها أن تمشي عنها

قلت : و يحتمل أن يكون قوله تعالى : { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى } خاصا في السيئة بدليل ما في صحيح مسلم [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : قال الله عز و جل : إذا هم عبدي بحسنة و لم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشرا إلى سبعمائة ضعف و إذا هم بسيئة و لم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة] و القرآن دال على هذا قال الله تعالى : { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها } و قال تعالى : { مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة } الآية و قال في الآية الأخرى : { كمثل جنة بربوة } و قال : { من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة } و هذا كله تفضل من الله تعالى و طريق العدل : { أن ليس للإنسان إلا ما سعى } إلا أن الله عز و جل يفضل عليه بما لم يجب له كما أن زيادة الأضعاف فضل منه كتب لهم بالحسنة الواحدة : عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة

كما قيل لأبي هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [أن الله ليجزى عن الحسنة الواحدة : ألف ألف حسنة] فقال : سمعته يقول : [إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة : ألفي ألف حسنة] فها تفضل و قد

تفضل الله على الأبطال بإدخالهم الجنة بغير عمل فما ظنك بعمل المؤمن عن نفسه أو عن غيره ؟ و قد ذكر الخرائطي في كتاب القبور قال : سنة في الأنصار إذا حملوا الميت أن يقرأوا معه سورة البقرة و لقد أحسن

من قال :

(زر والديك وقف على قبريهما ... فكأنني بك قد حملت إليهما)

و في آيات يقول في آخرها :

و قرأت من آي الكتاب بقدر ما تستطيع وقد بعثت ذاك إليهما

و إنما طولنا النفس في هذا الباب لأن الشيخ الفقيه القاضي الإمام مفتي الأنام عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله كان يفتي بأنه لا يصل للميت ثواب ما يقرأ ويحج بقوله تعالى : { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى } فلما توفي رحمه الله رآه بعض أصحابه ممن كان يجالسه و سأله عن ذلك فقال له : إنك كنت تقول : إنه لا يصل إلى الميت ثواب ما يقرأ و يهدي إليه فكيف الأمر ؟ فقال له : إني كنت أقول ذلك في دار الدنيا و الآن فقد رجعت عنه لما رأيت من كرم الله تعالى في ذلك و أنه يصل إليه ذلك

باب يدفن العبد في الأرض التي خلق منها

أبو عيسى الترمذي [عن مطر بن عكاش قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة] أو قال : [بما حاجة]

قال أبو عيسى : و في الباب عن أبي عزة و هذا حديث غريب و لا يعرف لمطر بن عكاش عن النبي غير هذا الحديث

و عن أبي عزة قال [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة] أو قال : [بما حاجة] قال : هذا حديث حسن صحيح و أبو عزة له صحبة و اسمه يسار بن عبيد و أنشدوا :
(إذا ما حمام المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير)

و روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول [عن أبي هريرة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم : يطوف ببعض نواحي المدينة و إذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه فقال : لمن هذا ؟ قيل لرجل من الحبشة فقال : لا إله إلا الله سيق من أرضه و سمائه حتى دفن في الأرض التي خلق منها] و عن ابن مسعود [عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا كان العبد بأرض أو ثبتته الحاجة إليها حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله فتقول الأرض يوم القيامة : رب هذا ما استودعتني] خرجه ابن ماجه أيضا

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فائدة هذا الباب تنبيه العبد على التيقظ للموت و الاستعداد له بحسن الطاعة و الخروج عن المظلمة و قضاء الدين و إتيان الوصية بماله أو عليه في الحضر فضلا عن أوان الخروج عن و طنه إلى سفر فإنه لا يدري أين كتبت منيته من بقاع الأرض و أنشد بعضهم :

(مشيناها خطي كتبت علينا ... و من كتبت عليه خطي مشاها)

(و أرزاق لنا متفرقات ... فمن لم تأته منا أتاها)

(و من كتبت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها)

و قد روي في الآثار القديمة : أن سليمان عليه السلام كان عنده رجل يقول : يا نبي الله : إن لي حاجة بأرض الهند فأسألك أن تأمر الريح أن يحملني إليها في هذه الساعة فنظر سليمان إلى ملك الموت عليه السلام فرأه يتسهم فقال :

مم تتبسم؟ قال : تعجبا — : إني أمرت بقبض روح هذا الرجل في بقية هذه الساعة بالهند و أنا أراه عندك فروي
أن الريح حملته في تلك الساعة إلى الهند فقبض روحه بها و الله أعلم

باب ما جاء أن كل عبد يذر عليه من تراب حفرة و في الرزق و الأجل و بيان

قوله تعالى مخلقة و غير مخلقة

أبو نعيم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مولود إلا و قد ذر عليه من تراب
حفرة]

قال أبو عاصم النبيل ما نجد لأبي بكر و عمر رضي الله عنهما فضيلة مثل هذه لأن طينتهما طينة رسول الله صلى
الله عليه و سلم أخرجه في باب ابن سيرين عن أبي هريرة و قال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا
من حديث أبي عاصم النبيل أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة
و روى مرة عن ابن مسعود أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة من الرحم فيضعها على كفه ثم يقول : يا رب
مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال مخلقة قال : يا رب ما الرزق ؟ ما الأثر ؟ ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أم الكتاب
فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه و أثره و أجله و عمله و يأخذ التراب الذي يدفن في بقعته و يعجن به نطفته
فذلك قوله تعالى : { منها خلقناكم و فيها نعيدكم } خرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول
و ذكر عن علقمة عن عبد الله قال : إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها الملك بكفه فقال : أي رب أم مخلقة أو
غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلقة لم تكن نسمة و قذفها الأرحام دما و إن قال : مخلقة قال : أي رب أذكر أم أنثى
؟ أشقي أم سعيد ؟ ما الأجل ؟ و ما الأثر ؟ و ما الرزق ؟ و بأي أرض تموت ؟ فيقول : اذهب إلى أم الكتاب فإنك
ستجد هذه النطفة فيها فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله
فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله فيخلق فتعيش في أجلها و تأكل رزقها و تطأ أثرها فإذا جاء أجلها ماتت فدفت
في ذلك المكان فالأثر : هو التراب الذي يؤخذ فيعجن به مؤه
و قال محمد بن سيرين لو حلفت حلفت صادقا بارا غير شاك و لا مستثن أن الله ما خلق نبيه محمدا صلى الله عليه
و سلم و لا أبا بكر و لا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة
قلت : و ممن خلق من تلك التربة : عيسى بن مريم عليه السلام على ما يأتي بيانه آخر الكتاب إن شاء الله تعالى و
هذا الباب يبين لك معنى قوله تعالى : { يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب } و قوله
: { هو الذي خلقكم من طين }
و قوله : { ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين } و لا تعارض في شيء من ذلك على ما بينا في كتاب الجامع
لأحكام القرآن و المبين لما تضمن من السنة و آي القرقان و هذا الباب يجمع لك كله فتأمله

باب ما يتبع الميت إلى قبره و بعد موته و ما يبقى معه فيه

مسلك [عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان و يبقى واحد
: يتبعه أهله و ماله و عمله فيرجع أهله و ماله و يبقى عمله]

و روى أبو نعيم [من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم سيع يجري
أجرها للعبد بعد موته و هو في قبره : من علم علما أو أجرى نهما أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو

ورث مصحفًا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته [هذا حديث غريب من حديث قتادة تفرد به أبو نعيم عبد الرحمن بن هانئ النخعي عن العزرمي محمد بن عبد الله عن قتادة وخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه من حديث الزهري

[حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن مما يلحق المؤمن من عمله و حسناته بعد موته : علما علمه و نشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نفرا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته تلحقه بعد موته]
و روى أبو هدية إبراهيم بن هدية قال [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتصدق عن ميتك بصدقة فيجيء بها ملك من الملائكة في أطباق من نور فيقوم على رأس القبر فينادي : يا صاحب القبر الغريب : أهلك قد أهدوا إليك هذه الهدية فأقبلها] قال : فيدخلها إليه في قبره و يفسح له في مداخله و ينور له فيه فيقول : جزى الله أهلي عني خير الجزاء قال : فيقول لزيق ذلك القبر أنا لم أخلف لي ولدا و لا أحدا يذكرني بشيء فهو مهموم و الآخر يفرح بالصدقة

و قال بشار بن غالب : رأيت رابعة العدوية — يعني العابدة — في المنام و كنت كثير الدعاء له فقالت لي : يا بشار هديتك تأتينا في أطباق من نور عليها مناديل الحرير و هكذا يا بشار دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا لإخوانهم الموتى فاستجيب لهم يقال : هذه هدية فلان إليك : و قد تقدم لهذا الباب ما فيه كفاية و الحمد لله و قال إسماعيل بن رافع : ما من ذي رحم أوصل لذي رحمه من رجل أتبع ذا رحم بحج أو عتق أو صدقة

باب ما جاء في هول المطلع

تقدم من حديث جابر بن عبد الله قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تموتوا الموت فإن هول المطلع شديد] الحديث و لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له رجل : إني لأرجو أن لا تمس جلدك النار فنظر إليه ثم قال : إن من غررتموه لمغرور و الله لو أن لي ما على الأرض لافتديت به من هول المطلع و قال أبو الدرداء رضي الله عنه : أضحكني ثلاث و أبكاني ثلاث أضحكني مؤمل دنيا و الموت يطلبه و غافل ليس بمغفول عنه و ضاحك بملء فيه لا يدري أرضى الله أم أسخطه ؟ و أبكاني : فراق الأحبة محمد صلى الله عليه و سلم و حزنه و أحزني هول المطلع عند غمرات الموت و الوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار أخرجه ابن المبارك قال أخبرنا غير واحد عن معاوية بن قرة قال : قال أبو الدرداء : فذكره قال : و أخبرنا محمد بلغ به أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بيومين و ليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن : أول يوم يجيئك من الله تعالى إما برضاه و إما بسخطه و يوم تعرض فيه على ربك آخذًا كتابك و إما بيمينك و إما بشمالك و ليلة تستأنف فيها الميت في القبور و لم تبت فيها قط و ليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة

باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة و في البكاء عنده و في حكمه و

الاستعداد له

ابن ماجه عن هانئ بن عثمان قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له : تذكر الجنة و النار و لا تبكي و تبكي من هذا ؟ قال [إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه و إن لم ينج منه فما بعد أشد منه]

قال [قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفضع منه] أخرجه الترمذي وزاد
رزين قال : و سمعت عثمان ينشد على قبر شعرا :

(فإن تنج منها تج من ذي عزيمة ... و إلا فإني لا إخالك ناجيا)

ابن ماجه [عن البراء قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى و
أبكى حتى بل الثرى ثم قال : يا إخواني لمثل هذا فأعدوا]

فصل : القبر و احد القبور في الكثرة و أقبر في القلة و يقال للمدفن : مقبر
قال الشاعر :

(لكل أناس مقبر بفنائهم ... و هم ينقصون و القبور تزيد)

و اختلف في أول من سن القبر ؟ : الغراب لما قتل قابيل هاييل و قيل بنو إسرائيل و ليس بشيء و قد قيل : كان
قابيل يعلم الدفن و لكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به فبعث الله غرابا يبحث التراب على هاييل ليدفنه فقال عند
ذلك { يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين } حيث رأى إكرام الله
لهاييل بأن قبض الله الغراب له حتى وراه و لم يكن ذلك ندم توبة و قيل : ندمه إنما كان على فقدته لا على قتله
قال ابن عباس : و لو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة و يقال : إنه لما قتله قعد يبكي عند رأسه إذ أقبل
غرابان فاقبلا فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة فدفنه ففعل القاتل بأخيه كذلك فبقي ذلك سنة لازمة في بني آدم
و في التنزيل { ثم أماته فأقبره } أي جعل له قبرا يوارى فيه إكراما له و لم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله
الطير و العوافي قاله الفراء

و قال أبو عبيدة : جعل له قبرا و أمر أن يقبر قال أبو عبيدة : و لما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن قالت
بنو تميم و دخلوا عليه : أقبرنا صالحا فقال : دونكموه و حكم القبر : أن يكون مسنما مرفوعا على وجه الأرض
قليلا غير مبني بالطين و الحجارة و الجص فإن ذلك منهي عنه

و روى مسلم [عن جابر قال : نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصص القبر و أن يقعد عليه و أن يبني
عليه] و أخرجه الترمذي أيضا [عن جابر قال نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تخصص القبور و أن يكتب
عليها و أن يبني عليها و أن توطأ] قال أبو عيسى هذا حديث صحيح

قال علماؤنا رحمهم الله : و كره مالك تخصيص القبور لأن ذلك من المباهاة و زينة الحياة الدنيا و تلك منازل الآخرة
و ليس بموضع المباهاة و إنما يزين الميت في قبره عمله و أنشدوا :

(و إذا وليت أمور قوم ليلة ... فاعلم بأنك بعدها مسؤول)

(و إذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول)

(يا صاحب القبر المنقش سطحه ... و لعله من تحته مغلول)

و في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تدع تمثال إلا طمسته و لا قبرا مشرفا إلا سويته

و قال أبو داود في المراسيل عن عاصم بن أبي صالح : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم شبرا أونحوا من شبر
يعني في الارتفاع

قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : بسنم القبر ليعرف كي يحترم و يمنع من الارتفاع الكثير الذي كانت الجاهلية
تفعله فإنما كانت تعلى عليها و تبني فوقها تفخيما لها و تعظيما و أنشدوا :

(أرى أهل القصور إذا أميوا ... بنوا فوق المقابر بالصخور)

(أبوا إلا مباهاة و فخرا ... على الفقراء حتى في القبور)

(لعمرك لو كشفت التراب عنهم ... فما تدري الغني من الفقير)

(و لا الجلد المباشر ثوب صوف ... من الجلد المباشر للحريير)

(إذا أكل الثرى هذا و هذا ... فما فضل الغني على الفقير ؟)

يا هذا أين الذي جمعته من الأموال و أعددته للشدائد و الأهوال لقد أصبحت كحك منه عند الموت خالية صفرا و بدلت من بعد غناك و عزك ذلا و فقرا فكيف أصبحت يا رهين أوزاره و يا من سلب من أهله و دياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد و أقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد و موقفك الصعب الشديد أو ما علمت يا مغرور : أن لا بد من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال و ليس ينفكك ثم قيل و لا قال بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان و مشت القلمان و نطق به اللسان و عملت الجوارح و الأركان فإن رحمتك في الجنان و إن كانت الأخرى في النيران يا غافلا عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة و التوان أتحسب أن الأمر صغير و تزعم أن الخطب يسير ؟ و تظن أن سينفكك حالك إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك حين توبك أعمالك أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قلمك أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرمك كلا و الله ساء ما تتوهم و لا بد لك أن ستعلم لا بالكفاف تقنع و لا من الحرام تشيع و لا للعظاة تستمع و لا بالوعيد تردع دأبك أن تنقلب مع الأهواء و تحبب خطب العشواء يعجبك التكاثر بما لديك و لا تذكر ما بين يديك يا نائما في غفلة و في خبطة يقظان إلى كم هذه الغفلة و التوان أتزعم أن ستترك سدى و أن لا تحاسب غدا أم تحسب أن الموت يقبل الرشا أم تميز بين الأسود و الرشا كلا و الله لن يدفع عنك الموت مال و لا بنون و لا ينفك أهل القبور إلا العمل المبرور فطوبى لمن سمع و وعى و حقق ما ادعى و نهي النفس عن الهوى و علم أن الفائز من ارعوى { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى * } و أن سعيه سوف يرى { فانتبه من هذه الرقدة و اجعل العمل الصالح لك عدة و لا تتمن منازل الأبرار و أنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار بل أكثر من الأعمال الصالحات و راقب الله في الخلوات رب الأرض و السموات و لا يغرنك الأمل فتزهد عن العمل أو ما سمعت الرسول حيث يقول لما جلس على القبور : [يا إخواني لمثل هذا فاعدوا] أو ما سمعت الذي خلقك فسواك يقول : { وتزودوا فإن خير الزاد التقوى } و أنشدوا :

(تزود من معاشك للمعاد ... و قم لله و اعمل خير زاد)

(و لا تجمع من الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد)

(أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد و أنت بغير زاد ؟)

و قال آخر :

(إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... و لاقيت بعد الموت من قد تزودا)

(ندمت على أن لا تكون كمثلته ... و أنك لم ترصد كما كان أرصدا)

و قال آخر :

(الموت بحر طافح موجه ... تذهب فيه حيلة السابح)

(يافس إني قاتل فاسمعي ... مقالة من مشفق ناصح)

(لا ينفك الإنسان في قبره ... غير التقى و العمل الصالح)

و قال آخر :

(أسلمني الأهل ببطن الثرى ... و انصرفوا عني فيا وحشنا)

(و غادروني معدما يائسا ... ما ييدي اليوم إلا البكا)

(و كل ما كان كأن لم يكن ... و كل ما حذرته قد أتى)

(و ذا كم المجموع و المقتنى ... قد صار في كفي مثل الهبا)

(و لم أجد لي مؤنسا ها هنا ... غير فجور موبق أو بقا)

(فلو تراني و ترى حالتي ... بكيت لي يا صاح مما ترى)

و قال آخر :

(و لدتك إذ ولدتك أمك باكيا ... و القوم حولك يضحكون سرورا)

(فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكا مسرورا)

و روي عن محمد القرشي قال : سمعت شيخنا يقول : أيها الناس : إني لكم ناصح و عليكم شفيق فاعملوا في ظلمة

الليل لظلمة القبر و صوموا في الحر قبل يوم النشور و حجوا يحط عنكم عظام الأمور و تصدقوا مخافة يوم عسير

و كان يزيد الرقاشي يقول في كلامه : أيها المقبور في حفرة المتخلى في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض

بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت و بأي أحوالك اغتبطت ثم يبكي حتى يبيل عمامته و يقول : استبشر —

و الله — بأعماله الصالحة و اغتبط — و الله — ياخوانه المعاوين له على طاعة الله و كان إذا نظر إلى القبر صرخ

كما يصرخ الثور و سيأتي أن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه و ما فيه من الموعدة إن شاء الله تعالى

باب ما جاء في اختيار البقعة للدفن

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا سوار بن ميمون أبو الجراح العبدي قال : حدثني رجل من آل عمر عن عمر قال

: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من زار قبري — أو قال : من زارني — كنت له شهيدا أو شفيعا

و من مات بأحد الحرمين بعثه الله عز و جل في الآمين يوم القيامة] و خرج الدارقطني [عن حاطب قال : قال

رسول الله صلى الله عليه و سلم : من زارني بعد موتي فكأنما زارني حيا في حياتي و من مات بأحد الحرمين بعث من

الآمين يوم القيامة]

و خرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاء صكه فقفا عينه

فرجع إلى ربه فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال : فرد الله إليه عينه و قال : ارجع إليه و قل له : يرضه يده

على متن جلد ثور فله بما غطت يده كل شعرة سنة قال : أي رب ثم مه ؟ قال : ثم الموت قال : فالآن فسأل الله أن

يدينه من الأرض المقدسة رمية حجر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب

الطريق تحت الكثيب الأحمر]

و في رواية قال : جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له : أجب ربك قال : فلطم موسى عين الملك

فقفاها و ذكر نحوه

قال الترمذي [عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من استطاع أن يموت بالمدينة

فليمت بها فإنني أشفع لمن مات بها] صححه أبو محمد عبد الحق

و في الموطأ أن عمر رضي الله عنه كان يقول : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك و وفاة في بلد نبيك

و كان سعد بن أبي وقاص و سعيد بن زيد قد عهدا أن يحملوا من العقيق إلى البقيع مقبرة المدينة فيدفنا بها و الله أعلم
لفضل علموه هناك قال : فإن فضل المدينة غير منكور و لا مجهول و لو لم يكن إلا مجاورة الصالحين و الفضلاء من
الشهداء و غيرها لكفى

و روى عن كعب الأحبار أنه قال لبعض أهل مصر لما قال له : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم جراب من تراب
سفنح المقطم يعني : جبل مصر قال : فقلت له : يرحمك الله و ما تريد منه ؟ قال : أضعه في قبري قال له : تقول هذا
و أنت بالمدينة و قد قيل في البقيع ما قيل قال : إننا نجد في الكتاب الأول أنه مقدس ما بين القصير إلى اليمحوم
فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : البقاع لا تقُدس أحدا و لا تطهره و إنما الذي يقُدسه من وضر الذنوب و
دنسها التوبة النصوح مع الأعمال الصالحة أما إنه قد يتعلق بالبقعة تقديس ما و هو إذا عمل العبد فيها عملا صالحا
ضوعف له بشرف البقعة مضاعفة تكفر سيئاته و ترجح ميزانه و تدخله الجنة و كذلك تقديسه إذا مات على معنى
التبعية لصالح لا أنها توجب التقديس ابتداء

و قد روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال : ما أحب أن أدفن بالبقيع لأن أدفن في غيره أحب إلي ثم بين
العلة فقال : مخافة أن تبش لي عظام رجل صالح أو نجاور فاجرا و هذا تستوي فيه سائر البقاع فدل على أن الدفن
بالأرض المقدسة ليس بالجمع عليه و قد يستحسن الإنسان أن يدفن بموضع قرابته و إخوانه و جيرانه لا لفضل و لا
لدرجة

فصل : إن قال قائل : كيف جاز لموسى عليه السلام أن يقدم على ضرب ملك الموت حتى فقأ عينه ؟ فالجواب من
وجوه ستة :

الأول : أنها كانت عينا متخيلة لا حقيقة لها و هذا القول باطل لأنه يؤدي إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة
لا حقيقة لها و هذا مذهب السالمية

الثاني : أنها كانت عينا معنوية فقأها بالحجة و هذا مجاز لا حقيقة له

الثالث : أنه لم يعرفه و ظنه رجلا دخل منزله بغير إذنه يريد نفسه فدافع عنها فلطمه : فقأ عينه و تجب المدافعة في
مثل هذا بكل ممكن و هذا وجه حسن لأنه حقيقة في العين و الصك قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة إلا أنه اعترض بما
في الحديث نفسه و هو أن ملك الموت عليه السلام لما رجع إلى الله تعالى قال : يا رب أرسلتني إلى عبد لا يريد
الموت فلو لم يعرفه موسى لما صدر هذا القول من ملك الموت

الرابع : أن موسى عليه السلام كان سريع الغضب و سرعة غضبه كانت سببا لصكه ملك الموت قاله ابن العربي في
الأحكام و هذا فاسد لأن الأنبياء معصومون أن يقع منهم ابتداء مثل هذا في الرضا و الغضب
الخامس : ما قاله ابن مهدي رحمه الله : أن عينه المستعارة ذهبت لأجل أنه جعل له أن يتصور بما شاء فكأن موسى
عليه السلام لطمه و هو متصور بصورة غيره بدلالة أنه رأى بعد ذلك معه عينه

السادس : و هو أصحها إن شاء الله و ذلك أن موسى عليه السلام كان عنده ما أخبر تبينا عليه السلام من أن الله
تعالى لا يقبض روحه حتى يخبره — خرج البخاري و غيره — فلما جاءه ملك الموت على غير الوجه الذي أعلم
بأدر بشهامته و قوة نفسه إلى أدبه فلطمت ففقت عينه امتحانا لملك الموت إذ لم يصرح له بالتخبر و مما يدل على
صحة هذا : أنه لما رجع إليه ملك الموت فخبره بين الحياة و الموت اختار الموت و استسلم و الله بغيبه أعلم و أحكم
و ذكره ابن العربي في قبسه بمعناه و الحمد لله

و قد ذكر الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوارد الأصول حديث [أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم

قال : كان ملك الموت عليه السلام يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى عليه السلام فلطمه ففقا عينه [الحديث بمعناه
و في آخره [فكان يأتي الناس بعد ذلك في خفية]

باب يختار للميت قوم صالحون يكون معهم

خرج أبو سعيد الماليني في كتاب المؤتلف و المختلف و أبو بكر الخرائطي في كتاب القبور [من حديث سفيان
الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن ابن الحنفية عن علي رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه
و سلم أن ندفن موتانا وسط قوم صالحين فإن الموتى يتأذون بالجار السوء كما يتأذى به الأحياء]
[و عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات لأحدكم الميت فحسبوا كفته و عجلوا إنجاز
وصيته و أعمقوا له في قبره و جنبوه جار السوء قيل : يا رسول الله : و هل ينفع الجار الصالح في الآخرة ؟ قال :
هل ينفع في الدنيا قالوا : نعم قال : كذلك ينفع في الآخرة] ذكره الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار
و خرج أبو نعيم الحافظ بإسناده [من حديث مالك بن أنس عن عمه نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة : قال :
قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أدفنوا موتاكم وسط قوم صالحين فإن الميت يتأذى بالجار السوء]
فصل قال علماءنا : و يستحب لك — رحمك الله — أن تقصد بميتك قبور الصالحين و مدافن أهل الخير فندفنه
معهم و تنزله بإزائهم و تسكنه في جوارهم تبركا بهم و توسلا إلى الله عز و جل بقربهم و أن تجتنب به قبور من
سواهم ممن يخاف التأذي بمجاورته و التألم بمشاهدة حاله حسب ما جاء في الحديث
يروى أن امرأة دفنت بقرطبة — أعادها الله — فأنت أهلها في النوم فجعلت تعهم و تشكوهم و تقول : ما وجدتم
أن تدفوني إلا إلى فرن الجير ؟ فلما أصبحوا نظروا فلم يروا في ذلك الموضع كله و لا بقربه فرن جير فبحثوا و
سألوا عن من كان مدفونا بإزائها ؟ فوجدوه رجلا سيفا كان لابن عامر و قبره إلى قبرها فأخرجوها من جواره ذكر
هذا أبو محمد عبد الحق في كتاب العقاب له
و عن أعرابي أنه قال لوالده : ما فعل الله بك ؟ قال : ما ضربي إلا أي دفنت بإزاء فلان و كان فاسقا قد روعني ما
يعذب به من أنواع العذاب

و روى أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن محمد الختلي في كتاب الديباج له و حدثني أبو الوليد رباح بن الوليد
الموصلي قال : و حدثت عن عبد الملك بن عبد العزيز عن طاووس بن ذكوان اليماني أنه أخبرهم أنه قدم حاجا فمر
بالأبطح عند المقابر مع رفقاء له فقال : بينما أنا أصلي في جوف الليل و علي برد لي أحرش أخذته باليمن بسبعين
دينارا و قبر قريب مني محفور إذ رأيت شمعا قد أقبل به مع جنازة فإذا قائل يقول في قبر قريب من القبر المحفور :
اللهم إني أعوذ بك من الجار السوء قال : فركعت ثم سجدت و سلمت ثم خرجت حتى لقيت أصحاب الجنازة
فسلمت و قلت : لا تقربونا و تحنوا عنا — عافاكم الله — قالوا : ما نستطيع ذلك و قد حفرنا قبرنا هذا و لا
نستطيع أن نذهب إلى غيره فقلت : من أولى بالجنازة ؟ فقالوا : هذا ابنه فقلت له : هل لك أن تتسحى عنا و تناولني
ثوبك هذا الذي عليك فألبسه و أعطيك بردي هذا فأبني قد أخذته باليمن بسبعين دينارا و هو هنا خير من سبعين
؟ فإن كان على أبيك دين قضيته عنه و إن لم يكن انتفع بذلك الورثة و تكف عنا ما نكره قال : فأنكر القوم قولي
أن يكون على رجل برد يلتف به ثمنه سبعون دينارا فاحتجت إلى أن أخبرهم من أنا ؟ فقلت : تعرفون طاووس
اليماني ؟ قالوا : نعم قلت : فأنا طاووس اليماني و ما قلت في البرد إلا حقا فناولني الرجل رداءه و أخذ ردائي و

انصرف عنا و أقبلت حتى وقفت على صاحب القبر فقلت : ما كان لك ليجاورك جار تكرهه و أنا أستطيع رده ثم عدت إلى صلاتي

باب ما جاء أن الموتى يتزاورون في قبورهم و استحسان الكفن لذلك

الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه خرج الحافظ أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجستاني في كتاب الإبانة له [حدثنا هبة الله بن إبراهيم بن عمر قال : حدثنا علي بن الحسين بن بندار قال : حدثنا محمد بن الصفار قال : حدثنا معاوية قال : حدثنا زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : حسنوا أكفان موتاكم فإنهم يتباهون و يتزاورون في قبورهم] و في صحيح مسلم [عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه]

باب ما جاء في كلام القبر كل يوم وكلامه للعبد إذا وضع فيه

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مصلاه فرأى ناسا يكشرون فقال : أما أنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى — يعني الموت — فأكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربة و أنا بيت الوحدة و أنا بيت التراب و أنا بيت الدود فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا و أهلا أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إلي فإذا وليتك اليوم و صرت إلي فسترى صنيعي بك فيتسع له مد بصره و يفتح له باب الجنة و إذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحبا و لا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي فإذا وليتك اليوم و صرت إلي فسترى صنيعي بك قال : فيلتمم عليه حتى يلتقي و تختلف أضلعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بأصابه فأدخل بعضها جوف بعض قال : و يقيض الله له تسعين تينا أو تسعة و تسعين لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئا ما بقيت الدنيا فتنهشه حتى يفضى به إلى الحساب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار] قال أبو عيسى : هذا حديث غريب و خرج هناد بن السرى قال : حدثنا حسن الجعفي عن مالك بن مغول عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : يجعل الله للقبر لسانا ينطق به فيقول : ابن آدم من أين أنت؟ أما علمت أي بيت الدود و بيت الوحدة و بيت الوحشة قال : و حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : إن القبر ليكي و يقول في بكائه : أنا بيت الوحشة أنا بيت الوحدة أنا بيت الدود

و ذكر أبو عمر بن عبد البر روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي عن غضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقدس أنا و عبد الله بن عبيد بن عمير قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمر بن العاص فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي؟ ألم تعلم أي بيت الوحدة؟ ألم تعلم أي بيت الظلمة؟ ألم تعلم أي بيت الحق؟ يا ابن آدم ما غرك بي؟! لقد كنت تمشي حولي فدادا قال ابن عائذ : قلت لغضيف : ما القداد يا أبا اسماعيل؟ قال : كبعض مشيتك يا ابن أخي قال غضيف : فقال لصاحبي — و كان أكبر مني — لعبد الله بن عمرو : فإن كان مؤمنا فماذا له؟ قال : يوسع له في قبره و يجعل منزله أخضر و يعرج بروحه إلى السماء ذكره في كتاب التمهيد

و ذكره أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له [عن أبي الحجاج الشمالي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و

سلم : يقول القبر للميت إذا وضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم أبي بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الدود ؟ ما غرك إذ كنت تمر بي فدادا ؟ قال : فإننا كان صالحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت إن كان ممن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ؟ قال فيقول القبر : فإني أعود عليه خضرا و يعود جسده نورا و تصعد روحه إلى رب العالمين [ذكر هذا الحديث أبو أحمد الحاكم في كتاب الكنى و ذكره أيضا قاسم بن أضيع قال : قيل لأبي الحجاج ما الفداد ؟ قال : الذي يقدم رجلا و يؤخر أخرى يعني الذي يمشي مشية المتبخر و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا داود بن ناقد قال : سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير يقول : بلغني أن الميت يتعد في حفرة و هو يسمع و خط مشيعيه و لا يكلمه شيء أول من حفرتة فتقول : ويحك يا ابن آدم قد حذرتني و حذرت ضيقي و ظلماتي و نتني و هولي هذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟

الوخط و الوخذ : سرعة السير في المشي

و قال سفيان الثوري : من أكثر من ذكر القبر و جده روضة من رياض الجنة و من غفل عن ذكره و جده حفرة من حفر النار

و قال أحمد بن حرب تعجب الأرض ممن يمهد مضجعه و يسوي فراشه لنوم و تقول : يا ابن آدم ألا تذكر طول رقادك في جوفي و ما بيني و بينك شيء ؟

و قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظا ؟ قال : النظر إلى محلة الأموات و لقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول :

(وعظمتك أجدات صمت ... و نعتك أزمنة خفت)

(و تكلمت عن أوجه تبلى ... و عن صور سبت)

(و أرتك نفسك في القبور ... و أنت حي لم تمت)

و روي عن الحسن البصري أنه قال : كنت خلف جنازة فاتبعتها حتى وصلوا بها إلى حفرة فنادت امرأة فقالت : يا أهل القبور لو عرفتم من نقل إليكم لأعززتموه ؟ قال الحسن : فسمعت صوتا من الحفرة و هو يقول : قد و الله تقل إلينا بأوزار كالجبال و قد أذن لي أن آكله حتى يعود رميما قال : فاضطربت الجنازة فوق النعش و خر الحسن مغشيا عليه

باب ما جاء في ضغط القبر على صاحبه و إن كان صالحا

النسائي [عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : هذا الذي تحرك له عرش الرحمن و فتحت له أبواب السماء و شهدته سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه] قال أبو عبد الرحمن النسائي يعني سعد بن معاذ

[و من حديث شعبة بن الحجاج بإسناده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ]

و ذكر هناد بن السرى حدثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن ابن أبي ملكية قال : ما أجير من ضغطة القبر أحد و لا سعد بن معاذ الذي منديل من مناديله خير من الدنيا و ما فيها قال : و حدثنا عبدة بن عبيد الله بن عمر عن نافع

قال : و لقد بلغني أنه شهد جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط

و لقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [لقد ضم صاحبكم في القبر ضمة]

و خرج علي بن معبد في كتاب الطاعة و المعصية عن نافع قال : أتينا صفية بنت أبي عبيد امرأة عبد الله بن عمر و

هي فرعة فقلنا : ما شأنك ؟ قالت : جنت من عند بعض نساء النبي صلى الله عليه و سلم فحدثتني أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [إن كنت لأرى أن أحدا لو أعفي من عذاب القبر لأعفي منه سعد بن معاذ لقد ضم فيه ضمة]

و خرج أيضا عن زاذان أن أبي عمر قال : لما دفن رسول الله صلى الله عليه و سلم ابنته زينب جلس عند القبر فتربد وجهه ثم سرى عنه فقال له أصحابه : رأينا وجهك يا رسول الله تربد أنفا ثم سرى عنك فقال النبي صلى الله عليه و سلم : [ذكرت ابنتي و ضعفها و عذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها و أيم الله لقد ضمت ضمة سمعها ما بين الخافقين]

و خرج أيضا بسنده عن إبراهيم الغنوي عن رجل قال : كنت عند عائشة فمرت جنازة صبي صغير فبكت فقلت لها : ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر قلت : و هذا الخبر و إن كان موقوفا على عائشة رضي الله عنه فمثله لا يقال من جهة الرأي و قد روى عمر بن شبة في كتاب المدينة — على سكاها السلام — في ذكر وفاة فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : [بينما هو صلى الله عليه و سلم في أصحابه أتاه آت فقال : إن أم علي و جعفر و عقيل قد ماتت فقال : قوموا بنا إلى أمي] قال : فقمنا كأن على رؤوسنا الطير فلما انتهينا إلى الباب نزع قميصه و قال : إذا كفنتموها فأشعروه إياه تحت أكفانها فلما خرجوا بها جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم مرة يحمل و مرة يتقدم و مرة يتأخر حتى انتهينا بها إلى القبر فتمعك في اللحد ثم خرج و قال : أدخلوها بسم الله و على اسم الله فلما دفنوها قام قائما و قال : جزاك الله من أم و ريبة خيرا [و سألتها عن نزع قميصه و تمعكه في اللحد ؟ فقال : أردت أن لا تمسها النار أبدا إن شاء الله تعالى و أن يوسع الله عليها قبرها و قال : ما عفى أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد قيل يا رسول الله : و لا القاسم ابنك ؟ قال : و لا إبراهيم و كان أصغرهما] و رواه أبو نعيم الحافظ عن عاصم الأحول عن أنس بمعناه و ليس فيه السؤال بتمعكه إلى آخره

قال أنس : [لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم فجلس عند رأسها فقال : رحمك الله يا أمي كنت أمي بعد أمي تجوعين و تشبعينني و تعرين و تكسونني و تمنعين نفسك طيب الطعام و تطعمينني تريدن بذلك وجه الله و الدار الآخرة ثم أمر أن تغسل ثلاثا فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكب رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده ثم خلع رسول الله صلى الله عليه و سلم قميصه و ألبسها إياه و كنفها فوقه ثم دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم : أسامة بن زيد و أبا أيوب الأنصاري و عمر بن الخطاب و غلاما أسود يحفرون قبرها فلما بلغوا اللحد حفروه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم فاضطجع فيه ثم قال : الحمد لله الذي يجي و يميت و هو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد و لقمها حجتها و وسع عليها مدخلها بحق نبيك و الأنبياء الذين من قبلي إنك أرحم الراحمين و كبر عليها أربعا و أدخلها اللحد هو و العباس و أبو بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين]

باب منه و ما جاء أن الميت يعذب بكاء أهله عليه و هم من شر الناس له

روى أبو هذبة قال [إبراهيم بن هذبة قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن العبد الميت إذا وضع في قبره و أقعد قال : يقول أهله : و أسيدها و اشريفها و أميرها قال : يقول الملك : اسمع ما

يقولون أنت كنت سيذا؟ أنت كنت أميرا أنت كنت شريفا؟ قال: يقول الميت: يا ليتهم يسكتون قال: فيضغط
ضغطة تختلف فيها أضلاعه]

فصل قال علماؤنا رحمة الله عليهم: قال بعض العلماء أو أكثرهم: إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من
سنة الميت واختياره كما قال:

(إذا مت فانعيني بما أنا أهله ... و شقي علي الجيب يا ابنة معبد)

و كذلك إذا وصى به و قد روى ما يدل على أن الميت يصيبه عذاب ببكاء الحي عليه و إن لم يكن من سنته و لا
من اختياره و لا مما أوصى به و استدلوا بحديث أنس المذكور [و بما روى من حديث قبيلة بنت محرمة و ذكرت
عند النبي صلى الله عليه و سلم ولدا لها مات ثم بكت فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أيغلب أحميكم أن
يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا فإذا حال بينه و بينه من هو أولى به منه استرجع؟ ثم قال: اللهم أثبني فيما
أمضيت و أعني على ما أبقيت فو الذي نفس محمد بيده إن أحميكم ليكي فيستعبر له صويحبه يا عباد الله لا تعذبوا
موتاكم] ذكره ابن أبي خيثمة و أبو بكر بن أبي شيبة و غيرهما و هو حديث معروف إسناده لا بأس به و سياقه
يدل على أن بكاء هذه لم يكن من اختيار لابنها لأن ابنها صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و
لا كان هذا البكاء المعروف في الجاهلية الذي كان من اختيار الميت و مما يوصى به

و ذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب [من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه و سلم
قال: الميت يعذب ببكاء الحي عليه إذا قالت النائحة و اعضده و انصراه و كاسياه جند الميت و قيل له: أنت
ناصرها؟ أنت كاسيها]

و ذكر البخاري من حديث النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلتلا أخته عمرة تبكي و تقول
: و اجبله و أكذا و أكذا تعدد عليه فقال حينت أفاق: ما قلت شيئا إلا قيل لي: أنت كذلك؟ فلما مات لم تبك
عليه و هذا أيضا لم يكن من سنة عبد الله بن رواحة و لا من اختياره و لا مما أوصى به فصابه في الدين أجل و أرفع
من أن كان يأمر بهذا أو يوصى به

و روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ [من حديث منصور بن زاذان عن الحسن بن عمران بن حصين قال:
قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن الله ليعذب الميت بصياح أهله عليه] فقال له رجل: يموت بخراسان و
يناح عليه ها هنا؟ فقال عمران: صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم و كذبت
قال المؤلف رضي الله عنه: و هذا بظاهره أن بنفس الصياح يقع التعذيب و ليس كذلك و إنما هو محمول على ما
ذكرناه و الله أعلم

و قال الحسن: إن من شر الناس للميت: أهله يكون عليه و لا يقضون دينه

باب ما ينجي من ضغطة و فتنه

روى أبو نعيم [من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و
سلم: من قرأ { قل هو الله أحد } في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره و أمن من ضغطة القبر و حملته الملائكة
يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة] قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد تفرد به نصر بن

حماد البجلي

باب ما يقال عند وضع الميت في قبره و في اللحد في القبر

اللحد : هو أن يحفر للميت في جانب القبر إن كان الأرض صلبة و هو أفضل من الشق فإنه الذي اختاره الله لنبيه صلى الله عليه و سلم

روى ابن ماجه عن ابن عباس قال : لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه و سلم بعثوا إلى أبي عبيدة و كان يضرح كضريح أهل مكة و بعثوا إلى أبي طلحة و كان هو الذي يحفر لأهل المدينة و كان يلحد فبعثوا إليهما رسولين قالوا : اللهم خر لرسولك فوجدوا أبا طلحة فجيء به و لم يوجد أبو عبيدة فلحد لرسول الله صلى الله عليه و سلم

و روى أبو داود [عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللحد لنا و الشق لغيرنا] خرجه ابن ماجه و الترمذي و قال : حديث حسن غريب و أنشدوا :

(ضعوا خججي على لحدي ضعوه ... و من عفر التراب فوسدوه)

(و شقوا عنه أكفانا رفاقا ... و في الرمس البعيد فغيوه)

(فلو أبصرتموه إذا تقضت ... صبيحة ثالث أنكرتموه)

(و قد سألت نواظر مقلتيه ... على وجناته و انفض فوه)

(و ناداه البلا : هذا فلان ... هلموه فانظروا هل تعرفه)

(حبيكم و جاركم المقدى ... تقادم عهده فسيسيموه)

و قال آخر :

(و ألحدوا محبوبهم و انثوا ... و همهم تحصيل ما خلفا)

(و غادروه مسلما مفردا ... في رمسه رهنا بما أسلفا)

(و لم يزود من جميع الذي ... باع به أخراه إلا لفا)

و خرج أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول عن سعيد بن المسيب قال : حضرت ابن عمر في جنازة فلما وضعها في اللحد قال : بسم الله و في سبيل الله فلما أخذ في تسوية اللحد قال : اللهم أجرها من الشيطان و من عذاب القبر

فلما سوى الكتيب عليها قام جانب القبر ثم قال : اللهم جاف الأرض عن جنبها و سعد روحها و لقمها منك

رضوانا فقلت لابن عمر : شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم : أم شيئا قلت من رأيك ؟ قال : إني إذا

لقادر على القول بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم خرجه ابن ماجه أيضا في سننه

و قال أبو عبد الله الترمذي رحمه الله : حدثني أبي رحمه الله قال : حدثنا الفضل بن ذكين عن سفيان عن الأعمش

عن عمرو بن مرة قال : كانوا يستحبون إذا وضع الميت في اللحد أن يقولوا : اللهم أعذه من الشيطان الرجيم

و روي [عن سفيان الثوري أنه قال : إذا سئل الميت : من ربك ؟ تراءى له الشيطان في صورة فيشير إلى نفسه :

إني أنا ربك قال أبو عبد الله : فهذه فتنة عظيمة و لذلك كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو بالثبات فيقول

: اللهم ثبت عند أحدهما منطلقه و افتح أبواب السماء لروحه] فلو لم يكن للشيطان هناك سبيل ما كان ليدعو له

رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجبره من الشيطان فهذا تحقيق لما روى عن سفيان ذكره في الأصل التاسع و

الأربعين و المائتين

باب الوقوف عن القبر قليلا بعد الدفن و الدعاء بالثبوت له

مسلم عن بن شماسه المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص و هو في سياقة الموت الحديث : و فيه : فإذا دفنتموني فشنوا على التراب شنأ ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر و يقسم لحمها حتى أستأنس بكم و أنظر ماذا أرجع به رسل ربي عز و جل ؟ أخرجه ابن المبارك بمعنى مسلم من حديث ابن لهيعة

قال : حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد الرحمن بن شماسه حدثه و قال فيه و شدوا على إزارني فأني مخاصم و شنوا على التراب شنأ فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر و لا تجعلن في قبري خشبة و لا حجرا و إذا و اريتموني فاقعدوا عند قبري قدر نحر جزور و تقطعها استأنس بكم

أبو داود [عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه و قال : استغفروا لأخيكم و أسألوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل]

و أخرج أبو عبد الله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول [عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا دفن ميتا وقف و سأل له التثبيت و كان يقول : ما يستقبل المؤمن من هول الآخرة إلا و القبر أقطع منه]

و خرج أبو نعيم في باب عطاء بن ميسرة الخراساني إلى عثمان رضي الله عنه [عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم وقف على قبر رجل من أصحابه حين فرغ منه فقال : إنا و الله و إنا إليه راجعون اللهم نزل بك و أنت من خير منزل به جاف الأرض عن جنبيه و افتح أبواب السماء لروحه و أقبله منك بقول حسن و ثبت عند المسائل منطقته] غريب من حديث عطاء

فصل قال الآجري أبو بكر محمد بن الحسين في كتاب النصيحة : يستحب الوقوف بعد الدفن قليلا و الدعاء للميت مستقبل وجهه بالثبات فيقال : اللهم هذا عبدك و أنت أعلم به منا و لانعلم منه إلا خيرا و قد أجلسسته لتسأله اللهم فثبته بالقول الثابت في الآخرة كما ثبتته في الحياة الدنيا اللهم ارحمه و ألحقنه بنبيه محمد صلى الله عليه و سلم و لا تضلنا بعده و لا تحرمنا أجره و حدثنا أبو عبد الله الترمذي : فالوقوف على القبر و سؤال التثبيت في وقت دفنه مدد للميت بعد الصلاة لأن الصلاة بجماعة المؤمنين كالعسكر له قد اجتمعوا بباب الملك يشفعون له و الوقوف على القبر لسؤال التثبيت مدد للعسكر و تلك ساعة شغل للميت و لأنه يستقبله هول المطلع و سؤال و فتنة فتاني القبر — على ما يأتي — و الجزور بفتح الجيم من الإبل

و الجزيرة من الضأن و المعز خاصة قاله في الصحاح

فصل قول عمرو بن العاص رضي الله عنه فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة و لا نارة توصية منه باجتنا هذين الأمرين لأهما من عمل الجاهلية و لنهي النبي صلى الله عليه و سلم

قال العلماء : و من ذلك الضجيج بذكر الله سبحانه و تعالى أو بغير ذلك حول الجنائز و البناء على المقابر و الاجتماع في الجبانات و المساجد للقراءة و غيرها لأجل الموتى و كذلك الاجتماع إلى أهل الميت و ضيعة الطعام و المبيت عنهم كل ذلك من أمر الجاهلية و نحو منه الطعام الذي يصنعه أهل الميت اليوم في يوم السابع فيجتمع له الناس يريدون بذلك القربة للميت و الترحم عليه و هذا محدث لم يكن فيما تقدم و لا هو مما يحمده العلماء قالوا : و ليس ينبغي للمسلمين أن يقتلوا بأهل الكفر و ينهى كل إنسان أهله عن الحضور لمثل هذا و شبهه من لطم الحدود و نشر الشعور و شق الجيوب و استماع النوح و كذلك الطعام الذي يصنعه أهل الميت — كما ذكرنا — فيجتمع عليه النساء و الرجال من فعل قوم لا خلاق لهم

و قال أحمد بن حنبل : هوز من فعل الجاهلية قيل له : أليس قد قال النبي صلى الله عليه و سلم اصنعوا لآل جعفر

طعاما؟ فقال: لم يكونوا هم اتخنوا إنما اتخذ لهم فهذا كله واجب على الرجل أن يمنع أهله منه و لا يرخص لهم فمن أباح ذلك لأهله فقد عصى الله عز و جل و أعانها على الإثم و العدوان و الله تعالى يقول: { قوا أنفسكم و أهليكم نارا } قال العلماء: معناه أدبوهم و علموهم و روى ابن ماجه في سننه عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت و صنعة الطعام من النياحة و في حديث شجاع بن مخلد قال: كانوا يرون أن إسناده صحيح و ذكر الخرائطي عن هلال بن خباب قال: الطعام على الميت من أمر الجاهلية

و خرج الآجري عن أبي موسى قال: ماتت أخت لعبد الله بن عمر فقلت لامرأتي: اذهبي فعزيهم و بيتي عندهم فقد كان بيننا و بين آل عمر الذي كان فجاءت فقال: ألم أمرك أن تبيتي عندهم؟ فقالت: أردت أن أبيت فجاء ابن عمر فأخرجنا و قال: اخرجن لا تبينن أختي بالعذاب و عن أبي البخري قال: بيوتة الناس عند أهل الميت ليست إلا من أمر الجاهلية

قال المؤلف رحمه الله: و هذه الأمور كلها قد صارت عند الناس الآن سنة و تركها بدعة فانقلب الحال و تغيرت الأحوال قال ابن عباس رضي الله عنه: لا يأتي على الناس عام إلا أماتوا فيه سنة و أحيوا فيه بدعة حتى تموت السنن و تحيا البدع و لن يعمل بالسنن و ينكر البدع إلا من هون الله عليه إسقاط الناس بمخالفتهم فيما أرادوا و نهيهم عما اعتادوا و من يسر لذلك أحسن الله تعويضه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: [إنك لن تدع شيئا إلا عوضك الله خيرا منه] و قال صلى الله عليه و سلم: [لا يزال في هذه الأمة عصاة يقاتلون على أمر الله لا يضرهم جدال من جادهم و لا عداوة من عاداهم]

فصل: و من هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: [ليس منا من لطم الخلود و شق الجيوب و دعا بدعوى الجاهلية] و فيهما أيضا عن أبي بردة بن أبي موسى قال: و جمع أبو موسى و جمع فغشي عليه و رأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئا فلما أفاق قال: أنا برىء مما برىء منه رسول الله صلى الله عليه و سلم فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم برىء من الصالحة و الحالقة و الشاققة

و في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد و أبي بردة بن أبي موسى قالا: أغمي على أبي موسى و أقبلت امرأته تصيح برنة قالا: ثم أفاق قال: ألم تعلمي — و كان يحدثها — أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: [أنا برىء ممن حلق و سلق و خرق]؟

ابن ماجه عن [أبي أمامة: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لعن الخامشة وجهها و الشاققة جبيها و الداعية بالويل و الشور] إسناده صحيح و قال حاتم الأصم: إذا رأيت صاحب المصيبة قد خرق ثوبه و أظهر حزنه فعزيتنه فقد أشركته في إثمه و إنما هو صاحب منكر يحتاج أن تنهاه و قال أبو سعيد البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رحما يريد أن يقاتل به ربه عز و جل و أنشدوا:

(عجبت لجازع باك مصاب ... بأهل أو حميم ذي اكتئاب)

(شقيق الجيب داعي الويل جهلا ... كأن الموت كالشيء العجاب)

(و سوى الله فيه الخلق حتى ... نبي الله منه لم يحاب)

(له ملك ينادي كل يوم: ... لدوا للموت و ابوا للخراب)

باب ما جاء في تلقين الإنسان بعد موته شهادة الإخلاص في لحده

ذكر أبو محمد عبد الحق يروي [عن أبي أمانة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع و لا يجيب ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ثم يقول : يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول : أرشدنا رحمك الله و لكنكم لا تسمعون فيقول : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا : شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و أنك رضيت بالله ربا و بالإسلام دينا و بمحمد صلى الله عليه و سلم نبيا و بالقرآن إماما فإن منكرا و نكيرا يتأخر كل واحد منهما و يقول : انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا و قد لقن حجته و يكون الله حجيجهما دونه فقال رجل : يا رسول الله فإن لم تعرف أمه ؟ قال : ينسبه إلى أمه حواء]

قلت : هكذا ذكره أبو محمد في كتاب العاقبة لم يسنده إلى كتاب و لا إلى إمام و عاداته في كتبه نسبة ما يذكره من الحديث إلى الأئمة و هذا و الله أعلم نقله من إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد فنقله كما وجد و لم يزد عليه و هو حديث غريب خرج الثقفى في الأربعين له أنبأناه الشيخ المسن الحاج الرواية : أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح بن أبي الحسن القرشي — عرف بابن رواح — بمسجده بئثر الإسكندرية حماه الله و الشيخ الفقيه الإمام مفتي الأنام أبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمنية ابن خصيب على ظهر النيل بها قالوا جميعا : حدثنا الشيخ الإمام الحافظ أبو ظاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني قالوا : أخبرنا الرئيس أبو عبد الله القاسم بن الفضل بن أحمد بن محمود النقفى بأصبهان أخبرنا أبو علي الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدان التاجر بنيسابور حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثنا أبو الدرداء هاشم بن يعلى الأنصاري حدثنا عتبة بن السكن الفزاري الحمصي عن أبي زكريا عن حماد بن زيد عن سعيد الأزدي قال : دخلت على أبي أمانة الباهلي و هو في النزاع فقال لي : يا سعيد إذا أنا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن نصنع بموتانا فقال : [إذا مات الرجل منكم فدفنتموه فليقم أحدكم عند رأسه فليقل : يا فلان ابن فلانة فإنه سيمسح فليقل يا فلان ابن فلانة فإنه يستوي قاعدا فليقل يا فلان ابن فلانة فإنه سيقول : أرشدنا يرحمك الله فليقل : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا : شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله باعث من في القبور فإن منكرا و نكيرا عند

ذلك يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه و يقول : ما نصنع عند رجل لقن حجته فيكون الله حجيجهما دونه]
حديث أبي أمانة في النزاع غريب من حديث حماد بن زيد ما كتبه إلا من حديث سعيد الأزدي
قال أبو محمد عبد الحق : و قال شيبه بن أبي شيبه : أوصتني أمي عند موتها فقالت لي : يا بني إذا دفنتني فقم عند قبري و قل يا أم شيبه قولي : لا إله إلا الله ثم انصرف فلما كان من الليل رأيتها في المنام فقالت لي : يا بني لقد كدت أن أهلك لولا أن تداركني لا إله إلا الله فلقد حفظني في وصيتي يا بني
قال المؤلف : قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي : ينبغي أن يرشد الميت في قبره حيث يوضع فيه إلى جواب السؤال و يذكر بذلك فيقال له : قل الله ربي و الإسلام ديني و محمد رسولي فإنه عن ذلك يسأل كما جاءت به الأخبار على ما يأتي إن شاء الله و قد جرى العمل عندنا بقرطبة كذلك فيقال : قل هو محمد رسول الله و ذلك عند هيل التراب و لا يعارض هذا بقوله تعالى : { و ما أنت بمسمع من في القبور } و قوله : { إنك لا تسمع الموتى } لأن النبي صلى الله عليه و سلم قد نادى أهل القليب و أسمعهم و قال : [ما أنتم بأسمع و لكنهم لا يستطيعون جوابا] و قد قال في الميت : [إنه ليسمع قرع نعاهم و أن هذا يكون في حال دون حال و وقت دون وقت] و سيأتي استيفاء هذا المعنى في باب : ما جاء أن الميت يسمع ما يقال : إن شاء الله

باب في نسيان أهل الميت ميتهم و في الأمل و الغفلة

أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن مشيبي الجنائز قد وكل بهم ملك فهم مهتمون مخزنون حتى إذا أسلموه في ذلك القبر و رجعوا راجعين أخذ كفا من تراب فرمى به و هو يقول : ارجعوا إلى دياركم أنساكم الله موتاكم فيسون ميتهم و يأخذون في شرائهم و بيعهم كأنهم لم يكونوا منه و لم يكن منهم]

و يروى أن الله عز و جل لما مسح على ظهر آدم عليه السلام فاستخرج ذريته قالت الملائكة : رب لا تسعهم الأرض قال الله تعالى : إني جاعل موتا : قالت : رب لا يهنيهم العيش قال : إني جاعل أملا : فالأمل رحمة من الله تعالى ينظم به أسباب المعاش و يستحكم به أمور الدنيا و يتقوى به الصانع على صنعته و العابد على عبادته و إنما يدم من الأمل ما امتد و طال حتى أنسى العاقبة و ثبط عن صالح الأعمال قال الحسن : الغفلة و الأمل : نعمتان عظيمتان على ابن آدم و لولاهما ما مشى المسلمون في الطرق يريد لو كانوا من التيقظ و قصر الأمل و خوف الموت بحيث لا ينظرون إلى معاشهم و ما يكون سببا لحياتهم لهلكوا و نحوه قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلي ؟ لخشيت ذهاب عقلي و لكن الله سبحانه من على عباده بالغفلة عن الموت و لولا الغفلة ما تموتوا بعيش و لا قامت بينهم الأسواق

باب في رحمة الله بعبده إذا أدخل في قبره

قال عطاء الخراساني : أرحم ما يكون الرب بعبده إذا دخل في قبره و تفرق الناس عنه و أهله و روي عن ابن عباس مرفوعا و قال أبو غالب : كنت أختلف إلى أبي أمامة الباهلي بالشام فدخلت يوما على فتى مريض من جيران أبي أمامة و عنده عم له و هو يقول : يا عدو الله ألم أمرك ؟ ألم أمك ؟ فقال الفتى : يا عماه لو أن الله دفعني إلى والدتي : كيف كنت صانعة بي ؟ قال : تدخلك الجنة قال : الله أرحم بي من والدتي و قبض الفتى فدخلت القبر مع عمه فلما أن سواه صاح و فزع قلت له مالك ؟ قال : فسح له في قبره و ملئ نورا

و كان أبو سليمان الداراني يقول في دعائه : يا من لا يأنس بشيء أبقاها و لا يستوحش من شيء أفناه و يا أنيس كل غريب أرحم في القبر غربتي و يا ثاني كل و حيد أنس في القبر و حدتي و لقد أحسن أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مفاوز السلمي الكاتب أحد البلغاء بشرق الأندلس حيث يقول :

(أيها الواقف اعتبارا بقبري ... استمع فيه قول عظمي الرميم)

(أودعوني بطن الصريح و خافوا ... من ذنوبي و آيسوا من نعيم)

(قلت : لا تجزعوا علي فإني ... حسن الظن بالرووف الرحيم)

(و دعوني بما اكتسبت رهينا ... غلق الرهن عند مولى كريم)

باب متى يرتفع ملك الموت عن العبد ؟ و بيان قوله تعالى : و جاءت كل نفس معها سائق و شهيد و قوله تعالى : لتركن طبقا عن طبق

أبو نعيم [عن أبي جعفر محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز و جل إن الله — لا إله غيره إذا أراد خلقه — قال للملك : اكتب رزقه و أثره و أجله و اكتب شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله

ملكين يكتبان حسناته و سيئاته فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك المكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رد الروح في جسده ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انخط عليه ملك الحسنات و ملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه : واحد سائق و الآخر شهيد ثم قال الله عز و جل : { لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد } قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في : لتركبن طبقا عن طبق قال : حالا بعد حال [ثم قال النبي صلى الله عليه و سلم : [إن قدامكم أمر عظيم فاستعينوا بالله العظيم] قال أبو نعيم : هذا حديث غريب من حديث أبي جعفر و حديث جابر تفرد به عنه جابر ابن يزيد الجعفي و عنه المفضل قلت : جابر بن يزيد الجعفي متروك لا يحتج بحديثه في الأحكام و وجد بمدينة قرطبة على قبر الوزير الكبير أبي عامر بن شهيد مكتوبا و هو مدفون بإزاء صاحبه الوزير أبي مروان الزجاجي و كأنه يخاطبه و دفنا في بستان كانا كثيرا ما يجتمعان فيه :

(يا صاحبي قم فقد أطلنا ... أنحن طول المدى هجود ؟)

(فقال لي : لن تقوم منها ... ما دام من فوقنا الصعيد)

(نذكر كم ليلة نعمنا ... في ظلها و الزمان عيد)

(و كم ينير همى علينا ... سحابة ثرة بجود)

(كل كأن لم يكن تقضى ... و شؤمه حاضر عتيد)

(حصله كاتب حفيظ ... و ضمه صادق شهيد)

(يا حسرتا إن تنكبنا ... رحمة من بطشه شديد)

(يا رب عفوا فأنت مولى ... قصر في حقه العييد)

باب في سؤال الملكين للعبد و في التعوذ من عذاب القبر و عذاب النار

البخاري [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن العبد إذا وضع في قبره و تولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتام ملكان فيقعد أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه و سلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله و رسوله فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله تعالى به مقعدا من الجنة فبراهما جميعا] قال قتادة : و ذكر لنا أنه يفسح له في قبره أربعون ذراعا و قال مسلم : سبعون ذراعا و يملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون ثم رجع إلى حديث أنس قال : [و أما المنافق و الكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت و لا تليت و يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين] قلت : ليس عند مسلم ثم رجع إلى حديث أنس إلى آخره و إنما هو عند البخاري فحديثه أكمل و قول الملكين : و لا تليت :

قال النحويون : الأصل في هذه الكلمة : الواو أي و لا تلوت إلا أنها قلبت ياء ليتبع بها دريت و قد جاء من حديث البراء : [لا دريت و لا تلوت] على ما رواه الإمام أحمد بن حنبل : أي لم تدر و لم تتل القرآن فلم تنتفع بدرايتك و لا تلاوتك

ابن ماجه [عن أبي هريرة عن النبي قال : إن الميت يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع و لا

مشغوف ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : كنت في الإسلام ! فيقال : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له : هل رأيت الله ؟ فيقول : لا ما ينبغي لأحد أن يرى الله ! فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضا فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله ثم يفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها و ما فيها فيقال له : هذا مقعدك]

و يقال له : على اليقين كنت و عليه مت و عليه تبعث إن شاء الله تعالى و يجلس الرجل السوء في قبره فزعا مرعوبا فيقال له : فيما كنت ؟ فيقول : لا أدري فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلته فيفرج له فرجة قبل الجنة فينظروا إلى زهرتها و ما فيها فيقال له انظر إلى ما صرفه الله عنك ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضا فيقال : هذا مقعدك على الشك كنت و عليه مت و عليه تبعث إن شاء الله تعالى]

الترمذي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا أقبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر و للآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول فيه : هو عبد الله و رسوله أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له : ثم فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان : ثم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك و إن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلته مثله : لا أدري فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض : التمي عليه فتختلق أضلاعه فلا يزال فيها فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك] قال حديث حسن غريب

أبو داود [عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم دخلا نخلا لبني النجار فسمع صوتا ففرع فقال : من أصحاب هذه القبور ؟ قالوا : يا رسول الله ناس ماتوا في الجاهلية فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر و من فتنة الدجال قالوا : و مم ذاك يا رسول الله ؟ قال : إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول له : ما كنت تعبد ؟ فإن هداه الله قال : كنت أعتبد الله فيقال : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول هو عبد الله و رسوله فما يسأل عن شيء غيرها فينطلق به إلى بيت كان له في النار فيقال له : هذا بيتك كان في النار و لكن عصمك و رحمتك فأبدلك بيتا في الجنة فيقول دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي فيقال له : اسكن و إن الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره و يقول : ما كنت تعبد ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول كما يقول الناس فيضرب بمطارق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين]

و خرج أبو داود أيضا [عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر و لما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه و سلم و جلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير و في يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا قال : و إنه ليسمع خفق نعالمهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له : من ربك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيك ؟ قال : و يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له : و ما يدريك ؟ قال : قرأت كتاب الله فآمنت و صدقت] قال : فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة و ألبسوه من الجنة و افتحوا له بابا إلى الجنة قال : فيأتيه من روحها و طيبها قال : و يفسح له مد بصره

قال : و إن الكافر فذكر موته قال : و تعاد روحه في جسده و يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟
فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان : ما هذا الرسول الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري قال : فينادي مناد
: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار و ألبسوه من النار و افتحوا له بابا إلى النار قال : فيأتيه من حرها و سموها
قال : و يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه [زاد في حديث جرير قال :] ثم يقبض له أعمى أبكم معه مرزبة
من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا قال : فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق و المغرب إلا الثقلين فيصير
ترابا ثم تعاد فيه الروح [

فصل : ذكره أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : و قد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال يا رسول
الله : ما أول ما يلقي الميت إذا دخل قبره ؟ قال : يا ابن مسعود ما سألتني عنه أحد إلا أنت فأول ما يتأديه ملك
اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول : يا عبد الله اكتب عملك فيقول : ليس معي دواة و لا قرطاس فيقول :
هيهات كفنك قرطاسك و مدادك ريقك و قلمك إصبعك فيقطع له قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكب و إن كان
غير كاتب في الدنيا فيذكر حينئذ حسناته و سيئاته كيوم واحد ثم يطوى الملك القطعة و يعلقها في عنقه
ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [قوله تعالى : { و كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه } أي : عمله فإذا
فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر و هما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما لهما شعور مسدولة يجرانها على
الأرض كلامها كالرعد القاصف و أعينهما كالبراق الخاطف و نفسهما كالريح العاصف بيد كل واحد منهما مقمع
من حديد لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكا فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت و ولت
هاربة فتدخل في منخر الميت فيحيا الميت من الصدر و يكون كهيأته عند الغرغرة و لا يقدر على حراك غير أمه
يسمع و ينظر قال : فيقعدانه فيبتدئانه بعنف و يتتهرانه بجفاء و قد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفسح فيه و
وجد فرجة فيقولان له : من ربك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيك ؟ و ما قبلتك ؟ فمن وفقه الله و ثبته بالقول الثابت
قال : و من و كلكما علي ؟ و من أرسلكما إلي ؟ و هذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار فيقول أحدهما للآخر : صدق
كفي سرنا ثم يضربان عليه القبر كلقبة العظيمة و يفتحان له بابا إلى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها و
ريحانها و يدخل عليه من نسيمها و روحها و ريحانها و يأتيه عمله في صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه و يحدثه و
يملاً قبره نورا و لا يزال في فرح و سرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة و يسأل : متى تقوم الساعة ؟ فليس
شيء أحب إليه من قيامها

و دونه في المنزلة المؤمن العامل الخير ليس معه حظ من العلم و لا من أسرار الملكوت يلج عليه عمله عقيب رومان
في أحسن صورة طيب الريح حسن الثياب فيقول له : أما تعرفني ؟ فيقول : من أنت الذي من الله علي بك في
غربتي ؟ فيقول : أنا عمك الصالح فلا تحزن و لا توجل فعما قليل يلج عليك منكر و نكير يسألانك فلا تلهش ثم
يلقنه حجته فيبينما هو كذلك إذ دخلا عليه فينتهرانه و يقعدانه مستندا و يقولان : من ربك ؟ — نسق الأول —
فيقول : الله ربي و محمد نبيي و القرآن إمامي و الكعبة قبلتي و إبراهيم أبي و ملته ملتي غير مستعجم فيقولان له :
صدقت و يفعلان به كالأول إلا أنهما يفتحان له بابا إلى النار فينظر إلى حياتها و عقاربها و سلاسلها و أغلالها و
حميمها و جميع غمومها و صديدها و زقومها فيفرغ فيقولان له : لا عليك سوء هذا موضعك قد أبدله الله تعالى
بموضعك هذا من الجنة ثم سعيدا ثم يغلقان عنه باب هذا النار و لم يدر ما مر عليه من الشهور و الأعوام و الدهور
و من الناس من يحجم في مسألته فإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول : الله ربي و أخذ غيرها من الألفاظ
فيضربانه ضربة يشعل منها قبره ناراً ثم تطفأ عنه أياما ثم تشعل عليه أيضا هذا دأبه ما بقيت الدنيا و من الناس من

يعتاص عليه و يعسر أن يقول : الإسلام ديني لشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره نارا كالأول و من الناس من يعتاص عليه أن يقول : القرآن إمامي لأنه كان يتلوه و لا يتعظ به و لا يعمل بأوامره و لا ينتهي بتواهيه يطوف عليه دهره و لا يعطي منه نفسه خيره فيفعل له ما يفعل بالأولين و من الناس من يستحيل عمله جرؤا يعذب في قبره على قدر جرمه]

و في الأخبار : أن في الناس من يستحيل عمله خصوصا — و هو ولد الخنزير — و من الناس من يعتاص عليه أن يقول : نبيي محمد لأنه كان ناسيا لسنته و من الناس من يعتاص عليه أن يقول : الكعبة قبلني لقلته تحريه في صلاته أو فساده في وضوئه أو الثفات في صلاته أو اختلال في ركوعه و سجوده و يكفيك ما روي في فضائلها أن الله لا يقبل صلاة من عليه صلاة و من عليه ثوب حرام و من الناس من يعتاص عليه أن يقول : إبراهيم أبي لأن سمع كلاما يوما أو همه أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فإذا هو شك مراتب فيفعل به ما يفعل بالآخرين و قال أبو حامد : و كل هذه الأنواع كشفناها في كتاب الأحياء

و أما الفاجر فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري ! فيقولان له : لا دريت و لا عرفت ثم يضربانه بتلك المقام حتى يتلجلج في الأرض السابعة ثم تنفضه الأرض في قبره ثم يضربانه سبع مرات ثم تفترق أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كليا ينهشه حتى تقوم الساعة و هم الخوارج و منهم من يستحيل خنزيرا يعذب به في قبره و هم المرتابون و هم أنواع و أصله أن الرجل إنما يعذب في قبره بالشيء الذي كان يخافه في الدنيا فمن الناس من يخاف من الجرو أكثر من الأسد و طبائع الخلق متفرقة نسأل الله السلامة و الغفران قبل الندامة

فصل : جاء في حديث البخاري و مسلم : سؤال الملكين و كذلك في حديث الترمذي و نص على اسميهما و نعتها و جاء في حديث أبي داود : سؤال ملك واحد و في حديثه الآخر : سؤال ملكين و لا تعارض في ذلك و الحمد لله : بل كان ذلك صحيح المعنى بالنسبة إلى الأشخاص قرب شخص يأتيانه جميعا و يسألانه جميعا في حال واحد عند انصراف الناس ليكون السؤال عليه أهون و الفتنة في حقه أشد و أعظم و ذلك بحسب ما اقترف من الآثام و اجترح من سيء الأعمال و آخر يأتيه قبل انصراف الناس عنه و آخر يأتيه أحدهما على الانفراد فيكون ذلك أخف في السؤال و أقل في المراجعة و العتاب لما عمله من صالح الأعمال

و قد يحتمل حديث أبي داود وجه آخر و هو : أن الملكين يأتيان جميعا و يكون السائل أحدهما و إن تشاركا في الإتيان فيكون الراوي اقتصر على الملك السائل و ترك غيره لأنه لم يقل في الحديث أنه لا يأتيه إلى قبره إلا ملك واحد و لو قاله هكذا صريحا لكان الجواب عنه ما قدمناه من أحوال الناس و الله أعلم و قد يكون من الناس من يوقى فتنتهما و لا يأتيه أحد منهما على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

و اختلفت الأحاديث أيضا في كيفية السؤال و الجواب و ذلك بحسب اختلاف أحوال الناس فمنهم من يقتصر على سؤاله عن بعض اعتقاداته و منهم من يسأل عن كلها فلا تناقص و وجه آخر هو : أن يكون بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال و أتى به غيره على الكمال فيكون الإنسان مسؤولا عن الجميع كما جاء في حديث البراء المذكور و الله أعلم و قول المسؤل : هاه هاه هي حكاية صوت المبهور من تعب أو جري أو حمل ثقيل

باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم و في

قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسي و عبد بن حميد في مسنديهما و علي بن معبد في كتاب الطاعة و المعصية و هناد بن

السرى في زهده و أحمد بن حنبل في مسنده و غيرهم

و هو حديث صحيح له طرق كثيرة تهمم بتخريج طرقه علي بن معبد فأما أبو داود الطيالسي فقال : [حدثنا أبو عوانة عن الأعمش و قال هناد و أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن عمرو و قال : أبو داود : حدثنا عمرو بن ثابت سمعه من المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء — يعني ابن عازب — و حديث أبي عوانة أتمهما قال البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر و لما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه و سلم و جلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير] قال عمر بن ثابت : وقع و لم يقله أبو عوانة فجعل يوع بصره و ينظر إلى السماء و يخفض بصره و ينظر إلى الأرض ثم قال : أعود بالله من عذاب القبر قالها مرارا ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة و انقطاع من الدنيا جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله و رضوان فخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السماء قال : عمرو في حديثه و لم يقله أبو عوانة [و إن كنتم ترون غير ذلك و تنزل ملائكة من الجنة يبيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة و حوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين قال : فذلك قوله تعالى : { توفته رسلنا و هم لا يفرطون } قال : فخرج نفسه كأطيب ريح و جدت فتعرج به الملائكة فلا يأتون على جند بين السماء و الأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له و يشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى السماء السابعة فيقال : اكتبوا كتابه في عليين { و ما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون } فيكتب كتابه في عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإني وعدتكم أني منها خلقتهم و فيها نعيتهم و منها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرد إلى الأرض و تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهزانه و يجلسانه فيقولان من ربك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيك ؟ فيقول ربي الله و ديني الإسلام فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان : و ما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به و صدقت قال : و ذلك قوله تعالى : { ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة } قال : و ينادي منادي السماء أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة و ألبسوه من الجنة و أروه منزله منها و يفسح له مد بصره و يمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ابشر برضوان من الله و جنات فيها نعيم مقيم فينقول : بشرك الله بخير من أنت فوجهك الوجه الذي جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذي كنت توعد أو الأمر الذي كنت توعد أنا عملك الصالح فو الله ما علمتكم إلا كنت سريعا في طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا فيقول يارب أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي و مالي قال : فإن كان فاجرا و كان في إقبال من الدنيا و انقطاع من الآخرة جاء ملك فجلس عند رأسه فقال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة أبشري بسخط من الله و غضبه فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين قال : فتفرق في جسده فيستخرجها تقطع منها العروق و العصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف المتبل فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة و جدت فلا تمر على جند فيما بين السماء و الأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم فيقولون : ردوه إلى الأرض إني وعدتكم أني منها خلقتهم و فيها نعيتهم و منها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمي به من السماء قال : و تلا هذه الآية { و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق } قال : فيعاد إلى الأرض و تعاد فيه روحه و يأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهزانه و يجلسانه فيقولون : من ربك ؟ و ما دينك ؟ فيقول : لا

أردني فيقولون : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال : محمد فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه و يمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بعذاب الله و سخطه فيقول : من أنت فوجهك الذي جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فو الله ما عملتك إلا كنت بطيئا عن طاعة الله سريعا إلى معصية الله [قال عمرو في حديثه] عن المنهال عن زاذان عن البراء عن النبي صلى الله عليه و سلم : فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبه ضرب بها جبل صار ترابا أو قال : رميما فيضربه به ضربة تسمعها الخلائق إلا الثقلين ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى [لفظ أبي داود الطيالسي و خرجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه : و زاد فيه :] ثم يقيض له اعمى أصم معه مرزبة من حديد فيضربه فيدق بها من ذؤابته إلى خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره [و زاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد : لو اجتمع عليه الثقلان لم ينقلوها فيضرب بها ضربة فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح و يضرب بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين ثم يقال : افروا له لوحين من نار و افنحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار و يفتح له باب إلى النار و زاد فيه عند قوله : و انقطع من الدنيا :] نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار و سراويل من قطران محتوشونه فتترع نفسه كما ينترع السفود الكثير الشعب من الصوف المتل يقطع معه عروقها فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك في السماء و كل ملك في الأرض [و خرج أبو عبد الله الحسين بن الحسين بن حرب صاحب ابن المبارك في رقايقه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول :] إذا قتل العبد في سبيل الله كان أول قطرة تقطر من دمه إلى الأرض كفارة للخطايا ثم يرسل الله عز و جل بربطة من الجنة فيقبض فيها روحه و صورة من صور الجنة فيركب فيها روحه ثم يعرج مع الملائكة كأن معهم و الملائكة على أرجاء السماء فيقولان : قد جاء روح من الأرض طيبة و نسمة طيبة فلا ترم باب إلا فتح لها و لا ملك إلا صلى عليها و دعا لها : و يشيعها حتى يؤتى بها الرحمن فيقولون : يا ربنا هذا عبدك توفيته في سبيلك فيسجد قبل الملائكة ثم تسجد الملائكة بعد ثم يطهر و يغفر له ثم يؤمر فيذهب به إلى الشهداء فيجلهم في قباب من حرير في رياض خضر عندهم حوت و ثور يظل الحوت يسبح في أثمار الجنة يأكل من كل رائحة في أثمار الجنة فإذا أمسى و كزه الثور بقرنه فيأكلون لحمه فيجدون في لحمه طعم كل رائحة و يبيت الثور في أثمار الجنة فإذا أصبح غدا عليه الحوت فوكزه بذنبه فيأكلون لحمه فيجدون في لحمه طعم كل رائحة في الجنة ثم يعودون و ينظرون إلى منازلهم من الجنة و يدعون الله عز و جل أن تقوم الساعة فإذا توفي العبد المؤمن بعث الله عز و جل إليه ملكين و أرسل إليه بخرقة من الجنة فقال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح و ريحان و رب عنك غير غضبان فتخرج كأطيب ريح من مسك ما وجدها أحد بأنفه قط و الملائكة على أرجاء السماء يقولون قد جاء من قبل الأرض روح طيبة و نسمة طيبة فلا ترم باب إلا فتح لها و لا بملك إلا دعا لها و صلى عليها حتى يؤتى بها الرحمن فتسجد الملائكة ثم يقولون : هذا عبدك فلان قد توفيته و كان يعبدك لا يشرك بك شيئا فيقول مروه فليسجد فتسجد النسمة ثم يدعى ميكائيل فيقول : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعين ذراعا عرضه و سبعين ذراعا طوله و ينبذ له فيه الرياحين و يستر بالحرير فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره و إن لم يكن معه جعل له في قبره نور مثل نور الشمس و يكون مثله كمثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه قال : فيقوم من نومه كأنه لم يشبع من نومته و إذا توفي العبد الفاجر أرسل الله إليه ملكين و أرسل بقطعة من نجاد أنت من كل نتن و أخشن من كل خشن فقالا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى حميم و عذاب و رب عليك غضبان اخرجي و ساء ما قدمت لنفسك

فتخرج كأنتن رائحة وجدها أحد بأنفه قط و على أرجاء السماء ملائكة يقولون : قد جاءت من الأرض روح خبيثة و نسمة خبيثة فتغلق دوتها أبواب السماء و لا تصعد إلى السماء ثم يؤمر فيضيق عليه قبره و يرسل عليه حيات أمثال أعناق البخت فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحما و يرسل عليه ملائكة صم عمي يضربونه بغطاطيس من حديد لا يسمعون صوته فيرحوه و لا يبصرونه فيرحوه و لا يخطئون حتى يضربونه و يعرض عليه مقعده من النار بكرة و عشيا يدعو بأن يدوم ذلك و لا يخلص إلى النار

و خرج أبو عبد الرحمن النسائي بسنده [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا احتضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : أخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح و ریحان و رب راض غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ؟ فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال : ما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية و إن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله فيخرج كأنتن ريح خبيثة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح ؟ حتى يأتوا به أرواح الكفار]

و خرج أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا حماد عن قتادة عن أبي الجوزاء عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا قبض العبد المؤمن جاءتته ملائكة الرحمة فتسلم تسلم نفسه في حريرة بيضاء فيقولون : ما وجدنا ريحا أطيب من هذه فيسألونه فيقولون : ارفقوا به فإنه خرج من غم الدنيا فيقولون : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ قال : و أما الطافر فتخرج نفسه فتقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحا أنتن من هذه فيهبط به إلى أسفل الأرض]

الرد على الملحدة

قلت : و هنا فصول ستة في الرد على الملحدة :

الفصل الأول

تأمل يا أخي وفقني الله و إياك هذا الحديث و ما قبله من الأحاديث ترشدك إلى أن الروح و النفس شيء واحد و أنه جسم لطيف مشابك للأجسام الحسوسة يجذب و يخرج و في أكفانه يلف و يدرج : و به إلى السماء يعرج لا يموت و لا يفنى و هو مما له أول و ليس له آخر و هو بعينين و يدين و أنه ذو ريح طيب و خبيث و هذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض

و قد قال بلال في حديث الوادي : أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : مقابلا له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي : [يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا و لو شاء ردها إلينا في حيز غير هذا] و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [إن الروح إذا قبض تبعه البصر] و قال : [فذلك حين يتبع بصره نفسه] و هذا غاية في البيان و لا عطر بعد عروس و قد اختلف الناس في الروح اختلافا كثيرا : أصح ما قيل فيه : ما ذكرناه لك و هو مذهب أهل السنة : أنه جسم فقد قال تعالى : { الله يوفى الأُنفس حين موتها } قال أهل التأويل : يريد الأرواح و قد قال تعالى : { فلولا إذا بلغت الحلقوم } يعني النفس عند خروجها من الجسد و هذه صفة الجسم و لم يجز لها ذكر في الآية لدلالة الكلام عليها كقول الشاعر :

(أماوي ما يعني الشراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما و ضاق بها الصدر)

و كل من يقول : إن الروح يموت و يفنى فهو ملحد و كذلك من يقول : بالتناسخ : أنها إذا خرجت من هذا ركبت في شيء آخر : حمار أو كلب أو غير ذلك و إنما هي محفوظة بحفظ الله إما منعمة و إما معذبة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

الفصل الثاني

الإيمان بعذاب القبر و فنتته : واجب و التصديق به : لازم حسب ما أخبر به الصادق و أن الله تعالى يجيبي العبد المكلف في قبره برد الحياة إليه و يجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه و ما يجيب به و يفهم ما أتاه من ربه و ما أعد له في قبره من كرامة أو هوان و بهذا نطقت الأخبار عن النبي المختار صلى الله عليه و سلم و على آله آناء الليل و أطراف النهار و هذا مذهب أهل السنة و الذي عليه الجماعة من أهل الملة و لم تفهم الصحابة الذين نزل القرآن بلسانهم و لغتهم من نبيهم عليه السلام غير ما ذكرنا و كذلك التابعون بعلمهم إلى هلم جرا و لقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه — [لما أخبر النبي صلى الله عليه و سلم بفتنة الميت في قبره و سؤال منكر و نكير و هما الملكان له : يا رسول الله أيرجع إلى عقلي ؟ قال : نعم قال : إذا أكهيكهما و الله لئن سألاني سألتهما فأقول لهما : أنا ربي الله فمن ربكما أنتما ؟]

و خرج الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث [عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ذكر يوما فتاني القبر فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أترد علينا عقولنا يا رسول الله ؟ فقال : نعم كهياتكم اليوم] فقال عمر : في فيه الحجر و قال سهل بن عمار : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته فقلت له ما فعل الله بك ؟ فقال إنه أتاني في قبري ملكان فظان غليظان فقالا : ما دينك ؟ و من ربك ؟ و من نبيك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء و قلت : أئثلي يقال هذا ؟ و قد عملت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا و قالا : أكتب عن حريز بن عثمان ؟ قلت نعم فقالا : إنه كان يغض عليا فأبغضه الله و في حديث البراء : [فتعاد روحه في جسده] و حسبك و قد قيل : إن السؤال و العذاب إنما يكون على الروح دون الجسد و ما ذكرناه لك أو لا أصح و الله أعلم

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس
الدين القرطبي

الفصل الثالث

أنكرت الملحدة من تذهب من الإسلاميين بمذهب الفلاسفة : عذاب القبر وأنه ليس له حقيقة واحتجوا بأن قالوا :
إنا نكشف القبر فلم نجد فيه ملائكة عميا صما يضربون الناس بفضاطيس من حديد و لا نجد فيه حيات و لا
ثعابين و لا نيرانا و لا تنانين و كذلك لو كشفنا عنه في كل حالة لوجدناه فيه لم يذهب و لم يتغير و كيف يصح
إقعاده و نحن لو وضعنا الزئبق بين عينيه لوجدناه بحاله فكيف يجلس و يضرب و لا يتفرق ذلك ؟ و كيف يصح
إقعاده و ما ذكرتموه من الفسحة ؟ و نحن نفتح القبر فنجد لحده ضيقا و نجد مساحته على حد ما حفرناها لم يتغير
علينا فكيف يسعه و يسع الملائكة السائلين له ؟ و إنما ذلك كله إشارة إلى حالات ترد على الروح من العذاب
الروحاني و إنما لا حقائق لها على موضوع اللغة

و الجواب : أنا نؤمن بما ذكرناه و الله أن يفعل ما يشاء من عقاب و نعيم و يصرف أبصارنا عن جميع ذلك بل يغيبه
عنا فلا يبعد في قدرة الله تعالى فعل ذلك كله بعد في قدرة الله تعالى فعل ذلك كله إذا هو القادر على كل ممكن
جائز فإنا لو شئنا لأزلناه الزئبق عن عينيه ثم نضعه و نرد الزئبق و كذلك يمكننا أن نعمق القبر و نوسعه حتى يقوم
فيه قياما فضلا عن العقود و كذلك يمكننا أن نوسع القبر ذراع فضلا عن سبعين ذراعا و الرب سبحانه أبسط منا
قدرة و أقوى منا قوة و أسرع فعلا و أحصى منا حسابا { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون } و لا
رب لمن يدعى الإسلام إلا من هذه صفته فإذا كشفنا نحن عن ذلك رد الله سبحانه الأمر على ما كان نعم لو كان
الميت بيننا موضوعا فلا يمتنع أن يأتيه الملك و يسأله من غير أن يشعر الحاضرون بهما و يجيبهما من غير أن يسمع
الحاضرون جوابهما و مثال ذلك : نائمان بيننا أحدهما ينعيم و الآخر يعذب و لا يسعر بذلك أحد من حولهما من
المتنبهين ثم إذا استيقظا أخبر كل واحد منهما عما كان فيه

و قد قال بعض علمائنا : إن دخول الملك القبور جائز أن يكون تأويله : اطلاعه عليها و على أهلها و أهلها
مدركون له عن بعد من غير دخول و لا قرب و يجوز أن يكون الملك للطافة أجزائه يتولج في خلال المقابر فيوصل
إليهم من غير نيش و يجوز أن ينشهما ثم يعيها الله إلى مثل حالها على وجه لا يدركها أهل الدنيا
و يجوز أن يكون الملك يدخل من تحت قبورهم من مداخل لا يهتدي الإنسان إليها

و بالجملة : فأحوال المقابر و أهلها على خلاف عادات أهل الدنيا في حياتهم فليس تنفاس أحوال الآخرة على أحوال
الدنيا و هذا مما لا خلاف فيه و لولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئا مما هنالك فإن قالوا : كل حديث يخالف
مقتضى العقول يقطع بتخطئة ناقله و نحن نرى المصلوب على صلبه مدة طويلة و هو لا يسأل و لا يجي و كذلك
يشاهد الميت على سيره و هو لا يجيب سائلا و لا يتحرك و من افترسه السباع و نهشه الطيور و تفرقت أجزاؤه
في أجواف الطير و بطون الحيتان و حواصل الطيور و أقاصي النجوم و مدارج الرياح فكيف تجتمع أجزاؤه ؟ أم
كيف تتألف أعضاؤه ؟ و كيف تتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه ؟ أم كيف يصير القبر على من هذا حاله
روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ؟ و الجواب عن هذا من وجوه أربعة :

أحدها : أن الذي جاء بهذا هم الذين جاؤوا بالصلوات الخمس و ليس لنا طريق إلا ما نقلوه لنا من ذلك الثاني : ما ذكره القاضي لسان الأمة و هو : أن المدفونين في القبور يسألون و الذين بقوا على وجه الأرض فإن الله تعالى يحب المكلفين عما يجري عليهم كما حجهم عن رؤية الملائكة مع رؤية الأنبياء عليه و السلام لهم و من أنكر ذلك فلينكر نزول جبرائيل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام و قد قال الله تعالى : في وصف الشياطين { إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم }

الثالث : قال بعض العلماء : لا يبعد أن ترد الحياة إلى المصلوب و نحن لا نشعر به كما أنا نحسب المغمى عليه ميتا و كذلك صاحب السكنته و ندفنه على حساب الموت و من تفرقت أجزاءه فلا يبعد أن يخلق الله الحياة في أجزائه قلت : و يعيده كما كان كما فعل بالرجل الذي أمر إذا مات أن يحرق ثم يسحق ثم يذري حتى تسفه الرياح [الحديث] و فيه : [فأمر الله البر فجمع ما فيه و أمر البحر فجمع ما فيه ثم قال : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : خشيتك أو قال مخافتك] خرجه البخاري و مسلم و في التزويل { فخذ أربعة من الطير } الآية الرابع : قال أبو المعالي : المرضي عندنا : أن السؤال يقع على أجزاء يعملها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها و يوجه السؤال عليها و ذلك غير مستحيل عقلا قال بعض علمائنا : و ليس هذا بأبعد من الذر الذي أخرجه الله تعالى من صلب آدم عليه السلام و أشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا : بلى

الفصل الرابع

فإن قالوا : ما حكم الصغار عندكم ! قلنا : هم كالبالغين و أن العقل يكمل لهم ليعرفوا بذلك منزلتهم و سعادتهم و يلهمون الجواب عما يسألون عنه و هذا ما تقتضيه ظواهر الأخبار فقد جاء أن القبر ينضم عليه كما ينضم على الكبار و قد تقدم و ذكر هناد بن السرى قال : حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [إن كان ليصلى على النفوس ما أن عمل خطيئة قط فيقول : اللهم أجره من عذاب القبر]

الفصل الخامس

فإن قالوا : فما تأويلكم في القبر : حفرة من النار أو روضة من رياض الجنة ؟ قلنا : ذلك محمول عندنا على الحقيقة لا على المجاز و أن القبر يملاً على المؤمن خضرا و هو العشب من البنات و قد عينه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : هو الریحان كما في حق الكافر يفرش له لوحان من نار و قد تقدم و قد حملة بعض علمائنا على المجاز و المراد خفة السؤال على المؤمن و سهولته عليه و أمنه فيه و طيب عيشه و وصفه بأنه جنة تشيها بالجنة و النعيم فيها بالرياض يقال : فلان في الجنة إذا كان في رغد من العيش و سلامة فالمؤمن يكون في قبره في روح و راحة و طيب عيش و قد رفع الله عن عينيه الحجاب حتى يرى مد بصره كما في الخبر و أرادته بحفرة النار ضغطة القبر و شدة المساءلة و الخوف و الأهل التي تكون فيها على الكفرة و بعض أهل البكائر : و الله أعلم و الأول أصح لأن الله سبحانه و رسوله يقص الحق و لا استحالة في شيء من ذلك

الفصل السادس

روى أبو عمر في التمهيد [عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب : أيها الناس إن الرجم حق فلا تأخذوا عنه و إن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد رجم] و أن أبا بكر قد رجم و إنا قد رجمنا بعدهما و سيكون أقوام من هذه الأمة يكذبون بالرجم و يكذبون بالدجال و يكذبون بطلوع الشمس من مغربها و يكذبونها بعذاب القبر و يكذبون بالشفاعة و يكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : هؤلاء هم القدرية و الخوارج و من سلك النار سبيلهم و افترقوا في ذلك فرقا فصار أبو الهذيل و بشر : إلى أن خرج عن سلمة الإيمان فإنه يعذب بين الفختين و أن المساءلة إنما تقع في تلك الأوقات و أثبت البلخي و كذلك الجبائي و ابنه : عذاب القبر و لكنهم نفوه عن المؤمنين و أثبتوه الكافرين و الفاسقين و قال الأكثرون من المعتزلة : لا يجوز تسمية ملائكة الله تعالى بمنكر و نكير و إنما المنكر ما يبدو من تلجلجله إذا سئل و تفريع الملكين له هو النكير و قال صالح : عذاب القبر جائز و أنه يجري على الموتى من غير رد الأرواح إلى الأجساد و أن الميت يجوز أن يألم و يحس و يعلم و هذا من ذهب جماعة من الكرامية و قال بعض المعتزلة : إن الله يعذب الموتى في قبورهم و يحدث فيهم الآلام و هم لا يشعرون فإذا حشروا و جدوا تلك الآلام و زعموا أن سبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران أو المعشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام فإذا عاد إليهم العقل و جدوا تلك الآلام و أما الباقيون من المعتزلة مثل ضرار بن عمرو و بشر المريسي و يحيى بن كامل و غيرهم فإنهم أنكروا عذاب القبر أصلا و قالوا : إن من مات فهو ميت في قبره إلى يوم البعث و هذه أقوال كلها فاسدة تردها الأخبار الثابتة و في التنزيل : { النار يعرضون عليها غدوا و عشيا } و سيأتي من الأخبار مزيد بيان و بالله التوفيق و العصمة و الله أعلم

باب ما جاء في صفة الملكين صلوات الله عليهما و صفة سؤالمهما

قد تقدم من حديث الترمذي : أنهما أسودان أزرقان يقال لأحدهما : منكر و للآخر : النكير [و روى معمر عن عمرو بن دينار و عن سعد بن إبراهيم عن عطاء ابن يسار أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعمر : كيف بك يا عمر إذا جاءك منكر و نكير إذا مت و انطلق بك إلى قومك و قاسوا ثلاثة أذراع و شبر في ذراع و شبر ثم غسلوك و كفوك و حنطوك ثم احتملوك فوضعوك فيه ثم أهالوا عليك التراب ؟ فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر : منكر و نكير أصواتهما كالرعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف يجران شعورهما معهما مزربة من حديد لو اجتمع عليها أهل الأرض لم يقلوها فقال عمر : يا رسول الله إن فرقنا فحق لنا أن نفرق أبعث على ما نحن عليه ؟ قال : نعم قال : إذا أكنيكمهما]

و روى نقلة الأخبار [عن ابن عباس في خبر الإسراء : أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : قلت : يا جبريل و ما ذاك ؟ قال : منكر و نكير يأتيان كل إنسان من البشر حين يوضع في قبره و حيدا فقلت : يا جبريل صفهما لي قال : نعم من غير أن أذكر لك طولهما و عرضهما ذكر ذلك منهما أقطع من ذلك غير أن أصواتهما كالرعد القاصف و أعينهما كالبرق الخاطف و أنبأهما كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههما و مناخرهما و مسامعهما يكسحان الأرض بأشعارها و يحفران الأرض بأظفارهما مع كل واحد منهما عمود من حديد لو اجتمع عليه من في الأرض ما حركوه يأتيان الإنسان إذا وضع في قبره و ترك و حيدا يسلكان روحه في جسده بإذن الله تعالى ثم يقعدانه في قبره فينتهرانه انتهارا يتقعقع منه عظامه و تزول أعضاؤه من مفاصله فيخر مغشيا عليه ثم يقعدانه فيقولان له : إنك في البرزخ فاعقل حالك و اعرف مكانك و ينتهرانه ثانية و يقولان : يا هذا ذهبت عنك الدنيا و أفضيت إلى معادك

فأخبرنا من ربك؟ وما دينك؟ و من نبيك؟ فإن كان مؤمنا بالله لقنه الله حجته فيقول : الله ربي و نبيي محمد و ديني الإسلام فينتهرانه عند ذلك انتهارا يرى أن أوصافه تفرقت و عروقه قد تقطعت و يقولان له : يا هذا انظر ما تقول فيثبته الله عنه بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و يلقنه الأمان و يدرأ عنه الفزع فلا يخافهما فإذا فعل ذلك بعده المؤمن استأنس إليهما و أقبل عليهما بالخصومة يخاصمهما و يقول : تهمداني كيما أشك في ربي و تريداني أن أتخذ غيره وليا و أنا أشهد أن لا إله إلا الله و هو ربي و ربكما و رب كل شيء و نبيي محمد و ديني الإسلام؟ ثم ينتهرانه و يسألانه عن ذلك فيقول : ربي الله فاطر السموات و الأرض إياه كنت أعبد و لم أشرك به شيئا و لم أتخذ غيره أحدا ربا أفتريدان أن ترداني عن معرفة ربي و عبادتي إياه؟ نعم هو الله الذي لا إله إلا هو قال : فإذا قال ذلك ثلاث مرات مجاوبة لهما تواضعا له حتى يستأنس إليهما أنس ما كان في الدنيا إلى أهل وده و يضحكان إليه و يقولان له : صدقت و بررت آقر الله عينيك و ثبتك أبشر بالجنة و بكرامة الله ثم يدفع عنه قبره هكذا و هكذا فيتسع عليه مد البصر و يفتتحان له بابا إلى الجنة فيدخل عليه من روح الجنة و طيب ريحها و نصرتها في قبره ما يتعرف به كرامة الله تعالى فإذا رأى ذلك استيقن بالفور فحمد الله ثم يفرشان له فراشا من إستبرق الجنة و يضعان له مصباحا من نور عند رأسه و مصباحا من نور عند رجله يزهران في قبره ثم ندخل عليه ريح أخرى فحين يشمها يغشاه النعاس فيقولان له : ارقد رقدة العروس قريير العين لا خوف عليك و لا حزن ثم يمثلان عمله الصالح في أحسن ما يرى من صورة و أطيب ريح فيكون عند رأسه و يقولان : هذا عملك و كلامك الطيب قد مثله الله لك في أحسن ما ترى من صورة و أطيب ريح ليؤنسك في قبرك فلا تكون وحيدا و يدرأ عنك هوام الأرض و كل دابة و كل أذى فلا يخذلك في قبرك و لا في شيء من مواطن القيامة حتى تدخل الجنة برحمة الله تعالى فتم سعيدا طوي لك و حسن مآب ثم يسلمان عليه و يطيران عنه [و ذكر الحديث و ما يلقة الكافر من الهوان الشديد و العذاب الأليم و حسبك بما تقدم

قلت : و هذا الحديث و إن كان في إسناده مقال لأنه يروى عن عمرو بن سليمان عن الضحاك بن مزاحم فهو حديث مرتب على أحوال مبنية و محتو على أمور مفسرة

فصل : قوله : [أتاك فتانا القبر منكر و نكير]

إنما سميا فتاني القبر لأن في سؤالهما انتهارا و في خلقهما صعوبة ألا ترى أنهما سميا منكرا و نكيرا؟ فإنما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الأدميين و لا خلق الملائكة و لا خلق الطير و لا خلق البهائم و لا خلق الهوام بل هما خلق بديع و ليس في خلقتهما أنس للناظرين إليهما جعلهما الله تكريما للمؤمن يثبته و ينصره و هتكاستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث حتى يحل عليه العذاب قاله أبو عبد الله الترمذي

فصل : إن قال قائل : كيف يخاطب الملكان جميع الموتى و هم مختلفوا الأماكن متباعدا القبور في الوقت الواحد و الجسم الواحد لا يكون في المكانين في الوقت الواحد و كيف تنقلب الأعمال أشخاصا و هي في نفسها أعراض؟ فالجواب عن الأول : ما جرى ذكره في هذا الخبر من عظم جنتيهما فيخاطبان الخلق الكثير الذين في الجهة الواحدة منهم في المرة الواحدة : مخاطبة واحدة يخيل لكل واحد أن المخاطب هو دون من سواه و يكون الله يمنع سماعه من مخاطبة الموتى لهما و يسمع هو مخاطبتهما أن لو كانوا معه في قبر واحد و قد تقدم أن عذاب القبر يسمعه كل شيء إلا الثقلين و الله سبحانه و تعالى يسمع من يشاء و هو على كل شيء قدير

و الجواب عن الثاني : أن الله يخلق من ثواب الأعمال أشخاصا حسنة و قبيحة لا أن العرض نفسه ينقلب جوهرًا إذ ليس من قبيل الجواهر و مثل هذا ما صحح في الحديث : [أنه يؤتى بالموت كأنه كبش أملح فيوقف على الصراط

فيذبح [و محال أن ينقلب الموت كبشاً لأن الموت عرض و إنما المعنى أن الله سبحانه يخلق شخصاً يسميه الموت فيذبح بين الجنة و النار و هكذا كلما ورد عليك في هذا الباب التأويل فيه ما ذكرت لك و الله سبحانه أعلم و سيأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى

باب اختلاف الآثار في سعة القبر على المؤمنين بالنسبة إلى أعمالهم

جاء في حديث البخاري و مسلم : [أنه يفسح له سبعون ذراعاً] و في الترمذي : [سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً] و في حديث البراء : [مد البصر] و خرج علي بن معبد عن معاذة قالت : قلت لعائشة رضي الله عنها : ألا تحبيننا عن مقبورنا ما يلقي و ما يصنع به ؟ فقالت : إن كان مؤمناً ففسح له في قبره أربعون ذراعاً قلت : و هذا إنما يكون بعد ضيق و السؤال و أما الكافر فلا يزال قبره عليه ضيقاً فنسأل الله العفو و العافية في الدنيا و الآخرة

سمعت بعض علمائنا يقول : إن حفاراً كان بقرافة مصر يحفر القبور فحفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها غشيه النعاس فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلاً فوقفت على أحد الأقبور فقال أحدهما لصاحبه : اكتب فرسخاً في فرسخ ثم وقفا على الثاني : فقال أحدهما لصاحبه : اكتب فرسخاً في فرسخ ثم وقفا على الثاني : اكتب ميلاً في ميل ثم وقفا على الثالث فقال : اكتب فترا في فتر ثم انتبه فجاء برجل غريب لا يؤبه له فدفن في القبر الأول ثم جيء برجل آخر فدفن في القبر الثاني ثم جيء بامرأة مترفة من وجوه أهل البلد حولها ناس كثير فدفنت في القبر الضيق الذي سعته فترا في فتر

الفتن : ما بين الإجماع و السبابة نعوذ بالله من ضيق القبر و عذابه

باب ما جاء في عذاب القبر و أنه حق و في اختلاف عذاب الكافرين و في

قبورهم و ضيقها عليهم

قال الله تعالى : { و من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً } قال أبو سعيد الخدري و عبد الله بن مسعود : ضنكاً قال : عذاب القبر و قيل في قوله عز و جل : { و إن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك } هو : عذاب القبر لأن الله ذكره عقب قوله { فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون } و هذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام الدنيا فدل على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر و كذلك قال : { و لكن أكثرهم لا يعلمون } لأنه غيب و قال : { و حاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً و عشياً } فهذا عذاب القبر في البرزخ و سيأتي و قال ابن عباس فس قوله تعالى : { كلا سوف تعلمون } ما ينزل فيكم من العذاب في القبر { ثم كلا سوف تعلمون } : في الآخرة إذا حل بكم العذاب فالأول في القبر و الثاني في الآخرة فالتكرير للحاليتين و روى زر بن حبیش عن علي رضي الله عنه قال كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة { ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون } يعني في القبور و قال أبو هريرة : يضيّق على الكافر قبره حتى تختلف فيها أضلاعه و هو المعيشة الضنك

و روى أبي هريرة [عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ؟] فإن له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى { أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : عذاب الكافر في القبر و الذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة و تسعون تينياً أتدرون ما التينين ؟ تسعة و تسعون حية لكل حية

تسعة أرؤس ينفخن في جسمه و يلسعنه و يחדشنه إلى يوم القيامة و يحشر من قبره إلى موقفه أعمى [و ذكر أبو بكر بن أبي شيبة] عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يسלט على الكافر في قبره تسعة و تسعون تينا تنهشه و تلدغه حتى تقوم الساعة و لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضرا [و في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفا :] ثم يؤمر به يعني الكافر فيضيق عليه قبره و يرسل عليه حيات كأمثال أعناق البخت فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحما و ترسل عليه ملائكة صم عمي يضر بونه بفظاطيس [الحديث و قد تقدم

فصل : لا تظن — رحمك الله — أن هذا معارض للحديث المرفوع : [أنه يسלט على الكافر أعمى أصم] فإن أحوال الكفار تختلف فمنهم من يتولى عقوبته واحد و منهم من يتولى عقوبته جماعة و كذلك لا تنقض بين هذا و بين أكل الحيات لحمه فإنه يمكن أن يتردد بين هذين العذابين كما قال تعالى : { هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها و بين حميم آن { فمرة يطعمون الزقوم و أخرى يسقون الحميم و مرة يعرضون على النار و أخرى على الزمهير أجارنا الله من عذاب القبر و من عذاب النار برحمته و كرامته و آخر يفرش له لوحان من نار و آخر يقال له : نم نومة المنهوس كما أخرجه علي بن معبد عن أبي حازم عن أبي هريرة موقوفا قال : [إذا وضع الميت في قبره أتاه آت من ربه فيقول له : من ربك ؟ فإن كان من أهل التشييت ثبت و قال : الله ربي ثم يقال له ما دينك ؟ فيقول الإسلام فيقول : من نبيك ؟ فيقول محمد صلى الله عليه و سلم فيرى بشراه و يبشر فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأبشروهم فيقال له : نم قرير العين إن لك إخوانا لم يلحقوا و إن كان من غير أهل الحق و التشييت قيل له : من ربك ؟ فيقول : هاه كالوا له ثم يضرب بمطراق يسمع صوته الخلق إلا الجن و الإنس و يقال له : نم كنومة المنهوس

قال أهل اللغة : المنهوس بالسین المهملة : الملسوع فمسته الحية تنهسه قال الراجز :

(و ذات قرنين طحون الضرس ... تنهس لو تمكنت من فمس)

(تدبير عيننا كشهاب القبس)

و المنهوس مرة ينتبه لشدة الألم عليه و مرة ينام كالمغمى عليه قال النابغة :

(فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنياها السم نافع)

(تسهد من ليل التمام سليمها ... كحلى النساء في يديه قعاقع)

(يبادرها الراقون من سوء سمها ... تطلقه طورا و طورا تراجع)

باب منه في عذاب الكافر في قبره

ذكر الوائلي الحافظ في كتاب الإبانة له من حديث مالك بن مغول [عن نافع عن ابن عمر قال : بينا أنا أسير بجنابت بدر إذ خرج رجل من الأرض في عنقه سلسلة يمسك طرفها أسود فقال يا عبد الله اسقني فقال ابن عمر : لا أدري أعرف اسمي أو كما يقول الرجل : يا عبد الله ؟ فقال لي الأسود : لا تسقه فإنه كافر ثم اجتذبه فدخل به الأرض قال ابن عمر : فأتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبرته فقال : أو قد رأيت ؟ ذلك عدو الله أبو جهل بن هشام و هو عذابه إلى يوم القيامة]

باب ما يكون منه عذاب القبر و اختلاف أحوال العصاة فيه بحسب اختلاف

معاصيهم

ابو بكر بن أبي شيبة عن [أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أكثر عذاب القبر من البول] البخاري و مسلم عن [ابن عباس قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال : إنهما ليعذبان و ما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة و أما الآخر فكان لا يستتره من بوله فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا و على هذا واحدا ثم قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا] و في رواية [كان لا يستتره عن البول أو من البول] رواهما مسلم و في كتاب أبي داود : [و كان لا يستتر من بوله] و في حديث هناد بن السري [لا يستبرئ من البول] من الاستبراء و قال البخاري : [و ما يعذبان في كبير و إنه لكبير] و أخرجه أبو داود الطيالسي عن [أبي بكر قال : بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و معي رجل و رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثنا إذ أتى على قبرين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبي هذين القبرين ليعذبان الآن في قبورهما فأيكما يأتيني من هذا النخل بعسيب ؟ فاستبقت أنا و صاحبي فسبقته و كسرت من النخل عسيبا فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فشقه نصفين من أعلاه فوضع على إحدهما نصفًا و على الآخر نصفًا و قال : إنه يهون عليهما ما دام من بلولتهما شيء إنهما يعذبان في الغيبة و البول]

قال المؤلف : هذا الحديث و الذي قبله يدل على التخفيف إنما هو بمجرد نصف العسيب ما دام رطبا و لا زيادة معه و قد أخرجه مسلم من [حديث جابر الطويل و فيه : فلما انتهى إلي قال : يا جابر هل رأيت مقامي ؟ قلت نعم يا رسول الله قال : فاطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصنا فأقبل بهما حتى إذا قمت مقامي فأرسل غصنا عن يمينك و غصنا عن يسارك قال جابر : فقامت فأخذت حجرا فكسرتة و حسرتة فاندلق لي فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصنا ثم أقبلت أجرهما حتى قمت مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت غصنا عن يميني و غصنا عن يساري ثم لحقته فقلت : قد فعلت ذلك يا رسول الله فعند ذاك قال : إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفه عنهما ما دام الغصنان رطبين]

ففي هذا الحديث زيادة على رطوبة الغصن و هي : شفاعته صلى الله عليه وسلم و الذي يظهر لي أنهما قضيتان مختلفتان لا قضية واحدة كما قال من تكلم على ذلك و يدل عليهما سياق الحديث فإن في حديث ابن عباس عسيبا واحدا شقه النبي صلى الله عليه وسلم بيده نصفين أي هريرة غرسهما بيده و حديث جابر بخلافهما و لم يذكر فيه ما يعذب بسببه

و قد خرج أبو داود الطيالسي حديث ابن عباس : فقال : [حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على قبرين فقال : إنهما ليعذبان في غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس و أما الآخر فكان صاحب نميمة ثم دعا بجريدة فشققها نصفين فوضع نصفًا على هذا القبر و نصفًا على هذا القبر و قال : عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين] ثم قيل : يجوز أن يكونا كافرين و قوله : [إنهما ليعذبان في غير كبير] يريد بالإضافة إلى الكفر و الشرك و أما إن كانا مؤمنين فقد أخبرك أنهما يعذبان بشيء كان منهما ليس بكفر لكنهما لم يتوبا منه و إن كانا كافرين فهما يعذبان في هذين الذنوبين زيادة على عذابهما في كفرهما و تكذيبهما و جميع خطاياهما و إن يكونا كافرين أظهر و الله أعلم فإنهما لو كانا مؤمنين لعلما قرب العهد بتدافن المسلمين يومئذ

قاله ابن بركان في كتاب الإرشاد الهادي إلى التوفيق و السداد

قلت : و الأظهر أنهما كانا مؤمنين و هو ظاهر الأحاديث و الله أعلم

الطحاوي عن [ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أمر بعبد من عباد الله عز و جل أن يعذب في

قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله تعالى و يدعوه حتى صارت واحدة فامتلاً قبره عيه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق فقال : لماذا جلدتموني ؟ قال إنك صليت صلاة بغير طهور و مررت على مظلوم فلم تنصره [

البخاري] عن سمرة بن جندب قال : كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤياً ؟ قال : فإن رأى أحد رؤياً قصها فيقول : ما شاء الله فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحدكم رؤياً ؟ قلنا : لا قال : لكني رأيت الليلة رجلين أتيا بي فأخذنا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس و رجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شذقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل يشدقه الآخر مثل ذلك و يلتئم شذقه هذا فيعود فيصنع مثله

قلت : ما هذا ؟ قال : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه و رجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق ليأخذه فما يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه و عاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت : ما هذا ؟ قال : انطلق فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق و أسفله واسع يتوقد تحته ناراً فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا فإذا حمدت رجعوا فيها وفيها رجال و نساء عراة فقلت : ما هذا ؟ قال : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نمر من دم فيه رجل قائم و على شط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان فقلت : ما هذا ؟ قال : انطلق فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة و في أصلها شيخ و صبيان و إذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي الشجرة و أدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها فيها شيوخ و شباب و نساء و صبيان ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن و أفضل فيها شيوخ و شباب قلت : طوفتاني الليلة فأخبراني عما رأيت قال : نعم الذي رأيت يشق شذقه : فكذاب يحدث بالكذب فنحمل منه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة

و الذي رأيت يشدخ رأسه : فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل و لم يعمل فيه بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة و أما الذين رأيتهم في الثقب فهم الزناة و الذي رأيتهم في النهار آكل الربا و الشيخ في أصل الشجرة : إبراهيم و الصبيان حوله : فأولاد الناس و الذي يوقد النار : مالك خازن النار و الدار الأولى : دار عامة المؤمنين و أما هذه الدار : فدار الشهداء و أنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقني مثل السحاب قال : ذلك منزلك فقلت : دعاني أدخل منزلي قال : إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملتته أتيت منزلك [

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليه : لا أبين في أحوال المعذبين في قبورهم من حديث البخاري و إن كان مناهما فمنامات الأنبياء عليهم السلام و حي بديل قول إبراهيم عليه السلام : { يا بني إني أرى في المنام أني أذحك } فأجابه ابنه : { يا أبت افعل ما تؤمر } و أما حديث الطحاوي فنص أيضاً و فيه رد على الخوارج و من يكفر بالذنوب قال الطحاوي : و فيه يدل على ان تارك الصلاة ليس بكافر لأن من صلى صلاة بغير طهور : فلم يصل و قد أحببت دعوته و لو كان كافراً ما سمعت دعوته لأن الله عز و جل يقول : { و ما دعاء الكافرين إلا في ضلال } و أما حديث البخاري و مسلم فيدل على الاستبراء من البول و التنزه عنه : واجب إذ لا يعذب الإنسان إلا على ترك الواجب و كذلك إزالة جميع النجاسات قياساً على البول و هذا قول أكثر العلماء و به قال ابن وهب و رواه عن مالك و هو الصحيح في الباب و من صلى و لم يستشر فقد صلى بغير طهور

تنبيه على غلط : ذكر بعض أصحابنا — فيما نقل إلينا عنه — أن القبر الذي غرس عليه النبي صلى الله عليه و سلم العسيب هو قبر سعد بن معاذ و هذا باطل و إنما صح أن القبر ضغطه كما ذكرنا ثم فرج عنه و كان سبب ذلك ما

رواه [يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال : حدثني أمية بن عبد الله أنه سأل بعض أهل سعد : ما بلغكم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ؟ قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : كان يقصر في بعض الطهور من البول] و ذكر هناد بن السري [حدثنا ابن فضيل عن أبي سفيان عن الحسن قال : أصاب سعد بن معاذ جراحة فجعله النبي صلى الله عليه وسلم عند امرأة تداويه فقال إنه مات من الليلة فأتاه جبريل فأخبره : لقد مات الليلة فيكم رجل لقد اهتز العرش لحب لقاء الله إياه فإذا هو سعد بن معاذ قال قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره فجعل يكبر ويهلل ويسبح فلما خرج قيل له : يا رسول الله ما رأيك صنعت هكذا قط قال : إنه ضم في القبر ضمة حتى صار مثل الشعرة فدعوت الله تعالى أن يرفه عنه و ذلك أنه كان لا يستبرئ من البول] و قال السالمي أبو محمد عبد الغالب في كتابه و أما أخبار في عذاب القبر فبالغة مبلغ الاستفاضة منها قوله صلى الله عليه وسلم في سعد بن معاذ : [لقد ضغطته الأرض اختلفت لها ضلوعه] قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و رضي عنهم : فلم نقم من أمره شيئا إلا أنه كان لا يستزهر في أسفاره من البول

قلت : فقله صلى الله عليه وسلم : [ثم فرج عنه] دليل على أنه جوزي على ذلك التقصير منه لا أنه يعذب بعد ذلك في قبره هذا لا يقول أحد إلا شك مرتاب في فضله و فضيلته و نصحه و نصيحتته رضي الله عنه أتى من اهتز له عرش الرحمن و تلقت روحه الملائكة الكرام فرحين بقدمها عليهم و مستبشرين بوصولها إليهم يعذب في قبره بعدما فرج عنه ؟ هيهات هيهات لا يظن ذلك إلا جاهل بحقه غبي بفضيلته و فضله رضي الله عنه و أرضاه و كيف يظن ذلك و فضائله شهيرة و مناقبه كثيرة ! خرجها البخاري و مسلم و غيرهما و هو الذي أصاب حكم الرحمن في بني قريظة من فوق سبع سموات أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في البخاري و مسلم و غيرهما
باب منه

اليهقي [عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام } الآية قال : أتى بفرس فحمل عليه قال : كل خطوة منهى أقصى بصره فسار و سار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في كل يوم و يحصدون في كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال المهاجرون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف } و ما أنفقت من شيء فهو يخلفه و هو خير الرازقين } ثم أتى على قوم ترسخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء من ذلك فقال : يا جبريل من هؤلاء ! قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع و على أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام الضريع و الزقوم و رصف جهنم و حجارتهما قال : ما هؤلاء يا جبريل : قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم و ما ظلمهم الله و ما الله بظلام للعبيد ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم في قدر نضيج و لحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث و يدعون النضيج الطيب فقال يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال هذا الرجل يقوم و عنده امرأة حلالا طيبا فيأتي المرأة الخبيثة فيبيت معها حتى يصبح ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر به شيء إلا قصفته قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال يقول الله عز و جل } و لا تقعدوا بكل صراط توعدون } ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها و هو يريد أن يزيد عليها قال يا جبريل : ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها و هو يريد عليها ثم أتى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت و لا يفتر عنهم شيء من ذلك

قال : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء خطباء القنينة ثم أتى على حجر صغير يخرج منه نور عظيم فجعل النور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع قال : ما هذا يا جبريل؟ قال : هذا الرجل يتكلم الكلمة فيندم عليها فيريد أن يردّها فلا يستطيع [و ذكر الحديث

و خرج] من حديث أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال له أصحابه : يا رسول الله أخبرنا عن ليلة أسرى بك [الحديث] و فيه قال : فصعدت أنا و جبريل فإذا بملك يقال له اسماعيل و هو صاحب سماء الدنيا : و بين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ملك قال : و قال الله تعالى : { و ما يعلم جنود ربك إلا هو } فاستفتح جبريل ثم قال : فإذا أنا بآدم كهيئة يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول روح طيبة و نفس طيبة اجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكافرين فيقول : روح خبيثة اجعلوها في سجين ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأخونة — يعنى بالخوان المائدة التي يؤكل عليها — و عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد و إذا أنا بأخوانة أخرى عليها لحم قد أروح و أنتن عندها ناس يأكلون منها قلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء من أمتك يتركون الحلال و يأتون الحرام قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة قال : و هم على سابلة آل فرعون قال فتجيء السابلة فتطوهم قال : فسمعتهم يضحجون إلى الله عز و جل قلت : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء من أمتك { الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس } قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرههم كمشافر الإبل قال : فيفتح على أفواههم و يلقمون ذلك الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يضحجون إلى الله عز و جل قلت : يا جبريل نت هؤلاء؟ قال : هؤلاء من أمتك { إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيراً } قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء معلقات بشديهن فسمعتهن يضحجن إلى الله عز و جل قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال له : كل ما كنت تأكل من لحم أحيك قلت : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الهمازون اللمازون من أمتك [و ذكر الحديث

و ذكر أبو داود [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون و جوههم و صلورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون في أعراضهم]

باب ماجاء في بشرى المؤمن في قبره

قال كعب الأحبار : إذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه : فتقول الصلاة : إليكم عنه قيأتون من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه الله عز و جل في دار الدنيا فيأتون من قبل جسمه فيقول الحج و الجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه و أتعب بدنه و حج و جاهد الله عز و جل لا سبيل لكم عليه فيأتون من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى و قعت في يد الله عز و جل ابتغاء لوجهه فلا سبيل لكم عليه قال : فيقال له : نم هنيئاً طبت حيا و طبت ميتاً

قلت : هذا لمن أخلص في عمله و صدق الله في قوله و فعله و أحسن نيته له في سره و جهره فهو الذي تكون

أعماله حجة له و دافعة عنه فلا تعارض بين هذا الباب و بين ما تقدم من الأبواب فإن الناس مختلفو الحال في خلوص الأعمال و الله أعلم

باب ما جاء في التعوذ من عذاب القبر و فتنته

النسائي [عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه و سلم و عندي امرأة من اليهود و هي تقول : إنكم تفتنون في القبور فارتاع رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : إنما يفتن يهود قال عائشة : فلبشنا ليالي ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هل شعرت أنه أوحى إلي : أنكم تفتنون في القبور ؟ قال عائشة : فسمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يستعيز من عذاب القبر] و روى الأئمة [عن أسماء عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال : و إنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريبا أو مثل فتنة الدجال لا أدري أي ذلك ؟ قالت أسماء : يؤتى بأحدكم فيقال له : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات و الهدى فأجيبنا و أطعنا ثلاث مرات ثم يقال له : ثم قد نعلم إنك لتؤمن به فتم صالحا و أما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري أي ذلك ؟ قالت أسماء : فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلت] لفظ مسلم و خرج البخاري [عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر و من عذاب النار و من فتنة الحيا و الممات و من فتنة المسيح الدجال] و الأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا أخرجها الأئمة الثقات

باب ما جاء أن البهائم تسمع عذاب القبر

مسلم [عن زيد بن ثابت قال : بينما النبي صلى الله عليه و سلم في حائط لبني النجار على بغلة له و نحن معه إذ جاء به فكادت تلقيه و إذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة كذا كان الحريري يقول فقال من يعرف أصحاب هذه الأقبور ؟ فقال رجل : أنا قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال ماتوا في الإشراف فقال : إن هذه الأمة تبطل في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع] و خرج أيضا [عن عائشة رضي الله عنها أنه قالت : دخلت علي عجوزان من عجائز يهود المدينة فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم قالت فكذبتهما و لم أنعم أن أصدقهما فخرجنا و دخل علي رسول الله فقالت : يا رسول الله إن عجوزين من عجائز يهود المدينة قالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم قال النبي صلى الله عليه و سلم صدقتا إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم قالت : فما رأيت بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر] خرج البخاري أيضا و قال : [تسمعه البهائم كلها] و خرج هناد بن السري في زهده [حدثنا وكيع عن الأعمش عن شفيق عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبي صلى الله عليه و سلم علي فذكرت ذلك له فقال النبي صلى الله عليه و سلم : و الذي نفسي بيده إنهم ليعذبون في قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم]

فصل : قال علماءنا : و إنما حادت به البغلة لما سمعت من صوت المعذبين و إنما لم يسمعه من يعقل من الجن و الإنس لقوله عليه الصلاة و السلام : [لولا أن لا تدافنوا] الحديث فكتمه الله سبحانه عنا حتى تدافن بحكمته الإلهية و لطائفه الربانية لغلبة الخوف عند سماعه فلا تقدر على القرب من القبر للدفن أو يهلك الحي عند سماعه إذ

لا يطاق سماع شيء من عذاب الله في هذه الدار لضعف هذه القوى ألا ترى أنه إذا سمع الناس صعقة الرعد القاصف أو الزلازل الهائلة هلك كثير من الناس و آين صعقة الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكة بمطارق الحديد التي يسمعها كل من يليه؟ و قد قال صلى الله عليه و سلم في الجنابة : [و لو سمعها انسان لصعق] قلت : هذا و هو على رؤوس الرجال من غير ضرب و لا هوان فكيف إذا حل به الخزي و النكال و اشتد عليه العذاب و الوبال؟ فنسأل الله معافاته و مغفرته و عفوه و رحمته بمنه

حكاية : قال أبو محمد عبد الحق : حدثني الفقيه أبو الحكم بن برجان — و كان من أهل العلم و العمل رحمه الله — أنهم دفنوا ميتا بقريتهم من شرق إشبيلية فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون و دابة ترعى قريبا منهم فإذا الدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة كذلك — فعلت مرة بعد أخرى — قال أبو الحكم رحمه الله : فذكرت عذاب القبر و قول النبي صلى الله عليه و سلم : [إنهم ليعذبون عذابا تسمعه البهائم] و الله عز و جل أعلم بما كان من أمر ذلك الميت ذكر هذه الحكاية لما قرأ القارىء هذا الحديث في عذاب القبر : و نحن إذ ذاك نسمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج رضي الله عنه

باب ما جاء أن الميت يسمع ما يقال

مسلم [عن أنس بن مالك : عمر بن الخطاب حدث عن أهل بدر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله قال فقال عمر : فو الذي بعثه بالحق نبيا ما أخطأوا الخلود التي حد رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى انتهى إليهم فقال : يا فلان بن فلان هل و جدتم ما وعدكم الله و رسوله حقا فإني و جدت ما وعدني ربي حقا؟ فقال عمر : يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا و عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ترك قتلى بدر ثلاثا فقام عليهم فنأدهم فقال : يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبه بن ربيعة أليس قد و جدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني و جدت ما وعدني ربي حقا ! فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعون ! و أنى يجيبون ! وقد جيفوا؟ قال جهنم و الذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا] ثم أمر بهم فسحبوا فالقوا في قليب بدر

فصل : اعلم رحمك الله أن عائشة رضي الله عنها قد أنكرت هذا المعنى

و استدلت بقوله تعالى : { فإنك لا تسمع الموتى } و قوله { و ما أنت بمسمع من في القبور } و لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون في وقت ما أو في حال ما فإن تخصيص العموم ممكن و صحيح إذا و جد المخصص و قد و جد هنا بدليل ما ذكرناه — و قد تقدم — و بقوله عليه الصلاة و السلام : [إنه ليسمع قرع نعالهم] و بالمعلوم من سؤال الملكين للميت في قبره و جوابه لهما و غير ذلك مما لا ينكر و قد ذكر ابن عبد البر في كتاب التمهيد و الاستذكار من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه و رد علي السلام صححه أبو محمد عبد الحق و جيفوا معناه : أنتوا

باب قوله تعالى : { يشبث الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا } الآية

مسلم [عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : { يشبث الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة

الدنيا و في الآخرة } قال : نزلت في عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول : الله ربي و نبي محمد فذلك محمد قوله
: { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة }
و في رواية أنه قول البراء و لم يذكر النبي صلى الله عليه و سلم
قلت : و هذا الطريق و إن كان موقوفا فهو لا يقال من جهة الرأي فهو محمول على أن النبي صلى الله عليه و سلم
قاله كما في الرواية الأولى و كما خرج النسائي و ابن ماجه في سننهما و البخاري في صحيحه و هذا لفظ البخاري
:

[حدثنا جعفر بن عمر قال : حدثنا شعبة بن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي
صلى الله عليه و سلم قال : إذا أقعد العبد المؤمن في قبره أتى ثم يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله
فذلك قوله : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت } الآية] و خرج أبو داود في سننه فقال فيه [البراء بن
عازب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن المسلم إذا سئل في القبر فشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا
رسول الله فذلك قوله { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة }] و قد مضى هذا المعنى
في حديث البراء الطويل مرفوعا و الحمد لله

و قد روى هذا الخبر [أبي هريرة و ابن مسعود و ابن عباس و أبو سعيد الخدري قال أبو سعيد الخدري : كنا في
جنازة مع النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا أيها الناس إن هذه الأمة تتبلى في قبورها فإذا الإنسان دفن و تفرق
عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعدته فقال : ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنا قال : أشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقول له هذا
منزلك لو كفرت بربك و أما الكافر و المنافق فيقول له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري فيقال له : لا
درت و لا تليت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به
هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين]

قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك
[فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و
يضل الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء }]

فصل : صحت الأخبار عن النبي صلى الله عليه و سلم في عذاب القبر على الجملة فلا مطعن فيها و لا معارض لها
و جاء فيما تقدم من الآثار : أن الكافر يفتن في قبره و يسأل و يهان و يعذب قال أبو محمد عبد الحق : و اعلم أن
عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين و لا موقوفا على المنافقين بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين و كل على حال
من عمله و ما استوجبه من خطيئته و زلله و إن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر و
المنافق قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد : الآثار الثابتة تدل على : أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو
منافق ممن كان منسوبا إلى أهل القبلة و دين الإسلام من حقن دمه بظاهر الشهادة و أما الكافر الجاحد المبطل فليس
ممن يسأل عن ربه و دينه و نبيه و إنما يسأل عن هذا أهل الإسلام و الله أعلم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت
و يرتاب المبطلون قال ابن عبد البر و في حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [إن هذه
الأمة تتبلى في قبورها] و منهم من يرويه تسأل و على هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك و هذا
أمر لا يقطع عليه و الله أعلم

و قال أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول : و إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل

تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل و اعتزلوا و عوجلوا بالعذاب فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم بالرحمة و أمانا للخلق فقال : { و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } أمسك عنهم العذاب و أعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ في قلبه فأمهلوا فمن هنا ظهر أمر النفاق فكانوا يسرون الكفر و يعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين في ستر فلما ماتوا قبض الله لهم فتاني القبر ليستخرج سترهم بالسؤال و ليميز الله الخبيث من الطيب فيثبت الثابت في الحياة الدنيا و يضل الله الظالمين قال المؤلف : قول أبي محمد عبد الحق أصوب و الله أعلم فإن الأحاديث التي ذكرناها من قبل تدل على : أن الكافر يسأله الملكان و يختبرانه بالسؤال و يضرب بمطارق من حديد على ما تقدم و الله أعلم

باب ما ينجي المؤمن من أهوال القبر و فتنته و عذابه

و ذلك خمسة أشياء : رباط قبل قول بطن زمان

الأول : روى مسلم [عن سلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : رباط يوم و ليلة خير من صيام شهر و قيامة و إن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل و أجرى عليه رزقه و أمن من الفتان] فالرباط من أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن [عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة] [الحديث] و قد تقدم و هو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم و كذلك ما أخرجه ابن ماجه و أبو نعيم من أنه يلحق الميت بعد موته فإن ذلك مما ينقطع بنفاده و ذهابه كالصدقة بنفادها و العلم بذهابه و الولد الصالح بموته و النخل بقطعه إلى غير ذلك مما ذكر و الرباط يضاعف أجره لصاحبه إلى يوم القيامة لقوله عليه الصلاة و السلام : [و إن مات أجرى عليه عمله] و قد جاء مفسرا مبينا في كتاب الترمذي [عن فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كل ميت يحتتم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة و يأمن من فتنة القبر] قال : حديث حسن صحيح و أخرجه أبو داود بمعناه و قال : [و يؤمن من فتاني القبر] و لا معنى للنماء إلا المضاعفة و هي غير موقوفة على سبب فتقطع بانقطاعه بل هي فضل دائم من الله تعالى لأن أعمال البر لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو و التحرز منهم بحراسته بيضة الدين و إقامة شعائر الإسلام و هذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمل من الأعمال الصالحة

و أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح [عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه عمله الصالح الذي كان يعمل و أجرى عليه و أمن من الفتان و بيعته رزقه الله أمينا من الفرع الأكبر]

و خرج أبو نعيم الحافظ [عن جبير بن بكير و كبير بن مرة و عمرو بن الأسود عن العرابض بن سارية رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمي عليه عمله يجري عليه رزقه إلى يوم الحساب]

و في هذا الحديث و حديث فضالة بن عبيد قيدان و هو : الموت حالة الرباط و الله أعلم و روى [عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من رباط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها و قيامها]

و روي [عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لرباط يوم في سبيل الله من وراء عورة

المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها و رباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من شهر رمضان أفضل عند الله و أعظم أجرا [أراه قال :] من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن رده الله إلى أهله سالما لم يكتب عليه سيئة ألف سنة و يكتب له من الحسنات و يجري له أجر الرباط إلى يوم القيامة [فدل هذا الحديث على أن رباط يوم في شهر رمضان يحصل به الثواب الدائم و إن لم يمّت مرابطا و الله أعلم أخرجه عن محمد بن إسماعيل بن سمرة حدثنا محمد بن يعلى السلمي حدثنا عمرو بن صبيح عن عبد الرحمن بن عمرو عن مكحول عن أبي بن كعب فذكره

مسألة الرباط : هو الملازمة في سبيل الله مأخوذ من ربط الخيل ثم سمي ملازم لثغر من ثغور المسلمين : مرابطا فارسا كان أو راجلا و اللفظة مأخوذة من الرباط و قول النبي صلى الله عليه و سلم في منتظري الصلاة : [فذلکم الرباط] إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله و الرباط اللغوي هو الأول و هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما فأما سكان الثغور دائما بأهلهم الذي يعمرهم و يكتبون هناك فهم و إن كانوا حماة فليسوا بمرابطين قاله علماؤنا و قد بيناه في كتاب الجامع لأحكام القرآن من سورة آل عمران و الحمد لله

الثاني : روى النسائي [عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم أن رجلا قال يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : كفى ببارقة السيوف على رأس فتنة] و خرج ابن ماجه في سننه و الترمذي في جامعه و غيرها [عن المقدم بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة و يرى مقعده من الجنة و يجار من عذاب القبر و يأمن من الفرع الأكبر و يوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا و ما فيها و يزوج إثنين و سبعين زوجة من الحور العين و يشفع في سبعين من أقاربه] لفظ الترمذي و قال حديث حسن صحيح غريب و قال ابن ماجه : [يغفر له في أول دفعه من دمه قال : و يجلى حلة الإيمان] بدل : [و يوضع على رأسه تاج الوقار] قال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار حدثنا إسماعيل بن عياش قال : حدثني بجير بن سعد و قال الترمذي : حدثنا عيد الله بن عبد الرحمن قال : حدثنا نعيم بن حماد قال : حدثنا بقرية بن الوليد عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدم بن معدي كرب فذكره

قال المؤلف و وقع في جميع نسخ الترمذي و ابن ماجه : [ست خصال] و هي في متن الحديث : [سبع] و على ما ذكر ابن ماجه : [و يجلى بحلة الإيمان] تكون ثمانية و كذا ذكره [أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد بسنده عن المقدم بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : للشهيد عند الله ثمانية خصال]

الثالث : روى الترمذي [عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم خباءه على قبره و هو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر و أنا لا أحسب أنه قبر فإذا بقبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال صلى الله عليه و سلم : هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر] قال حديث حسن غريب و خرج أيضا عنه صلى الله عليه و سلم : [أن من قرأها كل ليلة جاءت تجادل عن صاحبها] و روي أنها تجادل تجادل عن صاحبها يعني قارئها في القبر و روي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتنان

و أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام الخليل أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي بنغري الإسكندرية حماه الله قال : حدثني الشيخ الصالح أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ابن أخي الشيخ الإمام أبي بكر قال : حدثني الشيخ الشريف أبو محمد يونس بن أبي الحسين بن أبي البركات الهاشمي البغدادي حدثنا أبو الوقت عن الداودي عن

الحموي عن أبي إسحاق إبراهيم بن خزيم الشاشي عن عبد الله بن حميد الكشي عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل : ألا أتخفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل : بلى يا ابن عباس رحمك الله قال : { تبارك الذي بيده الملك } احفظها و علمها أهلك و جمع ولدك و صبيان بيتك و جيرانك فإنها المنجية و المجادلة تجادل أو تحاصم يوم القيامة عند ربها لقارنهما و تطلب له إلى ربها أن ينجيها من عذاب النار إذا كانت في جوفه و ينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [لوددت أنهما في قلب كل إنسان من أمتي] و أخبرناه عالما الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني بتغر الإسكندرية عن شيخه الشريف أبي محمد يونس عن أبي الوقت و قد تقدم : أن قراءة الرجل { قل هو الله أحد } في مرض الموت تنجي من ذلك

الرابع : روى ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات مريضا مات شهيدا و وقى فتنة القبر و غدى و ربح عليه برزقه من الجنة] و خرج النسائي [عن جامع بن شداد قال : سمعت عبد الله بن يسار يقول : كنت جالسا عند سليمان بن صرد و خالد بن عرفطة فذكر أن رجلا مات بطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه و سلم : من يقتله بطنه لم يعذب في قبره] أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده قال : حدثنا شعبة قال أخبرني جامع بن شداد فذكره و زاد فقال الآخر : بلى

الخامس : روى الترمذي [عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر] قال هذا حديث حسن غريب و ليس إسناده بمتصل ربيعة بن سيف إنما يروي عن عبد الرحمن الحجلي عن عبد الله بن عمرو و لا نعرف لربيعة بن سيف سمعا من عبد الله بن عمرو

قلت : قد خرج أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول متصلا [عن ربيعة بن سيف الإسكندري عن عياض بن عقبة الفهري عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر] و أخرجه علي بن معبد عنه — أعني عبد الله بن عمرو الترمذي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر] و أخرجه أبو نعيم الحافظ [من حديث محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجبر من عذاب القبر و جاء يوم القيامة و عليه طابع الشهداء] غريب من حديث جابر محمد تفرد به عمر بن موسى الوجيهي و هو مدني فيه لين عن محمد بن جابر

فصل : قلت : اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب بل يخصها و يبين من لا يسأل في قبره و لا يفتن فيه ممن يجري عليه السؤال و يقاسي تلك الأهوال و هذا كله ليس فيه مدخل للقياس و لا مجال للنظر فيه و إنما فيه التسليم و الانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صلى الله عليه و سلم و قد روى ابن ماجه في سننه [عن جابر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا دخل الميت في قبره مثلت له الشمس عند غروبها فيجلس فيمسح عينيه و يقول : دعوني أصلي] و لعل هذا ممن وقى فتنة القبر فلا تعارض و الحمد لله

فصل : قوله عليه السلام في الشهيد [كفي ببارقة السيوف على رأسه فتنة] معناه : أنه لو كان في هؤلاء القتولين نفاق كان إذا التقى الزحفان و برقت السيوف فروا لأنه من شأن المنافق : الفرار و الروغان عند ذلك و من شأن

المؤمن : البذل و التسليم لله نفسا و هيجان حمية الله و التعصب له لإعلاء كلمته فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب و القتل فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر ؟ قاله الترمذي الحكيم قلت : و إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطرا و أعظم أجرا فهو أحرى أن لا يفتن لأنه المقدم ذكره في التنزيل على الشهداء في قوله تعالى : { فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء } و قد جاء في المرابط الذي هو أقل مرتبة من الشهيد أنه لا يفتن فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه و من الشهيد ؟ و الله أعلم فتأمله

فصل : قوله عليه السلام : [من مات مريضا مات شهيدا] عام في جميع الأمراض لكن قيده قوله في الحديث الآخر : [من يقتله بطنه] و فيه قولان :

أحدهما : أنه الذي يصيبه الذرب و هو الإسهال تقول العرب أخذه البطن إذا أصابه الداء و ذرب الجرح إذا لم يقبل الدواء و ذربت معدته فسدت

الثاني : أنه الاستسقاء و هو أظهر القولين فيه لأن العرب تسبب موته إلى بطنه تقول قتله بطنه يعنون الداء الذي أصابه في جوفه و صاحب الاستسقاء قل إن يموت إلا بالذرب فكأنه قد جمع الوصفين و غيرهما من الأمراض و الوجود شاهد للميت بالبطن إن عقله لا يزال حاضرا و ذهنه باقيا إلى حين مكوته و مثل ذلك صاحب السلس إذ موت الآخر إنما يكون بالذرب و ليست حالة هؤلاء كحال من يموت فجأة أو من يموت بالسام و البرسام و الحميات المطبقة أو القولنج أو الحصاة فتغيب عقولهم لشدة الآلام و لزوم أدمغتهم و لفساد أمزجتها فإذا كان الحال هكذا فالميت يموت و ذهنه حاضر و هو عارف و الله أعلم

باب منه

أبو نعيم قال : [حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا ابن سعيد قال : حدثنا محمد بن حرب الواسطي قال : حدثنا نصر بن حماد قال : حدثنا همام قال : حدثنا محمد بن حجاج عن طلحة بن مصرف قال : سمعت خيشمة بن عبد الرحمن يحدث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من وافق موته عند انقضاء رمضان دخل الجنة و من وافق موته عند انقضاء عرفة دخل الجنة و من وافق موته عند انقضاء صدقته دخل الجنة] غريب من حديث طلحة لم نكتبه إلا من حديث نصر عن همام

باب ما جاء أن الميت يعرض عليه مقعده بالغداة و العشيا

البخاري و مسلم [عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشيا إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة و إن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة]

فصل : قوله : [عرض عليه مقعده] و يروى : [عرض على مقعده] قال علماؤنا : و هذا ضرب من العذاب كبير و عندنا المثال في الدنيا وذلك كمن عرض عليه القتل أو غيره من آلات العذاب أو من يهدد به من غير أن يرى الآلة و نعوذ بالله من عذابه و عقابه بكرمه و رحمته و جاء في التنزيل في حق الكافرين { النار يعرضون عليها غدوا و عشيا } فأخبر تعالى أن الكافرين يعرضون على النار كما أن أهل السعادة يعرضون على الجنان بالخبر الصحيح في ذلك و هل كان مؤمن يعرض على الجنان ؟ فقليل ذلك مخصوص بالمؤمن الكامل الإيمان و من أراد الله إنجاءه من النار و أما من أهدى الله عليه و عيده من الخلطين الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا فله مقعدان يراهما

جميعا كما أنه يرى عمله شخصين في وقتين أو في وقت واحد قيحا و حسنا و قد يحتمل أن يراد بأهل الجنة كل من يدخلها كيفما كان و الله أعلم

ثم قيل هذا العرض إنما هو على الروح وحده و يجوز أن يكون مع جزء من البدن و يجوز أن يكون عليه مع جميع الجسد فيرد إليه الروح كما ترد عند المسألة حين يقعه الملكان و يقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة و كيفما كان فإن العذاب محسوس و الألم موجود و الأمر شديد و قد ضرب بعض العلماء لتعذيب الروح مثلا في النائم فإن روحه تعذب أو تنعم و الجسد لا يحس بشيء من ذلك و قال عبد الله بن مسعود : أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين يقال لهم : هذه دراكم فذلك قوله تعالى : { النار يعرضون عليها غدوا و عشيا } و عنه أيضا : أن أرواحهم في جوف طير سود تغدو على جهنم و تروح كل يوم مرتين فذلك عرضها

و روى شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت ميمون بن ميسرة يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي : أصبحنا و الحمد لله و عرض آل فرعون على النار و إذا أمسى ينادي : أمسينا و الحمد لله و عرض آل فرعون على النار فلا يسمع أيا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار و قد قيل : إن أرواحهم في صخرة سوداء تحت الأرض السابعة على سفير جهنم في حواصل طير سود و العداة و العشي إنما هو بالنسبة إلينا على ما اعتدناه لا لهم إذ الآخرة ليس فيها مساء و لا صباح فإن قيل فقد قال الله تعالى : { و لهم رزقهم فيها بكرة و عشيا } قلنا : الجواب عنهما واحد و سيأتي له مزيد بيان في وصف الجنان إن شاء الله تعالى

باب ما جاء أن أرواح الشهداء في الجنة دون أرواح غيرهم

يدل على ذلك قوله عليه الصلاة و السلام في حديث [ابن عمر : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة] و هذه حالة مختصة بغير الشهداء

و في صحيح مسلم عن مسروق قال : سألتنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية : { و لا تحسبن الذين الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون } فقال : [أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي و نحن نسرح في الجنة حيث نشاء ؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا]

فصل : قلت : و هنا اعتراضات خمسة :

الأول : إن قيل : ما قولكم في الحديث الذي ذكرتم [ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه و رد عليه السلام] ؟ قلنا : هو عموم يخصه ما ذكرناه فهو محمول على غير الشهداء
الثاني : فإن قيل : فقد روى مالك [عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك الأنصاري أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] ؟ قلنا : قال أهل اللغة تعلق بضم اللام تأكل يقال علق تعلق علوقا و يروى يعلق بفتح اللام و هو الأكثر و معناه : تسرح و هذه حالة الشهداء لا غيرهم بدليل الحديث المتقدم و قوله تعالى : { بل أحياء عند ربهم يرزقون } و لا يرزق إلا حي فلا يعجل الأكل و النعيم لأحد إلا للشهيد في سبيل الله بإجماع

من الأمة حكاها القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين و غير الشهيد بخلاف هذا الوصف إنما يملأ عليه قبره خضرا و يفسح له فيه و قوله : نسمة المؤمن أي روح المؤمن الشهيد يدل عليه قوله في نفس الحديث [حتى يرجعه الله تعالى إلى جسده يبعثه]

الثالث : فإن قيل : فقد جاء أنه الأرواح تتلاقى في السماء و الجنة في السماء يدل على قوله عليه السلام : [إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء] و في رواية أبواب الجنة ؟ قلنا : لا يلزم من تلاقي الأرواح في السماء أن يكون تلاقيها في الجنة بل أرواح المؤمنين غير الشهداء تارة تكون في الأرض على أفنية القبور و تارة في السماء لا في الجنة و قد قل إنما تزور قبورها كل يوم جمعة على اللوام و لذلك تستحي زيارة القبور ليلة الجمعة و يوم الجمعة و بكرة السبت فيما ذكر العلماء و الله أعلم

قال ابن العربي : و بحديث الجرائد يستدل الناس على أن الأرواح في القبور تعذب أو تنعم و هو آيين في ذلك من حديث ابن عمر في الصحيح [إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالعداء و العشي] لأن عرض مقعده ليس فيه بيان عن موضعه الذي يراه منه و حديث الجرائد نص على أن أولئك يعذبون في قبورهم و كذلك حديث اليهود قلت : و يحتمل على ما ذكرناه و الله أعلم : أن يكون قوله عليه السلام : [ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا و روحه في قبره إلا عرفه وورد عليه السلام] حتى لا تتناقض الأخبار و الله أعلم

الرابع : فإن قيل فقد قال صلى الله عليه و سلم : [و الذي نفسي بيده لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحبي ثم قتل ثم أحبي و عليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي عنه]

و هذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل و لا تكون أرواحهم في جوف طير و لا تكون في قبورهم فأين تكون ؟ قلنا : قد خرج ابن وهب بإسناده [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : الشهداء على بارق نمر بباب الجنة يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة و عشيا] فلعلهم هؤلاء أو من منعه من دخول الجنة حقوق الآدميين إذ الدين ليس مختصا بالمال على ما يأتي و لهذا قال علماؤنا أحوال الشهداء طبقات مختلفة و منازل متباينة يجمعها أهم يرزقون و قد تقدم قوله عليه السلام : [من مات مريضا مات شهيدا و غدى و ربح برزقه من الجنة] و هذا نص في أن الشهداء مختلفو الحال و سيأتي : كم الشهداء ؟ إن شاء الله تعالى

الخامس : فإن قيل : فقد روي ابن ماجه [عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لشهيد البحر مثل شهيد البر و الماتد في البحر كالمشحط في دمه في البر و ما بين الموجتين كقاطع الدنيا في طاعة الله عز و جل و إن الله و كل ملك الموت يقبض الأرواح إلا شهيد البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم و يغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا لدين و لشهيد البحر الذنوب كلها و الدين ؟] قلنا : الدين إذا أخذه المرء في حق و اجب لفاقة أو عسر و مات و لم يترك و فاء فإن الله تعالى لا يحيسه عن الجنة إن شاء الله شهيدا كان أو غيره لأن على السلطان فرضا أن يؤدي عنه دينه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [من ترك ديننا أو ضياعا فعلى الله و رسوله و من ترك مالا فلورثته فإن لم يؤدي عنه السلطان فإن الله تعالى يقضي عنه و يرضى خصمه]

و الدليل على ذلك ما رواه ابن ماجه في سننه [عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الدين يقتض أو مقتض من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من تدين في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين ليتقوى به لعدو الله و عدوه و رجل يموت عنده رجل مسلم لا يجد ما يكفنه فيه و يواريه إلا بدين و رجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة] و أما من دان في سغه أو سرف فمات و لم يوفه أو ترك له و فاء و لم يوص به أو قدر على الأداء فلم يوفه فهذا الذي يجس به

صاحبه عن الجنة حتى يقع القصاص بالحسنات والسيئات على ما يأتي فيحتمل أن يكون قوله عليه السلام في شهيد البحر عاماً في الجميع وهو الأظهر لأنه لم يفرق بين دين ودين ويحتمل أن يكون قوله فيمن أذان ولم يفرط في الأداء وكان عزمه و نيته الأداء لا إتلاف المال على صاحبه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه و من أخذها يريد إتلافها أتلفه الله] خرجه البخاري على أن حديث أبي أمامة في إسناده لين و أعلى منه إسناداً و أقوى ما رواه مسلم [عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين] و لم يخص برا من بحر و كذلك ما رواه أبو قتادة : [أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أيكفر الله عني خطاياي ؟ فقال له رسول الله : نعم إن قتلت في سبيل الله و أنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف قلت ؟ فقال : أرأيت إن قتلت في سبيل الله أيكفر الله عني خطاياي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم و أنت صابر محتسب و مقبل غي مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك]

و خرج أبو نعيم الحافظ بإسناده [عن قاضي البصريين شريح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول يا ابن آدم فيم أضعت حقوق الآدميين ؟ فيم أذهبت أموالهم ؟ فيقول : يا رب لم أفسده و لكن أصبت إما غرقاً أو حرقاً فيقول الله عز و جل : أنا أحق من قضى عنك اليوم فترجح حسناته على سيئاته فيؤمر به إلى الجنة] رواه من طرق و قال يزيد بن هارون في حديثه [فيدعو الله تعالى بشيء فيضعه في ميزانه فيثقل] غريب من حديث شريح تفرد به صدقة بن أبي موسى عن أبي عمران الجوني

قلت : هذا نص في قضاء الله سبحانه الدين إذا لم يؤخذ على سبيل الفساد و الحمد لله الموفق للسداد و المبين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ما أهم و استغلق من مشكل على العباد و قد قال بعض العلماء : إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى و إنما قيل لها : المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين و هي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها و يتنسمون من طيب ريحها و هي تسرح في الجنة و تأوي إلى قناديل من نور تحت العرش و ما ذكرناه أولاً أصح و الله أعلم

و قد روى ابن المبارك : أخبرنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان قال : حدث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أرواح المؤمنين في طير كحالرازيير يتعارفون يرزقون من الجنة أخبرنا ابن هبيرة قال : حدثني يزيد بن أبي حبيب أن منصور بن أبي منصور حدثه قال سألت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت أخبرني عن أرواح المسلمين أين هي حين يتوفون ؟ قال : ما تقولون أنتم يا أهل العراق ؟ قلت : لا أدري قال : فإنما صور طير يبض فيظل العرش و أرواح الكافرين في الأرض السابعة و ذكر الحديث

قلت : فهذه حجة من قال : إن أرواح المؤمنين كلهم في الجنة و الله أعلم على أنه يحتمل أن يدخله من التأويل ما تقدم و الله أعلم فيكون بالمعنى : أرواح المؤمنين الشهداء و كذا فقلت : أخبرني عن أرواح المؤمنين الشهداء و الله أعلم

و روى ابن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد أنه سمعه ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إن أرواح الشهداء تجول في طير خضر

فصل : وقع في حديث ابن مسعود : [أرواحهم في جوف طير خضر] و في حديث مالك : [نسمة المؤمن طائر] و روى الأعمش عن عبد الله بن مرة قال : سئل عبد الله بن مسعود عن أرواح الشهداء ؟ فقال : أرواح الشهداء

عند الله كطير خضر في قناديل تحته العرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها و ذكر الحديث و روى ابن شهاب [عن ابن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أرواح الشهداء طير خضر تعلق في شجر الجنة] و هذا كله مطابق لحديث مالك فهو أصح من رواية من روى أن أرواحهم في جوف طير خضر قاله أبو عمر في الاستذكار و قال أبو الحسن القاسبي : أنكر العلماء قول من قال في حواصل طير لأنها رواية غير صحيحة لأنها إذا كانت كذلك فهي محصورة مضيق عليها

قلت : الرواية صحيحة لأنها في صحيح مسلم بنقل العدل عن العدل فيحتمل أن تكون الفاء بمعنى على فيكون المعنى أرواحهم على جوف طير خضر كما قال تعالى : { و لأصلبكم في جذوع النخل } أي على جذوع النخل و جازز أن يسمى الظهر : جوفاً : إذا هو محيط به و مشتمل عليه قال أبو محمد عبد الحق : و هو حسن جدا و ذكر شبيب بن إبراهيم في كتاب الإفصاح المتعم على جهات مختلفة منها ما هو طائر يعلق من شجر الجنة و منها ما هو في حواصل طير خضر و منها ما يأوي في قناديل تحت العرش و منها ما هو في حواصل طير بيض و منها ما هو في حواصل طير كالزراير و منها ما هو في أشخاص صور من صور الجنة و منها ما هو في صور تخلق لهم من ثواب أعمالهم و منها ما تسرح و تعود إلى جثتها تزورها و منها ما تتلقى أرواح المقبوضين و ممن سوى ذلك ما هو في كفالة ميكائيل و منها ما هو في كفالة آدم و منها ما هو في كفالة إبراهيم عليه السلام و هذا قول حسن فإنه يجمع الأخبار حتى لا تتدافع و الله بغيه أعلم و أحكم

باب كم الشهداء ؟ و لم سمي شهيدا ؟ و معنى الشهادة

خرج الآجري و غيره [عن أبي مالك الأشجعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من فصل في سبيل فمات أو قتل فهو شهيد أو وقصه فرسه أو بعيره أو لدغته هامة أو مات على فراشه بأي حنق شاء الله إنه شهيد و إن له الجنة] و أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه عن عبد الله بن عتيك عن النبي صلى الله عليه و سلم الترمذي [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : الشهداء خمسة : المبطون و المطعون و الغريق و صاحب الهدم و الشهيد في سبيل الله عز و جل] و قال : هذا حديث حسن صحيح

النسائي [عن جابر : قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله : المطعون و المبطون و الغرق و الحرق و صاحب ذات الجنب و الذي يموت تحت الهدم و المرأة تموت بجمع] و قيل : هي التي تموت من الولادة و ولدها في بطنها قد تم خلقه و قيل : إذا ماتت من النفاس فهي شهيدة سواء ألفت ولدها أو ماتت و هو في بطنها و قيل : التي تموت بكرا لم يمسه الرجال و قيل : التي تموت قبل أن تحيض و تطمث فهذه أقوال لكل قول وجه و في جمع لغتان ضم الجيم و كسرها و في بعض الآثار : المجتوب شهيد يريد : صاحب الجنب يقال منه رجل جنب بكسر النون و فتح الجيم إذا كانت به ذات الجنب و هو الشوصة و في كتاب الترمذي و أبي داود و النسائي عن سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من قتل دون ماله فهو شهيد و من قتل دون دمه فهو شهيد و من قتل دون دينه فهو شهيد و من قتل دون أهله فهو شهيد] قال الترمذي : حديث حسن صحيح

و روى النسائي [من حديث سويد بن مقرن قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قتل دون مظلمة فهو شهيد]

و روى ابن ماجه [عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : موت غربة شهادة]

و أخرجه الدراقطني و لفظه : [موت الغريب شهادة] و ذكره أيضا من حديث ابن عمر و صححه
و أخرجه أبو بكر الخرائطي [من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات
غريبا مات شهيدا]

و أخرجه أيضا [من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات
غريبا مات شهيدا] : و قد تقدم قوله عليه الصلاة و السلام : [من مات مريضا مات شهيدا]
و روى الترمذي [عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قال حين يصبح ثلاث
مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم و قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر و كل الله به سبعين
ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات من يومه مات شهيدا و من قرأها حين يمسي فكذلك] قال حديث
حسن غريب

و ذكر النعيلي [عن يزيد الرقاشي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من قرأ آخر سورة الحشر
إلى آخرها : { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل { فمات من ليلته مات شهيدا]
و خرج الآجري [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا أنس إن استطعت أن تكون
أبدا على وضوء فافعل فإن ملك الموت إذا قبض روح العبد و هو على وضوء كتب له شهادة]
و روى الشعبي [عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من صلى الضحى و صام ثلاثة أيام من كل
شهر و لم يترك الوتر في حضر و لا سفر كتب له أجر شهيد] أخرجه أبو نعيم
و روى من حديث [أبي هريرة و أبي ذر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا جاء الموت طالب العلم و هو
على حاله مات شهيدا] و بعضهم يقول : [ليس بينه و بين الأنبياء إلا درجة واحدة] ذكره أبو عمر في كتاب
بيان العلم

و خرج مسلم [من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من طلب الشهادة صادقا أعطوها و
إن لم تصبه] و [عن سهل بن حنيف أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله
منازل الشهداء و إن مات على فراشه]

و خرج الترمذي الحكيم [من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس من أحد إلا و له
كرائم من ماله يأبى لهم الذبح و إن لله خلقا من خلقه يأبى لهم الذبح : أقواما يجعل موتهم على فرشهم و يقسم لهم
أجور الشهداء]

فصل : الشهداء جمع الشاهد و الشهيد : القتل في سبيل الله كذا قال أهل اللغة : الجوهري و غيره و سمي بذلك
لأنه مشهود له بالجنة فالشهيد بمعنى مشهود له فعيل بمعنى مفعول و قال ابن فارس اللغوي في الجمل : و الشهيد
القتيل في سبيل الله قالوا : لأن ملائكة الله تشهده و قيل : سمي شهيدا لأن أرواحهم أحضرت دار السلام لأنهم {
أحياء عند ربهم يرزقون } و أرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة و قيل سمي
بذلك : لسقوطه بالأرض و الأرض الشاهدة و قيل سمي بذلك : لشهادته على نفسه لله عز و جل حين لزمه الوفاء
بالبيعة التي بايعه في قوله الحق { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة } فاتصلت شهادة
الشهيد الحق بشهادة العبد فسماه شهيدا و لذلك قال عليه السلام : [و الله أعلم بمن يكلم في سبيله] و قال في
شهداء أحد : أنا شهيد على هؤلاء لبدنهم نفوسهم دونه و قتلهم بين يديه تصديقا لما جاء به صلى الله عليه و سلم
هذا الكلام في شهيد

فأما الشهادة فصفة سمي حاملها بالشاهد و يبلغ بشهيد و للشهادة ثلاثة شروط لا تتم إلا بتمامها و هي : الحضور و الوعي و الأداء أما الحضور : فهو شهود الشاهد المشهود و الوعي : زمى ما شاهده و عمله في شهوده ذلك و الأداء : هو الإيتان بالشهادة على وجهها في موضع الحاجة إلى ذلك هذا معنى الشهادة و الشهادة على الكمال إنما هي لله سبحانه و تعالى و أن جميع الشاهدين سواه يؤدون شهادتهم عنده قال الله سبحانه و تعالى : { و جيء بالنبيين و الشهداء و قضي بينهم بالحق } و الشهداء : هم العدول و أهل العدالة في الدنيا و الآخرة هم القائمون بما أوجب الحق سبحانه عليهم في الدنيا

باب منه

روى النسائي [عن العراب بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يختصم الشهداء و المتوفون على فرشهم إلى ربنا في الذين يتوفون من الطاعون فيقول الشهداء : قتلوا كما قتلنا ؟ و يقول المتوفون على فرشهم : إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا ؟ فيقول ربنا عز و جل : انظروا إلى جراحهم فإن أشبهت جراح المقتولين فيهم منهم فإذا جراحهم أشبهت جراحهم]

و روت [عائشة رضي الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن فناء أمتي بالطعن و الطعون قالت : أما الطعن فقد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كغدة البعير تخرج في المراق و الإباط من مات منها مات شهيدا] أخرجه أبو عمر في التمهيد و الاستذكار

باب ما جاء أن الإنسان يبلى و يأكله التراب إلا عجب الذنب

مسلم و ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد و هو عجب الذنب و منه يركب الخلق يوم القيامة] و عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق و منه يركب]

فصل : يقال عجم و عجب بالميم و الباء : لغتان و هو جزء لطيف في أصل الصلب و قيل : هو رأس العصعص كما رواه ابن أبي داود في كتاب البعث [من حديث أبي سعيد الخدري قيل : يا رسول الله و ما هو ؟ قال : مثل حبة خردل و منه تشأون] و قوله : [منه خلق و منه يركب] أي أول ما خلق من الإنسان هو ثم إن الله تعالى يبقيه إلى أن يركب الخلق منه تارة أخرى

باب لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء و لا الشهداء و أنهم أحياء

قال الله تعالى : { بل أحياء عند ربهم يرزقون } و لذلك لا يغسلون و لا يصلى عليهم ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة في شهداء أحد و غيرهم ليس هذا موضع ذكرها

مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن الجموح و عبد الله بن عمرو الأنصاريين تم السلميين كانا قد حفر السيل قبرهما و كان قبرهما مما يلي السيل و كان في قبر واحد و هما من استشهد يوم أحد فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما فوجدوا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس و كان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن و هو كذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت و كان بين أحد و بين يوم حفر عنهما ست و أربعون سنة قال أبو عمر : هذا حديث لم يختلف عن مالك في انقطاعه و هو حديث يتصل من وجوه صحاح عن جابر

قال المؤلف رضي الله عنه : و هكذا حكم من تعلمنا من الأمم ممن قتل شهيدا في سبيل الله أو قتل على الحق كأنبيائهم و في الترمذي في قصة أصحاب الأخلود : [أن الغلام الذي قتله الملك دفن] قال : فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب و أصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل قال حديث حسن غريب و قصة الأخلود : مخرجه في صحيح مسلم و كانوا بنجران في الفترة بين عيسى و محمد صلى الله عليه و سلم و قد ذكرناها مستوفاه في [البروج] في كتاب الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمن من السنة و آي الفرقان و روى نقلة الأخبار : أن معاوية رحمه الله لما أجرى العين التي استبطنها بالمدينة في وسط المقبرة و أمر الناس بتحويل موتاهم و ذلك في أيام خلافته و بعد الجماعة بأعوام و ذلك بعد أحد بنحو من خمسين سنة فوجدوا على حالهم حتى أن الكل رأوا المسحاة و قد أصابت قدم حمزة ابن عبد المطلب فسأل منه الدم و أن جابر بن عبد الله أخرج أباه عبد الله بن حرام كأنما دفن بالأمس و هذا أشهر في الشهداء من أن يحتاج فيه إلى أكثر

و قد روى كافة أهل المدينة أن جدار قبر النبي صلى الله عليه و سلم لما أقدم أيام خلافة الوليد ابن عبد الملك بن مروان و ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة بدت لهم قدم فخافوا أن تكون قدم النبي فجزع الناس حتى روى لهم سعيد بن المسيب رضي الله عنه : [أن أجساد الأنبياء لا تقيم في الأرض أكثر من أربعين يوما ثم ترفع] و جاء سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فعرف أنها قدم جده عمر رضي الله عنه و كان رحمه الله قتل شهيدا و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم : [المؤذن الختسب كالمتشحط في دمه قتيلا و إن مات لم يلود في قبره] و ظاهر هذا : أن المؤمن الختسب لا تأكله الأرض أيضا

و خرج أبو داود و ابن ماجه في سننهما [عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أفضل أيامكم يوم الجمعة في خلق آدم و فيه قبض و فيه النفخة و فيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي] قالوا : يا رسول الله و كيف تعرض صلاتنا عليك و قد أرمت ؟ يقولون بليت فقال : [إن الله عز و جل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء] لفظ أبي داود و قال ابن العربي حديث حسن قلت : و خرج أبو بكر الزار عن شداد بن أوس و اتفقوا في السند عن حسين بن علي عن عبد الرحمن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني فقال عن أوس بن أوس أو عن شداد بن أوس و قال الزار : لا يعلم أحدا يرويه بهذا اللفظ إلا شداد بن أوس و لا نعلم له طريقا غير هذا الطريق عن شداد بن أوس و لا رواه إلا حسين بن علي الجعفي و قال أبو محمد عبد الحق و يقال : إن عبد الرحمن هذا هو ابن يزيد بن تميم قاله البخاري و أبو حاتم و هو منكر الحديث ضعيفه

قلت : و قد خرج ابن ماجه من غير هذا الطريق فقال : [حدثنا عمرو بن سواد المصري حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكثروا علي الصلاة يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده للملائكة و إن أحدا لمن يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها قال قلت : و بعد الموت ؟ قال : و بعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل الأجساد الأنبياء] فني الله حي يرزق صلى الله عليه و سلم و رواه أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيء عن أبي الدرداء قال أبو محمد عبد الحق : و زيد بن أيمن لا أعلم رواة عنه إلا سعيد بن هلال

قال المؤلف : قال البخاري في التاريخ : زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيء مرسل روي عنه سعيد بن هلال و الله أعلم

باب في اقراض هذا الخلق و ذكر النفخ و الصعق و كم بين النفختين ؟ و ذكر

البعث و النشر و النار

مسلم [عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين — لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما — فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين إثنين عداوة ثم يرسل الله عز و جل ريحا باردة من قبل الشمال فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى إن أحدكم لو دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير و أحلام السباع لا يعرفون معروفا و لا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان و هم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا و رفع لينا قال : فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق و يصعق الناس ثم قال يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس { ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم { وقفوهم إنهم مسؤولون } ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعين قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيبا و ذلك يوم يكشف عن ساق]

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما بين النفختين أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعين يوما ؟ قال : آييت قالوا : أربعين شهرا ؟ قال : آييت قالوا ؟ أربعين عاما ؟ قال : آييت ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال : و ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا] و في رواية [لا تأكله الأرض أبدا] و هو عجب الذنب و منه يركب الخلق يوم القيامة و عند ابن وهب في هذا الحديث [فأربعون جمعة] ؟ قال آييت و إسناده منقطع

فصل : هذان الحديثان مع صحتهما في غاية البيان فيما ذكرناه و يزيدهما أيضا بيانا في أبواب و يأتي ذكر الدجال مستوعبا في الأشراف إن شاء الله تعالى و أصغى معناه : أمال لينا يعني صفحة العنق و يلوط معناه : يطبن و يصلح و قول أبي هريرة آييت : فيه تأويلان

الأول : آييت أي امتنعت من بيان ذلك تفسيره و على هذا كان عنده علم من ذلك أي سمعه من النبي صلى الله عليه و سلم

الثاني : آييت أي آييت أن أسأل عن ذلك النبي صلى الله عليه و سلم و على هذا لم يكن عنده علم من ذلك و الأول أظهر و إنما لم يبينه لأنه لم ترهق لذلك حاجة و لأنه ليس من البيئات و الهدى الذي أمر بتبليغه و في البخاري عنه أنه قال : حفظت وعاءين من علم فأما أحدهما فينتته و أما الآخر فلو بثنته لقطع مني هذا البلعوم قال أبو عبد الله : البلعوم : مجرى الطعام و قد جاء أن بين النفختين أربعين عاما و الله أعلم و سيأتي

و ذكر هناد بن السدي قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن السدي سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية { له ما بين أيدينا و ما خلفنا وما بين ذلك } فلم يجيني فسمعنا أنه ما بين النفختين حدثنا وكيع عن أبي جعفر الرازي عن أبي العالية و ما بين ذلك قال : ما بين النفختين و الله أعلم

باب في قول الله تعالى

{ و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله }
و هم الملائكة أو الشهداء أو الأنبياء أو حملة العرش أو جبريل أو ميكائيل أو ملك الموت صعق : مات
روى الأئمة عن أبي هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : و الذي اصطفى موسى على البشر فرجع
رجل من الأنصار يده فلطمه قال : تقول هذا و فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ فذكرت ذلك لرسول الله
قال الله عز و جل { و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى
فإذا هم قيام ينظرون } فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه
قبلي أو كان ممن استثنى الله و من قال : [أنا خير من يونس بن متى : فقد كذب] لفظ ابن ماجه أخرجه عن أبي
بكر بن أبي شيبة عن علي بن مسهر و أخرجه الترمذي عن أبي كريب محمد بن العلاء قال : حدثنا عبدة بن سليمان
جميعا عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال الترمذي : حديث حسن صحيح و أخرجه البخاري و
مسلم بمعناه

فصل : و اختلف العلماء في المستثنى : من هو ؟ فقيل الملائكة و قيل الأنبياء و قيل الشهداء و اختاره الحلبي قال
: و هو مروى عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء فإن الله تعالى يقول : { أحياء عند ربهم يرزقون } و
ضعف غيره من الأقوال على ما يأتي و قال شيخنا أبو العباس : و الصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح و
الكل محتمل

قلت : قد ورد حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء و هو الصحيح على ما يأتي : و أسند النحاس في كتاب معاني
القرآن له حدثنا الحسين بن عمر الكوفي قال : حدثنا هناد بن السرى قال : حدثنا وكيع عن شعبة عمارة ابن أبي
حفصة عن حجر الهجري عن سعيد بن جبير في قول الله عز و جل { إلا من شاء الله } قال : هم الشهداء هم ثنية
الله عز و جل متقلدو السيوف حول العرش و قال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين الفختين
قال يحيى بن سلام في تفسيره : بلغني أن آخر من يبقى منهم : جبريل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت ثم يموت
جبريل و ميكائيل و إسرافيل ثم يقول الله عز و جل لملك الموت : مت فيموت و قد جاء هذا مرفوعا في حديث أبي
هريرة الطويل على ما يأتي و قيل : هم حملة العرش و جبريل و ميكائيل ملك الموت
و قال الحلبي : من زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل و ميكائيل و ملك الموت أو زعم أنه لأجل
الولدان و الحور العين في الجنة أو زعم أنه لأجل موسى فإن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [أنا أول من تشق
عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله عز
و جل] ؟ فإنه لم يصح شيء منها

أم الأول : فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات و الأرض لأن العرش فوق السموات كلها فكيف يكون
حملته في السموات ؟ و أما جبريل و ميكائيل و ملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش و إذا كان العرش
فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله في السموات و كذلك القول الثاني لأن الولدان و الحور في الجنة و الجنات
و إن كان بعضها أرفع من بعض فإن جميعها فوق السموات و دون العرش و هي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا
شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء و صرفه إلى موسى فلا وجه لأنه قد مات بالحقيقة فلا يموت عند نفخ
الصور ثانية و لهذا لم يعتد في ذكر اختلاف المتأولين في الاستثناء بقول من قال : إلا من شاء الله أي الذين سبق
موقم قبل نفخ الصور لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها فلا
معنى لاستثنائه منها و الذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بغرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم و هذا في موسى

موجود فلا وجه لاستثنائه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو أن قال : [الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور؟] فظاهر هذا الحديث : أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور و صرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله قيل : المعنى : أن الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أول من يرفع رأسه فإذا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور؟ أي فلا أدري أبعثه قبلي كان وهبا له و تفصيلا من هذا الوجه كما فضل في الدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور أي قدم بعثه على بعث الأنبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بما

و ما عدا هذا فلا يثبت قال شيخنا أحمد بن عمر : و ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث و نص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق و لما كان هذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يميت من الأنبياء و هذا باطل بما تقدم من ذكر موته و قال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فرع بعد النشر حين تنشق السموات و الأرض قال : فتستقل الأحاديث و الآيات و الله أعلم

قال شيخنا أبو العباس : و هذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلتقى موسى و هو متعلق بالعرش و هذا إنما هو عند نفخة البعث قال شيخنا أحمد بن عمر : و الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض و إنما هو انتقال من حال إلى حال و يدل على ذلك : أن الشهداء بعد قتلهم و موتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين و هذه صفة الأحياء في الدنيا و إذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق و أولى مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم [أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء] و أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس و في السماء و خصوصا بموسى و قد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بما يقتضي ان الله تبارك و تعالى يرد عليه روحه حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه إلى غير ذلك مما يحصل من جهلته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيوا عنا بحيث لا تدرکہم و إن كانوا موجودين أحياء و ذلك كالحال في الملائكة فيهم موجودون أحياء و لا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامة من أوليائه و إذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت و أما صعق الأنبياء فالأظهر : أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيا و من غشى عليه أفاق و كذلك قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم و البخاري : [فأكون أول من يفيق] و هي رواية صحيحة و حسنة فبيننا صلى الله عليه وسلم أول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم قبل الأنبياء و غيرهم إلا موسى فإنه حصل له فيه تردد : هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا لأنه حوسب بغشية الطور؟ و هذه فضيلة عظيمة في حق موسى عليه السلام و لا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد مطلقا لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرا كلياً و الله أعلم

قال المؤلف : ما اختاره شيخنا هو ما ذكره الحلبي و اختاره في قوله فإن حمل عليه الحديث فذاك قال الحلبي : و أما الملائكة الذين ذكرناهم صلوات الله عليهم فإننا لم ننف عنهم الموت و لا أحلناه و إنما أبينا أن يكونوا هم المرادين بالاستثناء من الوجه الذين ذكرناه ثم قد وردت الأخبار بأن الله تعالى يميت حملة العرش و ملك الموت و ميكائيل ثم

يمت آخر من يميت : جبريل و يحييه مكانه و يحي هؤلاء الملائكة الذي ذكرناهم و أما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر : و الأظهر أنها دار الخلد فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلاً للموت و الذي خلق فيها أولى ألا يموت فيها أبداً و أيضاً فإن الموت لقهر المكلفين و نقلهم من دار إلى دار و أهل الجنة لم يبلغنا أن عليهم تكليفاً فإن أعفوا من الموت كما أعفوا من التكليف لم يكن بعيداً فإن قيل : فقد قال الله تعالى { كل شيء هالك إلا وجهه } و هو يدل على أن الجنة نفسها تفتى ثم تعاد يوم الجزاء فلم أنكرتم أن يكونوا الولدان و الحور يموتون ثم يحيون ؟ قيل : يحتمل معنى قوله : { كل شيء هالك إلا وجهه } أي ما من شيء إلا و هو قابل للهلاك فيهلك إن أراد الله به ذلك إلا وجهه أي إلا هو سبحانه فإنه تعالى قديم و القديم لا يمكن أن يفنى و ما عداه محدث و احدث إنما يبقى قدر ما يبقيه محدثه فإذا حبس البقاء عنه فني و لم يبلغنا في خبر صحيح و لا معلول أنه يهلك العرش فلتكن الجنة مثله فصل : قوله صلى الله عليه و سلم في الحديث : [و من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب] للعلماء في تأويلات : أحسنها و أجملها ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي قال : أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سئل : هل الباري في جهة ؟ فقال : لا هو متعال عن ذلك قيل له : ما الدليل عليه ؟ قال الدليل عليه قول النبي صلى الله عليه و سلم : [لا تفضلوني على يونس بن متى] فقيل له : ما وجه الدليل من هذا الخبر ؟ فقال لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بما دينا فقام رجلان فقالا : هي علينا فقال : لا يتبع بما اثنين لأنه يشق عليه فقال واحد : هي علي فقال : إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمته الحوت و صار في قعر البحر في ظلمات ثلاث و نادى { لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } كما أخبر الله و لم يكن محمد صلى الله عليه و سلم حين جلس على الرفرف الأخضر و ارتقى به صعدا حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام و ناجاه ربه بما ناجاه به و أوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر

قال المؤلف : فالله سبحانه قريب من عباده يسمع دعاءهم و لا يخفى عليه حالهم كيف ما تصرفت من غير مسافة بينه و بينهم فيسمع و يرى ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء تحت الأرض السفلى كما يسمع و يرى تسبيح حملة عرشه من فوق السبع السموات العلى سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة أحاط بكل شيء علماً و أحصى كل شيء عدداً و لقد أحسن أبو العلاء بن سليمان المغربي حيث يقول :

(يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل)

(و يرى مناظر عروقها في لحمها ... و المخ في تلك العظام النحل)

(أجالها محتومة أرزاقها ... مقسومة بعبا و إن لم تسأل)

(فلقد سألتك بالنبي محمد ... الهاشمي المدثر المزل)

(إمن علي بتوبة تحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول)

باب يفنى العباد و يبقى الملك الله وحده

البخاري و مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض] ؟ و [عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يطوي الله السماء يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟] انفراد به مسلم

و [عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : يأخذ الله سماواته و أرضيه بيده فيقول : أنا الله و يقبض أصابعه و يسطها فيقول : أنا الملك] حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم

فصل : هذه الأحاديث تدل على أن الله سبحانه يفني جميع خلقه أجمع كما تقدم ثم يقول الله عز و جل : { لمن الملك اليوم } فيجيب نفسه المقدسة بقوله : { لله الواحد القهار }

و قيل : إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل القضة لم يعص الله عليها على ما يأتي { لمن الملك اليوم } فيجيبه العباد { لله الواحد القهار } رواه أبو وائل عن ابن مسعود و اختاره أبو جعفر النحاس قال : و القول صحيح عن ابن مسعود و ليس هو مما يؤخذ بالقياس و لا بالتأويل

قال المؤلف رضي الله عنه : و القول الأول أظهر لأن المقصود إظهاره انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعوى المدعين و انتساب المنتسبين إذ قد ذهب كل ملك و ملكه و كل جبار و متكبر و ملكه و انقطعت نسبتهم و دعاويهم و هذا أظهر و هو قول الحسن و محمد بن كعب و هو مقتضى قوله الحق : [أنا المالك أين ملوك الأرض] ؟

و في حديث أبي هريرة [ثم يأمر الله عز و جل إسرائيل فينفخ فينفخ الصعق فيصعق من في السموات و من في الأرض إلا ما شاء الله فإذا اجتمعوا أمواتا جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات أهل السماء و الأرض إلا ما شئت فيقول الله سبحانه — و هو أعلم — من بقي ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت و بقي حملة العرش و بقي جبريل و ميكائيل و إسرائيل و بقيت أنا فيقول الله عز و جل : ليمت جبريل و ميكائيل فينطق الله عز و جل العرش فيقول أي رب يموت جبريل و ميكائيل ؟ فيقول : اسكت إني كتبت الموت على كل من تحت عرشي فيموتان قال : ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار جل جلاله فيقول يا رب قد مات جبريل و ميكائيل فيقول الله سبحانه — و هو أعلم — من بقي ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت و بقي حملة عرشك و بقيت أنا فيقول : ليمت حملة العرش فيموتون فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرائيل ثم يقول : ليمت إسرائيل فيموت ثم يأتي ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملة عرشك فيقول — و هو أعلم — من بقي ؟ فيقول بقيت أنت الحي الذي لا تموت و بقيت أنا فيقول الله : أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة و لا ولدا { لم يلد و لم يولد * و لم يكن له كفوا أحد } فكان كما كان أولا طوى السماء كطي السجل للكتاب ثم قال : أنا الجبار { لمن الملك اليوم } فلم يجبه أحد فيقول جل ثناؤه و تقدست أسماؤه { لله الواحد القهار } [

قلت : حديث أبي هريرة هذا فيه طول و هذا وسطه و يأتي آخره في الباب بعد هذا و يأتي أوله بعد ذلك إن شاء الله تعالى فينصل جميعه إن شاء الله تعالى ذكره الطبري و علي بن معبد و الثعلبي و غيرهم

و في حديث لقيط بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم : [ثم تلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصيحة فلعمر إهلك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات و للملائكة الذين مع ربك فأصبح ربك يطوف في البلاد و قد خلت عليه البلاد] و ذكر الحديث و هو حديث فيه طول خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده و غيره الأوزاعي

قال علماؤنا : قوله : [فأصبح ربك يطوف بالبلاد و قد خلت عليه البلاد] إنما هو تفهم و تقريب إلى أن جميع من في الأرض يموت و أن الأرض تبقى خالية و ليس يبقى إلا الله كما قال : { كل من عليها فان * و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام } و عند قوله سبحانه { لمن الملك اليوم } هو انقطاع زمن الدنيا و بعده يكون البعث و

النشر و الحشر على ما يأتي و في فناء الجنة و النار عند فناء جميع الخلق قولان :

أحدهما : يفنيهما و لا يبقى شيء سواه و هو معنى قوله الحق : { هو الأول و الآخر } و قيل : إنه مما لا يجوز عليهما الفناء و إنهما باقيان بإبقاء الله سبحانه و الله أعلم و قد تقدم في الباب قبل هذا الإشارة إلى ذلك و قد قيل : إنه ينادي مناد فيقول : { لمن الملك اليوم } ؟ فيجيبه أهل الجنة : { لله الواحد القهار }

فصل : في بيان ما أشكل من الحديث من ذكر اليد و الأصابع

إن من قائل : ما تأويل اليد عندكم و اليد حقيقتها في الجارحة المعلومة عندنا و تلك التي يكون القبض و الطي بها ؟ قلنا : لفظ الشمال أشد في الإشكال

و ذلك في الإطلاق على الله محال

و الجواب : أن اليد في كلام العرب لها خمسة معان : تكون بمعنى القوة و منه قوله تعالى : { واذكر عبدنا داود ذا الأيد } و تكون بمعنى الملك و القوة و منه قوله تعالى : { قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء } و تكون بمعنى النعمة تقول العرب : كم يد لي عند فلان أي كم من نعمة أسديتها إليه و تكون بمعنى الصلة و منه قوله تعالى { مما عملت أيدينا أنعاما } أي مما عملنا نحن و قال تعالى : { أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح } أي الذي له النكاح و تكون بمعنى الجارحة

ومنه قوله تعالى : { وخذ بيدك ضغثا فاضرب به و لا تخث } و قوله في الحديث [بيده] عبارة عن قدرته و إحاطته بجميع مخلوقاته يقال : ما فلان إلا في قبضتي بمعنى : ما فلان إلا في قدرتي و الناس يقولون : الأشياء في قبضة الله يريدون في ملكه و قدرته و قد يكون معنى القبض و الطي : إفناء الشيء و إذهابه فقوله عز و جل : { و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة } يحتمل أن يكون المراد به الأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة و قوله : { و السموات مطويات بيمينه } ليس يريد به طيا بعلاج و انتصاب و إنما المراد بذلك الفناء و الذهاب يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه و جاءنا غيره و انطوى عنا دهر بمعنى المضي و الذهاب

فإن قيل : فقد قال في الحديث : [و يقبض أصابعه و يبسطها] و هذه حقيقة الجارحة ؟ قلنا : هذا من ذهب الجسمة من اليهود و الحشوية و الله تعالى متعال عن ذلك و إنما المعنى حكاية الصاحب عن النبي صلى الله عليه و سلم : يقبض أصابعه و يبسطها و ليس معنى اليد في الصفات بمعنى الجارحة حتى يتوهم بثبوتها ثبوت الأصابع فدل على أن النبي صلى الله عليه و سلم هو الذي كان يقبض أصابعه و يبسطها قال الخطابي و ذكر الأصابع لم يوجد في شيء من الكتاب و السنة المقطوع بصحتها

فإن قيل : فقد ورد ذكر الأصابع في غير ما حديث فما جوابكم عنه ؟ فقد روى البخاري و مسلم قال : أتى النبي صلى الله عليه و سلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل السموات على أصبع و الأرضين على أصبع و الشجر على أصبع و الثرى على أصبع و الخلائق على أصبع ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى بدت نواجذه فأنزل الله عز و جل { و ما قدرُوا الله حق قدره و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه } و روى [عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها حيث يشاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك] و مثله كثير قيل له : اعلم أن الأصابع قد يكون بمعنى الجارحة و الله تعالى يتقدس عن ذلك و يكون بمعنى القدرة على الشيء و يسارة قلبه كما تقول من استسهل شيئا و استخفه مخاطبا لمن استثقله : أنا أحمله على أصبعي و ارفعه علي بأصبعي و أمسكه بخصري و كما يقال من

أطاع بحمل شيء : أنا أحمله على عيني و أفعله على رأسي يعني به الطواعية و ما أشبه ذلك قد قال في معناه و هو كثير و مما قال عنتره و قيل ابن زيادة التيمي :

(الريح لا أملاً كفي به ... و اللبد لا أتبع تزواله)

يريد أنه لا يتكلف أن يجمع كفه فيشتمل على الريح لكن يطعن به خلصاً بأصابعه لحفة ذلك عليه و قوله : لا أتبع تزواله : أي إذا مال لم أمل معه

يقول : أنا ثابت على ظهر الخيل لا يضربني فقد بعض الآلة و لا تغير السرج عما يريد الراكب يصف نفسه

بالفروسية في الركوب و الطعن فلما كانت السموات و الأرض أعظم الموجودات قدراً و أكبرها خلقاً كان إمساكها بالنسبة إلى الله تعالى كالشيء الخفير الذي نجعله نحن بين أصابعنا و نمزّه بأيدينا و نتصرف فيه كيف شئنا فتكون الإشارة بقوله : [ثم يقبض أصابعه و يبسطها] و بقوله : [ثم يهزهن] كما جاء في بعض طرق مسلم و غيره أي هي في قدرته كالخبة مثلاً في كف أحدنا التي لا نبالي بإمساكها و لا بهزها و لا تحريكها و لا القبض و البسط عليها و لا نجد في ذلك صعوبة و لا مشقة و قد يكون الأصبع أيضاً في كلام العرب بمعنى النعمة و هو المراد بقوله عليه السلام : [إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن] أي بين نعمتين من نعم الرحمن يقال : لفلان علي أصبع أي أثر حسن إذا نعم عليه نعمة حسنة و للراعي على ماشيته أصبع أي أثر حسن و أنشد الأصمعي للراعي :

(ضعيف العصي بادي العروق ترى له ... عليها إذا ما أجذب الناس أصعباً)

و قال آخر :

(صلاة و تسييح و إعطاء سائل ... و ذي رحم تبل منك أصبع)

أي أثر حسن و قال آخر :

(من يجعل الله عليه أصعباً ... في الخير و الشر يلقاه معاً)

فإن قيل : كيف جاز إطلاق الشمال على الله تعالى و ذلك يقتضي النقص ؟ قيل : هو مما انفرد به عمر بن حمزة عن سالم و قد روى هذا الحديث نافع و عبد الله بن مقسم عن ابن عمر لم يذكر فيه الشمال و رواه أبو هريرة و غيره عن النبي صلى الله عليه و سلم و لم يذكر فيه واحد منهم الشمال

و قال الیهقي و روى ذكر الشمال في حديث آخر في غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة و كيف يصح ذلك و صحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه سمي كلتا يديه يميناً ؟ و كان من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين

قال الخطابي : ليس فيما يضاف إلى الله عز و جل من صفة اليد شمال لأن الشمال محل النقص و الضعف و قد روى [كلتا يديه يمين] و ليس معنى اليد عندنا الجارحة و إنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت و

لا نكفيها

و ننهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب و السنة المأثورة الصحيحة و هو مذهب أهل السنة و الجماعة و قد يكون اليمين في كلام العرب بمعنى القدرة و الملك و منه قوله تعالى : { أو ما ملكت أيمانكم } يريد بها الملك و قال { لأخذنا منه باليمين } أي بالقوة و القدرة أي أخذنا قدرته و قوته قال الفراء : اليمين القوة و القدرة و أنشد :

(إذا ما راية رفعت نجد ... تلقاها عرابة باليمين)

و قال آخر :

(و لما رأيت الشمس أشرق نورها ... تناولت منها حاجتي بيمينى)

(فقلت : شنيفا ثم فاران بعده ... و كان على الآيات غير أمين)

قلت : و على هذا التأويل تخرج الآية و الحديث و الله أعلم و قد تكون اليمين في كلام مالك العرب بمعنى :

التبجيل و التعظيم يقال عندنا باليمين أي بالخل الجليل و منه قول الشاعر :

(أقول لناقتي إذ بلغتني ... لقد أصبحت عندي باليمين)

أي بالخل الرفيع و أما قوله : كلتا يديه يمين فإنه أراد بذلك التمام و الكمال و كانت العرب تحب التيامن و

تكره التياسر لما في التياسر من نقصان و في التيامن من التمام فإن قيل : فأين يكون الناس عند طي الأرض و

السماء؟ قلنا : يكونون على الصراط على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

باب البرزخ

روى هناد بن السري قال حدثنا محمد بن فضيل و وكيع عن فطر قال سألت مجاهدا عن قول الله تعالى : { و من

ورائهم برزخ إلى يوم يعثون } قال هو ما بين الموت و البعث و قيل للشعبي : مات فلان قال : ليس هو في الدنيا و

لا في الآخرة هو في برزخ و البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين و من قوله تعالى : { و جعل بينهما برزخا }

أي : حاجزا و كذلك هو في الآية من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل في البرزخ و قوله تعالى : { و من

ورائهم برزخ } أي من أمامهم و بين أيديهم

باب ذكر النفخ الثاني للبعث في الصور

و بيانه و كيفية البعث و بيانه و أول من تنشق عنه الأرض و أول من يحيى من الخلق و بيان السن الذي يخرجون

عليه من قبورهم و في لسانهم و بيان قوله تعالى { و ألقنا ما فيها و تحلت } قال الله عز و جل { يوم ينفخ في

الصور عالم الغيب و الشهادة } و قال : { فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون } و قال { ثم

نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } و قال { يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا } و سماه الله تعالى أيضا بالناقور

في قوله تعالى { فإذا نقر في الناقور }

قال المفسرون : الصور ينقر فيه مع النفخ الأول لموت الخلق على ما يأتي بيانه قال الله تعالى محبرا عن كفار قريش {

ما ينظرون } أي ما ينظرون كفار آخر هذه الأمة الدائنون بدين أبي جهل و أصحابه — إلا صيحة واحدة — يعني

النفخة الأولى التي يكون بها هلاكهم { تأخذهم و هم يخصمون } أي يخصمون في أسواقهم و حوائجهم قال الله :

{ لا تأتكم إلا بغتة } { فلا يستطيعون توصية } أي أن يوصوا { و لا إلى أهلهم يرجعون } أي من أسواقهم و

حيث كانوا { إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون } { و نفخ في الصور فإذا هم من الأجدات } النفخة

هي النفخة الثانية نفخة البعث و الصور : قرن من نور يجعل فيه الأرواح يقال إن فيه من الثقب على عدد أرواح

الخلائق على ما يأتي قال مجاهد هو كالقوق ذكره البخاري فإذا نفخ فيه صاحب الصور النفخة الثانية ذهب كل

روح إلى جسده { فإذا هم من الأجدات } أي القبور { ينسلون } أي يخرجون سراعا يقال نسل ينسل و ينسل

بالضم أيضا : إذا أسرع في مشيه فالمعنى يخرجون مسرعين و في الخبر : أن بين النفختين أربعين عاما و سيأتي و في

البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى : { فإذا نقر في الناقور } : الصور : قال : و [الراجفة] النفخة الأولى [و

الرادفة] الثانية

و روي عن مجاهد أنه قال : للكافرين هجعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم فإذا صحح بأهل القبور قاموا مدعورين عجلين ينظرون ما يراد بهم لقوله تعالى : { ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } و قد أخبر الله عز و جل عن الكفار أنهم يقولون { يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا } ؟ فيقول لهم الملائكة أو المؤمنون على اختلاف المفسرين { هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون } و قيل إن الكفار هم القائلون : { هذا ما وعد الرحمن } و ذلك أنهم لما بعثوا لما بعثوا قال بعضهم لبعض { يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا } ؟ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ثم قالوا : { هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون } فكذبنا به أقروا حين لم ينفعهم الإقرار ثم يؤمر بحشر الجميع إلى الموقف للحساب

و قال عكرمة : إن الذين يغرقون في البحر تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فللقبيها الأمواج إلى الساحر فتمكث حيناً ثم تصير حائلة نخرة ثم تمر بها الإبل فتأكلها ثم تسير الإبل فتبعر ثم يجيء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقلونه ثم تحمد تلك النار فيجيء الريح فيلقي ذلك الرماد على الأرض فإذا جاءت النفخة { فإذا هم قيام ينظرون } يخرج أولئك و أهل القبور سواء { إن كانت إلا صيحة واحدة } أي نفخة واحدة { فإذا هم جميع لدينا محضرون }

قال علماؤنا رحمهم الله : فالنفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور و غيرهم فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات و يجمع ما تفرق منها في البحار و بطون السباع و غيرها حتى تصير كهيناتها الأولى ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط فإن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [إن السقط ليظل محببنا على باب الجنة و يقال له : ادخل الجنة فيقول لا حتى يدخل أبوي] و هذا السقط هو الذي تم خلقه و نفخ فيه الروح قال الله تعالى : { و إذا المؤودة سئلت { فدل على أن المؤودة تحشر و تسأل و من قبرها تخرج و تبعث و أما من لم ينفخ فيه الروح فهو سائر الأموات سواء قاله الحاكم أبو الحسين بن الحسن الحلبي رحمه الله في كتاب منهاج الدين له و بالحقيقة إنما خروج الخلق بدعوة الحق قال الله تعالى : { يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده } فتقومون فتقولون : سبحانك اللهم و بحمدي قالوا : فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد و يحتج به قال الله تعالى : { يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده } و قال في آية أخرى { و قضى بينهم بالحق و قيل الحمد لله رب العالمين }

ابن ماجه قال : [حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عباد بن العوام عن حجاج بن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن صاحبي الصور بأيديهما — أو في أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران]

الترمذي [عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما لصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه] قال هذا حديث حسن

[و عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : كيف أنعم و صاحب الصور قد النقم القرن و استمع الإذن متى يؤمر بالنفخ] ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم فقال لهم : قولوا : { حسبنا الله و نعم الوكيل } قال حديث حسن

[وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما أطرق صاحب الصور منذ و كل به مستعدا بجذء العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه كأن عينيه كوكبان دريات] أخرجه أبو الحسن بن صخر في فوائده وغيره

[و خرج ابن المبارك و مؤمل بن إسماعيل و علي بن معبد عن ابن مسعود حديثاً ذكر فيه قال : ثم يقوم ملك

الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه و الصور قرن فلا يبقى لله خلق في السموات والأرض إلا مات إلا ما شاء ربك ثم يكون بين الفختين ماشاء الله أن يكون فليس من بني آدم خلق إلا و في الأرض شيء منه [زاد] مؤمل بن إسماعيل قال سفيان — يعني الثوري — عجب الذنب قال : فيرسل الله ماء من تحت العرش : منيا كمني الرجال فتنبت جثمانهم و لحماتهم كما تنبت الأرض من الشرى [ثم قرأ عبد الله } و الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور } قال : [ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فينطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل فيه ثمون فيحيون إجابة رجل واحد قياما لرب العالمين] و قال ابن المبارك و مؤمل : [ثم يقومون فيحيون تحية واحدة]

و ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا ابن مهدي عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : [فيقومون فيحيون تحية رجل واحد قياما لرب العالمين] قوله [فيحيون] التحية تكون في حالين :

أحدهما : أن يضع يديه على ركبتيه و هو قائم و هذا هو المعنى الذي في هذا الحديث ألا تراه يقول : [قياما لرب العالمين]

و الوجه الآخر : أن ينكب على وجهه باركا و هذا هو الوجه المعروف عند الناس و قد حمله بعض الناس على قوله [فيخرون سجدا لرب العالمين] فجعل السجود هو التحية و هذا هو الذي يعرفه الناس من التحية

[و روي عن علي بن معبد عن أبي هريرة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن في طائفة من أصحابه و ساق الحديث بطوله إلى قوله جل ثناؤه و تقدمت أسماؤه } لله الواحد القهار } ثم { تبدل الأرض غير الأرض و السموات } فيسقطها بسطا ثم يمدها مد الأديم العكاظي } لا ترى فيها عوجا و لا أمنا } ثم يجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل ما كانوا فيه من الأولى : من كان في بطنها و من كان على ظهرها كان على ظهرها ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له : ماء الحياة فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقكم اثني عشر ذراعا ثم يأمر الله عز و جل الأجساد فتنبت كنبات الطرايث و كنبات البقل حتى إذا تكلمت أجسادكم فكانت كما كانت يقول الله عز و جل : ليحي حملة العرش فيحيون ثم يقول : ليحي جبريل و ميكايل و إسرافيل فيأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ثم يدعو الله تعالى الأرواح فيؤتى بها تنهوج أرواح المسلمين نورا و الأخرى مظلمة فيأخذها الله فيلقبها في الصور ثم يقول لإسرافيل انفخ فتخه البعث فينفخ فتخرج الأرواح كلها كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء و الأرض فيقول الله عز و جل : و عزتي و

جلالي ليرجع كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم و أنا أول من تنشق الأرض عنه فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث و ثلاثين و اللسان يومئذ بالسريانية سراعا إلى رهم ينسلون } مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر } { ذلك يوم الخروج } { و حشرناهم فلم نغادر منهم أحدا } فتوقفون في موقف عراة غلغا غرلا مقدار سبعين عاما و يعرفون حتى تبلغ منهم الأذقان و يلجمهم فيضجون و يقولون : من يشفع لنا إلى ربنا] ؟ و ساق الحديث بطوله في الشفاعة و سيأتي حديث الشفاعة في صحيح مسلم و غيره إن شاء الله تعالى

و خرج الختلي أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم في كتاب الديباج له : [حدثني أبو بكر بن الحارث بن خليفة حدثنا محمد بن جعفر المدائني عن سلام بن مسلم الطويل عن عبد الحميد عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله عز و جل { إذا السماء انشقت * و أذنت لربها و حققت } قال : فقال رسول الله صلى الله عليه و

سلم أنا أول من تششق عنه الأرض فأجلس جالسا في قبري فيفتح لي باب إلى السماء بحيال رأسي حتى أنظر إلى العرش ثم يفتح لي باب من تحتي حتى أنظر إلى الأرض السابعة حتى أنظر إلى الثرى ثم يفتح لي باب عن يميني حتى أنظر إلى الجنة و منازل أصحابي و إن الأرض تحركت تحتي فقلت : ما بالك أيتها الأرض ؟ قالت : أن ربي أمرني أن ألقى ما في جوفي و أن أتخلى فأكون كما كنت إذ لا شيء في فذلك قوله عز و جل : { و ألقمت ما فيها و تخلت * و أذنت لربها و حقت { أي سمعت و أطاعت و حق لها أن تسمع و تطيع { يا أيها الإنسان { قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أنا ذلك الإنسان]

و روي في تفسير قوله تعالى { يا أيها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية { إن هذا خطاب للأرواح بأن ترجع إلى أجسادها { إلى ربك { أي صاحبك كما تقول : رب الغلام و رب الدار و رب الدابة أي صاحب الغلام و صاحب الدار و صاحب الدابة { فادخلي في عبادي { أي في أجسادهم من مناخرهم كما ورد في الخبر المتقدم و قد روي أن الله تعالى خلق الصور حين فرغ من خلق السموات و الأرض و أن عظم دارته كغلاظ السماء و الأرض و في حديث أبي هريرة : [و الذي نفسي بيده إن أعظم دارة فيه لكعرض السماء و الأرض] و سيأتي و روي : [أن له رأسين رأسا بالمشرق و رأسا بالمغرب] فإله أعلم

فصل : الصور : بالصاد قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء و هي نفخة الصعق و يكون معها نقر لقوله تعالى : { فإذا نقر في الناقور { أي في الصور فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر و الفخ لتكون الصيحة أشد و أعظم ثم يمكث الناس أربعين عاما ثم ينزل الله ماء كمني الرجال على ما تقدم فتكون منه الأجسام بقدره الله تعالى حتى يجعلهم بشرا كما روي في قصة الذين يخرجون النار قد صاروا حمما إنهم يغتسلون من نهر بباب الجنة فينبتون نبات الحبة في جميل السيل و عن ذلك عبر في حديث أبي هريرة المتقدم في صحيح مسلم و غيره [فينبتون نبات البقل] فإذا تميت الأجسام و كملت نفخ في الصور نفخة البعث من غير نقر لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيها من أجسادها فالنفخة الأولى للتنقيح و هي نظير صوت الرعد الذي قد يقوى فيمات منه و نظير الصيحة : الصيحة الشديدة التي يصيحها الرجل بصي فيفزع منه فيموت فإذا نفخ للبعث من غير نقر كما ذكرنا خرجت الأرواح من المجال التي هي فيه فتأتي كل روح إلى جسدها فيحييها الله كل ذلك في لحظة كما قال تعالى : { فإذا هم قيام ينظرون { { ما خلقكم و لا بعثكم إلا كنفس واحدة { و عند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها و أعراضها بلا خلاف بينهم قال بعضهم : بأوصافها فيعاد الوصف أيضا كما يعاد الجسم و اللون قال القاضي أبو بكر بن العربي : و ذلك جازز في حكم الله و قدرته و هين عليه جميعه و لكن لم يرد بإعادة الوصف خير

قلت : فيه أخبار كثيرة في هذا الباب بعد هذا

فصل : و ليس الصور جمع صورة كما زعم بعضهم أي ينفخ في صور الموتى بدليل الأحاديث المذكورة و التنزيل يدل على ذلك قال الله تعالى : { ثم نفخ فيه أخرى { و لم يقل : فيها فعلم أنه ليس جمع صورة قال الكلبي : لا أدري ما الصور ؟ و يقال : هو جمع صورة مثب بسرة و بسر أي ينفخ فيصور الموتى : الأرواح و قرأ الحسن : { يوم ينفخ في الصور عالم الغيب و الشهادة {

قلت : و إلى هذا التأويل في أن الصور بمعنى الصور جمع صورة ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى و هو مردود بما ذكرنا و أيضا لا ينفخ في الصور للبعث مرتين بل ينفخ مرة واحدة و إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور الذي هو القرن و الله سبحانه يحيي الصور فينفخ فيها الروح كما قال تعالى : { فنفخنا فيه من روحنا { و { نفخت فيه من

روحي { قال ابن زيد : يخلق الله الناس في الأرض الخلق الآخر ثم يأمر السماء فتمطر عليهم أربعين يوماً فينبئون فيها حتى تشق عن رؤوسهم كما تشق عن رأس الكمأة فمثلها يومئذ مثل الماخص تنتظر أن يأتيها أمر الله فتطرهم على ظهرها فلما كانت تلك النفخة طرحتهم قال علماءنا : و الأمم مجمعون على أن الذي ينفخ في الصور إسرئيل عليه السلام

قلت : قد جاء حديث يدل على أن الذي ينفخ في الصور غير إسرئيل خرجه أبو نعيم الحافظ قال : حدثنا أحمد بن القاسم قال : حدثنا عفان بن مسلم قال : حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث قال : كنت عند عائشة و عندها كعب الأحبار فذكر كعب إسرئيل فقالت عائشة : يا كعب أخبرني عن إسرئيل ؟ فقال كعب عندكم العلم قالت : أجل فأخبرني فقال : [له أربعة أجنحة جناحان في الهواء و جناح قد تسربل به و جناح على كاهله و العرش على كاهله و القلم على أذنه فإذا نزل الوحي كتب القلم ثم درست الملائكة و ملك الصور جاث على إحدى ركبتيه و قد نصب الأخرى ملتقم الصور مخنيا ظهره شاخصا ببصره ينظر إلى إسرئيل و قد أمر إذا رأى إسرئيل قد ضم جناحيه أن ينفخ في الصور] قالت عائشة ؟ هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول غريب من حديث كعب لم يروه عنه إلا عبد الله بن الحارث و رواه خالد الخذاء عن الوليد أبي بشر عن عبد الله بن رباح عن كعب نحوه

فصل : قلت : و ما خرجه أبو عيسى الترمذي و غيره يدل على أن صاحب الصور إسرئيل عليه السلام ينفخ فيه وحده و حديث أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه يدل على أن معه غيره

و قد خرج أبو بكر البزار في مسنده و أبو داود في كتاب الحروف من كتاب السنن [من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم صاحب الصور فقال : عن يمينه جبريل و عن يساره ميكائيل] فلعل لأحدهما قرنا آخر ينفخ فيه و الله أعلم

و ذكر أبو السري عناد بن السري التيمي الكوفي قال : حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي عمرو قال : [ما من صباح إلا و ملكان يقولون : يا طالب الخير أقبل و يا طالب الشر أقصر و ملكان موكلان يقولان : اللهم أعط منفقا خلفا و أعط ممسكا تلفا و ملكان موكلان يقولان سبحان الملك القدوس و ملكان موكلان بالصور] قال : و حدثنا وكيع عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال : [ما من صباح مثله سواء] و زاد بعد قوله : [و ملكان موكلان بالصور : ينتظران متى يؤمران فينفخان] و عطية لا يحتج أحد بحديثه على ما ذكره أبو محمد عبد الحق و غيره

فصل : و اختلف في عدد النفخات : فقبل ثلاث : نفخة الفزع لقوله تعالى { و يوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله و كل أتوه داخرين } و نفخة الضعف و نفخة البعث لقوله تعالى : { و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } و هذا اختيار ابن العربي و غيره و سيأتي

و قيل : هما نفختان و نفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن لا زمان لها أي فرعوا ماتوا منه و السنة الثابتة على ما تقدم من حديث أبي هريرة و حديث عبد الله بن عمر و غيرهما يدل على أنهما نفختان لا ثلاث و هو الصحيح إن شاء الله تعالى قال الله تعالى : { و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله } فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة و قد روي ابن المبارك [عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بين النفختين أربعون سنة الأولى : يميت الله تعالى بها كل حي و الأخرى : يحيى الله بها كل

ميت] و سيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى

و قال الحلبي جهنم اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة و ذلك بعد أن يجمع الله تعالى ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع و حيوانات الماء و بطن الأرض و ما أصاب النيران منها بالحرق و المياه بالغرق و ما أبلته الشمس و ذرته الرياح فإذا جمعها و أكمل كل بدن منها و لم يبقى إلا الأرواح جمع الأرواح في الصور و أمر إسرأفيل عليه السلام فأرسلها بنفخة من ثقب الصور فرجع كل ذي روح إلى جسده بإذن الله تعالى و جاء في بعض الأخبار ما يبين أن من أكله طائر أو سبع : حشر من جوفه و هو ما رواه الزهري [عن أنس قال : مر رسول الله صلى الله عليه و سلم بحمزة يوم أحد و قد جذع و مثل به فقال : لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع و الطير] و قد أنكر بعض أهل الزيغ أن يكون الصور قرنا قال أبو الهيثم : من أنكر أن يكون الصور قرنا فهو كمن ينكر العرش و الصراط و الميزان و طلب لها تأويلات

باب منه في صفة البعث و ما آية ذلك في الدنيا و أول ما يخلق من الإنسان

رأسه

قال الله تعالى { و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون } و قال سبحانه : { الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء كيف يشاء } إلى قوله { فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها } كذلك النشور { و الآيات في هذا المعنى كثيرة و خرج أبو داود الطيالسي و البيهقي و غيرهما [عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ و ما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أما مررت بوادي قومك جدبا ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : نعم قال : فتلك آية الله في الخلق]

قلت : هذا حديث صحيح لأنه موافق لنص التنزيل و الحمد لله

و في حديث [لقيط بن عامر عن النبي صلى الله عليه و سلم فأرسل ربك إلى السماء فمضب من عند العرش فلعمرو إهلك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل و لا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يخلق من قبل رأسه] و ذكر الحديث

باب يبعث كل عبد على ما مات عليه

مسلم [عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : يبعث كل عبد على ما مات عليه] و عن [عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول إذا أراد الله يقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياقهم] خرجه البخاري و لفظ [البخاري عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أنزل الله يقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم]

مالك [عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : و الذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله — و الله أعلم بمن يكلم في سبيله — إلا جاء يوم القيامة و جرحه يتعب دما اللون لون الدم و العرف عرف المسك] خرجه البخاري و مسلم

أبو داود عن [عبد الله بن عمرو أنه قال : يا رسول الله أخبرني عن الجهاد و الغزو فقال : يا عبد الله إن قتلت صابرا محتسبا بعثت صابرا محتسبا و إن قتلت مرأيا مكاثرا بعثت مرأيا مكاثرا على أي حال قتلت أو قتلت بعثت

الله بتلك الحال]

وروى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران و يعاين منكرا و نكيرا سكران و بيعث يوم القيامة سكران إلى حندق في سوط جهنم يسمى السكران فيه عين يجري ماؤها دما لا يكون له طعام و لا شراب إلا منه]
مسلم عن [ابن عباس أن رجلا كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرما فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغسلوه بماء و سدر و كفنوه في ثوبه و لا تمسوه بطيب و لا تخمروا رأسه فإنه بيعث يوم القيامة مليبا] و في رواية [ملبدا] أخرجه البخاري
وروى عباد بن كثير عن الزبير عن جابر قال : [إن المؤذنين و الملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم يؤذن المؤذن و يلبى الملبى] ذكره الحلبي الحافظ في كتاب المنهاج له و سيأتي بكماله
و ذكر أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن محمد الختلي في كتاب الديباج له [حدثنا أبو محمد عبد الله بن يونس بن بكير حدثنا أبي عن عمرو بن سمير عن جابر عن محمد بن علي عن ابن عباس و علي بن حسين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أخبرني جبريل عليه السلام أن : لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته و في قبره و حين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يمرقون من قبورهم بنفضون رؤوسهم هذا يقول : لا إله إلا الله و الحمد لله فيبيض وجهه و هذا ينادي يحسرتا على ما فرطت في جنب الله مسودة و جوههم] قال : [و حدثني يحيى بن عبد الحميد بن عبد الحماني حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس على أهل لا إله إلا الله و حشة عند الموت و لا في قبورهم و لا منشروهم كأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم و هم يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن]
وروى النسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثناء غبراء عليها جلباب من لعنة الله و درع من نار يدها على رأسها تقول : يا ويلاه] أخرجه بمعناه مسلم و ابن ماجه [عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النياحة من أمر الجاهلية و إن النائحة إذا ماتت قطع الله لها ثيابا من نار و درعا من هب النار] لفظ ابن ماجه و قال مسلم : [تقام القيامة و عليها سربال من قطران و درع من جرب]

و أسند الثعلبي في تفسيره [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفيين صفا عن اليمين و صفا عن الشمال ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار] أنبأناه الشيخ الحاج الراوية أبو محمد عبد الوهاب شهر باين رواح و الشيخ الإمام علي بن هبة الله الشافعي قال : [حدثنا السلفي قال : حدثنا الرئيس أبو عبد الله الثقفي قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن خولة الأبهري الأديب فيما قرئ عليه و أنا أسمع منه سنة ثلاث و أربع مائة قال : أخبرنا أبو عمر و أحمد بن محمد بن حكيم المدني أخبرنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا سليمان بن داود اليماني حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفيين في جهنم صفا عن يمينهن و صفا عن شمالهن ينبحن على أهل جهنم كما تنبح الكلاب] غريب من حديث أبي نصر يحيى بن كثير عن أبي سلمة تفرد به عنه سليمان بن داود
و قال [أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : تخرج النائحة من قبرها شعثناء غبراء مسودة الوجه زرقاء العينين نائرة الشعر كالحلة الوجه و عليه جلباب من لعنة الله و درع من غضب الله إحدى يديها مغلولة إلى عنقها و الأخرى

قد وضعتها على رأسها وهي تنادي يا ويلاه و يا ثوراه و يا حزنه و ملك و راءها يقول : آمين آمين ثم يكون من بعد ذلك حظها النار [

ابن ماجة [عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : النياحة على الميت من أمر الجاهلية و إن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة عليها سراييل من قطران ثم يعلى عليها بدرع من هب النار [

و في التنزيل : { الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس } قال أهل التأويل : المعنى لا يقومون من قبورهم قاله ابن عباس و مجاهد و ابن جبير و قتادة و الربيع و السدي و الضحاك و ابن زيد و غيرهم قال : بعضهم يجعل معه شيطان يخنقه و قالوا : كلهم يبعث كالمخنوق عقوبة له و تميقنا عند جميع أهل الحشر فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا و ذلك أنه أرباه في بطونهم فاثقلهم فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون و يستقطن لعظم بطونهم و ثقلها عليهم نسأل الله الستر و السلامة و العافية في الدنيا و الآخرة و قال تعالى { و من يغفل يأتي بما غل يوم القيامة } و سيأتي

و روي عن النبي صلى الله عليه و سلم : [من مات على مرتبة من المراتب بعث عليها يوم القيامة] ذكره صاحب القوت و هو صحيح المعنى يدل على صحته ما ذكرناه و سيأتي لهذا الباب مزيد بيان في باب بيان الحشر إلى الموقف إن شاء الله تعالى

باب في بعث النبي صلى الله عليه و سلم من قبره

ابن المبارك قال : أخبرنا ابن لهيعة قال : حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن نبيه بن وهب أن كعبا دخل على عائشة رضي الله عنه فذكروا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجحتهم و يصلون على النبي صلى الله عليه و سلم حتى إذا أمسوا عرجوا و هبط سبعون ألف ملك يحفون بالقبر و يضربون بأجحتهم و يصلون عن النبي صلى الله عليه و سلم سبعون ألفا بالليل و سبعون ألفا بالنهار و حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه صلى الله عليه و سلم و الأخبار دالة ثابتة على أن جميع الناس يخرجون عراة و يحشرون كذلك على ما يأتي إن شاء الله تعالى

و خرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول : [حدثنا بشر بن خالد قال حدثنا سعيد بن مسلمة عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر قال : خرج النبي صلى الله عليه و سلم و يمينه على أبي بكر و شماله على عمر فقال : هكذا نبعث يوم القيامة]

باب ما جاء في بعث الأيام و الليالي و يوم الجمعة

[عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن الله عز و جل يبعث لأيام القيامة على هيأتها و يبعث يوم الجمعة : زهراء منيرة أهلها محتفون بما كالعروس تمدى إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها ألوانهم كالثلج بياضا و ريحهم يسطع كالللسك يخوضون في جبال الكافور ينظر إليهم القلان ما يطرقتون تعجبا يدخلون الجنة لا يخالطهم إلا المؤذنون المحتسبون] خرجه القاضي الشريف أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم

الهاشمي العيسوي من ولد عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم و إسناده صحيح و قال أبو عمران الجوني : ما من ليلة تأتي إلا تنادى : اعملوا في ما استطعتم من خير فلن أرجع إليكم يوم القيامة ذكره أبو نعيم

باب ما جاء أن العبد المؤمن إذا قام من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا

معه في الدنيا و عمله

تقدم من حديث جابر مرفوعا : [فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات و ملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق و الآخر شهيد ذكره أبو نعيم أيضا عن ثابت البناني أنه قرأ : { حم } السجدة حتى إذا بلغ { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة } وقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له : لا تخف و لا تحزن و أبشر بالجنة التي كنت تواعد قال : فأمن الله خوفه و أقر الله عينه فما عظمة تغشى الناس يوم القيامة فالمؤمن في قررة عين لما هداه الله له و لما كان يعمل له في الدنيا]

و قال عمرو بن قيس الملاي : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة و أطيّب ريح فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله قد طيب ريحك و حسن صورتك فيقول كذلك كنت في الدنيا أنا عمالك الصالح طال ما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم و تلا : { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا } و أن الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة و أنتن ريح فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله قد قبح صورتك و نتن ريحك فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عمالك السيء طال ما ركبتني في الدنيا و أنا اليوم أركبك و تلا : { و هم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون } و لا يصح من قبل إسناده قاله القاضي أبو بكر بن العربي

باب أين يكون الناس ؟ يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات

مسلم [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد و ذكر الحديث و فيه فقال اليهودي أين يكون الناس ؟ يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هم في الظلمة دون الجسر] الحديث بطوله و سيأتي

و خرج مسلم أيضا و ابن ماجه جميعا قالا : [حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات } فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط]

و أخرجه الترمذي قال : [حدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا سفيان عن داود بن هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : يا رسول الله { و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه } فأين يكون المؤمنون يومئذ ؟ قال : على الصراط يا عائشة] قال : هذا حديث حسن صحيح

و خرج عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا قال : أجل و الله ما تدري [حدثني عائشة أنه سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قوله عز و جل { و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه } قال : فقلت : فأين الناس يا رسول الله ؟ قال : على جسر جهنم] قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه

فصل : هذه الأحاديث نص في أن الأرض و السموات تبدل و تزال و يخلق الله أرضا أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر و هو الصراط لا كما قال كثير من الناس أن تبدل الأرض عبارة عن تغيير صفتها و تسوية أكامها و نسف جبالها و مد أرضها و رواه ابن مسعود رضي الله عنه خرج ابن ماجه و سيأتي ذكره في الاشرط إن شاء الله

و ذكر ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب قال : حدثني ابن عباس قال : [إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم و زيد في سعتها كذا و كذا] و ذكر الحديث و روى [أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تبدل الأرض غير الأرض فيسطها و يمدها مد الأديم] ذكره الثعلبي في تفسيره

و روى علي بن الحسين رضي الله عنهما قال : [إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدميه] ذكره الماوردي و ما بدأنا بذكره أصح لأنه نص ثابت عن النبي صلى الله عليه و سلم فإن قائل : إن بدل في كلام العرب معناه : تغيير الشيء و منه قوله تعالى : { كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها } و قال : { فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم } و لا يقتضي هذا إزالة العين و إنما معناه تغيير الصفة و لو كان المعنى لإزالة لقال يوم تبدل الأرض مخففا من أبدلت الشيء إذا أزلت عنه و شخصه قيل له : ما ذكرته صحيح و لكن قد قرئ قوله عز وجل { عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها } مخففا و مثقلا بمعنى واحد قال : { و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا } و قال : { فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات } و كذا ذكر تاج اللغة أبو نصر الجوهري في الصحاح و أبدلت الشيء بغيره و بدله الله من الخوف أمنا و تبديل الشيء أيضا تغييره فقد دل القرآن و كلام العرب على أن بدل و أبدل بمعنى واحد و قد فسر النبي صلى الله عليه و سلم أحد المعنيين فهو أعلى و لا كلام معه

قال ابن عباس و ابن مسعود : تبدل الأرض أرضا بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم حرام و لم يعمل عليها خطيئة قط و قال ابن مسعود أيضا تبدل الأرض نارا و الجنة من ورائها يرى أكوابها و كواعبها و قال أبو الجلد حيان بن فروة : إني لأجد فيما أقرأ من كتب الله أن الأرض تشعل نارا يوم القيامة و قال علي رضي الله عنه : تبدل الأرض فضة و السماء ذهبا و قال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض } قال تبدل خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ثم قرأ { و ما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام } و قال سعيد بن جبير و محمد بن كعب : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه قلت : و هذا المعنى الذي قاله سعيد بن جبير و محمد بن كعب مروى في الصحيح و سيأتي و إليه ذهب ابن برحان في كتاب الإرشاد له و أن المؤمن يطعم يومئذ من بين رجليه و يشرب من الحوض فهذه أقوال الصحابة و التابعين دالة على ما ذكرنا

و أما تبديل السماء فقبيل تكوير شمسها و قمرها و تناثر نجومها قاله ابن عباس و قيل : اختلاف أحوالها فتارة كالمهل و تارة كالدهان حكاها ابن الأنباري و قال كعب : تصير السماء دخانا و تصير البحار نيرانا و قيل تبديلها : أن تطوي كطي السجل للكتاب و ذكر أبو الحسن شبيب بن إبراهيم بن حيدرة في كتاب الإفصاح له : أنه لا يعارض بين هذه الآثار و أن الأرض و السموات تبدل كرتين إحداهما هذه الأولى و أنه سبحانه يغير صفتها قبل نفخة الصعق فتنتشر أولا كواكبها و تكسف شمسها و قمرها و تصير كالمهل ثم تكشف عن رؤوسهم ثم تسير الجبال ثم توج الأرض ثم تصير البحار نيرانا ثم تنشق الأرض من قطر إلى قطر فتصير الهيئة غير الهيئة و البنية غير البنية ثم إذا نفخ في الصور نفخة الصعق طويت السماء و دحيت الأرض و بدلت السماء سماء أخرى و هو قوله تعالى { و

أشرفت الأرض بنور ربها { و بدلت الأرض : تمد مد الأديم العكاظي و أعيدت كما كانت فيها القبور و البشر على ظهرها و في بطنها و تبدل أيضا تبديلا ثانيا و ذلك إذا وقفوا في الخشر فتبدل لهم الأرض التي يقال لها [الساهرة] يجلسون عليه و هو أرض عفراء و هي البيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام قط و لا جرى عليه ظلم قط و حينئذ يقوم الناس على الصراط و هو لا يسع جميع الخلائق و إن كان قد روي أن مسافته ألف سنة صعودا و ألف سنة هبوطا و ألف سنة استواء و لكن الخلق أكثر من ذلك فيقوم من فضل على الصراط على متن جهنم و هي كإهالة جامدة و هي الأرض التي قال عبد الله إنها أرض من نار يعرق فيها البشر فإذا حوسب عليها أعين الأرض المسماة بالساهرة و جاوزوا الصراط و جعل أهل الجنان من وراء الصراط و أهل النيران في النار و قام الناس على حياض الأنبياء يشربون بدلت الأرض كقرصة النقي فأكلوا من تحت أرجلهم و عند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة أي قرصا واحدا يأكل منه جميع الخلق ممن دخل الجنة و إدامهم زيادة كبد ثور في الجنة و زيادة كبد النون على ما يأتي

باب منه أمور تكون قبل الساعة

ذكر علي بن معبد [عن أبي هريرة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن في طائفة من أصحابه فقال : إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات و الأرض خلق الصور و أعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينظر متى يؤمر فقال أبو هريرة قلت : يا رسول الله و ما الصور ؟ قال : قرن فقلت : و كيف هو ؟ قال : هو عظيم و الذي نفسي بيده إن عظم دارة فيه لكعرض السماء و الأرض فينفخ فيه ثلاث نفحات الأولى نفخة الفرع و الثانية : نفخة الصعق و الثالثة : نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفرع فيفرع أهل السماء و الأرض إلا ما شاء الله و يأمره فيمدها و يديمها و يطولها [يقول الله عز و جل : { و ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق } مأخوذة من فواق الحالب و هي المهلة بين الحلبتين و ذلك أن الحالب يحلب الناقة و الشاة ثم يتركها ساعة يرضعها الفصيل لتدر ثم يحلب و منه سمي الفواق فواقا لأنه يريح يتردد في المعدة بين مهلتين أي أن هذه النفخة ممتدة لا تقطع فيها و يكون ذلك يوم الجمعة في النصف من شهر رمضان فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب ثم تكون سرايا ثم ترتج الأرض بأهلها رجاء و هي التي يقول الله عز و جل { يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة } فتكون الأرض كالسفينه في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها و تنهل المراضع و تضع الحوامل ما في بطونها و تشيب الولدان و تنطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتسلقها الملائكة هاربة فتضرب بها وجوهها و يولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا و هي التي يقول الله عز و جل { يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم و من يضل الله فما له من هاد } فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر و رأوا أمرا عظيما لم يروا مثله فبأخذهم من ذلك من الكرب و الهول ما الله به عليم ثم ينظرون إلى السماء فإذا هي كالمهل ثم انشقت و انحسف شمسها و قمرها و انتثرت نجومها ثم كسحت السماء عنهم ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [و الموتى لا يعلمون شيئا من ذلك قلت : يا رسول الله فمن استثنى الله عز و جل حين يقول { ففرع من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله } ؟ قال : أولئك هم الشهداء عند ربهم يرزفون إنما يصل الفرع إلى الأحياء يقيهم الله شر ذلك اليوم و يؤمنهم منه و هو عذاب يلقيه الله على شرار خلقه و هو الذي يقول الله تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم } أي شديد فتمكنون في ذلك ما شاء الله إلا أنه يطول عليهم

كأطول يوم ثم يأمر الله إسرائيل فينفخ نفخة الصعق [الحديث بطوله و قد تقدم وسطه و هذا آخره
فصل : هذا الحديث ذكره الطبري و الثعلبي و صححه ابن العربي في سراج المرادين و قال : يوم الزلزلة و هو
الاسم الثاني عشر يكون عن النفخة الأولى بهذا اختلافهم الصحيح الواحد المفرد و لما نبأ النبي صلى الله عليه و
سلم بذكر الزلزلة التي تكون عند النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام التي يعظمها قوله [
شيء عظيم] و من فرعها ما لا تطيق حمله النفوس و هو قوله لآدم : [ابعث بعث النار] فيكون ذلك في أثناء
ذلك اليوم و لا يقتضي أن يكون ذلك متصلا بالنفخة الأولى التي يشيب فيها الوليد و تضع الحوامل و تذهل
المرضع و لكن يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون آخر الكلام منوطا بأوله تقديره يقال لآدم ابعث بعث النار أثناء يوم يشيب فيه الوليد و تضع
الحوامل و تذهل المرضع من أوله

الثاني : أن شيب الوليد و وضع الحوامل و ذهول المرضع يكون في النفخة الأولى حقيقة و في هذا القول الثاني
تكون صفته بذلك إخبارا عن شدته و إن لم يوجد غير ذلك الشيء فيه و هذه طريقة العرب في فصاحتها
قلت : ما ذكره ابن العربي من صحة الحديث و كلامه فيه : فيه نظر لما نبهته آنفا و قد قال أبو محمد عبد الحق في
كتاب العقاب له : ورد في هذا الباب حديث منقطع لا يصح ذكره الطبري [من حديث أبي هريرة عن النبي قال :
ينفخ في الصور ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع] فذكره قال : و هو عنده في سورة يس

قلت : قد تقدم أن الصحيح في النفخ إنما هو مرتان لا ثلاث و حديث مسلم في قول الله تعالى لآدم [يا آدم ابعث
بعث النار] إنما هو يعد البعث يوم القيامة و نفخة الفزع هي نفخة الصعق على ما تقدم أو نفخة البعث على ما قيل
على ما يأتي و لأنه لو كانت نفخة الفزع غير نفخة الصعق لأقتضى ذلك أن يكون بقاء الناس بعدها أحياء ما شاء و
يكون هناك ليل و نهار حتى تأتي نفخة الصعق التي يموت لسماعها جميع الخلق كما في حديث عبد الله بن عمرو بن
العاص و على هذا لا يكون قوله ابعث في أثناء اليوم الذي يكون مبدؤه نفخة الفزع على ما ذكره ابن العربي و الله
أعلم

و لا يلزم من زلزال الأرض أن تكون عن نفخة فإننا نشاهد تحرك الأرض و ميدها بمن عليها و ما عليها من جبال و
مياه كالسفينة في البحر إذا تلاطمت أمواجه من غير نفخ و إنما تلك الزلزلة من أشرط الساعة و مقدماتها كسائر
أشرطها

و قد قال علقمة و الشعبي : الزلزلة من أشرط الساعة و هي في الدنيا و كذلك قال أنس بن مالك و الحسن
البصري و قد ذكر القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : أن المراد بنفخة الفزع و النفخة
الثانية أي يحيون فزعين يقولون : { من بعثنا من مرقدنا } و يعاينون من الأمر ما يهولهم و يفزعهم و الله أعلم و نحو
ذلك ذكره الماوردي و اختاره

و قد قيل : إن هذه الزلزلة تكون قبل الساعة في النصف من شهر رمضان بعدها
طلوع الشمس من مغربها و الله أعلم

و قوله تعالى : { ترونها } الضمير المنصوب في { ترونها } للزلزلة أو القيامة قولان : فعلى الأولى أن ذلك في الدنيا
قبل نفخة الصعق لعظم تلك الزلزلة و قوة حركتها بالأرض لأن القيامة لارضاع فيها و لا حمل فترى الناس سكارى
يعني من الخوف و على القول الثاني يكون فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون مثلا و المعنى أن يكون يوما لا يهم أحدا فيه إلا نفسه و الحامل تسقط من مثله كما تسقط

الحوامل من الصيحة الشديدة و يكون الهول عظيما

و الوجه الآخر : أن يكون ذلك حقيقة لا مثلا و يكون المعنى أن من كانت محشورة مع ولد رضيع فإنها إذا رأت هول ذلك اليوم ذهلت عن من ولدت و أن الحوامل إذا بعثن أسقطت من فرع يوم القيامة : الأحمال التي كانت أحياء فماتت بموت أمهاتها أحياء ثم لا يمتن بالإسقاط لأن الموت لا يتكرر عليهن مرتين لأنه لا موت في القيامة و إنما هو يوم الحياة و تضع الحوامل حملها ثم يحتمل أن يحيي الله كل حمل كان قد أتم خلقه و نفخ فيه الروح و يسويه و يعدله فإن الأم تنهل عنه و لو لم تذهل ما قدرت على إرضاعه لأنه لا غذاء يومئذ لها و لبن و اليوم يوم الحساب لا يقبل فيه من عذر و لا علة فكيف تخلى و الاشتغال بالولد مع ما عليها من الحساب و هي بصدده من الجزاء و الحمل الذي لم ينفخ فيه قط إذا سقط يكون مع الوحوش ترابا و لم يبتدأ إحياءه لأن اليوم الأعادة فمن لم يمت في الدنيا لم يحي في الآخرة قاله الحلبي في منهاج الدين

و قال الحسن في قوله تعالى : { و ترى الناس سكارى } أي من العذاب و الخوف { و ما هم بسكارى } من

الشراب و مما يبين ما قلناه : أن إبليس قال

: { أنظرنى إلى يوم يعثون } سأل النظرة و الإمهال إلى يوم البعث و الحساب طلب أن لا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده فقد قال تعالى : { إنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم } قال ابن عباس و السدي و غيرهما : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم و كان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه

قال المؤلف رحمه الله : و ما وقع في هذا الحديث من انشقاق السماء و تناثر نجومها و طمس شمسها و قمرها فقد ذكر المحاسبي و غيره : أن ذلك يكون بعد جمع الناس في الموقف و روي عن ابن عباس و سيأتي و قاله الحلبي في كتاب منهاج الدين

فصل : فأما التكوين يوم القيامة قبل الحساب فقد قال الله تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم } إلى قوله { عذاب الله شديد } و قال : { إذا زلزلت الأرض زلزالها } إلى آخرها

و الذي ثبت بسياق الآيات : أن هذه الزلزلة إنما يكون بعد أحياء الناس و بعثهم من قبورهم لأنه لا يراد بها إلا إذعان الناس و التهويل عليهم فينبغي أن يشاهدوها ليفزعوا منها و يهولهم أمرها و لا تمكن المشاهدة منهم و هم أموات و لأنه تعالى قال : { يومئذ تحدث أخبارها } أي تخبر عما عمل عليها من خير و شر { يومئذ يصدر الناس أشتاتا } فدل ذلك على أن هذه الزلزلة إنما تكون و الناس أحياء و اليوم يوم الجزاء و قال تعالى : { فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة } يعني الآخرة { و حملت الأرض و الجبال } إلى قوله { لا تخفى منكم خافية } فدل ذلك هذه السورة على أن اصطدام الأرض و الجبال لا يكون إلا بعد الإحياء فدل ذلك هذه الآية على أن الكوائن إنما تكون بعد النشأة الثانية و الله أعلم

و أما قوله فيه يوم التناد فقال الحسن و قتادة ذلك يوم ينادي أهل الجنة أهل النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا و ينادي أهل النار أهل الجنة أن أفيضوا علينا من الماء يوم تولون مدبرين يعني عن النار أي غير قادرين و غير معجزين فيتنفسر مجاهد و قيل : معناه يوم ينادي أهل النار بالويل و الثور و يولون مدبرين من شدة العذاب و قيل : إن ذلك نداء بعض الناس لبعضهم في الحشر و توليهم مدبرين إذا رأوا عنقا من النار

و قال قتادة : معنى تولون مدبرين منطلقا بكم إلى النار ما لكم من الله من عاصم أي مانع يمنعكم فإن قيل : فقد قال الآله تعالى : { يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة } إلى أن قال : { فإنما هي زجرة واحدة } و هذا يقتضي

بظاهرة أنها ثلاث له ليس كذلك و إنما المراد بالزجرة الفسخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم كذلك قال ابن عباس و مجاهد و عطاء و ابن زيد و غيرهم قال مجاهد : هما صيحتان أما الأولى فيموت كل شيء بإذن الله و أما الأخرى فيحيا كل شيء بإذن الله و قال مجاهد أيضا : الرادفة حين تنشق السماء و تحمل الأرض و الجبال فتدك دكة واحدة و قال عطاء : الراجفة القيامة و الرادفة البعث و قال ابن زيد : الراجفة الموت و الرادفة الساعة فهذا يبين لك ما قلناه من أن المراد بالزجرة الفسخة الثانية

و اختلفوا في الساهرة اختلافا كثيرا فقال ابن عباس : و أما الساهرة فأرض من فضة بيضاء لم يعص الله عليها طرفة عين خلفها الله يومئذ و هو قوله تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض } و قال بعضهم : الساهرة اسم الأرض السابعة يأتي الله بها فيحاسب عليها الخلائق و ذلك حين تبدل الأرض غير الأرض و قال قتادة : هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم و قيل صحراء قريب من شفير جهنم و قال الثوري : الساهرة أرض الشام و قيل غير هذا و إنما قيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون عليها حيثذ و معنى { فإذا هم بالساهرة } أي على الأرض بعدما كانوا في بطنها و العرب تسمى الغلاة و وجه الأرض ساهرة قال أمية بن أبي الصلت :

(و فيها لحم ساهرة و بحر ... و ما فاهوا به لهم مقيم)

باب الحشر و معناه الجمع

و هو على أربعة أوجه : حشران في الدنيا و حشران في الآخرة أما الذي في الدنيا فقوله تعالى { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر } قال الزهري : كانوا من سبط لم يصيبهم جلاء و كان الله عز و جل قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا و كان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام [قال ابن عباس : من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية و ذلك أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لهم : أخرجوا قالوا أي أين ؟ قال : إلى أرض الحشر] قال قتادة : هذا أول الحشر

الثاني : ما رواه مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين و راهبين و اثنان على بعير و ثلاثة على بعير و تحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا و تقبل معهم حيث قالوا و تصبح معهم حيث أصبحوا و تمسي معهم حيث أمسوا] أخرجه البخاري أيضا و قال قتادة : الحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا و تقبل معهم حيث قالوا و تأكل منهم من تخلف قال القاضي عياض : هذا الحشر في الدنيا قبل قيام الساعة و هو آخر أشراطهما كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات الساعة قال فيه : و آخر ذلك في نار تخرج من قعر عدن تزرع الناس و في رواية تطرد الناس إلى محشرهم و في حديث آخر : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجار و يدل على أنها قبل يوم القيامة قوله : فتقبل معهم حيث قالوا و تمسي معهم حيث أمسوا و تصبح معهم حيث أصبحوا و قال و في بعض الروايات في غير مسلم فإذا سمعتم به فاخرجوا إلى الشام كأنه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم قال المؤلف رحمه الله : و ذكر الحليمي في منهاج الدين له من حديث ابن عباس و ذكر أن ذلك في الآخرة فقال :

يحمثل قوله عليه السلام : [تحشر الناس على ثلاث طرائق] إشارة إلى الأبرار و المخلطين و الكفار فالأبرار هم

الراغبون إلى الله تعالى فيما أعد لهم من ثوابه و الراهبون هم الذين بين الخوف و الرجاء فأما الأبرار فإنهم يؤتون بالنجائب كما في الحديث على ما يأتي في هذا الباب و أما المخلطون فهم الذين أرادوا في هذا الحديث و قيل : إنهم يحملون على الأبعرة و أما الفجار الذين تحشرهم النار فإن الله تعالى يبعث إليهم ملائكة فتيض لهم نارا تسوقهم و لم يرد في هذا الحديث إلا ذكر البعير فأما أن ذلك من إبل الجنة أو من الإبل التي تحيا و تحشر يوم القيامة فهذا لم يأت بيانه و الأشبه ألا يكون من نجائب الجنة لأن من خرج من جملة الأبرار فكان مع ذلك من جملة المؤمنين فإنهم بين الخوف و الرجاء أن من هؤلاء من يغفر الله تعالى ذنوبه فيدخل الجنة و منهم من يعاقبه بالنار ثم يخرج منه و يدخله الجنة و إذا كانوا كذلك لم يلق أن يردوا موقف الحساب على نجائب الجنة ثم ينزل الله بعضهم إلى النار لأن من أكرمه الله بالجنة لم يهنه بعد ذلك بالنار قال : و في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [يحشر الناس] الحديث و في آخره أما أنهم يتقون بوجوههم كل حذب و شوك فهذا إن ثبت مرفوعا فالركبان هم المتقون السابقون الذين يغفر الله ذنوبهم عند الحساب و لا يعذبهم إلا أن المتقين يكونون على نجائب الجنة و الآخرون على دواب سوى دواب الجنة و الصنف الثاني الذين يعذبهم الله بذنوبهم ثم يخرجهم من النار إلى الجنة و هؤلاء يكونون مشاة على أقدامهم و قد يحتمل على هذا أن يمشوا وقتا ثم يركبوا أو يكونوا ركباناً فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا ليتفق الحديتان و الصنف الثالث المشاة على وجوههم هم الكفار و قد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف : صنف مسلمون و هم ركبان و صنفان من الكفار أحدهما العتاة و أعلام الكفر فهؤلاء يحشرون على وجوههم و الآخرون الأتباع فهم يمشون على أقدامهم

قال المؤلف رحمه الله : و إلى هذا القول ذهب أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة في قوله عليه السلام كيف تحشر الناس يا رسول الله ؟ قال : [اثنان على بعير و خمسة على بعير و عشرة على بعير] و معنى هذا الحديث و الله أعلم أن قوما يأتلفون في الإسلام برحمة الله يخلق الله لهم من أعمالهم بعيرا يركبون عليه و هذا من ضعف العمل لكونهم يشتركون فيه كقوم خرجوا في سفر بعيد و ليس مع واحد منهم ما يشتري به مطية توصله فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة فابتاعوا مطية يتعقبون عليها في الطريق و يبلغ بعير مع عشرة فاعمل هداك الله عملا يكون لك به بعير خالص من الشركة و اعلم أن ذلك هو المتجر الربح فالمتقون و اfdون كما قال الجليل : { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا }

و في غريب الرواية أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يوما لأصحابه : [كان رجل من بني إسرائيل كثيرا ما يفعل الخير حتى إنه ليحشر فيكم قالوا له : و ما كان يصنع قال : ورث من أبيه مالا كثيرا فاشترى بستانا فحجسه للمساكين و قال هذا بستاني عند الله تعالى و فرق دانانير عديدة في الضعفاء و قال بهذا أشترى جارية من الله تعالى و عبدا و أعتق رقبا كثيرة و قال هؤلاء خلعتني عند الله تعالى و التفت ذات يوم لرجل ضير البصر فرآه تارة يمشي و تارة يركب فابتاع له مطية يسير عليها و قال هذه مطيتي عند الله تعالى أركبها و الذي نفس محمد بيده لكأني أنظر إليه و قد جيء بها إليه مسرجة ملجمة يركبها تسير به إلى الموقف]

قال المؤلف رحمه الله : ما ذكره القاضي عياض من أن ذلك في الدنيا أظهر و الله أعلم لما في الحديث نفسه من ذكر السماء و الميت و الصباح و القائلة و ذلك ليس في الآخرة و قد احتج الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة و صنفا ركباناً و صنفا على وجوههم قيل يا رسول الله : كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حذب و شوك قال : هذا حديث حسن فقوله يتقون بوجوههم

كل حذب و شوك يدل على أنه في الدنيا إذ ليس في الآخرة ذلك على ما يأتي من صفة أرض المحشر و الله أعلم و خرج النسائي عن أبي ذر قال : إن الصادق المصلوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج فوجا راكبين طاعمين كاسين و فوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم و يحشر الناس فوجا يمشون و يسعون يلقي الله ألافه على الظهر فلا تبقى حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها

و ذكر عمر بن شيبه في كتاب المدينة على ساكنها السلام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : آخر من يحشر رجلان رجل من جهينة و آخر من مزينة فيقولان أين الناس فيأتیان المدينة فلا يريان إلا الثعلب فينزل إليهما ملكان فيسجانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس و هذا كله مما يدل على أن ذلك في الدنيا كما قال القاضي عياض و أما الآخرة فالناس أيضا مختلفو الحال على ما ذكره و سنذكر من ذلك ما فيه كفاية في الباب بعد هذا و الحشر الثالث : حشرهم إلى الموقف على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى { و حشرناهم فلم نغادر منهم أحدا }

و الرابع : حشرهم إلى الجنة و النار قال الله تعالى : { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا } أي ركبانا على النجب و قيل : على الأعمال كما تقدم و قد وردت أخبار منها ما رواه النعمان سعد [عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا } قال : أما إنهم ما يحشرون على أقدامهم و لا يساقون سوقا و لكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحاها الذهب و أزمتهما الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة و سمي المتقون وفدا لأنهم يسبقون الناس إلى حيث يدعون إليه فهم لا يتباطئون لكنهم يجدون و يسرعون و الملائكة تتلقاهم بالبيارات قال الله تعالى { و تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون } فيزيدهم ذلك إسراعا و حق للمتقين أن يسبقوا لسبقهم في الدنيا بالطاعات { و نسوق الجرمين إلى جهنم وردا } أي عطاشا و قال { و نحشر الجرمين يومئذ زرقا } و قال : { و نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما و صما } و قال : { الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا و أضل سبيلا }

مسلم [عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله : الذين يحشرون على وجوههم أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أليس الذي أمشاه على الرجلين قادرا أن يمشيه على وجهه يوم القيامة] قال قتادة حين بلغه : بلى و عزة ربنا أخرجه البخاري أيضا :

فصل : قال أبو حامد : و ذكر هذا الفصل و في طبع الآدمي إنكار ما لم يأنس و به و لم يشاهده و لو لم يشاهد الإنسان الحية و هي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل و المشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة كنت أشد إنكارا لها فاحضر رحمك الله في قلبك صورتك و أنت قد وقفت عاريا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء

باب بيان الحشر إلى الموقف كيف هو و في أرض المحشر

و ذكر الصخرة و قوله تعالى { و استمع يوم يناد المناد من مكان قريب } الآية أبو نعيم قال حدثنا أبي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا محمد قال قال حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا المنذر النعمان أنه سمع وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس : لأضعن عليك عرشي و لأحشرن عليك خلقي و

ليأتينك يومئذ داود راكبا و قال بعض العلماء في قوله تعالى : { و استمع يوم يناد المناد من مكان قريب } قال : إنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس فينادي : أيتها العظام البالية و الأوصال المتقطعة و يا عظاما نخرة و يا أكفانا فانية و يا قلوبا خلوية و يا أبدانا فاسدة و يا عيوننا سائلة قوموا لعرض رب العالمين قال قتادة : المنادي هو صاحب الصور ينادي من الصخرة من بيت المقدس قال كعب : و هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانمائة عشر ميلا و قيل : باثني عشر ميلا ذكره القشيري و الأول ذكره المارودي و قيل : إن المنادي جبريل و الله أعلم قال عكرمة : ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد النفخ في الصور { ذلك يوم الخروج } * إنا نحن نحبي و نميت و إلبنا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعا { إلى المنادي صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض الخشر { ذلك حشر علينا يسير { أي هين سهل

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها و هم أموات ؟

قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد و تطول فتكون أوائلها للإحياء و ما بعدها للإزعاج من القبور فلا يسمعون ما يكون للإحياء و يسمعون ما يكون للإزعاج و يحتمل أن تتناول تلك النفخة و الناس يحيون منها أولا فأولا و كلما حي و احد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج و قد تقدم أن الأرواح في الصور فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده { فإذا هم من الأجداث { أي القبور { إلى ربهم ينسلون { و هذا يبين لك ما ذكرنا و بالله توفيقنا

و قال محمد بن كعب القرظي : يحشر الناس يوم القيامة في ظلمة و تطوي السماء و تتأثر النجوم و تذهب الشمس و القمر و ينادي مناد فيتبع الناس الصوت يومئذ فذلك قول الله عز و جل { يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له { الآية و قال الله عز و جل { إذا السماء انفطرت * و إذا الكواكب انشثرت * و إذا البحار فجرت { فجر عذبا في ملحها و ملحها في عذبا في تفسير قتادة { و إذا القبور بعثرت { أي أخرج ما فيها من الأموات و قال تعالى { إذا السماء انشقت * و أذنت لربها { أي سمعت و أطاعت { و حققت { أي و حق لها أن تفعل { و إذا الأرض مدت { تمتد مد الأديم و هذا إذا بدلت بأرض بيضاء كأنها فضة لم تعمل عليها خطيئة قط و ألفت ما فيها من الأموات فصاروا على ظهرها

مسلم [عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقي ليس فيه علم لأحد]

و خرج أبو بكر أحمد بن علي الخطيب عن عبد الله بن مسعود : [يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط و أظما ما كانوا قط و أعرى ما كانوا قط و أنصب ما كانوا فمن أطعم الله أطعمه و من سقا الله سقاه و من كسا الله كساه و من عمل لله كفاه و من نصر الله أراحه الله في ذلك اليوم

[و روي من حديث معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله أرأيت قول الله { يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا { فقال النبي صلى الله عليه و سلم يا معاذ بن جبل لقد سألت عن أمر عظيم ثم أرسل عينيه بالبكاء الدموع ثم قال : تحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين و بدل صورهم فمنهم على صورة القردة و بعضهم على صورة الخنازير و بعضهم منسكين أرجلهم أعلاهم و وجوههم يسحبون عليها و بعضهم عمي يترددون و بعضهم صم بكم لا يعلقون و بعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا تقدرهم أهل الجمع و بعضهم مقطعة أيديهم و أرجلهم و بعضهم مصلبون على جنوع النار و بعضهم أشد نتنا من الجيف و بعضهم يلبسون جلابيب سابعة من القطران فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس

يعني المنام و أما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت و الحرام و المكس و أما المنكسون رؤوسهم و وجوههم فأكلة الربا و العمي من يجوز في الحكم و الصم البكم الذي يعجبون بأعمالهم و الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء و القصاص الذين يخالف قولهم فعلهم و المقطعة أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران و المصلبون على جنوع النار السعاة بالناس إلى السلطان و الذين هم أشد تننا من الجيف الذي يتمتعون بالشهوات و اللذات و يمنعون حق الله تعالى من أموالهم و الذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر و الفخر و الخيلاء]

و قال أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : و من الناس من يحشر بفتنته الدنيوية فقوم مفتونون بالعود معتكفون عليه دهرهم فعند قيام أحدهم من قبره يأخذ بيمينه فيطرحه من يده و يقول سحقا لك شغلتي عن ذكر الله فيعود إليه يقول : أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين و كذلك يبعث السكران سكران و الزامر زامرا و كل واحد على الحال الذي صده عن سبيل الله قال : و مثل الحديث الذي روي في الصحيح أن شارب الخمر يحشر و الكوز معلق في عنقه و القدح بيده و هو أنتن من كل جيفة على الأرض يلعنه كل من يمر به من الخلق و قال أيضا في الكتاب : فإذا استوى كل أحد قاعدا على قبره فمنهم العربيان و منهم المكسو و الأسود و الأبيض و منهم من يكون له نور كالمصباح الضعيف و منهم من يكون كالشمس لا يزال كل واحد منهم مطرقا برأسه ألف عام حتى تقوم من الغرب نار لها دوي تساق فيدهش لها رؤوس الخليقة إنسا و جنا و طيرا و وحشا فيأتي كل واحد من المخاطبين عمله و يقول له : قم فانهض إلى الخشر فمن كان له حيثن عمل جيد شخص له عمله بغلا و منهم من يشخص عمله حمارا و منهم من يشخص له كبشا تارة يحمله و تارة يلقيه و يجعل لكل واحد منهم نور شعاعي بين يديه و عن يمينه و مثله يسرس بين يديه في الظلمات و هو قوله تعالى { يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم } و ليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع البصر نفاذها يحار فيها الكفار و يتردد المرتابون و المؤمن ينظر إلى قوة حلكتها و شدة حنوسها و يحمد الله تعالى على ما أعطاه من النور المهتدي به في تلك الشدة يسعى بين أيديهم و بأيمانهم لأن الله تعالى يكشف للعبد المؤمن المنعم عن أحوال المعذب الشقي ليستين له سبيل الفائدة كما فعل بأهل الجنة و أهل النار حيث يقول فاطل فرآه في سواء الجحيم و كما قال سبحانه { و إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين } لأن أربعا لا يعرف قدرها إلا أربع : لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى و لا يعرف قدر الأغنياء إلا الفقراء و لا يعرف قدر الصحة إلا أهل البلاء و السقم و لا يعرف قدر الشباب إلا الشيوخ و في نسخة : و لا يعرف قدر النعيم إلا أهل الجحيم و من الناس من يبقى على قدميه و على طرف بنانه و نوره يطقأ تارة و يشعل أخرى و إنما هم عند البعث على قدر إيمانهم و أعمالهم و قد مضى في باب يبعث كل عبد على ما مات عليه ما فيه كفاية و الحمد لله

باب الجمع بين آيات وردت في الكتاب في الحشر ظاهرها التعارض

منها قوله تعالى { و يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم } و قال تعالى { و نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما و صما } و في آية ثالثة إنهم يقولون { يا ويلنا من بعثنا من مردقنا } و هذا كلام و هو مضاد للبكم و المعارف تخاطب و هو مضاد للصم و البكم معا و قال الله تعالى { فلنساءن الذين أرسل إليهم و لنساءن المرسلين } و السؤال لا يكون إلا بالاسماع و إلا لناطق يتسع للجواب و قال { نحشر الجرمين يومئذ زرقا } و قال { فإذا هم من الأجدات إلى ربهم ينسلون } و قال { يوم يخرجون من الأجدات سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون } و النسلان و الاسراع مخالفان للحشر على الوجوه

و الجواب : لمن سأل عن هذا الباب أن يقال له إن الناس إذا أحيوا و بعثوا من قبورهم فليست حالهم حالة واحدة و لا موقفهم و لا مقامهم واحدا و لكن لهم مواقف و أحوال و اختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم و أحوالهم و جملة ذلك أنها خمسة أحوال : حال البعث من القبور و الثانية حال السوق إلى مواضع الحساب و الثالثة حال المحاسبة و الرابعة حال السوق إذا دار الجزاء و الخامسة حال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها فأما حال البعث من القبور : فإن الكفار يكونون كاملي الحواس و الجوارح لقول الله تعالى { يتعارفون بينهم } و قوله { يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا } و قوله { فإذا هم قيام ينظرون } و قوله : { قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين } إلى قوله { ترجعون }

و الحالة الثانية : حال السوق إلى مواضع الحساب و هم أيضا في هذه الحال بحواس تامة لقوله عز و جل { احشروا الذين ظلموا و أزواجهم و ما كانوا يعبدون } { من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم } { وقفوهم إنهم مسؤولون } و معنى فاهدوهم أي دلوهم و لا دلالة لأعمى أصم و لا سؤال لأبكم فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار و أسماع و ألسنة ناطقة

و الحالة الثالثة : و هي حالة المحاسبة و هم يكونون فيها أيضا كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم و يقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم و تشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم فيسمعونها و قد أخبر الله تعالى أنهم يقولون { مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها } و أنهم يقولون لجلودهم { لم شهدتم علينا } و ليشاهدوا أحوال القيامة و ما كانوا مكذبين في الدنيا به من شلتها و تصرف الأحوال بالناس فيها

و أما الحالة الرابعة : و هي السوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم و أبصارهم و ألسنتهم لقوله تعالى { و نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما و صما مأواهم جهنم } و يحتمل أن يكون قوله تعالى { يعرف الجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام } إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار و الأسماع و المنطق و الحالة الخامسة حال الإقامة في النار و هذه الحالة تنقسم إلى بدو و مآل فبدوها أنهم إذا قطعوا المسافة التي بين موقف الحساب و شفيع جهنم عميا و بكما و صما إذ لا لهم تمييزا عن غيرهم ثم ردت الحواس إليهم ليشاهدوا النار و ما أعد الله لهم فيها من العذاب و يعاينوا ملائكة العذاب و كل ما كانوا به مكذبين فيستقرون في النار ناطقين سامعين مبصرين و لهذا قال الله تعالى { و تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي } و قال { لو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد و لا نكذب بآيات ربنا و نكون من المؤمنين } و قال { كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أحرهم لأولاهم } إلى قوله { و قالت أولاهم لأحرهم } و قال { كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا و قلنا ما نزل الله من شيء } و أخبر تعالى أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون { أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله } و أن أهل الجنة ينادونهم { أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم } و أنهم يقولون { يا مالك ليقض علينا ربك } فيقول لهم { إنكم ما كنتم } و أنهم يقولون خزنة جهنم { ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب } فيقولون لهم { أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا و ما دعاء الكافرين إلا في ضلال } و أما العقبي و المال فإنهم إذا قالوا : { أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون } فقال الله تعالى { اخسؤوا فيها و لا تكلمون } و كتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم و هو أن يؤتى بكبش أملح و يسمى المكوت ثم يذبح على الصراط بين الجنة و النار و ينادوا يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت سلوا في ذلك الوقت أسماعهم و قد يجوز أن يسلبوا الأبصار و الكلام لكن سلب السمع يقين لأن الله تعالى يقول : { لهم فيها زفير و هم

فيها لا يسمعون { فإذا سلوا الأسماع صاروا إلى الزفير و الشهيق و يحتمل أن تكون الحكمة في سلب الأسماع من قبل أنهم سمعوا نداء الرب سبحانه على السنة فلم يجيبوه بل جحدوه و كذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته فلما كانت حجة الله عليهم في الدنيا الاستماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى بسلب الأسماع يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه و سلم : و في آذاننا وقر و من بيننا و بنيك حجاب و قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه و إن قوم نوح عليه السلام كانوا يستغشون ثيابهم تسترا منه لنلا يروه و لا يسمعوا كلامه و قد أخبر الله تعالى عن الكفار في وقت نبينا محمد صلى الله عليه و سلم مثله فقال : ألا أنهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم و إن سلبت أبصارهم فالأهم أبصروا الغير فلم يعتبروا و النطق فالأهم أوتوه فكفروا فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا و الله أعلم

باب ما جاء في حشر الناس إلى الله عز و جل حفاة عراة غرلا و في أول من

يكسى منهم و في أول ما يتكلم من الإنسان

مسلم [عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده و عدا علينا إنا كنا فاعلين ألا و إن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا و إنه يؤتى برجال من أمي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح { و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم } إلى قوله { العزيز الحكيم } قال فيقال لهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم [أخرجه البخاري و الترمذي] عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث ذكره قال : و أشار بيده إلى الشام فقال : ههنا إلى ههنا تحشرون ركباننا و مشاة و تجرون على و جوهكم يوم القيامة أفواهمكم القدماء توفون سبعين أمة أنتم خيرها على الله و أكرمهم على الله و إن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه [و في رواية أخرى ذكرها ابن أبي شيبه] و إن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه و كفه [فصل : قوله [غرلا] أي غير مخنوتين النقي الحواري و هو الدرملك من الدقيق و الغر بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلا و القدماء مصفاة الكوز و الابريق قاله الليث قال أبو عبيدة : يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالقدم الذي يجعل على الإبريق و قوله [أول من يكسى إبراهيم] فضيلة عظيمة لإبراهيم و خصوص له كما خص موسى عليه السلام بأن النبي صلى الله عليه و سلم يجده معلقا بساق العرش مع أن النبي صلى الله عليه و سلم أول من تشق عنه الأرض و لا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقا بل هو أفضل من وافي القيامة على ما يأتي بيانه في أحاديث الشفاعة و المقام المحمود إن شاء الله تعالى قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر في كتاب المفهم له : و يجوز أن يراد بالناس من عداه من الناس فلم يدخل تحت خطاب نفسه و الله أعلم

قلت : هذا حسن لو لا ما جاء منصوفا خلافه فقد روى ابن المبارك في رقايقه : أخبرنا سفيان عن عمر بن قيس عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن علي رضي الله عنه قال : أول من يكسى خليل الله إبراهيم قبطيتين ثم يكسى محمد صلى الله عليه و سلم حلة حبرة عن يمين العرش ذكره البيهقي أيضا و روى عباد بن كثير عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : إن المؤذنين و الملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم يؤذن المؤذن و يلي الملبى و أول من يكسى من حلال الجنة إبراهيم خليل الله ثم محمد صلى الله عليه و سلم

ثم النبيون و الرسل عليهم السلام ثم يكسى المؤذنون و تتلاقهم الملائكة على نجائب من نور أحر أزمتهما من زمرد
أحضر رحالها من الذهب و يشيعهم من قبورهم سبعون ألف ملك إلى الحشر ذكره الحليمي في كتاب منهاج الدين
له

و ذكر أبو نعيم الحافظ من [حديث الأسود و علقمة و أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء
ابنا مليكة إلى النبي صلى الله عليه و سلم الحديث و فيه : فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام يقول اكسوا
خليلي فيؤتى برطتين يضاوين فيلبسهما ثم يقعد مستقبل العرش ثم أوتي بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمينه قياما لا
يقومه أحد غيري يغبطني فيه الأولون و الآخرون] و ذكر الحديث

و خرج البيهقي بإسناده في كتاب الأسماء و الصفات [عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه و سلم : إنكم تحشرون حفاة عراة و أول من يكسى من الجنة إبراهيم عليه السلام يكسى حلة من الجنة و
يؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش و يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر ثم أوتي بكرسي فيطرح لي
على ساق العرش] و هذا نص بأن إبراهيم أول من يكسى ثم نبينا ياخباره صلى الله عليه و سلم فطوبى ثم طوبى لمن
كسى في ذلك الوقت من ثياب الجنة فإنه من لبسه فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر و عرقه و حر الشمس و غير
ذلك من أهواله

فصل : و تكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة فروي أنه لم يكن في الأولين و الآخرين لله عز
و جل عبد أخوف من إبراهيم عليه السلام فتعجل له كسوته أمانا له ليطمئن قلبه و يحتمل أن يكون ذلك لما جاء به
الحديث من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر و حفظا لقرجه من أن يماس مصلاه ففعل ما
أمر به فيجزي بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة و يحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه و نزعوا عنه
ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يراد قتله و كان ما أصابه من ذلك في ذات الله عز و جل فلما صبر و احتسب
و توكل على الله تعال دفع الله عنه شر النار في الدنيا و الآخرة و جزاه بذلك العرى أن جعله أول من يدفع عنه
العرى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد و هذا أحسنها و الله أعلم

و إذا بدئ في الكسوة بإبراهيم و ثنى بمحمد صلى الله عليه و سلم أوتي محمد بحلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير
بنفاسة الكسوة فيكون كأنه كسى مع إبراهيم عليهما السلام

قاله الحليمي و قوله [تجدون على أفواهكم الفدام] الفدام : مصفاة الكوز و الإبريق قاله الليث قال أبو عبيد يعني
أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق قال سفيان : و فدامهم أن يؤخذ
على ألسنتهم و هذا مثل

باب منه و بيان قوله تعالى : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه

مسلم عن [عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يحشر الناس يوم القيامة
حفاة عراة غرلا قلت يا رسول الله : الرجال و النساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من
أن ينظر بعضهم إلى بعض]

الترمذي [عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تحشرون حفاة عراة غرلا فقالت امرأة
: أيبصر بعضنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه] قال حديث حسن

صحيح

فصل : قلت : هذا الباب و الذي قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا أي غير مخنوتين كما بدأنا أول

خلق نعيده قال العلماء : يحشر العبد غدا و له من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه عشو يرد في القيامة عليه حتى الختان

و قد عارض هذا الباب ما روى أبو داود في سننه [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لما حضرته الوفاة دعا بتياب جدد فلبسها و قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الميت يبعث في ثيابه التي دفن فيها] قال ابو عمر بن عبد البر : و قد احتج بهذا الحديث من قال : إن الموتى يبعثون جملة على هياتهم و حملة الأكثر من العلماء على الشهيد الذي أمر أن يزمل في ثيابه و يدفن فيها و لا يغسل عنه دمه و لا يغير عليه شيء من حاله بدليل حديث ابن عباس و عائشة رضي الله عنهما قالوا : و يحتمل أن يكون أبو سعيد سمع الحديث في الشهيد فتأوله على العموم و الله أعلم

قلت : و مما يدل على قول الجماعة مما يوافق حديث عائشة و ابن عباس قوله الحق : { و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة } و قوله : { كما بدأكم تعودون } و لأن الملابس في الدنيا أموال و لا مال في الآخرة زالت الأملاك بالموت و بقيت الأموال في الدنيا و كل نفس يومئذ فإنما يقيها المكاره ما وجب لها بحسن عملها أو رحمة ميتة من الله عليها فأما الملابس فلا غنى فيها يومئذ إلا ما كان من لباس الجنة على ما تقدم في الباب قبل و ذهب أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة إلى [حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : بالغوا في أكفان موتاكم فإن أمتي تحشر بأكفانها و سائر الأمم عراة] و رواه أبو سفيان مسندا

قال المؤلف رحمه الله : و هذا الحديث لم أقف عليه و الله أعلم بصحته و إن صح فيكون معناه فإن أمتي الشهداء تحشر بأكفانها حتى لا تتناقض الأخبار و الله أعلم و لا يعارض هذا الباب ما تقدم أول الكتاب من أن الموتى يتزاورون في قبورهم بأكفانهم فإن ذلك يكون في البرزخ فإذا قاموا من قبورهم خرجوا عراة ما عدا الشهداء و الله أعلم
باب

ذكر أبو بكر أحمد بن علي حديث ثابت [عن عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أحشر يوم القيامة بين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما حتى أقف بين الحرمين فيأتي أهل المدينة و مكة] غريب من حديث مالك تفرد به عبد الله بن إبراهيم عنه و يقال لم يروه غير عبد العزيز بن عبد الله الهاشمي البغدادي عن الغفاري

الجزء الأول من باب قول النبي صلى الله عليه و سلم من سره أن ينظر إلى

يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت و إذا السماء انفطرت و إذا السماء انشقت و في أسماء يوم القيامة الترمذي [عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من سره أن ينظر غلى يوم القيامة فليقرأ { إذا الشمس كورت } و { إذا السماء انفطرت } و { إذا السماء انشقت }] قال : هذا حديث حسن

فصل : قلت : و إنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء و انفطارها و تكور شمسها و انكدار نجومها و تناثر كواكبها إلى غير ذلك من أفعالها و أهوالها و خروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم و قراء كتبهم و أخذها بأيامهم و شمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما

يأتي بيانه قال الله تعالى { إذا السماء انشقت } و قال { إذا السماء انفطرت } و قال : { و يوم تشقق السماء بالغمام } فتراها واهية منقطرة متشققة كقوله تعالى : { و فتحت السماء فكانت أبوابا } و يكون الغمام ستره بين السماء و الأرض و قيل : إن [الباء] بمعنى [عن] أي تشقق عن سحاب أبيض و يقال : انشققها لما يخلص عليه من حر جهنم و ذلك إذا بطلت المياه و برزت النيران فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن و تشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم و رفعه و قد قيل : إن السماء تتلون فتصفر ثم تحمر أو تحمر ثم تصفر كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ثم إلى الغبرة قاله الحلبي

و قوله تعالى : { إذا الشمس كورت } قال ابن عباس رضي الله عنه تكويرها إدخالها في العرش و قال : ذهاب ضوئها قاله الحسن و قتادة و روي ذلك عن ابن عباس و مجاهد و قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتمحى و قال الربيع بن خيثم كورت رمى بها و منه كورته فتكور أي سقطت قلت : و أوصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لا تما و جمعها فهي تكور ثم يحى ضوءها ثم يرمى بها و الله أعلم

و قوله تعالى : { و إذا النجوم انكدرت } أي انتشرت قيل تتأثر من أيدي الملائكة لأنهم يموتون و في الخبر أنها معلقة بين السماء و الأرض بسلاسل بأيدي الملائكة و قال ابن عباس رضي الله عنه : انكدرت تغيرت و أصل الانكدار الانصباب فتسقط في البحار فتصير معها نيرانا إذا ذهبت المياه

و قوله { و إذا الجبال سيرت } هو مثل قوله { و تسير الجبال } أي تحول عن منزلة الحجارة فتكون كشيء مهيبلا أي رملا سائلا و تكون كالعهن و تكون هباء منبثا و تكون سرايا مثل السراب الذي ليس بشيء و قيل : إن الجبال بعد اندكائها أنها تصير كالعهن من حر جهنم كما تصير السماء من حرها كالمهل قال الحلبي : و هذا و الله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء و الأرض فإذا ارتفعت و زيد مع ذلك في إجماع جهنم أثر في كل واحد من السماء و الأرض ما ذكر

قوله { و إذا العشار عطلت } أي عطلها أهلها فلم تحلب من الشغل بأنفسهم و العشار : الإبل الحوامل واحدها عشراء و هي التي أقي عليها في الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع و بعد ما تضع و إنما خص العشار بالذكر لأنها أعز ما يكون على العرب فأخبر أنه تعطل يوم القيامة و معناه : أنهم إذا قاموا من قبورهم و شاهد بعضهم بعضا و رأوا الوحوش و الدواب محشورة و فيها عشراهم التي كانت أفسس أموالهم لم يعينوا بها و لم يهتمهم أمرها و يحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا و أهل العشار يرونها فلا يجدون إليها سبيلا و قيل : العشار السحار يعطل مما يكون فيه و هو الماء فلا يمطر و قيل : العشار الديار تعطل فلا تسكن و قيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع و القول الأول أشهر و عليه من الناس الأكثر و قوله : { و إذا الوحوش حشرت } أي جمعت و الحشر الجمع و قد تقدم

و قوله : { و إذا البحار سجرت } أي أوقدت و صارت نارا رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه و قال قتادة : غار ماؤها فذهب و قال الحسن و الضحاك : فاضت قال ابن أبي زمنين { سجرت } حقيقته ملئت فيقضي بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا و هو معنى قول الحسن و يقال : إن الشمس تلف ثم تلقى في البحار فتمتها تحمي و تنقلب نارا قال الحلبي : و يحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حيثئذ تكون أكثرها لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة فإذا كورت و ألقيت في البحر فصارت نارا

ازدادت امتلاء

وقوله : { و إذا النفوس زوجت } تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها اليهود باليهود و النصرى بالنصارى و الجوس بالجوس و كل من كان يعبد من دون الله شيئاً يلحق بعضهم ببعض و المنافقون بالمناققين و المؤمنون بالمؤمنين و قال عكرمة : المعنى تقرن بأجسادها أي ترد إليها و قيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان و قيل : يقرن المؤمنون بالخور العين و الكافرون بالشياطين

وقوله : { و إذا المؤودة سئلت } يعني بنات الجاهلية كانوا يدفنونهن أحياء لخصلتين إحداهما : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به

الثانية : مخافة الحاجة و الإملاق و سؤال المؤودة على وجه التوبيخ لقاتلها كما يقال للطفل إذا ضرب لم ضربت و ما ذنبك ؟ و قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب و بعضهم يقرأ { و إذا المؤودة سئلت } تعلق الجارية بأبيها فتقول بأي ذنب قتلتني ؟ و قيل : معنى سئلت يسأل عنها كما قال { إن العهد كان مسؤولاً } و قوله : { و إذا الصحف نشرت } أي للحساب و سيأتي

وقوله : { و إذا السماء كَشِطت } قيل معناه طويت كما قال الله تعالى : { يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب } أي كطي الصحيفة على ما فيها فاللام بمعنى [على] يقال : كَشِطت السقف أي قلعته فكان المعنى قلعت فطويت و الله أعلم و الكشط و القشط سواء و هو القلع و قيل : السجل كاتب للنبي صلى الله عليه و سلم و لا يعرف في الصحابة من اسمه سجل

وقوله : { و إذا الجحيم سعرت } أي أوقدت

وقوله : { و إذا الجنة أزلقت } أي قربت لأهلها و أدنيت { علمت نفس ما أحضرت } أي من عملها و هو مثل قوله : { علمت نفس ما قدمت و أخرت } و مثل قوله : { نبأ الإنسان يومئذ بما قدم و أخر } فهو يوم الانشقاق و يوم الانفطار و يوم التكوير و يوم الانكدار و يوم الانتثار و يوم التسيير قال الله تعالى : { و تسير الجبال سيرا } { و إذا الجبال سيرت } و يوم التعطيل و يوم التسجير و يوم الفجير و يوم الكشط و الطي و يوم المد لقوله تعالى : { و إذا الأرض مدت } إلى غير ذلك من أسماء القيامة و هي الساعة الموعود أمرها و لعظمها أكثر الناس السؤال عنها لرسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أنزل الله عز و جل على رسوله { يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات و الأرض لا تأتيكم إلا بغتة } و كل ما عظم شأنه تعددت صفاته و كثرت أسماؤه و هذا جميع كلام العرب ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه و تأكد نفعه لديهم و موقعه جهوا له خمسمائة اسم و له نظائر فالقيامة لما عظم أمرها و كثرت أهوالها سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة و وصفها بأوصاف كثيرة منها ما ذكرناه مما وقع في هذه السور الثلاث

و قيل : إن الله تعالى يعث الأيام يوم القيامة على هيئتها فتوقف بين يدي الله تعالى و يوم الجمعة فيها زهراء مضيئة يعرفها الخلائق فيوم القيامة يوم يتضمن الأيام كلها فسمى بكل حال يوماً فقيل : { يوم ينفخ في الصور } ثم قيل : { يوم يكون الناس كالفرش المبثوث } ثم قيل : { يوم ينظر المرء ما قدمت يداه } فهذه حالة أخرى ثم قيل : يوم تعرضون ثم قيل : { يومئذ يصدر الناس أشتاتا } فهذه أحوال فقد يجري يوم القيامة بطوله على هذه الأحوال كل حال منها كالיום المتجدد و لذلك كررت في قوله تعالى : { و ما أدراك ما يوم الدين } * ثم ما أدراك ما يوم الدين { لأن ذلك اليوم و مابعده يوم و اليوم العظيم متضمن لهذه الأيام فهو لله يوم و للخلائق أيام فقد عرفت أيامهم في يومه و قد بطل الليل و النهار قاله الترمذي الحكيم و مما قيل في معنى ما ذكرنا من النظم قول بعضهم :

(مثل لنفسك أيها المغرور ... يوم القامة و السماء تور)

(إذ كورت شمس النهار و أدنيت ... حتى على رأس العباد تسير)
(و إذا النجوم تساقطت و تآثرت ... و تبدلت بعد الضياء كلور)
(و إذا البحار تفجرت من خوفها ... و رأيتها مثل الجحيم تفور)
(و إذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير)
(و إذا العشار تعطلت و تخربت ... خلت الديار فما بها معمور)
(و إذا الوحوش لدى القيامة أحشرت ... و تقول للأملك أين نسير)
(و إذا تقاة المسلمين تزوجت ... من حور عين زاهن شعور)
(و إذا المؤودة سئلت عن شأنها ... و بأي ذنب قتلها ميسور)
(و إذا الجليل طوى السما بيمينه ... طي السجل كتابه المنشور)
(و إذا الصحائف عند ذاك تساقطت ... تبدى لنا يوم القصاص أمور)
(و إذا الصحائف نشرت فتطيرت ... و همتكت للمؤمنين ستور)
(و إذا السماء تكشطت عن أهلها ... و رأيت أفلاك السماء تلور)
(و إذا الجحيم تسعرت نيرانها ... فلها على أهل الذنوب زفير) (و إذا لجنان ترخرفت و تطيبت ... لفنى على طول البلاء صبور) (و إذا الجنين بأمه متعلق ... يخشى القصاص و قلبه مذعور)
(هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المصر على الذنوب دهور)
و منها الساعة قال الله تعالى { و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة } و قال { و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون } { و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون } و قال { و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب } و هو في القرآن كثير و الساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء الزمان غير محدود و في العرف على جزء من أربعة و عشرين جزءاً من يوم و ليلة و الذين هما أصل الأزمنة و تقول العرب أفعل كذا الساعة و أنا الساعة في أمر كذا تريد الوقت الذي أنت فيه و الذي يليه تقريبا له و حقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف و اللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه و هو المسمى بالآن و سميت به القيامة إما لقرابها فإن كل آت قريب و إما أن تكون سميت بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود و تكسر العظام و قيل : إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة و قيل : إنما سميت بالساعة لأن الله تعالى يأمر السماء أن تمطر بماء الحيوان حتى تنبت الأجساد في مدافنها و مواضعها حيث كانت من بحر أو بر و تستقل و تتحرك بحياتها بماء الحيوان و ليست فيها أرواح ثم تدعى الأرواح فأرواح المؤمنين تتوقد نورا و أرواح الكافرين تتوهج ظلما فإذا دعا الأرواح ألقاها في الصور ثم يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور فإذا نفخ فيه خرجت من الصور ثم أمرت أن تلحق الأجساد فتبعث إلى الأجساد في أسرع من اللمحة و إنما سميت الساعة لسعي الأرواح إلى الأجساد في تلك السرعة فهي سائغ و جمعها ساعة كقولك بائع و باعة و ضائع و ضاعة و كائل و كالة فوصف أن سائر أموره في السرعة كلمح البصر و أمر السائق أقرب من لمح البصر قاله الترمذي الحكيم
و ذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن و هب بن منبه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء و قطرت العظاة دما و منها القيامة قال الله تعالى { لا أقسم بيوم القيامة } و هي في العربية مصدر قام يقوم و دخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب و اختلف في تسميتها بذلك على أربعة أقوال
الأول : لوجود هذه الأمور فيها

الثاني : لقيام الخلق من قبورهم إليها قال الله تعالى { يوم يخرجون من الأجداث سراعا }
الثالث : قيام الناس لرب العالمين كما روى مسلم [عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم
يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يوم يقوم أحدكم في رشحه إلى نصف أذنيه] قال ابن عمر رضي الله عنهما []
يقومون مائة سنة] و يروى عن كعب [يقومون ثلاثمائة سنة]

الرابع : لقيام الروح و الملائكة صفا قال الله تعالى { يوم يقوم الروح و الملائكة صفا }
قال علماؤنا : و اعلم أن كل ميت مات فقد قيامته و لكنها قيامة صغرى و كبرى فالصغرى هي ما يقوم على كل
إنسان في خاصته من خروج روحه و فراق أهله و انقطاع سعيه و حصوله على عمله إن كان خيرا فخير و إن كان
شرا فشر و القيامة الكبرى هي التي تعم الناس و تأخذهم أخذة واحدة و الدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت
قيامته قول النبي صلى الله عليه و سلم لقوم من الأعراب و قد سألوه متى القيامة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم
فقال : [إن يعيش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم] أخرجه مسلم و غيره و قال الشاعر :

(خرجت من الدنيا و قامت قيامتي ... غداة أقبيل الحاملون جنازتي)

(و عجل أهلي حفر قبري و صبروا ... خروجي و تعجيلي إليه كرامتي)

(كأنهم لم يعرفوا قط سيرتي ... غداة أتى يومي علي و ساعتني)

و منها : يوم الفخخة قال الله تعالى { يوم ينفخ في الصور } و قد مضى القول فيه

و منها : يوم الزلزلة و يوم الرجفة قال الله تعالى { يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة } و قد تقدم

و منها : يوم الناقر كقوله تعالى { فإذا نقر في الناقر } و قد تقدم القول فيه و الحمد لله

و منها : القارعة سميت بذلك لأنها تفرع القلوب بأهوالها يقال : قد أصابتهم قوارع الدهر أي أهواله و شدائده
قالت الخنساء :

(تعرفني الدهر تمشا و حزا ... و أوجعني الدهر قرعا و غمزا)

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه و صغرياتها

و منها : يوم البعث و حقيقته إثارة الشيء عن خفاء و تحريكة عن سكون قال عنترة :

(و عصابة شم الأنوف بعنهم ... ليلا و قد مال الكرا بطلاها)

و قال امرؤ القيس :

(و فتیان صدق قد بعنت بسحرة ... فقاموا جميعا بين غات و نسوان)

و قد تقدم القول فيه و في صفته و الحمد لله و منها : يوم النشور و هو عبارة عن الإحياء يقال : قد أنشأ الله الموتى

فنشروا أي أحياهم الله فحيوا و منه قوله تعالى { و انظر إلى العظام كيف ننشزها } أي نحياها و قد يكون معناه

التفريق من ذلك قولك أمرهم نشر

و منها : يوم الخروج قال الله تعالى { يوم يخرجون من الأجداث سراعا } فأوله الخروج من القبور و آخره خروج

المؤمنين من النار ثم لا خروج و لا دخول على ما يأتي

و منها : يوم الحشر و هو عبارة عن الجمع و قد يكون مع الفعل إكراه قال الله تعالى : { و أرسل في المدائن

حاشرين } أي من يسوق السحرة كرها و قد مضى القول في الحشر مستوفي و الحمد لله

و منها : يوم العرض قال الله تعالى : { يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية } و قال : { و عرضوا على ربك صفا

{ و حقيقته إدراك الشيء بإحدى الحواس ليعلم حاله و غايته السمع و البصر فلا يزال الخلق قياما في يوم كان

مقداره خمسين ألف سنة ما شاء الله أن يقوموا حتى يلهموا أو يهتموا فيقولون : قد كنا نستشفع في الدنيا فهلهم
فلنسال الشفاعة إلى ربنا فيقولون : أتتوا آدم الحديث و سيأتي
قال ابن العربي : و في كيفية العرض أحاديث كثيرة المعول منها على تسعة أحاديث في تسعة أوقات :

الأول : الحديث المشهور الصحيح رواه [أبي هريرة و أبو سعيد الخدري رضي الله عنهما و اللفظ له قال : إن ناسا
في زمن النبي صلى الله عليه و سلم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه و
سلم : هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب و هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر
صحوا ليس فيها سحاب قالوا : لا يا رسول الله قال : ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية
أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام و
النصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر و غير أهل الكتاب فيدعى اليهود
فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيز بن الله فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة و لا ولد
فماذا تبغون ؟ قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا
قيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم :
كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة و لا ولد فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار ألا تردون
فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر
وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال : فماذا تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا
ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم و لم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله
شيئا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم و بينه آية فتعرفونه بما فيقولون : نعم
فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود و لا يبقى من كان يسجد
نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم و قد تحول في
الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم و تحل الشفاعة
و يقولون اللهم سلم سلم [و ذكر الحديث و سيأتي تمامه إن شاء الله تعالى

الثاني : صح حديث [عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من نوقش
الحساب عذب قلت يا رسول الله أليس الله يقول { فسوف يحاسب حسابا يسيرا } قال : ليس ذلك الحساب ذلك
العرض] و سيأتي

الثالث : روى الحسن [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم تعرض الناس يوم
القيامة ثلاث عرضات] و سيأتي

الرابع : روي عن [أنس رضي الله عنه أنه قال عن النبي صلى الله عليه و سلم يجاء بآدم يوم القيامة كأنه بذج
[الحديث و سيأتي

الخامس : ثبت عن [أبي هريرة رضي الله عنه و أبي سعيد الخدري و اللفظ له يؤتى بعبد يوم القيامة فيقال له ألم
أجعل لك سمعا و بصرا و مالا و ولدا و تركتك ترأس و ترتع فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا فيقول : لا فيقال
له : اليوم أنساك كما نسيتني] و هذا حديث صحيح قلت : خرج مسلم و الترمذي مطولا

السادس : ثبت من طرق صحاح [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيضع عليه كفته
فيقول له عبدي تذكر يوم كذا و كذا حين فعلت كذا و كذا فلا يزال يقرره حتى يرى أنه هلك ثم يقول له : عبدي

أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم]

السابع : و في الصحيح [عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا و آخر أهل النار خروجا من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه و ارفعوا عنه كبارها] و ذكر الحديث

الثامن : و في الصحيح [عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يخرج من النار أربعة فيعرضون على الله فيلتفت أحدهم فيقول : أي رب إذا أخرجتني منها فلا تعدني فيها فينجيه الله منها] و روى مسلم [يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول لهم : و هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك] و ذكر حديث الشفاعة قال الله تعالى { و يوم يعرض الذين كفروا على النار } و ذلك قوله في الحديث المتقدم [ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا] قال القاضي أبو بكر بن العربي : و هذا مما أغفله الأئمة في التفسير التاسع : العرض على الله و لا أعلمه في الحديث إلا قوله في النص المتقدم حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر و فاجر أتاهم رب العالمين و ذكر الحديث

قلت : إذا تتبعت الأحاديث في هذا الباب على هذا السياق كان الحسن و الصحيح منها أكثر من تسعة و قد خرج عن [أبي بردة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع] الحديث و سيأتي و قوله في الحديث الآخر [إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله]

و خرج مسلم عن [عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه و بينه ترجمان] الحديث و سيأتي و خرج البخاري عن [أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك و سعديك يارب] الحديث و سيأتي و يتضمن من غير رواية البخاري عرض اللوح المحفوظ ثم إسرئيل ثم جبرائيل ثم الأنبياء نبيا نبي صلوات الله عليهم أجمعين و سيأتي

و خرج الترمذي و ابن ماجه حديث الرجل الذي ينشر عليه تسعة و تسعون سجلا و سيأتي و هذا كله من باب العرض على الله و إذا تتبعت الأحاديث كانت أكثر من هذا في مواطن مختلفة و أشخاص متباينة و الله أعلم و في بعض الخبر أنه يتمنى رجال أن يعث بهم إلى النار و لا تعرض قبائحهم على الله تعالى و لا يكشف مساوئهم على رؤوس الخلائق

قلت : و أما ما وقع ذكره في الحديث من كشف الساق و ذكر الصورة فيأتي إيضاحه ذلك و كشفه إن شاء الله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

و أما ما جاء من طول هذا اليوم و وقوف الخلائق فيه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقد جاء من حديث [أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقلت : ما أطول هذا فقال النبي صلى الله عليه و سلم : و الذي نفسي بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا] ذكره قاسم بن أصبغ و قيل : غير هذا و سيأتي

ومنها : يوم الجمع و حقيقته في العربية ضم واحد إلى واحد فيكون شفعا أو زوجا إلى زوج فيكون جمعا قال الله تعالى : { يوم يجمعكم ليوم الجمع } و قال { ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه } و هو في القرآن كثير و منها : يوم الفرق قال الله تعالى { و يوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون * فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون * } و أما الذين كفروا و كذبوا بآياتنا و لقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون { و هو معنى قوله تعالى { فريق في الجنة و فريق في السعير }
ومنها : يوم الصدع و الصدر أيضا قال الله تعالى { يومئذ يصدر الناس أشتاتا } و قال يومئذ يصدعون و معناهما معنى الإسم الذي قبله

ومنها : يوم البعثرة و معناه تتبع الشيء المختلط مع غيره حتى يخلص منه فيخلص الله تعالى الأجسام من التراب و الكافرين من المؤمنين و المنافقين ثم يخلص المؤمنين من المنافقين كما في الحديث الصحيح : [إن الله تعالى يجمع الأوليين و الآخرين في صعيد واحد] خرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
ومنها : ما روي [أنه يخرج عنق من النار فيلتنقط الكفار لقط الطائر حب السمسم] و هو صحيح أيضا و سيأتي و قال صلى الله عليه و سلم [يؤخذ برجال ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك]

ومنها : يوم الفرع و حقيقته ضعف النفس عن حمل المعاني الطارئة عليها خلاف العادة فإن استمر كان جبنا و عند ذلك تشوق النفس إلى ما يقويها فلأجل ذلك قالوا : فرغت من كذا أي ضعفت عن حمله عن طريانه على خلاف العادة و فرغت إلى كذا أي تشوقت نفسي عند ذلك إلى ما يقويها على ما نزل بها و الآخرة كلها خلاف العادة و هي فرع كلها و في التنزيل لا يحزهم الفرع الأكبر و قد اختلف فيه فليل هو قوله لا بشرى يومئذ للمجرمين و قيل إذا طبقت النار على أهلها و ذبح الموت بين الجنة و النار و قال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار و عنه أن الفرع الأكبر الفخة الآخرة و تتلقاهم الملائكة بالبشارة حتى يخرجوا من قبورهم

ومنها : يوم التناد بتخفيف الدال من النداء و تشديدها من ند إذا ذهب و هو قال تعالى { يوم تولون مدبرين } و هو الذهاب في غير قصد و روي أيضا عن [أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يأمر الله إسرائيل فينفخ نفخة الفرع فيفرع أهل السموات و الأرض] الحديث و قد تقدم التي يقول الله ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله الجبال و يرج الأرض بأهلها رجا و هي التي يقول الله { يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة * أبصارها خاشعة } فيميد الناس على ظهرها فتذهل المراضع و تضع الحوامل و تشيب الولدان و تولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا و هو الذي يقول الله تعالى { يوم التناد * يوم تولون مدبرين } قال ابن العربي : و قد رويت في ذلك آثار كثيرة هذا أمثلها فدعوها فالعنى الواحد يكفينا منها و من هولها و من تحقيق المعنى لها

قلت : قد بينا أقوال العلماء في ذلك عند ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه في باب أين تكون الناس فتأمله هناك
ومنها : يوم الدعاء و هو النداء أيضا
و النداء على ثمانية و جوه فيما ذكر ابن العربي :
الأول : نداء أهل الجنة أهل النار بالتقريع
الثاني : نداء أهل النار لأهل الجنة بالاستغاثة كما أخبر الله عنهم
الثالث : يدعى كل أناس بإمامهم و هو قوله [لتتبع كل أمة ما كانت تعبد] قال المؤلف : و يقال بكتابهم و قيل :

نبههم قال سري السقطي : تدعى الأمم يوم القيامة بأبنيائها فيقال يا أمة موسى يا أمة عيسى و يا أمة محمد غير
الحبين لله فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا
الرابع : نداء الملك ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا و إن فلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا
يسعد بعدها أبدا و سيأتي

الخامس : النداء عند ذبح الموت يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت

السادس : نداء أهل النار يا حسرتنا و يا ويلنا

السابع : قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين

الثامن : نداء الله تعالى أهل الجنة فيقول : يا أهل الجنة هل رضيت ؟ فيقولون : و ما لنا لا نرضى و قد أعطيتنا ما لم
تعط أحدا من خلقك فيقول : أعطيتكم أفضل من ذلك رضائي

الجزء الثاني من باب قول النبي صلى الله عليه و سلم من سره أن ينظر إلى

يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت و إذا السماء انفطرت و إذا السماء انشقت و في أسماء يوم القيامة
قال المؤلف رضي الله عنه : و نداء تاسع ذكره أبو نعيم عن مروان بن محمد قال : قال أبو حازم الأعرج : يخاطب
نفسه يا أعرج ينادي يوم القيامة يا أهل خطيئة كذا و كذا و كذا فتقوم معهم ثم ينادي يا أهل خطيئة أخرى فتقوم
معهم فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة و في التنزيل يوم يناديهم فيقول { أين شركائي } الآية التي
في القصص و حم السجدة و يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين و بالنداء في الأخبار كثير يأتي بيانها و ذكرها
في باب من يدخل الجنة بغير حساب

و منها : يوم الواقعة و أصل وقع في كلام العرب كان و وجد و جاءت الشريعة في تأكيد ذلك بشبوت ما وجد قال
الله تعالى : { و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم } و المراد بالقول هنا إخبار الباري عن
الساعة و أمّا قريية و من أعظم علاماتها الدابة و سيأتي ذكرها و ما للعلماء فيها من الأشراف إن شاء الله تعالى و
قوله كاذبة مصدر كالباقية و العاقبة أي ليس لوقعتها مقالة كاذبة

و منها : الخافضة الرافعة أي ترفع قوما في الجنة و تخفض أخرى في النار و الخفض و الرفع يستعملان عند العرب في
المكان و المكانة و العز و الإهانة و نسب سبحانه الخفض و الرفع للقيامة توسعا و مجازا على عادة العرب في
إضافتها للفعل إلى المحل و الزمان و غيرهما مما لم يمكن منه الفعل يقولون ليل قائم و نهار صائم و في التنزيل { بل
مكر الليل و النهار } و الخافض و الرافع على الحقيقة إنما هو الله تعالى و حده فرفع أوليائه في أعلى الدرجات و
جعل أعداءه في أسفل الدرجات قال الله تعالى { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * و نسوق المجرمين إلى جهنم
وردا } و [قال صلى الله عليه و سلم في حديث جابر رضي الله عنه : نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس] قال
ابن العربي و هذا حديث فيه تخليط في كتاب مسلم لم يتقنه رواية و معناه : أن جميع الخلق على بسيط من الأرض
سواء إلا محمدا صلى الله عليه و سلم و أمته فإنهم يرفعون جميعهم على شبه من الكوم و يخفض الناس عنهم و في
رواية : [أكون أنا و أمتي يوم القيامة على تل فيكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فذلك المقام المحمود]

قلت : و هذا الرفع في المكان بحسب الزيادة في المكانة قال ابن العربي : و هي أنواع فرقع محمدا صلى الله عليه و
سلم بالشفاعة في أول الخلق و بأنه أول من يدخل الجنة و يقرع بلها و رفع العادلين بالحديث الصحيح المقسطون
يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن و كلنا يديه يمين و رفع القراء إلى حيث انتهت قراءتهم يقال : اقرأ و

رتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها و سيأتي ورفع الشهداء فقال في الحديث الصحيح [إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله] الحديث و سيأتي ورفع كافل اليتيم فقال صلى الله عليه و سلم [أنا و كافل اليتيم كهاتين في الجنة] و أشار مالك بالسبابة و الوسطى يريد في الجوار و قال صلى الله عليه و سلم : [إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرّي الغائر في أفق السماء و أن أبا بكر و عمر منهم و أنعموا و رفع عائشة على فاطمة رضي الله عنهما فإن عائشة مع النبي صلى الله عليه و سلم و فاطمة مع علي رضي الله عنهما]

و منها : يوم الحساب و معناه أن البارئ سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان و إساءة يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض البعض فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير و للشر بالشر و جاء عن النبي أنه قال : [ما منكم من أحد إلا و سيكلمه الله ليس بينه و بينه ترجمان] فقليل إن الله يحاسب المكلفين بنفسه و يخاطبهم معا و لا يحاسبهم واحدا بعد واحد و الحاسبة حكم فلذلك تصاف إليه كما يضاف الحكم إليه قال الله تعالى : { ألا له الحكم } و قال { و هو خير الحاكمين }

و في الخبر : أنه يوقف شيخ للحساب فيقول الله له : يا شيخ ما أنصفت غدتوك بالنعمة صغيرا فلما كبرت كعصيتي أما إني لا أكون لك كما كنت لنفسك اذهب فقد غفرت لك ما كان قبل و إنه ليؤتى بالشباب كثير الذنوب فإذا وقف تضععت أركانه و اصطكت ركبتاه فيقول الرب جل جلاله : أما استحييتني أما راقبتني أما خشيت نعمتي أما علمت أني مطلع عليك خذوه إلى أمه الهاوية و قيل : إن الملائكة يحاسبون بأمر الله كما أن الحكام يحكمون بأمر الله تعالى و قد قال الله تعالى : { إن الذين يشترون بعهد الله و أيامهم ثمنا قليلا } إلى قوله { و لا يكلمهم الله } و إن من لم يكن بهذه الصفة فإن الله تعالى يكلمه فيكلم المؤمنين و يحاسبهم حسابا يسيرا من غير ترجمان إكرام لهم كما أكرم موسى عليه السلام في الدنيا بالكليم و لا يكلم الكفار فتحاسبهم الملائكة و يميزهم بذلك عن أهل الكرامة فتتسع قدرته لحاسبة الخلق كلهم معا كما تتسع قدرته لإحداث خلائق كثيرة معا قال الله تعالى : { ما خلقكم و لا بعنكم إلا كنفس واحدة } أي إلا كخلق نفس واحدة

و يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه و سئل عن محاسبة الخلق فقال : كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة و في صحيح مسلم [حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهره ليست في سحابة ؟ قالوا : لا قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس في سحابة قاله : لا قال : فو الذي نفس محمد بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال : فيلقى العبد فيقول : أيأفل أم أكرمك و أسودك و أزوجك و أسخر لك الخيل و الإبل و أدرك ترأس و ترتع ؟ فيقول : بلى فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا فيقول : إني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فيقول له و يقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك و بكتابك و برسلك و بصليت و تصدقت و صمت و يثني بخير ما استطاع قال : فيقول ها هن إذا ثم يقول الآن نبعت شاهدا عليك فيقول في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم علي فيه و يقال لخذذه انطقي فتسطق فخذذه و لحمه و عظام بعمله و ذلك ليعذر من نفسه و ذلك المناق و ذلك الذي يسخط الله عليه و قد قال الله تعالى { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } أي حاسبا فعليا بمعنى فاعل و إذا نظر فيها و رأى أنه قد هلك فإن أدركته سابقة حسنة وضعت له لا إله إلا الله في كفة فرجحت له السموات و الأرض و في رواية فطاشت السجلات و تقلت البطاقة] و سيأتي و قال [من نوقش الحساب عذب]

ومنها : يوم السؤال و البارئ سبحانه و تعالى يسأل الخلق في الدنيا و الآخرة تقريرا لإقامة الحجة و إظهارا للحكمة قال الله تعالى : { سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة } و قال { و اسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر } و قال : { و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا } و هو في القرآن كثير و قال : { ليسأل الصادقين عن صدقهم } و قال : { و إذا المؤردة سئلت } و قال : { فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون } قيل : عن لا إله إلا الله و قال : { إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا } و قال عليه السلام [لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع] الحديث و سيأتي [و روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ألا كلكم مسؤول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع و مسؤول عن رعيته و الرجل راع على أهل بيته و هو مسؤول عنهم و المرأة راعية على بيت زوجها و هي مسؤولة عنه و العبد راع على مال سيده و هو مسؤول عنه ألا فكلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته]

ومنها : يوم الشهادة و يوم يقوم الأشهاد

و الشهادة على أربعة أنواع :

شهادة محمد و أمته تحقيقا لشهادة الرسل على قومها

الثاني : شهادة الأرض و الأيام و الليالي بما عمل فيها و عليها

الثالث : شهادة الجوارح قال الله تعالى : { يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم } و قال : { و قالوا

جلودهم لم شهدتم علينا } و ذلك بين أيضا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه

الرابع : حديث أنس رضي الله عنه و فيه و يختم على فيه و يقال لأركانها انطقت فتنطق بأعماله و سيأتي بيان هذا

الباب كله إن شاء الله تعالى

و منها : يوم الجدل قال الله تعالى : { يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها } أي تخاصم و تحتاج عن نفسها و جاء

في الخبر : أن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي من شدة أهوال يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه و سلم

فإنه يسأل في أمته على ما يأتي

و في حديث عمر رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار يا كعب : خوفنا هيجنا حدثنا نبهنا فقال كعب : يا أمير

المؤمنين و الذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارات و لا يهملك إلا نفسك و

إن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب و لا نبي منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه حتى إن إبراهيم الخليل ليدلى بالخلة

فيقول رب أنا خليلك إبراهيم لا أسألك اليوم إلا نفسي قال يا كعب : اين نجد ذلك في كتاب الله تعالى ؟ قال :

قوله تعالى : { يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها و توفي كل نفس ما عملت و هم لا يظلمون }

و قال ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول

الروح : رب الروح منك أنت خلقتني لم يكن لي يد أبطش بها و لا رجل أمشي بها و لا عين أبصر بها و لا أذن أسمع

بها و لا عقل أعقل به حتى جئت فدخلت في هذا الجسد فضعف عليه أنواع العذاب و نجني فيقول الجسد : رب

أنت خلقتني بيدك فكنت كالخشبة ليس لي يد أبطش بها و لا قدم أسعى بها و لا بصر أبصر به و لا سمع أسمع به

فجاء هذا كشعاع الشمس فيه نطق لساني و به أبصر عيني و به مشيت رجلي و به سمعت أذني فضعف عليه أنواع

العذاب و نجني قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى و مقعد أدخلنا فيه ثمار فالأعمى لا يبصر و المقعد لا يناها

فنادى المقعد للأعمى انتني فاحملي أكل و أطعمك فدنا منه فحمله فأصابا من الثمرة فعلى من يكون العذاب قالوا :

عليهما قال : عليكم جميعا العذاب

قال المؤلف رضي الله عنه و أرضاه : و من هذا الباب قول الأمام : كيف يشهد علينا من لم يدركنا إلى غير ذلك مما في معناه حسب ما يأتي

و منها : يوم القصاص و فيه أحاديث كثيرة يأتي ذكرها في باب إن شاء الله تعالى

و منها : يوم الحاقة و سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها قاله الطبري كأنه جعلها من باب : ليلى نائم كما تقدم

و قيل : سميت حاقة لأنها كانت من غير شك و قيل : سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام النار

و منها يوم الطامة معناها الغالبة من قولك طم الشيء إذا علا و غلب و لما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا

الاسم حقيقة دون كل شيء قال الحسن : الطامة النفخة الثانية و قيل : حين يساق أهل النار إلى النار

و منها : يوم الصاخة قال عكروة : الصاخة : النفخة الأولى و الطامة : النفخة الثانية قال الطبري أحسبه من صخ

فلان فلانا إذا أصمه قال ابن العربي : الصاخة التي تورث الصمم و إنما المسمعة و هذا من بديع الفصاحة حتى لقد

قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان :

(أصم بك الناعي و إن كنت أسمعاً)

و قال آخر :

(أصموني شهرهم أيام فرقتهم ... فهل سمعتم بشر يورث الصمما)

و لعمر و الله إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا و تسمع أمور الآخرة و بهذا كله كان يوماً عظيماً كما قال

الله تعالى في وصفه بالعظيم و كل شيء كبير في أجزائه فهو عظيم كذلك ما كبر في معانيه و بهذا المعنى كان الباري

عظيماً لسعة قدرته و علمه و كثرة ملكه الذي لا يحصى و لما كان أمر الآخرة لا ينحصر كان عظيماً بالإضافة إلى

الدنيا و لما كان محدثاً له أول صار حقيراً بالإضافة إلى العظيم الذي لا يجد

و منها : يوم الوعيد و هو أن الباري سبحانه أمر و نهي و وعد و أوعد فهو أيضاً يوم الوعد و الوعد للنعيم و

الوعيد للعذاب الأليم و حقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة و الوعد الخبر عن الثوبة عند الموافقة و قد

ضل في هذه المسألة المبتدعة و قالوا : إن من أذنب ذنباً واحداً فهو مخلد في النار تخليد الكفار أخذاً بظاهر هذا

اللفظ في آي فلم يفهموا العربية و لا كتاب الله و أبطلوا شفاعة رسول الله صلى الله عليه و سلم و سيأتي الرد

عليهم في أبواب من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

و منها : يوم الدين و هو في لسان العرب الجزاء قال الشاعر :

(حصادك يوماً ما زرعت و إنما ... يدان الفتى فيه كما هو دائن)

و قال آخر :

(و اعلم يقينا أن ملكك زائل ... و اعلم بأنك كما تدين تدان)

و منها : يوم الجزاء قال الله تعالى : { اليوم تجزون ما كنتم تعملون } و قال : { اليوم تجزي كل نفس بما كسبت }

و هو أيضاً يوم الوفاء قال الله تعالى : { يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق { أي حسابهم و جزاؤهم و الجنة جزاء

الحسنات و النار جزاء السيئات قال الله تعالى في المعنيين { جزاء بما كانوا يكسبون } و { جزاء بما كانوا يعملون }

و قال في جهة الوعيد كذلك { تجزي كل كفور }

و منها : يوم الندامة و ذلك أن المحسن إذا رأى جزاء إحسانه و الكافر جزاء

كفره ندم المحسن أن لا يكون مستكثراً و ندم المسيء أن لا يكون استعتب فإذا صار الكافر إلى عذاب لا نفاذ له

تحسر فلذلك سمي يوم الحسرة قال الله تعالى : { و أنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر } و ذلك عند ذبح الموت على ما يأتي و هم في غفلة يعني الآن عن ذلك اليوم و الحسرة : عبارة عن استشكاف المكروه بعد خفائه و منها : يوم التبديل قال الله تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات } و قد تقدم القول في ذلك مستوفى

و منها : يوم التلاق قال الله تعالى : { لينذر يوم التلاق } و هو عبارة عن اتصال المعنيين بسبب من أسباب العلم و الجسمين و هو أنواع أربعة :

الأول : لقاء الأموات لمن سبقهم إلى الممات فيسألونهم عن أهل الدنيا كما تقدم و الثاني : عمله و قد تقدم

الثالث : لقاء أهل السموات لأهل الأرض في الحشر و قد تقدم
الرابع : لقاء الخلق للباري سبحانه و تعالى و ذلك يكون في عرصات القيامة و في الجنة على ما يأتي و منها : يوم الآزفة تقول العرب أزف كذا أي قرب قال الشاعر :
(أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما نزل برحالنا و كأن قد)

و هي قريبة جدا و كل آت قريب و إن بعد مداه قال الله تعالى : { و ما يدريك لعل الساعة تكون قريبا } و ما يستبعد الرجل من الساعة و مدته ساعة

و منها : يوم المآب و معناه الرجوع إلى الله تعالى و لم يذهب عن الله شيء فيرجع إليه و إنما حقيقته أن العبد يخلق الله فيه ما شاء من أفعاله لما خلق فيه علما و خلق فيه إثارا و اختيارا ظن الناس أنه شيء أو أن له فعلا فإذا أماته و سلب ما كان أعطاه أذعن و آب في وقت لا ينفعه الإياب و لم يزل عن الله تعالى في حال فهو الأواب و منها : يوم المصير و هو يوم المآب بعينه قال الله تعالى : { و لله ملك السموات و الأرض و إلى الله المصير } فخلق سائرهم إلى أمر الله تعالى و آخر ذلك ذار القرار و هي الجنة أو النار قال الله تعالى في حق الكافرين : { قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار }

و منها : يوم القضاء و هو أيضا يوم الحكم و الفصل و سيأتي أن أول ما يقضى فيه الدماء و قال صلى الله عليه و سلم : [ما من صاحب ذهب و لا فضة لا يؤدي منها حقها] الحديث و فيه كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد و الفصل هو الفرق و القطع يفصل يومئذ بين المؤمن و الكافر و المسيء و الحسن قال الله تعالى : { يوم القيامة يفصل بينكم } الآية و هو يوم الحكم لأن إنفاذ الحكم هو إنفاذ العلم قال الله تعالى : { الملك يومئذ لله يحكم بينهم } الآية و قال { ذلكم حكم الله يحكم بينكم } و منها : يوم الوزن قال الله تعالى : { و الوزن يومئذ الحق } الآية و سيأتي الكلام في الميزان و وزن الأعمال فيه في أبواب إن شاء الله

و منها : يوم عقيم و هو في اللغة عبارة عن من لا يكون له ولد و لما كان الولد يكون بين الأبوين و كان الأيام تتوالى قبل و بعد جعل الاتباع بالعديّة فيها كهيئة الولادة و لما لم يكن بعد ذلك اليوم و وصف بالعقيم و منها : يوم عسير و هذا في حق الكافرين خاصة و العسر ضد اليسر فهو عسير على الكافرين لأنهم لا يرون فيه أملا و لا يقطعون فيه رجاء حتى إذا خرج المؤمنون من النار طلبوا مثل ذلك فيقال لهم { احسبوا فيها ولا تكلمون } فحينئذ يكون المنع الصريح على ما يأتي بيانه في أبواب النار إن شاء الله تعالى و أما المؤمنون فتحل عقلمهم يسر إلى يسر فينحل طول الوقوف إلى تعجيل الحساب و تثقيل الموازين و جواز الصراط و الضلال بالأعمال و لا تنحل

للكافرين من هذه العقد عقدة واحدة إلا إلى أشد منها حتى إلى جهنم دار القرار
و منها : يوم مشهود سمي بذلك لأنه يشهده كل مخلوق وقيل : سمي بذلك لأن الشهداء يشهدون فيه على ما يأتي
و الله أعلم

و منها : يوم التغابن سمي بذلك لأن الناس يتغابنون في المنازل عند الله : فريق في الجنة و فريق في السعير و حقيقته
في لسان العرب : ظهور الفضل في المعاملة لأحد المتعاملين و الدنيا و الآخرة دار العملين و حالين و كل واحد
منهما لله و لا يعطى أحدهما إلا لمن ترك نصيبه من الأخرى : قال الله تعالى { من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما
نشاء لمن نريد } و قال : { من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا توتته منها و ما
له في الآخرة من نصيب } و من أراد الآخرة فسعيه مشكور و حظه في الآخرة موفور

و منها : يوم عبوس قمطرير و القمطرير : الشديد و قيل الطويل و أما العبوس فهو الذي يعبس فيه سمي باسم ما
يكون فيه كما يقال ليل قائم و نهار صائم و كلوح الوجه و عبوسه هو قبض ما بين العينين و تغير السحنة عن
عادتها المطلقة يقال : يوم طلق إذا كانت شمس نيرة فاترة و إذا كانت شمس مدجية قد غطاها السحاب قيل : يوم
عبوس و أول العبوس و الكلوح عند الخروج من القبور و رؤية الأعمال في الصور القيحة كما تقدم و آخر ذلك
كلوح النار و هو الكلوح الأعظم يشوي الوجوه و يسقط الجلود على ما يأتي و مع العبوس تشخص الأبصار و
هي ثبوتها راحة على منظر واحد لئلا ينتقل منه إلى غيره كما قال سبحانه { ليوم تشخص فيه الأبصار }
و منها : يوم تبلى السرائر و معناه إخراج المخبات بالاختبار بوزن الأعمال في الصحف و يكشف الساق عند
السجود على ما يأتي

و منها : يوم لا تملك نفس لنفس شيئا و هو مثل قوله { و اتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا و لا يقبل منها
شفاعة و لا يؤخذ منها عدل و لا هم ينصرون } و قال : { يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا } فكل نفس بما
كسبت رهينة لا يغني أحد عن أحد شيئا بل ينفصل كل واحد عن أخيه و أبيه و لذلك كان يوم الفصل و يوم
الفرار قال الله تعالى : { إن يوم الفصل كان ميقاتا } و قال تعالى : { يوم يفر المرء من أخيه * و أمه و أبيه *
و صاحبته و بنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه } أما إنه يجزي و يقضي و يعطي و يغني بغير اختياره من
حسناته ما عليه من الحقوق على ما يأتي بيانه في أحاديث المفلس إن شاء الله تعالى

و منها : يوم يدعون إلى نار جهنم دعا والدع الدفع أي يدفعون إلى جهنم و يسحبون فيها وجوههم كما قال تعالى
: { يوم يسحبون في النار على وجوههم }

و منها : يوم التقلب و هو التحول قال الله تعالى : { يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار } أي قلوب الكفار
و أبصارهم فتقلب قلوب الكفار انتزاعها من أماكنها إلى الخاجر فلا هي ترجع إلى أماكنها و لا هي تخرج فأما
تقلب الأبصار فالترقة بعد الحكل و العمى بعد البصر و قيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة و الخوف من
الملاك و الإبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم و إلى أي ناحية يؤخذ بهم و قيل : إن قلوب الشاكرين تتحول
عما كانت عليه من الشك و كذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة

و منها : يوم الشخوص و الإقناع قال الله تعالى : { إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار } أي لا تغمض فيه من
هول ما ترى في ذلك اليوم قاله الفراء

و قال ابن عباس رضي الله عنه : تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يغمضون { مهطعين }
أي مديمي النظر

قال مجاهد و الضحاك : { مقنعي رؤوسهم } أي رافعي رؤوسهم و إقناع الرأس رفعه قاله ابن عباس و مجاهد و قال الحسن : و جوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد فإن قيل : فقد قال الله تعالى في غير هذه الآية { خاشعة أبصارهم } و قال : { خشعا أبصارهم } فكيف يكون الرفع رأسه الناظر نظرا طويلا حتى إن طرفه لا يرتد إليه خاشع البصر ؟

فالجواب أنهم يخرجون حال المضي إلى الموقف خاشعة أبصارهم و في هذه الحال و صفهم الله تعالى بخشوع الأبصار و إذا توافوا و ضمهم الموقف و طال القيام عليهم فإنهم يصيرون من الحيرة كلكم لا قلوب لهم و يرفعون رؤوسهم فينظرون النظر الطويل و لا يرتد إليهم طرفهم كلكم قد نسوا الغمض أو جلهوه فهو تعسير عليهم و منها : { هذا يوم لا ينطقون * و لا يؤذن لهم فيعتذرون }

و ذلك حين يقال لهم { احسبوا فيها ولا تكلمون } و تطبق عليهم جهنم على ما يأتي بيانه في أبواب النار و منها : { يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم } و إن أذن لهم بأن يمكنوا منها لا بأن يقال لهم اعتذروا كقوله { ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبارنا } الآية و كقوله { ربنا أخرجنا منها } الآية و منها : { و لا يكتمون الله حديثا }

و منها : يوم الفتنة قال الله تعالى { يوم هم على النار يفتنون } أي يعذبون من قولك فتنت الذهب إذا رميت به في النار

و منها : { يوم لا مرد له من الله } يريد يوم القيامة أي لا يرده أحد بعد ما حكم الله به و جعل له أجلا و وقتا و منها : يوم الغاشية و سميت بذلك لأنها تعشى بإفراعها أي تعمهم بذلك و منه غاشية السرج و منها : فيومئذ لا يعذب عذابه أحد و لا يوثق و ثقاه أحد

و منها : يوم لا بيع فيه و لا خلال قال الله تعالى { قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقناهم سرا و علانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه و لا خلال } و قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه و لا خلة و لا شفاعاة } و الخلة و الخلال الصداقة و المودة و منها : يوم لا ريب فيه و إن وقع فيه رب الكفار أي شك فليس فيه ريب لقيام الأدلة الظاهرة عليه كما قال الله تعالى { أفي الله شك } فليس في الباري شك لقيام الأدلة عليه و لشهادة أفعاله و لاقتضاء المحدث أن يكون له محدث و لكن قد شك فيه قوم و نفاه آخرون و لم يوجب ذلك شكاً فيه لقيام الأدلة عليه فكذلك يوم القيامة لا ريب و لا شك فيه مع النظر في الدليل و العلم فإذا خلق الله تعالى الرين على القلب كان الشك قال الله تعالى { ذلك بأن الله هو الحق و أنه يحيي الموتى و أنه على كل شيء قدير * و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من في القبور }

و منها : { يوم تبيض وجوه و تسود وجوه } و سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى و منها : يوم الأذان : دخل طاووس على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله و احذر يوم الأذان فقال : و ما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى { فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين } فصعق هشام فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة

و منها : يوم الشفاعاة قال الله تعالى { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } و قال تعالى { و لا يشفعون إلا لمن ارتضى } و قال { لا تنفع الشفاعاة عنده إلا لمن أذن له } و قال { فما لنا من شافعين } و سيأتي بيانه و منها : يوم العرق و سيأتي بيانه في أحاديث في الباب بعد هذا بحول الله وقوته

و منها يوم القلق و الجولان و هو عبارة عند عدم الاستقرار و الثبوت يقال : قلق الرجل يقلق قلقا إذا لم يستقر و مثله جال يجول إذا لم يثبت

و منها : يوم الفرار قال الله تعالى { يوم يفر المرء من أخيه * و أمه و أبيه * و صاحبه و بنيه } فيفر كل واحد من صاحبه حذرا من مطالبته إياه إما لما بينهم من التبعات أو لئلا يروا ما هو فيه من الشدة و قال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم و قلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب و المهوم عنه و لو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى و قال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم و أول من يفر من ابنه نوح و أول من يفر من امرأته لوط قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم و هذا فرار التبري نجانا الله من أهوال هذا اليوم بحق محمد نبي الرحمة و صحبه الكرام البرزة و جعلنا ممن حشر في زمركم و لا خالف بنا على طريقهم و مذهبيهم بمنه و كرمه أمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم

قال المؤلف : و قد سرد تسمية هذه الأيام على التوالي من غير تفسير غير واحد من العلماء منهم ابن نجاح في سبل الخيرات و أبو حامد الغزالي في غير موضع من كتبه كالإحياء و غيره و القتيبي في كتاب عيون الأخبار و هذا تفسيرها حسب ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في سراج الميدين و ربما زدنا عليه في ذلك و الحمد لله على ذلك و لا يمتنع أن تسمى غير ما ذكرنا بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام و التضايق و اختلاف الأقدام الخزي و الهوان و الذل و الافتقار و الصغار و الانكسار و يوم الميقات و المرصاد إلى غير ذلك من الأسماء و سيأتي التبيية على ذلك إن شاء الله تعالى في الباب بعد هذا

باب ما يلقي الناس في الموقف من الأهوال العظام و الأمور الجسم

قال الحاسبي في كتاب التوهم و الأهوال : يحشر الله الأمم من الإنس و الجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض و لزمهم الصغار بعد عتوهم و الذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه ثم أقيمت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق و انفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة و لا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة و الانكسار لذلك الجبار و أقيمت الشياطين بعد تمردها و عتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها و جنها و شياطينها و وحوشها و سباعها و أنعامها و هوامها تانثرت نجوم السماء من فوقهم و طمست الشمس و القمر فأظلموا عليهم و مارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم و هي خمسمائة عام فيا هول صوت انشقاقها في سمعهم و تمرقت و تفتطرت هول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل القصة المذابة كما قال الجبار تبارك و تعالى { فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان } و قال { يوم تكون السماء كالمهل * و تكون الجبال كالعهن } أي كالصوف المنفوش و هو أضعف الصوف و هبطت الملائكة من حافاتهما إلا الأرض بالتقديس لربها فتوهم انحذارهم من السماء لعظم أجسامهم و كثرة أخطارهم و هول أصواتهم و شدة فرقهم من خوف ربهم فتوهم فزعك حيثند و فزع الخلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فأخذوا مصافهم محذقين بالخلائق منكسي رؤوسهم العظيم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم و نكسوا رؤوسهم بالذلة و الخضوع لربهم و كذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة و عظم الأجسام و الأصوات حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع و الأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن فمن بين مستظل بظل العرش و بين مضح بحر الشمس قد صهرته

و اشتد فيها كربيه و أقلقته و قد ازدحمت الأمم و تضايقت و دفع بعضهم بعضا و اختلفت الأقدام و انقطعت الأعناق من العطش قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم و تراحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبهم و منازلهم عند ربهم من السعادة و الشقاء فمنهم من يبلغ العرق منكبيه و حقويه و منهم إلى شحمة أذنيه و منهم من قد أجمه العرق فكاد أن يغيب فيه قلت : ذكر المحاسبي وغيره أن انفطار السماء انشقاقها بعد جمع الناس في الموقف و قد قدمنا أن ذلك يكون قبل ذلك و هو ظاهر القرآن كما ذكرنا و الله اعلم و قد جاء ذلك مرفوعا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه و قد تقدم

و ما ذكره المحاسبي مروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم و زيد في سعتها كذا و كذا و جمع الخلائق بصعيد واحد جهنم و إنسهم فإذا كان ذلك قبضت هذه السماء عن أهلها فينتشرون على وجه الأرض فلأهل السماء أكثر من أهل جميع الأرض جهنم و إنسهم بالضعف الحديث بطول ما ذكره ابن المبارك في رقايقه قال : أخبرنا عوف عن أبي المنهال سيار بن سلامة الرياحي قال أخبرنا شهر بن حوشب قال : حدثني ابن عباس فذكره قال ابن المبارك و أخبرني جوير عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق بأهلها فتكون للملائكة على حافلتها حتى يأمر الرب فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض و من فيها ثم يأمر السماء التي تليها فينزلون فيكونون صفا خلف ذلك الصف ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فينزل الملك الأعلى في بمائه و جلاله و ملكه و بجنته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها و شهيقها فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة فذلك قوله تعالى { يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان } و السلطان العذر و ذلك قوله عز و جل { و جاء ربك و الملك صفا صفا } و انشقت السماء فهي يومئذ واهية * و الملك على أرجائها { يعني على حافلتها يعني بأرجائها ما تشفق منها فيبناهم كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب

قلت : و لا يصح إسنادهما فإن شهرا و جبيرا قد تكلم فيها و ضعفهما قال البخاري في التاريخ جوير بن سعيد البلخي عن الضحاك قال لي علي قال يحيى : كنت أعرف جويرا بمحدثين ثم أخرج هذه الأحاديث بعد فضعه و أما شهر فقال مسلم في صدر كتابه سنن ابن عوف عن حديث شهر و هو قائم على أسكفة الباب فقال : إن شهرا تركوه قال مسلم : يقول أخذته السنة الناس تكلموا فيه و قال عن شعبة و قد لقيت شهرا فلم أعتد به

و ذكر أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة نحو ما ذكر المحاسبي عن ابن عباس رضي الله عنه و الضحاك فقال إن الخلائق إذا اجتمعوا في صعيد واحد الأولين و الآخرين أمر الجليل جل و جلاله بملائكة سماء الدنيا أن يتولاهم فيأخذ كل واحد منهم إنسانا و شخصا من المبعوثين إنسا و جنا و وحشا و طيرا و حولهم إلى الأرض الثانية و هي أرض يبضاء من فضة نورية و صارت للملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات ثم إن الله سبحانه و تعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحذقون بهم واحدة فإذا هم مثلهم عشرين مرة ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة فإذا هم أكثر منهم ثلاثين ضعفا ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة أكثر منهم بأربعين صفا ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحذقون من وراءهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحذقون من وراء الكل حلقة

واحدة و هم مثلهم ستين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة و هم مثلهم سبعين مرة و الخلق تتداخل و تندمج حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الرحام و تخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الأذقان و إلى الصدر و إلى الحقوين و إلى الركبتين و منهم من يصيبه الرشح اليسير كالتقاعد في الحمام و منهم من تصيبه البلة كالعاطش إذا شرب الماء و كيف لا يكون القلق و العرق و الأرق و قد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو مد أحدهم يده لناها و يضاعف حرها سبعين مرة

و قال بعض السلف لو طلعت الشمس على الأرض كهيتها يوم القيامة لأحرقت الأرض و ذابت الصخر و جفت الأنهار فيبينما الخلائق يموجون في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله تعالى حيث يقول : { يوم تبدل الأرض غير الأرض } و هم على أنواع في الحشر على ما تقدم في حديث معاذ و الملوك كالذر كما قد ورد في الخبر في وصف المتكبرين و ليس هم كهينة الذر غير أن الأقدام عليهم حتى صاروا كالذر في مثلهم و الخفاضهم و قوما يشربون ماء باردا عذبا صافيا لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة يسقونهم

و عن بعض السلف أنه نام فرأى القيامة قد قامت و كأنه في الموقف عطشان و صبيان صغار يسقون الناس قال : فناديتهم ناولوني شربة فقال لي واحد منهم ألك فينا ولد ؟ فقلت : لا فقال : فلا إذا و لهذا فضل التزويج و لهذا الولد الساقى شروط ذكرناها في الإحياء و قوم قدموا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر و هي الصدقة الطيبة لا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقر الذي وصفناه في كتاب الإحساء و هو بعض أسرار القرآن

فتوجل له القلوب و تحشع الأبصار لعظيم نقره و تشتاف الرؤوس من المؤمنين و الكافرين يظنون أن ذلك عذاب يزداد بهم في هول يوم القيامة فإذا بالعرش تحمله ثمانية أملاك قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة و أفواج الملائكة و أنواع الغمام بأصوات النسيح لهم هرج عظيم لا تطيقه العقول حتى يستقر العرش في تلك الأرض

البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة فتطرق الرؤوس و تحس و تشفق البرايا و ترعب الأنبياء و تخاف العلماء و تفرع الأولياء و الشهداء من عذاب الله سبحانه الذي لا يطيق شيء إذ غشاهم نور حتى غلب عليه نور الشمس التي كانوا في حرها فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام و الجليل سبحانه لا يكلمهم كلمة واحدة فحيثذ ينهب الناس إلى آدم فيقولون : يا أبا البشر الأمر علينا شديد و أما الكافر فيقول : يارب أرحني و لو إلى النار من شدة ما يرى من الهول يقولون : أنت الذي خلقتك الله بيده و أسجد لك ملائكته و نفخ فيك من روحه

اشفع لنا في فصل القضاء و ذكر أمر الشفاعة من نبي إلى نبي و أن ما بين إتيانهم من نبي إلى نبي ألف عام حتى تنتهي الشفاعة إلى نبينا محمد صلى الله عليه و سلم على ما يأتي بيانه من أمر الشفاعة في أحاديث إن شاء الله تعالى و نحو من هذا ذكره الفقيه أبو بكر بن بركان في كتاب الإرشاد له قال : فإذا كان يومئذ جمع الله الأولين و الآخرين في صعيد واحد و كورت الشمس و انكدرت النجوم و مارت السماء فوق الخلائق مورا و تفتطرت من عظيم هول ذلك اليوم و تشققت بالغمام المنزل من عليهن فوقهن ثم صارت وردة كاللها و كشتن سماء سماء و نزلت

الملائكة تنزيلا و قام الخلائق و طال قيامهم أقل ما قيل في قيامهم مقدار أربعين عاما إلى ثلاثمائة عام و أياما كان فاليوم يسعه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [ما من صاحب إبل] الحديث و فيه [وردت عليها أولاها] في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة و سيأتي بكماله و هم في قيامهم ذلك في الظلمة دون الجسر كما في صحيح مسلم من حديث ثوبان عراة غرلا أعطش ما كانوا و أجوع ما كانوا عليه قط عراة فلا يسقى ذلك اليوم إلا من سقى الله عز و جل و لا يطعم إلا من أطعم الله و لا يكسى يومئذ إلا من كسا الله و لا يكفى إلا من اتكل على الله و مصداق هذا من كتاب الله عز و جل قوله الحق { يوفون بالنذر } إلى قوله تعالى : { فواقهم الله شر ذلك اليوم }

أي من إزالة الجوع و العطش و العرى إلى غير ذلك من أهوال القيامة و أفزعها على ما يأتي بيانه في هذا الباب الذي يليه

أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية عن عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال : تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدنى من جهاجم الناس حتى تكون قاب قوسين قال : فيعرفون حتى يرشح العرق في الأرض قائمة ثم يرتفع حتى يعرغر الرجل قال سلمان : حتى يقول الرجل غرغر فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه انتوا أباكم آدم فيشفع لكم الحديث بطوله و سيأتي مرفوعا من حديث أبي هريرة و أخرجه ابن المبارك قال : أنبأنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال : تدنى الشمس من الناس يوم القيامة حتى تكون من رؤوسهم قاب قوسين فتعطى حر عشر سنين و ليس على أحد يومئذ طحرية و لا يرى فيها عورة مؤمن و لا مؤمنة لا يضر حرها يومئذ مؤمنا و لا مؤمنة و أما الآخرون أو قال الكفار فتطبخهم طبخا فإنما تقول أجوافهم : [غق غق] قال نعيم : الطحرية : الخرقعة و أخرجه هناد بن السري حدثنا قبيصة عن سفيان عن سليمان التيمي فذكره سواء إلا أنه قال [و لا يجد حرها] بدل [و لا يضر] و قال [و أما الكافر أو الآخرون فتطبخهم طبخا حتى يسمع لأجوافهم غق غق]

مسلم [عن سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل قال سليم بن عامر فو الله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين قال [فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه و منهم من يكون إلى ركبتيه و منهم من يكون إلى حنجره و منهم من يلجمه إجماعا] قال : و أشار رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده إلى فيه [و أخرجه الترمذي و زاد قوله تكحل به العين فنصهرهم الشمس و ذكر ابن المبارك أخبرنا مالك بن مغول عن عبيد الله بن العيزار قال : إن الأقدام يوم القيامة مثل النبل في القرن و السعيد الذي يجد تقدميه موضعا يضعهما عليه و إن الشمس تدنى من رؤوسهم حتى لا يكون بينها و بين رؤوسهم إما قال ميلا أو ميلين ثم يزداد في حرها بضعة و ستون ضعفا و عند الميزان ملك إذا وزن العبد نادى ألا إن فلان بن فلان قد ثقلت موازينه و سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ألا فلان ابن فلان قد خفت موازينه و شقى شقاء لا يسعد بعده أبدا

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا و إنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو آذانهم يشك ثور أيهما] قال : أخرجه البخاري [و عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم { يوم يقوم الناس لرب العالمين } قال : يوم يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه] أخرجه البخاري و الترمذي و قال : حديث صحيح مرفوعا و موقوفا و روى هناد بن السري قال : حدثنا محمد بن فضيل عن ضرار بن مرة عن عبد الله بن المكتب عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال له رجل إن أهل المدينة ليوفون الكيل يا أبا عبد الرحمن قال : و ما يمنعهم أن يوفوا الكيل

و قد قال الله تعالى { ويل للمطففين } حتى بلغ { يوم يقوم الناس لرب العالمين } قالت : إن العرق ليبلغ أنصاف آذانهم من هول يوم القيامة و عظمه

و خرج اللواتي [من حديث ابن وهب قال : حدثني عبد الرحمن بن ميسرة عن ابن هانئ عن أبي عبد الرحمن الحليبي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية { يوم يقوم

الناس لرب العالمين { ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بكم إذا جمعكم الله عز وجل كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم] ؟ قال الوائلي غريب جيد الإسناد
وقد خرج مسلم لابن وهب عن أبي هانئ نفسه عن الحلي عن عبد الله أحاديث ابن المبارك قال : أخبرنا الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعيد يقول : إن للناس يوم القيامة جولة وهو قوله عز وجل { يقول الإنسان يومئذ أين المفر } وقوله : { لو ترى إذ فرعوا فلا فوت } وفي حديث جويبر عن الضحاك : فينزل الملك ومجنبتة اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفًا قيامًا من الملائكة فذلك قوله : { يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان } والسلطان العذر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [خوفي جبريل من يوم القيامة حتى أبكاني فقلت يا جبريل ألم يغفر لي ربي ذنبي ما تقدم وما تأخر ؟ فقال لي يا محمد لشهدين من هول ذلك اليوم أحدهما يسبك المغفرة] ذكره أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله

فصل : قلت : ظاهر ما رواه ابن المبارك عن سلمان أن الشمس لا يضر حرها مؤمن ولا مؤمنة العموم في المؤمنين وليس كذلك لحديث المقداد المذكور بعده وإنما المراد لا يضر حرها مؤمنًا كامل الإيمان أو من استظل بظل عرش الرحمن كما في الحديث الصحيح [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله] الحديث رواه الأئمة مالك وغيره و سيأتي في الباب بعد هذا

وكذلك ما جاء أن المرء في ظل صدقته وكذلك الأعمال الصالحة أصحابها في ظلها إن شاء الله وكل ذلك من ظل العرش والله أعلم

وأما غير هؤلاء فمتفاوتون في العرق على ما دل عليه حديث مسلم قال ابن العربي : وكل واحد يقوم عرقه معه فيعرق فيه إلى أنصاف ساقيه وإلى جانبه مثلًا يمين من يبلغ كعبيه ومن الجهة الشمال من يبلغ ركبتيه ومن أمامه من يكون عرقه إلى نصفه ومن خلفه من يبلغ العرق صدره وهذا خلاف المعتاد في الدنيا فإن الجماعة إذا وقفوا في الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذًا واحدًا ولا يتفاوتون كما ذكرنا مع استواء الأرض ومجاورة المحل وهذا من

القدرة التي تخرق العادات في زمن الآيات

وقال الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الإرشاد له : ولا يبعدون عليك هذا يرحمك الله أن يكون الناس كلهم في صعيد واحد وموقف سواء يشرب أحدهم أو بعض من الحوض ولا يشرب الغير ويكون النور يسعى بين يدي البعض في الظلمات مع قرب المكان وازدحام الناس ويكون أحدهم يعرق في عرقه حتى يلجمه أو يبلغ منه عرقه ما شاء الله جزاء لسعيه في الدنيا والآخرة في ظل العرش على قرب المكان والمجاورة كذلك كانوا في الدنيا يمشي المؤمن بنور إيمانه في الناس والكافر في ظلام كفره والمؤمن في وقاية الله وكفايته والكافر والعاصي في خذلان الله لهما وعدم العصمة والمؤمن السني يكرع في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروى ببرد البقين ويمشي في سبل الهداية بحسن الاقتداء والمبتدع عطشان إلى ما روى المؤمن به حيران لا يشعر سالك في مسالك ضلالات البدع وهو لا يدري كذلك في الوجود الأعمى لا يجد نور بصر البصير ولا ينفعه دواء إنما هي بواطن وظواهر بطنت فتشعر لذلك وتفطن واستعن بالله يعنك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

وقال أبو حامد : وأعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج و جهاد و صيام و قيام و تردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف أو نهي عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرر لعلم أن تعب العارف في تحمل مصاعب الدنيا أهون أمرا و

أقصر زمانا من عرق الكرب و الانتظار في القيامة فإنه يوم عظيم شديد طويل مدته
و ذكر أبو نعيم عن أبي حازم أنه قال : لو نادى مناد من السماء أمن أهل الأرض من دخول النار لحق عليهم
الوجل من هول ذلك الموقف و معاينة ذلك اليوم

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي

باب ما ينبجي من أهوال يوم القيامة و من كربها

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] ذكر الحديث و خرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول قال : [حدثنا أبي رحمه الله قال : حدثنا عبد الله بن نافع قال : حدثني ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم و نحن في مسجد المدينة فقال إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه و رأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه و ضوءه فاستنقذه من ذلك و رأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم و رأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلواته فاستنقذته من أيديهم و رأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشا كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه و أرواه و رأيت رجلاً من أمتي و النبيون يعودون حلقة حلقة كلما دنا حلقة طردوه فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده و أقعده بجنبي و رأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة و من خلفه ظلمة و عن يمينه ظلمة و عن شماله ظلمة و من فوقه ظلمة و من تحته ظلمة فهو متحير فيها فجاءته حجته و عمرته فاستخرجاه من الظلمة و أدخلاه في النور و رأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه و رأيت رجلاً من أمتي يتقي شر النار و وهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه و ظلاً على رأسه و رأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف و نهيها عن المنكر فاستنقذه من أيديهم و أدخلاه مع ملائكة الرحمة و رأيت رجلاً من أمتي جانباً على ركبتيه بينه و بين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله و رأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه و رأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه فجاءته أفرطه فثقلوا ميزانه و رأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه و جلده من الله فاستنقذه من ذلك و مضى و رأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار و رأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يردد كما تردد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدده و مضى و رأيت رجلاً من أمتي على الصراط و رأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب و أدخلته الجنة]

قلت : هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة و الله أعلم

و قد ينبجي منها كلها ما ثبت في صحيح مسلم [عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس و كان موسراً فكان يأمر غلماناً أن يتجاوزوا عن المعسر قال : قال الله عز و جل أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدي] و خرج [عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه و سلم أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له ما كنت تعمل ؟ فقال :

إني كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر و أتجاوز في السكّة أو في النقد فغفر له [فقال له المسعود رضي الله عنه :
و أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم رواه مسلم من طرق و خرجه البخاري
و روى مسلم [عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني معسر قال الله فقال
الله قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم : من سره أن ينجيّه الله من كرب يوم القيامة فلينس عن
معسر أو يضع عنه]

[و عن أبي اليسر و اسمه كعب بن عمرو رضي الله عنه أن سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من أنظر
معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله] خرجه مسلم

و قال أنس بن مالك رضي الله عنه : من أنظر مديونا فله بكل يوم عند الله وزن أحد ما لم يطلبه
و روى الأئمة [عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا
ظل إلا ظله : الإمام العادل و شاب نشأ في عبادة الله و رجل قلبه معلق بالمساجد و رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه
و تفرقا عليه و رجل دعتة امرأة ذات منصب و جمال فقال : إني أخاف الله و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا
تعلم شماله ما تنفق يمينه و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه] : معنى في ظله أي في ظل عرشه و قد جاء هكذا
تفسيرا في الحديث

و روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
و سلم : من أشبع جائعا و كسا عريانا و آوى مسافرا أعاده الله من أهوال يوم القيامة]
و خرج الطبراني سليمان بن أحمد عن يزيد الرقاشي [عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه و سلم : من لقم أخاه لقمة صرف الله عنه مرارة الموقف يوم القيامة] و في التنزيل تحقيقا لهذا الباب و
جامعا له قوله الحق { يوفون بالندر } إلى قوله { فوقاهم الله شر ذلك اليوم } مع قوله { إنا لا نضيع أجر من
أحسن عملا } مع قوله في غير موضع بعد ذكر الأعمال الصالحة { فلا خوف عليهم و لا هم يجزنون }
باب

ذكر أبو نعيم الحافظ قال : [حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا أحمد بن يحيى ابن خالد قال : حدثنا محمد بن
سلام قال : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا مالك عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه
قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة و لا الصوم و لا الحج و لا
العمرة قال : و ما يكفرها يا رسول الله ؟ قال : الهموم في طلب المعيشة] قال أحمد بن يحيى : فقلت : كيف سمعت
هذا من يحيى بن بكير فلم يسمعه أحد غيرك ؟ قال : كنت عند يحيى جالسا فجاءه رجل فذكر ضعفه فقال : قال
ابن بكير : حدثنا مالك فذكره

باب في الشفاعة العامة لنبينا محمد صلى الله عليه و سلم لأهل المحشر

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه و سلم يوما يلحم فرفع إليه الذراع و كانت
تعجبه فنهش منها نمشة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة و هل تدرون بم ذاك يجمع الله الأولين و الآخرين في صعيد
واحد فيسمعهم الداعي و ينفذهم البصر و تدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم و الكرب ما لا يطبقون و لا يحتملون
فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم
فيقول بعض الناس لبعض : أتوا آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبونا أبو البشر خلقك الله بيده و نفخ فيك

من روحه و أمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و إنه ثماني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أن أول الرسل إلى الأرض و سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربنا ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و إنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله خليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و ذكر كذباته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى: أنت رسول الله فضلك الله برسائه و بتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و إني قتلت نفسا لم أوامر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله و كلمت الناس في المهدي و كلمة منه ألقاها إلى مريم و روح منه فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لم يغضب بعده مثله و لم يذكر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه و سلم فيأتون فيقولون: يا محمد أنت رسول الله و خاتم الأنبياء و غفر الله لك ما تقدم و ما تأخر اشفع لنا إلى ربك ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله علي و يلهمني من محامده و حسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد غيري من قبلي ثم قال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه و اشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عيله من الباب الأيمن من أبواب الجنة و هم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب و الذي نفس محمد بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة و هجر أو كما بين مكة و بصري] و في البخاري كما بين مكة و حمير فصل: هذه الشفاعة العامة التي خص بها نبينا محمد صلى الله عليه و سلم من بين سائر الأنبياء هي المراد بقوله عليه السلام: [لكل نبي دعوة مستجابة فعجل كل نبي دعوته و إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي] رواه الأئمة البخاري و مسلم و غيرهما و هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هي ليجعل حسابهم و يراحوا من هول الموقف و هي الخاصة به صلى الله عليه و سلم و قوله: [أقول يا رب أمتي أمتي] اهتمام بأمر أمته و إظهار محبته فيهم و شفقتهم عليه و قوله: فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته و غيرهم و كان طلبه هذه الشفاعة من الناس بإلهام من الله تعالى لهم حتى يظهر في ذلك اليوم مقام نبيه صلى الله عليه و سلم المحمود الذي وعده و لذلك قال كل نبي: لست لها لست لها حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه و سلم فقال: [أنا لها]

و روى مسلم [عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يجمع الله الناس يوم القيامة فيهمون لذلك] و في رواية فيلهمون فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال: فيأتون آدم و ذكر الحديث

و ذكر أبو حامد أن بين إتيانهم من آدم إلى نوح ألف عام و كذا بين كل نبي إلى محمد صلى الله عليه و سلم و ذكر أيضا أن الناس في الموقف على طبقات مختلفة و أنواع متباينة بحسب جرائمهم كمناع الزكاة و الغال و

الغادر على ما يأتي بيانه و آخرون قد عظمت فروجهم و هي تسيل صديدا يتأذى بنتها جيرانهم و آخرون قد صلبوا على جذوع النيران و آخرون قد خرجت ألسنتهم على صلورهم أقبح ما يكون و هؤلاء المذكرون هم الزناة و اللوطية و الكاذبون و آخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسي و هم أكلوا الربا و كل ذي ذنب قد بدا سوء ذنبه قاله في كتاب كشف علوم الآخرة و ذكر في آخر الكتاب أن الرسل يوم القيامة على المنابر و الأنبياء و العلماء على منابر صغار و منبر كل رسول على قدره و العلماء العاملون على كراسي من نور و الشهداء و الصالحون كقراء القرآن و المؤذنون على كبشان من مسك و هذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسي هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم و نوح حتى ينتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و ذكر الفقيه أبو بكر بن بركان في كتاب الإرشاد له : ويلهم رؤوس المحشر ممن يشفع لهم و يريحهم مما هم فيه و هم رؤساء أتباع الرسل فيكون ذلك

باب ما جاء أن هذه الشفاعة هي المقام المحمود

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة و لا فخر و لا فخر و لا فخر و لا فخر و ما من نبي يومئذ آدم و من سواه إلا تحت لوائي و أنا أول من تنشق عنه الأرض و لا فخر قال :

فيفزع الناس فرعات فيأتون آدم فيقولون أنت أيونا فاشفع لنا إلى ربك فيقول : أنا أذنبت ذنبا فأهبطت به إلى الأرض اتوا نوحا فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا و لكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما منها كذبة كذبة إلا ما حل بها عن دين الله و لكن اتوا موسى فيأتون موسى فيقول : إني قتلت نفسا و لكن اتوا عيسى فيقول : إني عبدت من دون الله و لكن اتوا محمدا صلى الله عليه و سلم فيأتوني فأنتقم معهم [قال ابن جدعان قال أنس : فكأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [فأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا ؟ فيقال : محمد فيفتحون لي و يرحبون فيقولون مرحبا فأخر ساجدا لله فيلهمني من الشفاء و الحمد فيقال لي ارفع رأسك و سل تعط و اشفع تشفع و قل يسمع لقولك و هو المقام المحمود الذي قال الله فيه { عسى أن يعينك ربك مقاما محمودا }] قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة فأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها قال الترمذي حديث حسن

و خرجه أبو داود الطيالسي بمعناه [عن ابن عباس فقال : حدثنا حماد سلمة قال : حدثنا علي بن زيد عن أبي نصره قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فحمد الله و أثنى عليه ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من نبي إلا و له دعوة كلهم قد تجزها في الدنيا و إني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ألا و إني سيد ولد آدم يوم القيامة و لا فخر و أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة و لا فخر و يدي لواء الحمد تحته آدم صلى الله عليه و سلم و من دونه و لا فخر و يشتد كرب ذلك اليوم على الناس فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فيشفع لنا إلى ربنا عز و جل حتى يقضي بيننا [الحديث و فيه : [فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضي بيننا فيقول إني لست هنا كم إني اتخذت و أمي إلهين من دون الله و لكن رأيتم لو أن متاعا في وعاء قد ختم عليه أكان يوصل إلى ما في الوعاء حتى يفض الخاتم ؟ فيقولون : لا فيقول : إن محمدا صلى الله عليه و سلم قد خصه اليوم و قد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيأتي الناس فيقولون اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضي بيننا فأقول أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء و يرضى فإذا أراد الله أن يقضي بين خلقه

نادى مناد أين محمد صلى الله عليه وسلم وأمتي؟ فأقوم وتتبعني أمتي غرا محجلين من أثر الطهور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب ويفرج لنا في الأمم عن طريقنا ويقولون كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها [و ذكر الحديث

و في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس يصبرون يوم القيامة جنباً كل أمة تتبع نبيها تقول يا فلان اشفع يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود و روى الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله { عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً } سئل عنها قال: هي الشفاعة] قال: هذا حديث صحيح

فصل: قوله: فيفزع الناس ثلاث فرعات إنما ذلك والله أعلم حين يوتى بالنار تجر بأزمته و ذلك قبل العرض والحساب على الملك الديان فإذا نظرت إلى الخلائق فارت و تارت و شهقت إلى الخلائق و زفرت نحوهم و توثبت عليهم غضباً لغضب ربهم على ما يأتي بيانه في كتاب النار إن شاء الله تعالى فتساقط الخلائق حينئذ على ركبهم جثاة حولها قد أسبلوا الدموع من أعينهم و نادى الظالمون بالويل و الشبور ثم تزفر الثانية فيزداد الرعب و الخوف في القلوب ثم تزفر الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم و يشخصون بأبصارهم و هم ينظرون من طرف خفي خوفاً أن تبلغهم أو يأخذهم حريقها أجازنا الله منها

فصل: و اختلف الناس في المقام المحمود على خمسة أقوال:

الأول: أنه الشفاعة للناس يوم القيامة كما تقدم قاله حذيفة بن اليمان و ابن عمر رضي الله عنهم الثاني: إنه أعطاه عليه السلام لواء الحمد يوم القيامة قلت: و هذا القول لا تنافي بينه و بين الأول فإنه يكون بيده لواء الحمد و يشفع

و روى الترمذي [عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا و أنا خطيبهم إذا وفلوا و أنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد بيدي فأنا أكرم ولد آدم على ربي و لا فخر] و في رواية [أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا و أنا قائدهم إذا وفلوا و أنا خطيبهم إذا أنصتوا و أنا شفيعهم إذا أيسوا و أنا مبشرهم إذا أبلسوا لواء الكرم بيدي و أنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون]

الثالث: ما حكاه الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت: المقام المحمود هو أن يجلس الله محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه و روت في ذلك حديثنا

قلت: و هذا قول مرغوب عنه و إن صح الحديث فيتأول على أنه يجلس مع أنبيائه و ملائكته قال ابن عبد البر في كتاب التمهيد: و مجاهد و إن كان أحد أئمة بتأويل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا و الثاني في تأويل قوله تعالى: { ووجه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة } قال: تنظر الثواب و ليس من النظر

الرابع: إخراج طائفة من النار روى مسلم عن يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ثم نخرج على الناس فممرنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدث الناس أو القوم إلى سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: و إذا هو قد ذكر الجهنميين قال فقلت له يا صاحب رسول الله: ما هذا الذي تحدثون و الله تعالى يقول { ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا } { كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها } فما هذا الذي تقولون فقال: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم فقال: فهل سمعت بمقام محمد صلى الله عليه وسلم يعني الذي يبعثه الله عز و جل؟ قلت: نعم قال: فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم

الذي يخرج الله به من يخرج و ذكر الحديث

و في البخاري [من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم و فيه : و قد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم و أدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن أي و جب عليه الخلود قال : ثم تلا هذه الآية { عسى أن يعثلك ربك مقاما محمودا } قال هو المقام المحمود الذي وعده نيكم صلى الله عليه و سلم

الخامس : ما روي أن مقامه المحمود شفاعته رابع أربعة و سيأتي الأوزاعي

فصل : إذا أثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدفعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه و سلم فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف مؤمنهم و كافرهم ليرحوا من هول موقفهم فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعته و كم هي فقال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه و سلم ثلاث شفاعات العامة و شفاعته في السبق إلى الجنة و شفاعته في أهل الكبائر و قال ابن عطية في تفسيره : و المشهور أنهما شفاعتان فقط العامة و شفاعته في إخراج المذنبين من النار و هذه الشفاعة الثانية لا يتدفعها الأنبياء بل يشفعون و يشفع العلماء

قال القاضي عياض شفاعات نبينا صلى الله عليه و سلم يوم القيامة خمس شفاعات :

الأولى : العامة

الثانية : إدخال قوم الجنة بغير حساب

الثالثة : في قوم من أمته استوجوا النار بذنوبهم فيشفعه فيهم نبينا صلى الله عليه و سلم و من شاء أن يشفع و يدخلون الجنة و هذه الشفاعة هي التي أنكركم المبتدعة الخوارج و المعتزلة فمنعتها على أصولهم الفاسدة و هي

الاستحقاق العقلي المبني على التحسين و التقيح

الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فيخرج بشفاعة نبينا و غيره من الأنبياء و الملائكة و إخوانهم من المؤمنين قلت : و هذه المشافعة أنكركم المعتزلة أيضا و إذا منعوها فيمن استوجب النار بذنبه و إن لم يدخلها فأحرى أن يمنعوها فيمن دخلها

الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها و ترفيعها قال القاضي عياض : و هذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة و لا تنكر شفاعته الحشر الأول

قلت : و شفاعته سادسة لعنه أبي طالب في التخفيف عنه كما رواه مسلم [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه] فإن قيل : فقد قال الله تعالى : { فما تنفعهم شفاعته الشافعين } قيل له : لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها و يدخلون الجنة

فصل : و اختلف العلماء هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بعد النبوة صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها و يشفقون على أنفسهم منها أم لا بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر و من الصغائر التي تزري بفاعلها و تحط منزلته و تسقط مروءته إجماعا ؟ عند القاضي أبي بكر و عن الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة و عند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم فقال الطبري و غيره من الفقهاء و المتكلمين و الحديثين : تقع الصغائر منهم خلافا للرافضة حيث قالوا إنهم معصومون من جميع ذلك كله و احتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل و ثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث و هذا ظاهر لا خفاء به

و قال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك و أبي حنيفة و الشافعي : إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم

من الكباير لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم و آثارهم و سيرهم مطلقا من غير التزام قرينة فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء لهم إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة و الإباحة و الحظر أو المعية و لا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني و اختلفوا في الصغائر و الذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم و مال بعضهم إلى تجوزها و لا أصل لهذه المقالة

و قال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : و الذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم و نسبها إليهم و عاتبهم عليها و أخبروا بها عن نفوسهم و اتصلوا منها و استغفروا منها و تابوا و كل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويل جملتها و إن قبل ذلك آحادها و كل ذلك مما لا يزري بمناصبهم و إنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة النور و على جهة الخطأ و النسيان أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات و في حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم و علو أقدارهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما يتاب عليه السائس فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع عملهم بالأمن و الأمان والسلامة و هذا هو الحق و لقد أحسن الجنيد رضي الله عنه حيث قال : حسنات الأرباب سيئات المقربين فهم صلوات صلى الله عليه و سلم عليهم و سلامه و إن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يحل ذلك بمناصبهم و لا قدح في رتبهم بل تلافاهم و اجتباهم و هداهم و مدحهم و زكاهم و اصطفاهم صلوات الله عليهم و سلامه

باب

ذكر ابن المبارك قال : [أخبرنا رشدين بن سعد قال : أخبرني عبد الرحمن بن زياد عن دحيم الحجري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و ذكر حديث الشفاعة و فيه فيقول عيسى عليه السلام أدلكم على النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور مجلسي أطيّب ريح شمه أحد حتى آتي ربي فيشفعني و يجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافر قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك قد أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمه أحد ثم يعظم لجهنم و يقول عند ذلك } و قال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم { الآية

باب من أسعد الناس بشفاعة النبي صلى الله عليه و سلم

البخاري [عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه] و روى [زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة قيل يا رسول الله : ما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله] خرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول

باب ما جاء في تطاير الصحف عند العرض و الحساب

باب ما جاء في تطاير الصحف عند العرض و الحساب و إعطاء الكتب باليمين و الشمال و من أول من يأخذ كتابه بيمينه من هذه الأمة و في كيفية و قوفهم للحساب و ما يقبل منهم من الأعمال و في دعائهم بأسماء آباهم و

بيان قوله { يوم ندعوا كل أناس بإمامهم } و في تعظيم خلق الإنسان الذي يدخل الناس به النار أو الجنان و ذكر القاضي العدل و من نوقش عذب

قال الترمذي : و روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : [حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و تريتوا للعرض الأكبر و إنما يخف الحساب على من حاسب نفسه في الدنيا] و قال عطاء الخراساني : يحاسب العبد يوم القيامة عند معرفة ليكون أشد عليه ذكره أبو نعيم

البخاري [عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من حوسب يوم القيامة عذب قالت فقلت يا رسول الله : أليس قد قال الله { فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا } ؟ فقال : ليس ذلك الحساب إنما ذلك عرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب] أخرجه مسلم و الترمذي و قال :

حديث حسن صحيح

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا عمر بن العلاء الشكري قال : حدثني صالح بن طبرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول و ذكر عندها القضاة فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط]

الترمذي [عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجداول و معاذير فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيمينه و أخذ بشماله] قال أبو عيسى و لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه و قد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه و سلم قلت : قوله و قد رواه بعضهم هو و كيع بن الجراح ذكره ابن ماجه قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا و كيع عن علي بن علي فذكره قال الترمذي :

و تكلم يحيى بن سعيد القطان في علي بن علي و أخرجه أبو بكر البزار أيضا [عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجداول و أما الثالثة فتطير الكتب يمينا و شمالا]

و ذكره الترمذي الحكيم في الأصل السادس و الثمانين قال : فروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم : [أن الناس يعرضون ثلاث عرضات يوم القيامة فأما عرضتان فجداول و معاذي و أما العرضة الثالثة فتطير الصحف فاجداول لأهل الأهواء يجادلون لأنهم لا يعرفون بهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا و قامت حجبتهم و المعاذير لله تعالى يعتذر الكريم إلى آدم و إلى أنبيائه و يقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار فإنه يجب أن يكون عذره عند أنبيائه و أوليائه ظاهرا حتى لا تأخذهم الحيرة و لذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا أحد أحب إليه المدح من الله و لا أحد أحب إليه العذر من الله و العرضة الثالثة للمؤمنين و هو العرض الأكبر يخلو بهم فيعاتبهم في تلك الخلوات من يريد أن يعاتبهم حتى ينوق و بالحياء و يرفض عرقا بين يديه و يفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة الحياء ثم يغفر لهم و يرضى عنهم]

و ذكر أبو جعفر العقيلي [من حديث نعيم بن سالم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم الموقف بعث الله ريحا فتطيرها بالإيمان و الشمائل أول خط فيها :

{ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } [

أبو داود] عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيحيف ميزانه أم يتقل و عند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله من وراء ظهره و عند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز [

و ذكر أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب] عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه و له شعاع كشعاع الشمس فقيل له : أين يكون أبو بكر يا رسول الله ؟ قال : هيهات زفته الملائكة إلى الجنان [

و خرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب الوحيد له [عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الله تبارك و تعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين و أحكم الحاكمين و أسرع الحاسيين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم و يسروا جوابكم فإنكم مسئولون محاسبون يا ملائكتي أقيموا عبادي طفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب]

و أسند سمرة بن عطية قال : يؤتى بالرجل يوم القيامة للحساب و في صحيفته أمثال الجبال من الحسنات فيقول رب العزة تبارك و تعالى : صليت يوم كذا و كذا ليقال : فلان صلى أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص صمت يوم كذا و كذا ليقال : صام فلان أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص تصدقت يوم كذا و كذا ليقال : تصدق فلان أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص فما زال يحى شيء بعد شيء حتى تبقى صحيفته ما فيها شيء فيقول ملكاه : أغير الله كنت تعمل ؟

قلت : و مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع و قد رفع معناه الدار قطني في سننه [من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يجاء يوم القيامة بصحف محتومة فتصب بين يدي الله عز و جل فيقول الله تعالى : ألقوا هذا و اقبلوا هذا فتقول الملائكة : و عزتك ما رأينا إلا خيرا فيقول الله عز و جل — و هو أعلم — : إن هذا كان لغيري و لا أقبل من العمل إلا ما ابغى به وجهي [خرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

الترمذي] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى : { يوم ندعوا كل أناس بإمامهم } قال : يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه و يمد له في جسمه ستون ذراعا و يبيض و وجهه و يجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتألأ فبنطلق إلى أصحابه فيرونه من بعد فيقولون : اللهم آتنا بهذا و بارك لنا في هذا حتى يأتيهم و يقول : أبشروا لكل مسلم مثل هذا قال : و أما الكافر فيسود و وجهه و يمد في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم و يلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا قال : فيأتيهم فيقولون : اللهم اخزه فيقول : أبعدهم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا [قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب

و روي أن عيسى عليه السلام مر بقبر فوكزه برجله و قال : يا صاحب هذا القبر قم ياذن الله فقام إليه رجل و قال : ياروح الله ما الذي أردت فإني لقائم في الحساب منذ سبعين سنة حتى أتني الصيحة الساعة أن أجب روح الله فقال عيسى : يا هذا لقد كنت كثير الذنوب و الخطايا ما كان عملك ؟ فقال : و الله يا روح الله ما كنت إلا حطابا أحمل الحطب على رأسي آكل حلالا و أتصدق فقال عيسى : يا سبحان الله حطابا يحمل الحطب على رأسه

يأكل حلالا و يتصدق و هو قائم في الحساب منذ سبعين سنة ثم قال له : يا روح الله كان من توبيخ ربي لي أن قال : اكتراك عبدي لتحمل له حزمة فأخذت منها عودا فخللت به و ألقيته في غير مكانه امتهانا منك بي و أنت تعلم أني أنا الله المطلع عليك و أراك

فصل : قال الله تعالى { و كل إنسان أئزمنه طائره في عنقه } قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق و قال إبراهيم بن أدهم كل آدمي في عنقه قلادة يكتب فيها نسخة عمله فإذا مات طويت و إذا بعث نشرت و قيل له { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } و قال ابن عباس رضي الله عنه : طائر عمله { و نخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أميا كان أو غير أمي

و قال أبو السوار العلوي : و قرأ هذه الآية { و كل إنسان أئزمنه طائره في عنقه } قال : هما نشرتان و طية أما ما حبيت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت فإذا مات طويت حتى إذا بعثت نشرت { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتونها بعد البعث حوسبوا بما قال الله تعالى { فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا } فدل على أن الخاسبة تكون عند إتيان الكتب لأن الناس إذا بعثوا لا يكون ذاكرين لأعمالهم قال الله تعالى { يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله و نسوه }

و قد تقدم القول في محاسبة الله تعالى خلقه في يوم الحساب من أسماء القيامة فإذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف و قاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة و جاء وقت الحساب يريد الله أن يحاسبهم فيه أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء و منهم من يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره و هم الأشقياء فعند ذلك يقرأ كل كتابه و أنشوا :

(مثل و قوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشا قلق الأحشاء حيرانا)

(و النار تلهب من غيظ و من حنق ... على العصاة و رب العرش غضبانا)

(اقرأ كتابك ياعبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا)

(لما قرأت و لم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا)

(نادى الجليل : خذوه يا ملائكتي ... و امضوا بعبد عصي للنار عطشاننا)

(المشركون غدا في النار يلتهموا ... و المؤمنون بدار الخلد سكانا)

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب و نصبت الموازين و قد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان ابن فلان هلم إلى العرش على الله تعالى و قد وكلت الملائكة بأحذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك و اسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب فارتعدت فرائصك و اضطربت جوارحك و تغير لونك و طار قلبك تحظى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه و الوقوف بين يديه و قد رفع الخلائق إليك أبصارهم و أنت في أيديهم و قد طار قلبك و اشتد رعبك لعلمك أين يراد بك

فتوهم نفسك و أنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها و لا مخبأة أسررتها و أنت تقرأ ما قيها بلسان كليل و قلب منكسر و الأهوال محذقة بك من بين يديك و من خلفك فكمن بلية قد كنت نسيتهما ذكرتها و كم من شينة قد كنت أخفيتهما قد أظهرها و أبداها و كم من عمل ظننت أنه سلم لك و خلص فرده عليك في ذلك الموقف و أحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما فيا حسرة قلبك و يا أسفك على ما فرطت فيه

من طاعة ربك { فأما من أوتي كتابه بيمينه } فعلم أنه من أهل الجنة { فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه } و ذلك حين يأذن الله فيقرأ كتابه

فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعوا إليه و يأمر به و يكثر تبعه عليه دعى باسمه و اسم أبيه فيتقدم حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه السيئات و في ظاهره الحسنات فيبدأ بالسيئات فيقرأها فيشفق و يصفر وجهه و يتغير لونه فإذا بلغ آخر الكتاب و جد فيه هذه سيئاتك و قد غفرت لك فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً حتى إذا بلغ آخر الكتاب و جد فيه هذه حسناتك قد ضوعفت لك فيبيض وجهه و يؤتى بتاج فيوضع على رأسه و يكسى حلتين و يحلى كل مفصل فيه و بطول ستين ذراعاً و هي قامة آدم و يقال له : انطلق إلى أصحابك فبشرهم و أخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فإذا أدير قال { هاؤم اقرؤوا كتابيه * } إني ظننت أني ملاق حسابيه { قال الله تعالى { فهو في عيشة راضية } أي مرضية قد رضى بها { في جنة عالية } في السماء { قطوفها } ثمارها و عناقيدها { دانية } أدنيت منهم فيقول لأصحابه هل تعرفوني ؟ فيقولون قد غمرتك كرامة الله من أنت فيقول أنا فلان ابن فلان ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا { كلوا و اشربوا حينئذ بما أسلفتم في الأيام الخالية } أي قدمتم في أيام الدنيا

و إذا كان الرجل رأساً في الشر يدعوا إليه و يأمره به فيكثر تبعه عليه و نودي باسمه و اسم أبيه فيتقدم إلى حسابيه فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات و في ظاهره السيئات فيبدأ بالحسنات فيقرأها و يظن أنه سينجو فإذا بلغ آخر الكتاب و جد فيه : هذه حسناتك و قد ردت عليك فيسود وجهه و يعلوه الحزن و يقنط من الخير ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً و لا يزداد و وجهه إلا سوداً فإذا بلغ آخر الكتاب و جد فيه : هذه سيئاتك و قد ضوعفت عليك أي يضاعف عليه العذاب ليس المعنى أنه يزداد عليه ما لم يعمل قال : فينظر إلى النار و تترق عيناه و يسود وجهه و يكسى سراويل القطران و يقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فينطلق و هو يقول : { يا ليتني لم أوت كتابيه * } و لم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية { يعني الموت } هلك عني سلطانيه { تفسير ابن عباس رضي الله عنهما هلكت عني حجتي قال تعالى { خذوه فغلوه * } ثم الجحيم صلوه { أي اجعلوه يصلى الجحيم } ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه { و الله أعلم بأي ذراع قال الحسن و قال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك و سيأتي في كتاب النار لهذه السلسلة مزيد بيان فاسلكوه فيها أي تدخل من فيه حتى تخرج من دبره قاله الكلبي و قيل : بالعكس و قيل : يدخل عنقه فيها ثم يجربها و لو أن حلقة منها وضعت على جبل لأذابته فينادي أصحابه فيقول هل تعرفوني فيقولون لا ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت فيقول أنا فلان ابن فلان لكل إنسان منكم مثل هذا و أما من أوتي كتابه وراء ظهره فتخلع كتفه اليسرى فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه و قال مجاهد : يحول مجاهد و وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه كذلك فتوهم نفسك إن كنت من السعداء و قد خرجت على الخلاق مسرور الوجه قد حل لك الكمال و الحسن و الجمال كتابك في يمينك آخذ بضبعك ملك ينادي على رؤوس الخلاق هذا فلان ابن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً

أما إن كنت من أهل الشقاوة فيسود وجهك و تتخطى الخلاق كتابك في شمالك أو من وراء ظهره تنادي بالويل و الثبور و ملك آخذ بضبعك ينادي على رؤوس الخلاق ألا إن فلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً قلت : قوله ألا إن فلان ابن فلان دليل على أن الإنسان يدعى في الآخرة باسمه و اسم أبيه و قد جاء صريحاً من حديث [أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم و

أسماء آباتكم فأحسنوا أسماءكم] خرج أبو نعيم الحافظ قال حدثنا أبو عمر بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال : حدثنا زكريا بن يحيى قال : حدثنا هشيم عن داود بن عمر عن عبد الله بن أبي زكريا عن أبي الدرداء ذكره

باب في قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

الترمذي عن أبي غالب قال : رأى أبو إمامة رؤوساً منصوبة على برج دمشق فقال أبو إمامة : [كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه] ثم قرأ قوله تعالى { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } إلى آخر الآية فقلت لأبي إمامة الباهلي : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [لو لم أسمع إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبعا ما حدثكموه] قال : هذا حديث حسن

وخرج أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب [عن مالك بن سليم الهروي أخي غسان عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } قال : يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة] وقال مالك بن أنس رضي الله عنه هي في أهل الأهواء وقال الحسن هي في المنافقين وقال قتادة في المرتدين وقال أبي بن كعب هي في الكفار وهو اختيار الطبري اللهم ببيض وجوهنا يوم تبيض وجوه أو لياتك ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه أعدائك بحق رسلك وأبياتك وأصفياتك بفضلك ياذا الفضل العظيم وكرمك يا كريم

باب في قوله تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه الآية

ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم وأبو الحكم — شك — نعيم عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال : قال عمر لكعب : ويحك يا كعب حدثنا من حديث الآخرة قال نعيم : يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله قال ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتشر حول العرش وذلك قوله تعالى { ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها } قال الأسدي : الصغيرة ما دون الشرك والكبيرة الشرك [إلا أحصاها] قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فحساناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته فذكر معنى ما تقدم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلتنا ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر قال ابن عباس رضي الله عنه : الصغيرة التيسم والكبيرة الضحك يعني ما كان من ذلك في معصية الله وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم [ضرب بصغائر الذنوب مثلاً فقال : إنما محقرات الذنوب كمثلكم قوم نزلوا بفلاة من الأرض وحضر صنيع القوم فانطلق كل رجل منهم يحتطب فجعل الرجل يجيء بالعود والآخر بالعودين حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فمشوا خبزهم وأن الذنوب الصغيرة يجتمع على صاحبه فيهلكه إلا أن يغفر الله واتفقوا محقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا]

أبناً الشيخان [أبو محمد عبد الوهاب القرشي والإمام أبو الحسن الشافعي قالا : أخبرنا السلفي قال : أخبرنا الثقفى أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزياتي إملاءً بنيسابور قال : أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي قال : أخبرنا محمد بن حماد الأبيوردي قال : أخبرنا أنس بن عياض الليثي عن أبي حازم لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل محقرات الذنوب كمثلكم قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تملكه] غريب من حديث أبي حازم سلمة بن دينار تفرد به عنه أبو ضمرة أنس بن عياض الليثي ولقد

أحسن القائل :

(خل الذنوب صغيرها و كبيرها ها ذاك التقى

... واصنع كماش فوق أرض الشوك يجذر ما يرى)

(لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى)

و قال جماعة من العلماء : إن الذنوب كلها كبائر قال بعضهم : لا تنظر إلى صغر الذنب و لكن انظر من عصيت فهي من حيث المخالفة كبائر و الصحيح أن فيها صغائر و كبائر ليس هذا موضع الكلام في ذلك و قد بيناه في سورة النساء في كتاب جامع أحكام القرآن و الله أعلم

باب ما يسأل عنه العبد و كيفية السؤال

قال الله تعالى : { إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا }

و قال : { ثم إلينا مرجعكم فنبئكم بما كنتم تعملون } و قال { قل بلى و ربي لتبعثن ثم لتبؤن بما عملتم } أي ما عملتموه و قال { فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * و من يعمل مثقال ذرة شرا يره } أي يسأل عن ذلك و يجازي عليه و الآيات في هذا المعنى كثيرة و قال { ثم لتسألن يومئذ عن النعيم }

الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية { لتسألن يومئذ عن النعيم } قال الناس يا رسول الله : عن أي نعيم نسأل فإنا هما الأسودان و العدو حاضر و سيوفنا على عواتقنا ؟ قال : إن ذلك سيكون و عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العبد أن يقال له ألم أنصح لك جسمك و نرويك من الماء البارد] قال الترمذي : حديث غريب

و خرج أبو نعيم الحافظ [من حديث الأعمش عن أبي وائل شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من عبد يخطو خطوة إلا سئل عنها ما أراد بها]

مسلم [عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تزول قلما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ و عن جسده فيما أبلاه ؟ و عن عمله ما عمل فيه ؟ و عن ماله من أين اكتسبه ؟ و فيما أنفق ؟] أخرجه الترمذي و قال فيه : حديث حسن صحيح رواه عن ابن عمر عن ابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي و قال فيه : حديث غريب لا أعرفه إلا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم إلا من حديث الحسين بن قيس و الحسين يضعف في الحديث

و في الباب [عن أبي برزة و أبي سعيد قلت : و معاذ بن جبل أخبرنا الشيخ الراوية أبو محمد عبد الوهاب بنعمر الإسكندرية قراءة عليه قال : قرأ على البيهقي و أنا أسمع قال : حدثنا الحاجب أبو الحسن علي بن محمد بن علي العلاف ببغداد سنة أربع و سبعين و أربعمئة قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران المعدل قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري بمكة في شوال سنة ثلاث و خمسين و ثلاثمئة قال : أخبرنا أبو سعيد القفضل بن محمد الجندي إملاء في المسجد الحرام سنة تسع و تسعين و مائتين قال : أخبرنا صامت بن معاذ الجندي أخبرنا عبد الحميد عن سفيان بن سعيد الثوري عن صفوان بن سليم عن عدي بن عدي عن الصالح بن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تزول قلما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ؟ و عن شبابه فيما أبلاه ؟ و عن ماله من أين اكتسبه ؟ و فيما أنفق ؟ و عن عمله ماذا عمل فيه ؟]

و خرج الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب [أخبرنا أحمد بن خالد الحلبي أخبرنا يوسف بن يونس الأطفلس قال : أخبرنا سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة دعا الله بعباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله]

مسلم [عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر رضي الله عنه كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : يدين المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف قال فيقول : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم قال : فيعطى صحيفة حسناته و أما الكفار و المنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله] أخرجه البخاري و قال في آخره : { هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين }

[و روي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة خلا الله عز و جل بعبده المؤمن يوقفه على ذنوبه ذنبا ذنبا ثم يغفر الله له لا يطلع على ذلك ملك مقرب و لا نبي مرسل و ستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها ثم يقول لسيئاته كوني حسنة] قال المؤلف : خرج مسلم بمعناه و سيأتي آنفا إن شاء الله تعالى

و خرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلي في كتاب الديباج له حدثنا هارون بن عبد الله قال : حدثنا سيار قال : قال جعفر قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يدين الله العبد منه يوم القيامة و يضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها و يدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول له : اقرأ يا ابن آدم كتابك قال : فيمير بالحسنة فيبيض لها وجهه و يمر بالسيئة فيسود لها وجهه قال : فيقول الله تعالى له : أتعرف يا عبدي ؟ قال : فيقول نعم يا رب أعرف قال : فيقول : إني أعرف بما منك قد غفرتك لك قال : فلا تزال حسنة تقبل فيسجد و سيئة تغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادي الخلائق بعضها بعضا طوبى لهذا العبد الذي لم يعص قط و لا يدرون ما قد لقي فيما بينه و بين الله تعالى مما قد وقفه عليه

قلت : نسخة من هنا إلى الفصل قوله لا يزول أخبرنا الشيخ الراوية القرشي عبد الوهاب قراءة عليه بنشر الإسكندرية حماد الله قال : قرئ على الحافظ السلفي و أنا أسمع قال : [حدثنا الحاجب أبو الحسن بن العلاء و قال : أخبرنا أبو القاسم بن بشران أخبرنا الأجرى حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى السونيطي حدثنا أحمد بن أبي رجاء المصيصي حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا الأعمش عن المعمر بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه و تخبأ كبارها فيقال له : عملت يوم كذا و كذا ثلاث مرات قال : و هو يقر ليس ينكر قال : و هو مشفق من الكبائر أن تجيء قال : فإذا أراد الله به خيرا قال : أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول حين طمع : يا رب إن لي ذنوبا ما رأيتها ها هنا قال : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ثم تلا { فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات } [خرج مسلم في صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير قال : حدثنا الأعمش فذكره فصل : قوله [لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل] : عام لأنه نكرة في سياق النفي لكنه مخصوص بقوله عليه السلام [يدخل الجنة من أمي سبعون ألفا بغير حساب] على ما يأتي و بقوله تعالى لمحمد عليه السلام : أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن و قد تقدم الحديث و بقوله تعالى : { يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام }

قوله عليه السلام : [و عن عمله ما عمل فيه]

قلت : هذا مقام مخوف لأنه لم يقل و عن عمله ما قال فيه و إنما قال ما عمل فيه فليُنظر العبد ما عمل فيما علمه هل صدق الله في ذلك و أخلصه حتى يدخل فيمن أثنى الله عليه بقوله : { أولئك الذين صدقوا } أو خالف علمه بفعله فيدخل في قوله تعالى : { فخلف من بعدهم خلف و رثوا الكتاب } الآية و قوله تعالى : { أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب } و قوله : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون }

و الأخبار في هذا المعنى كثيرة و سيأتي ذكرها في أبواب النار إن شاء الله تعالى قوله : [حتى يضع عليه كنفه] أي ستره و لطفه و إكرامه فيخاطب خطاب اللطافة و يناجيه مناجاة المصافاة و المحادثة فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف فيقول الله تعالى : ممثنا عليه و مظهرها فضله لديه : فإني قد سترتها عليك في الدنيا أي لم أفضحك بها فيها و أنا أغفرها لك اليوم ثم قيل هذه الذنوب تاب منها كما ذكره أبو نعيم عن الأوزاعي عن هلال بن سعد قال : إن الله يغفر الذنوب و لكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة و إن تاب منها قال المؤلف : و لا يعارض هذا ما في التنزيل و الحديث من أن السيئات تبدل بالتوبة حسنات فلعل ذلك يكون بعد ما يوقفه عليها و الله أعلم

و قيل في صغائر اقترفها و قيل كبائر بينه و بين الله تعالى اجترحها و أما ما كان بينه و بين العباد فلا بد فيها من القصاص بالحسنات و السيئات على ما يأتي و قيل : ما خطر بقلبه ما لم يكن في وسعه و يدخل تحت كسبه و يشبث في نفسه و إن لم يعلمه و هذا اختيار الطبري و النحاس و غير واحد من العلماء جعلوا الحديث مفسرا لقوله تعالى : { و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } فتكون الآية على هذا محكمة غير منسوخة و الله أعلم و قد بينا في كتاب جامع أحكام القرآن و المبين لما تضمن من السنة و آي القرآن و الحمد لله و روي عن ابن مسعود أنه قال : ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة و هذا مأخوذ من حديث النجوى و من قوله عليه السلام : [يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة] خرجه مسلم و في صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : [من ستر مسلما ستره الله في الدنيا و الآخرة] و روى [من ستر على مسلم عورته ستر الله عورته يوم القيامة] قال أبو حامد : فهذا إنما ير جوه عبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم و احتتمل في حق نفسه تقصيرهم و لم يحرك لسانه بذكر مساوي الناس و لم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة

فصل : و في قوله : [سترتها عليك في الدنيا و أنا أغفرها لك اليوم] نص منه تعالى على صحة قول أهل السنة في ترك إنفاذ الوعيد على العصاة من المؤمنين و العرب تفتخر بخلف الوعيد حتى قال قائلهم :

(و لا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... و لا أختشى من روعة المتهدد)

(و إني متى أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي و منجز موعدتي)

قال ابن العربي : إنه كذلك عند العرب و أما ملك الملوك القدوس الصادق فلا يقع أبدا خبره إلا على وفق مخبره كان ثوبا أو عقابا فالذي قال الخققون في ذلك قول بديع و هو أن الآيات وقعت مطلقة في الوعد و الوعيد عامة فخصصتها الشريعة و بينها الباري تعالى في كتابه في آيات أخر كقوله : { إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء } و قوله تعالى : { و إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم } الآية و كقوله تعالى : { حم * }

تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو { و بالشفاعة التي أكرم الله بها صلى الله عليه وسلم و من شاء من الخلق من بعده

باب ما جاء أن الله تعالى يكلم العبد ليس بينه و بينه ترجمان

مسلم [عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه و بينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم و ينظر أيسر منه فلا يرى إلا ما قدم و ينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار و لو بشق تمره] زاد ابن حجر قال الأعمش : و حدثني عمرو بن مرة عن خيثمة عن عدي مثله و زاد فيه [و لو بكلمة طيبة] أخرجه البخاري و الترمذي و قال : حديث حسن صحيح

ابن المبارك قال : [أخبرنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن و قتادة عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجاء بآدم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول له : أعطيتك و حولتك و أنعمت عليك فماذا صنعت ؟ فيقول : يا رب جمعته و ثمرته فتركته أكثر ما كان فارجعني آتيك به فيقول الله تعالى : أربي ما قدمت فيقول : فإذا عبد لم يقدم خيرا فيمضي به إلى النار] أخرجه ابن العربي في سراج المريدين و زاد فيه بعد قوله كأنه بدج و قال فيه حديث صحيح من مراسيل الحسن و قال الهروي كأنه بدوج من الذل

قال أبو عبيد : هو ولد الضأن و جمعه بدجان و قال الجوهرى : البلوج من الضأن بمنزلة العقود من أولاد المعز و أنشلوا :

(قد هلكت جارتنا من الهمج ... و إن تجمع تآكل عقودا أو بدج)

قلت : و قوله : ما منكم من أحد مخصوص بما ذكرناه في الباب قبل أي ما منكم ممن لا يدخل الجنة بغير حساب من أمتي إلا وسيكلمه الله و الله أعلم فتكفر في عظيم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شقاها إذ يقول : يا عدي أما استحيت مني فبارزني بالقبح و استحيت من خلقي فأظهرت لهم الجميل أكنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكترث به و استعظمت نظر غيري ألم أنعم عليك فماذا غرك بي ؟

و عن ابن مسعود قال : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي ؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبتم المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك و أنت تنظر بهما إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيباً على أذنيك ؟ و هكذا عن سائر الأعضاء فكيف ترى حيائك و خجلتك و هو يعد عليك إنعامه و معاصيك و أياديته و مساويك ؟ فإن أنكرت شهدت عليك جورحك فنعوذ بالله من الافتضاح على ملاء الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله وعد المؤمن أن يستر عليه و لا يطلع عليه غيره كما ذكرنا و ذلك بفضل منه

و هل يكلم الكفار عند الخاسية لهم ؟ فيه خلاف تقدم بيانه في أسماء القيامة و يأتي أيضا في باب ما جاء في شهادة

أركان الكافر و المناقق عليهما و لقاتهما بالله عز و جل مستوفي إن شاء الله تعالى

فصل : فإن قيل : أخبر الله تعالى عن الناس أنهم مجزيون محاسيون و أخبر أنه يملأ جهنم من الجنة و الناس أجمعين و لم يجبر عن ثواب الجن و لا عن حسابهم بشيء فما القول في ذلك عندكم و هل يكلمهم الله ؟ فالجواب أن الله تعالى أخبر أن الإنس و الجن يسألون فقال خيرا عما يقال لهم { يا معشر الجن و الإنس ألم يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي و ينذروكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا { الآية و هذا سؤال فإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله و لما كانت الجن ممن يخاطب و يعقل قال منكم و إن كانت الرسل من الإنس و غلب الإنس في الخطاب

كما يغلب المذكر على المؤنث و أيضا لما كان الحساب عليهم دون الخلق قال منكم فصيّر الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثقلين قد ضمتها عرضة القيامة فلما صاروا في تلك العرضة في حساب واحد في شأن الثواب و العقاب خوطوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة لأن بدء خلقهم للعبودية كما قال تعالى : { و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون } و الثواب و العقاب على العبودية إلا أن الجن أصلهم من مارج من نار و أصلنا من تراب و خلقهم غير خلقنا و منهم مؤمن و كافر و عدونا إبليس عدو لهم يعادي مؤمنهم و يوالي كافرهم و فيهم أهواء شيعية و قدرية و مرجئة و هو معنى قوله : { كنا طرائق قديدا }

و قيل : إن الله تعالى لما قال : { و الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون } دخل في الجملة الجن و الإنس فثبت للجن من وعد الجنة لعموم الآية ما ثبت للإنس

فإن قيل : فما الحكمة في ذكر الجنة مع الإنس في الوعيد و ترك إفراده الإنس عنهم في الوعد ؟ فالجواب : أنهم قد ذكروا أيضا في الوعد لأنه سبحانه يقول : { أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس إنهم كانوا خاسرين } ثم قال : { و لكل درجات مما عملوا } و إنما أراد لكل من الإنس و الجن فقد ذكروا في الوعد مع الإنس

فإن قيل : فقد ذكر يخاطب الجن و الإنس في النار لأن الله تعالى قال : { و قال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق } إلى قوله { و لوموا أنفسكم } { قال قرينه ربنا ما أطغيته و لكن كان في ضلال بعيد } و لم يأت عن تفاوض الفريقين في الجنة خبر قيل : إنما ذكر من تفاوضهم في النار أن الواحد من الإنس يقول للشيطان الذي كان قرينه في الدنيا إنه أطعاني و أضلني فيقول له قرينه : ربنا ما أطغيته و لكنه كان ضالا بنفسه و لا سبب بين الفريقين يدعو أهل الجنة فيهما إلى التفاوض فلذلك سكنت عنهما و أيضا فإن الله تعالى أخبر الناس أن عصاقتهم يكونون قرناء الشياطين يتخاصمون في النار ليزجرهم بذلك عن التمرد و العصيان و هذا المعنى مقصود في الأخبار فلهذا سكنت عن ذلك في الوعد به

باب القصاص يوم القيامة من استطال في حقوق الناس و في حسيه لهم حتى

ينصفوا منه

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء] البخاري عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون ديناراً و لا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته و إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه]

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس من لا درهم له و لا متاع قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة و يأتي قد شتم هذا و قذف هذا و أكل هذا و سفك دم هذا و ضرب هذا فيعطى هذا من حسناته و هذا من حسناته فإن فويت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار]

و خرج ابن ماجه [حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء حدثنا عمي محمد بن سواء عن حسين المعلم عن مطر الوراق عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات و عليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثم دينار و لا درهم من ترك دنيا أو ضياعا فعلى الله و رسوله]

الحارث بن أبي أسامة [و عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يحشر الله العباد أو قال الناس — شك — و أوما بيده إلى الشام عراة غرلا بهما قال : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من بعد و من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة و واحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة و لا ينبغي لأحد من أهل النار و واحد من أهل الجنة يطلبه حتى اللطمة قال : قلنا : كيف و إنما نأتي الله عراة حفاة قال بالحسنات و السيئات]
قال الشيخ المؤلف رحمه الله : هذا الحديث الذي أراد البخاري بقوله و رحل جابر عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد

سفيان بن عيينة عن مسعر عن عمرو بن مرة قال : سمعت الشعبي يقول : حدثني الربيع بن خيثم و كان من معادن الصدق قال : إن أهل الدين في الآخرة أشد تقاضيا له منكم في الدنيا يجس لهم فيأخذونه فيقول : يارب ألس ترائني حافيا ؟ فيقول : خلوا من حسناته بقدر الذي لهم فإن لم يكن له حسنات يقول : زيدوا على سيئاته من سيئاتكم و ذكر أبو عمر بن عبد البر من [حديث البراء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : صاحب الدين مأسور يوم القيامة بالدين]

و روى أبو نعيم الحافظ بإسناده عن زاذان أبي عمر قال : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخبز و اليمنة قد سبقوني إلى المجلس فقلت يا عبد الله من أجل أبي رجل أعجمي أدنيت هؤلاء و أقصيتني قال : ادن فدنوت حتى ما كان بيني و بينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأمة فينصب على رؤوس الأولين و الآخرين ثم ينادي مناد هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة بأن يدون لها الحق على ابنها أو أختها أو أبيها أو على زوجها ثم قرأ ابن مسعود { فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون } فيقول الرب تعالى للعبد : ات هؤلاء حقهم فيقول : يارب فنييت الدنيا فمن أين أو تبههم ؟ فيقول للملائكة : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته فإن كان وليا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خبر ضاعفها حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ { إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما } و إن كان عبدا شقيا قالت الملائكة رب فنييت حسناته و بقي طالبون فيقول للملائكة : خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته و صكوا له صكا إلى النار

و عنه [عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به فيقول أنا ولدكما فيودان أو يتمنيان لو كان أكثر من ذلك]
و روى رزين عن أبي هريرة قال : كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة هو لا يعرفه فيقول : مالك إلي و ما بيني و بينك معرفة ؟ فيقول : كنت ترائني على الخطايا و على المنكر و لا تنهاني و قال ابن مسعود : تفرح المرأة يوم القيامة أن يكون لها حق و على أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها أو أختها { فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون }

ابن ماجه [عن جابر رضي الله عنه قال : لما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم مهاجرة البحر قال : ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله بينما نحن جلوس مرت بنا عجز من عجائزها تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كفيه ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلبتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي و جمع الأولين و الآخرين و تكلمت الأيدي و الأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري و أمرك عنده غدا قال يقول

رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقت صدقت كيف يقدر الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم [فصل : أنكر بعض المتغفلة الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله إعجابا برأيهم وتحكما على كتاب الله تعالى و سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعقول ضعيفة و أفهام سخيفة فقالوا : لا يجوز في حكم الله تعالى و عدله أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها و يؤخذ حسنات من عملها فتعطي من لم يعملها و هذا زعموا جورا و أولوا قول الله تعالى { و لا ترز وازرة ووزر أخرى } فكيف تصح هذه الأحاديث و هي تخالف ظاهر القرآن و تستحيل في العقل ؟

و الجواب : أن الله سبحانه و تعالى لم يبن أمور الدين على عقول العباد و لم يعد و لم يوعد على ما تحملته عقولهم و يدر كونها بأفهامهم بل وعدوا وعدا بمشيئته و إرادته و أمر و نهي بحكمته و لو كان كلما لا تدركه العقول مردودا لكان أكثر الشرائع مستحيلا على موضوع عقول العباد و ذلك أن الله تعالى أوجب بخروج المني الذي هو طاهر عند بعض الصحابة و كثير من الأئمة و أوجب غسل الأطراف من الغائط الذي لا خلاف بين الأئمة و سائر من يقول بالعقل و غيره في نجاسته و قذارته و نتنه و أوجب بريح يخرج من موضع الحدث ما أوجب بخروج الغائط الكثير المتفاحش فبأي عقل يستقيم هذا و بأي رأي تجب مسواة ربح ليس لها عين قائمة بما يقوم عينه و تزيد على الريح نتنا و قدرا قد أوجب الله قطع يمين مؤمن بعشرة دراهم و عند بعض الفقهاء بثلاثة دراهم و دون ذلك ثم سوى بين هذا القدر من المال و بين مائة ألف دينار فيكون القطع فيهما سواء و أعطى الأم من ولدها الثلث ثم إن كان للمتوفى إخوة جعل لها السدس من غير أن ترث الإخوة من ذلك شيئا فبأي عقل يدرك هذا إلا تسليما وانقيادا من صاحب الشرع إلى غير ذلك فكذلك القصاص بالحسنات و السيئات و قد قال و قوله الحق : { و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس } الآية و قال : { و ليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم } و قال : { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم } و هذا يبين قوله تعالى { و لا ترز وازرة ووزر أخرى } أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى إذا لم تتعد فإذا تعدت و استطالت بغير ما أمرت فإنها تحمل عليها و يؤخذ منها بغير اختيارها كما تقدم في أسماء القيامة عند قوله تعالى { و اتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا } فصل : و إذا تقرر هذا فيجب على كل مسلم البدار إلى محاسبة نفسه كما قال عمرو رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا و إنما حسابه لنفسه أن يوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا و يتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله عز و جل و يرد المظالم إلى أهلها حبة حبة و يستحل كل من تعرض له بلسانه و يده و سطوته بقلبه و يطيب قلوبهم حتى يموت و لم يبق عليه فريضة و لا مظلمة فهذا يدخل الجنة بغير حساب فإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده و هذا يقبض على ناصيته و هذا يتعلق بلبته و هذا يقول ظلمتني و هذا يقول شتمتني و هذا يقول استهزأت بي و هذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني و هذا يقول جاورتني فأسأت جوارتي و هذا يقول عاملتني فغششتني و هذا يقول بايعتني و أخفيت عني عيب متاعك و هذا يقول كذبت في سعر متاعك و هذا يقول رأيتني محتاجا و كنت غنيا فما أطعمتني و هذا يقول وجدتني مظلوما و كنت قادرا على دفع الظلم فداهنت الظلم و ما راعيتني فبينما أنت كذلك و قد أنشب الخصماء فيك محالبيهم و احكموا في تلايبك أيديهم و أنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا و قد استحق عليك مظلمة بغيبة أو جنابة أو نظر بعين استحقار و قد ضعفت عن مقاومتهم و مددت عنق الرجاء إلى سيدك و مولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار { اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم } فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة و توقن نفسك باليوار و تذكر ما أنذرك الله به على

لسان رسوله صلى الله عليه و سلم حيث قال : { و لا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون } إلى قوله { لا يرتد إليهم طرفهم و أفنلقم هواء }

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس و تناولك أموالمهم و ما أشد حسرتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل و شوفهت بخطاب السيئات و أنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك و تنقل إلى أخصامك عوضا عن حقوقهم كما ورد في الأحاديث المذكورة في هذا الباب

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس لك حسنة قد سلمت من آفات الرياء و مكائد الشيطان فإن سلمت حسنة واحدة في مدة طويلة ابتدرها خصماؤك و أخذوها و يقال : لو أن رجلا له ثواب سبعين نبيا و له خصم بنصف داتق لم يدخل الجنة حتى يرضي خصمه و قيل : يؤخذ بداتق قسط سبعمائة صلاة مقبولة فتعطي للخصم ذكره القشيري في التحبير له عند اسمه المقسط الجامع

قال أبو حامد : و لعلك لو حاسبت نفسك و أنت مواظب على صيام النهار و قيام الليل لعلمت أنه لا يمضي عليك يوم إلا و يجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام و الشهوات و التقصير في الطاعات ؟ و كيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ؟ { و يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا } فكيف بك يا مسكين في يوم ترى فيه صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك ؟ فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصماتك و ترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك فتقول يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال : هذه سيئات الذين اغتبتهم و شتمتهم و قصدتهم بالسوء و ظلمتهم في المعاملة و المبايعة و المجاورة و المخاطبة و المناظرة و المذاكرة و المدارسة و سائر أصناف المعاملة فاتق الله في مظالم العباد بأخذ أموالمهم و العرض لأعراضهم و أبشارهم و تضيق قلوبهم و إساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد و بين الله خاصة المغفرة إليه أسرع و من اجتمعت عليه مظالم و قد تاب عنها و عسر عليه استحلال أرباب المظالم من حيث لا يطلع عليه إلا الله فليكثر من الاستغفار لمن ظلمه فعساه أن يقربه ذلك إلى الله فينال به لطفه الذي ادخره لأرباب المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم على ما يأتي بيانه في باب إرضاء الخصوم بعد هذا إن شاء الله تعالى

فصل : قوله في الحديث : فيناديهم بصوت استدل به مكن قال بالحرف و الصوت و أن الله يتكلم بذلك تعالى الله عما يقوله الجحسمون و الجاحدون علوا كبيرا و إنما يحمل النداء المضاف إلى الله تعالى على نداء بعض الملائكة المقربين بإذن الله تعالى و أمره و مثل ذلك سائغ في الكلام غير مستنكر أن يقول القائل نادى الأمير و بلغني نداء الأمير كما قال تعالى : { و نادى فرعون في قومه } و إنما المراد نادى النادي عن أمره و أصدر نداءه عن إذنه و هو كقولهم أيضا : قتل الأمير فلانا و ضرب فلانا و ليس المراد توليه لهذه الأفعال و تصديه لهذه الأعمال و لكن المقصود صلورها عن أمره و قد ورد في صحيح الأحاديث أن الملائكة ينادون على رؤوس الأشهاد فيخاطبون أهل التقى و المرشاد : ألا إن فلان ابن فلان كما تقدم

و مثله ما جاء في حديث التنزيل مفسرا فيما أخرجه النسائي [عن أبي هريرة رضي الله عنه و أبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله عز و جل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر مناديا يقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟] صححه أبو محمد عبد الحق و كل حديث اشتمل على ذكر الصوت أو النداء فهذا التأويل فيه و أن ذلك من باب حذف للمضاف و الدليل على ذلك ما ثبت

من قدم كلام الله تعالى على ما هو مذكور في كتاب الديانات
فإن قال بعض الأغبياء : لا وجه لحمل الحديث على ما ذكرتموه فإن فيه [أنا الدبان] و ليس يصدر هذا الكلام
حقا و صدقا إلا من رب العالمين

قيل له : إن الملك إذا كان يقول عن الله تعالى و ينسب عنه فالحكم يرجع إلى الله رب العالمين و الدليل عليه أن
الواحد منا إذا تلا قول الله تعالى { إني أنا الله } فليس يرجع إلى القارئ و إنما القارئ ذاكرك لكلام الله تعالى و دال
عليه بأصواته و هذا بين و قد أتينا عليه في الصفات من كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى و صفاته العليا
فصل : و اختلف الناس في حشر البهائم و في قصاص بعضها من بعض فروي عن ابن عباس أن حشر اللواب و
الطير موتها و قال الضحاك : و روي عن ابن عباس في رواية أخرى : أن البهائم تحشر و تبعث قال أبو ذر و أبو
هريرة و عمرو بن العاص و الحسن البصري و غيرهم و هو الصحيح لقوله تعالى : { و إذا الوحوش حشرت } و
قوله { ثم إلى ربهم يحشرون } قال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم و الطير و اللواب و كل
شيء فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول : كوني ترابا فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار { و
يقول الكافريا ليتني كنت ترابا } و نحوه عن ابن عمر و عبد الله بن عمرو بن العاص و في الخبر : إن البهائم إذا
صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار فذلك قوله تعالى { وجوه يومئذ عليها غبرة } أي غبار
و قالت طائفة : الحشر في قوله تعالى { ثم إلى ربهم يحشرون } راجع الكفار و ما تخلل من قوله تعالى { و ما من دابة
في الأرض و لا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء } كلام معترض و إقامة حجج و
أما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب و القصاص فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد
منه و أنه لا محيص لمخلوق عنه و عضدوا ذلك بما روي في غير الصحيح عن بعض رواياته من الزيادة فقال : حتى
يقاد للشاة الجماة من الشاة القرناء و للحجر لما ركب الحجر و العود لما خدش العود قالوا فظهر من هذا أن
المقصود التمثيل المفيد للاعتبار و التهويل لأن الجمادات لا تعقل خطاها و لا عقابها و ثوابها و لم يصير إليه أحد من
العقلاء و متخيلة من جملة المعتوهين الأغبياء أجاب بعض من قال إنها تحشر و تبعث بأن قال إن من الحكمة الإلهية
أن لا يجري أمر من أمور الدنيا و الآخرة إلا على سنة مستنونة و حكمة موزونة
و من قال هنا بما قالته طائفة من الموسمة بالعلم المتسمة بالفقه و الفهم على الزعم أن الجامد لا يفقه و الحيوان غير
الإنسان لا يعقل و إنما هو منزل في الحيوان و لسان حال في الجامد و النامي و قال إن الله تعالى يقول في الصالحين
المكذابين { إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا } و لو كان عندها عقل أو فهم ما نزل بالكافر الفاسق إلى
درجتها في موضع التقيص و التقصير و الله سبحانه قد وصفه بالموت و الصمم في موضع التبصير و التذكير فقال :
{ و لا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين } و قال { أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي } { صم بكم عمي فهم
لا يرجعون }

قيل له : ليس الأمر كما ذكرت و لا الحق على شيء مما زعمت و أنه ليس عليك من حيث الزعم و رؤية النفس
في درجة العلم أبدا من الآية التي وقفت فيها إلى التي قبلها إن شئت فارجع بصرك في الذي رأيت تجده قد وصفهم
عز و جل بالموت و الصمم كما وصفهم بالعمى و البكم و ليسوا في الحقيقة الظاهرة بموتى و لا صم و لا بعميان و
لا بكم و إنما هم أموات بالعقول و الأذهان عن صفة الإيمان و حياة دار الحيوان صم عن كلمة الأحياء عمى عن
النظر في مرآة وجوه الأخلاء كذلك وصف الأنعام بضلال و ليست في الحقيقة بضلال من حيث شرعتها و
حكمتها إنما ذلك من حيث قد كنا و افقنا فكيف يكون ذلك و الله تعالى يقول { و ما من دابة في الأرض } إلى قوله

{ يحشرون } فوركك لنحشروهم جما غفيرا و لنحاسبن حسابا يسيرا و لو كان من عند غير الله و لوجدوا فيه اختلافا كثيرا و أنه تعالى لا يسأل إلا عقلا و لا يحاسب إلا مفضولا و ضالا و إنما جعل لكل موجود من موجوداته في أشنات الخلاق و أجناس العوالم دار دنيا و دار أخرى و جعل لها أقالكا و آفاقا و ظلما و أضواء فكل في فلكه و أفقه بلبيله و مهاره و سمعه و بصره و علمه و فهمه و حاكم من عقله أو جهله و قائم بنحلته و حكمته و سنته و شرعته فأدنى و أعلى من الروحانية الأقصى إلى الجمادية الأفسى فالملاحكة الروحانية في مصافها ترانا من حيث لا نرى و تعلم منا أكثر مما نعلم و إنما لتشهد من نقصنا و قلة عقلنا في الموضوع الذي يجب العلم به و إعمال العقل فيه ما تحكم به علينا أكثر مما تحكم به على الأنعام من قلة العقل و تحقيق المعرفة فمن نظر إلى الأنعام و جدها من حيث نحن لا من حيث فلكها و أفقها لا تسمع و لا تعقل إلا ميرا ما قدر ما تتسخر به و تتذلل طبعاً فتلقن المراد منها من هذا الفن خاصة لا غير و أما ما نحن بسبيله من تصرفات و تعاملات فليس لها ذلك من حيث الفلكية التي أحازتها عنا و الأفقية التي اقتطعتها منا فهي في طرقاتنا ضلال و بتعاملتنا و أحوال تصرفاتنا جهال و أما من حيث شرعتها و باطن رؤيتها فعارفة عقلا [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم حين أخذ الجمل القضم الذي ند و امتنع بجائط بني النجار و غلب الخلق عن أخذه و الوصول إليه حتى جاء صلى الله عليه و سلم فلما مشى إليه و رآه الجمل برك لديه و جعل يمر بمشفره على الأرض بين يديه تذلا و تسخيرا فقال صلى الله عليه و سلم هات الخظام فلما خطمه و رأى الناس يعجبون منه رد رأسه إليهم فقال ألا تعجبون أو كما قال إنه ليس شيء بين السماء و الأرض إلا يعلم أني رسول الله غير عاصي الجن و الإنس] و ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال [ما دابة إلا و هي مصيخة بأذنها يوم الجمعة تنتظر قيام الساعة] و قال صلى الله عليه و سلم [لا يسمع مدى صوت المؤذن جن و لا إنس و لا شجر و لا مدر و لا شيء إلا شهد له يوم القيامة]

قال المؤلف رحمه الله : خرج مالك في موطنه و ابن ماجه في سننه و اللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري و قد تقدم أن الميت يسمع صوته كل شيء إلا الإنسان و في رواية إلا الثقلين و الأخبار في هذا المعنى كثيرة قد أتينا على جملة منها في هذا الكتاب فكل حيوان و جماد محشور لما عنده من الإدراك و المشاهدة و الحضور من حيث هي لا من حيث نحن قال الله تعالى { و إن من شيء إلا يسبح بحمده } و قال { و لله يسجد من في السموات و الأرض طوعا و كرها و ظلالهم بالغدو و الآصال } و قال عز من قائل : { ألم تر أن الله يسجد له من في السموات و من في الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدواب } لا يقال إن هذا السجود و التسبيح لسان حال ليس بلسان المقال فإننا نقول هذا مجاز و الله سبحانه يقص الحق كما أخبر في كتابه إن الحكم إلا الله يقص الحق و من نظر بنور الله جاز العين إلى المعنى و حل الرمز و فك المعنى و هم إنما نظروا من حيث هم و من حيث العقل البشري و لم ينظروا الحياة الفلكية من حيث هي فغابوا عن الحضور و حملوا على القصور و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور

قلت : هذا كله صحيح لحديث أبي سعيد الخدري المذكور و هو صحيح و كذلك حديث أبي هريرة في شهادة الأرض بما عمل عليها و هو صحيح و كذلك حديث أبي سعيد الخدري في شهادة المال صحيح و سيأتي و قد روى ليث ابن أبي سليم [عن عبد الرحمن بن مروان عن الهزبل عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه مر بشاتين تنطحان فقال : إن الله تعالى ليقضين يوم القيامة لهذه الجلهاء من هذه القرناء] و ذكر ابن وهب أخبرني ابن هبيعة و عمرو بن الحارث عن بكر بن سوادة أن أبا سالم الجيشاني حدثه أن ثابت بن طريف استأذن على أبي ذر فسمعه رافعا صوته يقول : أما و الله لولا يوم الخصومة لسؤتك قال ثابت : فدخلت

فقلت ما شأنك يا أبا ذر؟ قال : هذه قلت و ما عليك إن رأيتك تضربها قال [و الذين نفسي بيده أو نفس محمد بيده لتسئلن الشاة فيما نطحت صاحبها و ليسئلن الجماد فيما نكب أصبع الرجل]
و روي عن شعبة [عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم شاتين تنطحان فقال : يا أبا ذر أتدري فيم تنطحان؟ قلت : لا يا رسول الله قال : لكن الله يدري و يقضي بينهما يوم القيامة] أخرجه أبو داود الطيالسي فقال حدثنا شعبة قال : أخبرني الأعمش قال سمعت منذر الثوري يحدث عن أصحاب له عن أبي ذر بلفظه و معناه و قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم و حشر الجن و الإنس و الدواب و الوحوش فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدواب حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء تنطحها فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها كوني ترابا فيراها الكافر فيقول يا ليتني كنت ترابا]

و ذكر عبد الكريم الإمام أبو القاسم القشيري في التحبير له فقال : و في خبر الوحوش و البهائم تحشر يوم القيامة فمسجد لله سجدة فتقول للملائكة ليس هذا يوم سجود هذا يوم الثواب و العقاب و تقول البهائم هذا سجود شكر حيث لم يجعلنا الله من بني آدم و يقال أن الملائكة تقول للبهائم : لم يحشركم الله جل ثناؤه لثواب و لا لعقاب و إنما يحشركم تشهدون فضائح بني آدم ذكره القشيري في اسمه المقسط الجامع و هذا قول ثابت فتأمله
فصل : ظن بعض العلماء أن الصيام مختص بعامله موفرا له أجره و لا يؤخذ منه شيء لمظلمة ظلمها متمسكا بقوله تعالى [الصيام لي و أنا أجزي به]

و أحاديث هذا الباب ترد قوله و أن الحقوق تؤخذ من سائر الأعمال صياما كان أو غيره و قيل : إن النوم إذا لم يكن معلوما لأحد و لا مكتوبا في الصحف هو الذي يستره الله و يخبؤه عليه حتى يكون له جنة من العذاب فيطرحون أو لئك عليه سيئاتهم فيذهب عنهم و يقيه الصوم فلا يضر أصحابها لزواها عنهم و لا له لأن الصوم جنته قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين : و هو تأويل حسن إن شاء تعالى و لا تعارض و الحمد لله
باب

أبو داود [عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم عن آبائهم دنية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ألا من ظلم معاهدا أو انقصه في حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة] صححه أبو محمد عبد الحق

باب في إرضاء الله تعالى الخصوم يوم القيامة

روينا في الأربعين و ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله تعالى [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم جالس إذ رأته ضحك حتى بدت ثناياه فقيل له : مم تضحك يا رسول الله؟ قال : رجلان من أمتي جنيا بين يدي ربي عز و جل فقال أحدهما يا رب خذ لي مظمتي من أخي فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته فقال يا رب ما بقي من حسناتي شيء فقال يا رب فليحمل من أوزاري و فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال إن ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس فيه إلى أن تحمل عنهم أوزارهم ثم قال الله تعالى للطالب حقه ارفع بصرك فانظر إلى الجنان فرفع بصره ما أعجبه من الخير و النعمة فقال : لمن هذا يا رب؟ فقال : لمن أعطاني ثمنه قال و من يملك ثمن ذلك؟ قال أنت قال : بم إذا؟ قال بعفوك عن أخيك قال يا رب فإني قد عفوت عنه قال خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فاتقوا الله و أصلحوا ذات

بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة]

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال : يجيء المؤمن يوم القيامة قد أحذه صاحب الدين فيقول ديني على هذا فيقول الله تعالى أنا أحق من قضى عن عبدي قال : فيرضى هذا من دينه و يغفر لهذا و قال ابن أبي الدنيا و حدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل قال بلغني أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه ببعض ما يتحمل المتحملون من أجلي و ما يكابدون في طلب مرضاتي أتراني أنسى لهم عملا كيف و أنا أرحم الراحمين بخلقي لو كنت معاجلا بالعقوبة أحدا أو كانت العقوبة من شأني لعاجلت بما للقائين من رحمتي و لو يرى عبادي المؤمنون كيف استوهبهم ممن ظلموه ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم في جوارحي إذا ما أتموم فضلي و كرمي

فصل : قلت : و هذا لبعض الناس ممن أراد الله بما أن لا يعذبه بل يعفو عنه و يغفر له و يرضى عنه خصمه و قد يكون هذا في الظالمين الأوابين و هو قوله تعالى { إنه كان للأوابين غفورا } و الأواب : الذي أقبل عن الذنب فلم يعد إليه كذا تأوله أبو حامد و هو تأويل حسن أو يكون ذلك فيمن يكون له خبيثة حسنة من عمل صالح يغفر الله له به و يرضى خصمائه كما تقدم و ظاهر حديث أنس الخصوص بذنبك الرجلين لقوله رجلا و لفظ الشبهة لا يقتضي الجمع إلا ما روي في الحديث : [مثل المنافق كالشاة العابرة بين الغنمين] خرجه مسلم و ليس هذا موضعه و لو كان ذلك في جميع الناس ما دخل أحد النار و كذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم [ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم و بقيت التبعات فتواهبوها و ادخلوا الجنة برحمتي] ما دخل أحد النار و هذا واضح فتأمله

باب أول من يحاسب أمة محمد صلى الله عليه و سلم

روى ابن ماجه [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : نحن آخر الأمم و أول من يحاسب يقال : أين الأمة الأمية و نبيها ؟ فنحن الآخرون الأولون] و في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما : [فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غرا محلجين من آثار الوضوء فتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها] خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده بمعناه و قد تقدم

باب أول ما يحاسب عليه العبد من عمله : الصلاة و أول ما يقضى فيه بين

الناس : الدماء و في أول من يدعى للخصومة

مسلم [عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء] أخرجه البخاري أيضا و النسائي و الترمذي و قال : هذا حديث حسن صحيح و للنسائي أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة و أول ما يقضى بين الناس الدماء] و في البخاري [عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أنا أول من يجتو يوم القيامة بين يدي الرحمن للخصومة] يريد قصته في مبارزته هو و صاحبه الثلاثة من كفار قريش قال أبو ذر و فيهم نزلت { هذان خصمان اختصموا في ربهم } الآية و الخبر بهذا مشهور صحيح خرجه البخاري و مسلم و غيرهما

و [عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم في طائفة من أصحابه فيكون أول ما يقضى بينهم في الدماء و يأتي كل قتيل قتل في سبيل الله فيأمر الله كل من قتل فيحمل رأسه و تشخب أوداجه دما فيقول : يا رب سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول الله تعالى له — و هو أعلم — : فيم

قتلته؟ فيقول: رب قتلته لتكون العزة لي: فيقول الله تعالى: تعست ثم لا تبقى قتلة إلا قتل بها و لا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها و كان في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه و إن شاء رحمه [خرج الغيلاني أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله البزار المعروف بالشافعي [حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي حدثنا أبو عاصم الضحاك عن مخلد حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب و خرج إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس قال: سمعت نبيكم صلى الله عليه و سلم يقول: يأتي المقتول معلقا رأسه بإحدى يديه متلبيا قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقفا فيقول المقتول لله سبحانه: هذا قتلني فيقول الله تعالى للقاتل: تعست و يذهب به إلى النار]

و خرج ابن المبارك موقوفا على عبد الله بن مسعود قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله فذكر معناه

و خرج الترمذي في جامعه قال [حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني قال: حدثنا شابة قال حدثنا ورقاء بن عمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته و رأسه بيده و أوداجه تشخب دما يقول: يا رب قتلني هذا حتى يدينه من العرش] قال: هذا حديث حسن غريب مالك عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن أول ما ينظر فيه من عمل المرء الصلاة فإن قبلت منه نظر فيما بقي من عمله و إن لم تقبل منه لم ينظر في شيء من عمله

قلت: و هذا الحديث و إن كان موقوفا بلاغا فقد رواه أبو داود الترمذي و النسائي مرفوعا بهذا المعنى [عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة قال يقول ربنا عز و جل ملائكته: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم أنقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة و إن كان انقص منها شيئا قال: انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك لفظ أبي داود و قال الترمذي حديث حسن غريب و خرج ابن ماجه أيضا

فصل: قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون ذلك و الله أعلم فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها أو لم يحسن ركوعها و سجودها و لم يدر قدر ذلك و أما من تعمد تركها أو شيئا منها ثم ذكرها فلم يأت بها عامدا و اشتغل بالتطوع عن أداء فرضه و هو ذاكر له فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه و الله أعلم

و قد روي من حديث الشاميين في هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير [عن عمرو بن قيس السكري عن عبد الله بن قرط عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه و سجوده و خشوعه زيد فيها من تسيحاته حتى تتم] قال أبو عمرو: هذا لا يحفظ عن النبي صلى الله عليه و سلم إلا من هذا الوجه و ليس بالقوي و إن كان صح كان معناه أخرج من صلاة قد أتمها عند نفسه و ليس في الحكم بتامة

قلت: ينبغي للإنسان أن يحافظ على أداء فرضه فيصليه كما أمر من إتمام ركوع و سجود و حضور قلب فإن غفل عن شيء من ذلك فيجتهد بعد ذلك في نفله و لا يتساهل فيه و لا في تركه و من لا يحسن أن يصلي القرض فأحرى أن لا يحسن النفل لا جرم بل تنفل الناس في أشد ما يكون من النقصان و الخلل في التمام خفة النفل عندهم و قهوانهم به و لعمر الله لقد يشاهد في الوجود من يشار إليه و يظن به العلم بنفله كذلك بل فرضه إذ ينقره نقر الديك فكيف بالجهال الذم لا يعلمون و إذا كان هذا فكيف يكمل بهذا النفل ما نقص من الفرض هيهات هيهات

! فاعلموه أن الصلاة إذا كانت بهذه الصفة دخل صاحبها في معنى قوله تعالى : { فخلف من بعلمهم خلف أضعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا } ! و قال جماعة من العلماء : التضييع للصلاة هو أن لا يقيم حدودها من مراعاة وقت وطهارة و تمام ركوع و سجود و نحو ذلك و هو مع ذلك يصلحها و لا يمتنع من القيام بها في وقتها و غير وقتها قالوا : فأما من تركها أصلا و لم يصلحها فهو كافر و روى الترمذي [عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلته في الركوع و السجود] و قال : حديث حسن صحيح و العمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم و من بعدهم يرون أن يقيم الرجل صلته في الركوع و السجود قال الشافعي و أحمد و إسحاق : من لم يقيم صلته في الركوع و السجود فصلاته فاسدة لحديث النبي صلى الله عليه و سلم [لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلته في الركوع و السجود] و روى البخاري عن زيد بن وهب عن حذيفة و رأى رجلا لا يتم ركوعه و لا سجوده فلما قضى صلاته قال له حذيفة : ما صليت و لو مت مت على غير سنة محمد صلى الله عليه و سلم و أخرجه النسائي أيضا عنه عن حذيفة أنه رأى رجلا يصلي فخفف فقال له حذيفة : منذ كم تصلي هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين عاما قال : ما صليت و لو مت و أنت تصلي هذه الصلاة لمت على غير فطرة النبي ثم قال : إن الرجل ليخفف الصلاة و يتم و يحسن الأخبار في هذا المعنى كثيرة جدا قد أتينا عليها في غير هذا الباب و هي تبين لك المراد من قوله تعالى : { أضعوا الصلاة }

و روى النسائي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كسبت تامة و إن كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل له ما ضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجري على ذلك] و هذا نص و قال أبو عمر رضي الله عنه : و من ضيعها فهو لما سواها أضيع

قلت : و لا اعتبار بقول من قال إن الواجب من أركان الصلاة و من الفصل بين أركانها أقل ما ينطلق عليه الاسم و هو أبو حنيفة و أشار إلى ذلك القاضي عبد الوهاب في تلقينه و هو يروي [عن ابن القاسم لأن من اقتصر على ذلك صدق عليه أنه نقر الصلاة فدخل في الذم المترتب على ذلك بقوله عليه السلام تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا] رواه مالك في موطنه و مسلم في صحيحه و الأحاديث الثابتة تقضي بفساد صلاته كما بيناه مع قوله عليه السلام : [أما الركوع فعظموا فيه الرب و أما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم] أخرجه مسلم و في موطأ مالك [عن يحيى بن سعيد عن النعمان بن مرة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ما ترون في الشارب و السارق و الزاني قال : و ذلك قبل أن ينزل فيهم قالوا الله و رسوله أعلم قال : هن فواحش و فيهن عقوبة و أسوأ السرقة الذي يسرق صلاته قالوا : يا رسول الله و كيف يسرق صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها و لا سجودها]

و روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال : [حدثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح عن الأحوص بن حكيم عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا أحسن الرجل الصلاة فآتم ركوعها و سجودها قالت : الصلاة حفظك الله كما حفظني فترفع و إذا أساء الصلاة فلم يتم ركوعها و لا سجودها قالت الصلاة : ضيعك الله كما ضيعني فتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه فمن لم يحافظ

على أوقات الصلاة لم يحافظ على الصلاة كما أن من لم يحافظ على وضوئها و ركوعها و سجودها فليس بمحافظ عليها و من لم يحافظ عليها فقد ضيعها و من ضيعها فهو لما سواها أضيع كما أن من حافظ عليها حفظ دينه و لا دين لمن لا صلاة له

باب منه

ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله عبدا حجته قال : يا رب رجوتك و فرقت من الناس]

و رواه الفريابي قال : [حدثنا سفيان بن زيد عن عمرو بن مرة عن أبي البخري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يحقرن أحدكم نفسه إذا رأى أمر الله عليه فيه مقال فلا يقول فيه فيقول يوم القيامة ما منعك إذا رأيت كذا و كذا أن تقول فيه فيقول له أي ربي خفت الناس فيقال : إياي كنت أحق أن تخاف] قال الوائلي أبو نصر و رواه أحمد بن عبد الله بن يونس أبو عبد الله البربوعي الكوفي قال : حدثنا زهير قال :

حدثنا عمر بن قيس عن عمرو بن مرة المعنى واحد و هذا محفوظ من الطريقتين عن عمرو بن مرة و مخرجه من الكوفة

باب منه

ذكر أبو نعيم الحافظ : [حدثنا عبد الله محمد بن جعفر من أصل كتابه حدثنا عبد الله بن محمد بن زكريا حدثنا إسماعيل بن عمرو حدثنا مندل عن أسد بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يقفن أحدكم على رجل يضرب ظلما فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم تدفعوا عنه و لا يقفن أحدكم على رجل يقتل ظلما فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم تدفعوا عنه] هذا حديث غريب من حديث أسد و عكرمة لم يروه عنه فيما أعلم إلا مندل بن علي الغنوي

باب ما جاء في شهادة أركان الكافر و المنافق عليهما و لقائهما الله عز و

جل

قال الله تعالى : { اليوم نختم على أفواههم و تكلمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون } و قال : { يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون } و قال : { و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا } الآية و ذكر أبو بكر بن أبي شيبة من [حديث معاوية بن حيدة القرشي أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تجيئون يوم القيامة على أفواهكم القدام و أول ما يتكلم من الإنسان فخذه و كفه] و قد تقدم

مسلم [عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم نضحك فقال : هل تدرون لم أضحك ؟ قلنا : الله و رسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلا قال : فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني قال : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا و بالكرام الكاتنين شهدوا قال فيختم

على فيه فيقال لأركانه انطق فتنتطق بأعماله قال : ثم يخلى بينه و بين الكلام قال : فيقول بعدا لكن و سحقا فعنك كنت أناضل] الترمذي [عن أبي سعيد و أبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يؤتى بالعبد يوم

القيامة فيقول : ألم أجعل لك سمعا و بصرا و مالا و ولدا و سخرت لك الأنعام و الحرث و ترأس و تربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا فيقول : اليوم أنساك كما أنسيتهني] قال هذا حديث صحيح غريب و

أخرجه مسلم عن أبي هريرة بأطول من هذا وقد تقدم البخاري [عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملك الأرض ذهباً كنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك] و أخرجه مسلم و قال بدل [قد كنت] [كذبت قد سئلت ما هو أيسر من ذلك]

فصل : قوله عليه السلام [فأول مايتكلم من الإنسان فخذ] يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة و الخزي على ما نطق به الكتب في قوله : { هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق } لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش و يخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى فلا يفعل ما بفعل خائفا مشفقا فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد

و الوجه الآخر : أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه و لا يعرف بما ينطق به بل يجحد فيختم الله على فيه عند ذلك و تنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا فتشهد عليه سيئاته و هذا أظهر الوجهين يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم لم شهدتم علينا ؟ فتمردوا في الجحود فاستحقوا من الله القضح و الإخزاء نعوذ بالله منهما

فصل : قوله [و تركتك رأس و تربع] أي ترأس على قومك بأن يكون رئيسا عليهم و يأخذ الربيع مما يحصل لهم من الغنائم و الكسب و كانت عادتهم أن أمراءهم كانوا يأخذون من الغنائم الربيع و يسمونه المربع قال شاعرهم : (لك المربع منها و الصفايا ... و حكمك و النسيطة و الفضول) و قال آخر :

(منا الذي ربيع الجيوش لصلبه ... عشرون و هو يعد في الأحياء)

يقال : ربيع الجيش يربعه إذا أخذ ربيع الغنيمة قال الأصمعي : ربيع في الجاهلية و خمس في الإسلام و قوله : اليوم أنساك كما نسيتني أي اليوم أتركك في العذاب كما تركت عبادتي و معرفتي فإن قيل : فهل يلقي الكافر ربه و يسأله ؟ قلنا : نعم بدليل ما ذكرنا و قد قال تعالى : { فلنسألن الذين أرسل إليهم } في أحد التأويلين و قال : { و لو ترى إذ وقفوا على ربهم } و قال : { أولئك يعرضون على ربهم } و عرضوا على ربك صفا { الآيتين و قال : { إن إلينا إيبهم * ثم إن علينا حسابهم } و قال : { و قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم } إلى قوله { و ليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون } و الآي في هذا المعنى كثير

فإن قيل : قد قال الله تعالى { يعرف الجرمون بسيماهم فيؤخذ بالتواصي و الأقدام } و قال عليه السلام : [و يخرج عنق من النار فيقول : و كلت بثلاث بكل جبار عبيد و كل من جعل مع الله إلها آخر و بالمصورين] قلنا : هذا يحتمل أن يكون يكون بعد الوزن و الحساب و تطاير الكتب في اليمين و الشمال و تعظيم الخلق كما تقدم و يدل عليه قوله : و بالمصورين فإنهم كانوا موحدين فلا بد لهم من سؤال و حساب و بعده يكونون أشد الناس عذابا و إن كانوا كافرين مشركين فيكون ذكرهم تكرارا في الكلام على أنا نقول :

قال بعض العلماء : ذكر الله تعالى الحساب جملة و جاءت الأخبار بذلك و في بعضها ما يدل على أن كثيرا من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب فصار الناس إذا ثلاث فرق : فرقة لا يحاسبون أصلا و فرقة تحاسب حسابا يسيرا و هما من المؤمنين و فرقة تحاسب حسابا شديدا يكون منها مسلم و كافر و إذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله فيدخله النار بغير حساب

وقد ذكر ابن المبارك في دقائقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أن بعد أخذ النار هؤلاء تنشر الصحف و
توضع الموازين و تدعى الخلائق للحساب

فإن قيل : فقد قال تعالى : { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لجبون } و قال : { و لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون } و
قال : { و لا يكلمهم الله } و هذا يتناول بعمومه جميع الكفار

قلنا : القيامة مواطن فمواطن يكون فيه سؤال و كلام و موطن لا يكون ذلك فلا يتناقض الآي و الأخبار و الله
المستعان

قال عكرمة : القيامة مواطن يسأل في بعضها و لا يسأل في بعضها و قال ابن عباس : لا يسألون سؤالاً شفا و راحة
و إنما يسألون سؤال تقييع و توييح لم عملتم كذا و كذا و القاطع لهذا قوله تعالى : { فوربك لنسألنهم أجمعين *
عما كانوا يعملون }

قال أهل التأويل عن لا إله إلا الله : و قد قيل إن الكفار يحاسبون بالكفر بالله الذي كان طول العمر دنارهم
وشعارهم و كل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها و عاندوها فإثمهم بيكتون عليها و يسألون عنها عن الرسل و
تكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم

و قال تعالى : { و قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم و ما هم بحاملين من خطاياهم من
شيء إنهم لكاذبون * } و ليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم و ليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون { و الآي في هذا
المعنى كثيرة و من تأمل آخر سورة المؤمنين { فإذا نفخ في الصور } إلى آخرها تبين له الصواب في ذلك و الحمد لله
على ذلك

و ذكر ابن المبارك عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة : تنشر
الصحف و توضع الموازين و يدعى الخلائق للحساب و شهر : ضغفه مسلم في كتابه و غيره
فإن قيل : فقد ذكر اللالكائي في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة
قالوا : و لأن الحاسب إنما يراد للثواب و الجزاء و لا حسنة للكافر فيجازي عليها بحسابه و لأن الحاسب له هو
الله تعالى و قد قال : { و لا يكلمهم الله يوم القيامة }

قلنا : ما روي عن عائشة قد خالفها غيرها في ذلك للآيات و الأحاديث الواردة في ذلك و هو الصحيح و معنى [
لا يكلمهم الله] أي بما يجونه قال الطبري : و في التنزيل { اخسؤوا فيها و لا تكلمون } و قد قيل إن معنى قوله
تعالى : { و لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون } { لا يسأل عن ذنبه إنس و لا جان } سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من
الكافرين أي أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال ما كان دينك و ما كنت تصنع في الدنيا حتى
يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه مان مؤمنا أو كان كافرا لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصلور و
يكون المشركون سود الوجوه زرقا مكروبين فهم إذا كلفوا سوق الجرمين إلى النار و تميزهم في الموقف كفتهم
مناظرهم عن تعرف أديانهم و من قال هذا فيحتمل أن يقول إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله
على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن و انصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه و دينه و نبيه أي
إذا كان يوم القيامة لم تسأل للملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها و من قاله
يحتاج بقوله تعالى : { فوربك لنسألنهم أجمعين * } عما كانوا يعملون { أخبر أنهم يسألهم عن أعمالهم وهذه الآية في
الكافرين و من قال يسألهم عن أصل كفرهم ثم عن تجربيلهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات الله تعالى و رسله فقد
سألهم عما كانوا يعملون و ذلك هو المراد

باب ما جاء في شهادة الأرض و الليالي و الأيام بما عمل فيها و عليها و في

شهادة المال على صاحبه و قوله تعالى : و جاءت كل نفس معها سائق و شهيد الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية { يومئذ تحدث أخبارها } قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدا أو أمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل يوم كذا كذا و كذا فهذه أخبارها] قال : هذا حديث حسن صحيح غريب أبو نعيم [عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه : يا ابن آدم أنا خلق جديد و أنا فيما تعمل عليك غدا شهيد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا و يقول الليل مثل ذلك] غريب من حديث معاوية تفرد عنه زيد العمى و لا أعلمه مرفوعا عن النبي إلا بهذا الإسناد

ابن المبارك عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : من سجد في موضع عن شجر أو حجر شهد له عند الله يوم القيامة قال : و أخبرني ابن أبي خالد رضي الله عنه قال : سمعت أبا عيسى يحيى بن رافع يقول : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه : يقول : { و جاءت سكرة الموت بالحق } و قال تعالى { و جاءت كل نفس معها سائق و شهيد } قال : سائق يسوقها إلى أمر الله و شاهد يشهد عليها بما عملت و خرج مسلم [من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم و فيه : و إن هذا المال خضر حلو و نعم صاحب السلم هو لمن أعطى منه المسكين و اليتيم و ابن السبيل أو كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و إنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل و لا يشبع و يكون عليه شهيدا يوم القيامة و قد تقدم أنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن و لا إنس و لا شجر و لا حجر و لا مدر إلا شهد له يوم القيامة] رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم و رواه الأئمة مالك و غيره قال المؤلف : فتفكر يا أخي و إن كنت شاهدا عدلا بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك و مقالك و أعظم الشهود لديك المطلع عليك الذي لا تخفى عليه خافية عين و لا يغيب عنه زمان و لا أين قال الله تعالى { لا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه } فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه و فادم عليه يجازي على الصغير و الكبير و القليل و الكثير سبحانه لا إله إلا هو

باب لا يشهد العبد على شهادة في الدنيا إلا شهد بها يوم القيامة

ابن المبارك قال : أخبرنا رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن سعيد ابن أبي هلال عن سليمان بن راشد أنه بلغه أن امرأ لا يشهد على شهادة في الدنيا إلا شهد بها يوم القيامة على رؤوس الأشهاد و لا يمتدح عبدا في الدنيا إلا امتدحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد قلت : هذا صحيح يدل على صحته من الكتاب قول الحق { ستكتب شهادتكم و يسألون } و قوله : { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } و الله أعلم

باب ما جاء في سؤال الأنبياء و في شهادة هذه الأمة للأنبياء على أمهم

قال الله تعالى : { فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم و ما كنا غائبين } و قال : { فوريك لنسألنهم أجمعين } فيبدأ بالأنبياء عليهم السلام { فيقول : ماذا أجبتهم } قيل : في تفسيرها كانوا قد

علموا و لكن ذهبت عقولهم و عزيت أفهامهم و نسوا من شدة الهول و عظيم الخطب و صعوبة الأمر فقالوا : { لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب } ثم يقرهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام و يقال : إن الهيبة تأخذ بمجامع قلوبهم فيذهلون عن الجواب ثم إن الله يثبتهم و يحدث لهم ذكرا فيشهدون بما أجابت به أمهم و يقال إنما قالوا ذلك تسليما كما فعل المسيح في قوله { تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب } و الأول أصح لأن الرسل يتفاضلون و المسيح من أجلهم لأنه كلمة الله و روحه قاله أبو حامد و خرج ابن ماجه حدثنا أبو كريب و أحمد بن سنان قالوا : [حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يجيء النبي يوم القيامة و معه الرجل و يجيء النبي و معه الرجلان و يجيء النبي و معه الثلاثة و أكثر من ذلك فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد و أمته فتدعى أمة محمد صلى الله عليه و سلم فيقال : هل بلغ هذا ؟ فيقولون : نعم فيقول : و ما علمكم بذلك ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا صلى الله عليه و سلم بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه قال فذلك قوله تعالى : { و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا }]

و ذكره البخاري أيضا بمعناه [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لييك و سعديك يارب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد و أمته فيشهدون أنه قد بلغ فذلك قوله : { و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا }]

أخرجه ابن المبارك في رقايقه مراسلا بأطول من هذا فقال : [أخبرني رشدين ابن سعد قال : أخبرني ابن أنعم المغافري عن حبان بن أبي جبلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسرائيل عليه السلام فيقول له ربه : ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت جبريل فيدعى جبريل عليه السلام فيقول : هل بلغك إسرائيل عهدي ؟ فيقول : نعم يارب قد بلغني فيخلى عن إسرائيل و يقال لجبريل هل بلغت عهدي ؟ فيقول جبريل : نعم قد بلغت الرسل فيدعى الرسل فيقول : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم فيخلى عن جبريل ثم يقال للرسل هل بلغكم عهدي ؟ فيقولون : قد بلغنا أئمتنا فتدعى الأمم فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدي ؟ فمنهم المصدق و منهم المكذب فتقول الرسل : إن لنا عليهم شهودا يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون محمد و أمته فتدعى أمة محمد فيقول : تشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليه ؟ فيقولون : نعم رب شهدنا أن قد بلغوا فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا و أنزلت إلينا عهدك و كتابك و قصصك علينا إنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب : صدقوا فذلك قوله عز و جل : { و كذلك جعلناكم أمة وسطا } و الوسط العدل { لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا } [قال ابن أنعم : قبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد إلا من كان في قلبه حنة على أخيه قلت : و ذكر هذا الخبر أبو محمد في كتاب العاقبة له فذكر بعد قوله : و الوسط العدل ثم يدعى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم ينادي كل إنسان باسمه و احدا و احدا و يسألون واحدا و احدا و تعرض أعمامهم على رب العزة جل جلاله قليلها و كثيرها حسنها و قبيحها

قال المؤلف : و ذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة أن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم و

يقتص للجماء من القرناء و يفصل بين الوحش و الطير ثم يقول لهم : كونوا ترابا فسوى بهم الأرض و حينئذ }
يود الذين كفروا و عصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض { و يتمنى الكافر فيقول : { يا ليتني كنت ترابا } ثم يخرج
النداء من قبل الله تعالى : أين اللوح اخفوظ ؟ فيؤتى به له هرج عظيم فيقول الله تعالى : أين ما سطرت فيك من
توراة و زبور و إنجيل و فرقان ؟ فيقول : يارب نقله مني الروح الأمين فيؤتى به يردد و تصك ركبته فيقول الله
تعالى : يا جبريل هذا اللوح اخفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي و وحى أصدق ؟ قال : نعم يارب قال : فما
فعلت فيه ؟ قال : أنهيت التوراة إلى موسى و أنهيت الزبور إلى داود و أنهيت الإنجيل إلى عيسى و أنهيت الفرقان إلى
محمد عليه السلام و أنهيت إلى كل رسول رسالته و إلى أهل الصحف صحائفهم فإذا بالنداء يا نوح فيؤتى به يردد
و تصطك فرائضه فيقول : يا نوح زعم جبريل أنك من المرسلين قال : صدق فقيل له : ما فعلت مع قومك ؟ قال
دعوتهم ليلا نهارا فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا فإذا بالنداء يا قوم نوح فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقال : هذا أخوكم
نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة فيقولون : يا ربنا كذب ما بلغنا من شيء و ينكرون الرسالة فيقول الله : يا نوح ألك
بينة ؟ فيقول : نعم يا رب بينتي عليهم محمد و أمته فيقولون : كيف و نحن أول الأمم و هم آخر الأمم ؟ فيؤتى
بالنبي صلى الله عليه و سلم فيقول يا محمد هذا نوح يستشهد فيشهد له تبليغ الرسالة فيقرأ صلى الله عليه و سلم
{ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه { إلى آخر السورة فيقول الجليل جل جلاله : قد وجب عليكم الحق و حقت كلمة
العذاب على الكافرين فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل و لا حساب ثم ينادي : أين هود ؟ فيفعل
قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنبي صلى الله عليه و سلم و خيار أمته فيتلو }
كذبت عاد المرسلين { فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح ثم ينادي : يا صالح و يا ثمود فيأتون فيستشهد صالح عندما
ينكرون فيتلو النبي صلى الله عليه و سلم { كذبت ثمود المرسلين { إلى آخر القصة فيفعل بهم مثلهم و لا يزال
يخرج أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بيانا و ذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى { و قرونا بين ذلك كثيرا } و قوله {
ثم أرسلنا رسلنا تنورا كلما جاء أمة رسولها { و قوله { و الذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جامعهم رسلهم بالبينات
{ و في ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم تارخ و تارح و دوحا و أسرا و ما أشبه ذلك حتى ينتهي النداء
إلى أصحاب الرس و تبع و قوم إبراهيم و في كل ذلك لا يرفع لهم ميزان و لا يوضع لهم حساب و هم عن ربهم
يومئذ لحجوبون و الترجمان يكلمهم لأن الرب تعالى من نظر إليه و كلمه لم يعذبه ثم ينادي بموسى ابن عمران فيأتي
و هو كأنه ورقة في ريح عاصف قد اصفر لونه و اصطكت ركبته فيقول له : يا ابن عمران جبريل يزعم أنه بلغك
الرسالة و التوراة فتشهد له بالبلاغ ؟ قال : نعم : قال فارجع إلى منبرك و اتل ما أوحى إليك من ربك فيرقى المنبر
ثم يقرأ فينصت له كل من في الموقف فيأتي بالتوراة غضة طرية على حسننها يوم أنزلت حتى تنوهم الأحبار أنهم ما
عرفوها يوما ثم ينادي يا داود فيأتي و هو يردد و كأنه ورقة في ريح عاصف تصطك ركبته فيصفر لونه فيقول الله
جل ثناؤه يا داود : زعم جبريل أنه بلغك الزبور فتشهد له بالبلاغ ؟ فيقول : نعم يارب فيقال له : ارجع إلى منبرك
و اتل ما أوحى إليك فيرقى ثم يقرأ و هو حسن الناس صوتا و في الصحيح أنه صاحب الزمير ثم ينادي المنادي أين
عيسى بن مريم ؟ فيؤتى به على باب المرسلين فيقول : { أنت قلت للناس اتخذوني و أمي إلهين من دون الله { ثم
يحمد تحميدها ما شاء الله تعالى و ينشئ عليه كثيرا ثم يعطف على نفسه بالدم و الاحتقار و يقول { سبحانك ما يكون
لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام
الغيوب { فيضحك الله و يقول { هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم { يا عيسى ارجع إلى منبرك و اتل الإنجيل الذي
بلغك جبريل فيقول : نعم ثم يرقى و يقرأ فتشخص إليه الرؤوس لحسن ترديده و ترجيعه فإنه أحكم الناس به رواية

فيأتي به غضا طريا حتى يظن الرهبان أنهم ما عملوا به قط ثم ينقسم قومه فرقتين المجرمون مع المجرمين و المؤمنون مع المؤمنين ثم يخرج النداء أين محمد؟ فيؤتى به صلى الله عليه و سلم فيقول يا محمد هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن فيقول : نعم يا رب فيقال له ارجع إلى منبرك و اقرأ فيتلوا صلى الله عليه و سلم القرآن فيأتي به غضا طريا له حلاوة و عليه طلاوة و يستبشر به المتقون و إذا و جوههم ضاحكة مستبشرة و المجرمون و جوههم مغبرة مقتررة فإذا تلا النبي القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط و قد قيل للأصمعي تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله قال : يا ابن أخي يوم أسمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم كأني ما سمعته فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرداقات الجلال : { و امتازوا اليوم أيها المجرمون } فيرتج الموقف و يقوم فيه روع عظيم و للملائكة قد امتزجت بالجن و الجن بيبي آدم و الكل لجة واحدة ثم يخرج النداء : يا آدم ابعث بعث النار فيقول : كم يا رب؟ فيقال له : من كل ألف تسع مائة و تسعة و تسعون إلى النار و واحد إلى الجنة على ما يأتي بيانه فلا يزال يستخرج من سائر الملحددين و العافلين و الفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق رضي الله عنه : نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه و تعالى على ما يأتي إن شاء الله تعالى

باب ما جاء في الشهداء عند الحساب

قال العلماء : و تكون المحاسبة بمشهد من النبيين و غيرهم قال الله تعالى { و جيء بالنبيين و الشهداء و قضى بينهم بالحق } و قال { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا } و شهيد كل أمة نبيها و قيل إنهم كتبة الأعمال و هو الأظهر فتحضر الأمة و رسولها فيقال للقوم : ماذا أجبتكم المرسلين و يقال للرسول ماذا أجبتكم؟ فتقول الرسل لا علم لنا على ما تقدم في الباب قبل ثم يدعى كل واحد على الانفراد فالشاهد عليه صحيفة عمله و كاتبها فإنه قد أخبر في الدنيا أن عليه ملكين يحفظان أعماله و ينسخانها و ذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة أن المنادي ينادي من قبل الله لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق و المغرب فيه جميع أعمال الخلائق فما صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربك أحدا و ذلك أن أعمال الخلائق تعرض على الله في كل يوم فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في ذلك الكتاب العظيم و هو قوله تعالى { إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون } ثم ينادي بهم فردا فردا فيحاسب كل واحد منهم فإذا الأقدام تشهد و اليدان و هو قوله تعالى { يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون } و قد جاء في الخبر أن رجلا منهم يوقف بين يدي الله تبارك و تعالى فيقول له : يا عبد السوء كنت مجرما عاصيا فيقول : ما فعلت؟ فيقال له : عليك بينة فيؤتى بحفظته فيقول كذبوا علي فتشهد جوارحه عليه فيؤمر به إلى النار فيجعل يلوم جوارحه فتقول له : ليس عن اختيارنا { أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء } و قد تقدم هذا المعنى مستوفى و تقدم أن الأرض و الأيام و الليالي و المال ممن تشهد و إذا قال الكافر لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني ختم علي فيه فتشهد أركانها كما تقدم

باب ما جاء في شهادة النبي صلى الله عليه و سلم على أمته

ابن المبارك أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو حدثنا أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا تعرض على النبي صلى الله عليه و سلم أمته غدوة و عشية فيعرفهم بسمهم و أعماهم فلذلك يشهد عليهم يقول

الله تبارك و تعالى : { فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد و جننا بك على هؤلاء شهيدا }
فصل : قلت : قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله تعالى يوم الخميس و يوم الإثنين و على الأنبياء و الآباء و
الأممات يوم الجمعة و لا تعارض فإنه يحتتمل أن يخص نبينا عليه السلام بالعرض كل يوم و يوم الجمعة مع الأنبياء و
الله أعلم

باب ما جاء في عقوبة مانعي الزكاة و فضيحة الغادر و الغال في الموقف و قت

الحساب

مسلم [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من صاحب ذهب و لا فضة لا يؤدي منها
حقها إلا إذا كان يوم القيامة صحفت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه و جبينه و ظهره
كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى
النار قيل يا رسول الله : فالإبل ؟ قال : و لا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها و من حقها حلبها يوم و ردها إذا
كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أو فر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها و تعضه بأفواهها قيل
: يا رسول الله فالبقر و الغنم ؟ قال : و لا صاحب بقر و لا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح
لها بقاع لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء و لا جحاء و لا غضباء تنطحه بقرونها و تطؤه بأظلافها كلما مر عليه
أولاه رده عليه أخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى
النار] و ذكر الحديث أخرجه البخاري بمعناه

و روى مالك موقوفا و النسائي و البخاري مرفوعا [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه و سلم : من آتاه الله مالا فلم يؤدي زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زببتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ
بلهزمته يعني شذقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا { و لا يحسبن الذين يخولون { الآية } و ذكر مسلم [من
حديث جابر قال و لا صاحب كنز لا يؤدي فيه حقه إلا جاء يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاتحا فاه فإذا آتاه فر
منه فيناديه خذ كنزك الذي خبأته فأنا عنه غني فإذا رأى أن لا بد له منه سلك يده في فيه فيقضمها قضم الفحل]
و ذكر الحديث

[و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم فذكر الغلول و عظم أمره
ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك
شيئا قد أبلغتكم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حممة يقول يا رسول الله أغثنى فأقول : لا
أملك لك شيئا قد أبلغتكم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها نغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول
: لا أملك لك شيئا قد أبلغتكم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله :
أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاغ تخفق فيقول يا رسول
الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتكم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول
الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتكم] أخرجه البخاري أيضا

[و عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا جمع الله الأولين و الآخرين يوم

القيامة يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال هذه غدره فلان ابن فلان]

[و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لكل غادر لواء عند استه

يوم القيامة] و ذكر أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا قرة بن خالد عن عبد الملك بن عمير عن رافع بن شداد عن عمرو بن الحمق الخزاعي أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا آمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء غدر يوم القيامة]

فصل : علماؤنا رحمهم الله [في قوله تعالى { و من يغفل يأت بما غل يوم القيامة } أن ذلك على الحقيقة كما بينه صلى الله عليه و سلم أي يأت به حاملا له على ظهره و رقبته معذبا بحمله و ثقله و مرعوبا بصوته و موبخا بإظهار خيانتة على رؤوس الأشهاد] و كذا مانع الزكاة كما في صحيح الحديث

قال أبو حامد : فمانع زكاة الإبل يحمل بعيرا على كاهله له رغاء و ثقل يعدل الجبل العظيم و مانع زكاة البقر يحمل ثورا على كاهله له خوار و ثقل يعدل الجبل العظيم و مانع زكاة الغنم يحمل شاة لها نعاء و ثقل يعدل الجبل العظيم و الرغاء و الخوار و النعاء كالرعد القاصف و مانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالا قد ملئت من الجنس الذي كان ييخل به برا كان أو شعيرا أثقل ما يكون ينادي تحته بالويل و الثبور و مانع زكاة المال يحمل شجاعا أقرع له زبيبتان و ذنبه قد انساب في منخرية و استدارت بجيده و ثقل على كاهله كأنه طوق بكل و حي في الأرض و كل واحد ينادي مثل هذا فتقول الملاحكة هذا ما بخلتم به في الدنيا رغبة فيه و شحا عليه و هو قوله تعالى { سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة }

قلت : و هذه الفضيحة التي أوقعها الله بالغال و مانعي الزكاة نظير الفضيحة التي يوقعها بالغادر و جعل الله هذه المعاقبات حسب ما يعهده البشر و يفهمونه ألا ترى إلى قول الشاعر :

(أسمى و يحك هل سمعت بغدرة ... رفع اللواء لنا بما في المجمع)

فكانت العرب ترفع للغادر لواء في الخافل و مواسم الحج و كذلك يطاف بالجاني مع جنائته و ذهب بعض العلماء إلى أن ما يجيء به الغال يحملته عبارة عن وزر ذلك و شهرة الأمر أي يأتي يوم القيامة قد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل يعير له رغاء أو فرسا له حمحة

قلت : و هذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز و التشبيه و قد أخبر النبي صلى الله عليه و سلم بالحقيقة فهو أولى [و قد روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادى في الناس فيجيبون بغنائمهم فيخمسها و يقسمها فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال يا رسول الله : هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة قال : أسمعت بلالا ثلاثا ؟ قال : نعم قال : فما منعك أن تجيء به فاعتذر إليه فقال كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك]

فصل : و روي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : [إن الحجر ليرن لسبع خلفات فيلقى في جهنم فيهوي فيها سبعين خريفا و يؤتى بالغلول فيلقى معه ثم يكلف صاحبه أن يأتي به قال فهو قول الله تعالى { و من يغفل يأت بما غل يوم القيامة }] ذكره علي بن سليمان المرادي في الأربعين له و قوله : [يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة] دليل على أن في الآخرة للناس أولوية فمنها أولوية خزري و فضيحة يعرف بها أهلها و منها أولوية حمد و ثناء و تشريف و تكريم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [لواء الحمد بيدي] و روي لواء الكرم و قدم و تقدم و روى الزهري [عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار] فعلى هذا من كان إماما و رأسا في أمر ما معروف به فله لواء يعرف به خيرا كان أو شرا و قد يجوز أن يكون للصالحين الأولياء أولوية يعرفون بها تنويها بهم و إكرامهم و الله أعلم و إن كانوا غير معروفين قال النبي صلى الله عليه و سلم [رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره] و قال

[إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي] أخرجهما مسلم

و قال أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة : و في الحديث الصحيح [أن أول ما يقضي الله فيه الدماء و أول من يعطى الله أجورهم الذين ذهب أبصارهم ينادى يوم القيامة بالكفوفين فيقال لهم أنتم أحرى أحق من ينظر إلينا ثم يستحي الله تعالى منهم و يقول لهم : اذهبوا إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية و تجعل بيد شعيب عليه السلام فيصير أمامهم و معهم ملائكة النور ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى يرفوهم كما ترف العروس فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف و صفة أحدهم الصبر و الحلم كابن عباس و من ضاهاه من الأئمة ثم ينادي أين أهل البلاء ؟ و يريد المجذومين فيؤتى بهم فيحييهم الله بتحية طيبة بالغة فيؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية خضراء و تجعل بيد أيوب عليه السلام فيصير أمامهم ذات اليمين و صفة المبتهلى صبر و حلم كعقيل بن أبي طالب و من ضاهاه من الأئمة ثم ينادي : أين الشباب المتعففون ؟ فيؤتى بهم إلى الله فيرحب بهم نعماً و يقول ما شاء الله أن يقول ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية خضراء ثم تجعل في يد يوسف عليه السلام و يصير أمامهم إلى ذات اليمين و صفة الشباب صبر و علم و حلم كراشد بن سليمان و من ضاهاه من الأئمة ثم يخرج النداء أين المتحابون في الله ؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيرحب بهم و يقول ما شاء الله أن يقول ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين و صفة المتحاب في الله صبر و علم و حلم لا يسخط و لا يسيء من رضى الأحوال الدنيوية كأبي تراب أعني علي بن أبي طالب رضى الله عنه و من ضاهاه من الأئمة ثم يخرج النداء أين الباكون ؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى فتوزن دموعهم و دم الشهداء و مداد العلماء فيرجع الدمع فيؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية ملونة لأنهم بكوا في أنواع مختلفة هذا بكى خوفاً و هذا بكى طمعاً و هذا بكى نلماً و تجعل بيد نوح عليه السلام فتهم العلماء بالقدم عليهم و يقولون علمنا بكاعهم فإذا النداء على رسلك يا نوح فتوقف الزمرة ثم يوزن مداد العلماء فيرجع دم الشهداء فيؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية مزعفرة و تجعل في يد يحيى عليه السلام ثم ينطلق أمامهم فيهم العلماء بالقدم عليهم و يقولون عن علمنا قاتلوا فنحن أحق بالتقدم فيضحك لهم الجليل جل جلاله و يقول لهم أنتم عندي كأنيائي أشفعوا فيمن تشاءون فيشفع العالم في جيرانه و إخوانه و يأمر كل واحد منهم ملكاً ينادي في الناس : ألا إن فلانا العالم قد أمر له أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة حين جاع أو سقاه شربة ماء حين عطش فليقم إليه فإنه يشفع له]

و في الصحيح أول من يشفع المرسلون ثم النبيون ثم العلماء و يعقد لهم راية بيضاء و تجعل بيد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة ثم ينادي : أين الفقراء ؟ فيؤتى بهم إلى الله عز و جل فيقول لهم مرحباً بمن كانت الدنيا سببهم ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية صفراء و تجعل في يد عيسى بن مريم عليه السلام و يصير إلى ذات اليمين ثم ينادي أين الأغنياء ؟ فيؤتى بهم إلى الله عز و جل فيعدد عليهم ما حولهم فيه خمسائة عام ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين و يعقد لهم راية ملونة و تجعل بيد سليمان عليه السلام و يصير أمامهم في ذات اليمين و في الحديث : [أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة : ينادى بالأغنياء و أهل الغبطة فيقال لهم : ما شغلكم عن عبادة الله ؟ فيقولون : أعطانا الله ملكاً و غبطة شغلنا عن القيام بحقه في دار الدنيا فيقال لهم : من أعظم ملكاً : أنتم أم سليمان ؟ فيقولون : بل سليمان فيقال : ما شغله ذلك عن القيام بحق الله و الدأب في ذكره ثم يقال : أين أهل البلاء ؟ فيؤتى بهم أنواعاً فيقال لهم : أي شيء شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ فيقولون : ابتلانا الله في دار الدنيا بأنواع من الآفات و العاهات شغلنا عن ذكره و القيام بحقه فيقال لهم : من أشد بلاء : أنتم أم أيوب ؟ فيقولون بل أيوب فيقال لهم : ما شغله ذلك عن حقنا و الدأب لذكرنا ثم ينادي : ابن الشباب العطرة و المماليك فيقول

الشباب : أعطانا الله جمالا و حسنا فنتنا به فكنا مشغولين عن القيام بحقه و كذلك الممالك فيقولون : شغلنا رق العبودية في الدنيا فيقال لهم : أنتم أكثر جمالا أم يوسف عليه السلام فلقد كان في رق العبودية ما شغله ذلك عن القيام بحقنا و لا الدأب لذكرنا ثم ينادي : أين الفقراء ؟ فيؤتى بهم أنواعا فيقال لهم : ما شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ فيقولون : ابتلانا الله في دار الدنيا بفقر شغلنا فيقال لهم : من أشد فقرا أنتم أم عيسى عليه السلام ؟ ! فيقولون : بل عيسى فيقول لهم : ما شغله ذلك عن القيام بحقنا و الدأب لذكرنا فمن بلى بشيء من هذه الأربع فليذكر صاحبه [

فصل : و قوله [هذه غدره فلان ابن فلان] دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم و أسماء آبائهم و قد تقدم هذا في غير موضع و في هذا رد على من قال إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك ستر على آبائهم و هذا الحديث خلاف قولهم خرج البخاري و مسلم و حسبك
فصل : و قوله [فيكوي بما جنبه] الحديث إنما خص الجنب و الجبهة و الظهر بالكي لشهرته في الوجه و شناعته و في الجنب و الظهر لأنه ألم و أوجع و قيل خص الوجه لتقطيبه في وجه السائل أولا و الجنب لأزوراره عن السائل ثانيا و الظهر لانصرافه إذا راد في السؤال و أكثر منه فرتب الله تعالى هذه العقوبات في هذه الأعضاء لأجل ذلك و الله أعلم

و قالت الصوفية : لما طلبوا الجاه و المال شان الله و جوههم و لما طواوا كشحا عن الفقير إذ جالسهم كويت جنوبهم و لما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بما و اعتمادا عليها كويت ظهورهم
فصل : و قوله { في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة } قيل : معناه لو حسب فيها غير الله تعالى و إنما هو سبحانه و تعالى يفرغ منه في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا و قيل : قدر موافقهم للحساب عن الحسن و قال ابن اليمان كل موقف منها ألف سنة

و في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [و الذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة] و قد تقدم من حديث أبي سعيد الخدري و ذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة قال : يقصر يومئذ على المؤمن حتى يكون كوقت الصلاة
و في الحديث [لا ينتصف النهار حتى يستقر أهل الجنة في الجنة و أهل النار في النار] ذكره ابن عزيز في غريب القرآن له و بطح : ألقى على وجهه قاله بعض المفسرين و قال أهل اللغة : البطح : هو البسط كيفيما كان غير الوجه أو على الوجه و منه سميت بطحاء مكة لانبساطها و بقاع قرقر أي موضع مستو واسع و أصل القاع : الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء و جمعه قيعان و العقصاء : الملتوية القرن و الجلحاء : التي لا قرن لها و العضباء : المكسورة داخله القرن يريد : إنما كلها ذوات قرون صحاح و يمكن بها النطح و الطعن حتى يكون أشد لألمه و أبلغ في عذابه و الله أعلم

باب منه و ذكر الولاية

ذكر الغيلاني أبو طالب قال : [حدثنا أبو بكر الشافعي قال : حدثنا محمد بن غالب قال : حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا روح بن القاسم عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة حتى يفكه الله بعدله أو يوبقه بجرمه] و قال [عمر لأبي ذر رضي الله عنهما : حدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : سمعته يقول : يجاء

بالوالي يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلا زال عن مكانه فإن كان مطيعاً لله في عمله عما مضى فيه و إن كان عاصياً لله عز و جل انحرف به الجسر فهو به في جهنم مقدار خمسين عاماً [فقال عمر : من يطلب العمل بعد هذا يا أبا ذر ؟ قال : من سلت الله أنفه و ألصق خذه بالتراب ذكره أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله

و روى الأئمة [عن أبي حميد الساعدي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه استعمل رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم و هذا أهدي لي فقام النبي صلى الله عليه و سلم على المنبر فحمد الله و أثنى عليه و قال : ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول هذا لكم و هذا أهدي لي أفلا أجلس في بيت أبيه و أمه فينظر أهدي إليه أم لا لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيراً فله رغاء و إن كان بقرة فلها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال : اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت [و روى أبو داود [عن بريدة عن النبي صلى الله عليه و سلم من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول]

باب ما جاء في حوض النبي صلى الله عليه و سلم في الموقف و سعته و كثره

أوانيها و ذكر أركانها و من عليها

ذهب صاحب القوت و غيره إلى أن حوض النبي صلى الله عليه و سلم إنما هو بعد الصراط و الصحيح أن للنبي صلى الله عليه و سلم حوضين : أحدهما في الموقف قبل الصراط و الثاني في الجنة و كلاهما يسمى كوثراً على ما يأتي و الكوثر في كلام العرب الخير الكثير و اختلف في الميزان و الحوض أيهما قبل الآخر فقيل : الميزان قبل و قيل : الحوض قال أبو الحسن القاسبي : و الصحيح أن الحوض قبل

قلت : و المعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الصراط و الميزان و الله أعلم و قال أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة و حكى بعض السلف من أهل التصنيف : أن الحوض يورد بعد الصراط و هو غلط من قائله قال المؤلف : هو كما قال و قد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال [بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني و بينهم فقال : هلم فقلت إلى أين ؟ فقال : إلى النار و الله قلت ما شأنهم فقال إنهم قد ارتدوا على أديبارهم القهقري ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج من بيني و بينهم رجل فقال لهم : هلم فقلت إلى أين ؟ قال إلى النار و الله قلت : ما شأنهم قال إنهم ارتدوا على أديبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همم النعم]

قلت : فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود بجازه عليه فمن جازه سلم من النار على ما يأتي و كذا حياض الأنبياء عليهم السلام تكون أيضاً في الموقف على ما يأتي

و روي [عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الوقوف بين يدي الله تعالى هل فيه ماء ؟ قال : أي و الذي نفسي بيده إن فيه ماء و إن أولياء الله تعالى ليردون حياض الأنبياء و يبعث الله سبعين ألف ملك بأيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء]

مسلم [عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : و الذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء و كواكبها في الليلة المظلمة المصححة آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب

فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضا من الثلج و أحلى من العسل]

[و عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم فسئل عن عرضه فقال : من مقامي إلى عمان و سئل عن شرابه فقال : أشد بياضا من الثلج و أحلى من العسل يغت فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب و الآخر من ورق] في غير كتاب مسلم يعب فيه ميزابان من الكوثر الحديث و في أخرى ما ييسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح

مسلم] عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفي إغفاءه ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحك يا رسول الله ؟ قال : نزلت علي آتفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم { إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك و انحر * إن شانئك هو الأبتر } ثم قال : أندرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله و رسوله أعلم قال : فإنه فخر و عدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آتيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول : يا رب إنه من أمتي فيقال : ما تدري ما أحدث بعدك] و في رواية أخرى : [ما أحدث]

[و عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم حوضي مسيرة شهر و زواياه سواء و ماؤه من الورق و ريجه أطيب من المسك كيزانه كنجوم السماء من ورد فشرب منه لم يظمأ بعده أبدا] أخرجه البخاري

[و عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن أممكم حوضا كما بين جربا و أذرح فيه أباريق كنجوم السماء من ورد فشرب منه لم يظمأ بعدها أبدا]

قال عبيد الله فسألته فقال قرئتين بالشام بينهما مسيرة ثلاث أخرجه البخاري

[و عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن حوضي أبعد من أيلة إلى عدن هو أشد بياضا من الثلج و أحلى من العسل باللبن و لآتيته أكثر من عدد النجوم و إني لأصد الناس كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه قالوا : يا رسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون علي غير محجلين من أثر الوضوء]

ابن ماجه] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن لي حوضا ما بين الكعبة و بيت المقدس أبيض مثل اللبن آتيته عدد نجوم السماء و إني لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة]

فصل : ظن بعض الناس أن هذه التحديات في أحاديث الحوض اضطراب و اختلاف و ليس كذلك و إنما تحدث النبي صلى الله عليه و سلم بمحدث الحوض مرات عديدة و ذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطبا لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها فيقول لأهل الشام ما بين أذرح و جربا و لأهل اليمن من صنعاء إلى عدن و هكذا و تارة أخرى يقدر بالزمان فيقول : مسيرة شهر و المعنى المقصود أنه حوض كبير متسع الجوانب و الزوايا فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات فخطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها و الله أعلم

و لا يخطر ببالك أو يذهب و همك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض و إنما يكون وجوده في الأرض المدلاة على مسامطة هذه الأقطار أو في الموضع تكون بدلا من هذه المواضع في هذه الأرض و هي أرض بيضاء كالقصة لم يسفك فيها دم و لم يظلم على ظهرها أحد قط كما تقدم تطهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء و يغت : معناه يصب و يشخب أي يسيل و العقر مؤخر الحوض حيث تقف الإبل إذا وردته و تسكن قافه و تضم فيقال : عقر و عقر كعسر و عسر قاله في الصحاح و المهمل من النعم الضوال من الإبل واحلها هامل قاله الهروي و المعنى

أن الناجي منهم قليل كهمل النعم و يقال : إن على أحد أركانه أبا بكر و على الثاني عمر و على الثالث عثمان و على الرابع عليا

قلت : هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع و قد رفعه صاحب الغيلانيات من حديث [حميد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن على حوضي أربعة أركان فأول ركن منها في يد أبي بكر و الركن الثاني في يد عمر و الركن الثالث في يد عثمان و الركن الرابع في يد علي رضي الله عنهم أجمعين فمن أحل أبا بكر و أبغض عمر لم يسقه أبو بكر و من أحب عمر و أبغض أبا بكر لم يسقه عمر و من أحب عثمان و أبغض عليا لم يسقه عثمان و من أحب عليا و أبغض عثمان لم يسقه علي] و ذكر الحديث باب منه

ذكر أبو داود الطيالسي : قال : [حدثنا شعبة قال : أخبرني عمرو بن مرة قال : سمعت أبا حمزة عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما أنتم بجزء من مائة ألف أو سبعين ألف جزء ممن يرد على الحوض و كانوا يومئذ ثمانمائة أو تسعمائة] و الله أعلم

باب فقراء المهاجرين أول الناس و رود الحوض على النبي صلى الله عليه و

سلم

ابن ماجه [عن الصنابجي الأحمسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ألا إني فرطكم على الحوض و إني مكاتر بكم الأمم فلا تقتتلن بعدي]
و خرج [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن حوضي ما بين عدن إلى إبلة أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل أكلويبه كعدد نجوم السماء من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدا و أول الناس من يرد على الحوض فقراء المهاجرين : الدنس ثيابا الشعث رؤوسا الذين لا ينكحون المتنعمات و لا تفتح لهم أبواب السدد قال : فبكى عمر حتى ابتلت لحيته فقال : لكني نكحت المتنعمات و فتحت لي أبواب السدد لا جرم أني لا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ و لا أدهن رأسي حتى تشعث] خرجه الترمذي
عن أبي سلام الحبشي قال : بعث إلي عمر بن عبد العزيز فحملت على البريد قال : فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين : لقد شق مركبي البريد فقال : يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك و لكن بلغني عنك حديث تحدته عن ثوبان عن النبي في الحوض فأحببت أن تشافهني به
قال أبو سلام : [حدثني ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد] فذكره بمعناه و قال حديث حسن غريب
و قال أنس بن مالك رضي الله عنه : [أول من يرد الحوض على رسول الله صلى الله عليه و سلم الذابلون الناحلون السائحون الذي إذا جنهم الليل استقبلوه بالخرن]

باب ذكر من يطرد عن الحوض

البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي فيقال لي : لا تدري ما أحدثوا بعدك]
و [عن أبي هريرة أنه كان يتحدث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يرد علي الحوض رهط من أصحابي

فيخلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري]

مسلم [عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم و سيؤخذ ناس دوني فأقول : يا رب مني و من أمتي فيقال : أما شعرت ما عملوا بعدك ؟ و الله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم] و في حديث أنس [فيحتج العبد منهم فأقول : يا رب من أمتي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك] و قد تقدم و كذلك حديث البخاري [إذا زمرة حتى إذا عرفتهم] تقدم أيضا و في الموطأ و غيره من حديث أبي هريرة فقالوا : كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك يا رسول الله ؟ الحديث و فيه قال : [فإنهم يأتون غرامحجلين من أثر الوضوء]

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله و لم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه و أشلهم طردا من خالف جماعة المسلمين و فارق سبيلهم كالخارج على اختلاف فرقها و الروافض على تباين ضلالها و المعتزلة على أصناف أهوائها فهؤلاء كلهم مبدلون و كذلك الظلمة المسرفون في الجور و الظلم و تطميس الحق و قتل أهله و إذلالهم و المعنونون بالكبائر المستحفون بالمعاصي و جماعة أهل الزيغ و الأهواء و البدع ثم البعد قد يكون في حال و يقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال و لم يكن في العقائد و على هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به ثم يقال لهم سحقا و إن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يظهرون الإيمان و يسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر ثم يكشف لهم الغطاء فيقول لهم : سحقا سحقا و لا يخلد في النار إلا كافر جاحد مبطل ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان

و قد يقال : إن من أهدى الله عليه و عبده من أهل الكبائر إنه و إن ورد الحوض و شرب منه فإنه إذا دخل النار بمشيئة الله تعالى لا يعذب بعطش و الله أعلم

و روى الترمذي [عن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أعيدك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي فمن غشى أبواهم فصدقهم في كذبهم و أعانهم على ظلمهم فليس مني و لست منه و لا يرد على الحوض و منه غشى أبواهم و لم يصدقهم في كذبهم و لم يعنهم على ظلمهم فهو مني و أنا منه و سيرد على الحوض يا كعب بن عجرة : الصلاة برهان و الصبر جنة حصينة و الصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار يا كعب بن عجرة إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب و خرجه أيضا في كتاب الفتن و صححه

و خرج الأوزاعي أبو عمر في مسنده قال : [حدثني عمرو بن سعد قال : حدثني يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك أنه سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول : حوضي ما بين أيلة إلى مكة أباريقه كنجوم السماء أو كعدد نجوم نجوم السماء له ميزابان من الجنة كلما نصب أمداه من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا و سيأتيه قوم ذابلة شفاههم لا يطمعون منه قطرة واحدة من كذب به اليوم لم يصب منه الشرب يومئذ]

و خرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول [من حديث عثمان بن مظعون عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال في آخره : يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغبت عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت للملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة] و قد ذكرناه بكامله في آخر كتاب قمع الحرص بالزهد و القناعة

باب ما جاء أن لكل نبي حوضا

الترمذي [عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن لكل نبي حوضا و أنهم يتباهون أيهم أكثر وارده و إني أرجو أن أكون أكثرهم وارده] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب رواه قتادة عن الحسن عن سمرة و قد رواه الأشعث ابن عبد الملك عن الحسين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم و لم يذكر فيه غير سمرة و قال البكري المعروف بابن الواسطي : لكل نبي حوض إلا صالحا فإن حوضه ضرع ناقته و الله سبحانه و تعالى أعلم

باب ما جاء في الكوثر الذي أعطيه صلى الله عليه و سلم في الجنة

البخاري [عن أنس بن مالك عن النبي قال : بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر في الجنة حافناه قباب الدر المحجوف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أذفر] — شك هدية — خرجه أبو عيسى الترمذي بمعناه و زاد [ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فرأيت عندها نورا عظيما] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح و خرج ابن وهب قال : [أخبرني شيبان عن أبان عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : حين عرج به إلى السماء قال : رأيت نورا عجائبا مثل السهم يطرد أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل حافناه قباب من در محجوف فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا نهر الكوثر الذي أعطاك ربك قال : فضربت يدي إلى حماته فإذا هو مسك أذفر ثم ضربت يدي إلى رضوضه فإذا هو در] الترمذي [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الكوثر نهر في الجنة حافناه من ذهب و مجراه الدر و الياقوت تربته أطيب من المسك و ماؤه أحلى من العسل و أبيض من الثلج] هذا حديث حسن و الله أعلم

تم الجزء الأول

من كتاب التذكرة في أحوال الموتى و أمور الآخرة

و يليه

الجزء الثاني حسب تقسيم النسخة المصورة

أبواب الميزان باب ما جاء في الميزان و أنه حتى

قال الله تعالى { و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا } و قال { فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * و أما من خفت موازينه * فأمه هاوية } قال العلماء : و إذا انقضت الحساب كان بعد وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد الحاسبة فإن الحاسبة لتقدير الأعمال و الوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال الله تعالى { و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا } الآية و قال { فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * و أما من خفت موازينه } إلى آخر السورة و قال { و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم } الآيتين في الأعراف و المؤمنين و هذه الآيات إخبار لوزن أعمال الكفار لأن عامة المعنيين بقوله خفت موازينه في هذه الآيات هم الكفار و قال في سورة المؤمنين { فكنتم بما تكذبون } و في الأعراف { بما كانوا بآياتنا يظلمون } و قال { فأمه هاوية } و هذا الوعيد بإطلاقه للكفار و إذا جمع بينه و بين قوله { و إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها } و كفى بنا حاسبين { ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه الحق من أصل الدين و فروعه إذ لم يسألوا عما خالفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم و لم يحاسبوا به و لم يعتد بها في الوزن أيضا فإذا كانت موزونة دل على أنهم يحاسبون بها وقت

الحساب و في القرآن ما يدل أنهم مخاطبون بما مسؤولون عنها محاسبون بما مجزيون على الإخلال بما لأن الله تعالى يقول : { وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة } فتوعلهم على منعهم الزكاة و أخبر عن الجرمين أنهم يقال لهم { ما سللكم في سقر } الآية فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان و البعث و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و أنهم مسؤولون عنها محتسبون مجزيون على الإخلال بما

و في البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة و أقرأوا إن شئتم { فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا }]

قال العلماء : معنى هذا الحديث أنه لا ثواب لهم و أعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين يوم القيامة و من لا حسنة له فهو في النار قال أبو سعيد الخدري : يؤتى بأعمال كجبال قمامة فلا تزن شيئاً و قيل : يحتمل أن يريد الجواز و الاستعارة كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ و الله أعلم و فيه من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم و الاشتغال بما عن المكارم بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المتغى به الترفه و السمن و قد قال صلى الله عليه و سلم [إن أبغض الرجال إلى الله الحر السمين]

باب منه و بيان كيفية الميزان و وزن الأعمال فيه و من قضى لأخيه حاجة

الترمذي [عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة و تسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتكر من هذا شيئاً أظلمك كسبي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يارب فيقول : بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده و رسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم قال فوضع السجلات في كفة و البطاقة في كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة فلا يتحمل مع اسم الله شيء] قال حديث حسن غريب و أخرجه ابن ماجه في سننه و قال بدل قوله في أول الحديث [إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق] و ذكر الحديث

و قال محمد بن يحيى : البطاقة : الرقعة أهل مصر يقولون للرقعة بطاقة و في الخبر [إذا خفت حسنة المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم بطاقة كالأتملة فيلقبها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي صلى الله عليه و سلم بأبي أنت و أمي ما أحسن وجهك و ما أحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك محمد و هذه صلاتك علي التي كنت تصلي علي قد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها] ذكره القشيري في تفسيره و ذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده [من حديث مالك بن أنس و العمري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قضى لأخيه حاجة كت و أقفا عند ميزانه فإن رجح و إلا شفعت له]

فصل : قال المؤلف : الميزان حق و لا يكون في حق كل أحد بدليل قوله عليه السلام فيقال يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه الحديث و قوله تعالى { يعرف المجرمون بسيماهم } الآية و إنما يكون لمن بقي من أهل الحشر ممن خلط عملاً صالحاً و آخر سيئاً من المؤمنين و قد يكون للكافرين على ما ذكرنا و يأتي و قال أبو حامد : و السبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لا يرفع لهم ميزان و لا يأخذون صحفاً و إنما هي برءات مكتوبة لا إلا الله محمد رسول الله هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر له و سعد سعادة لا يشقى

بعدها فما مر عليه شيء أسر من ذلك لمقام

قلت : و قد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أن قال : [تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان و لا ينتشر لهم ديوان و يصب عليهم الأجر صبا بغير حساب] ذكره القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله و خرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب و يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان و لا ينشر لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا حتى إن أهل العافية ليرتمون في الموقف أن أجسامهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله تعالى لهم] هذا حديث غريب من حديث جابر الجعفي و قتادة و تفرد به قتادة عن جابر عن ابن عباس عن مجاعة ابن الزبير

[و روى الحسين بن علي رضوان الله عليهما قال : قال لي جدي صلى الله عليه و سلم : يا بني عليك بالقناعة تكن أغنى الناس و أد الفرائض تكن أعبد الناس يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا ينصب لهم ميزان و لا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا و قرأ صلى الله عليه و سلم { إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب }] ذكره أبو الفرج الجوزي في كتاب روضة المشتاق

فصل : فإن قيل : أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فثقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن و الكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره و سيئاته و أن يتحقق في أعماله الوزن ؟

فالجواب : إن ذلك على الوجهين

أحدهما : أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره و سيئاته في إحدى كفتيه ثم يقال له : هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى ؟ فلا يجدها فيشال الميزان فترفع الكفة الفارغة و تقع الكفة المشغولة فذلك خفة ميزانه و هذا ظاهر الآية لأن الله تعالى وصف الميزان بالخفة لا الموزون و إذا كان فارغا فهو خفيف و الوجه الآخر : أن الكافر يكون منه صلة الأرحام و مؤاسة الناس و عتق المملوك و نحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قرابة و طاعة فمن كان له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع و توضع في ميزانه غير أن الكفر إذا قابلها رجع بها و لم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفا و لو لم يكن له إلا خيرا واحد أو حسنة واحدة لأحضرت و وزنت كما ذكرنا

فإن قيل : لو احتسبت خيراته حتى يوزن لجوزي بها جزاء مثلها و ليس له منها جزاء لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل عن عبد الله ابن جدعان و قيل له : إنه كان يقري الضيف و يصل الرحم و يعين في النوائب فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : [لا لأنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين] و سأله عدي بن حاتم عن أبيه مثل ذلك فقال : [إن أباك طلب أمرا فأدركه] يعني الذكر فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات و أن وجودها و عدمها بمنزلة واحدة سواء

و الجواب : أن الله تعالى قال { و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا } و لم يفصل بين نفس و نفس فخيرات الكافر توزن و يجزى بها إلا أن الله تعالى حرم عليه الجنة فجراؤه أن يخفف عند بدليل حديث أبي طالب فإنه قيل له : يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك و ينصرك فهل نفعه ذلك ؟ فقال [نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح و لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار] و ما قاله عليه السلام في ابن

جدعان و أبي عدي إنما هو في أنهما لا يدخلان الجنة و لا يتنعمان بشيء من نعيمها و الله أعلم
فصل : أصل ميزان موزان قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها قال ابن فورك : و قد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم
على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها و من المتكلمين من يقول كذلك و روي ذلك عن ابن عباس
أن الله تعالى يقالب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة و قد تقدم بهذا المعنى
و الصحيح ان الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة و بما تخف كما دل عليه الحديث الصحيح و الكتاب
العزير قال الله عز و جل { و إن عليكم لحافظين * كراما كاتبين } و هذا نص قال ابن عمر : توزن صحائف
الأعمال و إذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة
أعماله بإدخاله الجنة أو النار و روي عن مجاهد و الضحاك و الأعمش أن الميزان هنا بمعنى العدل و القضاء و ذكر
الوزن و الميزان ضرب مثل كما يقول هذا الكلام في وزن هذا و في وزنه أي يعادله و يساويه و إن لم يكن هناك
وزن

قلت : و هذا القول مجاز و ليس بشيء و إن كان شائعا في اللغة للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي و وصفه بكفتين و
لسان و إن كل كفة منهما طباق السموات و الأرض
و قد جاء أن كفة الحسنات من نور و الأخرى من ظلام و الكفة النيرة للحسنات و الكفة المظلمة للسيئات و جاء
في الخبر أن الجنة توضع عن يمين العرش و النار عن يسار العرش و يؤتى بالميزان فينصب بين يدي الله تعالى كفة
الحسنات عن يمين العرش مقابل الجن و كفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار و ذكره الترمذي الحكيم في
نوادير الأصول

و روي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال : توضع الموازين يوم القيامة فلو وضعت فيهن السموات و
الأرض لوسعهتن فتقول الملائكة : يا ربنا ما هذا ؟ فيقول : أزن به لمن شئت من خلقي فتقول الملائكة عند ذلك :
ربنا ما عبدناك حق عبادتك و قال ابن عباس رضي الله عنهما : توزن الحسنات و السيئات في ميزان له لسان و
كفتان قال علماؤنا : و لو جاز حمل الميزان على ما ذكره لجاز حمل الصراط على الدين الحق و الجنة و النار على
ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحران و الأفراح و الشياطين و الجن على الأخلاق المذمومة و الملائكة
على القوى الحمودة و هذا كله فاسد لأنه ردا لما جاء به الصادق و في الصحيحين : فيعطي صحيفة حسناته فيخرج
له بطاقة و ذلك يدل على الميزان الحقيقي و أن الموزون صحف الأعمال كما بينا و بالله توفيقنا
و لقد أحسن من قال :

(تذكر يوم تأتي الله فردا ... و قد نصبت موازين القضاء)

(و هتكت الستور عن المعاصي ... و جاء الذنب منكشف الغطاء)

فصل : قال علماؤنا رحمهم الله : الناس في الآخر ثلاث طبقات متقون لا كبائر لهم و مخلطون و هم الذين يوافقون
بالفواحش و الكبائر و الثالث الكفار

فأما المتقون : فإن حسناتهم توضع في الكفة النيرة و صغائرهم إن كانت لهم الكفة الأخرى فلا يجعل الله لتلك
الصغائر وزنا و تثقل الكفة النيرة حتى لا تبرح و ترتفع المظلمة ارتفاع الفراع الخالي
و أما المخلطون فحسناتهم توضع في الكفة النيرة و سيئاتهم في الكفة المظلمة فيكون لكبائرهم ثقل فإن كانت
الحسنات أثقل و لو بصوابة دخل الجنة و إن كانت السيئات أثقل و لو بصوابة دخل النار إلا أن يغفر الله و إن
تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي هذا إن كانت للكبائر فيما بينه و بين الله و أما إن كانت عليه

تبعات و كانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات لكثرة ما عليه من التبعات فيحمل عليه من أوزار من ظلمه ثم يعذب على الجميع هذا ما تقتضيه الأخبار على ما تقدم و يأتي

قال أحمد بن حرب : تبعث الناس يوم القيامة على ثلاث فرق : فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة و فرقة فقراء و فرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس في شأن التبعات

و قال سفیان الثوري : إنك أن تلقى الله عز و جل بسبعين ذنبا فيما بينك و بينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك و بين العباد

قال المؤلف : هذا صحيح لأن الله غني كريم و ابن آدم فقير مسكين محتاج في ذلك اليوم إلى حسنة يدفع بها سيئة إن كانت عليه حتى ترجح ميزانه فيكثر خيره و ثوابه

و أما الكافر فإنه يوضع كفه في الكفة المظلمة و لا يوجد له حسنة توضع في الكفة الأخرى فتبقى فارغة لفرغها و خلوها عن الخير فيأمر الله بهم إلى النار و يعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره و آثامه

و أما المتقون فإن صغائرهم تكفر باجتنابهم الكبائر و يؤمر بهم إلى الجنة و يتاب كل واحد منهم بقدر حسناته و طاعته فهذان الصنفان هما المذكوران في القرآن في آيات الوزن لأن الله تعالى لم يذكر إلا من ثقلت موازينه و من خفت موازينه و قطع لمن ثقلت موازينه بالإفلاح و العيشة الراضية و لمن خفت موازينه بالخلود في النار بعد أن وصفه بالكفر و بقي الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا فيبينهم النبي صلى الله عليه و سلم حسب ما ذكرناه

و إنما توزن أعمال المؤمن النقي لإظهار فضله كما توزن أعمال الكافر لخزيه و ذله فإن أعماله توزن تبكيته له على فراغه و خلوه عن كل خير فكذلك توزن أعمال المتقي تحسينا لحاله و إشارة لخلوه من كل شر و تربيينا لأمره على رؤوس الأشهاد و أما المخلط السيء بالصالح فإن دخل النار فيخرج بالشفاعة على ما يأتي

فصل : فإن قيل : أخبر الله عن الناس أنهم محاسبون مجزيون و أخبر أنه يملأ جهنم من الجنة و الناس أجمعين و لم يخبر عن ثواب الجن و لا عن حسابهم بشيء فما القول في ذلك عندكم و هل توزن أعمالهم ؟

فالجواب : أنه قد قيل إن الله تعالى لما قال { و الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون } دخل في الجملة الجن و الإنس فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ما ثبت للإنس و قال { أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس إنهم كانوا خاسرين } ثم قال { و لكل درجات مما عملوا } و إنما أراد لكل من الجن و الإنس فقد ذكروا في الوعد و الوعيد مع الإنس و أخبر تعالى أن الجن يسألون فقال خيرا عما يقال لهم : { يا معشر الجن و الإنس ألم يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا } و هذا سؤال و إذا ثبت بعض السؤال ثبت كله و قد تقدم هذا و قال تعالى { و إذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن } إلى قوله { يا قومنا أجبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم * } و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين } و هذا يدل صريحا على أن حكمهم في الآخرة كالمؤمنين و قال حكاية عنهم { و أنا منا المسلمون و أنا القاسطون } الآيتين

و لما جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم زادهم كل عظيم و علف دوابهم كل روث فلا تستجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجان فجعلهم إخوانا و إذا كان كذلك فكحكمهم كحكمنا في الآخرة سواء و الله أعلم و قد تقدمت الإشارة إلى هذا في باب ما جاء أن الله يكلم العبد ليس بينه و بينه ترجمان

فصل : قوله في الحديث : [فيخرج له بطاقة فيه أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا عبده و رسوله] ليست

هذه شهادة التوحيد لأن من شأن الميزان أن يوضع في كفة شيء و في أخرى ضده فتوضع الحسنات في كفة و السيئات في كفة فهذا غير مستحيل لأن العبد يأتي بما جميعا و يستحيل أن يأتي الكفر و الإيمان جميعا عند واحد حتى يوضع الإيمان في كفة و الكفر في كفة فلذلك استحال أن توضع شهادة التوحيد في الميزان و أما بعد ما آمن العبد فإن النطق منه بلا إله إلا الله حسنة توضع في الميزان مع سائر الحسنات قاله الترمذي الحكيم رحمه الله و قال غيره : إن النطق بما زيادة ذكر على حسن نية و تكون طاعة مقبولة قالها على خلوة و خفية من المخلوقين فتكون له عند الله تبارك و تعالى وديعة يردها عليه في ذلك اليوم بعظم قدرها و محل موقعها و ترجح بخطاياها و إن كثرت و بذنوبه و إن عظمت و لله الفضل على عبادته و يتفضل على من يشاء بما شاء

قلت : و يدل على هذا قوله في الحديث فيقول : [بلى إن لك عندنا حسنة و لم يقل إن لك إيمان و قد سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن لا إله إلا الله أمن الحسنات هي ؟ فقال : من أعظم الحسنات] خرجه البيهقي و غيره و يجوز أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا [كما في حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله و جبت له الجنة] رواه صالح بن أبي غريب عن كثير بن مرة عن معاذ و قد تقدم أول الكتاب

و قيل : يجوز حمل هذه الشهادة على الشهادة التي هي الإيمان و يكون ذلك في كل مؤمن ترجح حسناته و يوزن إيمانه كما توزن سائر حسناته و إيمانه يرجح سيئاته كما في هذا الحديث و يدخله النار بعد ذلك فيطهره من ذنوبه و يدخله الجنة بعد ذلك و هذا مذهب قوم يقولون : إن كل مؤمن يعطى كتابه بيمينه و كل مؤمن يتقبل ميزانه و يتأولون قوله الله تعالى { فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون } أي الناجون من الخلود و هو في قوله { فهو في عيشة راضية } يوما ما و كذلك في قول النبي صلى الله عليه و سلم من كان آخر كلامه [لا إله إلا الله و جبت له الجنة] إنه صائر إليها لا محالة أصابه قبل ذلك ما أصابه

قلت : هذا تأويل فيه نظر يحتاج إلى دليل من خارج ينص عليه و الذي تدل عليه الآي و الأخبار أن من تهل ميزانه فقد نجا و سلم و بالجنة أيقن و علم أنه لا يدخل النار بعد ذلك و الله أعلم و قال عليه السلام : [ما شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن] خرجه الترمذي عن أبي الدرداء و قال فيه حديث حسن صحيح و قد تقدم من حديث [سمرة بن جندب : و رأيت رجلا من أممي قد خف ميزانه فجاء أفراده فثقلوا ميزانه و كذلك الأعمال الصالحة دليل على فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم]

و ذكر القشيري في التحبير له : يحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت بعضهم في المنام فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال : وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات فجاءت صرة من السماء و سقطت في كفة الحسنات فرجحت فحللت الصرة فإذا فيها كف تراب أقيته في قبر مسلم و ذكر أبو عمر في كتاب جامع بيان العلم بإسناده عن حماد بن زيد عن أبي حنيفة عن حماد بن إبراهيم في قوله عز و جل { و نضع الموازين القسط ليوم القيامة } قال : يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فتخفف فيجاء بشيء أمثال الغمام أو قال مثل السحاب فيوضع في ميزانه فترجح فيقال له : أتدري ما هذا فيقول : لا فيقال له : هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس أو نحو ذلك

باب منه

الترمذي [عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا قعد بين يدي النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله : إن لي مملوكين يكذبونني و يخونونني و يعصونني و أشتهمهم و أضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : بحسب ما خانوك و عصوك و كذبوك و عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقص لهم منك الفضل قال : فتنحى الرجل فجعل يكي و يهتف فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تقرأ كتاب الله تعالى { ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا } الآية؟ فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لي وهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار كلهم [قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان و قد روى أحمد بن حنبل عن عبد الرحمن بن غزوان هذا الحديث و عن وهب بن منبه في قوله تعالى { ونضع الموازين القسط ليوم القيامة } قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها و إذ أراد الله بعبد خيرا حتم له بخير و إذا أراد الله به شرا حتم له بشر عمله ذكره أبو نعيم قال المؤلف هذا صحيح يدل عليه قوله عليه السلام [و إنما الأعمال بالخواتيم] و الله تعالى أعلم

باب منه و ذكر أصحاب الأعراف

ذكر خيثمة بن سليمان في مسنده [عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم توضع الموازين يوم القيامة فتوزن السيئات و الحسنات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة و من رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار قيل يا رسول الله : فمن استوت حسناته و سيئاته؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها و هم يطعمون] و ذكر ابن المبارك قال أخبرنا أبو بكر الهذلي عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة و من كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ { فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم } ثم قال إن الميزان يخف بمثقال حبة أو ترجح قال و من استوت حسناته و سيئاته كان من أصحاب الأعراف و ذكر الحديث

و قال كعب الأخبار : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا فيمر أحدهما بصاحبه و هو يجر إلى النار فيقول له أخوه : و الله ما بقي لي إلا حسنة أنجو بها خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى و أبقى أنا و إياك من أصحاب الأعراف قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة

و ذكر أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : أنه يؤتى برجل يوم القيامة فما يجد له حسنة ترجح ميزانه و قد اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى رحمة منه : اذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة فيصير يجوس خلال العالمين فيما يجد أحدا يكلمه في ذلك الأمر إلا يقول له خفت أن يخف ميزاني فأنا أخرج منك إليها فيأمر الله فيقول له رجل : ما الذي تطلب؟ فيقول : حسنة واحدة فلقد مررت بقوم لهم منها الألف فدخلوا علي فيقول له الرجل : لقد لقيت الله تعالى فما وجدت في صحيفتي إلا حسنة واحدة و ما أظنها تغني عني شيئا خذها هبة مني إليك فينطلق فرحا مسرورا فيقول الله له : ما بالك و هو أعلم فيقول : رب اتفق من أمري كيت و كيت ثم ينادي سبحانه بصاحبه الذي وهبه الحسنة فيقول له سبحانه : كرمي أوسع من كرمك خذ بيد أخيك و انطلقا إلى الجنة و كذا تسوي كفتا الميزان لرجل فيقول الله تعالى له : لست من أهل الجنة و لا من أهل النار فيأتي الملك بصحيفة فيضعها في كفة الميزان فيها مكعب أف فترجح على الحسنات لأنها كلمة عقوق ترجح بها جبال الدنيا فيؤمر به إلى النار قال : فيطلب الرجل أن يرد الله تعالى فيقول : ردوه فيقول له أيها العبد العق لأي شيء تطلب الرد إلي فيقول : إلهي رأيت أبي سائر إلى النار و إذ لا بد لي منها و كنت عاقا لأبي و هو سائر إلى النار مثلي فضعف علي به عذابي و أقذره منها قال : فيضحك الله تعالى و يقول : عققته في الدين و بررته في الآخرة خذ بيد

أيك و انطلقا إلى الجنة

فصل : ذكر الله تعالى الميزان في كتابه بلفظ الجمع و جاء السنة بلفظ الأفراد و الجمع فقيل : يجوز أن يكون هنالك موازين للعمل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من الأعمال كما قال :

(ملك تقوم الحوادث لعدله ... فلكل حادثة لها ميزان)

(تتصرف الأشياء في ملكوته ... و لك شيء مدة و أوان)

و يمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع كما قال تعالى { كذبت عاد المرسلين } و { كذبت قوم نوح

المرسلين } و إنما هو رسول واحد و قيل : المراد بالموازين جمع موزون أي الأعمال الموزونة لا جمع ميزان

و خرج اللالكائي في سننه عن أنس رفعه : أن ملكا موكل بالميزان فيؤتى بادن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن

رجح نادى الملك بصوت يسمع الخلائق كلها : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا و إن خف نادى الملك :

شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا و خرج عن حذيفة قال : [صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام]

فصل : و أما أصحاب الأعراف فيقال : إنهم مساكين أهل الجنة ذكر هناد بن السري قال : حدثنا وكيع عن سفيان

عن مجاهد عن حبيب عن عبد الله بن الحارث قال : أصحاب الأعراف ينتهي بهم إلى نهر يقال له الحياة حافته قصب

الذهب قال : أراه قال مكمل باللؤلؤ فيغتسلون منه اغتسالة فيبدو في نحورهم شامة بيضاء ثم يعودون فيغتسلون

فكلما اغتسلوا زادت بيضا فيقال لهم : تمتوا فيتمنون ما شاءوا قال : فيقال لهم لكم ما تمنيتم و سبعين ضعفا قالوا

: فهم مساكين أهل الجنة و في رواية : فإذا دخلوا الجنة و في نحورهم تلك الشامة البيضاء فيعرفون بها قال : فهو

يسمون في الجنة مساكين أهل الجنة

و اختلف العلماء في تعيينهم على اثني عشر قولاً :

الأول : ما تقدم ذكره في الحديث و هو قول ابن مسعود و كعب الأحبار كما ذكرنا و ذكره ابن وهب عن ابن

عباس

الثاني : قوم صالحون فقهاء علماء قاله مجاهد

الثالث : هم الشهداء ذكره المهدي

الرابع : هم فضلاء المؤمنين و الشهداء فرغوا من شغل أنفسهم و تفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره أبو نصر عبد

الرحيم بن عبد الكريم القشيري

الخامس : هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم قاله شرحبيل بن سعد و ذكر الطبري في ذلك

حديثا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم : و أنه تعادل عقوبتهم و استشهداهم

السادس : هم العباس و حمزة و علي بن أبي طالب و جعفر ذو الجناحين يعرفون محبيهم ببيضا لوجوه و مبغضهم

بسواد الوجوه ذكره الثعلبي عن ابن عباس

السابع : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم و هم في كل أمة ذكره الزهراوي و اختاره النحاس

الثامن : هم قوم أنبياء قاله الزجاج

التاسع : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام و المصائب في الدنيا فوقفوا و ليست لهم كبائر فحيسبون

عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم حكاها ابن عطية القاضي أبو محمد في تفسيره

العاشر : ذكره ابن وهب عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف الذين ذكر الله في القرآن أصحاب الذنوب

العظام من أهل القبلة و ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا جويرير عن الضحاك عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف

رجال كانت لهم ذنوب عظام و كان جسيم أمرهم لله فأقيموا ذلك المقام إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه و قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين و إذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم قال ابن عباس : أدخل الله أصحاب الأعراف الجنة و في رواية سعيد بن جبير عن عبد الله بن مسعود و كانوا آخر أهل الجنة دخولا الجنة

قال ابن عطية : و تمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون الحادي عشر : أنهم أولاد الرنا ذكره أبو نصر القشيري عن ابن عباس الثاني عشر : أنهم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل دخولهم الجنة و النار قاله أبو مجلز لاحق بن حميد فقيل له : لا يقال للملائكة رجال فقال : إنهم ذكور و ليسوا إناث فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم كما وضع على الجن في قوله تعالى { و أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن } و الأعراف : سور بين الجنة و النار قيل : هو جبل أحد يوضع هناك روى عن النبي صلى الله عليه و سلم من طريق أنس و غيره ذكره أبو عمر بن عبد البر و غيره حسب ما ذكرناه في كتاب جامع أحكام القرآن من سورة الأعراف و الحمد لله حكاية

روي عن بعض الصالحين رضي الله عنه أنه قال : أخذتني ذات ليلة سنة فتمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت و كأن الناس يحاسبون فقوم يمضي بهم إلى الجنة و قوم يمضي بهم إلى النار قال : فأتييت إلى الجنة فنأديت أهل الجنة بماذا نلتهم سكنى الجنة في محل الرضوان ؟ فقالوا : بطاعة الرحمن و مخالفة الشيطان ثم أتيت إلى باب النار فنأديت يا أهل النار : بماذا نلتهم النار ؟ قالوا : بطاعة الشيطان و مخالفة الرحمن قال : فنظرت فإذا أنا بقوم موقوفون بين الجنة و النار فقالوا لي : لنا ذنوب جلت و حسنات قلت فالسيئات منعنا من دخول الجنة و الحسنات منعنا دخول النار و أنشلوا :

(نحن قوم لنا ذنوب كبار ... منعنا من الوصول إليه)

(تركنا مذبذبين حيارى ... أمسكتنا من القدوم عليه)

باب إذا كان يوم القيامة تتبع كل أمة ما كانت تعبد فإذا بقي في هذه الأمة

منافقون امتحنوا و ضرب الصراط

الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد فيمثل لصاحب الصليب صليبه و لصاحب التصاوير تصاويره و لصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون و يبقى المسلمون] و ذكر الحديث بطوله

و خرج مسلم [أن ناسا قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم هل تضارون في القمر ليلة البدر قالوا : لا يا رسول الله قال هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا قال : فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس و يتبع من كان يعبد القمر القمر و يتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت و تبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون

نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه و يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا و أمتي أول من يجوز و لا يتكلم يومئذ إلا الرسل و دعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم و في جهنم كالليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان؟ قالوا نعم يا رسول الله قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله و منهم المجازى حتى ينجى] و ذكر الحديث و سيأتي

فصل : ذكر الفقيه أبو بكر بن بركان في كتاب الإرشاد له بعد قوله : يفهم رؤوس الخشر لطلب من يشفع و يريهم مما هم فيه و هم رؤوس أتباع الرسل فيكون ذلك ثم يؤمر آدم عليه السلام بأن يخرج بعث النار من ذريته و هم سبعة أصناف البعثان الأولان يلتقطهم عنق النار من بين الخلائق لقط الحمام حب السمسم و هم أهل الكفر بالله جحدوا و عتوا و أهل الكفر بالله إعراضا و جهلا ثم يقال لأهل الجمع : أين ما كنتم تعبدون من دون الله لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فمن كان يعبد من دون الله شيئا اتبعه حتى يقذف به في جهنم قال الله عز و جل : { هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت و ردوا إلى الله مولاهم الحق و ضل عنهم ما كانوا يفتنون } و قال : { فكبكوا فيها هم و الغاوون * و جنود إبليس أجمعون }

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [تمد الأرض مد الأديم يوم القيامة لعظمة الله عز و جل ثم لا يكون لبشر من بني آدم منها إلا موضع قلميه ثم ادعى أنا أول الناس فأخر ساجدا ثم يؤذن لي فأقول يا رب : خبرني هذا جبريل صلى الله عليه و سلم و هو عن يمين عرش الرحمن تبارك و تعالى أنك أرسلته إلي و جبريل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله عز و جل صدق ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول : يا رب عبادك عبدوك في أقطار الأرض فذلك المقام المحمود ثم يبعث المقام المحمود ثم يبعث البعث الرابع و هم قوم و حدوا الله و كذبوا المرسلين جهلوا صفات الله جل جلاله و ردوا عليه كتابه و رسله ثم يبعث البعث الخامس و السادس و هم أهل الكتابين يأتون عطاشا يقال لهم : ما كنتم تبغون؟ فيقولون : عطشنا يا رب فاسقنا فيقال لهم : ألا ترون فيشار لهم إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيردونها سقوطا فيها ثم تقع الحنة بالمنافقين و المؤمنين في معرفة ربهم و تميزه من المعبودات من دونه فيذهب الله المنافقين و يثبت المؤمنين ثم ينصب الصراط مجازا على متن جهنم أعادنا الله منها أرق من الشعر و أحد من موسى كما وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم فيسقط أهل البدع في الباب السادس منه أو الخامس و أهل الكبائر في السابع أو السادس و إنما يسقط الساقط بعدما يعجز عن عمله و يخلص المؤمنون على درجاتهم في تفاوتهم في النجاة و يحبسون على قنطرة بين الجنة و النار يتفاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا صفوا و هذبوا أدخلوا الجنة و من ذلك المقام يوقف أصحاب الأعراف]

قال المؤلف : هكذا ذكر الترتيب و هو ترتيب حسن و سيأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى
فصل : قوله : [هل تضارون] بضم التاء و فتحها و بتشديد الراء و تخفيفها و ضم التاء و تشديد الراء أكثر و أصله تضارون أسكنت الراء الأولى و أدغمت مع الثانية و ماضيه ضرور على ما لم يسم فاعله و يجوز أن يكون مبينا للفاعل بمعنى تضارون بكسر الراء إلا إنها سكنت الراء و أدغمت و كله من الضر المشدد و أما التخفيف فهو من ضاره يضيره و يضوره مخففا

و المعنى أن أهل الجنة إذا امتن الله عليهم برؤيته سبحانه تجلى لهم ظاهرا بحيث لا يحجب بعضهم بعضا و لا يضروه و لا يزارهم و لا يجادله كما يفعل عند رؤية الأهله بل كالحال عند رؤية الشمس و القمر ليلة تمامه و قد روى تضامون من المضامكة و هي الازدحام أيضا أي لا تزدحمون عند رؤيته تعالى كما تزدحمون عند رؤية

الأهله

و روي تضامون بتخفيف الميم من الضيم الذي هو الذل أي لا يذل بعضكم بعضا بالمراحمه و المنافسه و المنازعة و سيأتي هذا المعنى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه و سلم في أبواب الجنة إن شاء الله تعالى قوله : فإنكم ترونه كذلك هذا تشبيه للرؤية و حالة الرائي لا المرئي لأن الله سبحانه لا يحاط به و ليس كمثلته شيء و لا يشبهه شيء

و قوله : فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون هذا موضع الامتحان ليميز الحق من المبطل و ذلك أنه لما بقي المنافقون و المراءون متلبسين بالمؤمنين و المخلصين زاعمين أنهم منهم و أنهم عملوا مثل أعمالهم و عرفوا الله مثل معرفتهم امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة قالت الجميع أنا ربكم فأجاب المؤمنون بإنكار ذلك و التعود منه لما قد سبق لهم من معرفتهم بالله عز و جل في دار الدنيا و أنه منزه عن صفات هذه الصور إذ سماتها سمات المحدثين و لهذا قال في حديث أبي سعيد الخدري فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر في كتاب المفهم لشرح اختصار مسلم كتاب مسلم و هذا لمن لم يكن له رسوخ العلماء و لعلمهم الذين اعتقدوا الحق و جزموا عليه من غير بصيرة و لذلك كان اعتقادهم قابلا للانقلاب و الله أعلم

قلت : و يحتمل أن يكونوا المنافقين و المرائين و هو أشبه و الله أعلم لأن في الامتحان الثاني يتحقق ذلك لأن في حديث أبي سعيد بعد قوله حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم و بينه آية تعرفوه بها ؟ فيقولون : نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود و لا يبقى من كان يسجد اتقاء و رياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم و قد تحول في الصورة التي رأوا فيها فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم و تحل الشفاعة و سيأتي قوله : فيأتيهم الله في صورة التي يعرفون أي يتجلى لهم في صفته التي هو عليها من الجلال و الكمال و التعالي و الجمال بعد أن رفع الموانع عن أبصارهم فيتبعونه أي يتبعون أمره أو ملائكته و رسله الذين يسوقونهم إلى الجنة و الله أعلم

و الدعوى : الدعاء قال الله تسبحاته و تعالى : { دعواهم فيها سبحانه اللهم } أي دعاؤهم و الكلايب : جمع كلوب و السعدان : نبت كثير الشوك شوكة كالخطاطيف و المحاجن ترعاه الإبل فيطيب لبنها تقول العرب : مرعى و لا كالسعدان و الموبق : المهلك أو بقره ذنبه : أهلكه

و منه الحديث : اجتنبوا السبع الموبقات و قوله تعالى : { أو يوبقهن بما كسبوا } و المجازى : الذي جوزء بعمله و قوله : { يكشف عن ساق } كشف الساق عبارة عن معظم الأمر و شدته ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله : { يوم يكشف عن ساق } قال : يوم كرب و شدة أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال : شدة الأمر و جده قال مجاهد و قال ابن عباس هي أشد ساعة في القيامة و قال أبو عبيدة : إذا اشتد الأمر أو الحرب قيل : كشف الأمر عن ساقه و الأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج إلى الجد شمر عن ساقه فاستعبر الساق و الكشف عنها في موضع الشدة و كذا قال القتيبي قال : يوم يكشف عن ساق هذا من الاستعار فسمي الشدة ساقا لأن الرجل إذا وقع في الشدة شمر في ساقه فاستعبرت في موضع شدة قال الشعر :

(و كنت إذا جاري دعا لمصيبة ... أشمر حتى ينصف الساق منزري)

و قال آخر :

(فتى الحرب إن عصت به الحرب عضها ... و إن شمرت عن ساقها الحرب شمرا)

و قال آخر يصف سنة شديدة :

(قد شمرت عن ساقها)

و قال آخر :

(كشفت لهم عن ساقها ... و بدا من الشر البراح)

و قال آخر :

أبشر عناق إنه شر باق قد سن لي قومك ضرب الأعناق و قامت الحرب بنا على ساق

و الشعر في هذا المعنى كثير :

و قيل : يكشف عن شاق جهنم و قيل : عن ساق العرش

فأما ما روي أن الله تعالى يكشف عن ساقه يوم القيامة فيسجد له كل مؤمن و مؤمنة كما في صحيح البخاري فإنه تعالى على التبويض و الأعضاء و أن ينكشف و يتغطى و معناه أي يكشف على العظيم من أمره

و قال الخطابي : إنما جاء ذكر الكشف عن الساق على معنى الشدة فيحتمل أن يكون معنى الحديث أنه يبرز من أهوال القيامة و شدتها ما يرتفع معه سواتر الأمتحان فيميز عند ذلك أهل اليقين و الإخلاص فيؤذن لهم في السجود و ينكشف الغطاء عن أهل النفاق فيعود ظهورهم طبقا واحدا لا يستطيعون السجود قال : و قد تأوله بعض الناس فقال : لا ينكر أن يكون الله سبحانه قد يكشف لهم عن ساق لبعض المخلوقين من ملائكته أو غيرهم فيجعل ذلك سببا لبيان ما شاء من حكمه في أهل الإيمان و أهل النفاق

قال الخطابي : و فيه وجه آخر لم أسمع من قدوة و قد يحتمله معنى اللغة سمعت أبا عمر يذكر عن أبي العباس أحمد بن يحيى النحوي فيما عدة من المعاني المختلفة الواقعة تحت هذا الاسم قال : و الساق النفس و منه قول علي رضي الله عنه حين راجعه أصحابه في قتل الخوارج فقال : و الله لأقاتلنهم حتى و لو تلفت ساقى يريد نفسه و قال أبو سليمان و قد يحتمل على هذا أن يكون المراد التجلي لهم و كشف الحجب عن أبصارهم حتى إذا رأوه سجدوا له قال : و لست أقطع به القول و لا أراه واجبا فيما أذهب إليه من ذلك

قال المؤلف : هذا القول أحسن الأقوال إن شاء و قد جاء فيه حديث حسن ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسير سورة ن و القلم فقال : [حدثنا الخليل بن أحمد : حدثنا ابن منيع قال : حدثنا هديبة قال : حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة بن أبي موسى قال : حدثني أبي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كل قال قوم إلى ما كانوا يعبدون و يبقى أهل التوحيد فيقال لهم : ما تنتظرون و قد ذهب الناس ؟ فيقولون : إن لنا ربا كنا نعبده في الدنيا و لم نره قال : و تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم فيقال : فكيف تعرفونه و لم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبه له

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدا و تبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى { يكشف عن ساق و يدعون إلى السجود فلا يستطيعون } فيقول الله

تعالى : عبادى ارفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم من اليهود و النصارى في النار]

قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال : الله الذي لا إله إلا هو فحدثك أبوك بهذا الحديث

فحلقت له ثلاث إيمان فقال عمر : ما سمعت من أهل التوحيد حديثا هو أحب إلي من هذا
قال المؤلف : فهذا الحديث يبين لك معنى كشف الساق وأنه عبارة عن رؤيته سبحانه وهو معنى ما في صحيح
مسلم والحديث يفسر بعضه بعضا فلا إشكال فيه والحمد لله
وقد ذكر البيهقي [عن روح بن جناح عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي
صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { يوم يكشف عن ساق } قال : عن نور عظيم يخرون له سجدا] تفرد به
روح بن جناح وهو شامي يأتي بأحاديث منكرا لا يتابع عليها وموالي عمر بن عبد العزيز فيهم كثرة
قال المؤلف : الحديث الذي قبله أبين وأصح إسنادا فليعمل عليه وقد هاب الإمام أبو حامد الغزالي القول فيه و
أشفق من تأويله فقال في كتاب كشف علم الآخرة : ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس كلهم تعظيما له و
تواضعا إلى الكفار الذين قد أشركوا به أيام حياتهم وعبدة الحجارة والخشب وما لم ينزل به سلطانا فإن صياصي
أصلاهم تعود حديدا فلا يقدر على السجود وهو قوله تعالى : { يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود
فلا يستطيعون }

[وروي البخاري في تفسيره مسندا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يكشف الله عن ساقه النبي يوم
القيامة فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة] وقد أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكر به وكذا أشفقت من
صفة الميزان وزيفت قول واصفيه وجعلته متحيزا إلى العالم الملكوتي فإن الحسنات والسيئات أعراض ولا يصح
وزن الأعراض إلا بميزان ملكوتي

قال المؤلف : قد ذكرنا الميزان وبيننا القول فيه وفي الأعمال الموزونة غاية البيان بالأخبار الصحيحة والحسان و
بيننا القول هنا في كشف الساق بحيث لم يبق فيه لأحد ريب ولا مخالفة ولا شقاق فالله الحمد على ما به أنعم وفهم
وعلم

باب كيف الجواز على الصراط و صفتة و من يحبس عليه و يزل عنه و في شفقة

النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عند ذلك وفي ذكر القناطر قبله والسؤال عليها و بيان قوله تعالى : و إن
منكم إلا واردها

روي عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل في سبع قناطر أما القنطرة الأولى : فيسأل عن
الإيمان بالله وهي شهادة أن لا إله إلا الله فإن أجاز بها مخلصا والإخلاص قول وعمل جاز ثم يسأل على القنطرة
الثانية عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز ثم يسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان فإن جاء به تاما جاز ثم
يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما
تامتين جاز ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تأمين جاز ثم يسأل في السابعة وليس
في القناطر أصعب منها فيسأل عن ظلمات الناس

و ذكره أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : أنه إذا لم يبق في الموقف إلا المؤمنون والمسلمون والחסنون و
العارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون ليس فيهم مراتب ولا منافق ولا زنديق فيقول الله تعالى
: يا أهل الموقف من ربكم ؟ فيقولون : الله فيقول لهم : أتعرفونه ؟ فيقولون : نعم فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش
لو جعلت البحار السبع في ثمره إمامه لما ظهرت فيقول لهم بأمر الله : أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك فيتجلى
لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في ثمره إمامه لما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم : فيقولون :

نعوذ بالله منك فيتجلى لهم الرب سبحانه في صورة غير صورته التي كانوا يعرفونه و سمعوا و هو يضحك فيسجدون له جميعهم فيقول : أهلا بكم ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط و الناس أفواج :
المرسلون ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم المؤمنون ثم العارفون ثم المسلمون منهم المكبوب لوجهه و منهم الخبوس في الأعراف و منهم قوم قصروا عن تمام الإيمان فمنهم من يجوز الصراط مائة عام و آخر يجوز على ألف و مع ذلك كله لن تحرق النار من رأى ربه عيانا لا يضام في رؤيته فتوهم نفسك يا أخي إذا صرت على الصراط و نظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة قد لظى سعيها و علا لبيها و أنت تمشي أحيانا و ترحف أخرى قال :

(أبت نفسي تتوب فما احتياي ... إذا برز العباد لذي الجلال)

(و قاموا من قبورهم سكارى ... بأوزار كأمثال الجبال)

(و قد نصب الصراط لكي يجوزوا ... فمنهم من يكب على الشمال)

(و منهم من يسير لدار عدن ... تلقاه العرائس بالغوالي)

(يقول له المهمين يا وليي ... غفرت لك الذنوب فلا تبالي)

و قال آخر :

(إذا مد الصراط على جحيم ... تصول على العصاة و تستطيل)

(فقوم في الجحيم لهم ثبور ... و قوم في الجنان لهم مقيل)

(و بان الحق و انكشف الغطاء ... و طال الويل و اتصل العريل)

و ذكر مسلم [من حديث أبي هريرة فيأتون محمدا صلى الله عليه و سلم فيؤذن لهم و ترسل الأمانة و الرحم

فيقومان جنبتي الصراط يمينا و شمالا فيمر أولهم كالبرق الخاطف]

قال : قلت بأبي أنت و أمي و أي شيء كمر البرق ؟ قال : [ألم تر إلى البرق كيف يمر و يرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير و شد الرجال تجري بهم أعمارهم و نبيكم صلى الله عليه و سلم قائم على الصراط يقول :

رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل و لا يستطيع السير إلا زاحفا]

قال : [و في حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أموت بأخذه فمخلوش ناج و مكردس في النار و

الذي نفس محمد بيده : إن قعر جهنم لسبعون خريفا] ؟

و روي [من حديث حذيفة أيضا و ذكر مسلم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري و فيه : ثم يضرب الجسر على

جهنم و تحل الشفاعة و يقولون : اللهم سلم سلم قيل : يا رسول الله و ما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه

خطاطيف و كلاليب و حسكة تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان : فيمر المؤمنون كطرف العين و كالبرق و

كالريح و كالطير و كأجاويد الخيل و الركاب فجاج مسلم و مخلوش مرسل و مكردس في نار جهنم] الحديث و

سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى

و في رواية قال أبو سعيد الخدري : [بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف] و في رواية [أرق من

الشعر] رواها مسلم

و خرج ابن ماجه حديث أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [يوضع الصراط

بينم ظهراني جهنم على حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس فجاج مسلم و مخلودج به ثم ناج و محتبس به و

منكوس فيها]

و ذكر ابن المبارك قال : حدثنا هشام بن حسان عن موسى عن أنس عن عبيد بن عمير [أن الصراط مثل السيف على جسر جهنم و أن لجنبيه كالليب و حسكا و الذي نفسي بيده إنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة و مضر]

و أخبرنا رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال قال : [بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر و على بعض الناس مثل الوادي الواسع] أعمل قال : و أخبرنا عوف عن عبد بن سفيان العقيلي قال : [يجوز الناس يوم القيامة على الصراط على قدر إيمانهم و أعمالهم فيجوز الرجل كالطرف في السرعة و كالسهم المرمى و كالتائر السريع الطيران و كالفرس الجواد المضمهر و يجوز الرجل يعدو علوا و الرجل يمشي مشيا حتى سكون آخر من ينجو يجبو حبا]

و ذكر هناد بن السري حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا سفيان حدثنا سلمة بن كهيل عن أبي الزعفران قال : قال عبد الله [يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم] قال : [فيمر الناس على قدر أعمالهم أولهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كأسرع البهائم ثم كذلك حتى يمر الرجل سعيا و حتى يمر الرجل ماشيا ثم يكون آخرهم يتلبط على بطنه يقول يا رب لم أبطأت بي ؟ فيقول : لم أبطى بك إنما أبطأ بك عملك]

قال : و حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن قتادة قال : قال عبد الله ابن مسعود : [تجوزون الصراط بعفو الله و تدخلون الجنة برحمة الله و تقتسمون المنازل بأعمالكم]

أبو داود [عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من همى مؤمنا من منافق أراه قال : بعث الله ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم و من رمى مؤمنا بشيء شينه حبسه الله عز و جل على جسر جهنم حتى يخرج مما قال]

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [الزالون على الصراط كثير و أكثر من يزل عنه النساء] ذكره أبو الفرج بن الجوزي

و قال المصطفى صلى الله عليه و سلم : [فإذا صار الناس على طرف الصراط نادى ملك من تحت العرش : يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط و ليقف كل عاص منكم و ظالم فيا لها من ساعة ما أعظم خوفها و ما أشد حرها يقدم فيها من كان في الدنيا ضعيفا مهينا و يتأخر عنها من كان في الدنيا عظيما مكينا ثم يؤذن لجميعهم بعد ذلك بالجواز على الصراط على قدر أعمالهم في ظلمتهم و أنوارهم فإذا عصف الصراط بأمتي نادوا : و الحمداه فأبادر من شدة إشفافي عليهم و جبريل آخذ بججزتي فأنادي رافعا صوتي رب أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي و لا فاطمة ابنتي و الملائكة قيام عن يمين الصراط و يساره ينادون : رب سلم سلم و قد عظمت الأهوال و اشتدت الأوجال و العصاة يتساقطون عن اليمين و الشمال و الزبانية يتلقوهم بالسلاسل و الأغلال و ينادوهم : أما فهم عن كسب الأوزار ؟ أما خوفتم عذاب النار ؟ أما أنذرتهم كل الإنذار أما جاءكم النبي المختار ؟] ذكره أبو الفرج بن الجوزي أيضا في كتاب روضة المشتاق و الطريق إلى الملك الخلاق

فتفكر الآن فيما يحل بك من الفرع بفؤادك إذا رأيت الصراط و دقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار و تغيظها و قد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك و اضطراب قلبك و تزلزل قدمك و ثقل ظهرك بالأوزار المنعة لك من المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته و اضطرت إلى أن ترفع القدم الثاني و الخلائق بين يديك يزلون و يعثرون و تتأولهم زبانية النار بالخطايف و الكلايب و أنت إليهم كيف ينكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم و

تعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفضعه و مرتقى ما أصبعه و مجاز ما أضيقه
فصل : ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب في وصف الصراط بأنه أدق من الشعر و أحد من السيف أن
ذلك راجع إلى يسره و عسره على قدر الطاعات و المعاصي و لا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها و غموضها
و قد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي : دقيق ف ضرب المثل له بدقة الشعر فهذا و الله أعلم من هذا الباب
و معنى قوله : [و أحد من السيف] : أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناي
على الصراط يكون في نفاذ حد السيف و مضيه إسراعاً منهم إلى طاعته و امتثاله و لا يكون له مرد كما أن
السيف إذا نفذ بحدة و قوة ضاربة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد

و إما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف و أدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة
يقومون بجنيبه و أن فيه كالليب و حسكا أي أن من يمر عليك يقع على بطنه و منهم من يزل ثم يقوم و فيه أن من
الذين يمرّون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه و في ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه موطن الأقدام و معلوم
أن رقة الشعر لا يحتمل هذا كله و قال بعض الحفاظ : إن هذه اللفظة ليست ثابتة

قال المؤلف : ما ذكره القاتل مردود بما ذكرنا من الأخبار و أن الإيمان يجب بذلك و أن القادر على إمساك الطير
في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن فيجزيه أو يمشيه و لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة و لا
استحالة في ذلك للآثار الواردة في ذلك و ثباتها بقل الأئمة العدول { و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور } ؟
و عن يحيى بن اليمان : رأيت رجلاً نام و هو أسود الرأس و اللحية شاب يملأ العين فرأى في منامه كأن الناس قد
حشروا و إذا بنهر من نار و جسر يمر الناس عليه فدعى فدخل الجسر فإذا هو كحد السيف يمر يمينا و شمالاً فأصبح
أبيض الرأس و اللحية

فصل : أحاديث هذا الباب تبين لك معنى الورود المذكور في القرآن في قوله عز و جل : { و إن منكم إلا واردها
{

روي عن ابن عباس و ابن مسعود و كعب الأحبار أنهم قالوا : الورود المرور على الصراط رواه السدي عن ابن
مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم
و ذكر أبو بكر النجاد سلمان قال : [حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدة السليطي حدثنا أبو
عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي قال : حدثنا سليم بن منصور بن عمار قال : حدثني أبي منصور بن
عمار قال : حدثني بشر بن طلحة الخزامي عن خالد بن الدريك عن يعلى بن منه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم
قال : تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهي] و قيل : الورود الدخول روي عن ابن
مسعود و عن ابن عباس أيضاً و خالد بن معدان و ابن جريج و غيرهم و حديث أبي سعيد الخدري نص في ذلك
على ما يأتي فيدخلها العصاة بجرائمهم و الأولياء بشفاعتهم

و روي [عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : الورود الدخول لا يبقى بر و
لا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً و سلاماً كما كانت على إبراهيم { ثم تنجي الذين اتقوا و نذر الظالمين
فيها جثياً] {

و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن رجل عن خالد بن معدان قال : قالوا ألم يعدنا ربنا أنا نرد النار فقال :
إنكم مرتم بها و هي خامدة

قال ابن المبارك و أخبرنا سعيد الجيزي عن أبي الليل عن غنيم عن أبي العوام عن كعب أنه تلا هذه الآية : { و إن

منكم إلا واردة { قال : هل تدرون ما ورودها ؟ قالوا : الله أعلم قال : فإن ورودها أن يجاء بجهنم و تمسك للناس كأنها متن إهالة حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلق برهم و فاجرهم نادى مناد : أن خذي أصحابك و ذرى أصحابي فتحسف بكل ولي لها هي أعلم بهم من الوالد بولده و ينجو المؤمنون

و قال مجاهد : و رود المؤمنين هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا و هي حظ المؤمن من النار فلا يردّها و أسند أبو عمر بن عبد البر في ذلك حديثا في التمهيد [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم عاد مريضا من وعك به فقال النبي صلى الله عليه و سلم : أبشر فإن الله تعالى يقول : هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار]

و قالت طائفة : الورود النظر إليها في القبر فينجي منها الفائز و يصلها قدر عليه دخولها ثم يخرج منها بالشفاعة أو غيرها من رحمة الله تعالى و احتجوا بحديث ابن عمر : [إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشي] الحديث

و قيل : المراد بالورود الإشراف على جهنم و الإطلاع عليها و القرب منها و ذلك أهم يحضرون موضع الحساب و هو بقرب جهنم فيرونها و ينظرون إليها في حالة الحساب ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه و يصار بهم إلى الجنة و نذر الظالمين أي يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : { و لما ورد ماء مدين { أي أشرف عليه لا أنه دخله [و روت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا يدخل النار أحد من أهل بدر و الحديبية قال : فقلت يا رسول الله : و أين قول الله عز و جل : { و إن منكم إلا واردة { ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : { ثم نجي الذين اتقوا { [خرجه مسلم من حديث أم مبشر قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم عند حفصة الحديث

و قيل : الخطاب للكفار في قوله تعالى : { و إن منكم إلا واردة { روى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز و جل : { و إن منكم إلا واردة { قال : هذا خطاب للكفار و روي عنه أنه كان يقرأ { و إن منهم { ردا على الآيات التي قبلها من الكفار قوله : { فوريك لنحشرهم و الشياطين ثم لنحضرهم { و { أيهم أشد { } ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا * و إن منكم { و كذلك قرأ عكرمة و جماعة

و قالت فرقة : المراد منكم : الكفرة و المعنى : قل لهم يا محمد و إن منكم

و قال الجمهور : للمخاطب العالم كله و لا بد من ورود الجميع و عليه نشأ الخلاف في الورود كما ذكرنا و

الصحيح أن الورود : الدخول لحديث أبي سعيد كما ذكرنا

و في مسند الدرامي أبي محمد [عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب في رحله ثم كشد الرجل في مشيه]

و قال صلى الله عليه و سلم : [لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم] خرجه الأئمة قال الزهري كأنه يريد هذه الآية { و إن منكم إلا واردة { ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده و هذا يبين لك ما ذكرناه لأن المسيس حقيقته في اللغة المماساة إلا أنها تكون بردا و سلاما على المؤمنين و ينجون منها سالمين قال : خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا إنا نرد النار ؟ فيقال : قد وردتموها فلقيتموها

رمادا

قلت : و الذي يجمع شتات الأقوال : أن يقال إن من وردها و لم تؤذ به بلهبها و حرها فقد أبعد عنها و نجي منها نجانا الله منها بفضلها و كرمه و جعلنا ممن وردها سالما و خرج منها غائما
و روي ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحروري لابن عباس { لا يسمعون حسيستها } فقال له ابن عباس : أجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : { و إن منكم إلا واردة } و قوله : { فأوردتهم النار } و قوله : { إلى جهنم وردا } و لقد كان من دعاء من مضى اللهم أخرجني من النار سالما و أدخلني الجنة فائزا
و قد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورد و الجهل بالصدر كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه يقول : ليت أمي لم تلدني فتقول له امرأته : يا أبا ميسرة إن الله قد أحسن إليك و هداك إلى الإسلام قال : أجل و لكن الله قد بين لنا أنا و واردوا النار و لم يبين لنا أنا صادرون
و عن الحسن قال : قال رجل لأخيه أي أخي هل أتاك أنك و ارد النار ؟ قال : نعم قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا قال : فميم الضحك إذا ؟ قال : فما رأيي ضاحكا حتى مات
و روي عن ابن عباس أنه قال في هذا المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي : [أما أنا و أنت فلا بد أن يدرها فأما أنا فينجيني الله منها و أما أنت فما أظنه ينجيك]
و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي عاصم قال : بكى ابن رواحة فبكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : بكيت حين رأيتك تبكي فقال عبد الله : إني علمت أني وارد النار فما أدري أناج منها أم لا ؟ و في معناه قيل :
(و قد أتانا ورود النار ضاحية ... حقا يقينا و لما يأتنا الصدر)

باب ما جاء في شعار المؤمنين على الصراط

الترمذي [عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : شعار المؤمنين على الصراط : رب سلم سلم] قال : حديث غريب
و في صحيح مسلم : [و نبيكم صلى الله عليه و سلم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم] و قد تقدم

باب فيمن لا يوقف على الصراط طرفة عين

ذكر الوائلي أبو نصر في كتاب الإبانة : [أخبرنا محمد بن الحجاج قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الربيعي حدثنا علي بن الحسين أبو عبيد قال : حدثنا زكريا ابن يحيى أبو السكن قال : حدثني عبد الله بن صالح الهمامي قال :
حدثني أبو همام القرشي عن سليمان بن المغيرة عن قيس بن مسلم عن طاروس عن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم علم الناس سنتي و إن كرهوا ذلك و إن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث الجنة فلا تحدث في دين الله حدثا برأيك] قال : و هذا غريب الإسناد و المتن حسن
باب منه

أبو نعيم قال : [حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا خير بن عرفة قال : حدثنا هاني بن المتوكل قال : حدثنا ربيعة سليمان بن ربيعة عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : من أحسن الصدقة في الدنيا جاز على الصراط و من قضى حاجة أرملة أخلف الله في تركته] قال : هذا حديث غريب من حديث محمد تفرد بن سليمان عن موسى

و ذكر الختلي أبو القاسم حدثنا عثمان بن سعيد أبو عمرو الأنطاكي قال : حدثنا علي بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا شيخ يكنى أبا جعفر قال : رأيت في منامي كأني واقف على قناطر جهنم فنظرت إلى هول عظيم فجعلت أفكر في نفسي كيف العبور على هذه ؟ فإذا قائل يقول من خلفي : يا عبد الله ضع حملك و اعبر فقلت : و ما حملي ؟ قال : دع الدنيا و اعبر قال : و حدثني أبو بكر خليفة الحارث بن خليفة قال : قال : حدثنا عمرو بن جرير حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : سمعت أبا الدرداء يقول لابنه : يا بني لا يكن بيتك إلا المسجد فإن المساجد بيوت المتقين سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من يكن المسجد بيته ضمن الله لو بالروح و الرحمة و الجواز على الصراط] قلت : و هذا الحديث يصحح ما ذكرناه من الرؤيا فإن من سكن المسجد و اتخذ بيتا و أعرض عن الدنيا و أهله و أقبل إلى الآخرة و عمل لها

باب ثلاثة مواطن لا يخطئها النبي صلى الله عليه و سلم لعظم الأمر فيها و

شدته

الترمذي [عن أنس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يشفع لي يوم القيامة قال : أنا فاعل إن شاء الله قال : فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : فاطلبي عند الميزان قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبي عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن] قال : هذا حديث حسن و قد تقدم من حديث عائشة أنه عليه السلام قال : [أما ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا عند الميزان و عند تطاير الصحف و عند الصراط]

باب في تلقي الملائكة للأنبياء و أمهم بعد الصراط و في هلاك أعدائهم

ابن المبارك عن عبد الله بن سلام قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأنبياء نبيا و نبيا و أمة أمة حتى يكون آخرهم مركزا محمد و أمته و يضرب الجسر على جهنم و ينادي مناد أين أحمد و أمته ؟ فيقول نبي الله صلى الله عليه و سلم و يتبعه أمته برها و فاجرها حتى إذا كان على الصراط طمس الله ابصار أعدائه فتهافتوا في النار يمينا و شمالا و يمضي النبي صلى الله عليه و سلم و الصالحون معه فتنلقاهم الملائكة فيدلونهم على طريق الجنة على يمينك على شمالك حتى ينتهي إلى ربه فيوضع له كرسي من الجانب الآخر ثم يدعى نبي نبي و أمة أمة حتى يكون آخرهم نوحا رحم الله نوحا

باب ذكر الصراط الثاني و هو القنطرة التي بين الجنة و النار

اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين : أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم و خفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه و لا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حسبوا على صراط آخر خاص لهم و لا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه و أربى على الحسنات بالقصاص جرمه

البخاري [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة و النار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا و نقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا]

فصل : قلت : معنى يخلص المؤمنون من النار أي يخلصون من الصراط المضروب على النار و دل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حسبوا على قنطرة بين الجنة و النار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا و طيبوا قال لهم رضوان و أصحابه سلام عليكم بمعنى التحية طيبم فادخلوها خالد بن

و قد ذكر الدراقطي حديثنا ذكر فيه : أن الجنة بعد الصراط

قلت : و لعله أراد بعد القنطرة بدليل حديث البخاري و الله أعلم أو يكون ذلك في حق من دخل النار و خرج بالشفاعة فهؤلاء لا يجسسون بل إذا خرجوا بثوا على أثمار الجنة على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى و قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [أصحاب الجنة محبوسون على قنطرة بين الجنة و النار يسألون عن فضول أموال كانت بأيديهم] و لا تعارض بين هذا و بين حديث البخاري فإن الحديثين مختلفا المعنى لا اختلاف أحوال الناس و كذلك لا تعارض بين قوله عليه السلام [لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة] و بين قول عبد الله بن سلام إن الملائكة تدلهم على

طريق الجنة يمينا و شمالا فإن هذا يكون فيمن لم يجس على قنطرة و لم يدخل النار فيخرج منها فيطرح على باب الجنة و قد يمتل أن يكون ذلك في الجميع فإذا وصلت بهم الملائكة إلى باب الجنة كان كل أحد منهم أعرف بمنزلة في الجنة و موضعه فيها منه بمنزله كان في الدنيا و الله أعلم و هو معنى قوله { و يدخلهم الجنة عرفها لهم } قال أكثر أهل التفسير : إذا دخل أهل الجنة الجنة يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنزلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم

و قيل : إن هذا التعريف إلى المنازل بدليل و هو أن الملك الموكل بعمل العبد يمشي بين يديه و حديث أبي سعيد الخدري يرده و الله أعلم

باب من دخل النار من الموحدين مات و احترق ثم يخرجون بالشفاعة

مسلم [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و لكن ناسا أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن لهم في الشفاعة فيجيء بهم ضبائر ضبائر فيثرا على أثمار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل] فقال رجل من القوم كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد كان يرمى الغنم بالبادية

فصل : هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية لأنه أكدها بالمصدر و ذلك تكريما لهم حتى لا يحسوا ألم العذاب بعد الاحتراق بخلاف الحي الذي هو من أهلها و مخلد فيها { كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب } و قيل : يجوز أن تكون إماتتهم عبارة عن تغييره إياهم عن آلامها بالنوم و لا يكون ذلك موتا على الحقيقة فإن النوم قد يغيب عن كثير من الآلام و الملاذ و قد سماه الله موتا فقال الله تعالى { الله يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها } فهو وفاة و ليس بموت على الحقيقة الذي هو خروج الروح عن البدن و كذلك الصعقة قد

عبر الله بما الموت في قوله تعالى { فصعق من في السموات و من في الأرض إلا من شاء الله }
و أخبر عن موسى عليه السلام أنه خر صعقا و لم يكن ذلك موتا على الحقيقة غير أنه لما غيب عن أحوال المشاهدة
من الملاذ و الآلام جاز أن يسمى موتا و كذلك يجوز أن يكون أماتم غيبهم عن الآلام و هم أحياء بلطفة يحدثها
الله فيهم كما غيب النسوة اللاتي قطعن أيديهن بشاهد ظهر لهن فغيبهن فيه عن آلامهن و التأويل الأول أصح لما
ذكرناه على الحقيقة كما أن أهلها أحياء على الحقيقة و ليسوا بأهوات
فإن قيل : فما معنى إدخالهم النار و هم فيها غير عالمين ؟ قيل : يجوز أن يدخلهم تأديا لهم و إن لم يعذبهم فيها و
يكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم كالحبوسين في السجن فإن الحبس عقوبة لهم و إن لم يكن
معه غل و لا قيد و الله أعلم و سيأتي لهذا مزيد بيان في أبواب النار إن شاء تعالى
و قوله : ضبائر ضبائر معناه جماعات جماعات الواحدة ضبارة بكسر الصاد و هي الجماعة من الناس و بثوا : فرقوا
و الحبة بكسر الحاء بزر البقول و حميل السيل ما احتمله من غشاء و طين و سيأتي إن شاء الله تعالى

باب فيمن يشفع لهم قبل دخول النار من أجل أعمالهم الصالحة و هم أهل الفضل

في الدنيا

ذكر أبو عبد الله محمد بن ميسرة الجلي القرطبي في كتاب التبيين له روى أبي و ابن وضاح من حديث أنس يرفعه
قال : يصف أهل النار فيقرنون فيمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول الرجل منهم يا فلان : أما تذكر رجلا سقاك
شربة ماء يوم كذا و كذا ؟ فيقول : إنك لأنت هو قال : فيقول نعم قال فيشفع فيه فيشفع و يقول الرجل منهم يا
فلان لرجل من أهل الجنة : أما تذكر رجلا وهب لك وضوءا يوم كذا و كذا ؟ فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه
قلت : أخرجه ابن ماجه في سننه بمعناه قال : [حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير و علي بن محمد قالا : حدثنا
الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يصف الناس يوم القيامة
صفوفا و قال ابن نمير أهل الجنة فيمر الرجل من أهل النار على الرجل من أهل الجنة فيقول يا فلان : أما تذكر يوم
استسقيتني فسقيتك شربة ؟ قال : فيشفع له و يمر الرجل على الرجل فيقول : أما تذكر يوم ناولتك طهورا فيشفع
له [قال ابن نمير و يقول يا فلان أما تذكر يوم بعثني لحاجة كذا و كذا فذهبت لك فيشفع له
و خرج أبو نعيم الحافظ بإسناده [عن الثوري حدثنا الأعمش عن شفيق عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى
الله عليه و سلم : ليوفيههم أجورهم يوم القيامة و يزيلهم من فضله قال : أجورهم يدخله الجنة و يزيلهم من فضله
الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا]

و ذكر أبو جعفر الطحاوي أيضا [عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا
كان يوم القيامة جمع الله أهل الجنة صفوفا و أهل النار صفوفا فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من
صفوف أهل الجنة فيقول يا فلان : تذكر يوم اصطنعت معروفا إليك ؟ فيقول : اللهم إن هذا اصطنع إلي في الدنيا
معروفا قال فيقال له خذ بيده و أدخله الجنة برحمة الله عز و جل [قال أنس رضي الله عنه أشهد أني سمعت رسول
الله صلى الله عليه و سلم يقوله

قال أبو عبد الله محمد بن ميسرة : و رأيت في الكتاب الذي يقال إنه الزبور [إني أدعو عبادي الزاهدين يوم القيامة
فأقول لهم : عبادي إني لم أزو عنكم الدنيا هوأتكم علي و لكن أردت أن تستوفوا نصيبكم موفورا اليوم فتخللوا
الصفوف فمن أحببتموه في الدنيا أو قضى لكم حاجة أو رد عنكم غيبة أو أطعمكم لقمة ابتغاء و جهي و طلب

مرضاتي فخذوا بيده و أدخلوه الجنة]

فصل : و ذكر أبو حامد في آخر كتاب الآحياء [قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار و يقول يا فلان هلى تعرفني ؟ فيقول : لا و الله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا يوما فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك قال : قد عرفت قال فاشفع لي بها عن ربك فيسأل الله تعالى و يقول : إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني فقلت : لا من أنت ؟ قال أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي بها فشفعني فيشفعه الله تعالى فيؤمر به فيخرج من النار] و الله تعالى أعلم

باب في الشافعين لمن دخل النار و ما جاء أن النبي صلى الله عليه و سلم

يشفع رابع أربعة و ذكر من يبقى في جهنم بعد ذلك

ابن ماجه [عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء]

و ذكر ابن السماك أبو عمرو عثمان بن أحمد قال : حدثنا يحيى بن جعفر بن الزبرقان قال : أخبرنا علي بن عاصم قال : حدثنا خالد الخذاء عن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود يشفع نبيكم رابع أربعة : جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه و سلم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء و يبقى قوم من جهنم فيقال لهم { ما سللكم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * و لم نك نطمح المسكين } إلى قوله : { فما تنفعهم شفاعة الشافعين } قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : فهؤلاء الذين يبكون في جهنم

قال المؤلف رحمه الله : و قيل إن هذا هو المقام المحمود لنينا صلى الله عليه و سلم خرجه أبو داود الطيالسي قال حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء عن عبد الله قال : ثم يأذن الله عز و جل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل عليه الصلاة و السلام ثم يقوم إبراهيم خليل الله صلى الله عليه و سلم ثم يقوم موسى أو عيسى عليه السلام قال أبو الزعراء : لا أدري أيهما قال ثم يقوم نبيكم صلى الله عليه و سلم رابعا فيشفع لأحد بعده في أكثر مما يشفع و هو المقام المحمود الذي قال الله تعالى { عسى أن يعثك ربك مقاما محمودا } ابن ماجه [عن عبد الله بن أبي الجداء أنه سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول : ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا : يا رسول الله : سواك ؟ قال : سواي قلت : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قال : أنا سمعته] أخرجه الترمذي و قال : حديث حسن صحيح غريب و لا تعرف لابن الجداء غير هذا الحديث الواحد

قال المؤلف رحمه الله : و خرجه البيهقي في دلائل النبوة و قال في آخره قال عبد الوهاب الثقفي قال هشام بن حيان كان الحسن يقول إنه أويس القرني و ذكر ابن السماك قال : [حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا شابة بن سوار حدثنا حريز بن عثمان عن عبد الله بن ميسرة و حبيب بن عدي الرحبي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخل بشفاعة رجل من أمتي الجنة مثل أحد الحيين : ربيعة و مضر قال قيل يا رسول الله و ما ربيعة من مضر ؟ قال إنما أقول ما أقول قال : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان] الترمذي [عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن من أمتي من يشفع للفئام و منهم

من يشفع للقبيلة و منهم من يشفع للعصبة و منهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة] قال : حديث حسن و ذكر البزار في مسنده [عن ثابت أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الرجل ليشفع للرجلين و الثلاثة] و ذكر القاضي عياض في الشفاء عن كعب : [أن لكل رجل من الصحابة رضي الله عنهم شفاعة] ذكره ابن المبارك قال : [أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يكون في أمتي رجل يقال له : صلة بن أشيم يدخل الجنة بشفاعته كذا و كذا] فصل : إن قال قائل : كيف تكون الشفاعة لمن دخل النار و الله تعالى يقول { إنك من تدخل النار فقد أخرجته } و قال : { و لا يشفعون إلا لمن ارتضى } و قال : { و كم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى } و من ارتضاء الله لا يخزيه قال الله تعالى { يوم لا يخزي الله النبي و الذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم } الآية ؟ قلنا : هذا من ذهب أهل الوعيد الذين ضلوا عن طريق و حادوا عن التحقيق

و أما مذهب أهل السنة الذين جمعوا بين الكتاب و السنة فإن الشفاعة تنفع العصاة العاصاة من أهل الملة حتى لا يبقى منهم أحد إلا دخل الجنة و الجواب عن الآية الأولى ما قاله أنس بن مالك رضي الله عنه أن معنى { من تدخل النار } من يخلد و قال قتادة : يدخل مقلوب يخلد و لا تقول كما قال أهل حروراء فيكون قوله على هذا { فقد أخرجته } على بابه من الهلاك أي أهلتكه و أبعدهته و مقتته و بهذا قال سعيد بن المسيب فإن الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار دليله قوله في آخر الآية { و ما للظالمين من أنصار } أي الكفار و إن قدرنا الآية في العصاة من الموحدين فيحتمل أن يكون الخزي بمعنى الحياء يقال : خزي يخزي خزيا إذا استحي فهو خزيان و امرأة خزناية كذا قال أهل المعاني فخزي المؤمن يومئذ : استحيواؤهم في دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها و الخزي للكافرين هو هلاكهم فيها من غير موت و المؤمنون يموتون فافترقوا في الخزي و الهوان ثم يخرجون بشفاعة من أذن الله له في الشفاعة و برحمة الرحمن و شفاعته على ما يأتي في الباب بعد هذا و عند ذلك يكونون مرضيين قد رضي عنهم ثم لا يأتي الإذن في أحد حتى يرضى لا يبقى عليه من قصاص ذنبه إلا ما تجيزه الشفاعة فيؤذن فيه فيلحق بالقائرين الراضين و الحمد لله رب العالمين و أما قوله تعالى : { يوم لا يخزي الله النبي و الذين آمنوا معه } فمعناه : لا يعذبه و لا يعذب الذين آمنوا و إن عذب العصاة و أماتم فإنهم يخرجهم بالشفاعة و برحمته على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا و الله أعلم

باب منه في الشفاعة و ذكر الجهنميين

ذكر ابن المبارك قال [أخبرنا رشدين بن سعد عن يحيى عن أبي عبيد الرحمن الختلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الصيام و القرآن يشفعان للعبد يقول الصيام : رب منعتني الطعام و الشراب و الشهوات بالنهار فشفعني فيه و يقول القرآن : منعتني النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان] و ذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه و فيه بعد قوله في نار جهنم : حتى إذا خلص المؤمنون من النار فالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله تعالى في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار

و خرج ابن ماجه و لفظه [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم : إذا خلص الله المؤمنين من النار و آمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا أشد مجادلة من المؤمنين الذين دخلوا النار قال يقول

ربنا إخواننا كانوا فذكره بمعناه يقولون ربنا كانوا يصومون معنا و يصلون و يحجون فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم
فبحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقه و إلى ركبتيه يقولون ربنا ما بقي
فيها أحد ممن أمرتنا به ثم يقول الله عز و جل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون
خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار
من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم
في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ربنا لم نذر فيها خيرا]

و [كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فافزعوا إن شئتم : { إن الله لا يظلم
مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لده أجر عظيم } فيقول الله تعالى : شفعت للملائكة و شفعت
النبيون و شفعت المؤمنون و لم يبق إلا أرحم الراحمين في البخاري و بقيت شفاعتي بدل قوله و لم يبق إلا أرحم الراحمين
فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط عادوا حمما فيلقيقهم في نهر على أفواه الجنة يقال له نهر
الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر و
أخضر و ما يكون منها إلى الظل يكون أبيض قالوا يا رسول الله : كأنك كنت ترعى بالبادية قال : فيخرجون
كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه و لا خير قدموه
ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول : لكم عندي
أفضل من هذا فيقولون : يا ربنا و أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا]

و خرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن محمد الخنلي في كتاب الديباج له [حدثنا أحمد بن أبي الحارث قال :
حدثنا عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر راشد عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا فرغ الله من القضاء بين خلقه أخرج كتابا من تحت العرش : إن رحمتي سبقت
غضبي فأنا أرحم الراحمين قال فيخرج من النار مثل أهل الجنة أو قال مثلي أهل الجنة قال : و أكثر ظني أنه قال
مثلي أهل الجنة مكتوب بين أعينهم عتقاء الله]

فصل : هذا الحديث بين أن الإيمان يزيد و ينقص حسب ما بيناه في آخر سورة آل عمران من كتاب جامع أحكام
القرآن فإن قوله : أخرجوا من في قلبه مثقالا دينار و نصف دينار و ذرة يدل على ذلك و قوله : من خير يريد من
إيمان و كذلك ما جاء ذكره في الخبر في حديث قتادة عن أنس و كان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ما يزن برة ما
يزن ذرة أي من الإيمان بدليل الرواية الأخرى التي رواها معبد بن هلال العنبري [عن أنس و فيها فأقول يا رب
أمي أمي فيقال : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل] الحديث
بطوله أخرجه مسلم فقوله : [من إيمان] أي من أعمال الإيمان التي هي أعمال الجوارح فيكون فيه دلالة على أن
الأعمال الصالحة من شرائع الإيمان و منه قوله تعالى { و ما كان الله ليضيع إيمانكم } أي صلاتكم

و قد قيل : إن المراد في هذا الحديث أعمال القلوب كأنه يقول : أخرجوا من عمل عملا بنية من قلبه كقوله [
الأعمال بالنيات] و في هذا المعنى خبر عجيب يأتي ذكره آنفا إن شاء الله تعالى
و يجوز أن يراد به رحمة على مسلم رقة على يتيم خوفا من الله رجاء له توكلنا عليه ثقة به مما هي أفعال القلوب
دون الجوارح و سماها إيمانا لكونها في محل الإيمان

و الدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلنا و لم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد له و نفي الشركاء و الإخلاص بقوله
لا إله إلا الله ما في الحديث نفسه من قوله [أخرجوا أخرجوا] ثم هو سبحانه بعد ذلك يقبض قبضة فيخرج قوما لم

يعملوا خيرا قط يريد إلا التوحيد المجرد عن الأعمال و قد جاء هذا مينا فيما رواه الحسن عن أنس و هي الزيادة التي زادها علي بن معبد في حديث الشفاعة ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك الحمد ثم أخر له ساجدا قال فيقال لي محمد ارفع رأسك و قل يسمع لك و سل تعطه و اشفع تشفع فأقول : يا رب أئذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال : ليس ذاك لك أو قال ليس ذلك إليك و عزتي و كبريائي و عظمتي و جبروتي لأخرجن من قال لا إله إلا الله

و ذكر الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول [عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يكتب على جباههم عتقاء الرحمن فيسألون أن يحوا ذلك الاسم عنهم فيمحوه] و في رواية [فيبعث الله ملكا فيمحوه عن جباههم] الحديث و سيأتي يقال : محا لوحه يمحوه محوا و يمحيه محيا و محاه أيضا فهو محو و محى صارت الواو ياء لكسر ما قبلها فأدغمت في الياء التي هي لام الفعل و أنشد الأصمعي :

(كما رأيت الورق الممحيا)

و انمحي انفعل و امتحى لغة فيه ضعيفة قاله الجوهري و ذكره أبو بكر البزار في مسنده [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها و لا يحيون و أما الذين يريد الله إخراجهم فتميتهم النار ثم يخرجون منها فيلقون على نهر الحياة فيرسل الله عليهم من مائها فينتون كما تنبت الحبة في حميل السيل و يدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة : الجهنميون فيدعون الله تعالى فيذهب ذلك الاسم عنهم]

البخاري [عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفح فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميون]

الترمذي [عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ليخرجن قوم من النار بشفاعتي يسمون الجهنميون] قال : حديث حسن

[و عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي] خرجه الترمذي و صححه أبو محمد عبد الحق

و خرجه أبو داود الطيالسي و ابن ماجه [من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي] زاد الطيالسي قال : فقال لي جابر من لم يكن من أهل الكبائر فما له و للشفاعة ؟ قال أبو داود و حدثناه محمد بن ثابت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر

و ذكر أبو الحسن الدراقطني [عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال نعم أنا لشرا أممي فقالوا : فكيف أنت لخيارها ؟ قال : أما خيارها فيدخلون الجنة بأعمالهم و أما شرارهم فيدخلون الجنة بشفاعتي]

و خرج ابن ماجه [حدثنا إسماعيل بن أسد حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد السلوي حدثنا زياد بن خيثمة عن نعيم بن أبي هند عن ربعي بن حراش عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم خيرت بين الشفاعة و بين أن يدخل نصف أممي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم و أكفى أترونها للمتقين ؟ لا و لكنها للخاطئين المذنبين المتلوثين]

قلت : [و أنبأنا الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الله بن علي بن خلف الكوفي إجازة عن أبيه الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف الكوفي قال : قرئ على الشيخة الصالحة فخر النساء خديجة بنت أحمد بن الحسن بن عبد

الكريم النهرواني في منزلها و أنا حاضر أسمع قيل لها : أخبركم الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد النعالي فأقرت به و قالت : نعم قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن رزقويه البزار أخبرنا أبو علي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح الصغار حدثنا عبد الله بن أيوب المخرمي حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد السكوني عن زياد بن خيثمة عن نعيم بن أبي هند عن ربيعي بن خراش عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : خبرت بين الشفاعة و نصف أمي فاخترت الشفاعة أترونها للمتقين لا و لكنها للخاطئين المتلوثين ؟ [

و خرج ابن ماجه قال : [حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر قال سمعت سليم بن عامر يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أتدرون ما خيرني ربي الليلة ؟ قلنا : الله و رسوله أعلم قال : إنه خيرني بين أن يدخل نصف أمي الجنة و بين الشفاعة فاخترت الشفاعة قلنا : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها قال : هي لكل مسلم] و ما الخبر العجيب الذي وعدنا بذكره فذكره الكلاباذي أبو بكر محمد بن إبراهيم في بحر الفوائد له حدثنا أبو النصر محمد بن إسحاق الرشادي قال حدثنا أبو بكر محمد بن عيسى بن زيد الطرسوسي قال حدثنا نعيم بن حماد قال حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن أبي قلابة قال : كان لي ابن أخ يتعاطى الشراب فمرض فبعث إلي ليلا : أن ألحق بي فأتيته فرأيت أسودين قد دنوا من ابن أخي فقلت : إنا لله هلك ابن أخي فاطلع أبيضان من الكوة التي في البيت فقال أحدهما لصاحبه : انزل إليه فلما نزل تحى الأسودان فجاء فشم فاه فقال ما أرى فيه ذكرا ثم شم بطنه فقال ما أرى فيه صوما ثم شم رجله فقال ما أرى فيهما صلاة فقال له صاحبه : إنا لله و إنا إليه راجعون رجل من أمة محمد صلى الله عليه و سلم ليس له من الخير شيء و يحك عد فانظر فعاد فشم فاه فقال ما أرى فيه ذكرا ثم عاد فشم بطنه فقال ما أرى فيه صوما ثم عاد فشم رجله فقال ما أرى فيهما صلاة فقال : و يحك رجل من أمة محمد صلى الله عليه و سلم ليس معه من الخير شيء اصعد حتى أنزل أنا فنزل الآخر فشم فاه فقال ما أرى فيه ذكرا ثم شم بطنه فقال ما أرى فيه صوما ثم شم رجله فقال ما أرى فيهما صلاة قال : ثم عاد فأخرج طرف لسانه فشم لسانه فقال : الله أكبر تكبيرة في سبيل الله يريد بها وجه الله يانتاكية قال ثم فاضت نفسه و شممت في البيت رائحة المسك فلما صليت الغداة قلت لأهل المسجد : هل لكم في رجل من أهل الجنة ؟ و حدثتهم حديث ابن أخي فلما بلغت ذكر إنتاكية قالوا ليست يانتاكية هي إنتاكية قلت لا و الله لا أسميتها إلا كما سماها الملك

قال علماءنا : فهذا أنجته تكبيرة أراد بها وجه الله تعالى و هذه التكبيرة كانت سوى الشهادة التي هي شهادة الحق التي هي شهادة الإيمان بالله تعالى كما قررناه فشفاعة النبي صلى الله عليه و سلم و الملائكة و النبيين و المؤمنين لمن كان له عمل زائد على مجرد التصديق و من لم يكن معه من الإيمان خير كان من الذين يفضل الله عليهم فيخرجهم من النار فضلا و كرما وعدا منه حقا و كلمة صدقا { إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء } فسبحان الرؤوف لأبياته بعباده الموفى بعهده

فصل : قلت : جاء في حديث أبي سعيد الخدري قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم و في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يكتب على جباههم عتقاء الرحمن و هذا تعارض

و وجه الجمع بين الحديث أن يكون بعضهم سيماهم في وجوههم و بعضهم سيماهم في رقابهم و قد جاء في حديث جابر و فيه بعد إخراج الشافعين ثم يقول الله تبارك و تعالى أنا الله أخرج بعلمي و رحمتي فيخرج أضعاف ما خرجوا و أضعافهم و يكتب في رقابهم عتقاء الله عز و جل فيدخلون الجنة فيسمون فيها بالجهنميين

قلت : و قد يعبر بالرقبة عن جملة الشخص قال الله تعالى { فتحرير رقبة } و قال عليه السلام [و لم ينس حق الله

في رقابها و لا ظهورها] و قد تعبر العرب بالرقاب عن جملة المال قال الشاعر :

(غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا ... علققت لضحكته رقاب المال)

فيحتمل أن يكون المعنى في حديث أبي سعيد و جابر رضي الله عنهما فيخرجون اللؤلؤ يعرف أهل الجنة أشخاصهم

بالخواتيم المكتوبة على جباههم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه و لا تعارض على هذا و الله أعلم

فصل : إن قال قائل لم سألوا محو ذلك الاسم عنهم و هو اسم شريف لأنه سبحانه أضافه إليه كما أضاف الأسماء

الشريفة فقال : نبيي و بيتي و عرشي و ملائكتي و قد جاء في الخبر : إن المتحابين في الله مكتوب على جباههم

هؤلاء المتحابون في الله و لم يسألوه محوه ؟ قيل : إنما سألوا ذلك بخلاف المتحابين في الله تعالى لأنهم أنفوا أن ينسوا

إلى جهنم التي هي دار الأعداء و استحيوا من إخوانهم لأجل ذلك فلما من عليهم بدخول الجنة أرادوا كمال

الامتنان بزوال هذه النسبة عنهم و قد روي مرفوعا : [إنهم إذا دخلوا الجنة قال أهل الجنة هؤلاء الجهنميون فعند

ذلك يقولون إلهنا لو تركتنا في النار كان أحب إلينا من العار فيرسل الله رجلا من تحت العرش يقال لها المثيرة فتهب

على وجوههم فتحمي الكتابة و تزيلهم بهجة و جمالا و حسنا]

أخبرنا الشيخ الراوية أبو محمد عبد الوهاب عرف بابن رواحة قرأت عليه قال قرئ على الحافظ السلفي و أنا أسمع

قال : [أخبرنا الحاجب أبو الحسن العلاف أخبرنا أبو القاسم بن بشران أخبرنا الآجري أبو بكر محمد بن الحسين

حدثنا أبو علي الحسن بن محمد بن سعيد الأنصاري حدثنا علي بن مسلم الطوسي حدثنا مروان بن معاوية الفزاري

قال : حدثني عمرو بن رفاعة الربيعي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و

سلم : إن أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون فيها و لا يحيون و أهلها الذين يخرجون منها إذا أسقطوا فيها كانوا

فحما حتى يأن الله فيخرجهم فيلقبهم على أمر يقال له الحياة أو الحيوان فيرش أهل الجنة عليهم الماء فينبتون ثم

يدخلون الجنة يسمون الجهنميين ثم يطلبون من الرحيم عز و جل فيذهب ذلك الاسم عنهم و يلحقون بأهل الجنة و

أما سيماء المتحابين فعلامة شريفة و نسبة رفيعة فلذلك لم يسألوا محوها و لا طلبوا زوالها و إزالتها] و الله أعلم

فإن قيل : ففي هذا ما يدل على أن بعض من يدخل الجنة قد يلحقه تنغيص ما و الجنة لا تنغيص فيها و لا نكد

قيل له : هذه الأحاديث تدل على ذلك و أن ذلك يلحقهم عند دخول الجنة ثم يزول ذلك الاسم عنهم : و قد

مثل بعض علمائنا هذا الذي أصاب هؤلاء بالبحر تقع فيه النجاسات أنه لاحكم لها كذلك ما أصاب هؤلاء بالنسبة

إلى أهل الجنة و هو تشبيهه حسن

قلت : و قد يلحق الجميع خوف ما عند ذبح الموت على الصراط على ما يأتي : و بعده يكونون آمنين مسرورين

قد زال عنهم كل متوقع و الله أعلم

فصل : إن قال قائل : كيف يشفع القرآن و الصيام و إنما ذلك عمل العاملين ؟ قيل له : و قد تقدم هذا المعنى و

نزيده وضوحا فنقول أنا الذي أسهرت ليلك و أظمأت نهارك خرجه ابن ماجه في سننه من حديث بريدة و إسناده

صحيح فقوله : يجيء القرآن أي ثواب قارئ القرآن

و قد جاء في صحيح مسلم [من حديث النواس بين سمعان الكلبي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم

يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة و أهله الذين كانوا يعملون به تتقدمه سورة البقرة و آل عمران و ضرب لهما

رسول الله صلى الله عليه و سلم ثلاثة أمثال ما نستيهن بعد قال كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو

كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما]

قال علمائنا فقوله [تحاجان عن صاحبهما] أي يخلق الله من يجادل عنه بقرابهما ملائكة كما جاء في بعض الحديث

[أنه من قرأ { شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة { خلق الله سبعين ألف ملك يستغفرون إلى يوم القيامة] قلت : و كذلك يخلق الله من ثواب القرآن و الصيام ملكين كريمين فيشفعان له و كذلك إن شاء الله سائر الأعمال الصالحة كما ذكره ابن المبارك في دقائقه : أخبرنا رجل عن زيد بن أسلم قال : بلغني أن المؤمن يتمثل له عمله يوم القيامة في أحسن صورة و أحسن ما خلق الله وجهها و ثيابا و أطيبه ريحا فيجلس إلى جنبه كلما أفرغه شيء آمنه و كلما تخوف شيئا هون عليه فيقول له : جزاك الله من صاحب خيرا من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني و قد صحبتك في قبرك و في دنياك أنا عملك كان و الله حسنا فلذلك تراني حسنا و كان طيبا فلذلك تراني طيبا تعال فاركني فطال ما ركبتك في الدنيا و هو قوله تعالى : { و ينجي الله الذين اتقوا بموازهم } الآية حتى يأتي به إلى ربه عز و جل فيقول يا رب إن كل صاحب عمل في الدنيا قد أصاب في عمله و كل صاحب تجارة و صانع قد أصاب في تجارته غير صاحبي هذا قد شغل في نفسه فيقول الله تعالى : فما تسأل ؟ فيقول المغفرة و الرحمة أو نحو هذا فيقول : فإني قد غفرت له ثم يكسى حلة الكرامة و يجعل عليه تاج الوقار فيه لؤلؤة تضيء من مسيرة يومين ثم يقول : يا رب إن أبويه قد شغل عنهما و كل صاحب عمل و تجارة قد كان يدخل على أبويه من عمله فيعطى أبويه مثل ما أعطى و يتمثل للكافر عمله في أقبح ما يكون صورة و أنتن رائحة و يجلس إلى جنبه كلما أفرغه شيء زاده و كلما تخوف شيئا زاده خوفا منه فيقول : بس صاحب أنت و من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا فيقول : أنا عملك كان قبيحا فلذلك تراني قبيحا و كان منتنا فلذلك تراني منتنا فطأطأ رأسك أركبك فطالما ركبتني في الدنيا فلذلك قوله تعالى : { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة }

قلت : مثل هذا لا يقاب من جهة الرأي و معناه يستند [من حديث قيس بن عاصم المنقري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك و هو حي و تدفن معه و أنت ميت فإن كان كريما أكرمك و إن كان لئيما أسلمك ثم لا يحشر إلا معك و لا تبعث إلا معه و لا تسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحا فإن كان صالحا فلا تأنس إلا به و إن كان فاحشا فلا تستوحش إلا منه و هو فعلك]

و ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب روضة المشتاق و الطريق إلى الملك الخلاق قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [يؤتى يوم القيامة بالتوبة في صورة حسنة و رائحة طيبة فلا يجد رائحتها و لا يرى صورتها إلا مؤمن فيجدون لها رائحة و أنسا فيقول الكافر و العاصي المصر : ما لنا ما وجدنا ما وجدتم و لا رأينا ما رأيتم فتقول التوبة : طال ما تعرضت لكم في الدنيا فما أردتموني فلو كنتم قبلتموني لكنتم اليوم و جدتموني فيقولون : نحن اليوم نتوب فينادي مناد من تحت العرش : ههيات ذهبت أيام المهلة و انقضت زمان التوبة فلو جئتموني بالدنيا و ما اشتملت عليه ما قبلت توبتكم و لا رحمت عبرتكم فعند ذلك تنأى التوبة عنهم و تبعده ملائكة الرحمة عنهم و ينادي مناد من تحت العرش : يا خزنة النار هلموا إلى أعداء الجبار] و هذا بين فما ذكرناه و بالله توفيقنا و الله أعلم

باب معرفة المشفوع فيهم بأثر السجود و بياض الوجه

قد تقدم من حديث أبي سعيد الخدري أن المؤمنين يقولون : ربنا إخواننا كانوا يصومون معنا و يصلون و يحجون أدخلتهم النار فيقول لهم : اذهبوا فمن عرفتم أخرجوه و ذكر الحديث و خرج مسلم من [حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم و فيه بعد قوله منهم الخاذا حتى ينجي إذا فرغ الله من القضاء بين العباد و أراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرجمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن

آدم إلا أثر السجود و حرم الله على النار أن تأكل آثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل] و ذكر الحديث و خرج [عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا درات و جوههم حتى يدخلوا الجنة]

فصل : هذا الحديث أدل دليل على أن أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه و سلم لا تسود لهم وجوه و لا تررق لهم أعين و لا يغلون بخلاف الكفار و قد جاء هذا المعنى منصوصا في [حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي ثم ماتوا عليها فهم في الباب الأول من جهنم لا تسود وجوههم و لا تررق أعينهم و لا يغلون بالأغلال و لا يقرون بالشياطين و لا يضربون بالمقامع و لا يطرحون في الأدراك منهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج و منهم من يمكث فيها يوما ثم يخرج و منهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج و منهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج و أكثرهم مكثا فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت و ذلك سبعة آلاف سنة] الحديث بطوله و سيأتي تمامه إن شاء الله تعالى خرجه الترمذي في نوادر الأصول

و قال أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة إنه يؤتى بأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه و سلم شيوخا و عجائزا و كهولا و نساء و شبابا فإذا نظر إليهم مالك خازن النار قال : من أنتم معشر الأشقياء ما لي أرى أيديكم لا تغل و لم توضع عليكم الأغلال و السلاسل و لم تسود وجوهكم و ما ورد علي أحسن منكم فيقولون : يا مالك نحن أشقياء أمة محمد صلى الله عليه و سلم دعنا نبكي على ذنوبنا فيقول لهم : ابكوا فلن ينفعكم البكاء فكم من شيخ وضع يده على لحيته و يقول : وا شبيته و طول حسرتاه و ضعف قوتاه و كم من كهل ينادي و مصيبته و أطول مقاماه و كم من شاب ينادي و أسفاه و شباباه على تغيير حسناه و كم من امرأة قد قبضت على ناصيتها و شعرها و هي تنادي و سواتاه و اهتك أستارها فيكون ألف عام فإذا النداء من قبل الله : يا مالك أدخلهم النار في أول باب منها فإذا هممت النار أن تأخذهم فيقولون بجمعهم : لا إله إلا الله فتنفر عنهم النار خمسمائة عام ثم يأخذون في البكاء فتشتد أصواتهم و إذا النداء من قبل الله تعالى : يا نار خذيهم يا مالك أدخلهم الباب الأول من النار فعند ذلك يسمع لها صلصلة كالرعد القاصف فإذا هممت النار أن تحرق القلوب زجرها مالك و جعل يقول : لا تحرقي قلبا فيه القرآن و كان وعاء الإيمان فإذا بالزبانية قد جاعوا بالحميم ليصبوه في بطونهم فيزجرهم مالك فيقول : لا تدخلوا الحميم بطونا أخصها رمضان و لا تحرق النار جباها سجدت لله تعالى فيعودون فيها حمما كالغاسق الخلو لك و الإيمان يتألا في القلوب و سيأتي لهذا مزيد بيان في آخر أبواب النار نجانا الله منها و لا يجعلنا ممن يدخلها فيحترق فيها

فصل : قوله : [إذا فرغ الله] مشكل و في التنزيل : { سنفرخ لكم أيها الثقلان } و معناه المبالغة في التهديد و الوعيد من عند الله تعالى لعباده كقول القائل سأفرغ لك و إن لم يكن مشغولا عنه بشغل و ليس بالله تعالى شغل تعالى عن ذلك

و قيل : المعنى : سنقصد نجازاتكم و عقوبتكم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك أي أقصد قصدك و فرغ بمعنى قصد و أحكم قال جرير بن نمير الجعفي :

(الآن و قد فرغت إلى نمير ... فهذا حين كنت لها عذبا)

يريد ؟ و قد قصدت نحوه فمعنى فرغ الله من القضاء بين العباد أي تم عليهم حسابهم و فصل بينهم لأنه لا يشغلهم شأن عن شأن سبحانه و تعالى

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي

باب ما يرجى من رحمة الله تعالى و مغفرته و عفوه يوم القيامة
قال الحسن : يقول الله تعالى يوم القيامة : [جوزوا الصراط بعفوي و ادخلوا الجنة برحمتي و اقتسموها بأعمالكم]
و قال عليه السلام : [ينادي منادي من تحت العرش : يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم و بقيت
التبعات فتواهبوها فيما بينكم و ادخلوا الجنة برحمتي]
و روي أن إعرابيا سمع ابن عباس يقرأ : { و كنتم على شفا حفرة من النار فأقذكم منها } فقال الأعرابي : و الله
ما أنقذكم منها و هو يريد أن يوقعهم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه
و قال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت و هو في الموت فبكيت فقال : مهلا لم تبكي ؟ فوالله ما من حديث
سمعت من رسول الله صلى الله عليه و سلم لكم فيه خير إلا حدثكموه إلا حديثنا واحدا و سوف أحدثكموه اليوم و
قد أحيط بنفسي سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من شهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله
حرم الله عليه النار] أخرجه مسلم و غيره من الأئمة
و خرج مسلم [من حديث سلمان الفارسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله تعالى خلق يوم
خلق السموات و الأرض مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء و الأرض فجعل في الأرض منها رحمة واحدة
فيها تعطف الوالدة على ولدها و الطير و الوحوش بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة]
أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد
و في بعض الطرق لأبي هريرة [فإذا كان يوم القيامة رد هذه الرحمة على تلك التسعة و التسعين فأكملها مائة رحمة
فرحم بها عباده يوم القيامة]
قلت : [أخبرنا عالي الشيخ الإمام الحافظ المسند ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن عمرو البكري
التميمي من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه قراءة عليه بالصنورة المنصورة بالديار المصرية في يوم الجمعة الثالث
عشر من شهر رجب القرد سنة سبع و أربعين و ستمائة قال : حدثنا الشيخ المسند أبو حفص عمر بن محمد بن
معمر الدارقري قدم علينا من دمشق قال : أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الكاتب
ببغداد أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد بن عيلان البزاز أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي أخبرنا موسى بن
سهل الوشا أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا الحجاج بن أبي ديب قال : سمعت أبا عثمان النهدي يحدث عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لما خلق الله تعالى السموات و الأرض أنزل مائة رحمة كل
رحمة طباقهما فقسم رحمة واحدة منها بين جميع الخلائق فمنها يعاطفون فإذا كان يوم القيامة رد هذه الرحمة على
التسعة و التسعين فأكملها مائة يرحم الله بها عباده يوم القيامة حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن ينال منها شيئا]
و قال ابن مسعود : لن تزال الرحمة بالناس حتى إن إبليس ليهتز صدره يوم القيامة مما يرى من رحمة الله تعال
و شفاعة الشافعين و قال الأصمعي : كان رجل يحدث بأحوال يوم القيامة و أعرابي جالس يسمع فقال : يا هذا من
يلبي هذا من العباد ؟ قال : الله فقال الأعرابي : إن الكرم إذا قدر عفا و غفر

و روى ابن ماجة [عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ هذه الآية { هو أهل التقوى و أهل المغفرة } قال : فقال الله تعالى : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله آخر فمن اتقى ألا يجعل معي إله آخر فأنا أهل أن أعفر له] و خرج أبو عيسى الترمذي بمعناه و قال حديث حسن غريب و روي [عن عبد الله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و الذي نفسي بيده الله أرحم بعبده من الوالدة الشفيقة بولدها]

و روى مسلم [عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم بسبي و إذا بامرأة من السبي تبغي ولدا لها إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته بطنها و أرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها قلنا : لا و الله و هي قادرة على أن تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الله أرحم بعباده من هذه بولدها] أخرجه البخاري أيضا و قال أبو غالب كنت أختلف إلى أبي أمامة بالشام فدخلت يوما على فتى مريض من جيران أبي أمامة و عنده عم له و هو يقول له : يا عدو الله ألم أمرك ؟ ألم أهلك ؟ فقال الصبي : يا عمه لو أن الله تعالى دفعني إلى والدتي كيف كانت صانعة بي ؟ قال : كانت تدخلك الجنة قال : إن ربي الله أشفق من والدتي و أرحم بي منها و قبض الفتى من ساعته فلما جهزه عمه و صلى عليه و أراد أن يضعه في حده فدخلت القبر مع عمه فلما سواه صاح و فرع فقلت له : ما شأنك ؟ قال : فسح لي في قبره و ملئ نورا فدهشت منه

و قال هلال بن سعد يؤمر بإخراج رجلين من النار فيقول الله تعالى لهما : كيف وجدتما مقيلكما ؟ فيقولان : شر مقيل فيقول الله تعالى : ذلك بما قدمت أيديكما و ما أنا بظلام للعبيد ثم يأمر بصرفهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها و يتلكأ الآخر فيؤمر بردهما و يسألهما عن حالهما فيقول الذي عدا : قد خبرت من وبال المعصية ما لم أكن لأعرض لمخالفتك ثانية و يقول الذي تلكأ : حسن ظني بك أن لا تردني إليها بعدما أخرجتني منها فيؤمر بهما إلى الجنة

قال المؤلف رحمه الله : و هذا الخبر رفعه الترمذي أبو عيسى بمعناه [عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن رجلين من دخلا النار اشتد صياحهما فقال الرب تبارك و تعالى : أخرجوهما فلما أخرجوا قال لهما لأي شيء اشتد صياحكما ؟ قالا : فعلنا ذلك لترحمنا قال : إن رحمتي لكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار فينطلقان فيلقي أحدهما نفسه فيجعلها له بردا و سلاما و يقوم الآخر فلا يلقي نفسه فيقول الله تبارك و تعالى : ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك ؟ فيقول : رب إني لأرجو أن تعيدني بعدما أخرجتني فيقول الله تعالى : لك رجاؤك فيدخلان الجنة برحمته]

قال : أبو عيسى إسناده هذا الحديث ضعيف لأنه عن رشدين بن سعد ورشدين بن ضعيف عن ابن أنعم الإفريقي و الإفريقي ضعيف عند أهل الحديث

[و عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يقول الله تعالى : أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام] حديث غريب

و ذكر أبو نعيم الحافظ عن إسحاق بن سويد قال : صحبت مسلم بن يسار عاما إلى مكة فلم أسمعته يتكلم بكلمة حتى بلغنا ذات عرق قال : ثم حدثنا قال : بلغني أنه يؤتى بالعبء يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول : انظروا في حسناته فينظر في حسناته فلا يوجد له حسنة فيقول : انظروا في سيئاته فتوجد له سيئات كثيرة فيؤمر كثيرة فيؤمر به إلى النار فيذهب إلى النار و هو يلتفت فيقول : رده إلي لم تلتفت ؟ فيقول : أي رب لم يكن هذا ظني

أورجائي فيك — شك إبراهيم — فيقول : صدقت فيؤمر به إلى الجنة
قلت : وهذا الحديث رفعه ابن المبارك قال : [أخبرنا رشدين بن سعد قال : حدثني أبو هانئ الخولاني عن عمرو
بن مالك أن فضالة بن عبيد وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما حدثاه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إذا كان يوم القيامة و فرغ الله من قضاء الخلق فيبقى رجلا فيؤمر بهما إلى النار فيلتفت أحدهما فيقول الجبار تبارك
و تعالی و ردوه فيردوه فيقال له : لم التفت ؟ فيقول : كنت أرجو أن تدخلني الجنة فيؤمر به إلى الجنة قال : فيقول
: لقد أعطاني ربي حتى إني لو أطعمت أهل الجنة ما نقص ذلك مما عندي شيئا] قالوا : و كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذا ذكره يرى السرور في وجهه
قال المؤلف : و في هذا المعنى خبر الرجل الذي ترفع له شجرة بعد أخرى حتى يخرج من النار إلى أن يدخل الجنة
خرجه مسلم في الصحيح و سيأتي

باب منه و في أول ما يقول الله تعالى للمؤمنين و في أول ما يقولون له

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا عبد الله المبارك قال : حدثني يحيى بن أيوب عن عبيد الله زحر عن خالد بن أبي
عمران عن أبي عياش عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئتم أنبأتكم بأول ما يقول
الله عز و جل للمؤمنين يوم القيامة و بأول ما يقولون له ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : فإن الله تعالى يقول
للمؤمنين هل أحببتهم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا قال : و ما محملكم على ذلك ؟ قال : فيقولون : عفوك و
رحمتك و رضوانك فيقول : فيأني قد أوجبت لكم رحمتي]

باب منه

ذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : أخبرنا عبد الرزاق عن
معمر عن زيد بن أسلم أن رجلا كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة و يشدد على نفسه و يقنط الناس من رحمة
الله ثم مات قال : إي رب مالي عندك ؟ قال : النار قال : فأين عبادتي و اجتهادي ؟ قيل له : إنك كنت تقنط الناس
من رحمتي في الدنيا و أنا أقنطك من رحمتي
و قال مقاتل : قال علي بن أبي طالب كرم الله و جهه : الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى و لم يرخص لهم
في معاصي الله عز و جل

باب حفت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات

مسلم [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حفت الجنة بالمكاره و حفت النار
بالشهوات] خرجه البخاري أيضا و الترمذي و قال : حديث صحيح غريب
و خرج الترمذي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة
فقال : انظر إليها و إلى ما أعددت لأهلها فيها قال فجاءها و نظر إليها و إلى ما أعد الله لأهلها فيها قال : فرجع
إليه و قال : و عزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها قال : فأمر بما فحفت بالمكاره فقال : فأرجع إليها فانظر إلى ما
أعددت لأهلها فيها قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : و عزتك لقد خفت أن لا
يدخلها أحد قال اذهب إلى النار فانظر إليها و إلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضا فرجع إليه
فقال : و عزتك لقد خفت ألا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بما فحفت بالشهوات فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال

: و عزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها]

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

فصل : المكاره : كل ما يشق على النفس و يصعب عليها عمله كالطهارة في السبرات و غيرها من أعمال الطاعات و الصبر على المصائب و جميع المكروهات و الشهوات : كل ما يوافق النفس و يلائمها و تدعو إليه و يوافقها و أصل الخفاف الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إليه بعد أن يتحظى فمثل صلى الله عليه و سلم المكاره و الشهوات بذلك فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره و الصبر عليها و النار لا ينجو منها إلا بترك الشهوات و فطام النفس عنها

و قد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه مثل طريق الجنة و طريق النار بتمثيل آخر فقال : [طريق الجنة حزن ربوة و طريق النار سهل بسهولة] ذكره صاحب الشهاب و الحزن : هو الطريق الوعر للسلك و الربوة : هو المكان المرتفع و أراد به أعلى ما يكون من الروابي و السهولة : بالسين المهملة هو الموضع السهل الذي لا غلط فيه و لا وعورة و قال القاضي أو بكر بن العربي في سراج المريدين له و معنى قوله عليه السلام : [حفت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات] أي جعلت على حافتها و هي جوانبها و يتوهم الناس أنه ضرب فيها المثل فجعله في جوانبها من الخارج و لو كان ذلك ما كان مثلاً صحيحاً و إنما هي من داخل و هذه صورتها :

الجنة النار

الصبر الألم الجاه المال النساء

المكاره الغزو

و عن هذا قال ابن مسعود : حفت الجنة بالمكاره و النار حفت بالشهوات فمن اطع الحجاب فقد واقع ما وراء و كل من تصورها من خارج فقد ضل عن معنى الحديث و عن حقيقة الحال فإن قيل : فقد حجبت النار بالشهوات قلنا : المعنى واحد لأن الأعمى عن التقوى : الذي أخذت سمعه و بصره الشهوات يراها و لا يرى النار التي هي فيها و إن كانت باستيلاء الجهالة و رين الغفلة على قلبه كالمطائر يرى الحبة في داخل القمح و هي محجوبة عنه و لا يرى الفخ لغلبة شهوة الحبة على قلبه و تعلق باله بها و جهله بما جعلت فيه و حجبت

باب احتجاج الجنة و النار و صفة أهلها

البخاري [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم احتجت الجنة و النار فقالت هذه : يدخلني الجبارون و المتكبرون و قالت هذه : يدخلني الضعفاء و المساكين فقال الله لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشياء و قال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء و لكل واحدة منكما ملؤها] خرجه مسلم و الترمذي و قال : هذا حديث حسن صحيح

فصل : قال الحاكم أو عبد الله في علوم الحديث : سئل محمد بن زهير عن قول النبي صلى الله عليه و سلم تحاجت النار و الجنة فقالت هذه : يدخلني الضعفاء من الضعيف قال الذي يبرىء نفسه من الحول و القوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة

قال المؤلف : و مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع و الله أعلم

و أما المساكين : فالمراد بهم المتواضعون و هم المشار إليهم في قوله عليه السلام : [اللهم أحييني مسكيناً و أمتني

مسكيننا و احشربني في زمرة المساكين] و لقد أحسن من قال :
(إذا أردت شريف الناس كلهم ... فانظر إلى ملك في زي مسكين)
(ذلك الذي عظمت في الله رغبته ... و ذلك يصلح للدنيا و للدين)
و معنى [تحاجت الجنة و النار] أي حاجت كل واحدة صاحبتها و خاصمتها و سيأتي بيانه عند قوله عليه السلام :
[اشتكت النار إلى ربي]

باب منه في صفة أهل الجنة و أهل النار و في شرار الناس من هم ؟
مسلم [عن عياض بن عمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يوما في خطبته : أهل الجنة ثلاثة :
ذو سلطان مقسط متصدق موفق و رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى و مسلم و عفيف ضعيف متضعف ذو
عيال

قال : و أهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يتبعون أهلا و لا مالا و الخائن الذي لا
يخفى له طمع و إن دق إلا خانة و رجل لا يصبح و لا يمسي إلا و هو يخادعك عن أهلك و مالك و ذكر البخل
و الكذب و الشنظير الفحاش]

[و عن حارثة بن وهب الخزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف
متضعف لو أقسم على الله لأبر قسمه ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر] و في رواية : [زنيم متكبر
[خرجه ابن ماجه أيضا

[أبو داود عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يدخل الجنة الجواظ و لا الجعظري] قال : الجواظ
: الغليظ الفظ

ابن ماجه [عن ابن عمران قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله رسول الله لا يعذب من عباده إلا
المراد المتمرد الذي تمرد على الله و أبي أن يقول لا إله إلا الله]

[و عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا يدخل النار إلا شقي قيل يا رسول الله و من
الشقي ؟ قال : من لم يعمل لله بطاعته و لم يترك له معصية]

[و عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيرا و
هو يسمع و أهل النار من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس شرا و هو يسمع]

مسلم [عن أنس قال : مر بجنابة فأتني عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم و جبت و جبت و جبت
و مر بجنابة فأتني عليها شرا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و جبت و جبت و جبت فقال عمر : فذاك
أبي و أمي مر بجنابة فأتني عليها خيرا فقلت : و جبت و جبت و جبت و مر بجنابة فأتني عليها شرا فقلت : و جبت
و جبت و جبت فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أثبتتم عليه خيرا و جبت له الجنة و من أثبتتم عليه شرا
و جبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض] قالها ثلاثا

و قالت عائشة رضي الله عنها : الجنة دار الأسخياء و النار دار البخلاء

و قال زيد بن أسلم : أمرك الله تعالى أن تكون كريما فيدخلك الجنة و هناك أن تكون بخيلا فيدخلك النار
و ذكر أبو نعيم الحافظ من حديث محمد بن كعب القرظي [عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال
: من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله و من أحب أن يكون أكرم الناس فليقت الله و من أحب أن
يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ألا أنبئكم بشراكم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : من

أكل وحده و منع رفده و جلد عبده أفأنتكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : من يبغض الناس و يبغضونه قال : أفأنتكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : من لا يقبل معذرة و لا يغفر ذنبا قال : أفأنتكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : من لا يرجى خيره و لا يؤمن شره إن عيسى بن مريم قائم في بني إسرائيل خطيبا فقال : يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها و لا تمنعوها أهلها فتظلموها و قال : مرة فتظلموهم و لا تظلموا ظالما و لا تكافتوا طالما فيبطل فضلكم عند ربكم يا بني إسرائيل الأمر ثلاث : أمر بين رشه فاتبعوه و أمر بين غيه فاجتنبوه و أمر اختلف فيه فردوه إلى الله عز و جل] قال أبو نعيم و هذا الحديث لا يحفظ بهذا السياق عن النبي صلى الله عليه و سلم إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس

فصل : قوله : ذو سلطان مقسط و ما بعده مرفوع على أنهما صفات لذو و هي بمعن صاحب و المقسط : العادل و المتصدق : المعطي الصدقات و الموفق : المسدد لفعل الخيرات و رفيق القلب : لينه عند التذكرة و الموعدة و يصلح أن يكون بمعنى الشفيق

و قوله : [ضعيف متضعف] يعني ضعيف في أمور الدنيا قوي في أمر دينه كما قال عليه السلام : [المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف و في كل خير] الحديث خرجته مسلم أما من كان ضعيفا في أمور دينه لا يعني بها فمذموم و ذلك من صفات أهل النار كما قال : و أهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له أي لا عقل له و من لا عقل له ينفك به عن المفاصد و لا ينزجر به عنها فحسبك به ضعفا و خسارة في الدين و قد قيل في الزبير : إنه المال و ليس بشيء لأن النبي صلى الله عليه و سلم فسر ذلك بقوله الذين هم فيكم تبع لا يتبعون أهلا و لا مالا

قال شيخنا أبو العباس رضي الله عنه : فيعني بذلك أن هؤلاء ضعفاء العقول فلا يسعون في تحصيل مصلحة دنيوية و لا فضيلة نفسية و لا دينية بل يهملون أنفسهم إهمال الأنعام و لا يبالون بما يتبون عليه من الحلال و الحرام و هذه الأوصاف الخبيثة الذاتية هي أوصاف هذه الطائفة للسماة بالقلندرية و قد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير راوي الحديث : و الله لقد أدركتهم في الجاهلية و إن الرجل ليرعى على الحي ما به إلا و ليدتهم يطاؤها و يخفى بمعنى يظهر و هو من الأضداد

و قوله : و ذكر البخل و الكذب هكذا الرواية المشهورة بالواو الجامعة و الكذب و قد رواه ابن أبي جعفر عن الطبراني بأو التي للشك قاله القاضي عياض و لعله الصواب و به تصح القسمة لأنه ذكر أن أصحاب النار خمسة : الضعيف الذي وصفه و الخائن الذي و صف و الرجل المخادع الذي وصف قال : و ذكر البخل و الكذب ثم ذكر الشنظير و الفحاش فرأى هذا القائل أن الرابع هو أحد الصنفين و قد يحتمل لأن يكون الرابع قد جمعها على رواية و او العطف كما جمعها في الشنظير الفحاش و قوله : أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق و رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى و مسلم و عفيف متعفف ذو عيال

قال القاضي عياض : كذا قيدناه بخفض مسلم عطفًا على ما قبله و في رواية أخرى و مسلم عفيف بالرفع و حذف الواو شيخنا انتهى كلام القاضي عياض رحمه الله و العفيف : الكثير العفة و هي الانكفاف عن الفواحش و عن ما لا يليق و المتعفف : المتكلف العفة و الشنظير : السيء الخلق و يقال شنظيرة أيضا قاله الجوهري و أنشد قول أعرابية :

(شنظيرة زوجنيه أهلي ... من حمقه يحسب رأسي رجلي)

(كأنه لم ير أنثى قبلي)

و ربما قالوا شنظيرة بالذال المعجمة لقربها من الظاء لغة أو لثغرة و الفحاش الكثير الفحش و قيل الشنظير : هو الفحاش قال صاحب العين : يقال شنظر بالقوم إذا شتم أعراضهم و الشنظير : الفحاش من الرجال القلق و كذلك من الإبل و الجواظ : الجموع المتوع و منه قوله تعالى : { و جمع فأوعى }
و قيل : الجواظ الكثير اللحم المختال و قيل : هو الجافي القلب و العتل : قيل : الجافي الشديد الخصومة و قيل : هو الأكل الشروب الظلوم

قال المؤلف : و يقال : إنه اللفظ الغليظ الذي لا يتقاد لخب و الجعظري : اللفظ الغليظ القصير و جاء في تفسيره في بعض الأحاديث هم الذين لا تصدع رؤوسهم

قال شيخنا : و الزنيم : المعروف بالشر و قيل : اللنيم و أما الزنيم المذكور في القرآن فرجل معين له زنمة كزنمة التيس و قيل : هو الوليد و كان له زنمة تحت أذنه و قيل هو الملقق بالقوم و قيل : هم الأخنس بن شريق و قوله عليه السلام : [من أنيتم عليه شرا و جبت له النار] يعارضه قوله عليه السلام [لا تسبوا الأموات فإنهم قد أقضوا إلى ما قدموا] أخرجه البخاري و الثناء بالشر : سب فقيل ذلك خاص بالمنافقين الذين شهدت الصحابة فيهم بما ظهر لهم و لذلك قال عليه السلام : [و جبت به النار] و المسلم لا تجب له النار و اختار هذا القول القاضي عياض

و قيل : ذلك جائز فيمن كان يظهر الشر و يعلن به فيكون ذلك من باب لا غيبة لفاسق و قيل : إن النهي إنما هو بعد الدفن و أما قبله فممنوع لقوله عليه السلام : [لا تسبوا الأموات] فالنهي عن سب الأموات متأخر فيكون ناسخا و الله أعلم

و قوله : [أنتم شهداء الله في الأرض] معناه عند الفقهاء إذا أثنى عليه أهل الفضل و الصدق و العدالة لأن الفلسفة قد يتنون على الفاسق فلا يدخل في الحديث و كذلك لو كان القائل فيه عدوا له و إن كان فاضلا لأن شهادته في حياته لو كانت عليه كانت غير مقبولة و كذلك الحكم في الآخرة و الله أعلم
و قيل إن تكرار [أنتم شهداء الله في الأرض] ثلاثا إشارة إلى القرون الثلاثة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه و سلم [خير الناس قربي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم]

قلت : الأول أصح لأن الله تعالى مدح هذه الأمة بالفضل العدالة إلى يوم القيامة قال الله تعالى { و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس } يعني في الآخرة كما تقدم فلا يشهد إلى العدول و قد خرج البخاري [عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : مر على النبي صلى الله عليه و سلم بجزاة فأتوا عليها خيرا فقال و جبت ثم مر عليه بأخرى فأتوا عليها شرا أو قال غير ذلك فقال و جبت فقيل يا رسول الله قلت لهذا و جبت و لهذا و جبت فقال : المؤمنون شهداء الله في الأرض] و خرج ابن ماجه بهذا الإسناد و قال شهادة القوم و المؤمنون شهود الله في الأرض و في البخاري أيضا [عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة قلنا : و ثلاثة ؟ قال : و ثلاثة : فقلنا : و إثنان ؟ قال : و اثنان ثم لم نسأله عن الواحد] قال أبو محمد عبد الحق و هذا الحديث مخصوص و الله أعلم و الذي قبله يعطي العموم و إن كثرت شهوده و انطلقت السنة المسلمين فيه بالخير و الثناء الصالح كانت له الجنة و الله أعلم
قال المؤلف رحمه الله : و من هذا المعنى ما ذكره هناد بن السري أخبرنا إسحاق الرازي عن أبي سنان عن عبد الله

بن السائب قال : مرت جنازة بعبد الله بن مسعود فقال لرجل قم فانظر من أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ قال الرجل : ما يدريني أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ وكيف أنظر؟ قال : ثناء الناس عليه فإنهم شهداء الله في الأرض قال أبو محمد : و غير مستنكر إذا أحب الله عبدا أمر أن يلقي على السنة المسلمين الثناء عليه و في قلوبهم الحجة له قال الله تعالى { إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا } و قال عليه السلام : [إذا أحب الله عبدا قال يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض و ذكر في البغضاء مثل ذلك] و هذا حديث صحيح خرجه البخاري و مسلم قال أبو محمد عبد الحق : و قد شوهد رجال من المسلمين علماء صالحون كثر الثناء عليهم و صرفت القلوب إليهم في حياتهم و بعد مماتهم و منهم من كثر المشيعون لجنازته و كثر الحاملون لها و المتشغلون بها و ربما كثر الله الخلق بما شاء من الجن المؤمنين أو غيرهم مما يكون في صور الناس ذكر قاسم بن أصبغ قال : حدثنا أحمد بن زهير قال : أخبرنا محمد بن يزيد الرفاعي قال مات عمرو بن قيس الملاهي بناحية فارس فاجتمع لجنازته من الخلق ما لا يحصى فلما دفن نظروا فلم يروا أحدا قال الرفاعي : سمعت هذا ممن لا أحصى كثرة و كان سفيان الثوري يتبرك بالنظر إلى عمرو بن قيس هذا و لما مات أحمد بن حنبل رضي الله عنه صلى عليه من المسلمين ما لا يحصى فأمر المتوكل أن يسمح موضع الصلاة عليه من الأرض فوجد موقف ألفي ألف و ثلاثمائة ألف أو نحوها و لما انتشر خبر موته أقبل الناس من البلاد يصلون على قبره فصل عليه ما لا يحصى و لما مات الأوزاعي رضي الله عنه اجتمع للصلاة عليه من الخلق ما لا يحصى و روي أنه أسلم في ذلك اليوم من أهل الذمة اليهود و النصارى نحو من ثلاثين ألفا لما رأوا من كثرة الخلق على جنازته و لما رأوا من العجب في ذلك اليوم و لما مات سهل بن عبد الله التستري رحمه الله انكب الناس على جنازته و حضرها من الخلق ما لا يعلمه إلا الله تعالى و كانت في البلد ضجة فسمع بها يهودي شيخ كبير فخرج فلما رأى الجنازة صاح و قال : هل ترون ما أرى؟ قالوا : و ما ترى؟ قال : أرى قوما ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ثم أسلم و حسن إسلامه و يقال : إن الكعبة لم تخل من طواف طائف يطوف بها إلا يوم مات المغيرة بن حكيم فإنها خلت لانتشار الناس لجنازته تبركا بها و رغبة في الصلاة عليه و قد شوهد من جنائز الصالحين من يشيعها الطير و يسير معها حيث سارت منهم : أبو الفيض ذو النون المصري و أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي حدث بذلك الثقات : قاله أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له

باب منه في صفة أهل الجنة و أهل النار

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم صفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس و نساء كاسيات عاريات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة و لا يجدن ريحها و إن ريحها ليوجد من مسيرة كذا و كذا] قال الحافظ ابن دحية أبو الخطاب الرواية بالياء بلا خلاف و تحكم أبو اليد الكتاني فرواه بالثناء المثلثة و هي المتصبة و هذا خطأ منه و تصحيف و خرجه مسلم أيضا [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال يدخل الجنة أقوام أفدتم مثل أفدة الطير] فصل : للعلماء في تأويل هذا الحديث و جهان :

أحدهما : أنهما مثلها في الخوف و الهيبة و الطير أكثر الحيوانات خوفا حتى قالوا أحذر من غراب و قد غلب الخوف

على كثير من السلف حتى انصدعت قلوبهم فماتوا

الثاني : أنه مثلها في الضعف و الرقة كما جاء في الحديث الآخر في أهل اليمن هم أرق قلوبا و أضعف أفئدة قلت : و يحتمل وجها ثالثا أنها مثلها خالية من كل ذنب سليمة من كل عيب لا خبرة لهم بأمور الدنيا كما روي [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أكثر أهل الجنة البله] و هو حديث صحيح أي البله عن معاصي الله و الله أعلم

قال الأزهري : الأبله في كلامهم على و جوه : يقولون عيش أبله إذا كان ناعما و منه أخذ بلهنية العيش قال بعضهم : و طالما عشت في بلهنية

و الأبله الذي لا عقل له و الأبله الذي طبع على الخير و هو غافل عن الشر لا يعرفه و قال هذا هو المراد بالحديث و قال العتيبي : البله هم الذين غلب عليهم سلامة الصدور و حسن الظن بالناس و أنشد :

(و لقد هوت بطفلة ميالة ... بلهاء تطلعي على أسرارها)

يعني أنها أغراء لا دهاء فيها :

قلت : و نظير ما ذكرناه و ما قاله هؤلاء من الكتاب قوله تعالى { إلا من أتى الله بقلب سليم } و قوله عليه السلام و قد سئل أي الناس أفضل ؟ قال : [الصادق اللسان المخموم القلب قالوا : أما الصادق اللسان فقد عرفناه أنه ذلك فما المخموم القلب ؟ قال : التقى الذي لا غل فيه و لا حسد] ذكره أبو عبيده و العرب تقول حمت البيت أي كنسته و منه سميت الحمامة و هي مثل القمامة و الكناسة

و قال بعض العلماء في البله وجها آخر لطيفا و هو : أنهم سموا بذلك لقصورهم عن كمال المعرفة بحق الله تعالى و رؤية استحقاها العباد و إيتار طلبه و الشغف بحبه و خدمته و طلب رضاه الذي هو جنة الخلد إذا وقفوا بخواطيرهم على الجنة و نعيمها و عبوده و أطاعوا في نيل درجاتها و لذا غافلين عن مراقبة جلاله و ملاحظة كماله يعكوف همهم على نيل نعمه و أفضاله فهم بله أيضا بالإضافة إلى العقلاء عن الله عز و جل ذوي الأبواب المقبلية على

مشاهدة عظمة الله تعالى المتوجهين بكليتهم إليه المشغولين به عما لديه و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم في سياق قوله : [أكثر أهل الجنة البله و عليون لأولي الأبواب] و في الخبر : أن طائفة من العقلاء بالله عز و جل تزفهم للملائكة إلى الجنة و الناس في الحساب فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون : إلى الجنة فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا فتقول لهم للملائكة : و ما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر : { في مقعد صدق عند مليك مقتدر } و لعل من هذا القبيل من يسأل الله الجنة إلا أن سؤاله إياها لا لها بل موافقة لمولاه لما علم أنه يجب أن يسأل من ثوابه و يستعاذ من عذابه فوافق مولاه

في إيتاره لا لحظ نفسه كما قال عليه السلام لأحد أصحابه الذي قال [أما أنا فأقول في دعائي اللهم أدخلني الجنة و عافني من النار و لا أدري ما دندنتك و لا دندنه معاذ فقال له النبي صلى الله عليه و سلم حولها ندندن]

قلت : خرج أبو داود في سننه و ابن ماجه أيضا

فصل : قال الحافظ ابن دحية أبو الخطاب : قوله صنغان من أهل النار لم أرهما الصنف فيما ذكر عن الخليل الطائفة من كل شيء و السوط في اللغة اسم العذاب و إن لم يكن له ثم ضرب قال الفراء

و قال ابن فارس في الجمل السوط من العذاب النصيب و السوط خلط الشيء بعضه ببعض و إنما سمي سوطا لمخالطته و إنما أراد النبي صلى الله عليه و سلم عظم الشياطين و خروجها عن حد ما يجوز به الضرب في التأديب و هذه الصفة للشياطين مشاهدة عندنا بالمغرب إلى الآن و غيره

وقوله نساء كاسيات عاريات يعني أنهن كاسيات من الثياب عاريات من الذين لانكشافهن و إبدائهن بعض محاسنهن

وقيل : كاسيات ثيابا رقافا يظهر ما خلفها و ما تحتها فهن كاسيات في الظاهر عاريات و في الحقيقة
وقيل : كاسيات في الدنيا بأنواع الزينة من الحرام و ما لا يجوز لبسه عاريات يوم القيامة ثم قال عليه السلام [مائلات ميملات] قيل : معناه زائغات عن طاعة الله تعالى و طاعة الأزواج و ما يلزمهن من صيانة الفروج و التستر عن الأجانب و ميملات يعلمن غيرهن الدخول في مثل فعلهن
وقيل : مائلات متبخترات في مشهين ميملات يملن رؤوسهن و أعطافهن من الخيلاء و التبختر و ميملات لقلوب الرجال إلبهن لما يبدين من زينتهن و طيب راتحنهن
وقيل : يتمشطن الميلاء و هي مشطة البغايا و الميملات : اللواتي يمشطن غيرهن المشة الميلاء قال صلى الله عليه و سلم [رؤوسهن كأسنمة اليخت] معناه يعظمن رؤوسهن بالخمير و المقانع و يجعلن على رؤوسهن شيئا يسمي عندهم التازة لا عقص الشعر و الذائب المباح للنساء حسب ما ثبت في الصحيح عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله إني امرأة أشد ضفر رأسي الحديث

باب ما جاء في أكثر أهل الجنة و أكثر أهل النار

مسلم [عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين و إذا أصحاب الجدمجوسون إلى أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار و قمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء]

[و من حديث ابن عباس في حديث كسوف الشمس : و رأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط و رأيت أكثر أهلها النساء قالوا : يم يا رسول الله ؟ قال بكفروهن قيل أيكفرون بالله ؟ قال : يكفرون العشير و يكفرون الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأيت منك ما تكره قالت ما رأيت منك خيرا قط]

[و عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن أقل ساكني الجنة النساء]

فصل : قال علماؤنا : إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى و الميل إلى عاجل زينة الدنيا لنقصان عقولهن أن تنقذن بصائرهن إلى الأخرى فيضعفن عن عمل الآخرة و التأهب لها و لميلهن إلى الدنيا و التزين بها و لها ثم مع ذلك هن أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الأخرى لما لهم فيهن من الهوى و الميل لهن فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهن صارفات عنها لغيرهن سرعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى و أعمالها من المقتنين

و عن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أيها الناس لا تطيعوا للنساء أمرا و لا تأمنوهن على مال و لا تدعوهن يدبرن أمر عشير فإنهن إن تركن و ما يردن أفسدن الملك و عصين المالك و جدناهن لا دين لهن في خلواتهن و لا ورع لهن عند شهواتهن اللذة بمن يسيرة و الحيرة بمن كثيرة فأما صواهلهن ففاجرات و أما طواهلهن فعاشرات و أما المعصومات فهن المعدومات فيهن ثلاث خصال من اليهود : يتظلمن و هن ظالمات و يخلفن و هن كاذبات و يتمنعن و هن راغبات فاستعينوا بالله من شرارهن و كونوا على حذر من خيارهن و السلام

و قال صلى الله عليه و سلم : [ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء] و سيأتي
و قال : [ما رأيت من ناقصات عقل و دين أسلب للرجل الحازم من إحدكن يا معشر النساء] و هو معنى

قوله عليه السلام في الحديث المتقدم : [ماتلات ميلات] قال الحافظ بن دحية : تحفظوا عباد الله منهم و تجنبوا
غيهن و لا تثقوا بودهن و لا عهدهن ففي نقصان عقولهن و دينهن ما يغني عن الإطناب فيهن
باب منه

البخاري [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كل أمي يدخلون الجنة إلا من
يأتي قيل : و من يأتي يا رسول الله قال : من أطاعني دخل الجنة و من عصاني فقد أبي]
و ذكر ابن أبي الدنيا قال : حدثنا محمد بن علي حدثنا أبو إسحاق بن الأشعث قال : سمعت فضيل بن عياض يقول
: سمعت ابن عياض يقول : يؤتى بالدينا يوم القيامة في صورة عجوز شطاء زرقاء أنيابها بادية مشوهة خلقتها
فتشرف على الخلائق فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تشاجرت
عليها بما قطعتم الأرحام و بما تحاسدتم و تباغضتم و اغتررتم ثم تقذف في جهنم فتنادي أي رب أين أتباعي و
أشياعي فيقول الله : تعالى : ألحقوا بما أتباعها و أشياعها

باب ما جاء أن العرفاء في النار

[عن أبي داود عن غالب القطان عن رجل عن أبيه عن جده الحديث و فيه أن أباه أرسله إلى النبي صلى الله عليه و
سلم و أنه قال : إن أبي شيخ كبير و هو عريف الماء و أنه يسألك أن تجعل الإلعرافة بعده فقال : إن العرافة حق و
لا بد للناس من عرفاء و لكن العرفاء في النار] و في الصحيح في قصة هوازن : ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم
أمركم

فصل : قال علماؤنا : العريف هنا القيام بأمر القبيلة و المحلة يلي أمورهم و يتعرف أخبارهم و يعرف الأمير منه
أحوالهم و قوله العرافة حق و يريد أن فيها مصحلة للناس و رفقا لهم ألا تراه يقول و لا بد للناس من عرفاء و قوله
في النار : معناه التحذير من الرئاسة و التأمير على الناس لما فيه من الفتنة و الله أعلم
باب منه

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا هشام بن عباد بن أبي علي عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه و سلم : ويل للأمناء و ويل للعرفاء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا
يتذبذبون بين السماء و الأرض و أنهم لم يلوا عملا]

باب لا يدخل الجنة صاحب مكس و لا قاطع رحم

قال الله تعالى : { و لا تقعدوا بكل صراط توعدون و تصدون عن سبيل الله من آمن به و تبغونها عوجا } نزلت في
المكاسين و العشارين في قول بعض العلماء و قال تعالى { فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا
أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله { الآية
مسلم [عن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا يدخل الجنة قاطع] قال ابن أبي عمر
قال سفيان يعني قاطع رحم رواه البخاري
أبو داود [عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لا يدخل الجنة
صاحب مكس]

فصل : قال علماؤنا صاحب المكس هو الذي يعثر أموال الناس و يأخذ من التجار و المختلفين ما لا يجب عليهم

إذا مروا به مكسا باسم العشر أو الزكاة و ليس هو الساعي الذي يأخذ الصدقات و الحق الواجب للفقراء و قد قمنا أن التبديل إذا كان في الأعمال و ليس في العقائد صاحبه في السيئة و إن عذب فإنه يخرج بالشفاعة على ما تقدم و هكذا القول في أهل الكبائر المتوعد عليها بالنار و اللعنة يخرجون بالشفاعة إذا ارتكبوها على غير وجه الاستحلال

باب ما جاء في أول ثلاثة يدخلون الجنة و أول ثلاثة يدخلون النار

أبو بكر بن شيبه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد و رجل عفيف متعفف ذو عيال و عبد أحسن عبادة ربه و أدى حتى مواليه و أول ثلاثة يدخلون النار : أمير متسلط و ذو ثروة من مال لا يؤدي حقه و فقير فخور]

باب ما جاء في أول من تسعر بهم جهنم

مسلم [عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبتك و لكنك قاتلت ليقال فلان جريء فقد قيل ثم أمر ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار و رجل تعلم العلم و علمه و قرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فرفّعها قال : قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم و علمته و من قرأت فيك القرآن قال : كذبت و لكنك تعلمت ليقال عالم و قرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر بن فسحب على وجهه حتى ألقي في النار و رجل وسع الله عليه و أعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت سبيلا تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت و لكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار] خرجه أبو عيسى الترمذي بمعناه و قال في آخره ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم على ركبتي فقال : [يا أبا هريرة : أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة]

باب فيمن يدخل الجنة بغير حساب

مسلم [عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يدخل الجنة من أمّتي سبعون ألفا بغير حساب قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : هم الذين لا يسترقون و لا يظيرون و لا يكتنون و على ربهم يتوكلون]

الترمذي [عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمّتي سبعين ألفا لا حساب عليهم و لا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا و ثلاث حثيات من حثيات ربي] قال الترمذي : هذا حديث غريب و قد أخرجه ابن ماجه أيضا

و خرج أبو بكر البزار [من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ليدخلن الجنة من أمّتي سبعون ألفا مع كل واحد من السبعين ألفا سبعون ألفا] و خرج أيضا هو و أبو عبد الله الحكيم الترمذي [عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله أعطاني

سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فقال عمر : يا رسول الله فهلا استزدته ؟ قال : استزدته فأعطاني مع كل من
السبعين ألفا فقال عمر : يا رسول الله فهلا استزدته ؟ قال : لقد استزدته فأعطاني هكذا [وفتح أبو
وهب يديه قال أبو وهب قال هشام هذا من الله لا يدري ما عدده

وخرج الترمذي الحكيم أيضا [عن نافع أن أم قيس حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج آخذًا بيدها
في سكة من سكك المدينة حتى انتهى بها إلى بقيع الغرقد فقال يبعث من ها هنا سبعون ألفا يوم القيامة في صورة
القمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب فقام رجل فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : أنت منهم
فقام آخر فقال يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : سبقك بها عكاشة [قال أبو عبد الله فهذا العدد من
مقبرة واحدة فكيف بسائر مقابر أمته و إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أنت منهم كأنه رأى فيه أنه
منهم و الآخر لم يره بموضع ذلك فقال سبقك بها عكاشة و أم قيس هي بنت محسن أخت عكاشة بن محسن
الأسدي

قلت : خرج مسلم في صحيحه بمعناه

فصل : لا تظن أن من استوفى و اكتوى لا يدخل الجنة بغير حساب فإن النبي صلى الله عليه وسلم رقى نفسه و
أمر بالرقى و كذلك كوى أصحابه و نفسه فيما ذكر الطبري و غيره فمحمل النبي عن رقى مخصوصة بدليل قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم لآل عمرو بن حزم [اعرضوا على رقابكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك] و
كذلك الكي الذي لا يوجد عنه غني فمن فعله في محله و على شرطه لم يكن ذلك مكروها في حقه و لا منقصا له
من فضله و يجوز أن يكون من السبعين ألفا و قد كوى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فيما ذكره الطبري في

كتاب آداب النفوس له ذكره الحلبي في كتاب المنهاج في الدين له

و اختلفت الرواية في الكي فروي أن النبي صلى الله عليه وسلم اكتوى من الكلم الذي أصابه في وجهه يوم أحد و
كوى سعد بن زرارة من الشوكة و كوى سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن و أبي بن كعب المخصوص
بأنه أقرأ الأمة للقرآن و قد اكتوى عمران بن حصين و قطع رجله عروة بن الزبير فمن اعتقد أن هؤلاء لا يصلحوا
أن يكونوا من السبعين ألفا ففساد كلامه لا يخفى

باب منه

[أخبرنا ابن رواح إجازة قال : حدثنا السلفي قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى بن مردويه بن
فورك بن جعفر قراءة عليه و أنا أسمع بأصبهان سنة إحدى و تسعين و أربعمائة قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن
عمر بن إسحاق بن إبراهيم الأسدي الهمداني قراءة عليه في شعبان سنة تسع و أربعمائة قال : أخبرنا أبو بكر
محمد بن أحمد بن إسحاق بن السنبي الحافظ قال : أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد المطيعي قال : حدثنا أبو بكر
بن زنجويه قال

حدثنا عثمان بن صالح قال : حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي جحيرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل غسل ثوبه فلم يجد له خلفا و رجل لم ينصب على مستوقدده
بقدرين قط و رجل دعي بشراب فلم يقل له أيهما تريد و قال ابن مسعود : من احتفر بئرا بفلاة من الأرض إيمانا
و احتسابا دخل الجنة بلا حساب

باب منه

ذكر أبو نعيم عن علي بن الحسين رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيكم أهل الفضل ؟ فيقول

ناس من الناس فيقال انطلقوا إلى الجنة فتلتقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون إلى الجنة قالوا قبل الحساب ؟ قالوا : نعم قالوا : من أنتم ؟ قالوا : أهل الفضل قالوا : و ما كان فضلكم ؟ قالوا لنا إذا جهل علينا حلمنا و إذا ظلمنا صبرنا و إذا أسى علينا غفرنا قالوا : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين ثم ينادي مناد ليقم أهل الصبر فيقوم ناس من الناس و هم قليل فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة فتلتقاهم الملائكة فيقال لهم مثل ذلك فيقولون نحن أهل الصبر قالوا : و ما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله و صبرناها عن معاصي الله قالوا : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين قال : ثم ينادي مناد ليقم جيران الله فيقوم ناس من الناس و هم قليل فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة فتلتقاهم الملائكة فيقال لهم مثل ذلك قالوا : و لم جاورتهم الله في داره ؟ قالوا : كنا نتزاور في الله و نتجالس في الله و نتبادل في الله عز و جل قالوا : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين

و ذكر [من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا جمع الله الأولين و الآخرين في صعيد واحد ينادي مناد من تحت بطنان العرش : أين أهل المرة بالله أين الحسنون ؟ قال : فيقوم عنق من الناس حتى يقفوا بين يدي الله تعالى فيقول و هو أعلم بذلك : من أنتم ؟ فيقولون نحن أهل المعرفة بك الذي عرفتنا إياك و جعلتنا أهلا لذلك فيقول : صدقتم ثم يقول ما عليكم من سبيل ادخلوا الجنة برحمتي ثم تبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : لقد نجاهم الله من أهوال يوم القيامة] قال أبو نعيم : هذا طريق مرضي لولا الحارث بن منصور الوراق و كثرة وهمه

ابن المبارك عن ابن عباس قال : [إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ليقم الحامدون لله تعالى على كل حال فيقومون فيسرحون إلى الجنة ثم ينادي ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ليقم الذين كانت { تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا و مما رزقناهم ينفقون } قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة قال : ثم ينادي ثالثة ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ليقم الذين كانوا { لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله } الآية فيسرحون إلى الجنة

و روي أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين عبادي الذين أطاعوني و حفظوا عهدي بالغيب فيقومون كأن وجوههم البدر أو الكوكب الدردي ركبانا على نجائب من نور أزمتهما من الياقوت الأحمر تطير بهم على رؤوس الخلائق حتى يقوموا بين يدي العرش فيقول الله لهم : السلام على عبادي الذين أطاعوني و حفظوا عهدي بالغيب أنا اصطفيتكم و أنا أحببتكم و أنا اخترتكم اذهبوا فأدخلوا الجنة بغير حساب فلا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فيفتح لهم أبوابها ثم إن الخلائق في الحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : يا قوم أين فلان ابن فلان و ذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادي مناد { إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون } باب منه

ذكر الميانشي القرشي أبو جعفر عمر بن حفص [من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا كان يوم القيامة جاء أصحاب الحديث بأيديهم الخباير فيأمر الله تعالى جبريل أن يأتيهم فيسألهم من هم فيأتيهم فيسألهم فيقولون : نحن أصحاب الحديث فيقول الله تعالى لهم : ادخلوا الجنة طال ما كنتم تصلون على نبي صلى الله عليه و سلم] و خرج [عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا كان يوم القيامة وضعت مناير من نور عليها قبال من در ثم ينادي مناد : أين الفقهاء و أين الأئمة و أين المؤذنون ؟ اجلسوا على هذه فلا روع عليكم اليوم و لا حزن حتى يفرغ الله فيما بينه و بين العباد من الحساب]

و روى يزيد بن هارون [عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن ابن أبي ليلى عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : مسألة واحدة بتعلمها المؤمن خير له من عبادة سنة و خير له من عتق رقبه من ولد إسماعيل و إن طالب العلم و المرأة المطيعة لزوجها و الولد البار بوالديه يدخلون الجنة بغير حساب [و نقلته من الزيادات بعد الأربعين لإسماعيل بن عبد الغافر رحمه الله قال : حدثنا يحيى عن الحسن ابن علي حدثنا يزيد بن هارون فذكره

باب منه

أبو نعيم [عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي مائة ألف فقال أبو بكر يا رسول الله : زدنا قال : و هكذا و أشار سليمان بن حرب بيده كذلك قال يا رسول الله : زدنا فقال عمر رضي الله عنه : إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم صدق عمر] هذا حديث غريب من حديث قتادة عن أنس تفرد به عن قتادة أبو هلال و اسمه محمد بن سليم الراسبي ثقة بصري

فصل : لا يحملنك يا أخي شيء من هذا الحديث و لا الذي قبله و لا ما وقع في صحيح مسلم من قوله عليه السلام محبرا عن الله تعالى كما تقدم : فيقبض قبضة من النار على التجسيم و قد تقدم القول في هذا المعنى عند قوله : و يطوى السموات بيمينه و إنما المعنى أن الله تعالى يخرج من النار خلقا كثيرا لا يأخذهم عد و لا يدخلون تحت حصير فيخرجون دفعة واحدة بغير شفاعة أحد و لا ترتيب خروج بل كما يلقي القابض الشيء المقبوض عليه من يده في مرة واحدة فعبّر عن ذلك بالحفنة و الحنوة و القبضة فاعلم ذلك

باب أمة محمد صلى الله عليه و سلم شطر أهل الجنة و أكثر

مسلم [عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول الله تبارك و تعالى : يا آدم فيقول : لبيك و سعديك و الخير في يديك قال فيقول : أخرج بعث النار من و لك قال و ما بعث ؟ قال من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعون و تسعون قال فذلك حين يشيب الصغير و تضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن عذاب الله شديد قال : فاشتد ذلك عليهم قالوا يا رسول الله أيننا ذلك الرجل ؟ قال : أبشروا فإن من يأجوج و ماجوج ألفا و منكم واحد ثم قال : و الذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة فحمدنا الله و كبرنا ثم قال : و الذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة فحمدنا الله و كبرنا ثم قال : و الذي نفسي بيده أن تكونوا شطر أهل الجنة إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرقمة في ذراع الدابة] خرجه البخاري

و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [يكون الخلاق يوم القيامة مائة و عشرين صفا طول كل صف مسيرة أربعين ألف سنة و عرض كل صف عشرون ألف سنة قيل له يا رسول الله : كم المؤمنون ؟ قال : ثلاثة صفوف قيل له : و المشركون ؟ قال : مائة و سبعة عشر صفا قيل له : فما صفة المؤمنين من الكافرين ؟ قال : المؤمنون كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود] ذكر هذا الخبر القتيبي في عيون الأخبار له و هو غريب جدا مخالف لصفوف المؤمنين الوارد في الأحاديث

و ذكر أبو بكر بن أبي شيبة قال [حدثنا بن نمير قال حدثني موسى الجهني عن الشعبي قال : سمعته يقول قال نبي الله صلى الله عليه و سلم أيسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : فيسركم أن تكونوا نصف أهل الجنة ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : إن أمتي يوم القيامة ثلثي أهل الجنة إن الناس يوم القيامة عشرون

و مائة صف و إن أمتي من ذلك ثمانون صفا] و رواه مرفوعا [عن عبد الله بن مسعود و فيه : فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أهل الجنة يوم القيامة عشرون و مائة صف أنتم منها ثمانون صفا] في إسناده الحرث بن حصيرة ضعيف ضعفه مسلم في صدر كتابه

و خرج ابن ماجه و الترمذي [عن بريدة بن حصيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أهل الجنة عشرون و مائة صف ثمانون منها من هذه الأمة و أربعون من سائر الأمم] قال أبو عيسى هذا حديث غريب فصل : تقدم من حديث عبد الله بن عمر و فيه ثم يقول : اخرجوا بعث النار و في هذا يقال لآدم اخرج بعث النار فقيل إن آدم لما أمر أولا بالإخراج أمر هو و الملائكة أن يخرجوا و يميزوا أهل الجنة و أهل النار و الله أعلم و قول الصحابة رضوان الله عليهم : أين ذلك الرجل يريدون من الواحد الذي لا يدخل النار توهمنا منهم أن القضية واردة فيهم فقال صلى الله عليه و سلم [إن من يأجوج و مأجوج تسعمائة و تسعة و تسعين و منكم رجلا] و أطلق لفظ البشارة و بين أن الألف كلها في النار لكن من غير هذه الأمة الحمديّة و من هذه الأمة واحدة في الجنة على ما يقتضيه ظاهر هذا اللفظ و إذا كان كذلك استغرق العدد جميع أمة محمد صلى الله عليه و سلم فكانوا في الجنة أو أكثرهم لأن يأجوج و مأجوج لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطوف بين يديه من صلبه على ما يأتي بيانه من ذكرهم في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى و الله أعلم

باب في ذكر أبواب جهنم و ما جاء فيها و في أهوالها و أسماؤها أجازنا الله

منها برحمته و فضله إنه ولي ذلك و القادر عليه

ذكر الله عز و جل النار في كتابه و وصفها على لسان نبيه صلى الله عليه و سلم و نعتها فقال عز و جل من قاتل : { كلا إنها لظى * نزاعة للشوى { الشوى : جمع شواة و هي جلدة الرأس و قال : { و ما أدراك ما سقر * لا تبقي و لا تذر * لوحاة للبشر { أي مغيرة يقال : لاحته الشمس و لوحته إذا غيرته و قال { و ما أدراك ما هيه * نار حامية { و قال { لينبذن في الحطمة { أي ليرمين فيها { و ما أدراك ما الحطمة { الآية

ذكر ابن المبارك [عن خالد بن أبي عمران بسنده إلى النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن النار لتأكل أهلها حتى إذا طلعت على أفندهم انتهت ثم تعود كما كانت ثم تستقبله أيضا فتقطع على فؤاده و هو كذلك أبدا] فذلك قوله تعالى { نار الله الموقدة { الآية و قال : { و إذا الجحيم سعرت { أي أوقدت و أضمرت و قال { و سيصلون سعيرا { و قال { و أعتدنا لهم عذاب السعير { و قال { و الذين كفروا لهم نار جهنم { الآية و قال { إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار { و سيأتي بيان هذا فأوعد بها الكافرين و خوف الطغاة و المتمردين و العصاة من الموحدين لينجزوا عما فهم عنه فقال و قوله الحق : { فاتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين { و قال { إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيرا { و قال : { ذلك يخوف الله به عباده { و الآي في هذا المعنى كثير و الله تعالى أعلم

باب ما جاء أن النار لما خلقت فرعت الملائكة حتى طارت أفندتها

ذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر بن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار فرعت الملائكة حتى طارت أفندتها فلما خلق الله آدم سكن ذلك عنهم و ذهب ما كانوا يجردون

و قال ميمون بن مهران : لما خلق الله جهنم أمرها فزفرت زفرة فلم يبق في السموات السبع ملك إلا خر على

وجهه فقال لهم الجبار جل جلاله : ارفعوا رؤوسكم أما عملتم أني خلقتكم لطاعتي و عبادتي و خلقت جهنم لأهل معصيتي خلقي فقالوا : ربنا لا نأمنها حتى نرى أهلها فذلك قوله تعالى : { و هم من خشيته مشفقون } فالنار عذاب الله فلا ينبغي لأحد أن يعذب بها و قد جاء النهي عن ذلك فقال : لا تعذبوا بعذاب الله و الله أعلم

باب ما جاء في البكاء عند ذكر النار و الخوف منها

[ابن وهب عن زيد بن أسلم قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه و سلم و معه إسرافيل فسلمنا على النبي صلى الله عليه و سلم و إذا إسرافيل منكسر الطرف متغير اللون فقال النبي صلى الله عليه و سلم يا جبريل : ما لي أرى إسرافيل منكس الطرف متغير اللون ؟ قال : لاحت له أنفا حين هبط لحة من جهنم فلذلك الذي ترى من كسر طرفه]

ابن المبارك قال : [أخبرنا محمد بن مطرف عن الثقة : أن فتى من الأنصار دخلته خشية من ذكر النار فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم فجاءه في البيت فلما دخل النبي صلى الله عليه و سلم اعتنقه الفتى فخر ميتا فقال النبي صلى الله عليه و سلم جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار قد فلذ كبده]

و روي أن عيسى عليه السلام مر بأربعة آلاف امرأة متغيرات الألوان عليهن مدارع الشعر و الصوف فقال عيسى عليه السلام : [ما الذي غير ألوانكم معاشر النسوة ؟ قلن : ذكر النار غير ألواننا يا ابن مريم إن من دخل النار لا ينوق فيها بردا و لا شرابا] ذكره الخرائطي في كتاب القبور

و روي أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى { و إن جهنم لموعدهم أجمعين } فر ثلاثة أيام هاربا من الخوف لا يعقل فجيء به إلى النبي صلى الله عليه و سلم فسأله فقال له يا رسول الله أنزلت هذه الآية قوله عز و جل : { إن جهنم لموعدهم أجمعين } فو الذي بعثك بالحق نبيا لقد قطع قلبي فأنزل الله تعالى { إن المتقين في جنات و عيون } الآية ذكره الثعلبي و غيره

باب ما جاء فيمن سأل الله الجنة و استجار به من النار

الترمذي [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة و من استجار بالله من النار ثلاث مرات قالت النار اللهم أجره من النار] و روى البيهقي [عن أبي سعيد الخدري أو عن ابن حجرية الأكبر عن أبي هريرة أن أحدهما حدثه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا كان يوم حار ألقى الله سمعه و بصره إلى أهل السماء و أهل الأرض فإذا قال العبد : لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم اللهم أجرني من حر نار جهنم قال الله لجهنم : إن عبدا من عبادي استجار بي منك و إني أشهدك أني أجرته و إذا كان يوم شديد البرد ألقى الله سمعه و بصره إلى أهل السماء و أهل الأرض فإذا قال العبد : لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهيري جهنم : قال الله لجهنم : إن عبدا من عبادي قد استجار بي منك و من زمهريك أشهدك أني قد أجرته] فقالوا و ما زمهيري جهنم ؟ قال : جب يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بعضه من بعض

باب ما في تقرر من الكتاب و السنة

تقرر من الكتاب و السنة أن الأعمال الصالحة و الإخلاص فيها مع الإيمان موصلة إلى الجنان و مباحدة من النيران و ذلك أكثر أيراده و القطع به مع الموافاة على ذلك يغني عن ذكر ذلك و يكيفك الآن من ذلك ما ثبت في الصحيحين [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً] أخرجه النسائي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من صام يوماً في سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفاً] و أخرجه أبو عيسى الترمذي [عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه و بين النار خندقاً كما بين للشرق و المغرب] و يروي [ما بين السماء و الأرض] قال : هذا حديث غريب من حديث أبي أمامة

و أخرج الطبراني سليمان بن أحمد [حدثنا عمارة بن وثيمة المصري قال : حدثنا أبي وثيمة بن موسى بن الفرات قال : حدثنا إدريس بن يحيى الخولاني عن رجاء بن أبي عطاء عن وهب بن عبد الله المعافري عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أطعم أخاه حتى يشبعه و شقاه من ماء حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندق مسيرة مائة عام] و في كتاب أبي داود [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من توضأ فأحسن الوضوء و عاد أخاه المسلم يوعد من جهنم سبعين خريفاً] قلت يا أبا حمزة : و ما الخريف ؟ قال : العام و في الصحيحين [عن عدي بن حاتم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من استطاع منكم أن يستتر من النار و لو بشق تمره فليفعل] لفظ مسلم

باب ما جاء في جهنم و أنها أدراك و لمن هي

قال الله تعالى : { إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار } فالنار دركات سبعة أي طبقات و منازل و إنما قال : أدراك و لم يقل درجات لاستعمال العرب لكل ما تسافل درك و لما تعالى درج فيقول للجنة درج و للنار درك فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار و هي الهاوية لغلظ كفرهم و كثرة غوائلهم و تمكنهم من أذى المؤمنين ابن وهب قال : حدثني ابن يزيد قال : قال كعب الأحبار : إن في النار لبئراً ما فتحت أبوابها بعد مغلقة ما جاء على جهنم منذ خلقها الله تعالى إلا تستعبد بالله من شر ما في تلك البئر مخافة إذا فتحت تلك البئر أن يكون فيها من عذاب الله ما لا طاقة لها به و لا صبر لها عليه و هي الدرك الأسفل من النار و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن خيثمة عن ابن مسعود في قوله تعالى : { إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار } قال : توأبيت من حديد تصمت عليهم في أسفل النار قال : و أخبرنا إبراهيم بن هارون الغنوي قال : سمعت حطان بن عبد الله الرقاشي يقول : سمعت علياً يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قال : هي مثل أبوابنا هذه ؟ قال : لا بل هي هكذا بعضها فوق بعض

و قال العلماء : أعلى الدركات جهنم و هي مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه و سلم و هي التي تخلو من أهلها فتصنف الرياح أبوابها ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية و قد يقال للدركات : درجات لقوله تعالى : { و لكل درجات مما عملوا }

و وقع في كتب الزاهد و الرقائق أسماء هذه الطبقات و أسماء أهلها من أهل الأديان على ترتيب لم يرد في أثر صحيح

قال الضحاك : في الدرك الأعلى الحمديون و في الثاني النصارى و في الثالث اليهود و في الرابع الصائبون و في الخامس الخوس و في السادس مشركو العرب و في السابع المنافقون
و قال معاذ بن جبل و ذكر العلماء السوء من العلماء : من إذا وعظ عنف و إذا وعظ أنف فذلك في الدرك الأول من النار و من العلماء من يأخذ علمه بأخذ السلطان فذلك في الدرك الثاني من النار و من العلماء من يخزن علمه فذلك في الدرك الثالث من النار و من العلماء من يتخير العلم و الكلام لوجوه الناس و لا يرى سفلة الناس له موضعا فلذلك في الدرك الرابع من النار و من العلماء من يتعلم كلام اليهود و النصارى و أحاديثهم ليكثر حديثهم فذلك في الدرك الخامس من النار و من العلماء من ينصب نفسه للفتيا يقول للناس سلوني فذلك الذي يكتب عند الله متكلف و الله لا يحب المتكلفين فذلك في الدرك السادس من النار و من العلماء من يتخذ علمه مروءة و عقلا فذلك في الدرك السابع من النار ذكره غير واحد من العلماء
قلت : و مثله لا يكون رأيا و إنما بدر توقيفا ثم من هذه الأسماء ما هو اسم علم للنار كلها بجمليتها نحو جهنم و سقر و لظى و سموم فهذه أعلام ليست لباب دون باب فاعلم ذلك و في التنزيل { و وقانا عذاب السموم } يريد النار بجمليتها كما ذكرنا أجازنا الله منها بمنه و كرمه آمين

باب ما جاء أن جهنم تسعر كل يوم و تفتح أبوابها إلا يوم الجمعة

أبو نعيم قال : [حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري قال : حدثنا علي بن بحر قال : حدثنا سوار بن عبد العزيز عن النعمان ابن المنذر عن مكحول عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن جهنم تسعر في كل يوم و تفتح أبوابها إلا يوم الجمعة فإنها لا تسعر يوم الجمعة و لا تفتح أبوابها] غريب من حديث عبد الله و مكحول لم نكتبه إلا من حديث النعمان
قال المؤلف رحمه الله : و لهذا المعنى كانت النافلة جائزة في يوم الجمعة عند قائم الظهيرة دون غيرها من الأيام و الله أعلم

باب ما جاء في قول الله تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم
قال الله تعالى في محكم كتابه { لها سبعة أبواب } و قال { حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها }
[و عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمي أو قال على أمة محمد] خرجه الإمامان الحافظان الترمذيان أبو عبد الله و أبو عيسى و قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول

قلت : مالك بن مغول أبو عبد الله البجلي الكوفي إمام ثقة خرج له البخاري و مسلم و الأئمة
قال أبي بن كعب : [لجهنم سبعة أبواب أشدهما غما و كربا و حرا و أنتنهاريجا للزناة الذين ارتكبوا بعد العلم]
و روى سلام الطويل [عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم في قول الله تعالى : { لها سبعة أبواب } الآية : جزء أشركوا بالله و جزء شكوا في الله و جزء أغفلوا عن الله و جزء آثروا شهواتهم على الله و جزء شفقوا غيظهم بغضب الله و جزء صبروا رغبتهم بحظهم عن الله و جزء عتوا على الله] ذكره الحلبي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب منهاج الدين له و قال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثنوية و الشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إله أو لا إله لهم أو يشكون في شريعته إنما من عنده أولا و الغافلون عن الله هم الذين

يحلونه أصلا ولا يبتونه وهم الدهرية و المؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي لتكذيبهم رسل الله و أمره و نبيه و الشافون غيظهم بغضب الله تعالى هم القائلون أنبياء الله و سائر الداعين له المذبذبون ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم و المصرون رغبتهم بحظهم من الله تعالى هم المكرون للبعث و الحساب منهم يعبدون أي شيء يرغبون فيه لهم جميع حظهم من الله تعالى و العاتون على الله هم الذين لا يبألون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا فلا يتفكرون و لا يعتبرون و لا يستدلون و الله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه و سلم إن كان الحديث ثابتا [و قال بلال كان النبي صلى الله عليه و سلم يصلي في مسجد المدينة وحده فمرت به أعرابية فصلت خلفه و لم يعلم بما فقرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية { لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم } فخرت الأعرابية مغشيا عليها و سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم وجبتها فانصرف و دعا بماء فصب على وجهها حتى أفاق و جلست فقال النبي صلى الله عليه و سلم يا هذه ما لك ؟ فقالت : هذا شيء من كتاب الله أو شيء من تلقاء نفسك ؟ فقال يا أعرابية : بل هو من كتاب الله المنزل فقالت كل عضو من أعضائي يعذب على باب منها ؟ قال يا أعرابية بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل باب على قدر أعمالهم فقالت : و الله إني امرأة مسكينة لا مال لي و لا لي إلا سبعة أعبد أشهدك يا رسول الله أن كل عبد منهم على باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا رسول الله : بشر الأعرابية أن الله قد غفرها لها و حرم عليها أبواب جهنم و فتح لها أبواب الجنة كلها] و الله أعلم

باب منه و في بعد أبواب جهنم بعضها عن بعض و ما أعد الله تعالى فيها من

العذاب

ذكر عن بعض أهل العلم في قول الله تعالى : { لكل باب منهم جزء مقسوم } قال : من الكفار و المنافقين و الشياطين و بين الباب و الباب خمسمائة عام فالباب الأول : يسمى جهنم لأنه يتجههم في وجوه الرجال و النساء فيأكل لحومهم و هو أهون عذابا من غيره و الباب الثاني : يقال له لظى نزاعة للشوى يقول أكله اليدان و الرجلان تدعو من أدبر عن التوحيد و تولى عما جاء به محمد صلى الله عليه و سلم

و الباب الثالث : يقال له سقر و إنما سمي سقر لأنه يأكل اللحم دون العظم و الباب الرابع : يقال لها الحطمة فقال قال الله تعالى : { و ما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة { تحطم العظام و تحرق الأفتدة قال الله تعالى : { التي تطلع على الأفتدة { تأخذه النار من قدميه و تطلع على فؤاده و ترمي بشر كالقصر كما قال تعالى : { إنما ترمي بشر كالقصر * كأنه جمالة صفر { الآية يعني سودا فتطلع الشرر إلى السماء ثم تنزل فتحرق و جوههم و أيديهم و أبدانهم فيكون الدمع حتى ينفذ ثم يكون الدماء ثم يكون القيح حتى ينفذ القيح حتى لو أن السفن أرسلت تجري فيما خرج من أعينهم جرت

و الباب الخامس : يقال له الجحيم و إنما سمي جحيماً لأنه عظيم الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا و الباب السادس : يقال له السعير و إنما سمي السعير لأنه يسعر بهم و لم يطف منذ خلق فيه ثلاثمائة قصر في كل قصر ثلاثمائة بيت في كل بيت ثلاثمائة لون من العذاب و فيه الحيات و العقارب و القيود و السلاسل و الأغلال و فيه جب الحزن ليس في النار عذاب أشد منه إذا فتح باب الحب حزن أهل النار حزننا شديداً و الباب السابع : يقال له الهاوية من وقع فيه لم يخرج منه أبداً و فيه بئر الهيهاب و ذلك قوله تعالى : { كلما خبت

زدناهم سبعيرا { إذا فتح الهبهاب يخرج منه نار تستعيد منه النار وفيه الذين قال الله تعالى : { سأرهقه صعودا } أو هو جبل من نار يوضع أعداء الله على وجوههم على ذلك الجبل مغلوطة أيديهم إلى أعناقهم مجموعة أعناقهم إلى أقدامهم والزبانية وقوف على رؤوسهم بأيديهم مقامع من حديد إذا ضرب أحدهم بالمقمة ضربة سمع صوتها القلان

و أبواب النار : حديد فرشها الشوك غشاوتها الظلمة أرضها نحاس و رصاص و زجاج النار من فوقهم و النار من تحتهم لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل أوقد عليها ألف عام حتى احمرت و ألف عام حتى ابيضت و ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة مدهمة مظلمة قد مزجت بغضب الله ذكره القتيبي في عيون الأخبار و ذكر ابن عباس أن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها و لا لب و هي كما قال الله تعالى { لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم } على كل باب سبعون ألف جبل في كل جبل سبعون ألف شعب من النار في كل شعب سبعون ألف شق من النار في كل شق سبعون ألف واد في كل واد سبعون ألف قصر من نار في كل قصر سبعون ألف بيت من نار في كل بيت سبعون ألف قلة من سم فإذا كان يوم القيامة كشف عنها الغطاء فيطير منها سراق عن يمين الناس و آخر عن شمالهم و سراق أمامهم و سراق فوقهم و آخر من ورائهم فإذا نظر القلان إلى ذلك جثوا على ركبهم و كل ينادي رب سلم رب سلم و قال وهب بن منبه : بين كل باين مسيرة سبعين سنة كل باب أشد حرا من الذي فوقه بسبعين ضعفا و يقال إن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منها سبعون واديا قعر كل واد منها سبعون عام لكل واد منها سبعون ألف شعب في كل شعب منها سبعون ألف مغارة في جوف كل مغارة سبعون ألف شق في كل شق منها سبعون ألف شعبان في شذق كل شعبان سبعون ألف عقرب لكل عقرب منها سبعون ألف فقارة في كل فقارة منها قلة سم لا ينتهي الكافر و لا المنافق حتى يواقع ذلك كله ذكره ابن وهب في كتاب الأحوال له و مثله لا يقال من جهة الرأي فهو توقف لأنه إخبار عن مغيب و الله تعالى أعلم

باب ما جاء في عظم جهنم و أزمتها و كثرة ملائكتها و في عظم خلقها و

تفلتها من أيديهم و في قمع النبي صلى الله عليه و سلم إياها وردها عن أهل الموقف مسلم [عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها] و ذكر ابن وهب [قال : حدثني زيد بن أسلم قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فناجاه فقام النبي صلى الله عليه و سلم منكس الطرف فأرسلوا إلى علي فقالوا : يا أبا الحسن ما بال النبي صلى الله عليه و سلم محزونا منذ خرج جبريل عنه فأتاه علي فوضع يده على عضديه من خلفه و قبل بين كتفيه و قال : ما هذا الذي نراه منك يا رسول الله ؟ فقال : يا أبا الحسن أتاني جبريل فقال لي : { إذا دكت الأرض دكا دكا } الآية و جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده سبعون ألف ملك فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من في الجمع فأخذوها]

و ذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة أنهم يأتون بها تمشي على أربع قوائم و تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك بيد كل واحد حلقة لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها بحلقة واحدة على كل حلقة سبعون ألف زبني لو أمر زبني منهم أن يدك الجبال لدكها و أن يهد الأرض لهداها و أما إذا انفلتت من أيديهم لم

يقدرها على إمساكها لعظم شأنها فيجثو كل من في الموقف على الركب حتى المرسلون و يتعلق إبراهيم و موسى و عيسى بالعرش هذا قد نسي الذبيح و هذا قد نسي هارون و هذا قد نسي مريم عليهم السلام و كل واحد منهم يقول : نفسي نفسي لا أسألك اليوم غيرها قال : و هو الأصح عندي صلى الله عليه و سلم يقول [أمتي أمتي سلمها يارب و نجها يارب] و ليس في الموقف من تحمله ركباته و هو قوله تعالى : { و ترى كل أمة جاثية } الآية و عند تغلثها تكبو من الغيظ و الحنق و هو قوله تعالى : { إذا رَأَيتُمْ من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا و زفيرا } أي تعظيما لغيظها و حنقها يقول الله تعالى : { تكاد تميز من الغيظ } أي تكاد تشق نصفين من شدة غيظها فيقول رسول الله صلى الله عليه و سلم بأمر الله تعالى و يأخذ بخطامها و يقول [ارجعي مدحورة إلى خلقك حتى يأتيك أهلك أفواجا] فتقول : خلي سبيلي فإنك يا محمد حرام علي فينادي مناد من سرادقات العرش اسمي منه و أطيعي له ثم تجذب و تجعل عن شمال العرش و يتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف و جلهم و هو قوله تعالى : { و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } و هناك تنصب الموازين على ما تقدم

فصل : هذا يبين لك ما قلناه أن جهنم اسم علم لجميع النار و معنى : يؤتى بها يجاء بها من المحل الذي خلقها الله تعالى فيه فتدار بأرض المحشر حتى لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط كما تقدم و الزمام ما يزم به الشيء أي يشد و يربط به و هذه الأزمة التي تساق بها جهنم تمنع من خروجها على أرض المحشر فلا يخرج منها إلا الأعناق التي أمرت بأخذ من شاء الله بأخذه على ما تقدم و يأتي و ملائكتها كما وصفهم الله غلاظ شداد و قد ذكر ابن وهب [حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في حرنة جهنم : ما بين منكي أحدهم كما بين المشرق و المغرب]

و قال ابن عباس : ما بين منكي الواحد منهم مسيرة سنة و قوة الواحد منهم أن يضرب بالمقعدة فيدفع بتلك الضربة بسعين ألف إنسان في قعر جهنم و أما قوله تعالى : { عليها تسعة عشر } فالمراد رؤسائهم على ما يأتي و أما جملتهم فالعبرة عنهم كما قال الله تعالى : { و ما يعلم جنود ربك إلا هو }

فصل : قال العلماء : إنما خص النبي بردها و قمعها و كفها عن أهل المحشر دون غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم لأنه رآها في مسراه و عرضت عليه في صلواته حسب ما ثبت في الصحيح قال و في ذلك فوائد ثمان : الأولى : أن الكفار لما كانوا يستهزئون به و يكذبونه في قوله و يؤذونه أشد الأذى أراه الله تعالى النار التي أعدها للمستخفين به و بأمره تطيبا لقلبه و تسكينا لفؤاده

الثانية : الإشارة في ذلك إلى أن من طيب قلبه في شأن أعدائه بالإهانة و الانتقام فالأولى أن يطيب قلبه في شأن أوليائه و أحبابه بالتحية و الشفاعة و الإكرام

الفائدة الثالثة : و يحتمل أن عرضها عليه ليعلم منة الله تعالى حين أنقذهم منها ببركته و شفاعته

الفائدة الرابعة : و يحتمل أنه عرضها عليه ليكون في القيامة إذا قال سائر الأنبياء نفسي نفسي يقول نبينا محمد صلى الله عليه و سلم أمتي أمتي و ذلك حين تسجر جهنم و لذلك أمر الله عز و جل محمدا صلى الله عليه و سلم فقال جل من قائل : { يوم لا يخزي الله النبي } الآية

قال الحافظ أبو الخطاب : و الحكمة في ذلك أن يفرغ إلى شفاعته أمته و لو لم يؤمنه لكان مشغولا بنفسه كغيره من الأنبياء

الفائدة الخامسة : أن سائر الأنبياء لم يروا قبل يوم القيامة شيئا منها فإذا رأوها جزعوا و كفت ألسنتهم عن الخطيئة

و الشفاعة من هولها و شغلهم أنفسهم عن أمهم و أما نبينا محمد صلى الله عليه و سلم فقد رأى جميع ذلك فلا يفزع منه مثل ما فزعوا ليقدر على الخطبة و هو المقام المحمود الذي وعده به ربه تبارك و تعالى في القرآن المجيد و ثبت في صحيح السنة

الفائدة السادسة : فيه دليل فقهي على أن الجنة و النار قد خلقتا خلافا للمعتزلة المنكرين لخلقها و هو يجزي على ظاهر القرآن في قوله تعالى : { أعدت للمتقين } { أعدت للكافرين } و الإعداد دليل الخلق و الإيجاد الفائدة السابعة : و يحتمل أنه أراه إيها ليعلم حسنة الدنيا في جنب ما أراه فيكون في الدنيا أزهو و على شدائدها أصبر حتى يؤديه إلى الجنة فقد قيل : حبذا محنة تؤدي بصاحبها إلى الرخاء و يؤسا لعمة تردي بصاحبها إلى البلاء الفائدة الثامنة : و يحتمل أن الله تعالى أراد ألا يكون لأحد كرامة إلا يكون لحمد صلى الله عليه و سلم مثلها و لما كان لإدريس عليه السلام كرامة الدخول إلى الجنة قبل يوم القيامة أراد الله تعالى أن يكون ذلك لصفه و نجيته و حبيبه و أمينه على و حيه محمد صلى الله عليه و سلم و كرم و عظم و وجل و وقر قال ذلك جميعه الحافظ بن دحية رضي الله عنه في كتاب الابتهاج في أحاديث المعراج

باب منه و في كلام جهنم و ذكر أزواجها و أنه لا يجوزها إلا من عنده جواز

روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : نزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم يتلو هذه الآية { يوم تبدل الأرض غير الأرض } الآية قال النبي صلى الله عليه و سلم : أين يكون الناس يوم القيامة يا جبريل ؟ قال يا محمد : يكونون على أرض بيضاء لم يعمل عليها خطيئة قط { و تكون الجبال كالعهن المنفوش } قال : الصوف تنوب الجبال من مخافة جهنم يا محمد : إنه ليحجاء بجهنم يوم القيامة ترف زفا عليها سبعون زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك حتى تقف بين يدي الله تعالى فيقول لها : يا جهنم تكلمي فتقول : لا إله إلا الله و عزتك و عظمتك لأنتقمين اليوم ممن أكل رزقك و عبد غيرك لا يجوزني إلا من عنده جواز فقال النبي صلى الله عليه و سلم : يا جبريل ما الجواز يوم القيامة ؟ قال أبشر و بشر ألا من شهد أن لا إله إلا الله جاز جسر جهنم قال فقال النبي صلى الله عليه و سلم : الحمد لله الذي جعل أمتي أهل لا إله إلا الله] و خرج الحافظ أبو محمد عبد الغني الحافظ [من حديث سليمان بن عمرو يتييم أبي سعيد الخدري عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إذا جمع الخلائق في صعيد يوم القيامة أقلت النار يركب بعضها بعضا و خزنتها يكفونها و هي تقول : و عزة ربي لتخلين بيني و بين أزواجي أو لأغشين الناس عنقا واحدا فيقولون من أزواجك ؟ فتقول كل متكبر جبار]

باب ما جاء أن التسعة عشر خزنة جهنم

قال الله تعالى : { عليها تسعة عشر }

ابن المبارك قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن رجل من بني تميم قال : كنا عند أبي العوام فقراً هذه الآية { و ما أدراك ما سقر } الآية { عليها تسعة عشر } فقال : ما تسعة عشر ؟ قال : تسعة عشر ألف ملك قال : أو تسعة عشر ملكا قلت : لا بل تسعة عشر ملكا قال : و أنى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز و جل : { و ما جعلنا عدتكم إلا فتنة للذين كفروا } قال : صدقت هم تسعة عشر ملكا بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضرب فيهوي بها سبعين ألف خريف

و خرج الترمذي [عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم هل يعلم نبيكم عدة خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندري حتى نسأله فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا محمد غلب أصحابك اليوم فقال : و بماذا غلبوا ؟ قال : سألم اليهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قال : فماذا قالوا ؟ قال : قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا قال : لا يغلب قوم سألوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا لكنهم سألوا نبيهم فقال أرنا الله جهرة علي بأعداء الله إني سألتهم عن تربة الجنة و هي الدرملك فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : هكذا و هكذا في مرة عشرة و في مرة تسعة قالوا : نعم قال لهم النبي صلى الله عليه و سلم : ما تربة الجنة ؟ قال : فسكتوا ثم قالوا : خبزة يا أبا القاسم فقال النبي صلى الله عليه و سلم : الخبز من الدرملك [قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث خالد عن الشعبي عن جابر

باب ما جاء في سعة جهنم و عظم سرادقها و بيان قوله تعالى و إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين

قال الله تعالى : { إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها }

ابن المبارك قال : [أخبرنا عنبسة بن سعيد عن حبيب بن أبي عميرة عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قال : قلت : لا

قال : أجل و الله ما تدري أن بين شحمة أذن أحدهم و بين عاتقه مسيرة سبعين خريفا تجري منها أودية القيح و الدم قلت : لها أنهار ؟ قال : لا بل أودية ثم قال : أتدري ما سعة جسر جهنم ؟ قلت : لا قال : قلت : أجل حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قوله تعالى : { و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة } قلت : فأين الناس يومئذ ؟ قال : على جسر جهنم [خرجه الترمذي و صححه و قد تقدم

و [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم : لسرادق النار أربع جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة] ذكره ابن المبارك و خرجه الترمذي أيضا و سيأتي

و ذكر ابن المبارك قال : حدثنا محمد بن بشار عن قتادة { و إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين } قال ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضيق الرجز على الرمح و ذكره الثعلبي و القشيري عن ابن عباس

باب ما جاء أن جهنم في الأرض و أن البحر طبقها

[روى عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : لا يركب البحر إلا رجل غاز أو حاج أو معتمر فإن تحت البحر نارا] ذكره أبو عمر و ضعفه و قال : عبد الله بن عمر [يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم] ذكره أبو عمر أيضا و ضعفه

و في تفسير سورة ق عن وهب بن منبه قال : أشرف ذو القرنين على جبل [ق] فرأى تحت جبالا صغارا فقال له أنت ؟ قال : أنا قاف قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال هي عروقي و ما من مدينة إلا و فيها عرق من عروقي فإذا أراد الله أن يزلزل تلال الأرض أمرني فحركت عروقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض فقال له : يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله قال : إن شأن ربنا لعظيم تقصر دونه الأوهام قال : بأدنى ما يوصف منها قال : إن ورائي أرضا مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال تلج يحطم بعضها بعضا لولا هي لاحتقرت من حر جهنم و

ذكر الخبر

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها وأين هي من الأرض

باب ما جاء في قوله تعالى وإذا البحار سجرت وما جاء أن الشمس والقمر يقذفان في النار
قال ابن عباس في قوله تعالى : { وإذا البحار سجرت } قال : أوقدت فصارت نارا وذكر ابن وهب عن عطاء بن يسار أنه تلا هذه الآية { وجمع الشمس والقمر } قال : يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في النار فتكون نار الله الكبرى

وخرج أبو داود الطيالسي في مسنده [عن يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار]

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : يجاء بالشمس والقمر كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في النار
فصل : قلت : كذا الرواية ثوران بالثناء المثلثة وإنما يجمعان في جهنم لأنهما قد عبدا من دون الله ولا تكون النار عذبا لهما لأنهما جماد وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبييت الكافرين وحسرتهم هكذا قال بعض أهل العلم
وقال ابن قسي صاحب خلع النعلين : اعلم أن الشمس والقمر ثوران مكوران في نار جهنم على شبه هذا التكوير فهما سعيرون وليل زمهيريرون والدار دار قائمة لا فرق بينها وبين هذين في حركة التسيار والتلوار ومدار فلكي الليل والنهار إلى أن تلك خالية من رحمة الله ومع هذه رحمة واحدة من رحمة الله وعن الشمس والقمر يكون سواد الدار وهيب ظاهر النار وهما من أشد الغضب لله تعالى بما عايناه من عصيان العاصين وفسق الفاسقين إذ لا يكاد يغيب عنهما أين ولا تخفى عنها خائنة عين فإنه لا يبصر أحد إلا بنورهما ولا يدرك إلا بضوءيهما ولو كانا خلف حجاب من الغيب الليلي أو وراء ستر من الغيم اليومي فإن الضوء الباقي على البسيطة في ظل الأرض ضوءهما والنور نورهما ومع ما هما عليه من الغضب لله فإنه لمك يشدد غضبهما إلا من حيث نزع لجام الرحمة عنهما وقبض ضياء اللين والرافة منهما وكذلك عن كل ظاهر من الحياة الدنيا في قبض الرحمة المستردة من هذه الدار إلى دار الحيوان والأنوار

قال صلى الله عليه وسلم [إن لله مائة رحمة نزل منها واحدة إلى الأرض فيها تعاطف البهائم ويتراحم الخلق وتتواصل الأرحام فإذا كان يوم القيامة قبض الله هذه الرحمة وردّها إلى التسعة والتسعين وأكملها مائة كما كانت ثم جعل المائة كلها رحمة المؤمنين وخلت دار العذاب ومن فيها من الفاسقين من رحمة رب العالمين فبزوال هذه الرحمة زال ما كان فيه القمر من رطوبة وأنوار ولم يبق إلا ظلمة وزمهير وبزوالها زال ما كان بالشمس من وضوح وإشراق ولم يبق إلا فرط سواد واحتراق وبما كانا به قبل من الصفة الرحمانية كان إمهالها للعاصين وإبقاؤها على القوم الفاسقين وهي زمام الإمساك ولجام المنع عن التدمير والإهلاك وهي سنة الله تعالى في الإبقاء إلى اللواتق والإمهال إلى الآجال إلا أن يشاء غير ذلك فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه إلا هو سبحانه]
قال المؤلف رحمه الله : وقد روى عكرمة عن ابن عباس تكذيب كعب الأحبار في قوله وقال : هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام والله أكرم وأجل من أن يعذب على طاعته ألم تر إلى قوله تعالى : { وسخر لكم الشمس والقمر دائنين } يعني دؤوبهما في طاعته فكيف يعذب عبدين أثنى الله عليهما أنهما دائبان في خلمته وطاعته ثم حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [إن الله تعالى لما أبرم خلقه إحكاما ولم يبق غير آدم خلق شمساً وقمرًا من نور عرشه] الحديث وفي آخره فإذا قامت الساعة وقضى الله في أهل الدارين وميز أهل الجنة والنار ولم

يدخلوها بعد أن يدعو الله بالشمس و القمر يجاء بهما أسودين مكورين قد وقفوا في الزلازل لأن فرائصهما ترعد من أهوال ذلك اليوم من مخافة الرحمن تبارك و تعالى فإذا كانا حيال العرش خرا ساجدين لله تعالى فيقولان : إلهنا قد علمت طاعتنا لك و دؤوبنا في طاعتك و سرعتنا للمضي في أمرك في أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا فيقول الله تعالى : صدقتما إني قد قضيت على نفسي أي أبدي و أعيد إني معيكم إلى ما بدأتكما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه فيقولان : ربنا مم خلقتنا ؟ فيقول خلقتكما من نور عرشي فارجعا إليه فيلتمع من كل واحد منهما بركة تكاد تخطف الأبصار نورا فيختلطان بنور العرش فذلك قوله تعالى { إنه هو يديء ويعيد } ذكره الثعلبي في كتاب العرائس له و الله أعلم

باب ما جاء في صفة جهنم و حرها و شدة عذابها

الترمذي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة] قال أبو عيسى و حديث أبي هريرة في هذا الباب موقوف أصح و لا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن أبي شريك ابن المبارك عن أبي هريرة قال : إن النار أوقدت ألف سنة فايبيضت ثم أوقدت ألف سنة فاحمرت ثم أوقدت ألف سنة فاسودت فهي مظلمة كسواد الليل مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أنه قال ترونها كناركم هي أشد سوادا من القار و القار هو الزفت

ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن سليمان عن أبي ظبيان عن سلمان قال : النار سوداء لا يضيء لها و لا جهرها ثم قرأ { كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها } مالك و [عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أصح ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قالوا يا رسول الله : و إن كانت لكافية قال : فإنما فضلت بتسعة و ستين جزءا] أخرجه مسلم و زاد : كلها مثل حرها

ابن ماجه [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم و لولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما كان لأحد فيها منفعة] و في خبر آخر عن ابن عباس و هذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات و لولا ذلك ما انتفع بها ذكره أبو عمر رحمه الله و قال عبد الله بن مسعود : ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم و لولا أنه ضرب بها البحر عشر مرات ما انتفعت منها بشيء]

و سئل ابن عباس عن نار الدنيا مم خلقت ؟ قال : من نار جهنم غير أنها أطفئت بالماء سبعين مرة و لولا ذلك ما قربت لأنها من نار جهنم

مسلم [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يؤتى بأهل الدنيا يوم القيامة من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا و الله يا رب و يؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له : هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا و الله يا رب ما مر بي بؤس قط و لا رأيت شدة قط]

أخرجه ابن ماجه أيضا [من حديث محمد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله

صلى الله عليه و سلم يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقول : اغمسوه في النار غمسة فيغمس فيها ثم يخرج فيقال له : أي فلان هل أصابك نعيم قط ؟ فيقول : لا ما أصابني نعيم قط و يؤتى بأشد المؤمنين ضرا و بلاء فيقال : اغمسوه في الجنة فيغمس غمسة ثم يخرج فيقال له : أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء ؟ فيقول ما أصابني ضر قط و لا بلاء]

[و روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو أن جهنميا من أهل جهنم أخرج كفه إلى أهل الدنيا حتى يبصروها لأحرقت الدنيا من حرها و لو أن خازنا من خزنة جهنم أخرج إلى أهل الدنيا حتى يبصروه لمات أهل الدنيا حين يبصرونه من غضب الله تعالى]
و قال كعب الأحبار : و الذي نفس كعب بيده لو كنت بالشرق و النار بالمغرب ثم كشف عنها لخرج دماغك من منخريك من شدة حرها يا قوم هل لكم بهذا قرار ؟ أم لكم على هذا صبر ؟ يا قوم طاعة الله أهون عليكم من هذا العذاب فأطيعوه

و خرج الزوار في مسنده [عن أبي هريرة قال في مسنده قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم]
فصل : قوله : ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزء من نار جهنم يعني أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها ابن آدم لكانت جزءا من جزءا من أجزاء جهنم المذكور : بيانه أنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتى صار نارا لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءا أشد من حر نار الدنيا كما بينه في آخر الحديث

و قوله : و إن كانت لكافية إن هنا مخففة من الثقيلة عن البصريين نظيره { و إن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله } أي إنما كانت كافية فأجلهم النبي صلى الله عليه و سلم : [بأنها كما فضلت عليها في المقدار و العدد بتسعة و ستين فضلت عليها أيضا في شدة الحر بتسعة و ستين ضعفا]

باب منه و ما جاء في شكوى النار و كلامها و بعد قعرها و أهوالها و في قدر

الحجر الذي يرمى به فيها

روى الأئمة [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب أكل بعضي بعضا فجعل لها نفسين : نفس في الشتاء و نفس في الصيف بأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها و أشد ما تجدون من الحر من سمومها] أخرجها البخاري و مسلم

و [عن أبي هريرة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ سمع وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله و رسوله أعلم قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار إلى الآن حتى انتهى إلى قعرها] أخرج مسلم

الوجبة : الهدة و هي صعت وقع الشيء الثقيل

الترمذي [عن الحسن قال : قال عتبة بن غزوان على منبرنا هذا يعني منبر البصرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهدوي فيها سبعين عاما و ما تفضي إلى قرارها] قال : فكان ابن

عمر يقول : أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد و إن قعرها بعيد و إن مقامها حديد قال أبو عيسى : لا نعرف للحسن سمعا من عتبة بن غزوان و إنما قدم عتبة بن غزوان البصرة في زمن عمرو ولد الحسن لسنتين بقبينا من

خلافة عمر

ابن المبارك قال : [أخبرنا يونس بن يزيد الزهري قال : بلغنا أن معاذ بن جبل كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : و الذي نفس محمد بيده إن ما بين شفة النار و قعرها لصخرة زنة سبع خلفات بشحومهن و لحومهن و أولادهن تموي من شفة النار قبل أن تبلغ قعرها سبعين خريفا]
حدثنا هشام بن بشير قال : أخبرني زفر حدثنا ابن مريم الخزامي قال : سمعت أبا أمامة يقول : إن ما بين شفير جهنم و قعرها مسيرة سبعين خريفا من حجر يهوي أو قال : صخرة تموي عظمها كعشر عشراء عظام سلمان فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد : هل تحت ذلك من شيء يا أبا أمامة ؟ قال : نعم غي و آثام
مسلم عن خالد بن عمير العدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان و كان أميراً على البصرة فحمد الله و أنفى عليه ثم قال : أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بصرم و ولت جدا و لم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصلبها صاحبها و إنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه ذكر لنا أن الحجر ليلقى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما لا يدرك لها قعرا و الله لتملأن الحديث و سيأتي بتمامه في أبواب الجنة إن شاء الله تعالى و قال كعب : [لو فتح من نار جهنم قدر منخر ثور بالمشرق و رجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها و إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب و لا نبي مرسل إلا خر جاثيا على ركبتيه و يقول : نفسي نفسي]
فصل : قوله : [اشتكت النار شكواها إلى ربها بأن أكل بعضها بعضا] محمول على الحقيقة لا على المجاز إذ لا إحالة في ذلك و ليس من شرط الكلام عند أهل السنة في القيام بالجسم إلا الحياة و أما البنية و اللسان و البلبة فليس من شرطه و ليس يحتاج في الشكوى إلى أكثر من وجود الكلام و أما الاحتجاج في قوله عليه السلام : [احتجت النار و الجنة] فلا بد فيه من العلم و النطق للحجة و قيل : إن ذلك مجاز عبر عنه بلسان الحال كما قال عنتره :

(فازور من وقع القنا بلبانه ... و شكنا إلى بغيره و تجمحم)

و قال آخر :

(شكنا إلى جملي طول السرى ... صبوا جميلا فكلانا مبتلى)

و الأول أصح إذ لا استحالة في ذلك و قد قال تعالى و هو أصدق القائلين { إن الحكم إلا لله يقص الحق } الآية و قد تقدم من كلامها : لا إله إلا الله و عزتك و جلالك و قال { كلا إنها لظى * نزاعة للشوى } الآية أي أدبر عن الإيمان و تولى أي أعرض عن أتباع الحق و جمع يعني المال فأوعى أي جعله في الوعاء أي كنزه و لم ينفقه في طاعة الله تعالى قال ابن عباس : تدعو المنافق و الكافر بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطائر الحب قلت : قول ابن عباس هذا قد جاء معناه مرفوعا و هو يدل على أن المراد بالشكوى و الحجة الحقيقية [ذكر زين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كذب علي معتمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل يا رسول الله : و لها عينان ؟ قال : أما سمعتم الله يقول { إذا رآهم من مكان بعيد } الآية يخرج عنق من النار له عينان يبصران و لسان فيقول : و كلت بمن جعل مع الله إله آخر فلو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه] و في رواية أخرى [فيخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم] صححه أبو محمد بن العربي في قبسه و قال : [يفصله عن الخلق بالمعرفة كما يفصل الخلق بالمعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة] و خرج الترمذي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران و لسان ينطق يقول : إني و كلت بثلاث : بكل جبار عنيد و بكل ما دعا مع الله إله آخر و

بالمصورين] و في الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث غريب صحيح
و ذكر ابن وهب قال : حدثني العلاف بن خالد في قول الله تعالى : { و جيء يومئذ بجهنم } قال : يؤتى بجهنم يوم
القيامة يأكل بعضها بعضا يقودها سبعون ألف ملك فإذا رأت الناس و ذلك قوله تعالى : { إذا رآتهم من مكان بعيد
{ الآية فإذا رآتهم زفرت زفرة فلا يبقى نبي و لا صديق إلا برك لركبته يقول : يا رب نفسي نفسي و يقول رسول
الله صلى الله عليه و سلم : أمتي أمتي و كان بعض الوعاظ يقول : أيها المجترىء على النار ألك طاقة بسطوة الجبار و
مالك خازن و مالك إذا غضب على النار و زجرها زجرة كادت تأكل بعضها بعضا

باب ما جاء في مقام أهل النار و سلاسلهم و أغلالهم و أنكلهم

قال الله تعالى : { و لهم مقامع من حديد } و قال : { إذ الأغلال في أعناقهم و السلاسل يسحبون * في الحميم } و
قال : { في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا } و قال { إن لدينا أنكالا و جحيما } الآية و روي عن الحسن أنه قال :
ما في جهنم واد و لا مغار و لا غل و لا سلسلة و لا قيد إلا و اسم صاحبها مكتوب عليه و روي عن ابن مسعود
و سيأتي

الترمذي [عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو أن روضة مثل هذه
— و أشار إلى مثل الجمجمة — أرسلت من السماء إلى الأرض و هي مسيرة خمسمائة عام لبلغت الأرض قبل الليل
و لو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل و النهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها] قال هذا
حديث إسناده صحيح

و في الخبر : إن شاء الله تعالى ينشئ لأهل النار سحابة فإذا رأوها ذكروا سحاب الدنيا فتناديهم : يا أهل النار ما
تشتهون ؟ فيقولون : نشتهي الماء البارد فتمطرهم أغلالا تزداد في أغلالهم و سلاسل تزداد في سلاسلهم و قال محمد
بن المنكدر لو جمع حديد الدنيا كله ما خلى منها و ما بقي ما عدل حلقة من حلق السلسلة التي ذكرها الله تعالى في
كتابه فقال { في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا } الآية ذكره أبو نعيم

و قال ابن المبارك : أخبرنا سفيان بن بشير بن دعلوق أنه سمع نوحا يقول في قوله تعالى { في سلسلة ذرعها سبعون
ذراعا فاسلكوه } قال : كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد ما بينك و بين مكة و هو يومئذ في مسجد الكوفة
أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع ابن أبي مليكة يحدث عن أبي بن كعب قال : إن حلقة من السلسلة التي قال الله {
ذرعها سبعون ذراعا } إن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا

سمعت سفيان يقول في قوله { فاسلكوه } قال : بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه و قال ابن زيد و يقال :
ما يأتي يوم القيامة على أهل النار إلا و رحمة من الله تطلع طائفة منهم فيخرجون و يقال : إن الحلقة من غل أهل
جهنم لو ألقيت على أعظم جبل في الدنيا هدتته

و روي عن طاووس أن الله تعالى خلق ملكا و خلق له أصابع على عدد أهل النار فما من أهل النار معذب إلا و
ملك يعذب بإصبع من أصابعه و لو وضع الملك أصبعا من أصابعه على السماء لأذاهما ذكره القتيبي في كتاب عيون
الأخبار له

باب منه و ما جاء في كيفية دخول أهل النار النار

ذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة بشرر كالنجوم فيولون هار بين فيقول الجبار تبارك و تعالى : ردوهم عليها فيردوهم فذلك قوله تعالى : { يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم } أي مانع يمنعكم و يلقاهم وهجها قبلاًن يدخلوها عمياً مغلولين أيديهم و أرجلهم و رقابهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [خزنة جهنم ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق و المغرب]

قال ابن زيد : و لهم مقامع من حديد يقيمون بها هؤلاء فإذا قال خذوه فيأخذونه كذا و كذا ألف ملك فلا يضعون أيديهم على شيء من عظامه إلا صار تحت أيديهم رفاتا العظام و اللحم يصير رفاتا قال : فنجمع أيديهم و أرجلهم و رقابهم في الأغلال فيلقون في النار مصفودين فليس لهم شيء يتقون به إلا الوجوه فهم عمي قد ذهب أبصارهم ثم قرأ { أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة } الآية فإذا ألقوا فيها يكادون يبلغون قعرها يلقاهم لهبها فيردهم إلى أعلاها حتى إذا كادوا يخرجون تلقتهم الملائكة بمقامع من حديد فيضربونهم بها فجاء أمر غلب اللهب فهووا كما أسفل السافلين هكذا دأبهم و قرأ { كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها } فهم كما قال الله تعالى { عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية }

و الأنكال : القيود عن الحسن و مجاهد واحلها نكل و سميت القيود أنكالا لأنه ينكل بها أي يمنع قال الهروي و الأصفاد : هي الأغلال و يقال : القيود أعادنا الله منها بمنه و كرمه

باب منه في رفع لهب النار أهل النار حتى يشرفوا على أهل الجنة

يروى أن لهب النار يرفع أهل النار حتى يطير كما يطير الشرر فإذا رفعهم أشرفوا على أهل الجنة و بينهم حجاب فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار { أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا } الآية و ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يروا الأثمار تطرد بينهم { أن أفيضوا علينا من الماء } الآية فتردهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد إلى قعر النار

قال بعض المفسرين : هو معنى قول الله تعالى : { لما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها } ذكره أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له قال : و لعلك تقول : كيف يرى أهل الجنة أهل النار و أهل النار أهل الجنة ؟ و كيف يسمع بعضهم كلام بعض و بينهم ما بينهم من المسافة و غلظ الحجاب ؟ فيقال لك : لا تقل هذا فإن الله تعالى يقوي أسماعهم و أبصارهم حتى يرى بعضهم بعضا و يسمع بعضهم كلام بعض و هذا قريب في القدرة

باب ما جاء أن في جهنم جبالا و خنادق و أودية و بحارا و صهاريج و آبار و

جبابا و تنانير و سجوناً و بيوتا و جسورا و قصورا و أرحاء و نواعير و حيات أجاننا الله منها و في وعيد من شرب الخمر و المسكر و غيره

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : الصعود جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا و يهوي فيه كذلك أبدا] قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة و قد تقدم [من حديث أنس : أن من مات سكران فإنه يبعث يوم القيامة سكران إلى خندق في وسط جهنم يسمى السكران] و اختلف العلماء في تأويل قوله تعالى { فويل } فذكر ابن المبارك [أخبرنا رشدين ابن سعد عن عمر بن الحارث أنه حدثه عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ويل : واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره]

و الصعود : جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فيه كذلك قال : و أخبرنا سعيد بن أبي أيوب عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال : الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر لو سيرت فيه الجبال لماعت من حره قال : و أخبرنا سفيان عن زياد بن فياض عن أبي عياض أنه قال : الويل : مسيل في أصل جهنم و ذكر ابن عطية في تفسيره عن أن الويل صهريج في جهنم من صديد أهل النار قال : و حكى الزهراوي عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم

و قال أبو سعيد الخدري : إنه واد بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفا ذكره ابن عطية و قد تقدم رفعه و خرجه الترمذي أيضا مرفوعا [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الويل : واد في وسط جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره] قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث ابن لهيعة

و قال ابن زيد في قوله تعالى { و ظل من يحموم } الیحموم : جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار { لا بارد } بل حار لأنه من دخان شفير جهنم { و لا كريم } أي لا عذب عن الضحاك و قال سعيد بن المسيب : و لا حسن منظره

و ذكر ابن وهب عم مجاهد في قوله تعالى { موبقا } قال : واد في جهنم يقال له موبق و قال عكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا على حافتيه حيات مثل البغال اللهم فإذا سارت إليهم لتأخذهم استغاثوا منها بالافتحام في النار و قال أنس بن مالك : هو واد في جهنم من قيح و دم

و قال نوف البكالي في قوله تعالى : { وجعلنا بينهم موبقا } قال : واد في جهنم بين أهل الضلالة و بين أهل الإيمان و عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه و سلم أنها سئلت عن قول الله عز و جل { فسوف يلقون غيا } قالت : نهر في جهنم

و اختلفوا في الفلق في قوله تعالى { قل أعوذ برب الفلق } فروى ابن عباس أنه سجن في جهنم و قال كعب : هو بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ذكره أبو نعيم و ذكر أبو نعيم عن حميد بن هلال قال : حدثت أن في جهنم تانير ضيقها كضيق زج أحدكم في الأرض تضيق على قوم بأعمالهم

ابن المبارك أخبرنا إسماعيل بن عياش حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شقي الأصبحي قال : إن في جهنم جبلا يدعى صعودا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه قال الله تعالى { سأرققه صعودا } و أن في جهنم قصرا يقال له هواء يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى { و من يجلل عليه غضبي فقد هوى } و أن في جهنم واديا يدعى آثاما فيه حيات و عقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة من سم و العقرب منهن مثل البغلة المؤلفة تلدغ الرجل فلا تلهيه عما يجد من حر جهنم حمة لدغتها فهو لما خلق له و أن في جهنم سبعين داء لأهلها كل داء مثل جزء من أجزاء جهنم و أن في جهنم واديا يدعى غيا يسيل قيحا و دما فهو لما خلق له قال الله تعالى { فسوف يلقون غيا }

و روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في جهنم بحرا أسود مظلما منتن الريح يغرق الله فيه من أكل رزقه و عبد غيره] و ذكر أبو نعيم [عن محمد بن واسع قال : دخلت يوما على بلال بن أبي بردة فقلت : يا بلال إن أباك حدثني عن جدك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن في جهنم واديا يقال له للمم و لذلك الوادي بئر يقال له هيب

حق على الله تعالى أن يسكنها كل جبار فإياك أن تكون منهم]

ابن المبارك قال : [حدثنا يحيى بن عبيد الله قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في جهنم واديا يقال له الملم و إن أودية جهنم لتستعبد بالله من حره]

مالك بن أنس [عن ابن شهاب عن علي بن حسين عن الحسين بن علي عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل مسكر خم وثلاثة غضب الله عليهم و لا ينظر إليهم و لا يكلمهم و هم في المنسا و المنسا : بئر في جهنم : للمكذب بالقدر و المتدع في دين الله و مدمن الخمر] و ذكره الخطيب أبو بكر من حديث أحمد بن سليمان الخفائي القرشي الأسدي عن مالك

و ذكر ابن وهب من [حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر على صورة الناس يعلوهم كل شيء من الصغار فيساقون حتى يدخلوا سجننا في جهنم يقال له بولس يسقون من عصارة أهل النار من طينة الخبال] أخرجه ابن المبارك أخبرنا محمد بن عجلان [عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يحشرون المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال] أخرجه الترمذي و قال : حديث حسن قلت : طينة الخبال عرق أهل النار أو عصارتهم شراب أيضا لمن شرب المسكر جاء ذلك في صحيح البخاري و [عن جابر : أن رجلا قدم من جيشان و جيشان من اليمن فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسكر هو ؟ قال : نعم قال : إن على الله عهدا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا : يا رسول الله و ما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار أو عصارة أهل النار]

[وروي عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المدينة مهاجري و فيها مضجعي و منها مخرجي حق على أمتي حفظ جبراني فيها من حفظ وصيتي كنت له شهيدا يوم القيامة و من ضيعها أوردته الله حوض الخبال قيل : و ما حوض الخبال ؟ قال : حوض من صديد أهل النار] غريب من حديث خارجة بن زيد عن أبيه لم يروه عنه غير أبي الزناد تفرد به عنه ابنه عبد الرحمن

و روى الترمذي و أسد بن موسى [عن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعوذوا بالله من جب الحزن فقيل يا رسول الله : و ما جب الحزن ؟ قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم سبعين مرة

أعده الله للقراء المرأين] و في رواية : [أعده الله للذين يراءون الناس بأعمالهم]

و قال الترمذي [في حديث أبي هريرة مائة مرة قلنا : يا رسول الله و من يدخله ؟ : القراء المرأون بأعمالهم] قال : حديث غريب أخرجه ابن ماجه أيضا [عن أبي هريرة و لفظه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا : يا رسول الله و ما جب الحزن ؟ قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم أربعمئة مرة قيل : يا رسول الله من يدخله ؟ قال : أعد للقراء المرأين بأعمالهم و إن من أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء]

قال الخاربي : الجورة

و في حديث آخر ذكره [أسد بن موسى أنه عليه السلام قال : إن في جهنم لواديا إن جهنم لتتعوذ من شر ذلك الوادي في كل يوم سبع مرات و إن في ذلك الوادي لجبا إن جهنم و ذلك الوادي ليتعوذان بالله من شر ذلك الجب

وإن في الجب حلية إن جهنم والوادي وذلك الجب ليتعوزان بالله من شر ذلك الحية أعدها الله للأشقياء من حملة القرآن [

وقال أبي هريرة : إن في جهنم أرجاء تلور بعلماء السوء فيشرف عليهم بعض من كان يعرفهم في الدنيا : فيقول : ما صيركم إلى هذا وإنما كنا نتعلم منكم ؟ قالوا : إنا كنا نأمركم بالأمر ونخالقكم إلى غيره قلت : وهذا مرفوع معناه في صحيح مسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه و سيأتي في من أمر بالمعروف و لم يأت

وقال أبو المثنى الأملوكي : إن في النار أقواما يربطون بنواعير من نار تلور بهم تلك النواعير ما لهم فيها راحة و لا فترة و قال محمد بن كعب القرظي إن لملك مجلسا في وسط جهنم و جسورا تمر عليها ملائكة العذاب فهو يرى أقصاها كما يرى أذناها الحديث و سيأتي

باب منه : و في بيان قوله تعالى : فلا اقتحم العقبة و في ساحل جهنم و وعيد من يؤذي المؤمنين ابن المبارك قال : أخبرنا رجل عن منصور عن مجاهد عن يزيد بن شجرة قال : و كان معاوية بعثه على الجيوش فلقى عدوا فرأى أصحابه فشلا فجمعهم فحمد الله و أثنى عليه ثم قال : أما بعد اذكروا نعمة الله عليكم و ذكر الحديث و فيه : [فإنكم ككتوبون عند الله بأسمائكم و سماتكم فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ها نورك يا فلان لا نور لك إن لجهنم ساحلا كساحل البحر فيه هوام و حيات كالبحر و عقارب كالبعال الدهم فإذا استغاث أهل النار قالوا : الساحل ! فإذا ألقوا فيه سلطت عليهم تلك الهوام فتأخذ شفار أعينهم و شفاههم و ما شاء الله منهم تكشطها كسطا فيقولون : النار النار ! فإذا ألقوا فيها سلط الله عليهم الجرب فيحك أحدهم جسده حتى يبدو عظمه و إن جلد أحدهم لأربعون ذراعا قال : يقال : يا فلان هل تجد هذا يؤذيك ؟ فيقول : و أي شيء أشد من هذا ؟ فيقال : هذا بما كنت تؤذي المؤمنين]

قال ابن المبارك : و أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمار الدهني أنه حدثه عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : إن صعودا صخرة في جهنم إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت فإذا رفعوها عادت اقتحامها { فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة }

وقال ابن عمرو ابن عباس هذه العقبة جبل في جهنم و قال محمد بن كعب و كعب الأحبار هي سبعون درجة في جهنم و قال الحسن و قنادة : هي عقبة شديدة صعبة في النار دون الجسر فاقحموها بطاعة الله عز و جل و قال مجاهد و الضحاك و الكلبي : هي الصراط و قيل : النار نفسها و قال الكلبي أيضا : هي جبل بين الجنة و النار يقول : فلأجاور هذه العقبة بعمل صالح ثم بين اقتحامها بما يكون فقال { فك رقبة } الآية

وقال ابن زيد و جماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام تقديره : أفلا اقتحم العقبة يقول : هلا أنفق ماله في فك الرقاب و إطعام السغبان ليجاوز به العقبة فيكون خيرا له من إنفاقه في المعاصي ؟ و قيل : معنى الكلام التمثيل و التشبيه فشبه عظم الذنوب و ثقلها بعقبة فإذا أعتق رقبة و عمل صالحا كان مثله كمثل من اقتحم العقبة و هي الذنوب التي تضره و تؤذيه و تنقله فإذا أزالها بالأعمال الصالحة و التوبة الخالصة كان كمن اقتحم عقبة يستوي عليها و يجوزها

قلت : هذا حديث حسن قال الحسن : هي و الله عقبة شديدة مجاهدة الإنسان نفسه و هواء وعدوه الشيطان و

أنشد بعضهم :

(إني بليت بأربع يرميني ... بالنبل قد نصبوا علي شراكا)

(إبليس و الدنيا و نفسي و الهوى ... من أين أرجو بينهن فكاكا)

(يا رب ساعدني بعفو إني ... أصبحت لا أرجو لهن سواكا)

و أنشد غيره أيضا في معنى ذلك :

(إني بليت بأربع يرميني ... بالنبل عن قوس لها توتير)

(إبليس و الدنيا و نفسي و الهوى ... يا رب أنت على الخلاص قدير)

و قال آخر :

(إني بليت بأربع ما سلطوا ... إلا لعظم بليتي و شقائي)

(إبليس و الدنيا و نفسي و الهوى ... كيف الخلاص و كلهم أعدائي)

قلت : قال : فمن أطاع مولاه و جاهد نفسه و هواه و خالف شيطانه و دنياه كانت الجنة نزله و مأواه و ممن تهادى في غيه و طغيانه و أرخى في الدنيا زمام عصيانه و وافق نفسه و هواه في مناه و لذاته و أطاع شيطانه في جمع شهواته كانت النار أولى به قال الله تعالى : { فأما من طغى * و آثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * و أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى }
و معنى فلا اقتحم العقبة : أي لم يقتحم العقبة و هذا خبر أي أنه لم يفعل و العرب تقول : لا فعل بمعنى لم يفعل قال زهير

(و كان طوى كشحا على سكينه ... فلا هوى أبداها و لم يتقدم)

أي فلم يبدها

ثم قال : { و ما أدراك ما العقبة * فك رقبة } يقول للنبي صلى الله عليه و سلم : أي لم تكن تدريها حتى أعلمتك ما العقبة : فك رقبة : أي عتق رقبة من الرق أو إطعام في يوم ذي مسغبة مجاعة يتيما ذا مقربة : أي قرابة أو مسكينا ذا متربة : يعني به اللاصق بالتراب من الحاجة في تفسير الحسن
و قال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه و ما أدراك فإنه أخبره به و كل شيء قال فيه و ما يدريك فإنه لم يخبره به

و خرج الطبراني أبو القاسم سلمان بن أحمد في كتاب مكارم الأخلاق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :
لأن أجمع أناسا من أصحابي على صاع من طعام أحب إلي أن أخرج إلى السوق فأشتري نسمة فأعتقها

باب ما جاء في قوله تعالى و قودها الناس و الحجارة

الوقود بفتح الواو على وزن الفعول بفتح الفاء : الحطب و كذلك الطهور اسم للماء و السحور اسم الطعام و بضم الفاء : اسم للفعل و هو المصدر و الناس عموم و معناه : الخصوص ممن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لها أجازنا الله منها قال : حطب النار : شباب و شيوخ و كهول و نساء عاريات طال منهن العويل
ابن المبارك [عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله : يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار و حتى يخاض البحار بالخيل في سبيل الله تبارك و تعالى ثم يأتي أقوام يقرأون القرآن فإذا قرأوه قالوا : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون في أولئك من خير ؟ قالوا : لا ! قال : أولئك منكم و أولئك من هذه الأمة و أولئك هم وقود النار] أخرجه عن موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن ابن الهادي عن

العباس بن عبد المطلب فذكره و الحجارة الكبرى خلقها الله تعالى عنده كيف شاء أو كما شاء عن ابن مسعود و غيره ذكره ابن المبارك عن عبد الله بن مسعود و خصت بذلك لأنها تزيد على جميع الحجارة بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الإيقاد و نتن الرائحة و كثرة الدخان و شدة الالتصاق بالأبدان و قوة حرها إذا حيت و قيل المراد بالحجارة : الأصنام لقوله تعالى : { إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم } أي حطب و هو ما يلقي في النار مما تذكى به و عليه فيكون الناس و الحجارة وقودا للنار على التأويل الأول و على التأويل الثاني يكونون معذبين بالنار و الحجارة و في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال [كل مؤذ في النار] و في تأويله و جهان :

أحدهما : أن كل من آذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار الثاني : أن كل ما يؤذي الناس في الدنيا من السباع و الهوام و غيرها في النار معد لعقوبة أهل النار و ذهب بعض أهل التأويل إن أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة و الله أعلم

باب ما جاء في تعظيم جسد الكافر و أعضائه بحسب اختلاف كفره و توزيع

العذاب على العاصي المؤمن بحسب أعمال الأعضاء مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد و غلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع] الترمذي عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن غلظ جلد الكافر إثنان و أربعون ذراعا و إن ضرسه مثل أحد و إن مجلسه من جهنم كما بين مكة و المدينة [قال هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش و في رواية : و فخذته مثل البيضاء و مقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الربذة أخرجه عن صالح مولى التؤامة عن أبي هريرة و قال : هذا حديث حسن غريب و قال : مثل الربذة يعني به كما بين مكة و المدينة و البيضاء : جبل ابن المبارك أنبأنا يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال [ضرس الكافر يوم القيامة أعظم من أحد يعظمون لتمتليء منهم و ليذوقوا العذاب]

أخبرنا الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : [ضرس الكافر مثل أحد و فخذته مثل البيضاء و جبينه مثل الوراقان و مجلسه من النار كما بيني و بين الربذة و كثف بصره سبعون ذراعا و بطنه مثل إضم] إضم بالكسر جبل قاله الجوهري

قلت : و الوراقان جبل بالمدينة كما روي [عن أنس بن مالك قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم فلما تجلّى ربه للجبل صار بعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بمكة : ثور و ثبير و حراء و بالمدينة : أحد و ورقان و رضوى] و ذكر ابن المبارك قال : [أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بصر الكافر — يعني غلظ جلده — سبعون ذراعا و ضرسه مثل أحد في سائر خلقه] و ذكر عن عمرو بن ميمون أنه يسمع بين جلد الكافر و جسده دوي كدوي الوحش الترمذي [عن أبي المخارق عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ و الفرسخين يتوطؤه الناس]

مسلم [عن سمرة بن جندب أن نبي الله صلى الله عليه و سلم قال : منهم من تأخذ النار إلى كعبيه و منهم من

تأخذه إلى ركبتيه و منهم من تأخذه إلى حجزته و منهم من تأخذه إلى ترقوته [و في رواية : حقويه مكان حجزته
فصل : هذا الباب يدل على أن كفر من كفر فقط ليس ككفر من طغى و كفر و تمرد و عصى و لا شك في أن
الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد علم من الكتاب و السنة و لأننا نعلم على القطع و الثبات أنه ليس عذاب
من قتل الأنبياء و المسلمين و فتنك فيهم و أفسد في الأرض و كفر مساويا لعذاب من كفر فقط و أحسن للأنبياء و
المسلمين ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي صلى الله عليه و سلم إلى ضحضاح لنصرته إياه و ذبه عنه و إحسانه
إليه ؟ و حديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب و يصح أن يكون فيمن يعذب
من الموحدين إلا أن الله تعالى بميتهم إمامة حسب ما تقدم بيانه

و في خبر كعب الأحمار : يا مالك مر النار لا تحرق ألسنتهم فقد كانوا يقرأون القرآن يا مالك قل للنار تأخذهم
على قدر أعمالهم فالنار أعرف بهم و بمقدار استحقاقهم من الوالدة بولدها فمنهم من تأخذه النار إلى كعبيه و منهم
من تأخذه النار إلى ركبتيه و منهم من تأخذه النار إلى سرتة و منهم من تأخذه إلى صدره و ذكر الحديث و سيأتي
بكماله إن شاء الله تعالى

و ذكر القتيبي في عيون الأخبار له مرفوعا [عن أبي هريرة أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن
الله إذا قضى بين خلقه و زادت حسنات العبد دخل الجنة و إن استوت حسناته و سيئاته حبس على الصراط أربعين
سنة ثم بعد ذلك يدخل الجنة و إن زادت سيئاته على حسناته دخل النار من باب التوحيد فيعذبون في النار على
قدر أعمالهم فمنهم من تنتهي له النار إلى كعبيه و منهم من تنتهي إلى ركبتيه و منهم من تنتهي النار إلى وسطه] و
ذكر الحديث

و ذكر الفقيه أبو بكر بن بركان أن حديث مسلم في معنى قوله تعالى { و لكل درجات مما عملوا و ليوفيهم أعمالهم
و هم لا يظلمون } قال : أرى — و الله أعلم — أن هؤلاء الموصوفين في هذه الآية و الحديث أهل التوحيد فإن
الكافر لا تعاف النار منه شيئا و كما اشتمل في الدنيا على الكفر شملته النار في الآخرة قال الله تعالى { لهم من
فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل } أي أن ما فوقهم ظلل لهم و ما تحتهم ظلل لمن تحتهم
باب منه

ابن ماجه [عن الحارث بن قيس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعتي
أكثر من مضر و إن أمتي من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها]

باب ما جاء في شدة عذاب أهل المعاصي و إذا يتهم أهل النار بذلك

مسلم [عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أشد عذابا يوم القيامة المصورون]
و ذكره قاسم بن أصبغ من حديث [عبد الله بن مسعود أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن
أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي أو مصور يصدر التماثيل]
و ذكره أبو عمر بن عبد البر و ابن ماجه و ابن وهب [من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم
قال : إن من أشد عذابا يوم القيامة عالما لم ينفعه الله بعلمه] إسناده فيه عثمان بن مقسم البزي لم يرفعه غيره و هو
ضعيف عند أهل الحديث معتزلي المذهب ليس حديثه بشيء قاله أبو عمر

و ذكر ابن وهب قال : حدثنا ابن زيد قال : يقال إنه ليوذي أهل النار نتن فروج الزناة يوم القيامة
ابن المبارك قال : أخبرنا موسى بن علي بن رباح قال : سمعت أبي يذكر عن بعض من حدث قال : ثلاثة قد آذوا

أهل النار — و كل أهل النار في أذى — : رجال مغلقة عليهم توابت من نار و هم في أصل الجحيم فيضجون حتى تعلقوا أصواتهم أهل النار فيقول لهم أهل النار : ما بالكم من بين أهل النار فعل بكم هذا ؟ فقالوا : كنا متكبرين و رجال قد شقت بطونهم يسبحون أمعاءهم في النار فقال لهم أهل النار : ما بالكم من بين أهل النار فعل بكم هذا ؟ قالوا : كنا تقتطع حقوق الناس بأيماننا و أمانتنا و رجال يسعون بين الجحيم و الحميم لا يقرون قبل لهم : ما بالكم من بين أهل النار فعل بكم هذا ؟ قالوا : كنا نسعى بين الناس بالنميمة

[أخبرنا إسماعيل بن عياش حدثني تغلب بن مسلم عن أيوب بن بشير العجلي عن شقي بن مانع الأصححي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الجحيم و الحميم يدعون بالويل و الثبور يقول أهل النار بعضهم لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ؟ قال : فرجل مغلق عليه تابوت من حجر و رجل يجر أمعاءه و رجل يسيل فوه قيحا و دما و رجل يأكل لحمه قال فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال فيقول : إن الأبعد مات و في عنقه أموال الناس لم يجد لها قضاء أو قال وفاء ثم يقال للذي يجر أمعاءه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال فيقول : إن الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه ثم لا يغسله ثم يقال للذي يسيل فوه دما و قيحا : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال فيقول : إن الأبعد كان لا يفتأ يأكل لحمه الذي يستلذها و يستلذ الرفث بها ثم يقال للذي يأكل لحمه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال فيقول : إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس و يمشي بالنميمة]

خرجه أبو نعيم الحافظ و قال : تفرد به إسماعيل بن عباس و شقي مختلف فيه فقيل : له صحبة قلت : و قد تقدم حديث البخاري الطويل عن سمرة بن جندب و حديث ابن عباس و أبي هريرة و ابن مسعود في باب ما يكون منه في عذاب القبر و حديث أبي هريرة في الذين تسعر بهم جهنم و غير ذلك مما تقدم في معنى هذا الباب : فتأمل ذلك

و قد تقدم أن من آذان أموال الناس في غير سفه و لا إسراف و لم يجد قضاء و نيته الأداء و مات أن الله لا يحسبه عن الجنة و لا يعذبه بل يرضى عنه خصماؤه إن شاء الله و يكون الجميع في رحمته بكرمه و فضله فأما من أذانا لينفقها في المعاصي ثم لا يقدر على الأداء فلعله الذي يعذب

باب منه و في عذاب من عذب الناس في الدنيا

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي نجيح عن خالد بن حكيم عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أشد الناس عذابا يوم القيامة أشدهم عذابا للناس في الدنيا]

و خرجه البخاري في التاريخ فقال : [حدثنا علي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن خالد بن حكيم بن حزام أن أبا عبيدة تناول رجلا من أهل الأرم من فكلمه خالد بن الوليد فقالوا : أغضبت الأمير ؟ فقال : لم أرد غضبه سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : أشد الناس عذابا يوم القيامة أشدهم عذابا للناس في الدنيا]

و خرجه مسلم بمعناه [من حديث هشام بن حكيم بن حزام أنه مر على أناس من الأباط بالشماء قد أقيموا في

الشمس فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : حبسوا على الجزية فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الله عز و جل يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا]

باب ما جاء في شدة عذاب من أمر بالمعروف و لم يأته و نهى عن المنكر و

أتاه و ذكر الخطباء و فيمن خالف قوله فعله و في أعوان الظلمة كلاب النار البخاري [عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يجاء برجل فيطرح في النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : أي فلان ! ألست كنت تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت أمر بالمعروف و لا أفعله و أنهى عن المنكر و أفعله]
و خرجه مسلم أيضا بمعناه [عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتدلق أفتاب بطنه في النار فيدور كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ابن فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ! كنت أمر بالمعروف و لا آتبه و أنهى عن المنكر و آتبه]

و خرجه أبو نعيم الحافظ [من حديث مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أتيت ليلة لأسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت ردت قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون و لا يفعلون و يقرأون كتاب الله و لا يعملون]
و ذكر ابن المبارك قال : [أخبرنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم رأيت ليلة أسري بي رجلا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أي من الذين يأمر الناس بالبر و ينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب] الآية
قال : [و أخبرنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبي قال : يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم في النار فيقولون : ما أدخلكم النار و إنما دخلنا الجنة بفضل تاديكم و تعليمكم ؟ قالوا : إن كنا نأمركم بالخير و لا نفعله]

و ذكر أبو نعيم الحافظ قال : [حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن قال : حدثنا عبد الله بن حنبل قال : حدثنا سيار بن حاتم قال : حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله تعالى يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء] هذا حديث غريب تفرد به سيار عن جعفر لم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال حدثنا أحمد بن إسحاق بن حمزة حدثنا محمد بن علوش بن الحسين الجرجاني قال : حدثنا علي بن المثنى قال : حدثنا يعقوب بن خليفة أبو يوسف الأعشى قال حدثني محمد بن مسلم الطائفي قال حدثني إبراهيم بن ميسرة عن طاووس عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [

الجلالوة و الشرط أعوان الظلمة كلاب النار] غريب من حديث طاووس تفرد به محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم بن ميسرة عن طاووس الجلالوة : جمع جلاوز قال الجوهرى : و الجلاوز الشرطي و الجمع : الجلاوزة
فصل : قال بعض السادة : أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة : رجل ملك عبدا فعلمه شرائع الإسلام فأطاع و أحسن و عصى السيد فإذا كان يوم القيامة أمر بالعبد إلى الجنة و أمر بسيدة إلى النار فيقول عند ذلك : واحسرتاه ! وأغبناه ! أما هذا عبدي ؟ أما كنت مالكا لمهجتته و ماله ؟ و قادرا على جميع ماله ؟ فما له سعد و ما لي شقيت ؟
فيناديه الملك الموكل به : لأنه تأدب و ما تأدبت و أحسن و أسأت و رجل كسب مالا فعصى الله تعالى في جمعه و منعه و لم يقدمه بين يديه حتى صار إلى وارثه فأحسن في إنفاقه و أطاع الله سبحانه في إخراجه و قدمه بين يديه فإذا

كان يوم القيامة أمر بالوارث إلى الجنة و أمر بصاحب المال إلى النار فيقول : و حسرتاه ! و اغبناه ! أما هذا ما لي
فما أحسنت به أحوالي و أعمالي فيناديه الملك الموكل به : لأنه أطاع الله و ما أطعت و أنفق لوجهه و ما أنفقت
فسعد و شقيت و رجل على قوما و وعظهم فعملوا بقوله و لم يعمل فإذا كان يوم القيامة أمر بهم إلى الجنة و أمر به
إلى النار فيقول : و احسرتاه ! و اغبناه ! أما هذا علمي ؟ فما لهم فازوا به و ما فزت ؟ و سلموا به و ما سلمت ؟
فيناديه الملك الموكل به : لأنهم عملوا بما قلت و ما عملت فسعدوا و شقيت ذكره أبو الفرج بن الجوزي
فصل : قال إبراهيم النخعي رضي الله عنه : إني لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى : { أتمرون الناس بالبر و
تنسون أنفسكم } و قوله تعالى { لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون } و قوله تعالى
: { و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أناكم عنه }

قلت : و ألفاظ هذه الآيات تدل على ما ذكرناه من الأحاديث على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف و بالمنكر و
بوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه و إنما كان كذلك لأنه كالمستهين بجرمات الله و يستحق
لأحكامه و هو كمن لم ينتفع بعمله

و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه] و قد تقدم
[و روى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الذين يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم
يجرون قصبهم في نار جهنم فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير و ننسى أنفسنا]
و قوله : تندلق أي : تخرج و الاندلاق الخروج بسرعة يقال : اندلق السيف خرج من غمده و روي فتندلق بدل
فتندلق و الأقباب : الأعماء واحدها : قتب بكسر القاف و قال الأصمعي : واحدها : قتيبة و يقال لها أيضا :
الأقصاب واحدها : قسيبة قاله أبو عبيد

و قد قال صلى الله عليه و سلم : [رأيت عمرو بن لحي يجز قصبه في النار و هو أول من سيب السوائب]
قلت : إن قال قائل : قد تقدم من حديث أبي سعيد الخدري أن من ليس من أهل النار إذا دخلوها أحرقوا فيه و
ماتوا على ما ذكرتموه في أصح القولين و هذه الأحاديث التي جاءت في العصاة بخلاف فكيف الجمع بينهما ؟
قيل له : الجمع ممكن و ذلك — و الله أعلم — أن أهل النار الذين هم أهلها كما قال الله تعالى { كلما نضجت
جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب } قال الحسن : تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة و العصاة
بخلاف هؤلاء فيعذبون و بعد ذلك يموتون

و قد تختلف أيضا أحوالهم في طول التعذيب بحسب جرائمهم و آثامهم و قد قيل إنه يجوز أن يكونوا متألين حالة
موتهم غير أن آلام المؤمنين تكون أخف من آلام الكفار لأن آلام المعذبين و هم موتى أخف من عذابهم و هم أحياء
دليله قوله تعالى : { و حاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غلوا و عشيا و يوم تقوم الساعة
أدخلوا آل فرعون أشد العذاب } فأخبر أن عذابهم إذا بعثوا أشد من عذابهم و هم موتى
و مثله ما جاء في حديث البراء من قول الكافر : رب لا تقم الساعة رب لا تقم الساعة رب لا تقم الساعة يرى أن
ما يخلص له من عذاب الآخرة أشد مما هو فيه و قد يكون ما جاء في الخطباء هو عذابهم في القبور في أعضاء
مخصوصة كغيرهم كما جاء في حديث سمرة الطويل على ما تقدم إلا أن قوله في حديث أسامة بن زيد يوم القيامة
يدل على غير ذلك و قد يحتمل أن يجمع لهم الأمران لعظم ما ارتكبه من مخالفة قولهم فعلهم و نعوذ بالله من ذلك

باب ما جاء في طعام أهل النار و شرابهم و لباسهم

قال الله تعالى : { فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار } وقال { سراويلهم من قطران } وقال : { إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون } وقال : { لا يدوقون فيها بردا } أي نوما { ولا شرابا * إلا حميما و غساقا * جزاء و فاقا } وقال : { وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقا } وقال عز من قائل { تسقى من عين آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع } وقال { فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين } قال الهروي : معناه من صديد أهل النار و ما ينغسل و يسيل من أبدانهم قلت : و هو الغساق أيضا و ذكر ابن المبارك : أخبرنا سفيان عن منصور عن إبراهيم و أبي رزين في قوله تعالى { هذا فليذوقوه حميم و غساق } قالوا : ما يسيل من صديدهم و قيل الغساق : القيح الغلظ المنتن و ذكر ابن وهب عن عبد الله بن عمر قال الغساق : القيح الغلظ لو أن قطرة منه تهراق في المغرب أنتنت أهل المشرق و لو أنها تهراق في المشرق أنتنت أهل المغرب و قيل : الغساق الذي لا يستطيع من شدة برده و هو الزمهير

و قال كعب : الغساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة فستفزع و يؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة فيسقط جلده و لحمه عن العظام فيجر لحمه في كعبه كما يجر الرجل ثوبه و قوله { جزاء و فاقا } أي وافق أعمالهم الخبيثة

و اختلف في الضريع فقيل : هو النبات ينبت في الربيع فإذا كان في الصيف يبس و اسمه إذا كان عليه ورقة شبرق و إذا تساقط ورقه فهو الضريع فالإبل تأكله أخضر فإذا يبس لم تذقه و قيل : هو حجارة و قيل الزقوم واد في جهنم و قال المفسرون : إن شجرة الزقوم أصلها في الباب السادس و أنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء فلا بد لأهل النار من أن يتحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها و قال أبو عمران الجوني في قوله تعالى { إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون } قال بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها و المهل ما كان ذائبا من الفضة و النحاس و قيل المهل عكر الزيت الشديد السواد و قوله تعالى { يغلي في البطون * كغلي الحميم } يعني الماء الشديد الحر

باب منه و ما جاء أن أهل النار يجوعون و يعطشون و في دعائهم و إجابتهم

قال الله تعالى : { و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين } الآية
اليهقي عن محمد بن كعب القرظي قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع فإذا كان في الخامسة لا يتكلمون بعدها أبدا يقولون : { ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل } قال : فيجيبهم الله تعالى { ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم و إن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير } ثم يقولون : { ربنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون } فيجيبهم الله تعالى : { فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون } ثم يقولون : { ربنا أخرجنا إلى أجل قريب نجب دعوتك و نتبع الرسل } فيجيبهم الله تعالى { أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال } ثم يقولون : { ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل } فيجيبهم الله تعالى : { أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكروا و جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير }

ثم يقولون : { ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوما ضالين } فيجيهم { اخسؤوا فيها ولا تكلمون } فلا يتكلمون بعدها أبدا

و خرج ابن المبارك بأطول من هذا فقال : أخبرنا الحكم بن عمر بن ليلى حدثني عامر قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول : بلغني — أو ذكر لي — أن أهل النار استغاثوا بالخزنة فقال الله تعالى : { وقال الذين في النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب } فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب فردت عليهم الخزنة : { أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات } ؟

فيقولون : بلى فردت عليهم الخزنة : { فادعوا و ما دعاء الكافرين إلا في ضلال }

قال : فلما يتسوا مما عند الخزنة نادوا مالكا — و هو عليهم و له مجلس في وسطها و جسور تمر عليهم ملائكة

العذاب فهو يرى أقصاها كما يرى أذناها — فقالوا : { يا مالك ليقض علينا ربك }

قال : أسألوا الموت فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة

قال : و السنة ستون و ثلاثمائة يوم و الشهر ثلاثون يوما و اليوم { كألف سنة مما تعدون }

ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال : { إنكم ما كنون }

فلما سمعوا منه ما سمعوا و أسسوا مما قبله قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء إنه قد نزل بكم من البلاء و العذاب ما قد

ترون فهل فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا فأجمعوا رأيهم

على الصبر فصبروا فطال صبرهم ثم جزعوا فنادوا : { سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص } أي من

منجى

قال : فقام إبليس عند ذلك فقال : { إن الله وعدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم } إلى قوله : { ما أنا

بمصرخكم } يقول : بمغن عنكم شيئا } و ما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركنتمون من قبل }

قال : فلما سمعوا مقالته مقنوا أنفسهم قال فنادوا { لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم } إلى قوله : { فهل إلى

خروج من سبيل }

قال : فرد عليهم ذلك بأنه { إذا دعي الله وحده كفرتم و إن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير }

قال : فهذه واحدة : فنادوا الثانية { فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون }

قال : فيرد عليهم { و لو شئنا لآتينا كل نفس هداها }

يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا فلم يختلف منهم أحد } و لكن حق القول مني لأملأن مني جهنم من الجنة و الناس

أجمعين * فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون }

قال : فهذه اثنتان فنادوا الثالثة : { ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك و نتبع الرسل }

فيرد عليهم : { أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * و سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم } إلى

قوله تعالى : { الجبال }

قال : فهذه الثلاثة قال : ثم نادوا الرابعة : { ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل }

قال فيجيهم : { أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير }

ثم مكث عنهم ما شاء الله ثم ناداهم : { ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بما تكذبون } ؟

قال : فلما سمعوا صوته قالوا : الآن يرضى ربنا فقالوا عند ذلك : { ربنا غلبت علينا شقوتنا } — أي : الكتاب

الذي كتب علينا — { و كنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون } فقال عند ذلك : { اخسؤوا

فيها ولا تكلمون { فانقطع عند ذلك الرجاء و الدعاء { و أقبل بعضهم على بعض { ينح بعضهم في وجه بعض و أطبقت عليهم

قال : فحدثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه لما ذكر له أن ذلك قوله تعالى { هذا يوم لا ينطقون * و لا يؤذن لهم فيعتذرون {

قال ابن المبارك : و حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة : فذكره عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم : { إنكم ماكنون {

قال : هانت و الله دعوتهم على مالك و رب مالك

قال : ثم يدعون ربهم قال فيقولون { ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون {

قال فسكت عنهم قدر الدنيا مرتين قال ثم يرد عليهم : { اخسؤوا فيها ولا تكلمون {

قال : فو الله ما نيس القوم بعدها بكلمة و ما هو إلا الزفير و الشهيق في نار جهنم فشبه أصواتهم بصوت الحمير أولها زفير و آخرها شهيق و معنى ما نيس ما تكلم

قال الجوهري : يقال ما نيس بكلمة أي ما تكلم و ما نيس بالشدديد أيضا و قال الراجز :

(إن كنت غير هلك فنبس)

الترمذي [عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يلقي

عن أهل النار الجوع مع ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن و لا يغني من جوع

فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون

بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب من حديد فإذا دنت من وجوههم شوت و وجوههم فإذا دخلت بطونهم

قطعت ما في بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : { أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ! قالوا

: فادعوا و ما دعاء الكافرين إلا في ضلال { قال فيقولون : ادعوا مالكا فيقولون { يا مالك ليقض علينا ربك {

قال فيجيبهم : { إنكم ماكنون {]

قال الأعمش : ثبت أن بين دعائهم و بين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من

ربكم قال فيقولون : { ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون { قال فيجيبهم : { اخسؤوا فيها ولا تكلمون {

قال : فعند ذلك يسوا من كل خير و عند ذلك يأخذون في الزفير و الحسرة و الويل رفعة قطبة بن عبد العزيز عن

الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر و هو ثقة عند أهل الحديث و الناس يوقفونه على أبي الدرداء

[و عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم عن قوله تعالى : { و هم فيها كالحون { قال : تشويه

النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه و تسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة و لسرادق النار أربعة

جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة و لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنت أهل الدنيا [قال : هذا

حديث صحيح غريب

[و عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله : { كالمهل { قال : كعكر الزيت و إذا قربه إلى وجهه سقطت

فروة و وجهه [قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد و رشدين قد تكلم فيه من جهة

حفظه

قلت : وقع في هذا الحديث فروة و وجهه و هو شاذ إنما يقال : فروة رأسه أي جلده هذا هو المشهور عند أهل اللغة

و كذا جاء في حديث أبي أمامة

[و عن أبي حنيفة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فليست ما في جوفه حتى يمرق من قدميه و هو الصهر ثم يعاد كما كان]
قال : هذا حديث حسن صحيح غريب

و [عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله : { و يسقى من ماء صديد * يتجرعه } قال : يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدن منه شوى وجهه و وقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى : { و سقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم } و قال تعالى : { و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقا }] قال : هذا حديث غريب

[و عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ هذه الآية { اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون }]

قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف بمن يكون طعامه ؟] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح خرجه ابن ماجه أيضا

باب ما جاء في بكاء أهل النار و من أدناهم عذابا فيها

ابن المبارك قال : [أخبرنا عمران بن زيد الثعلبي حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنما جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل اللماء فتقرح العيون فلو أن سفنا أجزيت فيها لجرت]
خرجه ابن ماجه أيضا [من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود و لو أرسلت فيها السفن لجرت]
و في مسلم [عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل في أخص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه]

و روي عن أبي موسى الأشعري موقوفا أنه قال : [إن أهل النار ليبكون الدموع في النار حتى لو أجزيت فيها السفن لجرت ثم إنهم يبكون الدم بعد الدموع و مثل ما هم فيه فليبك]
قال المؤلف رحمه الله و هو يستند من معنى ما تقدم : و في التنزيل { فليضحكوا قليلا و ليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون }

و في الترمذي [من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا فمن كثر بكأؤه خوفاً من الله تعالى و خشية منه ضحك كثيرا في الآخرة قال الله تعالى مخبرا عن أهل الجنة : { إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين } و وصف أهل النار فقال : { و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين } قال : و كنتم و منهم تضحكون] و سيأتي بيانه

باب ما جاء أن لكل مسلم فداء من النار من الكفار

ابن ماجه قال : [أخبرنا جبارة بن المغلس حدثنا عبد الأعلى بن أبي المساور عن أبي بردة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أذن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في السجود فسجدوا طويلاً ثم يقال : ارفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار]

[حدثنا جبارة بن المغلس حدثنا كثير بن سليمان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه الأمة أمة مرحومة عذابها بأيديها إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال : هذا فداؤك من النار]

قلت : هذان الحديثان وإن كان إسنادهما ليس بالقوي — قال الدارقطني : جبارة بن المغلس متروك — فإن معناهما صحيح بدليل حديث مسلم

[عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فكاكك من النار]

و في رواية أخرى : [لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه من النار يهودياً أو نصرانياً] قال فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات : أن أباه حدثه عن رسول الله قال : فحلف له فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : هذه الأحاديث ظاهرها الإطلاق والعموم وليس كذلك وإنما هي في ناس مذنبين تفضل الله تعالى عليهم برحمته ومغفرته فأعطى كل إنسان منهم فكاكاً من النار من الكفار واستدلوا بحديث أبي بردة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى]

و خرجه مسلم [عن محمد بن عمرو بن عباد بن جبلة بن أبي رواد قال حدثنا حرمي بن عمارة قال : حدثنا شداد أبو طلحة الراسي عن عباس عن غيلان بن جرير عن أبي بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : و ما معنى فيغفرها لهم ؟ أي : يسقط المؤاخذة عنهم بما حتى كأنهم لم يذنبوا] و معنى قوله : ويضعها على اليهود والنصارى أنه يضاعف عليهم عذاب ذنوبهم حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم و جرم ومذنبى المسلمين لو أخذوا بذلك لأنه تعالى يأخذ أحداً بذنب أحد كما قال تعالى : { ولا تزر وازرة وزر أخرى } و له سبحانه أن يضاعف لمن يشاء العذاب و يخفف عمن يشاء بحكم إرادته و مشيئته إذ لا نسأل عن فعله

قالوا و قوله في الرواية الأخرى : [لا يموت رجل مسلم إلا أدخل مكانه يهودياً أو نصرانياً] فمعنى ذلك أن المسلم المذنب لما كان يستحق مكاناً من النار بسبب ذنوبه و عفا الله عنه و بقي مكانه خالياً منه أضاف الله تعالى ذلك المكان إلى يهودي أو نصراني ليعذب فيه زيادة على تعذيب مكانه الذي يستحقه بحسب كفره و يشهد لهذا قوله عليه السلام [في حديث أنس للمؤمن الذي يثبت عند السؤال في القبر فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة]

قلت : قد جاءت أحاديث دالة على أن لكل مسلم مذنباً كان أو غير مذنب منزلين : منزلاً من الجنة و منزلاً من النار و ذلك هو معنى قوله تعالى { أولئك هم الوارثون } أي يرث المؤمنون منازل الكفار و يجعل الكفار في منازلهم في النار على ما يأتي بيانه و هو مقتضى [حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا وضع في قبره] الحديث و قد تقدم إلا أن هذه الوراثة تختلف فمنهم من يرث و لا حساب و منهم من يرث بحسابه و بمناقشته و بعد الخروج من النار حسب ما تقدم من أحوال الناس و الله أعلم

وقد يحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثته من حيث حصولها دون غيرهم وهو مقتضى قوله تعالى : { قالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده و أورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء }

باب في قوله تعالى و تقول هل من مزيد

مسلم [عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تزال جهنم يلقى فيها و تقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض و تقول : قط قط و عزتك و كرمك و لا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة]

و في رواية أخرى [من حديث أبي هريرة فأما النار فلا تمتلى حتى يضع الله عليها رجله فتقول : قط قط فهناك تمتلى و يزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله خلقا من خلقه أحدا و أما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا] فصل : للعلماء في قول النار : [هل من مزيد ؟] تأويلان أحدهما : وعدّها ليملاؤها فقال : أوفيتك ؟ فقالت : و هل من مسلك ؟ أي : قد امتلأت كما قال :

(امتلأ الخوض و قال : قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني)

و هذا تفسير مجاهد و غيره و هو ظاهر الحديث الثاني : زدي تقول ذلك غيظا على أهلها و حنقا عليهم كما قال { تكاد تميز من الغيظ } أي تنشق و يبين بعضها من بعض

و قوله حتى يضع فيها قدمه — و في رواية أخرى حتى يضع عليها و في أخرى رجله و لم يذكر فيها و لا عليها — فمعناه عبارة عن تأخر دخوله في النار من أهلها و هم جماعات كثيرة لأن أهل النار يلقون فيها فوجا فوجا كما قال الله تعالى { كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير }

و يؤيده أيضا قوله في الحديث : لا يزال يلقى فيها فالخزنة تنظر أولئك المتأخرين إذ قد علموهم بأسمائهم و أوصافهم كما روي عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت و لا سلسلة و لا مقمع و لا تابوت إلا و عليه اسم صاحبه فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه و صفته فإذا استوفى كل واحد ما أمر به و ما ينتظره و لم يبق منهم أحد قالت الخزنة : قط قط أي حسبنا حسبنا اكتفينا اكتفينا و حينئذ تنزوي جهنم على ما من فيها و تطبق إذ لم يبق أحد ينتظر فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل و القدم لا أن الله جسم من الأجسام تعالى الله عما يقول الظالمون و الجاحدون علوا كبيرا

و العرب تعبر عن جماعة و الجراد بالرجل فتقول جاءنا رجل من جراد و رجل من الناس أي جماعة منهم و الجمع : أرجل

و يشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : و لا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله خلقا فيسكنهم فضل الجنة و في الحديث تأويلات أتينا عليها في الأسماء و الصفات أشبهها ما ذكرناه و في التنزيل { أن لهم قدم صدق عند ربهم } قال ابن عباس : المعنى منزل صدق و قال الطبري : معنى { قدم صدق عند ربهم } عمل صالح و قيل : هو

السابقة الحسنة فدل على أن القدم ليس حقيقة في الجارحة و الله الموفق

قال ابن فورك و قال بعضهم : القدم خلق من خلق الله بخلقه يوم القيامة فيسميه قدما و يضيفه إليه من طريق الفعل يضعه في النار فتمتلى النار منه و الله أعلم

قلت : و هذا نحو مما قلناه في الرجل قال الشاعر :

(فمر بنا رجل من الناس و انزوى ... إليهم من الحي اليماني أرجل)

(قبائل من لحم و عك و حمير على ... ابني نزار بالعداوة أحفل)

وقال آخر :

(يرى الناس أفواجا إلى باب داره ... كأنهم رجلا دبا وجراد)

(فيوم لإحاق الفقير بذي الغنى ... و يوم رقاب بوكرت بمصاد)

الدبا : الجراد قبل أن يطير و الله أعلم

باب ذكر آخر من يخرج من النار و آخر من يدخل الجنة و في تعيينه و تعيين

قبيلته و اسمه

مسلم [عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها و آخر أهل النار دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حيوا فيقول الله تعالى اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملامى فيقول يا رب وجدتها ملامى فيقول الله : اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملامى فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملامى فيقول : اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا و عشرة أمثالها أو أن لك عشرة أمثال الدنيا قال فيقول أتسخر بي ؟ أو أتضحك بي و أنت الملك ؟ قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم ضحك حتى بدت نواجذه قال : فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة]

و عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة و يكبو مرة و تسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين و الآخرين فترفع له شجرة فيقول : أي رب أدني من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها و أشرب من مائها فيقول الله تعالى : يا ابن آدم لعلني إن أعطيتها سألتني غيرها فيقول : لا يا رب ! و يعاهد أن لا يسأله غيرها و ربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها و يشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول : أي رب أدني من هذه لأشرب من مائها و أستظل بظلها لا أسألك غيرها فيقول : يا ابن آدم : لعلني إن أدبتك منها تسألني غيرها ؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها و ربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا منها ترفع له شجرة عند باب الجنة أحسن من الأولين فيقول مثله فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول : أي رب أدخلنيها فيقول : يا ابن آدم ما يصريني منك ؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا و مثلها معها ؟ فيقول : أي رب أتستهزئ بي و أنت رب العالمين ؟ فضحك ابن مسعود فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ فقالوا مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا : مم تضحك يا رسول الله ؟ قال : من ضحك رب العالمين فيقول : إني لا أستهزئ منك و لكني على ما أشاء قادر]

و قال ابن عمر [عن النبي صلى الله عليه و سلم : آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة يقال له جهينة تقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين] ذكره الميانشي أبو حفص عمر ابن عبد المجيد القرشي في كتاب الاختيار له في الملح من الأخبار و الآثار

و رواه أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب [من حديث عبد الملك بن الحكم قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة فيقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين سلوه هل بقي من الخلائق أحد] ؟ و رواه الدراقطني أيضا في كتاب رواه مالك ذكره السهيلي و قد قيل : إن اسمه هناد و الله أعلم

فصل : قوله : أتستهزئ مني ؟ — و في رواية : أتسخر ؟ — و الهزوء و السخرية بمعنى واحد و فيه تأويلان

أحدهما : أنه صدر منه هذا القول عند غلبة الفرح عليه و استخفافه إياه كما غلط الذي قال : [اللهم أنت عبدي و أنا ربك] خرجه مسلم
الثاني : أن يكون معناه : أجازيني على ما كان مني في الدنيا من قلة احتفالي بأعمالي و عدم مبالاتي بها ؟ فيكون هذا على وجه المقابلة كما قال الله تعالى مخبرا عن المنافقين { إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم { أي ينتقم منهم و يجازيهم على استهزائهم و الاستهزاء في اللغة : الانتقام قال الشاعر :
(قد استهزءوا منهم بألفي مدحج ... سراقهم وسط الضحاحض جشم)
و مثله : { و مكروا و مكر الله { الآية و هو كثير و سيأتي لبيان الاستهزاء من الله مزيد بيان و الضحك من الله تعالى راجع إلى معنى الرضى عن العبد فاعلم ذلك

باب منه و ما جاء في خروج الموحدين من النار و ذكر الرجل الذي ينادي : يا

حنان يا منان و بيان قوله تعالى : إنما عليهم مؤصدة في عمد ممددة و في أحوال أهل النار
خرج الطبراني أبو القاسم قال : [حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنا محمد بن عباد المكي حدثنا حاتم بن إسماعيل بن بسام الصيرفي عن يزيد الفقير عن رجل عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن ناسا من أمي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم تخالفوننا فيه من تصديقكم و إيمانكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم { ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين }]
و روى أبو ظلال [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن عبدا في جهنم ينادي ألف سنة : يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل : إئت عبدي فلانا فينطلق جبريل عليه السلام فيرى أهل النار منكبين على و جوههم قال فيرجع فيقول : يا رب لم أره فيقول الله تعالى : إنه في مكان كذا و كذا قال : فيأتيه فيجيء به فيقول له : يا عبدي كيف وجدت مكانك و مقيلك ؟ قال : فيقول : شر مكان و شر مقيل قال فيقول : ردوا عبدي قال فيقول : يا رب ما كنت أرجو أن تردني إذا أخرجتني منها فيقول الله تعالى : دعوا عبدي]
و أبو ظلال هذا اسمه هلال بن أبي مالك القسملبي يعد في البصريين

و عن سعيد بن جبير قال : إن في النار لرجلا — أظنه في شعب من شعابها ينادي مقدار ألف عام يا حنان يا منان فيقول رب العزة لجبريل : يا جبريل أخرج عبدي من النار فيأتيها فيجدها مطبقة فيرجع فيقول : يا رب إنما عليهم مؤصدة فيقول : يا جبريل ارجع ففكها فخرج عبدي من النار فيفكها فيخرج مثل الخيال فيطره على ساحل الجنة حتى ينبت الله له شعرا و لحما و دما ذكره أبو نعيم
و روى ليث [عن مجاهد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : إنما الشافعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي] الحديث و قد تقدم و فيه بعده

قوله : و أطولهم مكانا من يمكث فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت و ذلك سبعة آلاف سنة
ثم إن الله أراد أن يخرج الموحدين منها قذف في قلوب أهل الأديان فقالوا لهم : كنا و أنتم و آباؤنا جميعا في الدنيا فآمنتكم و كفرنا و صدقتم و كذبتنا و أقررتم و جحدنا فما أغنى ذلك عنكم نحن و أنتم اليوم فيها سواء تعذبون كما نعذب و تخلدون فيها كما نخلد فيغضب الله عند ذلك غضبا شديدا لم يغضب مثله من شيء فيما مضى و لا يغضب من شيء فيما بقي فيخرج أهل التوحيد منها إلى عين بين الجنة و النار و الصراط يقال لها : نهر الحياة فيرش عليهم

من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فما يلي الظل منها أخضر و ما يلي الشمس منها أصفر ثم يدخلون الجنة فيكتب على جباههم : هؤلاء عتقاء الله من النار إلا رجلا واحدا يمكث فيها ألف سنة ثم ينادي : يا حنان يا منان فيبعث الله إليه ملكا فيخوض في النار في طلبه سبعين عاما لا يقدر عليه ثم يرجع فيقول : إنك أمرتني أن أخرج عبدك فلانا من النار منذ سبعين عاما فلم أقدر عليه فيقول الله تعالى : انطلق فهو في وادي كذا تحت صخرة فأخرجه فيذهب فيخرجه منها فيدخله الجنة

ثم أن الجهنميين يطلبون من الله تعالى أن يمحو عنهم ذلك الاسم فيبعث الله ملكا فيمحوه عن جباههم ثم أن يقال لأهل الجنة و من دخلها من الجهنميين : اطلعوا إلى أهل النار فيطلعون إليهم فيرى الرجل أباه و يرى جاره و صديقه و يرى العبد مولاه ثم إن الله تعالى يبعث إليهم الملائكة بأطباق من نار و مسامير من نار و عمد من نار : فتطلق عليهم بتلك الأطباق و تشد بتلك المسامير و تمد بتلك العمدة فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح و لا يخرج منه غم و ينسأهم الرحمن على عرشه و يتشأغل أهل الجنة بنعيمهم و لا يستغيثون بعدها أبدا و ينقطع فيكون كلامهم زفيرا و شهيقا فذلك قوله تعالى { إنما عليهم مؤصدة * في عمد ممددة } و قال ابن مسعود : في عمد أي بعمد و كذا في مصحفه إنما عليهم مؤصدة بعمد

و خرج أبو نعيم الحافظ عن زاذان قال : سمعت كعب الأحبار يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين و الآخرين في صعيد واحد فنزلت الملائكة فصاروا صفوفًا فيقول الله للجريل : إئت بجهم فيجيء بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرة زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ثم زفرت ثانية فلا يبقى ملك مقرب و لا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه ثم تزفر الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر و تذهب العقول فيفرع كل امرئ إلى عمله حتى إن إبراهيم الخليل يقول : بخلتني لا أسألك إلا نفسي و يقول موسى : بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي و يقول عيسى : بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني و محمد صلى الله عليه و سلم يقول : أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي إنما أسألك أمتي

قال : فيجيبه الجليل جل جلاله : إن أوليائي من أمتك لا خوف عليهم و لا هم يحزنون فوعزتي و جلالي لأقرن عينك في أمتك ثم يقف الملائكة بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون به فيقول لهم تعالى و تقدس : معاشر الزنابية انطلقوا بالمصرين من أهل الكباثر من أمة محمد صلى الله عليه و سلم إلى النار فقد اشتد غضبي عليهم بتهاؤهم بأمرني في دار الدنيا و استخفافهم بحقي و انتهاكهم حرمني يستخفون من الناس و يبارزونني مع كرامتي لهم و تفضيلي إياهم على الأمم و لم يعرفوا فضلي و عظيم نعمتي فعندها تأخذ الزنابية بلحى الرجال و ذوات النساء فينطلق بهم إلى النار و ما من عبد يساق إلى النار من غير هذه الأمة إلا مسود وجهه قد وضعت الأنكال في رجله و الأغلال في عنقه إلا من كان من هذه الأمة فإنهم يساقون بألوانهم فإذا وردوا على مالك قال لهم : معاشر الأشقياء من أي أمة أنتم ؟ فما ورد علي أحسن وجوها منكم ! فيقولون : يا مالك نحن من أمة القرآن فيقول لهم : يا معشر الأشقياء أو ليس القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه و سلم ؟

قال : فيرفعون أصواتهم بالنحيب و البكاء فيقولون : والمحمده ! والمحمده ! والمحمده ! اشفع لمن أمر به إلى النار من أمتك

قال : فينادي مالك بتهدد و انتهار : يا مالك من أمرك بمعاينة أهل الشقاء و محادثتهم و التوقف عن إدخالهم العذاب ؟ يا مالك لا تسود وجوههم فقد كانوا يسجدون لي في دار الدنيا يا مالك : لا تغلهم بالأغلال فقد كانوا يغتسلون من الجنابة يا مالك ! لا تعذبهم بالأنكال فقد طافوا ببني الحرام يا مالك لا تلبسهم القطران فقد خلعوا

ثيابههم للإحرام يا مالك مر النار لا تحرق ألسنتهم فقد كانوا يقرأون القرآن يا مالك قل للنار تأخذكم على قدر أعمالهم فالنار أعرف بهم و بمقادير استحقاقهم من الوالدة بولدها فمنهم من تأخذه النار إلى كعبه و منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه و منهم من تأخذه النار إلى سرتة و منهم من تأخذه إلى صدره و منهم دون ذلك فإذا انتقم الله عز و جل منهم على قدر كبائرهم و عتوهم و إصرارهم فتح بينهم و بين المشركين بابا فأروهم في الطبقة الأعلى من النار لا يدوقون فيها بردا و لا شرابا سيكون و يقولون : يا محمداه ارحم من أمتك الأشقياء و اشفع لهم فقد أكلت النار لحومهم و دماءهم و عظامهم ثم ينادون : يا رباه يا سيداه ارحم من لم يشرك بك في دار الدنيا و إن كان قد أساء و أخطأ و تعدى فعندها يقول المشركون : ما أغنى عنكم إيمانكم بالله و بمحمد شيئا فيغضب الله تعالى لذلك فعندها يقول : يا جبريل انطلق فاخرج من في النار من أمة محمد فيخرجهم صباثر قد امتحشوا فيلقبهم على نهر على باب الجنة يقال له نهر الحياة فيمكتون حتى يعودوا أنضر ما كانوا ثم يأمر بإدخالهم الجنة مكتوبا على جباههم : هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن من أمة محمد صلى الله عليه و سلم فيعرفون من بين أهل الجنة بذلك فيتضرعون إلى الله عز و جل أن يمحو عنهم تلك السممة فيمحوها الله تعالى عنهم فلا يعرفون بها بعد ذلك أبدا و ذكر أبو نعيم الحافظ عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار و كل شيطان و كل من يخاف الناس شره في الدنيا فيوثقون بالحديد ثم أمر بهم إلى النار ثم أوصدها عليهم أي أطبقها فلا و الله لا تستقر أقدامهم على قرارها أبدا لا و الله ما ينظرون إلى أدبم سماء أبدا : و لا و الله لا تلتقي جفونهم على غمض نوم و لا و الله لا يدوقون فيها بارد شراب أبدا

قال : ثم يقال لأهل الجنة : يا أهل الجنة افشوا اليوم الأبواب فلا تخافوا شيطانا و لا جبارا و كلوا اليوم و اشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية قال أبو عمران : إذا هي و الله يا إخوانه أيامكم هذه

فصل : قوله : فيرش عليهم من الماء فينبتون كما تبت الحبة في حميل السيل و جاء في حديث أبي سعيد الخدري المتقدم ثم يقال : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء و المعنى واحد و النبات معروف و هو خروج الشيء : و الحبة بكسر الحاء بذور البقول و حميل السيل : ما احتمله من طين و غشاء فإذا اتفق أن يكون فيه حبة فإنها تبت في يوم و ليلة و هي أسرع نابتة نباتا فشبه النبي صلى الله عليه و سلم سرعة نبات أجسادهم بسرعة نبات تلك الحبة و في التنزيل : { ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة } و تقدم الكلام في نحو ذلك الاسم و قوله : و أطوهم مكننا من يمكث فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت و ذلك سبعة آلاف سنة اختلف في اقتضاء هذا العالم و في مدة الدنيا و أكثر المنجمون في ذلك فقال بعضهم : عمر الدنيا سبعة آلاف بعدد النجوم السيارة لكل واحد ألف سنة و قال بعضهم : بأنها إثنتا عشر ألف بعدد البروج لكل برج ألف سنة و قال بعضهم : ثلاثمائة و ستون ألف سنة بعدد درجات الفلك لكل درجة ألف سنة

و قوله : إلا رجلا واحدا يمكث فيها ألف سنة ثم ينادي : يا حنان يا منان الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه و المنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال سبحانه و تعالى لا إله إلا هو روي ذلك عن علي رضي الله عنه و قد ذكرنا في ذلك في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى و صفاته العليا مستوفى و الحمد لله و قد تقدم الكلام في نحو ذلك الاسم عنهم فلا معنى لإعادته

و قوله : و ينسأهم على عرشه أي يتركهم في العذاب كما قال { نسوا الله فنسيهم } أي تركوا عبادته و توحيدته فتركهم و العرش في كلام العرب له محامل كثيرة قد أتينا عليها في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى منها الملك كما قال زهير :

(تداركنما عبسا و قد ثل عرشها ... و ذبيان إذ زلت بأقدامها النعل)
و قال آخر :

(بعد ابن جفنة و ابن هاتاك عرش — ... و الحارثين يؤملون فلاحا)

و تقول العرب : ثل عرش فلان إذا ذهب عزه و سلطانه و ملكه فالمعنى و ينسأهم الرحمن على عرشه أي : بما هو عليه من الملك و السلطان و العظمة و الجلال لا يعبأ بهم و لا يلتفت إليهم لما حكم به في الأزل عليهم من خلودهم في النار و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط

و أجمع أهل السنة على أن أهل النار مخلدون فيها غير خارجين منها : كإبليس و فرعون و هامان و قارون و كل من كفر و تكبر و طغى فإن له جهنم لا يموت فيها و لا يحيى و قد وعدهم الله عذابا أليما فقال عز و جل { كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب } و أجمع أهل السنة أيضا على أنه لا يبقى فيها مؤمن و لا يخلد إلا كافر جاحد فاعلم

قلت : و قد زل هنا بعض من ينتمي إلى العلم و العلماء فقال : إنه يخرج النار كل كافر و مبطل و جاحد و يدخل الجنة فإنه جائز في العقل أن تنقطع صفة الغضب فيعكس عليه فيقال : و كذلك جائز في العقل أن تنقطع صفة الرحمة فيلزم عليه أن يدخل الأنبياء و الأولياء النار يعدلون فيها و هذا فاسد مردود بوعده الحق و قوله الصادق قال الله تعالى في حق أهل الجنان : { عطاء غير مجدوذ } أي : غير مقطوع و قال { و ما هم منها بمخرجين } و قال : { لهم أجر غير ممنون } و قال : { هم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا } و قال في حق الكافرين { و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط } و قال : { فاليوم لا يخرجون منها و لا هم يستعبون } و هذا واضح و بالجملة فلا مدخل للمعقول فيما اقتطع أصله الإجماع و الرسول { و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور }

باب منه — و ذكر الرجل الذي ينادي : يا حنان يا منان و بيان قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون

ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا الكلبي عن أبي صالح في قوله تعالى : { الله يستهزئ بهم } قال : يقال لأهل النار و هم في النار : أخرجوا ففتحت لهم أبواب النار فإذا انتهوا إلى أبوابهم أغلقت دوتهم فذلك قوله عز و جل { الله يستهزئ بهم } و يضحك منهم المؤمنون حين غلقت دوتهم فذلك قوله عز و جل { فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون }

قال ابن المبارك و أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قوله تعالى { فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون } قال : ذكر لنا أن كعبا كان يقول : إن الجنة و النار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له في الدنيا أطلع من بعض الكوى قال الله سبحانه و تعالى في آية أخرى { فاطلع فرآه في سواء الجحيم } قال : ذكر لنا أنه يطلع فيرى جماجم القوم تغلي

أخبرنا معمر عن قتادة قال : قال بعض العلماء : لولا أن الله عز و جل عرفه إياه ما عرفه لقد تغير حبره و سبره فعند ذلك يقول : { تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من الخضرين } في النار و الحبر و السبر : اللون و الهيئة من قولهم : جادت الإبل حسنة الأخبار و الأسبار قاله القراء و قال الأصمعي : هو البهاء و الجمال و أثر النعمة يقال فلان حسن الحبر و السبر إذا كان جميلا حسن الهيئة قال ابن أحمد :
(لبسنا حبرة حتى اقتضينا ... لآجال و أعمار قضينا)

و يقال أيضا : فلان حسن الحبر و السبر بالفتح و هذا كله مصدر قولك : حبرته تحبيرا و الأول اسم و تحبیر الخط

و الشعر و غيرها تحسينه و تزيينه

باب منه

روى أبو هدية إبراهيم بن هدية قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن المستهزئين بعباد الله في الدنيا تفتح لهم أبواب الجنة فإذا جاءوا أغلقت الباب و تفتح الثانية فيقال لهم : ادخلوا الجنة فإذا جاءوا أغلقت الباب و تفتح لهم الثالثة فيدعون فلا يجيبون قال فيقول لهم الرب أنتم المستهزئون بعبادي ؟ أنتم آخر الناس حسابا فيقومون حتى يغرقوا في عرقهم فينادون : يا ربنا إما صرفتنا إلى جهنم و إما إلى رضوانك]

باب منه

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [يؤمر يوم القيامة بأناس إلى الجنة حتى إذا دنوا منها و استنشقوا رائحتها و نظروا إلى قصورها و إلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن أصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون و الآخرون يمثلها فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما رأيتنا من ثوابك و ما أعددت فيها لأولياتك كان أهون علينا قال : ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بي بارزتموني بالعظام و إذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس و لم تمايوني و أجللتم الناس و لم تجلوني و تركتم للناس و لم تتركوا لي فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب] ذكره أبو حامد رحمه الله

باب ما جاء في ميراث أهل الجنة منازل أهل النار

جاء في الخبر [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكنا في الجنة و مسكنا في النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم و يرثون منازل الكفار و تجعل الكفار في منازلهم من النار] و خرجه ابن ماجه بمعناه [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل في الجنة و منزل في النار فإذا مات فدخل النار و رث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى { أولئك هم الوارثون }] إسناده صحيح

قلت : و هذا بين في أن لكل إنسان منزلا في الجنة و منزلا في النار كما تقدم و قد قال ها هنا : ما منكم فخطب أصحابه الكرام المنزهين عن الذنوب العظام الموجبة للنيران رضي الله عنهم و سيأتي لهذا مزيد بيان في أبواب الجنان إن شاء الله تعالى

باب ما جاء في خلود أهل الدارين و ذبح الموت على الصراط و من يذبحه

البخاري [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا صار أهل الجنة إلى الجنة و أهل النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة و النار ثم يذبح ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت و يا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم و يزداد أهل النار حزنا إلى حزهم]

مسلم [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار ليجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة و النار فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا ؟ فيشربون و ينظرون فيقولون : نعم ! هذا الموت قال ثم يقال : يا أهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيشربون و ينظرون فيقولون : نعم ! هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح قال ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار

خلود فلا موت فيها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { و أنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر و هم في غفلة و هم لا يؤمنون } و أشار بيده إلى الدنيا [

و أخرجه أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال : إذا كان يوم القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح فيوقف بين الجنة و النار فيذبح و هم ينظرون فلو أن أحدا مات فرحاً مات أهل الجنة و لو أن أحدا مات حزناً مات أهل النار قال : هذا حديث حسن صحيح

و ذكر ابن ماجه في حديث فيه طول [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة : فيطلعون خائفين أن يخرجوا من مكافهم الذي هم فيه ثم يقال يا أهل النار : فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكافهم الذي هم فيه فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ! هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون لا موت فيه أبداً [أخرجه الترمذي بمعناه مطولاً [عن أبي هريرة أيضاً و فيه : فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة و أهل النار النار أتى بالموت ملياً فيوقف على السور الذي بين الجنة و بين النار ثم يقال يا أهل الجنة : فيطلعون خائفين ثم يقال : يا أهل النار : فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة و أهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقول هؤلاء و هؤلاء : عرفناه هو الموت الذي وكل بنا فيضطجع فيذبح ذبحاً على السور ثم يقال يا أهل الجنة : خلود لا موت و يا أهل النار خلود لا موت] قال هذا حديث حسن صحيح

فصل : قلت : هذه الأحاديث مع صحتها نص في خلود أهل النار فيها لا إلى غاية و لا إلى أمد مقيمين على اللوام و السرمد من غير موت و لا حياة و لا راحة و لا نجاة بل كما قال في كتابه الكريم و أوضح فيه من عذاب الكافرين { و الذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفف عنهم من عذابها كذلك تجري كل كفور * و هم يصطرون فيها } إلى قوله { من نصير } و قال { كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها } و قال { فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم و الجلود * و لهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها } و قد تقدمت هذه المعاني كلها فمن قال : إنهم يخرجون منها و أن النار تبقى خالية و يجملتها حاوية على عروشها و أنها تفتى و تزول فهو خارج عن مقتضى العقول و مخالف لما جاء به الرسول و ما أجمع عليه أهل السنة و الأئمة العدول

{ و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى و وصله جهنم و ساءت مصيراً } و إنما نخلى جهنم و هي الطبقة العليا التي فيها العصاة من أهل التوحيد و هي التي ينبت على شفيرها فيما يقال الجرجير قال فضل بن صالح المعاقري : كما عند مالك بن أنس ذات يوم فقال لنا انصرفوا : فلما كان العشية رجعنا إليه فقال : إنما قلت لكم انصرفوا لأنه جاءني رجل يستأذن علي زعم أنه قدم من الشام في مسألة فقال : يا أبا عبد الله ما تقول في أكل الجرجير فإنه يتحدث عنه أنه ينبت على شفير جهنم ؟ فقلت له : لا بأس به فقال :

أستودعك الله و اقرأ عليك السلام ذكره الخطيب أبو بكر أحمد رحمه الله

و ذكر أبو بكر البزار عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : يأتي على النار زمان تنفق الرياح أبواها ليس فيها أحد يعني من الموحدين هكذا رواه موقوفاً من قول عبد الله بن عمرو و ليس فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم و مثله لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع

فصل : قد تقدم أن الموت معنى و الكلام في ذلك و في الأعمال و إنما لا تنقلب جوهرها بل يخلق الله أشخاصاً من ثواب الأعمال و كذلك الموت يخلق الله كبشاً يسميه الموت و يلقي في قلوب الفريقين أن هذا هو الموت و يكون

ذبحه دليلاً على الخلود في الدارين

قال الترمذي : و المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة رضي الله عنهم مثل سفيان الثوري و مالك بن أنس و ابن المبارك و ابن عيينة و وكيع و غيرهم أنهم رَووا هذه الأشياء و قالوا : و نروي هذه الأحاديث و لا يقال : كيف ؟ و هذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء و يؤمن بها و لا تفسر و لا تتوهم ؟ و لا يقال : كيف و هذا أمر أهل العلم الذي اختاروه و ذهبوا إليه قال المؤلف رحمه الله : و إنما يؤتى بالموت كالكبش و الله أعلم لما جاء أن ملك الموت أتى آدم عليه السلام في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح على ما تقدم أول الكتاب في باب : [ما جاء في صفة ذلك الموت عند قبض روح المؤمن و الكافر]

و في التفسير من سورة الملك عن ابن عباس و مقاتل و الكلبي في قوله { الذي خلق الموت و الحياة } أن الموت و الحياة جسمان فجعل الموت في هيئة كبش لا يمر بشيء و لا يجد ريحه إلا مات و خلق الحياة على صورة فرس أثنى بلقاء و هي التي كان جبريل و الأنبياء عليهم السلام يركبونها خطوط مد البصر فوق الحمار و دون البغل لا تمر بشيء يجد ريحها إلا حيي و لا تطأ على شيء إلا حيي و هي التي أخذ السلمري من أثرها فألقاه على العجل فحيي حكاة التعلبي و القشيري عن ابن عباس و الماوردي عن مقاتل و الكلبي و معنى يشربون : يرفعون رؤوسهم و الأملح : من الكباش الذي يكون فيه بياض و سواد و البياض أكثر قاله الكسائي و قال ابن الأعرابي : و هو النقي البياض

و ذكر صاحب خلع النعلين : أن هذا الكبش المذبح بين الجنة و النار أن الذي يتولى ذبحه يحيى بن زكريا عليهما السلام بين يدي النبي صلى الله عليه و سلم و بأمره الأكرم و ذكر في ذبحه كلاماً مناسباً لحياة أهل الجنة و حياة أهل النار و ذكر صاحب كتاب العروس : أن الذي يذبحه جبريل عليه السلام فالله أعلم تم كتاب النار بحمد الله العزيز الغفار أجازنا الله منها بمنه بفضله و كرمه و لا رب غيره

بسم الله الرحمن الرحيم — أبواب الجنة و ما جاء فيها و في صفتها و نعيمها

وصف الله تعالى الجنات في كتابه و صفا يقوم العيان في غير ماسورة من القرآن و أكثر ذلك في سورة الواقعة و الرحمن و هل أتاك حديث الغاشية و سورة الإنسان و ذلك أيضاً نبينا محمد صلى الله عليه و سلم بأوضح بيان فنذكر من ذلك ما بلغنا في الأخبار الصحاح و الحسان و عن السلف الصالح أهل الفضل و الإحسان رضي الله عنهم و حشرنا معهم آمين

ذكر ابن وهب قال : [و حدثنا ابن زيد قال : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم ليقراً { هل أتى على الإنسان حين من الدهر } و قد أنزلت عليه عنده رجل أسود قد كان يسأل النبي صلى الله عليه و سلم فقال له عمر بن الخطاب : حسبك لا تقبل على النبي صلى الله عليه و سلم قال : دعه يا ابن الخطاب قال : فنزلت عليه هذه السورة و هو عنده فلما قرأها عليه و بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أخرج نفس صاحبكم أو أخيكم الشوق إلى الجنة]

باب صفة أهل الجنة في الدنيا

قال ابن وهب سمعت ابن زيد يقول : وصف الله أهل الجنة بالمخافة و الحزن و البكاء و الشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم و السرور في الآخرة و قرأ قول الله عز و جل { إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين } قال : و وصف أهل النار بالسرور في الدنيا و الضحك فيها و الفكاهة فقال : { إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بلى } و قد تقدم من صفة أهلها ما فيه كفاية و الحمد لله وحده

باب منه — و هل تفضل جنة جنة ؟

قال الله تعالى { و لمن خاف مقام ربه جنتان } ثم وصفهما ثم قال بعد ذلك { و من دونهما جنتان } و عن ابن عباس في تأويل قوله تعالى { و لمن خاف مقام ربه جنتان } أي بعد أداء الفرائض جنتان قيل : على حدة فلكل خائف جنتان و قيل : جنتان لجميع الخائفين و الأول أظهر قال الترمذي محمد بن علي : جنة لخوفه من ربه و جنة لتركه لشهوته و المقام الوضع أي : خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية و قيل : خاف قيام ربه عليه أي : إشرافه و اطلاعه عليه بيانه : { أؤمن هو قائم على كل نفس بما كسبت } و قال مجاهد و النخعي : هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه

و روي [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : الجنتان بستنان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور على نور و ليس منها شيء إلا يهتز نعمة و خضرة قرارها ثابت و شجرها نابت] ذكره الهروي و الثعلبي أيضا من حديث أبي هريرة و قيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور و الأخرى أعاليها و قال مقاتل : هما جنة عدن و جنة النعيم

و قوله { و من دونهما جنتان } قال ابن عباس : أي و له من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان قال ابن عباس : و من دونهما أي في الدرج و الجنات لمن خاف مقام ربه فيكون في الأوليين النخل و الشجر و في الأخريين : الزرع و النبات و ما انبسط

قال الماوردي : و يحتمل أن يكون { و من دونهما جنتان } لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته إحداهما للحوار العين و الأخرى للولدان للخلدين ليطمئن فيها الذكور من الإناث

و قال ابن جريج هي أربع جنات : جنتان منها للسابقين المقربين فيهما من كل فاكهة زوجان و عينان تجريان و جنتان لأصحاب اليمين فيهما فاكهة و نخل و رمان و فيهما عينان تضاحتان و قال ابن زيد : الأوليان من ذهب للمقربين و الأخريان من ورق لأصحاب اليمين

قال المؤلف رحمه الله : و إلى هذا ذهب الحلبي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب منهاج الدين له و اصح لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس { و لمن خاف مقام ربه جنتان } إلى قوله { مدهامتان } قال : هاتان للمقربين و هاتان لأصحاب اليمين و عن أبي موسى الأشعري نحو ذلك

و لما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما : فقال في الأوليين { فيهما عينان تجريان } و في الأخريين { فيهما عينان تضاحتان } أي فوارتان بالماء لكنهما ليستا كالجريتين لأن النضخ دون الجري و قال { فيهما من كل فاكهة زوجان } معروف و غريب أو رطب و يابس فعم و لم يخص و في الأخريين { فيهما فاكهة و نخل و رمان } و لم يقل من كل فاكهة و قال في الأوليين { متكئين على فرش بطائنها من إستبرق } و هو الديباج و في الأخريين { متكئين على رفرف خضر و عبقرى حسان }

و العبقرى : الوشي و لا شك أن الديباج أعلى من الوشي و الرفرف كسر الحباء و لا شك أن الفرش المعدة

للاتكاء عليها أفضل من فضل الحباء و قال في الأوليم في صفة الحور العيم { كأنهن الياقوت و المرجان } و في الآخرين { فيهن خيرات حسان } و ليس كل حسن كحسن الياقوت و المرجان و قال في الأوليين { ذواتا أفنان } و في الآخرين { مدهامتان } أي خسروان كأنهما من شدة خسرتهما سوداوان و وصف الأوليين بكثرة الأغصان و الآخرين بالخضرة و حلها و في هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدناه قوله { و من دونهما جنتان } و لعل ما لم يذكره من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر

فإن قيل كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قال : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى و الجنتان الأخريان لمن قصر حاله في الخوف من الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله : فهذا قول و القول الثاني أن الجنتين في قوله تعالى : { و من دونهما جنتان } أعلى و أفضل من الأوليين ذهب إلى هذا الضحاك و أن الجنتين الأوليين من ذهب و فضة و الآخرين من ياقون و زمرد و قوله : { و من دونهما جنتان } أي و من أمامهما و من قبلهما و إلى هذا القول ذهب أبو عبد الله محمد الترمذي الحكيم في : نوادر الأصول و قال : و معنى { و من دونهما جنتان } أي دون هاتين إلى العرش أي أقرب و أدنى إلى العرض و قال مقاتل الجنتان الأوليان : جنة عدن و جنة النعيم و الأخريان جنة الفردوس و جنة المأوى قال المؤلف رحمه الله : و يدل على هذا قوله عليه الصلاة و السلام : [إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس] الحديث و سيأتي قال الترمذي : و قوله { فيهما عينان نضاختان } أي بألوان الفواكه و النعيم و الجوارى المزيينات و الدواب المسرجات و الثياب الملونات و هذا يدل على أن النضخ أكثر من الجري قال المؤلف رحمه الله : على هذا تدل أقوال المفسرين : روي عن ابن عباس نضاختان : أي فوارتان بالماء و النضخ بالخاء أكثر من النضخ بالحاء و عنه أيضا أن المعنى نضاختان بالخير و البركة قاله الحسن و مجاهد و عن ابن عباس أيضا و ابن مسعود : تنضخ على أولياء بالمسك و الكافور و العنبر في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر و قال سعيد بن جبير : بأنواع الفواكه و الماء

و قوله : فيهما { فاكهة و نخل و رمان } قال بعض العلماء : ليس الرمان و النخل من الفاكهة لأن الشيء لا يعطف على نفسه و هذا ظاهر الكلام و قال الجمهور : هما من الفواكه و إنما أعاد ذكر النخل و الرمان لفضلهما على الفواكه كقوله تعالى { حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى } و قوله { من كان عدوا لله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال } و قيل إنما كررهما لأن النخل و الرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا لأن النخل عامة قوتهم و الرمان كالثمرات فكان يكثر غرسها عندهم لحاجتهم إليها و كانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها و إنما ذكر الفواكه ثم ذكر النخل و الرمان لعمومها و كثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما و الأهما من بلاد اليمن فأخرجهما في الذكر من الفواكه و أفرد الفواكه على حدتها

و قوله : { فيهن خيرات حسان } يعني النساء و الواحدة خيرة قاله الترمذي : الخيرة ما اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره و اختياره الله لا يشبه اختيار الآدميين ثم قال حسان فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الشيء شيئا بالحسن فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن؟ فانظر ما هنالك و في الأوليين ذكر بأنهن قاصرات الطرف و كأنهن الياقوت و المرجان فانظروكم بين الخيرة و هي مختارة الله و بين قاصرات الطرف؟ ثم قال { حور مقصورات في الخيام } و قال في الأوليين : { فيهن قاصرات الطرف } قصران طرفهن على الأزواج و لم يذكر أنهن مقصورات : فدل على أن المقصورات أعلى و أفضل

وقد بلغنا في الرواية : أن سحابة مطرت من العرش فخلقن من قطرات الرحمة ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا و ليس لها باب حتى إذا حل ولى الله بالخيمة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولى الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة و الخدم لم تأخذها و هي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين و الله أعلم

ثم قال : { متكتين على رفر ف خضر } اختلف في الرفرف ما هو ؟ فقيل : كسر الحباء و جوانب الدرع و ما تدلى منها الواحدة رفرفة و قيل : الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفر ف به و أهوى به كالمراجاج يمينا و شمالا و رفعا و خفضا يتلذذ به مع أنيسته و اشتقاقه على هذا من رف يرف إذا ارتفع و منه رفة الطائر لتجريكه جناحيه في الهواء و ربما سمي الظليم رفرفا بذلك لأنه يرف بجناحيه ثم يعدو و رفر ف الطائر أيضا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه

قال الترمذي الحكيم : فالرفرف أعظم خطرا من العرش و ذكر في الأولين : { متكتين على فرش بطائنها من إستبرق } و قال هنا { متكتين على رفر ف خضر } فالرفرف هو مستقر الولي على شيء إذا استوى عليه الولي رفر ف به أي طار هكذا و هكذا حيث ما يريد كالمراجاج

و روي لنا [حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل و طار به إلى سند العرش فذكر أنه طار بي و يخفضني و يرفعي حتى وقف بي على ربي ثم لما حان الأنصراف تناوله فطار به خفضا و رفعا يهوي به حتى أدله إلى جبريل صلوات الله عليهما] و جبريل يبكي و يرفع صوته بالشميد و الرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو و القرية كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء صلوات الله عليهم مخصوصة بذلك في أرضه فهذا الرفرف الذي سخره الله لأجل الجنيتين الدانيتين هو متكأهما و فرشهما يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار و شطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان

ثم قال : { و عبقرى حسان } و العبقرى : ثياب منقوشة تبسط فإذا قال خالق النقوش : إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر و العبقرى : قرية من ناحية اليمن فيما بلغنا ينسج فيها بسط منقوشة فذكر الله ما خلق في تلك الجنيتين من البسط المنقوشة الحسان و الرفرف الخضر إنما ذكر لهم من الجنان ما يعرفون أسماءها هنا فبان تفاوت هاتين الجنيتين

و قد روي عن بعض السلف : فإذا هو يشير إلى أن هاتين الجنيتين من دونهما أي أسفل منهما وادون : فكيف يكون مع هذه الصفة أدون فحسبته لم يفهم الصفة ذكره في الأصل التاسع و الثمانين من كتاب : نوادر الأصول فصل : لما قال الله تعالى سبحانه و تعالى { و لمن خاف مقام ربه جنتان } ثم قال : { و من دونهما جنتان } دل على أن الجنان أربع لا سبع على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

باب صفة الجنة و نعيمها و ما أعد الله لأهلها فيها

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول الله تعالى عز و جل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ذخرأ بله ما أطلعتكم عليه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين }] بله : بمعنى : غير و قيل : اسم من أسماء الأفعال بمعنى دع

ابن ماجه [عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ذات يوم لأصحابه : ألا مشمر للجنة ؟ بأن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ و ريحانة تفتت و قصر مشيد و نهر مطرد و فاكهة كثيرة نضيجة و زوجة حسناء جميلة و حلال كثيرة في مقام أبد في جده و نضرة في دار عالية سليمة بمية قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله قال : قولوا إن شاء الله ثم ذكر الجهاد و حض عليه]

الترمذي [عن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء قلت : الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبننة من فضة و لبننة من ذهب بلاطها للمسك الأذفر و حصباؤها اللؤلؤ و الياقوت و تربتها الزعفران من دخلها ينعم لا يبأس و يخلد لا يموت لا تبلى ثيابهم و لا يفنى شباههم] ذكر الحديث قال ليس إسناده ذلك بالقوي و ليس هو عندي بمنصل و قد روي هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال المؤلف رحمه الله : خرج أبو داود الطيالسي في سنده قال : [حدثنا إبراهيم بن معاوية عن سعيد الطائي قال : حدثني أبو اللدله مولى أم المؤمنين أنه سمع أبا هريرة يقول : قلنا يا رسول الله لماذا كنا عندك رقت قلوبنا و كنا من أهل الآخرة فإذا فارقتناك و شممنا النساء و الأولاد أعجبتنا الدنيا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو أنكم تكونون إذ فارقتموني كما تكونون عندي لصافحككم الملائكة بأكتفها و لزارتكم في بيوتكم و لو كنتم لا تذبون لجأؤ الله بقرم يذبون كي يستغفروا فيغفر لهم قلنا : يا رسول الله أخبرنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبننة من ذهب و لبننة من فضة و بلاطها المسك الأذفر و حصباؤها الدر و الياقوت و ترابها الزعفران من يدخلها يبقى لا يبأس و يخلد لا يموت و لا تبلى ثيابه و لا يفنى شبابه]

مسلم [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لابن صياد : ما تربة الجنة ؟ قال :

درمكة بيضاء مسك يا أبا القاسم قال : صدقت]

و عنه أن [ابن صياد سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن تربة الجنة فقال : ما درمكة بيضاء مسك خالص] ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن قتادة عن العلاء بن يزيد عن أبي هريرة قال : حائط الجنة لبننة من فضة و لبننة من ذهب و درجها اللؤلؤ و الياقوت قال : و كنا نحدث أن رضاختها اللؤلؤ و ترابها الزعفران قلت : كل هذا مرفوع حسب ما تقدم في هذا الباب و يأتي

باب ما جاء في أنهار الجنة و جبالها و ما جاء في الدنيا منها

قال الله تعالى : { مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغير طعمه و أنهار من خمر لذة للشاربين و أنهار من عسل مصفى } و روي أنها تجري في غير أهدود منضبطة بالقدرة و يروي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أنهار في الجنة تخرج من تحت تلال أو جبال مسك] ذكره العقيلي

و ذكر إسماعيل بن إسحاق قال : [حدثنا إسماعيل بن أبي إدريس قال : حدثني كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله أربعة جبال من جبال الجنة و أربعة أنهار من أنهار الجنة و أربعة ملاحم من ملاحم الجنة قيل فمن الأجل ؟ قال : جبل أحد يجنا و نجبه و الطور : جبل من جبال الجنة و لبنان : جبل من جبال الجنة و الجودي : جبل من جبال الجنة و الأنهار : النيل و الفرات و سيحان و جيحان و للملاحم : بدر و أحد و الخندق و خيبر]

و بالسند المذكور قال : [غزونا مع النبي صلى الله عليه و سلم أول غزوة غزاها الأبناء حتى إذا كنا بالروحاء نزل

بعرق الظبية فصلى بهم ثم قال : هل تدرون ما اسم هذا الجبل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هذا خصيب جبل من جبال الجنة اللهم فبارك فيه وبارك لأهله و قال : للروحاء : هذه سجاسج واد من أودية الجنة لقد صلى في هذا المسجد قبلي سبعون نبيا و لقد مر بها موسى عليه السلام عليه عباءتان قطونيتان على ناقة ورد في سبعين ألفا من بني إسرائيل حتى جاء البيت العتيق [الحديث و سيأتي تمامه إن شاء الله تعالى

الترمذي] عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن في الجنة بحر الماء و بحر اللين و بحر العسل و بحر الخمر ثم تشق الأنهار بعد ذلك [قال : أبو عيسى : هذا حديث صحيح و حكيم بن معاوية هو والد بهز بن حكيم

مسلم] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : سيحان و جيحان و النيل و الفرات كل من أنهار الجنة و قال كعب : نهر دجلة نهر بالجنة و نهر الفرات نهر لبهم و نهر مصر نهر خمرهم و نهر سيحان نهر عسلهم و هذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر [و ذكر البخاري من طريق شريك] عن أنس في حديث الإسراء فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان يا جبريل ؟ قال : النيل و الفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ و الزبرجد فضرب يده فإذا هو مسك أذفر قال : ما هذا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك [

باب منه و ما جاء في رفع هذه الأنهار آخر الزمان عند خروج يأجوج و مأجوج

و رفع القرآن و العلم

ذكر أبو جعفر النحاس قري على أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس [عن جامع بن سوادة قال حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أنزل الله عز و جل إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون و هو نهر الهند و جيحون و هو نهر بلخ و دجلة و الفرات و هما نهر العراق و النيل و هو نهر مصر أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال و أجزاها في الأرض و جعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم و ذلك قوله جل ثناؤه : { و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض } فإذا كان عند خروج يأجوج و مأجوج أرسل الله جبريل رفع من الأرض القرآن و العلم و جميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : { و إنا على ذهاب به لقادرون } فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا و الدين [

قلت : رفع القرآن عند خروج يأجوج و مأجوج فيه نظر و سيأتي بيانه آخر الكتاب إن شاء الله تعالى و روي عن المسعودي أنه قال : مد الفرات على عهد ابن مسعود فكره الناس مده فقال ابن مسعود : لا تكرهوا مده فإنه سيأتي زمان يلتبس فيه طست مملوء من ماء فلا يوجد و ذلك حين يرجع كل ماء إلى عنصره فيكون بقية الماء و العيون بالشام و سيأتي بيان هذا إن شاء الله تعالى

باب من أين تنبعر أنهار الجنة ؟

البخاري] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من آمن بالله و رسوله و أقام الصلاة و صام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها قالوا يا رسول الله :

أفلا نبشر الناس؟ قال إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة [

خرجه ابن ماجه أيضا وغيره

وقال أبو حاتم البستي : معنى قوله : فإنه أوسط الجنة يريد في الارتفاع وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها

وقد قيل : إن الفردوس اسم يشمل جميع الجنة كما أن جهنم اسم لجميع النيران كلها لأن الله تعالى مدح في أول سورة المؤمنين أقواما وصفهم ثم قال : { هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون } ثم أعاد ذكرهم في سورة المعارج فقال : { أولئك في جنات مكرمون } فعلمنا أن الفردوس جنات لا جنة واحدة قاله وهب بن منبه

باب ما جاء أن الخمر شراب أهل الجنة و من شربه في الدنيا لم يشربه في

الآخرة و في لباس أهل الجنة و آنيتهم

النسائي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة و من شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة و من شرب في آنية الذهب و الفضة لم يشرب بها في الآخرة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لباس أهل الجنة و شراب أهل الجنة و آنية أهل الجنة] قلت : إن قال قائل : قد سوى النبي صلى الله عليه وسلم بين الأشياء الثلاثة و أنه يحرمها في الآخرة فهل يحرمها إذا دخل الجنة؟ قلنا : نعم ! إذا لم يتب منها لقوله عليه الصلاة و السلام : [من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة] خرجه مالك [عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم و كذلك لا يلبس الحرير و من أكل في آنية الذهب و الفضة أو شرب فيها لاستعجاله ما أخر الله له في الآخرة و ارتكاب ما حرم الله عليه في الدنيا]

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال : [حدثنا هشام عن قتادة عن داود السراج عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة و إن دخل الجنة لبسه أهل الجنة و لم يلبسه هو] و هذا نص صريح و إسناد صحيح فإن كان و إن دخل الجنة لبسه أهل الجنة و لم يلبسه من قوله النبي صلى الله عليه وسلم فهو الغاية في البيان و إن كان من قول الراوي على ما ذكر أنه موقوف فهو أعلم بالمقال و أقعد بالحال و مثله لا يقال من جهة الرأي و سيأتي لهذا الباب مزيد بيان

باب ما جاء في أشجار الجنة و في ثمارها و ما يشبه ثمر الجنة في الدنيا

الترمذي [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز و جل أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر اقرأوا إن شئتم { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين } و في الجنة سجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها و اقرأوا إن شئتم { و ظل ممدود } و موضع سوط في الجنة خير من الدنيا و ما فيها و اقرأوا إن شئتم { فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور }] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

ابن المبارك [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو قال مائة سنة وهي شجرة الخلد] قال : وأخبرنا ابن أبي خلدة عن زياد مولى بني مخزوم سمع أبا هريرة يقول : في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة و أقرأوا إن شئتم { و ظل ممدود } فبلغ ذلك كعبا فقال : صدق و الذي أنزل العذرة على لسان موسى بن عمران و الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم لو أن رجلا ركب حقة أو جذعة ثم دار في أصل تلك الشجرة و ما يبلغها حتى يسقط هرما إن الله تعالى غرسها بيده و نفخ فيها من روحه و إن أفئتها لمن وراء سور الجنة و ما في الجنة نمر إلا و يخرج من أصل تلك الشجرة

الترمذي [عن أسماء بنت أبي بكر قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — و ذكر لها سدرة المنتهى — قال : يسير الراكب في ظل الفن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيى — فيها فراش الذهب — كأن ثمرها القلال] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

و ذكر عبد الرزاق قال : [أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما رفعت لي سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقتها مثل قلال هجر و ورقها مثل آذان القبيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران و نهران باطنان قلت : يا جبريل ما هذه ؟ قال : أما الباطنان ففي الجنة و أما الظاهران فالليل و الفرات] قلت : كله لفظ مسلم إلا قوله : نبقتها مثل قلال هجر أخرجه الدارقطني في سننه قال : حدثنا أبو بكر النيسابوري حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا عبد الرزاق فذكره

و خرج البخاري أيضا [من حديث قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحديث حديث الإسراء و فيه : و رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقتها كأنه قلال هجر و ورقها كأنه آذان القبيلة و في أصلها أربعة أثمار : نهران ظاهران و نهران باطنان] و ذكر الحديث و في حديث ابن مسعود سدرة المنتهى : صبر الجنة قال أبو عبيدة : صبرها أعلاها و كذلك صبر كل شيء أعلاه و الجمع : أصبار

قال النمر بن توبل يصف روضة :

(غرست و باكرها الربيع نديمة ... و طفاء تملؤها إلى أصبارها)

يعني إلى أعاليها و هي جماعة للصبر و قال الأحمر : الصبر جانب الشيء لغتان : صبر و بصر كما قالوا : جبد و جذب و قال أبو عبيد : — و قول أبي عبيدة أعجب — إلى أن يكون في أعلاها من أن يكون في جانبها ابن المبارك قال : [حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لتنفعا الأعراب و مسائلهم قال : أقبل أعرابي يوما فقال يا رسول الله : لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : و ما هي ؟ قال : السدر فإن له شوكا مؤذيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ليس يقول الله تعالى { في سدر مخضود } خضد شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا تفتق الثمر منها على إثنين و سبعين لونا و طعام ما فيه لون يشبه الآخر و يروى التمر بالتاء باثنين فيها كلها] قاله أبو محمد عبد الحق

و ذكر عبد الرزاق [أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن يزيد البكالي عن عتبة بن عبد السلمي قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة و ذكر له الحوض فقال فيها فاكهة ؟ قال : نعم فيها شجرة تدعى طوبى قال يا رسول الله أي شجر أرضنا يشبهه ؟ قال : لا يشبهه شيء من شجر أرضك أتيت الشام ؟ هنالك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق و يفرش أعلاها قال يا رسول الله فما أعظم أصلها ؟ قال لو ارتحلت

جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر قوتها هرما قال فهل فيها عنب؟ قال : نعم ! قال : فما عظم العنقود منها؟ قال : مسيرة الغراب شهرا لا يقع ولا يفتر قال : فما عظم الحبة منها؟ قال : أما أعمد أبواك و أهلك إلى جذعة فذبحوها و سلخ إهابها؟ فقال : افروا لنا منها دلوا فقال يا رسول الله : إن تلك الحبة لتشبعني و أهل بيتي؟ قال : نعم و عامة عشيرتك [ذكره أبو عمر في التمهيد بإسناده و هو إسناد صحيح و ذكر مسلم] من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت في مقامك شيئا ثم رأيناك تكعكت؟ فقال : إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا و لو أخذته لأكلتم منها ما بقيت في الدنيا [تكعكت معناه تأخرت يقال منه : كع يكع كعوعا تأخر و الكع : الضعيف العاجر قال الشاعر :
(و لكني أمضي على ذاك مقدا ... إذا بعض من لا قى الخطوب تكعكعا)
و ذكر ابن المبارك : حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها و ثمرها كأمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى و إن ماءها ليجري في غير أخدود و العنقود اثنا عشر ذراعا ثم أتى على الشيخ فقال : من حدثك بهذا؟ قال : مسروق
و ذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال : طوبى شجرة في الجنة ! ليس منها دار إلا فيها غصن منها و لا طير حسن إلا و هو فيها و لا ثمرة إلا و هي فيها
و ذكر الخطيب أبو بكر أحمد عن إبراهيم بن نوح قال : سمعت مالك بن أنس يقول : ليس في الدنيا من ثمارها شيء يشبه ثمار الجنة إلا الموز لأن الله تعالى يقول : { أكلها دائم و ظلها } و إننا نجد الموز في الشتاء و الصيف و ذكر الثعلبي بإسناده من حديث الأوزاعي [عن يحيى بن أبي كثير قال : حدثني الثقة عن أبي ذر قال : أهدى للنبي صلى الله عليه و سلم طبق من تين فأكل منه و قال لأصحابه : كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من السماء قلت : هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير و تنفع من النقرس] ذكره القشيري أبو نصر و هذا أتم قلت : و رأيت بخط الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف الكوفي أبي شيخنا أبي القاسم عبد الله و حدث حديثا عليه سماع جماعة على أبي الفرج محمد بن أبي حاتم محمود بن أبي الحسن القزويني في ربيع الأول سنة ثمان و تسعين و أربعمائة قال : [حدثنا أبو جعفر محمد بن زيد الجعفري في شوال سنة ثمان و ثلاثين و أربعمائة قال : حدثنا أبي قال : حدثنا يحيى بن الحسين الحسيني قال : حدثنا عقيل بن سمرة حدثنا علي ابن حماد الغازي حدثنا عباس ابن أحمد قال : حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا علي فكهوا بالبطيخ و عظموه فإن ماءه من الجنة و حلاوته من حلاوة الجنة و ما من عبد أكل منها لقمة إلا أدخل الله جوفه سبعين دواء و أخرج منه سبعين داء و كتب الله له بكل لقمة عشر حسنات و محاه عنه عشر سيئات و رفع له عشر درجات ثم تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم { و أنبتنا عليه شجرة من يقطين } قال : الدباء و البطيخ من الجنة

باب في كسوة الجنة و كسوة أهلها

قال الله تعالى { و يلبسون ثيابا خضرا من سندس و إستبرق } و قال { و لباسهم فيها حرير }
و ذكر ابن هناد السري قال : [حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن البراء ابن عازب قال : أهدى لرسول الله سرقة من حرير فجعلوا يتداولونها بينهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أتعجبون منها؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : والدي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها] قال هناد بن السري : [و حدثنا قبيصة عن

حماد بن سلمة عن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ أن عطارد بن حاجب أهدى لرسول الله صلى الله عليه و سلم ثوبا من ديباج كساه إياه كسرى فاجتمع إليه الناس فجعلوا يلمسونه و يعجبون و يقولون يا رسول الله : أنزل عليك هذا من السماء؟ فقال : ما تعجبون ! فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا يا غلام إذهب بهذا إلى أبي جهم و جتنا بأبجانيته [

باب ما جاء أن شجر الجنة و ثمارها تفتق عن ثياب الجنة و خيلها و نجبها

ابن المبارك أخبرنا معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : في الجنة شجرة يقال لها طوي يقول الله تعالى : تفتقي لعبدي ما شاء فتفتق له عن فرس بسرجه و لحامه و هيأته كما يشاء و تفتق له عن الراحلة برحلها و زمامها و هيأتها كما يشاء عن النجائب و الثياب النسائي [عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقا تخلق أو نسجا تنسج؟ فضحك بعض القوم فقال : مم تضحكون؟ إن جاهلا يسأل عالما فيجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أين السائل عن ثياب الجنة؟ فقالوا : ها هو ذا يا رسول الله قال : لا بل تفتق عنها ثمر الجنة قالها ثلاثا] و الله أعلم

باب ليس في الجنة شجرة إلا و ساقها من ذهب

الترمذي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما في الجنة شجرة إلا و ساقها من ذهب] قال حديث حسن غريب و سيأتي لهذا مزيد بيان آنفا في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى

باب ما جاء في نخيل الجنة و ثمرها و خيرها

ابن المبارك قال أخبرنا سفيان عن حماد بن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر و كرمها ذهب أحمر و سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم و حللهم و ثمرها أمثال القلال و الدلاء أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل و ألين من الزبد ليس فيها عجم ابن وهب قال : [و حدثنا ابن زيد قال : قال رجل يا رسول الله هل في الجنة من نخل فإني أحب النخل؟ قال : أي و الذي نفسي بيده لها جنوع من ذهب و كرانيف من ذهب و جريد من ذهب و سعف كأحسن حلال يراها امرؤ من العالمين و عراجين من ذهب و شماريخ و كرانيف من ذهب و أقماع من ذهب و ثمارها كالقلال و ألين من الزبد و أحلى حلاوة من العسل]

و ذكر أبو الفرج بن الجوزي [عن جرير بن عبد الله البجلي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه أخذ عودا بيده فقال : يا جرير لو طلبت في الجنة مثل هذا العود لم تجده قال فقلت فأين النخل و الشجر؟ قال : أصولها اللؤلؤ و الذهب و أعلاها النمر]

باب في الزرع في الجنة

البخاري [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يوماً يحدث و عنده رجل من أهل البادية أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له : أو لست فيما شئت قال : بلى ! و لكني أحب أن أزرع فأسرع و بذر فبادر الطرف نباته و استوائه و استحصاده و تكويره أمثال الجبال فيقول الله : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشيعك شيء فقال الأعرابي يا رسول الله : لا تجد هذا إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زرع فأما نحن فلنسا بأصحاب زرع فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم]

باب ما جاء في أبواب الجنة و كم هي ؟ و لمن هي ؟ و في تسميتها و سعتها

قال الله تعالى : { حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها } قال جماعة من أهل العلم : هذه و أو الثمانية للجنة ثمانية أبواب و استدلوها بقوله عليه الصلاة و السلام : [ما منكم من أحد يؤضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً عبده و رسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء] رواه عمر بن الخطاب خروجه مسلم

و جاء في تعيين هذه الأبواب لبعض العلماء كما جاء في حديث الموطأ و صحيح البخاري و مسلم [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة و من كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد و من كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة و من كان من أهل الصيام دعي من باب الريان فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على أحد يدعي من هذه الأبواب من ضرورة فهل يدعي أحد من هذه الأبواب ؟ قال : نعم ! و أرجو أن تكون منهم] قال القاضي عياض : ذكر مسلم في هذا الحديث من أبواب الجنة أربعة و زاد غيره بقية الثمانية فذكر منها : باب التوبة و باب الكاظمين الغيظ و باب الراضين و الباب الأيمن الذي يدخل منه من لا حساب عليه قلت : فذكر الترمذي الحكيم أبو عبد الله أبواب الجنة في نوادر الأصول فذكر باب محمد صلى الله عليه وسلم و هو باب الرحمة و هو باب التوبة فهو منذ خلقه الله مفتوح لا يغلق فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق فلم يفتح إلى يوم القيامة و سائر الأبواب مقسومة على أعمال البر فباب منها للصلاة و باب للصوم و باب للزكاة و الصدقة و باب للحج و باب للجهاد و باب للصلاة و باب للعمرة و باب للعمرة و باب للصلاة فعلى هذا أبواب الجنة أحد عشر باباً

و قد ذكر الآجري أبو الحسن [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة باباً يقال له باب الضحى فإذا كان يوم القيامة ينادي مناد أين الذين كانوا يداومون على صلاة الضحى ؟ هذا بابكم فادخلوه] ذكره في كتاب النصيحة و لا يبعد أن يكون لنا ثالث عشر على ما ذكره أبو عيسى الترمذي [عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : باب أمي الذين يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المجد ثلاثاً ثم إنهم ليضغظون بعليه حتى تكاد مناكبهم تزول] قال الترمذي : سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه قال لخالد بن أبي بكر مناكير عن سالم بن عبد الله قلت : فقوله باب أمي يدل على أنه لسائر أمته فمن لم يغلب عليه عمل يدعي به و على هذا يكون ثالث عشر و لهذا يدخلون مزدحمين و قد تقدم أن أكثر أهل الجنة البله فالله أعلم

و مما يدل على أنها أكثر من ثمانية [حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من توضأ فأصبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله و وحده لا شريك له و أشهد أن محمداً عبده و رسوله

صادقا من نفسه أو قلبه شك أيهما قال فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة يدخل من أيها شاء [خروجه الترمذي وغيره قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد هكذا قال فتح له من أبواب الجنة و ذكر أبو داود و النسائي و ابن سنجر فتحت له أبواب الجنة الثمانية ليس فيها ذكر من فعلى هذا أبواب الجنة ثمانية كما قالوا

قلت : قد ذكرنا أنها أكثر من ثمانية و بالله توفيقنا و أما كون الواو في و فتحت أبوابها واو الثمانية و أن أبواب الجنة كذلك ثمانية أبواب فقد جاء ما يدل على أنها ليست كذلك في قوله تعالى { هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر } فخلو المتكبر و هو ثامن اسم من الواو يدل على بطلان ذلك القول و تضعيفه و قد بيناه في سورة براءة و الكهف من كتاب جامع أحكام القرآن و الحمد لله و قد خرج مسلم عن خالد بن عمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان و كان أميراً على البصرة فحمد الله و أثنى عليه و ذكر الحديث على ما تقدم و فيه : و لقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة و ليأتين عليه يوم و هو كطيظ من الزحام الحديث

و خرج [عن أنس في حديث الشفاعة و الذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة و هجر أو كما بين مكة و بصرى] و خرج [عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ليدخلن الجنة من أمي سبعون ألفاً و أو سبعمائة ألف لا يدري أبو حازم أيهما قال متماسكون آخذ بعضهم بعضاً لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم و وجوههم على صورة القمر ليلة البدر] فهذه الأحاديث مع صحتها تدل على أنها أكثر من الثمانية إذ هي غير ما تقدم فيحصل منها و الحمد لله على هذا ستة عشر باباً

و قد ذكر الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري في كتاب التحيير و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [الخلق الحسن طوق من رضوان الله عز و جل في عنق صاحبه و الطوق مشدود إلى سلسلة من الرحمة و السلسلة مشدودة إلى حلقة من باب الجنة حيث ما ذهب الخلق الحسن جرت السلسلة إلى نفسها تدخله من ذلك باب إلى الجنة و الخلق السوء : طوق من سخط الله في عنق صاحبه و الطوق مشدود إلى سلسلة من عذاب الله و السلسلة مشدودة من باب النار حيث ما ذهب الخلق السوء جرت السلسلة إلى نفسها تدخله من ذلك الباب إلى النار] و ذكر صاحب الفردوس [من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : للجنة باب يقال له الفرح لا يدخل منه إلا من فرح الصبيان]

فصل : قوله : من أنفق زوجين في سبيل الله قال الحسن البصري : يعني إثنين من كل شيء : دينارين درهمين ثوبين خفين و قيل : يريد شيتين ديناراً و درهماً درهماً و ثوباً خفاً و لحاماً و نحو هذا و قال الباجي يحتمل أن يريد بذلك العمل من صلاتين أو صيام يومين

قلت : و الأول من التفسير أولى لأنه مروى عن النبي المصطفى صلى الله عليه و سلم : و ذكر الآجري [عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرته حجة الجنة ثم قال صلى الله عليه و سلم : يعبرين درهمين قوسين نعلين] و أما ما جاء من سعة أبواب الجنة فيحتمل أن يكون بعضها سعته كذا و بعضها سعته كذا كما ورد في الأخبار فلا تعارض و الحمد لله

باب منه

روى البخاري و مسلم [عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون فيدخلون منه فإذا دخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد]

قلت : و هكذا و الله أعلم سائر الأبواب المختصة بالأعمال

و جاء في حديث أبي هريرة : إن من الناس من يدعى من جميع الأبواب فليل : ذلك الدعاء دعاء تنويه و إكرام و إعظام ثواب العاملين تلك الأعمال إذ قد جمعها و نبه ذلك ثم يدخل من الباب الذي غلب عليه العمل و في صحيح مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر : أنا قال : فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة]

باب منه

خرج أبو داود الطيالسي في مسنده قال : [حدثنا جعفر بن الرزبير الحنفي عن القاسم مولى يزيد بن معاوية عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : انطلق برجل إلى باب الجنة فرفع رأسه فإذا على باب الجنة مكتوب الصدقة بعشر أمثالها و القرض الواحد بثمانية عشر لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا و هو محتاج و الصدقة ربما وضعت في يدي غني]

خرجه ابن ماجه في السنن قال : [حدثنا عبيد الله بن عبد الكريم حدثنا هشام بن خالد حدثنا خالد بن يزيد أبي مالك عن أبيه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوب الصدقة بعشر أمثالها و القرض بثمانية عشر فقلت لجبيرل : ما بال القرض أكثر من الصدقة ؟ قال لأن السائل يسأل و عنده و المستقرض لا يستقرض إلا من حاجة]

باب ما جاء في درج الجنة و ما يحصلها للمؤمن

الترمذي رحمه الله [عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : الجنة مائة درجة كل درجة منها ما بين السماء و الأرض و إن أعلاها الفردوس و أوسطها الفردوس و إن العرش على الفردوس منها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس] قال الترمذي : عطاء هذا لم يدرك معاذ بن جبل

قلت : قد خرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما تقدم فهو صحيح متصل و ذكر ابن وهب قال : [أخبرني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أنه سمع عتبة بن عبيد الضبي يذكر عن حدثه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله : كم في الجنة من درجة ؟ قال : مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض أول درجة منها دورها و بيوتها و أبوابها و سرورها و مغاليقها من فضة و الدرجة الثانية دورها و بيوتها و أبوابها و سرورها و مغاليقها من ذهب و الدرجة الثالثة دورها و بيوتها و أبوابها و سرورها و مغاليقها من ياقوت و لؤلؤ و زبرجد و سبع و تسعون درجة لا يعلم ما هي إلا الله]

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لو سعتهم] قال : هذا حديث غريب

ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ و اصعد فيقرأ و يصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه]

و خرجه أبو داود [عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يقال لصاحب القرآن اقرأ و

ارتق و رتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها [

و ذكر أبو حفص عمر بن عبد الحميد القرشي المياشي في كتاب الاختبار في اللح من الأخبار والآثار [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : درج الجنة على عدد آي القرآن لكل آية درجة فتلك ستة آلاف و مائتا آية و ستة عشر آية بين كل درجتين مقدار ما بين السماء و الأرض و ينتهي به إلى أعلى عليين لها سبعون ألف ركن وهي ياقوتة تضيء مسيرة أيام و ليالي] و قالت عائشة رضي الله عنها : إن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن ذكره مكى رحمه الله

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : حملة القرآن و قراؤه هم العالمون بأحكامه و بحلاله و حرامه و العاملون بما فيه و قال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه و قد تقدم حديث العباس بن عبد المطلب في أبواب النار و حديث أبي هريرة فيمن تعلم العلم و قرأ القرآن عجا و رياء ما فيه لمن كفاية لمن تدبر

و روى أبو هذبة إبراهيم بن هذبة قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلم القرآن و علمه و لم يأخذ بما فيه و حرفه كان عليه شهيدا و دليلا إلى جهنم و من تعلم القرآن و أخذ بما فيه كان له شهيدا و دليلا إلى الجنة]

و في البخاري : [مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن و يعمل به كالأترجة طعمها طيب و ريحها طيب و المؤمن الذي لا يقرأ القرآن و يعمل به كالثمرة طعمها طيب و لا ريح لها] و ذكر الحديث و قد أشبعنا القول فيه في قارئ القرآن و أحكامه في كتاب التذكار في فضل الأذكار و في مقدمة : جامع أحكام القرآن ما فيه كفاية و الحمد لله و قد تقدم : أن في الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين في سبيله فالجهاد يحصل مائة درجة و قراءة القرآن تحصل جميع الدرجات و الله المستعان على ذلك و الإخلاص فيه بمنه و فضله

باب ما جاء في غرف الجنة و لمن هي ؟

قال الله تعالى : { لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية } الآية و قال : { إلا من آمن و عمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا و هم في الغرفات آمنون } و قال : { أولئك يجزون الغرفة بما صبروا } و روى مسلم [عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي العائر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى و الذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله و صدقوا المرسلين]

و خرج الترمذي الحكيم أخبرنا صالح بن محمد قال : [حدثنا سليمان بن عمرو عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { أولئك يجزون الغرفة بما صبروا } و قوله { هم في الغرفات آمنون } قال : الغرفة من ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم و لا وصل و إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة منها كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في أفق السماء و إن أبا بكر و عمر منهم و أنعمًا] قال : [و حدثنا صالح بن عبد الله و قتيبة بن سعيد و علي بن حجر قالوا : حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن المتحابين في الله تعالى لعلى عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة يضيء حسنهم أهل الجنة كما تضيء

الشمس أهل الدنيا يقول أهل الجنة بعضهم لبعض : انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين في الله عز و جل فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم أهل الجنة كما تضيء الشمس أهل الدنيا عليهم ثياب خضر من سندس مكتوب على جباههم

هؤلاء المتحابون في الله عز وجل]

و ذكر الثعلبي [من حديث عمران بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل عليين لينظرون إلى الجنة فإذا أشرف رجل من أهل عليين أشرقت الجنة لضياء وجهه فيقولون ما هذا النور ؟ فيقال أشرف رجل من أهل عليين الأبرار أهل الطاعة والصدق]

[و روى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الغرف ليتراءون عليين كما تترآون الكوكب الدرّي في أفق السماء و إن أبا بكر و عمر منهم و أنعمًا] و ذكره الثعلبي الترمذي [عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام و أطمع الطعام و أدام الصيام و صلى الله بالليل و الناس نيام]

و ذكر أبو نعيم الحافظ [من حديث محمد واسع عن الحسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : ألا أخبركم بغرف الجنة ؟ غرفا من ألوان الجواهر يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها فيها من النعيم و الثواب و الكرامات ما لا أذن سمعت و لا عين رأت فقلنا : بأينا أنت و أمنا يا رسول الله لمن تلك ؟ فقال : لمن أفشى السلام و أدام الصيام و أطمع الطعام و صلى و الناس نيام فقلنا : بأينا أنت و أمنا يا رسول الله و من يطيق ذلك ؟ فقال : أمّي تطيق ذلك و سأخبركم من يطيق ذلك من لقي أخاه المسلم فسلم عليه فقد أفشى السلام و من أطمع أهله و عياله من الطعام حتى يشبع فقد أطمع الطعام و من صام رمضان و من كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام و من صلى العشاء الأخيرة في جماعة فقد صلى و الناس نيام : اليهود و النصارى و الجوس] فصل : اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو و الصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال فبعضها أعلى من بعض و أرفع و قوله الغائر من المشرق أو المغرب يروى بالياء اسم فاعل من غار و قد روى مسلم في غير الغارب بتقديم الراء و المعنى واحد و روي الغابر بالياء بوحدة و معناه الذهاب أو الباقي فإن غير من الأضداد يقال غير إذا ذهب و غير إذا بقي و يعني به أن الكوكب حالة طلوعه و غروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيرا لبعده و قد بينه بقوله من المشرق أو المغرب و قد روي العازب بالعين المهملة و الزاي أي البعيد و معنيها كلها متقاربة المعنى

و قوله : و الذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله و صدقوا المرسلين و لم يذكر عملا و لا شيئا سوى الإيمان و التصديق للمرسلين و ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ و تصديق المرسلين من غير سؤال آية و لا تلجلج و إلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان و التصديق الذي للعامة و لو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات و أرفع الدرجات و هذا محال و قد قال الله تعالى { أولئك يجزون الغرفة بما صبروا } و الصبر بذل النفس الثبات له و قوفا بين يديه بالقلوب عبودية و هذه صفة المقربين و قال في آية أخرى { و ما أموالكم و لا أولادكم التي تقرّبكم عندنا زلّقى إلا من آمن و عمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون } فذكر شأن الغرفة و أمّا لا تنال بالأموال و الأولاد و إنما تنال بالإيمان و لعمل الصالح ثم بين لهم جزاء الضعف و أن محلهم الغرفات يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة و تعلق قلب مطمئنا به في كل ما نابه و بجميع أموره و أحكامه فإذا عمل عملا صالحا فلا يخلطه بضده و هو الفاسد فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن و بجميع أموره و أحكامه و المخلط ليس إيمانه و عمله هكذا فللهذا كانت منزلته دون غيره

قلت : ذكره الترمذي الحكيم رحمة الله عليه و هذا واضح بين و قد قال تعالى { إن الأبرار يشربون من كأس كان

مزاجها كافورا } وقال : { ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون } فلما باين بين الأبرار و المقربين في الشراب على ما يأتي بيانه باين بينهم في المنازل و الدرجات و أعالي الغرفات حسب ما باين بينهم في الأعمال الصالحات بالا جتهاد في الطاعات قال الله تعالى : { كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين } فيجتهد الإنسان أن يكون من الأبرار المقربين ليكون في عليين و أصحاب عليين جلساء الرحمن و هم أصحاب المناير من النور في المقعد الصدق و قال تعالى : { فأما من أوتي كتابه بيمينه } إلى قوله { فهو في عيشة راضية * في جنة عالية } فأصحاب اليمين في علو الجنان أيضا و جميعها عوالي و جنات المقربين جميعها علالي و إحداهن عليه كقول الشاعر :

(ألا يا عين ويحك أسعديني ... بغزر الدمع في ظلم الليالي)
(لعلك في القيامة أن تفوزي ... بخير الدار في تلك العاللي)

باب منه

[روي من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في الجنة لغرفا ليس لها مغاليق من فوقها و لا عمداد من تحتها قيل يا رسول الله وكيف يدخلها أهلها ؟ قال : يدخلونها أشباه الطير قيل : هي يا رسول الله لمن ؟ قال : لأهل الأستقام و الأوجاع و البلوى] خرجه أبو القاسم زاهر بن محمد بن محمد الشحامي

باب منه

روى الليث بن سعد قال : [حدثنا محمد بن عجلان أن وافد البصري أخبره عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ليؤتين برجال يوم القيامة ليسوا بأنبياء و لا شهداء تغبطهم الأنبياء و الشهداء بمنزلهم من الله يكونون على مناير من نور قالوا : و من هم يا رسول الله ؟ قال : هم الذين يحبون الله إلى الناس فكيف يحبون الناس إلى الله ؟ قال : يأموهم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر فإذا أطاعوهم أحبه الله تعالى]

باب ما جاء في قصور الجنة و دورها و بيوتها و بما ينال ذلك المؤمن

خرج الآجري [عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين و أبا هريرة رضي الله عنهما عن تفسير هذه الآية { و مساكن طيبة } فقالا : على الخير سقطت سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون و على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعين و صيفا و و صيفة فيعطي الله تبارك و تعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله] ذكره في كتاب النصيحة

و ذكر ابن وهب قال : [أخبرنا ابن زيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إنه ليحجاء للرجل الواحد بالقصر من اللؤلؤة الواحدة في ذلك القصر سبعون غرفة في كل غرفة زوجة من الحور العين في كل غرفة سبعون بابا يدخل عليه من كل باب رائحة من رائحة الجنة سوى الرائحة التي تدخل من الباب الآخر و قرأ قول الله عز و جل { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين }]

الترمذي [عن بريد بن الحصيب قال : أصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم فدعا بلالا فقال : يا بلال بما سبقتني إلى الجنة ؟ فما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك أمامي فأنتيت على قصر مربع مشرف من ذهب فقلت لمن هذا القصر قالوا لرجل عربي فقلت أنا عربي لمن هذا القصر قالوا لرجل من قريش قلت أنا قريشي لمن هذا القصر قالوا لرجل من أمة محمد قلت أنا من أمة محمد قلت : أنا محمد لمن هذا القصر ؟ قالوا لعمر بن الخطاب فقال بلال يا

رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين و ما أصابني حدث إلا توضأت عنده و رأيت أن الله تعالى علي ركعتين فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : {بهما} قال : حديث حسن صحيح و خرج الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد مختصرا من [حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب فقلت لمن هذا ؟ فقالوا لعمر بن الخطاب] و ذكر الدارمي أبو محمد في مسنده قال : [حدثنا عبد الله بن بريد قال : حدثنا حيوة قال أخبرني أبو عقيل أنه سمع سعيد بن المسيب يقول إن نبي الله صلى الله عليه و سلم قال : من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بني له قصر في الجنة و من قرأها عشرين مرة بني له قصران في الجنة و من قرأها ثلاثين مرة بني له ثلاث قصور في الجنة فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا لتكثرن قصورنا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الله أوسع من ذلك] قال الدارمي أبو عقيل زاهر بن معبد زعموا أنه كان من الأبدال و قد تقدم من حديث سمرة أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل دارالشهداء أو دار المؤمنين

و خرج أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا حماد بن زيد عن أبي سنان قال : دفنت ابني سنانا و أبو طلحة الخولاني على شفير القبر فقال حدثني الضحاک بن عبد الرحمن عن أبي موسى قال : قال رسول الله : إذا قبض الله عز و جل ابن العبد قال للملائكة ماذا قال عبدي ؟ قالوا : أحمدك و استرجع قال : ابنوا له بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد]

باب ما جاء في قوله تعالى : و فرش مرفوعة

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى { و فرش مرفوعة } قال : ارتفاعها لكما بين السماء و الأرض مسيرة خمسمائة عام] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا يعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد

و قال بعض أهل العلم في تفسير هذا الخبر : الفرش في الدرجات و بين الدرجات كما بين السماء و الأرض قلت : و قد قيل : إن الفرش كناية عن النساء اللواتي في الجنة و المعنى نساء مرتفعات الأقدار في حسنهن و كمالهن و العرب تسمي المرأة فراشا و لباسا و إزارا و نعجة على الاستعارة لأن الفرش محل النساء و في الحديث [الولد للفرش و للعاهر الحجر] و قال الله تعالى { هن لباس لكم } الآية قال : { إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة و لي نعجة واحدة }

باب ما جاء في خيام الجنة و أسواقها و تعارف أهل الجنة في الدنيا و

عبادتهم فيها

مسلم [عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله قال : في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمن] في رواية قال : الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخريين

و خرج مسلم أيضا [عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال : إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم و ثيابهم المسك فيزدادون حسنا و جمالا فيرجعون إلى أهلهم و قد ازدادوا حسنا و جمالا لهم أهلهم و الله لقد ازددتهم بعدنا حسنا و جمالا]

الترمذي [عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبي هريرة فقال أبو هريرة أسأل الله أن يجمع بيني و بينك في سوق الجنة

فقال سعيد أفيها سوق؟ قال : نعم و ذكر الحديث و فيه : فتأتي سوقا قد حفت به للملائكة فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله و لم تسمع الآذان و لم يخطر على القلوب فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيها و لا يشتري و في ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضا فيقبل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه و ما فيهم ديني فيروعه ما عليه من اللباس فما ينقصي آخر حديثه حتى يتمثل عليه ما هو أحسن منه و ذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يجزن فيها]

و ذكر الحديث في طريقه أبو العشرين و هو ضعيف و خرجه ابن ماجه مكملا و فيه بعد قوله قال نعم : [أخبرني رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيرون الله و يبرز لهم عرشه و يبدو لهم في روضة من رياض الجنة فتوضع لهم منابر من نور و منابر من لؤلؤ و منابر من ياقوت و منابر من زبرجد و منابر من ذهب و منابر من فضة و يجلس أدناهم و ما فيهم ديني على كئيبان المسك و الكافور ما يرون بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا]

[قال أبو هريرة قلت يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال : نعم هل تتمارون في رؤية الشمس و القمر ليلة البدر؟ قلنا : لا قال : كذلك لا تمارون في رؤية ربكم عز و جل و لا يبقى في ذلك المجلس أحد ألا حاضره الله محاضرة حتى إنه يقول للرجل منكم ألا تذكر يا فلان يوم عملت كذا و كذا يذكره بعض غدراته في الدنيا فيقول : يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول بلى فبسة مغفرتي بلغت منزلتك هذه فيبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط ثم يقول قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم قال : فيأتون سوقا] الحديث بلفظه و معناه إلى أن قال : و ذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يجزن فيها قال : [ثم ننصرف إلى منازلنا فتلقانا أزواجنا فيقلن مرحبا و أهلا لقد جئت و إن بك من الجمال و الطيب أفضل مما فارقتنا عليه فيقولون إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار و بحقنا أن نتقلب بمثل ما انقلبنا]

و خرج الترمذي أيضا [عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في الجنة لسوقا ما فيها بيع و لا شراء إلا الصور من الرجال و النساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها] قال : هذا حديث غريب و روى أبو هدية إبراهيم بن هدية قال : [حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في الجنة أسواقا لا شراء فيها و لا بيع أهل الجنة لما أقضوا إلى روح الجنة جلسوا متكئين على لؤلؤ رطب و تراهما مسك يعارفون في تلك الجنان كيف كانت الدنيا و كيف كانت عبادة الرب و كيف يحيى الليل و يصام النهار و كيف كان فقر الدنيا و غناؤها و كيف كان الموت و كيف صرنا بعد طول البلاء من أهل الجنة] و الله أعلم

باب لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز

خرج أبو بكر الخطيب أحمد بن علي [من حديث عبد الرزاق عن الثوري عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عطاء بن يسار عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية] ذكره أحمد بن حنبل في مسنده

قلت : لعل هذا فيمن لا يدخل الجنة بغير حساب و ذلك بين في الباب بعد هذا

باب أول الناس يسبق إلى الجنة الفقراء

ابن المبارك قال : [أخبرنا عبد الوهاب بن الورد قال : قال سعيد بن المسيب جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : أخبرني يا رسول الله بجلساء الله يوم القيامة قال : هم الخائفون الخاضعون المتواضعون الذاكرون الله كثيرا قال يا رسول الله : أفهم أول الناس يدخلون الجنة ؟ قال : لا قال : فمن أول الناس يدخل الجنة ؟ قال : الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة فيخرج إليهم منها ملائكة فيقولون : ارجعوا إلى الحساب فيقولون على ما نحاسب و الله ما أفيض علينا من الأموال في الدنيا شيء فنقبض فيها و نبسط و ما كنا أمراء نعدل و نجوز و لكننا جاءنا أمر الله فعبدناه حتى أتانا اليقين فيقال : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين]

و روي عن النبي أنه قال : [اتقوا الله في الفقراء فإنه يقول يوم القيامة أين صفوتي من خلقي ؟ فتقول من هم يا ربنا ؟ فيقول : الفقراء الصابرون الراضون بقدري أدخلوهم الجنة قال فيدخلون الجنة يأكلون و يشربون و الأغنياء في الحساب يترددون]

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام] من حديث الأعمش سليمان عن عطية العوفي عن أبي سعيد و قال فيه حديث حسن غريب من هذا الوجه

[و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم] هذا حديث حسن غريب حسن صحيح و في طريق أخرى : [يدخل فقراء المسلمين قبل الأغنياء بنصف يوم و هو خمسمائة عام] : قال : حديث حسن صحيح

و روي [عن أبي الدرداء قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم قيل له : يا رسول الله و ما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة قيل له : فكم السنة من شهر ؟ قال خمسمائة شهر قيل له : فكم الشهر من يوم ؟ قال : خمسمائة يوم قيل له : فكم اليوم ؟ قال : خمسمائة مما تعدون] ذكره العقبي في عيون الأخبار له

[و عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يدخل المسلمين الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا] قال : هذا حديث حسن صحيح و خرجه من حديث أنس أيضا و قال فيه حديث غريب و في صحيح مسلم من حديث [عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا]

فصل : قال المؤلف رحمه الله : اختلاف هذه الأحاديث يدل على أن الفقراء مختلفوا الحال و كذلك الأغنياء و قد تقدم حديث أبي بكر بن أبي شيبة أول ثلاثة يدخلون الجنة : و لا تعارض و الحمد لله فإن الحديثين مختلفا المعاني و قد اختلف في أي فقراء هم السابقون و في مقدار المدة التي بها يسبقون و يرتفع الخلاف عن الموضع الأول بأن يرد مطلق حديث أبي هريرة إلى مقيد روايته الأخرى و كذلك حديث جابر يرد أيضا إلى حديث عبد الله بن عمرو و يكون المعنى فقراء المسلمين المهاجرين إذ المدة فيها أربعين خريفا و يبقى حديث أبي سعيد الخدري في المدة بخمسمائة عام في فقراء المهاجرين و كذلك حديث أبي الدرداء في فقراء المسلمين بنصف يوم خمسمائة سنة

و وجه الجمع بينهما أن يقال إن سباق الفقراء من المهاجرين يسبقون سباق الأغنياء منهم بأربعين خريفا و غير سياق الأغنياء بخمسمائة عام و قد قيل : إن حديث أبي هريرة و أبي الدرداء و جابر يعم جميع فقراء قرون المسلمين فيدخل الجنة سباق فقراء كل قرن قبل غير السباق من أغنيائهم بخمسمائة عام على حديث أبي هريرة و أبي الدرداء و قيل : السباق بأربعين خريفا على ما تقدم من حديث جابر و الله أعلم

فصل : قلت : و قد احتج بأحاديث هذا الباب من فضل الفقراء على الغني و قد اختلف الناس في هذا المعنى و طال فيه الكلام بينهم حتى صنفوا فيه كتباً و أبواباً و احتج كل فريق لمذهبه في ذلك و الأمر قريب و قد سئل أبو علي الدقاق : أي الوصفين أفضل : الغني أو الفقر فقال : الغني ؟ لأنه الحق و الفقر وصف الخلق و وصف الحق أفضل من وصف الخلق قال الله تعالى { يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغني الحميد } و بالجملة : فالفقير بالحقيقة العبد و إن كان له مال و إنما يكون غنياً إذا عول على مولاه و لم ينظر إلى أحد سواه فإن تعلق باله بشيء من الدنيا و رأى نفسه أنه فقير إليه فهو عبده قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [تعس عبد الدينار] الحديث خرجه البخاري و غيره و قد كتبناه عليه و بيناه و الحمد لله و إنما شرف العبد افتقاره إلى مولاه و عزه و خضوعه له

و لقد أحسن من قال :

(إذا تذلت الرقاب تواضعاً ... منا إليك فعزها في ذلها)

فالغني المعلق الباب بالمال الحريص عليه الراغب فيه هو الفقير حقيقة و خادمه الذي يقول ما أبالي به و لا لي رغبة فيه و إنما هي ضرورة العيش فإذا وجدتها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغني حقيقة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [ليس بي عن كثرة العرض إنما الغني غنى النفس] خرجه مسلم و أخذ عثمان بن سعدان الموصلية هذا المعنى فقال :

(تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى ... فإنك لا تدري أتصبح أم تمشي)

فليس الغني عن كثرة المال إنما الغني و الفقر من قبل النفس و قد أشبعنا القول في هذا في كتاب قمع الحرص و قد بقيت

قلت : هنا درجة ثالثة رفيعة و هي الكفاف التي سألتها رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال [اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً] و في رواية [كفافاً] خرجه مسلم و معلوم أنه عليه الصلاة و السلام لا يسأل إلا أفضل الأحوال و أسنى المقامات و الأعمال و قد اتفق الجميع على أن ما أحوج من الفقر مكروه و ما أبطر من الغني مذموم و في سنن ابن ماجه [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من غني و لا فقير إلا يود يوم القيامة أنه أوتي من الدنيا قوتاً] الكفاف : حالة متوسطة بين الغني و الفقر و قد قال عليه الصلاة و السلام : [خير الأمور أوسطها] فهي حالة سليمة من آفات الغنى المطفى و آيات الفقر المدقع الذي كان يتعوذ منهما النبي صلى الله عليه و سلم فكانت أفضل منهما ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير الذي لا يترفه في طيبات الدنيا و لا في زهرتها فكانت حاله إلى الفقير أقرب لقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر و كفى مرارته و آفاته و على هذا فأهل الكفاف هم إن شاء الله صدر كتبه الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بمئتين سنة عام لأهم و سطهم و الوسط العدل كما قال الله تعالى { و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس } أي عدولاً خياراً و ليسوا من الأغنياء كما ذكرنا

باب منه

الترمذي عن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية فقال : [يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه و سلم فينا فقال أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم بفشوا الكذب حتى يحلف الرجل و لا يستخلف و يشهد الشاهد و لا يتشهد و لا يحلون رجل بامرأة لا تحل له إلا كان ثالثهما الشيطان عليكم بالجماعة و إياكم و الفرقة فإن الشيطان مع الواحد و هو من الإثنين أبعد من أراد بحبوحه الجنة فليزحم الجماعة و من سرته حسنته و

سأته سيئته فذلكم المؤمن]

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب

باب منه

ما جاء في صفة أهل الجنة و مراتبهم و سنهم و طولهم و شباهم و عرقهم و ثيابهم و أمشاطهم و مجاهرهم و

أزواجهم و في لسانهم و ليس في الجنة عزب

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن أول زمرة يدخلون الجنة و في رواية : من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء أضاء و في رواية : ثم هم بعد ذلك منازل لا يولون و لا يتغيطون و لا يتفلون و لا يتمخضون أمشاطهم الذهب و في رواية : الفضة و رشحهم المسك و مجاهرهم و أزواجهم الحور العين و في رواية : لكل و احد منهم زوجتان يرى مخ ساقبها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم و لا تباض قلوبهم قلب واحد يسبحون بكرة و عشيا]

قال أبو علي : الألوة : هو العود و في رواية : أخلاقهم على خلق رجل واحد عل طول أبيهم و في رواية : على

صورة أبيهم ستون ذراعا في السماء

و قال أبو كريب : على خلق رجل واحد و قال أبي هريرة حين تذاكروا : الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال

لكل رجل منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقبها من وراء اللحم و ما في الجنة عزب

الترمذي [عن الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن المرأة من أهل الجنة ليرى ساقبها من وراء

سبعين حلة حتى يرى مخها و ذلك بأن الله سبحانه و تعالى يقول : { كأنهن الياقوت و المرجان } فأما الياقوت فإنه

حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته]

و روى موقوفا عن البخاري [عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى

أهل الأرض لأضاءت ما بينهما و لملاأته ريحا و لنصيغها على رأسها خير من الدنيا و ما فيها]

الترمذي [عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أهل الجنة جرد مرد

كحل لا يفنى شباهم و لا تبلى ثيابهم] قال : حديث غريب

و خرج عنه أيضا [عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يدخل أهل

الجنة الجنة جرداء مرداء مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث و ثلاثين سنة] قال : حديث غريب و روى عن قتادة مراسلا

و ذكر الميانش [من حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أهل الجنة مرد إلا موسى بن

عمران فإن حية إلى سرته]

الترمذي [عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لو أن ما يقله ظفر مما في الجنة بدا إلى الدنيا

لترخر له ما بين خوافق السموات و الأرض و لو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبذت أساور لطمس ضوء الشمس

كما تطمس الشمس ضوء النجوم] قال : حديث حسن غريب

[و عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من مات من أهل الجنة من صغير و كبير يرون بني

ثلاثين في الجنة لا يزيدون عليها و لا ينقصون و كذلك أهل النار] قال : حديث حسن غريب لا يعرفه إلا من

حديث رشدين

فصل : في حديث أبي هريرة لكل واحد منهم زوجتان و قد تقدم من حديث عمران بن حصين : [أن أقل ساكني

الجنة النساء]

قال علماءنا : لم يختلفوا في جنس النساء وإنما اختلفوا في نوع من الجنس و هو نساء الدنيا و رجالها أيهما أكثر في الجنة فإن كانوا اختلفوا في المعنى الأول و هو جنس النساء مطلقاً فحديث أبي هريرة حجة و إن كانوا اختلفوا في نوع من الجنس و هم أهل الدنيا فالنساء في الجنة أقل

قلت : يحتمل أن يكون هذا في وقت كون النساء في النار و أما بعد خروجهن في الشفاعة و رحمة الله تعالى حتى لا يبقى فيها أحد ممن قال لا إله إلا الله فالنساء في الجنة أكثر و حيثذ يكون لكل واحد منهم زوجتان من نساء الدنيا و أما الحور العين فقد تكون لكل واحد منهم الكثير منهن

[و في حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم و اثنتان و سبعون زوجة] ذكره الترمذي و قال فيه : حديث غريب و مثله حديث أبي أمامة خرج أبو محمد الدارمي و سيأتي و الأخبار دالة على هذا

و قوله و أمشاطهم الذهب و الفضة و مجاميرهم الألوة و قد يقال هنا أي حاجة في الجنة للامتشاط و لا تتلبد شعورهم و لا تتسخ و أي حاجة للبخور و ريحهم أطيب من المسك و يجاب عن ذلك بأن نعيم أهل الجنة و كسوتهم ليس عن رفع ألم أعتراهم فليس أكلهم عن جوع و لا شربهم عن ظمأ و لا تعليمهم عن نتن و إنما هي لذات متوالية و نعم متتابعة ألا ترى قوله تعالى لآدم { إن لك أن لا تجوع فيها و لا تعرى* و أنك لا تظمأ فيها و لا تضحي } و حكمة ذلك أن الله تعالى نعمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا و زادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز و جل

قلت : و قد جاء مثل هذا في أهل الدنيا حيث قال : { إذ الأغلال في أعناقهم و السلاسل يسحبون* في الحميم ثم في النار يسجرون } و قال { إن لدينا أنكالا و جحيما } فعذبهم في النار بنوع ما كانوا يعذبون به في الدنيا قال الشعبي : أترون أن الله جعل الأنكال في الرجل خشية أن يهربوا لا و الله و لكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استثقلت بهم

ابن المبارك قال : أخبرنا سعيد بن أبي أيوب قال : حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : لسان أهل الجنة عربي و إذا خرجوا من قبورهم سرياني و قد تقدم و قال سفيان : بلغنا أن الناس يتكلمون يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة بالسريانية فإذا دخلوا الجنة تكلموا بالعربية

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس
الدين القرطبي

باب منه في الحور العين و كلامهن و جواب نساء الآدميات و حسنهن

ذكر أن الآدميات في الجنة على سن واحد و أما الحور العين فأصناف مصنفة صغار و كبار على ما اشتهدت أنفس
أهل الجنة

الترمذي [عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن في الجنة مجتمعاً للحور العين
يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلهما قال يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد و نحن الناعمات فلا نبأس و نحن
الراضيات فلا ننسخط طوبى لمن كان لنا و كنا له] و في الباب عن أبي هريرة و أبي سعيد و أنس قال أبو عيسى
حديث علي حديث غريب

و قالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن
المصليات و ما صليت و نحن الصائمات و ما صمت و نحن المتوضئات و ما توضأت و نحن المتصدقات و ما تصدقت
قالت عائشة : فغلبنهن و الله أعلم

و ذكر ابن وهب عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : و الله الذي لا إله إلا هو لو أن امرأة من الحور العين أطلعت
سوارها من العرش لأطفاً نور سوارها نور الشمس و القمر فكيف المسورة و أن ما خلق الله شيئاً تلبسه إلا عليه
مثل ما عليها من ثياب و حلى

و قال أبو هريرة إن في الجنة حوراء يقال لها [العينية] إذا مشت مشى حولها سبعون ألف و صيف عن يمينها و
عن يسارها كذلك و هي تقول : أين الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر ؟

و قال ابن عباس : إن في الجنة حوراء يقال لها [لعبة] لو بزقت في البحر لعذب ماء البحر كله مكتوب على نحرها
من أحب أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربي عز و جل

و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه وصف حوراء ليلة الإسراء فقال : [و لقد رأيت جبينها كاللؤلؤ في
طول البدر منها ألف و ثلاثون ذراعاً في رأسها مائة ضفيرة ما بين الضفيرة و الضفيرة سبعون ألف ذؤابة و الذؤابة
أضوأ من البدر مكلل بالدرد و صفوف الجواهر على جبينها سطران مكتوبان بالدرد الجواهر في السطر الأول : بسم
الله الرحمن الرحيم و في السطر الثاني : من أراد مثلي فليعمل بطاعة ربي فقال لي جبريل يا محمد : هذه و أمثالها
لأمتك فأبشر يا محمد و بشر أمتك و أمرهم بالاجتهاد]

و ذكر الحنظلي أبو القاسم قال : حدثنا إبراهيم بن أبي بكر حدثنا أبو إسحاق حدثني محمد بن صالح قال : قال عطاء
السلمي مالک بن دينار : يا أبا يحيى شوقنا قال يا عطاء : إن في الجنة حوراء يتباهى بها أهل الجنة من حسنهن لولا أن
الله كتب على أهل الجنة أن لا يموتوا لما تواتوا عن آخرهم من حسنهن قال : فلم يزل عطاء كمداً من قول مالك أربعين
يوماً

ابن المبارك قال : أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال : [إن المرأة من
الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم و العظم و من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج

البيضاء [قال : و أخبرنا رشددين عن ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة قال : [إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فضلن على العين بما عملن في الدنيا] و روى مرفوعا : [إن الأدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف]

باب ما جاء أن الأعمال الصالحة مهوور الحور العين

قال الله تعالى : { و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار } إلى قوله { و لهم فيها أزواج مطهرة }
و روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول قال : حدثنا الخطاب أبو الخطاب قال : حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب قال : حدثنا جرير بن أيوب البجلي قال : حدثنا الشعبي عن نافع بن بردة عن أبي مسعود الغفاري من الحور العين في خيمة من درة مجوفة مما نعت الله { حور مقصورات في الخيام } على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى و يعطى سبعين لونا من الطيب ليس منهن لون على ربح الآخر لكل امرأة منهن سبعون سريرا من ياقوتة حمراء موشحة بالدر و الياقوت على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش أريكة لكل امرأة منهن سبعون ألف و صيفة لحاجتها و سبعون ألف و صيف مع كل و صيف صحفة من ذهب فيها لون من طعام تجد لآخر لقمة لذة لا تجد لأوله و يعطى زوجها مثل ذلك على سرير من ياقوت أحمر عليه سوران من ذهب موشح بياقوت أحمر هذا بكل يوم صامه من شهر رمضان سوى ما عمل من الحسنات]

و خرج أبو عيسى الترمذي [من حديث المقدم بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
للشهيد عند الله ست خصال] الحديث و فيه [و يزوج باثنتين و سبعين زوجة من الحور العين] و قد تقدم في باب ما ينجي من أهوال القبر و فتنته

قلت : و هذا يؤكد ما ذكرناه في حديث أبي هريرة لكل واحد منهم زوجتان أن ذلك من نساء الدنيا و قال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد و فوت الجنة أشد و ترك الدنيا مهر الآخرة و يقال : مهر الحور العين كنس المساجد رفعه الثعلبي [من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كنس المساجد مهوور الحور العين] [و عن أبي قرصافة أيضا سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : إخراج القمامة من المسجد مهوور الحور العين] القمامة الكناسة و الجمع : قمام قاله الجوهري

[و عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : مهوور الحور العين قبضات التمر و فلق الخبز] ذكره الثعلبي أيضا و قال أبو هريرة : [يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثير و يدع الحور العين باللقمة و التمرة و الكسوة]

و قال محمد بن النعمان المقرئ : كنت قاعدا عند الجلا المقرئ بمكة في المسجد الحرام إذ مر بنا شيخ طويل نحيل الجسم عليه أطمار خلقة فقام إليه الجلا و وقف معه ساعة ثم انصرف إلينا فقال : هل تعرفون من هذا الشيخ ؟ فقلنا : لا فقال : ابتاع من الله حوراء بأربعة آلاف ختمة فلما أكملها رآها في المنام في حليها و حللها فقال : من أنت ؟ فقالت : أنا الحور التي ابعتني من الله تعالى بأربعة آلاف ختمة هذا الثمن فما نحتي أنا منك ؟ قال : ألف ختمة قال الجلا : فهو يعمل فيها بعد

و روى عن سحنون أنه قال : كان بمصر رجل يقال له سعيد و كانت له أم من المتعبدات و كانت إذا قام من الليل يصلي تقوم والدته خلفه فإذا غلب عليه النوم و نعس تناديه والدته : يا سعيد إنه لا ينام من يخاف النار و يخطب الحور الحسان فيقوم مرعوبا

و يروى عن ثابت أنه قال : كان أبي من القوامين لله في سواد الليل قال : رأيت ذات ليلة في منامي امرأة لا تشبه النساء فقلت لها : من أنت ؟ فقالت حوراء أمة الله فقلت لها : زوجيني نفسك فقالت : اخطبني من عند ربي و أمهري فقلت : و ما مهرك ؟ فقال : طول التهجد و أنشدوا :

(يا خاطب الحور في خدرها و طالبا ذلك على قدرها)

(أمض بجد لا تكن و انياو جاهد النفس على صبرها)

(و جانب الناس و ارفضهم و حالف الوحدة في ذكرها)

(و قم إذا الليل بدا وجهه ... و صم نهارا فهو من مهرها)

(فلو رأت عينك إقبالها و قد بدت رمانتا صدرها)

(و هي تماشى بين أترابها و عقدها يشرق في نحرها)

(لها في نفسك هذا الذي تراه في دنياك من زهرها)

و قال مضر القارئ : غلبني النوم ليلة فتمت عن حزبي فرأيت في منامي فيما يرى النائم جارية كأن وجهها القمر المستم و معها رق فقالت : أتقرأ أيها الشيخ ؟ قلت : نعم فقالت : اقرأ هذا الكتاب ففتحه فإذا فيه مكتوب : فو الله ما ذكرته قط إلا ذهب عني النوم

(أفتك اللذائذ و الأمانى ... عن الفردوس و الظل اللواني)

(و لذة نومة عن خير عيش ... مع الخيرات في غرف الجنان)

(تيقظ من منامك إن خيرا ... من النوم التهجد بالقران)

و قال مالك بن دينار : كان لي أحزاب أقرؤها كل ليلة فتمت ذات ليلة فإذا أنا في المنام بجارية ذات حسن و جمال و بيدها رقعة فقالت : أحسن أن تقرأ ؟ فقلت : نعم فدفعت إلي الرقعة فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات :

(لهاك النوم عن طلب الأمانيو عن تلك الأوانس في الجنان)

(تعيش مخلدا لا موت فيها و تلهو في الخيام مع الحسان)

(تنبه من منامك إن خيرا ... من النوم التهجد بالقران)

و روي عن يحيى بن عيسى بن ضرار السعدي و كان قد بكى شوقا إلى الله ستين عاما قال : رأيت كأن ضفة نهر يجري بالمسك الأذفر حافته شجر اللؤلؤ و نبت من قضبان الذهب فإذا بجوار مزينات يقلن بصوت واحد : سبحان المسيح بكل لسان سبحان الموجود بكل مكان سبحان الدائم في كل زمان سبحانه سبحانه قال : فقلت : من أنتن ؟ قلن : خلق من خلق الله سبحانه قلت : و ما تصنعن ها هنا فقلن :

(يناجون رب العالمين لحقهم ... و تسري هموم القوم و الناس نوم)

(ذرانا إله الناس رب محمد ... لقوم على الأقدام بالليل قوم)

فقلت : بخ بخ هو من هؤلاء لقد أقر الله أعينهم فقلن : أما تعرفهم ؟ فقلت : و الله ما أفهم قلن : هؤلاء المتهجدون بالليل أصحاب السهر

باب في الحور العين و من أي شيء خلقن ؟

روى الترمذي [أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل عن الحور العين من أي شيء خلقن فقال : من ثلاثة أشياء : أسفلهن من المسك و أوسطهن من العنبر و أعلاهن من الكافور و شعورهن و حواجبهن سواد خط من نور

[

و روي عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال : [سألت جبريل عليه السلام فقلت : أخبرني كيف يخلق الله الحور العين ؟ فقال لي يا محمد : يخلقهن الله من قضبان العنبر و الزعفران مضروبات عليهن الخيام أول ما يخلق الله منهن ثم يمدن من مسك أذفر أبيض عليه يلتام البدن]

و روي عن ابن عباس أنه قال : خلق الله الحور العين من أصابع رجليها الحركتيتها من الزعفران و من ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر و من ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب و من عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض عليها سبعون ألف حلة مثل شقائق النعمان إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا و إذا أقبلت يرى كبدتها من رقة ثيابها و جلدها و في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر و لكل ذؤابة منها و صيفة ترفع ذيلها و هي تنادي هذا ثواب الأولياء جزاء بما كانوا يعملون

باب إذا ابتكر الرجل امرأة في الدنيا كانت زوجته في الآخرة

ابن وهب عن مالك أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما امرأة الزبير بن العوام كانت تخرج حتى عوتب في ذلك قال : و غضب عليها و على ضوتها فعقد شعر واحدة بالأخرى ثم ضربهما ضربا شديدا و كانت الضرة أحسن اتقاء و كانت أسماء لا تتقي فكان الضرب بها أكثر فشكت إلى أبيها أبي بكر فقال لها : أي بنية اصبري فإن الزبير رجل صالح و لعله أن يكون زوجك في الجنة

و لقد بلغني أن الرجل إذا ابتكر بالمرأة تزوجها في الجنة قال أبو بكر بن العربي : هذا حديث غريب ذكره في أحكام القرآن له فإن كانت المرأة ذات أزواج فليل : إن من مات عنها من الأزواج أخرهن له قال حذيفة لامرأته إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها لا تتزوجي من بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها في الدنيا و خطب معاوية بن أبي سفيان أم الدرداء فأبت و قالت : [سمعت أبا الدرداء يحدث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : المرأة لآخر أزواجها في الجنة و قال لي : إن أردت أن تكون زوجتي في الجنة فلا تتزوجي من بعدي

[

و ذكر أبو بكر النجاد قال : [حدثنا جعفر بن محمد بن شاعر حدثنا عبيد بن إسحاق العطار حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن أنس أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه و سلم قالت : يا رسول الله المرأة يكون لها زوجان في الدنيا ثم يموتون و يجتمعون في الجنة لأيهما تكون للأول أو للآخر ؟ قال لأحسنهما خلقا كان معها يا أم حبيبة] ذهب حسن الخلق بخير الدنيا و الآخرة و قيل : إنما تخير إذا كانت ذات أزواج

باب ما جاء أن في الجنة أكلا و شرابا و نكاحا حقيقة و لا قدر فيها و لا

نقص و لا نوم

مسلم [عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : إن أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون و لا يتفلون و لا يبولون و لا يتغوطون و لا يتمخطون قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح

المسك يلهمون التسييح و التحميد] و في رواية [و التكبير كما يلهمون النفس]

الترمذي [عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يعطي المؤمن في الجنة قوة كذا و كذا في

الجماع قيل يا رسول الله أو يطبق ذلك ؟ قال يعطي قوم مائة] و في الباب عن زيد بن أرقم قال أبو عيسى : هذا

حديث صحيح حسن

و ذكر الدرهمي في مسنده [عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الرجل من أهل الجنة يعطي قوم مائة رجل في الأكل و الشرب و الجماع و الشهوة فقال رجل من اليهود : إن الذي يأكل و يشرب يكون من الحاجة قال : ثم يفيض من جلده عرق فإذا بطنه قد ضمير]

و ذكر المخرمي عبد الله بن أيوب قال : [حدثنا أبو أسامة عن هشام عن زيد بن الجوارري و هو زيد بن العمى عن ابن عباس قال : قلنا يا رسول الله أنفضي إلى نساتنا في الجنة كما نفضي إليهن في الدنيا ؟ قال : أي و الذي نفسي بيده إن الرجل ليفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء]

و خرجه الزيار في مسنده [من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله أنفضي إلى نساتنا في الجنة ؟ قال : أي و الذي نفسي بيده إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء]
و خرج [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبقارا] و سيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى

ابن المبارك قال : [أخبرنا معمر عن رجل عن أبي قلابة قال : يؤتون بالطعام و الشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيشربون فضمير لذلك بطونهم و تفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك] ثم قرأ {
شربا طهورا }

أبو محمد الدارمي [عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه الله اثنتين و سبعين زوجة اثنتين من الحور العين و سبعين من ميراثه من أهل النار ما منهن واحدة إلا و لها قبل قبل شههي و له ذكر لا ينثني] قال هشام بن خالد : من ميراثه من أهل النار يعني رجلا دخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون

و روي [من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم هل تمس أهل الجنة أزواجهم ؟ فقال : نعم بذكر لا يمل و فرج لا ينفى و شهوة لا تنقطع]

الدراقطني [عن جابر بن عبد الله قيل يا رسول الله : أينام أهل الجنة ؟ قال : لا النوم أخو الموت و الجنة لا موت فيها] و الله أعلم

باب المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان جملة و وضعه و سنه في ساعة

واحدة

الترمذي [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان جملة و وضعه و سنه في ساعة كما يشتهي] قال حديث حسن غريب أخرجه ابن ماجه و قال في ساعة واحدة في الجنة

قال الترمذي : و قد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع و لا يكون ولد و هكذا يروي عن طاووس و مجاهد و إبراهيم النخعي و قال محمد قال إسحاق بن إبراهيم في حديث النبي صلى الله عليه و سلم [إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة كما يشتهي و لكن لا يشتهي هذا أبدا] و قد روى [عن أبي رزين العقيلي عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد] و الله أعلم

باب ما جاء أن كل ما في الجنة دائر لا يبلى و لا يفنى و لا يبسد

مسلم [عن أبي سعيد الخدري و أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ينادي مناد أن لكم أن تضحوا فلا تسقموا أبدا و أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا و أن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا و أن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا و ذلك قوله عز و جل { و نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون }]
و [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من يدخل الجنة ينعم و لا يبأس و لا يبلى ثيابه و لا يفنى شبابه] و قد تقدم قول الحور العين : نحن الخالدات فلا نبسد

باب ما جاء أن المرأة من أهل الجنة ترى زوجها من أهل الدنيا في الدنيا

ابن وهب قال : و حدثنا ابن زيد قال : يقال للمرأة من أهل الجنة و هي في السماء : أتجيبن أن نريك زوجك من أهل الدنيا ؟ فتقول : نعم فيكشف لها عن الحجب و يفتح الأبواب بينها بينه حتى تراه و تعرفه و تعاهده بالنظر حتى تستبطن قدميه و تشتاق إليه كما تشتاق المرأة إلى زوجها الغائب عنها و لعله يكون بينه و بين زوجته في الدنيا ما يكون بين النساء و أزواجهن من مكاملة أو محاصرة فتغضبه زوجته التي في الدنيا فيشقى ذلك عليها و تقول : ويحك دعيه من شرك إنما هو معك ليال قلائل أخرجه الترمذي بمعناه عن معاذ بن جبل قال : لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إينا قال أبو عيسى : هذا حديث غريب خرجه ابن ماجه أيضا

باب ما جاء في طير الجنة و خيلها و إبلها

الترمذي [عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم ما الكوثر قال : ذاك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل : فيه طير أعناقها كأعناق الجوز فقال عمر : إن لهذه لناعمة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكلها أنعم منها] قال : هذا حديث حسن و خرجه الثعلبي [من حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن في الجنة طيرا مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله فيقول أحدها : يا ولي الله رعيت في مروج الجنة تحت العرش شربت من عيون التسنيم فكل مني لا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منه ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطير فيطير يرعى في الجنة حيث شاء فقال عمر : يا نبي الله إنما لناعمة قال : أكلها أنعم منها]

الترمذي : [عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله : هل في الجنة من خيل ؟ قال : إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك حيث شئت إلا فعلت قال : و سأله رجل فقال يا رسول الله : هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له ما قال صاحبه فقال : إن أدخلك الله الجنة لك فيها ما اشتهدت نفسك و لذت علينا]

و خرجه مسلم [عن أبي مسعود الأنصاري قال جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة] و ذكر ابن وهب قال : [حدثنا ابن زيد قال : كان الحسن البصري يذكر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم : أن أدنى أهل الجنة منزلة الذي يركب في

ألف و ألف من خدمه من الولدان المخلدن على خيل من ياقوت أحمر لها أوجهة من ذهب أقرأوا إن شئتم } و إذا رأيت ثم رأيت نعيما و ملكا كبيرا []
و ذكر ابن المبارك [عن شقي بن ماتع أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إن من نعيم أهل الجنة أنهم ليتراورون على المطايا و النجب و أنهم يؤتون في يوم الجمعة بخيل مسرجة ملجمة لا تورث و لا تبول فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله] و ذكر الحديث
و عن عكرمة عن ابن عباس أنه ذكر مرآتهم ثم تلا قوله تعالى { و إذا رأيت ثم رأيت نعيما و ملكا كبيرا }
و حكى عن عبد الله بن المبارك : خرج إلى غزو فرأى رجلا حزينا قد مات فرسه فبقي محزونا فقال له : بعني إياه بأربعمائة درهم ففعل الرجل ذلك أي باعه له فرأى من ليلته في المنام كأن القيامة قد قامت و فرسه في الجنة و خلفه سبعمائة فرس فأراد أن يأخذه فنودي أن دعه فإنه لابن المبارك و قد كان لك بالأمس فلما أصبح جاء إليه و طلب الإقالة فقال له و لم ؟ قال : فقص عليه القصة فقال له : اذهب فما رأيت في المنام رأيتاه في اليقظة ؟
قال المؤلف رحمه الله تعالى : و هذه الحكاية صحيحة لأنها في معنى ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي مسعود كما ذكرناه

باب ما جاء أن الحناء سيد ريحان الجنة و أن الجنة حفت بالريحان

ابن المبارك [أنبأنا همام عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمر قال : الحناء سيد ريحان الجنة و أن فيها من عناق الخيل و كرام الجنائب يركبها أهلها]
و قد تقدم عن أبي هريرة موقوفا أن شجرة طوبى تفتق عن الجنائب و الثياب و مثل هذا لا يقال من جهة الرأي و إنما هو توقيف فاعلمه
و ذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت [من حديث سعيد بن معن المدني قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لما خلق الله الجنة حففها بالريحان و حفف الريحان بالحناء و ما خلق الله شجرة أحب إليه من الحناء و أن للحناء لتصلي عليه ملائكة السماء إذا غدا و تقديس الأرض]
قال السكري : [و تقديس عليه ملائكة الأرض إذا أراح] هذا حديث منكر لا يصح و في إسناده غير واحد لا يعرف
و روى [الترمذي في كتاب الشمائل حدثنا محمد بن خليفة و عمر بن علي قالا : حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا الحجاج الصواف عن حنان عن أبي عثمان النهدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أعطي أحدكم الريحان فلا يردده فإنه خرج من الجنة] قال أبو عيسى : لا يعرف حنان غير هذا الحديث و قال عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب الجرح و التعديل حنان الأسدي من بني أسد بن شريك و هو حنان صاحب الرقيق عم مسرهد والد مسدد روي عن أبي عثمان النهدي و روى عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف سمعت أبي يقول ذلك و قد تقدم عن أبي هريرة موقوفا : أن شجرة طوبى تفتق على الجنائب و الثياب و مثل هذا كله لا يقال من جهة الرأي و إنما هو توقيف فاعلمه

باب ما جاء أن الشاة و المعزى من دواب الجنة

[ابن ماجه] عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشاة من دواب الجنة [و في كتاب البزار]
عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أحسنوا إلى المعزى و أميطوا عنهما الأذى فإتقيا من دواب
الجنة [و في التنزيل : { و فديناه بذيح عظيم } و إنما سمي عظيما أنه رعى في الجنة أربعين عاما روي عن ابن عباس
رضي الله عنه

باب ما جاء أن للجنة ربضا و ريحا و كلاما

[البيهقي] عن أنس عن النبي : لما خلق الله عدن و غرس أشجارها بيده قال لها تكلمي فقالت : { قد أفلح المؤمنون
{ [خرج البزار من حديث أبي سعيد الخدري
[عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خلق الجنة لبنة من ذهب و لبنة من فضة و ملاطها المسك الأذفر و قال لها
تكلمي فقالت : { قد أفلح المؤمنون } فقال طوي لك منزل الملوك [و هذا يروى موقوفا عن أبي سعيد الخدري
قال : لما خلق الله الجنة لبنة من ذهب و لبنة من فضة و غرسها قال لها تكلمي فقالت : { قد أفلح المؤمنون }
فدخلتها للملائكة فقالت : طوي لك منزل الملوك
و روي [من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله الجنة قال لها تزيني
فتزينت ثم قال لها تكلمي فتكلمت ثم قالت : طوي لمن رضيت عنه []
النسائي [عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا زعيم — و الزعيم الحميل
— لمن آمن بي و أسلم وجاهد في سبيل بيت له في ربض الجنة و بيت في وسط الجنة و بيت في أعلى غرف الجنة
من فعل ذلك فليم يدع للخير مطلبا و لا من الشهر مهرا يموت حيث شاء أن يموت []
و قال عمر بن عبد العزيز و الزهدي و الكلبي و مجاهد : مؤمنو الجنة في ربض و رحاب حول الجنة و ليسوا فيها
و روى مالك عن مسلم بن أبي مريم عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال نساء كاسيات عاريات مائلات ميملات لا
يدخلن الجنة و لا يجدن ريحها و أن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة سنة هذا موقوف قال أبو عمر بن عبد البر : و
قد رواه عبد الله بن نافع الصائغ عن مالك بهذا الإسناد عني صلى الله عليه وسلم
و خرج أبو داود و الترمذي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمة
الله و ذمة رسوله فقد أخفر بدمه الله فلا يروح رائحة الجنة و أن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا [لفظ
الترمذي

قال : و في الباب عن أبي بكره قال أبو عيسى : حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح
و خرج البخاري [عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة
الجنة و أن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما []

باب ما جاء في أن الجنة قيعان و أن غراسها سبحان الله و الحمد لله

[الترمذي] عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي
فقال : يا محمد اقرأ أمتك مني السلام و أخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء و أنها قيعان و أن غراسها سبحان الله
و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر []
قال : و في الباب عن أبي أيوب و هذا حديث حسن غريب

ابن ماجه [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو يغرس غرسا فقال : يا أبا هريرة ما الذي تغرس ؟ قال : غرسا قال : ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة]

الترمذي [عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : من قال سبحان الله العظيم و بحمده غرست له نخلة في الجنة]

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب

باب ما جاء أن الذكر نفقة بناء الجنة

ذكر الطبري في كتاب آداب النفوس قال : حدثنا الفضل بن الصباح قال : سألت النضر بن إسماعيل فحدثني عن حكيم بن محمد الأحمسي قال : بلغني أن الجنة تبنى بالذكر فإذا حسبوا الذكر كفوا عن البناء فيقال لهم في ذلك فيقولون حتى يجيئنا نفقة

قال المؤلف رحمه الله : الذكر طاعة الله عز وجل في امتثال أمره و اجتناب نهيهِ روي [عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أطاع الله و قد ذكر الله و إن قل صلاته و صومه و صنعته للخير و من عصى الله فقد نسي الله و إن كثرت صلاته و صومه و صنعته للخير] ذكره أبو عبد الله محمد في أحكام القرآن له و ذكره أيضا العامري في شرح الشهاب له

قلت : حقيقة الذكر طاعة الله تعالى في امتثال أمره و اجتناب نهيهِ

قال سعيد بن جبير : الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره و إن أكثر التسييح و التهليل و قراءة القرآن و لفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [من أطاع الله فقد ذكره و إن كان ساكتا و من عصى الله فقد نسيه و إن كان قارئا مسبحا]

قال المؤلف رحمه الله : و هذا و الله أعلم لأنه كالمستهزئ و المتهاون و من اتخذ آيات الله هزوا و قد قال العلماء في تأويل قوله تعالى : { و لا تتخذوا آيات الله هزوا } أي لا تتركوا أمر الله فتكونوا مقصرين لاعبين قالوا و يدخل في هذه الآية الاستغفار من الذنب قولاً مع الإصرار فعلا و كذا كل ما كان في هذا المعنى و الله أعلم

باب ما لأدنى أهل الجنة و لا لأعلامهم

مسلم [عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسوله الله صلى الله عليه وسلم قال : سأل موسى عليه السلام ربه فقال : يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقول : أي رب كيف و قد نزل الناس منازلهم و أخذوا أخذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك و مثله معه و مثله و مثله فقال في الخامسة رضيت رب فيقول : هذا لك و عشرة أمثاله و لك ما اشتبهت نفسك و لذت عينك فيقول : رضيت قال : يا رب فأعلامهم منزلة قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي و ختمت عليها فلم تر عين و لم تسمع أذن و لم يخطر على قلب بشر قال : و مصداقه من كتاب الله { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين } [و قد روي موقوفا عن المغيرة قوله

البخاري [عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن آخر أهل الجنة دخولا الجنة و آخر الناس خروجاً من النار رجل يخرج حوا فيقول له ربه : ادخل الجنة فيقول : رب الجنة ملأى فيقول له

ذلك ثلاث مرات كل ذلك يعيد عليه الجنة مائة فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرات [وقد تقدم هذا وروي [عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع قصور قصر من ذهب و قصر من فضة و قصر من در و قصر من زمرد و قصر من ياقوت و قصر لا تدركه الأبصار و قصر على لون العرش في كل قصر من الحلى و الحلل و الحور العين ما لا يعلمه إلا الله عز و جل] ذكره القتيبي في عيون الأخبار له و في مراسل الحسن [عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أدنى أهل الجنة منزلة الذير يركب في ألف ألف من خدمه [الحديث و قد تقدم

و خرج الترمذي [عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانة و نعيمه و خدمة و سروره مسيرة ألف سنة و أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة و عشيا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة } [قال : حديث غريب و قد روي عن ابن عمر و لم يرفعه

و خرج [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم و اثنتان و سبعون زوجة و ينصب له قبة من لؤلؤ و زبرجد و ياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء [قال هذا ابن المبارك قال : [أخبرنا سفيان عن رجل عن مجاهد قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه مسيرة ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه و أرفعهم هو الذي ينظر إلى ربه بالعداة و العشي] و قد تقدم هذا مرفوعا في الباب عن ابن عمر موقوفا و هذا الباب و الذي قبله يدل على أن أدنى أهل الجنة منزلة الكثير من و الزوجات من الحور العين ما قرناه فيما تقدم و الله أعلم

باب رضوان الله تعالى لأهل الجنة أفضل من الجنة

البخاري [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا و سعديك و الخير في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون : و ما لنا لا نرضى يا رب و قد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول أفلا أعطيتكم أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا [أخرجه مسلم بمعناه في حديث فيه طول

باب رؤية أهل الجنة لله تعالى أحب إليهم مما هم فيه و أقر لأعينهم

مسلم [عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك و تعالى لهم : أتريدون شيئا أزيدكم فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة و تخرجنا من النار قال : فيكشف لهم الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز و جل و في رواية هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } [و خرج النسائي [عن صهيب قال : قيل لرسول الله هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار ينادي مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فقالوا : لم تبيض وجوهنا و تنقل موازيننا و تجرنا من النار قال : فيكشف الحجاب فينظروا إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه الله و لا أقر لأعينهم [

و أخرجه أبو داود الطيالسي أيضا قال : [حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } قال : إذا دخل أهل الجنة

الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله تعالى موعدا فيقولون : ما هو أليس قد بيض وجوهنا و ثقل موازيننا و أدخلنا الجنة ؟ فيقال لهم ثلاثا فيتجلى لهم الرب تبارك و تعالى فينظرون إليه فيكون ذلك عندهم أعظم مما أعطوا [

أخبرنا الشيخ الراوية : أبو محمد عبد الوهاب قرأ عليه بنغر الاسكندرية حماه الله قرئ على الحافظ السلفي و أنا أسمع قال : [أخبرنا الحاجب أبو الحسن بن العلاف حدثنا أبو القاسم بن بشران حدثنا أبو بكر الأجرى حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي حدثنا عبد الوهاب بن عبد الحكم الوراق النيسابوري حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة نودوا أن يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا لم تروه قالوا : و ما هو ألم يبيض وجوهنا و يزحزحنا عن النار و يدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا هو أحب إليهم منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة }

و كذا أخرجه الإمام أحمد بن حنبل و الحارث ابن أبي أسامة عن يزيد بن هارون و انفرد مسلم بإخراجه فرواه [عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن يزيد بن هارون و رواه نوح ابن أبي مريم عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } فقال للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى و هي الجنة قال : و الزيادة النظر إلى وجهه الكريم فأخطأ فيه خطأ بينا و وهم وهما قبيحا و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا أبو بكر الهلالى الهجيمي قال : سمعت أبا موسى الأشعري على منبر البصرة يقول : إن الله يعث يوم القيامة ملكا إلى أهل الجنة فيقول هل أنجزكم الله ما وعدكم فينظرون فيرون الحلى و الحلل و الثمار و الأثمار و الأزواج المطهرة فيقولون نعم أنجزنا الله ما وعدنا فيقول الملك : هل أنجزكم ما وعدكم ثلاث مرات فلا يفقدون شيئا مما وعدوا فيقولون : نعم فيقول : بقي لكم شيء إن الله تعالى يقول { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } ألا إن الحسنى الجنة و الزيادة النظر إلى الله تعالى

فصل : ما رواه النسائي مرفوعا و كذلك أبو داود الطيالسي و أسنده عن الأجرى و ذكره ابن المبارك موقوفا بين حديث مسلم و أن المعنى بقوله : قال الله تعالى : قال ملك الله : تريدون شيئا أزيدكم أن يزيدكم و قوله : فيكشف الحجاب : معناه أنه يرفع الموانع من الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نعوت العظمة و الجلال و البهاء و الكمال و الرفعة و الجمال لا إله إلا هو سبحانه عما يقول الزائفون و المبطلون فذكر الحجاب إنما هو في حق المخلوق لا في حق الخالق فهم المحجوبون و البارى جل اسمه و تقدست أسماؤه منزلة عما يحجبه إذ الحجب إنما يحيط بمقدر محسوس و ذلك من نعوتنا و لكن حجبه عن أبصار خلقه و بصائرهم و إدراكهم بما شاء و كيف شاء و روي في صحيح الأحاديث أن الله تعالى إذا تجلى لعباده و رفع الحجب عن أعينهم فإذا رأوه تدفقت الأثمار و اصطفت الأشجار و تجاوت السرر و الغرفات بالصرير و الأعين المتدفقات بالخرير و استرسلت الريح المثيرة و ثبت في الدور و القصور المسك الأذفر و الكافور و غردت الطيور و أشرقت الحور العين ذكره أبو المعالي في كتاب الرد له على السجزي و قال : و كل ذلك بقضاء الله و قدره و إن لم يكن منها شيء عن الرؤية و النظر و لكن الله تعالى يعرف بما شاء ما شاء من آيات عظمته و دلالات هيئته و ذلك بمثابة تدكدك الجبل الذي تجلى الله له و

تعرضه حتى صار رملا هاتلا ساتلا و الله أعلم

باب منه في الرؤية

مسلم [عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : جنتان من فضة آنيتهما و

ما فيهما و جنتان من ذهب آنيتهما و ما فيهما و ما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربحهم عز و جل إلا رداء الكبرياء على وجه في جنة عدن]

[و عن جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و صلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ { و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب } [أخرجه البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و قال حديث حسن صحيح و خرج أبو داود] عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أكلنا يرى الله مخليا به يوم القيامة ؟ قال : نعم قلت و ما آية ذلك في خلقه ؟ قال : يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به ؟ قلت : بلى قال : فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل و أعظم]

[فصل] قوله : إلا رداء الكبرياء على وجهه الرداء به هنا مستعار كني به عن كبريائه و عظمته بينه الحديث الآخر : الكبرياء ردائي و العظمة إزاري يريد بذلك صفتي فقوله : رداء الكبرياء يريد صفة الكبرياء فهو بكبريائه و عظمته لا يريد أن يراه أحد من خلقه بعد رؤية القيامة حتى يأذن لهم بدخول جنة عدن فإذا دخلوها أراد أن يروه فيروه و هم في جنة عدن قال معناه : البهيمي و غيره و ليست العظمة و الكبرياء من جنس الثياب الخسوسة و إنما هي توسعات و وجه المناسبة أن الرداء و الإزار لما كانا ملازمين للإنسان مخصوصين به و لا يشاركه فيهما غيره عبر عن عظمته و كبريائه بهما لأنهما مما لا يجوز مشاركة الله تعالى فيهما ألا ترى آخر الحديث فمن نازعني واحدا منهما قصمته ثم قذفته في النار

باب منه و في سلام الله تعالى عليهم

روى محمد بن المنكدر [عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : بينا أهل الجنة في نعيمهم إذا سطع لهم نور من فوقهم فإذا الرب سبحانه قد أشرف عليهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة و ذلك قوله تعالى { سلام قولا من رب رحيم } قال : فإذا نظروا إليه نسوا نعيم الجنة حتى يحتجب عنهم فإذا احتجب عنهم بقي نوره و بركته عليه في ديارهم]

[فصل] قوله : قد أشرف عليهم أي أطلع كما يقال فلان مشرف عليك أي مطلع عليك من مكان عال و الله تعالى لا يوصف بالمكان من جهة الحلول و التمكن و إنما يوصف من جهة العلو و الرفعة فعبر عن اطلاعه عليهم و نظره إليهم بالإشراف و لما كان سبحانه قائلا متكلمًا و كان الكلام له صفة في ذاته و لم يزل و لا يزال فهو يسلم عليهم سلاما هو قوله منه كما قال تعالى : { سلام قولا من رب رحيم } و قوله : فإذا نظروا إليه نسوا نعيم الجنة أي هوا عنه بلذة النظر إلى وجهه الكريم و ذلك أن ما دون الله تعالى لا يقاوم تجليه و لولا أن الله تعالى يشبههم و يقيهم حل بهم ما حل بالجبل حين تجلى به و قوله حتى يحتجب عنهم يجوز أن يكون معناه حتى يردهم إلى نعيم الجنة الذي نسوه و إلى حظوظ أنفسهم و شهواتها التي سهوا عنها فانتفعوا بنعيم الجنة الذي وعده لهم و تنعموا بشهوات النفوس التي أعدت لهم و ليس ذلك إن شاء الله تعالى على معنى الاحتجاب عنهم الذي هو بمعنى الغيبة و الاستتار فيكونوا له ناسين و عن شهوده محجوبين و إلى نعيم الجنة ساكنين و لكنه يردهم إلى ما نسوه و لا تحجبهم عما شاهدوا حجة غيبة و استتار يدل على ذلك قوله : بقي نوره و بركته عليهم في ديارهم و كيف يحجبهم عنه و هو ينعت المزيد عليهم و ما وعدهم به من النعيم و النظر إذا صح و الحجة إذا ارتفعت لم يكن بينة نظر البصر و

شهود السر فرق و لا بين حال الشهود و الغيبة فرق فيكون محجوبا في حال الغيبة بل تنفق الأوقات و تتساوى الأحوال فيكون في كل حال شاهدا و بكل جراحة ناظرا و لا يكون في حال محجوبا و لا بالغيب موصوفا
حكاية

حكى عن قيس المجنون أنه قيل له : ندعو لك ليلي ؟ فقال و هل غابت عني فتدعى ؟ فقيل له : أتحب ليلي ؟ فقال :
الحبة ذريعة الوصلة و قد وقع الوصل فأنا ليلي و ليلي أنا و الله أعلم

باب منه و بيان قوله تعالى و لدينا مزيد

يحيى بن سلام قال : [أخبرنا رجل من أهل الكوفة عن داود بن أبي هند عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أهل الجنة لينظرون إلى ربهم في كل جمعة على كتيب من كافور لا يرى طرفاه و فيه نمر جار حافظه المسك عليه جوار يقرآن القرآن بأحسن أصوات سمعها الأولون و الآخرون فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كل رجل بيد من شاء منهم ثم يمرون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم فلولا أن الله تعالى يهديهم إلى منازلهم ما اهتدوا إليها لما يحدث الله إليهم في كل جمعة]

و خرج عن بكر بن عبد الله المزني قال : إن أهل الجنة ليزورون ربهم في مقدار كل عيد كأنه يقول في كل سبعة أيام مرة فيأتون رب العزة في حلل خضر و وجوه مشرقة و أساور من ذهب مكللة بالدر و الزمرد عليهم أكابيل الذهب و يركبون بحائهم و يستأذنون على ربهم فيأمرهم ربنا بالكرامة

و ذكر هو و ابن المبارك جميعا قال حدثنا المسعودي عن النهال بن عمرو بن أبي عبيدة بن عبد الله بن عقبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كتيب من كافور أبيض فيكونون معه في القرب قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا

و قال يحيى بن سلام : كمسارعهم إلى الجمعة في الدنيا و زاد فيحدث لهم شيئا من الكرامة لم يكونوا رأوه قبل ذلك قال يحيى : و سمعت غير المسعودي يزيد فيه و هو قوله تعالى { و لدينا مزيد } و قال الحسن في قوله تعالى { للذين أحسنوا الحسنى و زيادة } قال : الزيادة النظر إلى وجه الله عز و جل و ليس شيء أحب إلى أهل الجنة من يوم الجمعة يوم المزيد لأنهم يرون فيه الجبار جل جلاله و تقدست أسماؤه

فصل

قلت : قوله في كتيب يريد أهل الجنة أي هم على كتيب كما في مرسل الحسن أول الباب و قيل : المزيد ما يزوجون به من الحور العين رواه أبو سعيد الخدري مرفوعا و ذكر أبو نعيم عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة قال : إن

من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم فلا يتمنون شيئا إلا مطروا قال خالد : يقول كثير لئن أشهدني الله ذلك لأقولن لها أمطرينا جوارى مزيينات و قد تقدم من حديث ابن عمرو أكرمهم على الله من ينظر إلى الله غدوة و عشية و هذا يدل على أن أهل الجنة في الرؤية مختلفو الحال و قد روي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : إن الله تعالى عبادا لو حججهم في الجنة ساعة لاستغاثوا من الجنة و نعيمها كما يسغيث أهل النار من النار و عذابها

نبد من أقوال العلماء في تفسير كلمات و آيات من القرآن وردت في ذكر الجنة

و أهلها

من ذلك قوله تعالى : { و نزعنا ما في صلورهم من غل } قال ابن عباس أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله تعالى ما في قلوبهم من غل ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم و تصفوا و جوههم و تجري عليهم نضرة النعيم
و قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى { و سقاهم رهم شرابا طهورا } قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما فيجري عليهم بنضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم و لا تشعث أشعارهم أبدا ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فتقول لهم : { سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين }

و ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي أنه تلا هذه الآية { و سيق الذين اتقوا رهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها } و جلوا عند باب الجنة شجرة يخرج من ساقها عينان فعمدوا إلى أحدهما كأنما أمروا بها فاعتسلوا منها فلم تشعث رؤوسهم بعدها أبدا و لم تغير جلودهم بعدها أبدا كأنما دهنوا بالدهن ثم عمدوا إلى الأخرى فشربوا منها فطهرت أجوافهم و غسلت كل قدر فيها و تتلقاهم على كل باب من أبواب الجنة ملائكة { سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين } ثم تتلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان الدنيا بالحميم يجيء من الغيبة يقولون : أبشر أعد الله لك كذا و كذا ثم يذهب الغلام منهم إلى الزوجة من أزواجه فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى في الدنيا فتقول له : أنت رأيتة ؟ فيستخفها الفرحة حتى تقوم على أسكفة الباب ثم ترجع فنجيء فننظر إلى تأسيس بنيانه من جندل اللؤلؤ أخضر و أصفر و أحمر من كل لون ثم يجلس فينظر فإذا زرابي مبنوثة و أكواب موضوعة و ثمارق مصفوفة ثم يرفع رأسه إلى سقف بنيانه فلولا أن الله قدر ذلك لأذهب بصره إنما هو مثل البرق ثم يقول : كما أخبرنا تعالى { الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله }

و ذكر القتيبي في عيون الأخبار له مرفوعا [عن علي رضي الله عنه أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قول الله عز و جل { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا } ما هؤلاء الوفد ؟ قال : يحشرون ركبانا ثم قال : و الذي نفسي بيده أنهم إذا خرجوا من قبورهم ركبوا نوقا عليهم رحائل الذهب مرصعة بأنواع الجواهر فتسير بهم إلى باب الجنة قال : و عند باب الجنة شجرة يبيع من أصلها عينان فيشربون من إحدى تلك العينين فإذا بلغ الشراب البطن طهرهم الله به من دنس الدنيا و قدرها فذلك قوله تعالى { و سقاهم رهم شرابا طهورا } قال : ثم يغتسلون من العين الأخرى فلا تشعث رؤوسهم و لا تتغير ألوانهم قال : ثم يضربون حلق أبواب الجنة فلو سمعت الخلائق طنين الأبواب لافتنوا بها فيبادر رضوان فيفتح لهم فينظرون إلى حسن وجهه فيخرون ساجدين فيقول لهم رضوان يا أولياء الله : أنا قيمكم الذي و كلت بكم و بمنازلكم فينطلق بهم إلى قصور من فضة شوفاتما من ذهب يرى ظاهرها من باطنها من النور و الرقة و الحسن قال فيقول أولياء الله عند ذلك يا رضوان : لمن هذا ؟ فيقول : هذا لكم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : فلولا أن الموت يرفع عن أهل الجنة لمات أكثرهم فرحا قال : ثم يريد أحدهم أن يدخل قصره فيقول له رضوان اتبعني حتى أريك ما أعد الله لك قال : فيمر به فيريده قصورا و خياما و ما أعطاه الله عز و جل قال : ثم يأتي به إلى غرفة من ياقوته من أسفلها إلى أعلاها مائة ذراع قد لونت بجميع الألوان على جنادل الدر و الياقوت و في الغرفة سرير طوله فرسخ في عرض مثل ذلك عليه من الفراش كقدر خمسين غرفة بعضها فوق بعض قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : فذلك قوله عز و جل { و فرش مرفوعة } و

هي من نور و السرير من نور و على رأس ولي الله تاج له سبعون ركنا في كل ركن سبعون ياقوتة تضيء و قد رد الله وجهه كالبدر و عليه طوق و وشاح يتلألأ من نور و قد سور بثلاثة أسورة : سوار من الذهب و سوار من فضة و سوار من لؤلؤ فذلك قوله تعالى { يملون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير } [و قوله تعالى { جنات عدن يدخلونها } قال ابن عباس الجنات سبع : دار الجلال و دار السلام و جنة عدن و جنة المأوى و جنة الخلد و جنة الفردوس و جنة النعيم

وقيل : إن الجنان أربع لأن الله تعالى قال : { و لمن خاف مقام ربه جنتان } و قال بعد ذلك { و من دونهما جنتان } و لم يذكر سوى هذه الأربع جنة خامسة فإن قيل فقد قال جنة المأوى قيل جنة المأوى اسم لجميع الجنان يدل عليه أنه تعالى قال : { فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون } و الجنة اسم الجنس فمرة يقال جنة و مرة يقال جنات و كذلك جنة عدن و جنات عدن لأن العدن الإقامة و كلها دار الإقامة كما أن كلها مأوى المؤمنين و كذلك دار الخلد و دار السلام لأن جميعها للخلود و السلامة من كل خوف و حزن و كذلك جنات النعيم و جنة النعيم لأن كلها مشحونة بأصناف النعيم ذكره الحلبي في كتاب منهاج الدين له و قال : إنما معنا أن نجعل كل واحدة من العدن و المأوى و النعيم جنة سوى الأخرى لأن الله تعالى إن كان سمي شيئا من هذه الأسماء جنة في موضع فقد سمي الجنات كلها بذلك الاسم في موضع آخر فعلمنا أن هذه الأسماء ليست لتمييز جنة من جنة و لكنها للجنان أجمع لا سيما و قد أتى الله بذكر العدد فلم يثبت إلا أربعة و قد أثبت لهذه الجنان أبوابا فقال : [و فتحت أبوابها] و قال عليه الصلاة و السلام : [إن أبواب الجنة ثمانية] فيحتمل أن يكون ذلك لأن لكل جنة من الجنان الأربع بابين و وصف أهل الجنة فصنفهم صنفين : أحدهما السابقون المقربون و الآخرون أصحاب اليمين فعلمنا أن السابقين أهل الجنتين العليتين في قوله : { و لمن خاف مقام ربه جنتان } و أهل اليمين أهل الجنتين الدنيتين { و من دونهما جنتان } و بهذا جاءت الروايات

و روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : { و لمن خاف مقام ربه جنتان } إلى قوله { و من دونهما جنتان } قال : فتلك للمقربين و هاتان لأصحاب اليمين و عن أبي موسى الأشعري نحو ذلك قوله تعالى : { يملون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤا } قال المفسرون : ليس أحد من أهل الجنة إلا و في يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب و سوار من فضة و سوار من لؤلؤ و قال هنا : { من ذهب و لؤلؤا } و قال في آية أخرى : { و حلوا أساور من فضة }

و في الصحيح : تبلغ حلية المؤمن حيث تبلغ الوضوء و قريء [لؤلؤا] بالنصب على معنى و يملون لؤلؤا و أساور : جمع أسورة و أسورة واحدها سوار فيها ثلاث لغات ضم السين و كسرها و أسوار قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور و التيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة إذ هم ملوك قوله تعالى : { و لباسهم فيها حرير }

روي عن يحيى بن سلام عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال : [دار المؤمن في الجنة درة مجوفة في وسطها شجرة تنبت الحلل و يأخذ بأصبعه أو قال بأصبعه سبعين حلة منظمة باللؤلؤ و الزبرجد و المرجان] و أخرجه ابن المبارك بهذا السند عن حماد عن أبي المهزم قال : سمعت أبا هريرة يقول : [إن دار المؤمن في الجنة من لؤلؤة فيها أربعون بيتا في وسطها شجرة تنبت الحلل فيذهب فيأخذ بأصبعه سبعين حلة منظمة باللؤلؤ و الزبرجد و المرجان] و قد تقدم هذا المعنى و أبو المهزم ضعيف

و روى عن أبي هريرة أنه قال : بلغني أن ولي الله يلبس حلة ذات وجهين يتجاوبان بصوت مليح تقول النبي تلي

جسده : أنا أكرم على ولي الله منك أنا أمس بدنه و أنت لا تمسينه و تقول التي تلي وجهه : أنا أكرم على ولي الله منك أنا أرى وجهه و أنت محجوبة لا ترين وجهه و قد تقدم أن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة من حديث أبي سعيد الخدري صححه أبو عمرو رحمه الله و قال : هذا عندي على نحو المعنى الذي نزعنا به في شارب الخمر أنه إذا دخل الجنة لا يشرب فيها خمرا و لا يذكرها و لا يراها و لا تشتهيها نفسه فكذلك لا لبس الحرير في الدنيا إن لم يتب منه

قلت : و كذلك من استعمل آنية الذهب و الفضة و لم يتب من استعمالها و قد روي [عن أبي موسى الأشعري أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين فقيل : و من الروحانيون يا رسول الله ؟ قال قراء أهل الجنة] خرجه الترمذي أبو عبد الله في نوادر الأصول و قد قيل : إن حرمانه الخمر و لباسه الحرير و شربه في إناء الذهب و الفضة و استماعه للروحانيين إنما هو في الوقت الذي يعذب في النار و يسقى من طينة الخبال فإذا خرج من النار بالشفاعة أو بالرحمة العامة المعبر عنها في الحديث بالقبضة أدخل الجنة و لم يحرم شيئا منها لا خمرا و لا حريرا و لا غيره لأن حرمان شيء من لذات الدنيا لمن كان في الجنة نوع عقوبة و مؤاخضة و الجنة ليست بدار عقوبة و لا مؤاخضة فيها بوجه من الوجوه

قلت : و حديث أبي سعيد الخدري و أبي موسى الأشعري يرد هذا القول و كما لا يشتهي منزلة من هو أرفع منه و ليس ذلك لعقوبة كذلك لا يشتهي خمرة الجنة و لا حريرها و لا يكون ذلك عقوبة قوله تعالى { و يلبسون ثيابا خضرا من سندس و إستبرق } و قال { عاليهم ثياب سندس خضر و إستبرق } الإستبرق : اللباج الصفيق الكثيف و السندس : الرقيق الخفيف و خص الأخضر لأنه الموافق للبصر لأن البياض يبدد النظر و يؤلم و السواد يورم و الخضرة لون بين السواد و البياض و تلك تجمع الشعاع قوله تعالى : { متكتين فيها على الأرائك } الأرائك : جمع أريكة و هي السرر في الحجل و قال { متكتين على سرر مصفوفة }

و روي [عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج في شهر واحد ألف حوراء يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا]

و روي عن ابن عباس أنه قال : إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحور سبعين سنة لا يملها و لا تملها كلما أتاها و جدها بكرا و كلما رجعت إليه عادت إليه شهوته فيجامعها بقوة سبعين رجلا لا يكون بينهما مني يأتي من غير مني منه و لا منها

و قال المسيب بن شريك : [قال النبي صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى { إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا } قال : هي عجائز الدنيا أنشأهن الله خلقا جديدا كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا فلما سمعت عائشة ذلك قالت : و اوجعاه فقال النبي صلى الله عليه و سلم ليس هناك و جمع]

و ذكر يحيى بن سلام عن صاحب له [عن أبان بن عياش عن شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الرجل من أهل الجنة ليتنعم مع زوجته في تكأة واحدة سبعين عاما فتناديه أهى منها و أجمل من غرفة أخرى : أما آن لنا منك دولة بعد فإلتفت إليها فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من اللاتي قال الله تعالى { و لدينا مزيد } فيتحول إليها يتنعم معها سبعين عاما في تكأة واحدة فتناديه أهى و أجمل من غرفة أخرى : أما آن لنا منك دولة بعد فإلتفت إليها فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من اللاتي قال الله تعالى { فلا تعلم نفس ما

أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون { فيتحول إليها فيتعمم معها في تكأة واحدة سبعين عاما فهم كذلك يزورون [قال تعالى : { و زوجناهم بحور عين { الحور : البيض في قول قتادة و العامة و العين : العظام العيون و قال قتادة في قوله تعالى : { إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون { يعني في الآخرة في شغل فاكهون قال : يعني افتضاض العذارى فاكهون قال الحسن : مسرورون { هم و أزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون { قوله تعالى { أولئك لهم رزق معلوم { فيه قولان : أحدهما حين يشتهونه قال مقاتل : الثاني بمقدار العداة و العشي قاله ابن السائب قال الله تعالى { و هم رزقهم فيها بكرة و عشيا { قال العلماء : ليس في الجنة ليل و لا نهار و إنما هم في نور أبدا و إنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب و إغلاق الأبواب و يعرفون مقدار النهار برفع الحجب و فتح الأبواب ذكره أبو الفرج بن الجوزي

و خرج أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول له [من حديث أبان عن الحسن و أبي قلابة قال : قال رجل يا رسول الله : هل في الجنة من ليل ؟ قال : و ما هيحك على هذا ؟ قال : سمعت الله تعالى يقول في الكتاب { و هم رزقهم فيها بكرة و عشيا { فقلت : الليل بين البكرة و العشي فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس هناك ليل إنما هو ضوء و نور الغدو على الرواح و الرواح على الغدو و يأتيهم طرف الهدايا لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها و تسلم عليهم الملائكة [قوله تعالى ذكره : فواكه جمع فاكهة قال الله تعالى { و أمددناهم بفاكهة و لحم مما يشتهون { و هي الثمار كلها رطبها و يابسها قاله ابن عباس و قال مجاهد في قوله تعالى { و دانية عليهم ظلالها { يعني ظلال الشجر { و ذلت قطوفها تذليلا { أي ذلت ثمارها يتناولن منها كيف شاءوا إن قام ارتفعت بقدره و إن قعد تدلت إليه و إن اضطجع تدلت إليه حتى يتناولها و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء { و دانية عليهم ظلالها و ذلت قطوفها تذليلا { قال : أهل الجنة يأكلون الثمار من الشجر كيف شاءوا جلوسا و مضطجعين و كيف شاءوا ؟ واحد القطوف قطف بكسر القاف

و ذكر ابن وهب [قال : أخبرنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم أن رسول الله : إن خلق أهل الجنة إذا دخلوا الجنة ستون ذراعا كالنخلة السحوق يأكلون من ثمار الجنة قياما [و ذكر يحيى بن سلام [عن عثمان بن نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و الذي نفسي بيده إن الجنة ليتناولون من قطوفها و هم متكئون على فراشهم فما تصل إلى في أحلامهم حتى يبدل مكانها أخرى قوله تعالى { يطاف عليهم بصحاف من ذهب و أكواب { [

روي [عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : إن أدنى الجنة منزلة الذي يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل خادم صحفان واحدة ذهب و الأخرى فضة كل واحدة لون لا يشبه الأخرى [ذكره القتيبي في عيون الأخبار و قال المفسرون : يطوف على أدنهم منزلة سبعين ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب يفدى عليه بما في كل واحدة منها لون ليس في صاحبها يأكل من آخرها كما يأكل من أولها و يجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها لا يشبه بعضه بعضا و يراعى عليه بمثلها و يطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام مع كل غلام صحفة من ذهب فيها ألوان الطعام ليس في صاحبها يأكل من آخرها كما يأكل من أولها و يجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها لا يشبه بعضه بعضا و أكواب أي : و يطاف عليهم بأكواب كما قال تعالى { و يطاف عليهم بآنية من فضة و أكواب { قال قتادة : الكوب : المدور القصير العتق القصير العروة و الإبريق المستطيل الطويل العتق الطويل العروة و قال ابن عزيزة : أكواب : أباريق لا عرى لها و لا خراطيم واحدها كوب قاله الأخفش و قطرب و قال الجوهري

في الصحاح : الكوب كوز لا عروة له و نحوه قوله مجاهد و السدي و هو مذهب أهل اللغة : التي لا آذان لها و لا عرى { كانت قواريرا * قوارير من فضة } أي اجتمع فيها صفاء القوارير في بياض القضة و ذلك أن لكل قوم من تراب أرضهم قوارير قال : و إن تراب الجنة فضة فهي قوارير من فضة قاله ابن عباس و قال : هي في صفاء القضة و في ذلك دليل على أن أرض الجنة من فضة إذ المعهود الدنيا اتخاذ الآنية من الأرض يرى باطنها من ظاهرها و ظاهرها من باطنها كالقوارير يرى الشراب من جدر القوارير و هذا لا يكون في فضة الدنيا { قدروها تقديرا } أي في أنفسهم فأتتهم على نحو ما قدروا و اشتهوا من صغار و كبار و أوساط هذا تفسير قتادة و قال ابن عباس و مجاهد : أتوا بها على قدر رتبهم بغير زيادة و لا نقصان و المعنى قدرتها للملائكة التي تطوف عليهم و يسقون فيها كأسا أي من كأس كما قال في الآية الأخرى : { إن الأبرار يشربون من كأس { يعني الخمر قال { يطاف عليهم بكأس من معين } أي من خمر و المعين : الماء الجاري الظاهر لا فيها غول أي لا تغتال عقولهم و لا يصيبهم منها صداع { و لا هم عنها ينزفون } أي لا تذهب عقولهم بشرها يقال : الخمر غول للحليم و الحرب غول للنفوس أي تذهب بها و قرأ حمزة و الكسائي : ينزفون بكسر الزاي من أنزف القوم إذا حان منهم النزف و هو السكر كما يقال : أحصد الزرع إذا حان حصاده و أقطف الكرام إذا حان قطافه و أركب المهر إذا حان ركوبه و قيل : المعنى لا ينفذون شراهم لأنه دأبهم و الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرايه فإن كان فارغا فليس بكأس { كان مزاجها كافورا } قال الكلبي كافورا عينا في الجنة يشرب بها أي منها و قيل الباء زائدة و المعنى : يشربها و منه تنبت بالدهن أي تنبت الدهن و قال { كان مزاجها زنجيلا } و كانت العرب تستطيب الزنجييل و تضرب به المثل و بالخمر ممزوجين فخاطبهم الله بما كانوا عارفين و يستحبون كأنه يقول : لكم في الآخرة مثل ما تستحبون في الدنيا إن آمنتهم { عينا فيها تسمى سلسيلا } السلسيل اسم العين و السلسيل في اللغة صفة لما كان غاية في السلاسة و قال تعالى { يسقون من رحيق { يعني الشراب و هي الخمر { محتوم * ختامه مسك } قال مجاهد : يختم به آخر جرعة و قيل : المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما في الكأس و انقطع الختم ذلك بطعم المسك

و قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى { ختامه مسك } خلطه ليس بخاتم يختم ألم تر إلى قول المرأة من نسائكم خلطه من الطيب كذا و كذا إنما خلطه مسك ليس بخاتم يختم ذكره ابن المبارك و ابن وهب و اللفظ لابن وهب و ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء { ختامه مسك } قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها و في ذلك { فليتنافس المتنافسون } أي في الدنيا بالأعمال الصالحة قال { و مزاجه من تسنيم } أي و مزاج ذلك الشراب { عينا يشرب بها المقربون } قال قتادة : يشرب بها المقربون صرفا و تمزج لسائر أهل الجنة و تسنيم أشرف شراب في الجنة و أصل التسنيم في اللغة الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل و منه سنام البعير لعلوه من بدنه و كذلك تسنيم القبور و قد تسنم العيون و المياه فتشرف عليهم تجري من أعلى العرش يحقق ذلك ما رواه أبو مقاتل [عن صالح ابن سعيد عن أبي سهل عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكرها الله { يفجرونها تمجيرا } و الأخرى { نضاختان } من فوق العرش إحداهما التي ذكرها الله سلسيلا و الأخرى التسنيم] ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول في الأصل التاسع و الثمانين و قال : التسنيم للمعدين خاصة شرابهم و الكافور للأبرار شرابهم و الكافور للثمانين و الكافور يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم و أما الزنجييل و السلسيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل و سكت عن

ذلك لمن هي له شرب فما كان للأبرار مزاجا فهو للمقربين صرفا و ما كان للأبرار صرفا فهو لسائر أهل الجنة مزاجا

و الأبرار هم الصادقون و المقربون هم الصديقون قال الحسن : حمر الجنة أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل و في التنزيل { بكأس من معين * ييضاء لذة للشاربين } أي لذيدة يقال شراب لذيد إذا كان طيبا قوله تعالى : { و عندهم قاصرات الطرف } أي نساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرون إلى غيرهم قال ابن زيد : إن المرأة منهن لتقول لزوجها : و عزة ربي ما أرى في الجنة شيئا أحسن منك و عين : عظام العيون الواحدة منهن عيناء { كأنهن بيض مكنون } أي مصون

و قال الحسن و ابن زيد شبههن ببيض تكفه النعامة بالريش من الريح و الغبار فلونه أبيض في صفرة و هو أحسن ألوان النساء و قيل المراد بالبيض : اللؤلؤ كقوله { و حور عين * كأنثال اللؤلؤ المكنون } أي في أصدافه و قال { فيهن خيرات حسان } يعني النساء الواحدة خيرة و أصله خيرات فنخفف كهين و لين ابن المبارك قال : أنبأ الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد بن أبي عامر قال : لو أن خيرة من خيرات حسان اطلعت من السماء لأضاءت لها و لقهر ضوء وجهها الشمس و القمر و لنصيف تكساه خيرة خير من الدنيا و ما فيها النصيف : القناع و قوله : حسان أي حسان الخلق و إذا قال تعالى { حسان } فمن يقدر أن يصف حسنهن حور أي بيض مقصورات أي محبوسات في الخيام جمع خييمة و قد تقدم صفتها و قال ابن عباس : الخيمة درة مجوفة فرسخ في مثله لها أربع آلاف مصراع من ذهب ذكره ابن المبارك : أنبأنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس

و ذكر عن أبي الدرداء قال : الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابا كلها در و عن أبي الأحوص { حور مقصورات في الخيام } قال : الدر الجوف و قال الترمذي الحكيم في قوله تعالى : { حور مقصورات في الخيام } قال : بلغنا في الرواية أن سحابة مطرت من العرش فخلقن من قطرات الرحمة ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطئ الأنهار لسعتهن أربعون ميلا و ليس لها في ذلك باب حتى إذا حل ولي الله بالجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة و الخدم لم تأخذها فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين و ذكر الدار قطني في كتاب المديح عن المعتمر بن سليمان قال : إن في الجنة نورا ينبت الجوازي الأبيكار و الرفرف : المجالس قاله قتادة و قيل : فضول المجالس و قال أبو عبيد : الرفرف : العرش

و قال الترمذي الحكيم : إن الرفرف شيء إذا اسوى عليه صاحبه رفر و أهوى به كالمراح يمينا و شمالا و رفعا و خفضا يتلذذ به مع أنيسته فإذا ركبوا الرفارف أخذ إسرائيل في السماع فيروي في الخبر أنه ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرائيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم و تسيحلتهم فإذا ركبوا الرفارف أخذ إسرائيل في السماع بأنواع الأغاني تسيحها و تقديسا للملك القلوس فلم تبق شجرة في الجنة إلا وردت و لم يبق ستر و لا باب إلا ارتج و انفتح و لم تبق حلقة على باب إلا طنت بأنواع طينها و لم يبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهوب الصوت في مقاصبها فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر و لم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنت بأغانيها و الطير بألحانها و يوحى الله تبارك و تعالى إلى الملائكة أن جابوهم و أسمعوا عبادي الذي نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاءون بالحن و أصوات روحانية فنختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة ثم يقول الله عز و جل ذكره : يا داود قم عند ساق العرش تجدني فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يعم

الأصوات و يجليها و تضاعف اللذة و أهل الخيام من تلك الرفارف تموي بهم و قد حفت بهم أفانين اللذات و الأغاني فذلك قوله تعالى { فهم في روضة يحبرون }
و عن يحيى بن أبي كثير في قوله تعالى { فهم في روضة يحبرون } قال : الروضة اللذات و السماع قوله تعالى { و عبقرى حسان } العبقرى الفرش له قال ابن عباس : الواحدة عبقرى و هي النمارق أيضا في قوله تعالى { و نمارق مصفوفة } و الزرابى البسط مبثوثة معناه : مبسوطة و قيل منسوجة بالدر و الياقوت و قوله تعالى : { و أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين } يعني أهل الجنة من غير السابقين و أهل الجنة كلهم أصحاب يمين { في سدر مخضود } و هو الذي نزع شوكة و قد تقدم { و طلع منضود } أي بعضه على بعض و قال المفسرون : الطلع شجر الموزها هنا و هو عند العرب شجر حسن اللون لخضرته و إنما خص بالذكر لأن قريشا كانوا يعجبون من خضرته و كثرة ظلاله من طلع و سدر فخطبوا و وعدوا لما يجون مثله قاله مجاهد و غيره قوله تعالى { و هم فيها أزواج مطهرة } قال مجاهد : مطهرة من البول و الغائط و الحيض و النخام و البصاق و المني و الولد ذكره ابن المبارك أنبأنا ابن جريج عن مجاهد فذكره { و هم فيها خالدون } أي باقون لا خروج لهم منها و قد تقدم و قال مجاهد أيضا في قوله تعالى { على سرر متقابلين } قال : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلوا و تحابوا و قيل : الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد
و قال ابن عباس : على سرر مكلمة بالدر و الياقوت و الزبرجد السرير منها ما بين صنعاء إلى الجابية و ما بين عدن إلى أيلة و قيل : تدور بأهل المنزل الواحد و الله أعلم

باب ما جاء في أطفال المسلمين و المشركين

و ذكر أبو عمرو في كتاب التمهيد و الاستذكار و أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول و المفسرون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : { كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين } قال : هم أطفال المسلمين زاد الترمذي : لم يكتسبوا فيرتقنوا بكسبهم و قال أبو عمرو : الجمهور من العلماء : على أن أطفال المسلمين في الجنة و قد ذهب طائفة من العلماء إلى الوقف في أطفال المسلمين و أولاد المشركين أن يكونوا في جنة أو في نار منهم حماد ابن زيد و حماد بن سلمة و ابن المبارك و إسحاق بن راهويه [حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الأطفال فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين] هكذا قال الأطفال و لم يخص طفلا عن طفل

قال الحلبي في كتاب منهاج الدين : و قد توقف في ولدان المسلمين من توقف في ولدان المشركين و قال : إذا كان كل منهم يعامل بما عمل الله تعالى منه أنه فاعله لو بلغه فكذلك ولدان المسلمين و احتج بأن صبيبا صغيرا مات لرجل من المسلمين فقالت إحدى نساء النبي صلى الله عليه و سلم : طوبى له عصفور من عصفير الجنة فقال النبي صلى الله عليه و سلم : [و ما يدريك إن الله خلق الجنة و خلق لها أهلا و خلق النار و خلق لها أهلا] قال : فهذا يدل على أنه لا يمكن أن يقطع في أطفال المسلمين بشيء

قال الحلبي : و هذا الحديث يحتمل أن يكون إنكارا النبي صلى الله عليه و سلم على التي قطعت بأن الصبي في الجنة لأن القطع بذلك قطع بإيمان أبيه و قد يحتمل أن يكون منافقين فيكون الصبي ابن كافرين فيخرج هذا على قول من يقول : قد يجوز أن يكون ولدان المشركين في النار و قد يحتمل أن يكون أنكر ذلك لأنه لم يكن أنزل عليه في ولدان المسلمين شيء ثم أنزل عليه قوله تعالى : { و الذين آمنوا و اتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } و

قد قريء : و أتبعناهم ذريتهم فأخبر تعالى أن الذين آمنوا في الحياة الدنيا جعل ذرياتهم أتباعهم في الإيمان و أنه يلحق بهم ذرياتهم في الآخرة فثبت بذلك أن ذراري المسلمين في الجنة و قال النبي : [سألت ربي أن يريني أهل الجنة و أهل النار فجاءني جبريل و ميكائيل عليهما السلام في النور فقالا : انطلق يا أبا القاسم إلى أن قال و أنا أسمع لغط الصبيان فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هم ذرية أهل الإسلام الذين يموتون قبل آبائهم يكفل بهم عليه السلام حتى يلحق آباؤهم] فدل أنهم في الجنة

قال المؤلف رحمه الله : الحديث الذي احتجوا به خرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا قيس بن الربيع عن يحيى بن إسحاق

[و عن عائشة بنت طلحة عن عائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم أتى بصبي من الأنصار ليصلى عليه فقالت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءا قط و لم يدره فقال : يا عائشة أو لا تدريين أن الله تبارك و تعالى خلق الجنة و خلق لها أهلا و خلق النار و خلق لها أهلا و هم في أصلاب آبائهم]

و قالت طائفة : أولاد المسلمين في الجنة و أولاد المشركين في النار و احتجوا بما ذكرناه من الآية و الحديث بحديث [سلمة بن يزيد الجعفي قال : أتيت النبي صلى الله عليه و سلم أنا و أخي فقلنا يا رسول الله إن أمنا ماتت في الجاهلية و كانت تقري الضيف و تصل الرحم و تصوم و تفعل و تفعل فهل ينفعها من عملها ذلك شيء ؟ قال : لا قال : فقلنا إن أمنا و أدت أختنا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث فهل ذلك نافع أختنا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أرأيتم الوائدة و المؤودة فإنهما في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيغفر لها]

قال أبو عمرو : هذا الحديث صحيح الإسناد إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على جواب السائل في عين مقصودة فكانت الإشارة لها

و في بعض طرق حديث سلمة بن زيد فلما رأى ما قد دخل علينا قال : [و أمي مع أمكما] خرجه و رواه أبو داود الطيالسي في مسنده [عن سلمة بن يزيد قال : سألت النبي صلى الله عليه و سلم فقلت : أمي ماتت و كانت تقري الضيف و تطعم الجار و كانت وأدت و أدت في الجاهلية و لها سعة من مال أفينفعها إن تصدقت عنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا ينفع الإسلام إلا من أدركه إنما و ما وأدت في النار و رأى ذلك قد شق علي فقال : و أم محمد معها و ما فيهما خير]

و خرج أبو نعيم الحافظ و غيره [عن ابن مسعود قال : جاء ابنا مليكة إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقالا : يا رسول الله إن أمنا كانت تكرم الزوج و تعطف على الولد و ذكر الضيف غير أنها وأدت في الجاهلية فقال : أمكما في النار فأدبر و الشريرى في وجوههما فأمر بهما فردا و البشرى ترى في وجوههما رجاء أن يكون حدث شيء قال : أمي مع أمكما] و ذكر الحديث

و روى بقرية بن الوليد [عن محمد بن يزيد الألعاني قال : سمعت عبد الله بن قيس يقول : سمعت عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذراري المسلمين فقال : هم مع آبائهم قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين و سألت عن ذراري المشركين فقال : مع آبائهم فقالوا : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين]

قال أبو عمر عبد الله بن قيس : هذا شامي تابعي ثقة و أما بقية بن الوليد فضيف و أكثر حديثه مناكير و لكن هذا الحديث قد روي مرفوعا عن عائشة من غير هذا الوجه [قالت عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم ولدان المسلمين أين هم يوم القيامة ؟ قال : في الجنة قالت : و سألت عن ولدان المشركين أين هم يوم القيامة ؟ قال : في النار فقلت مجيبة له : يا رسول الله لم يدركوا الأعمال و لم تجر عليهم الأقالم قال : ربك أعلم بما كانوا عاملين]

و الذي نفسي بيده لئن شئت أسمعك تضاعفهم في النار] قال أبو عمر : في طريقه أبو عقيل صاحب ليهية لا يحتج بمنله عند أهل العلم

قال المؤلف رحمه الله : كذا ذكر أبو عمر هذا الحديث بهذا اللفظ و كذلك ذكر أبو أحمد بن علي فيما ذكر أبو محمد عبد الحق

و ذكره أبو داود الطيالسي قال : حدثنا أبو عقيل [عن بهية عن عائشة قالت : سألت النبي صلى الله عليه و سلم عن أطفال المشركين قال : هم في النار يا عائشة قالت فقلت : فما تقول في المسلمين ؟ قال : هم في الجنة يا عائشة قالت قلت : و كيف لم يدركوا الأعمال و لم تجر عليهم الأقلام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ربك أعلم بما كانوا عاملين] قال أبو محمد عبد الحق و يحيى بن المتوكل ضعيف عندهم و بهية لم يرو عنها إلا أبو عقيل و قالت طائفة : إن الأطفال يمتحنون في الآخرة و احتجوا بحديث أبي سعيد الخدري قال : [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : في الهالك في الفترة و المعتوه و المولود قال : يقول الهالك في الفترة و المعتوه و المولود : قال : يقول الهالك في الفترة : لم يأتي كتاب و لا رسول ثم تلا { و لو أنا أهلكتهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا { الآية و يقول المعتوه : رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا و لا شرا و يقول المولود : رب لم أدرك العمل فترقع لهم نار فيقول لهم ردوها و ادخلوها قال : فيردها أو يدخلها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل و يمكس عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل قال فيقول الله : إياي عصيت فكيف رسلي لو أتتكم]

قال أبو عمر : من الناس يوقف هذا الحديث على أبي سعيد و لا يرفعه منهم أبو نعيم الملاي قلت : و يضعفه من جهة المعنى أن الآخرة ليست بدار تكليف و إنما هي دار جزاء ثواب و عقاب قال الحلبي : و هذا الحديث ليس بثابت و هو مخالف لأصول المسلمين لأن الآخرة ليست بدار الامتحان فإن المعرفة بالله تعالى فيها تكون ضرورة و لا مجنة مع الضرورة و لأن الأطفال هناك لا يحلو من أن يكونوا عقلاء أو غير عقلاء فإن كانوا مضطرين إلى المعرفة فلا يليق بأحوالهم الحنة و إن كانوا غير عقلاء فهم من الحنة أبعد و قال أبو عمر رحمه الله : هذا الأحاديث من أحاديث الشيوخ و فيها علل و ليست من أحاديث الأئمة الفقهاء و هو أصل عظيم و القاطع فيه بمثل هذه الأحاديث ضعيف في العلم و النظر مع أنه قد عارضها ما هو أقوى مجيبا منها ذكر البخاري حديث أبي رجاء العطاردي [عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه و سلم الحديث الطويل حديث اللويا و فيه قوله عليه الصلاة و السلام : و أما الرجل الطويل الذي في الروضة إبراهيم عليه السلام و أما الوالدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل : يا رسول الله و أولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و أولاد المشركين]

و خرج البخاري أيضا في رواية أخرى عن أبي رجاء العطاردي : و الشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام و الصبيان حوله أولاد الناس و هذا يقتضي عمومته جميع الناس

قلت : ذهب إلى هذا جماعة من العلماء و هو أصح شيء في الباب قالوا أولاد المشركين إذا ماتوا صغارا في الجنة و احتجوا بحديث عائشة ذكره أبو عمر في التمهيد قالت : [سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه و سلم عن أولاد المشركين فقال : هم مع آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحکم

الإسلام فنزلت { و لا ترز وازرة و زر أخرى } قال هم على القنطرة أو قال هم في الجنة]

قلت : هذا حديث مرتب في غاية البيان و هو يقضي على ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم في أحاديث

صحاح من قوله في الأطفال [الله أعلم بما كانوا عاملين] فكان ذلك منه قبل أن يعلم أن أولاد المشركين في الجنة وقيل أن ينزل عليه { ولا تزر وازرة وزر أخرى } وقد كان عليه الصلاة والسلام أنزل عليه بمكة { قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي } ولم يكشف له عن عاقبة أمرهم وأمر المشركين ثم أنزل عليه { هو الذي أرسل رسوله بالهدى } الآية وأنزل عليه { ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون } وأنزل عليه { وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب } فاعلمه بأن الذي يفعل به أن يظهر عليهم وقد ذكر ابن سنجر واسمه محمد بن سنجر قال : [حدثنا هوذة حدثنا عوف عن حسناء بنت معاوية قالت : حدثني عمي قال : قلت يا رسول الله من في الجنة؟ قال : النبي في الجنة والمولود في الجنة والوثيدة في الجنة والشريد في الجنة]

[وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألت ربي عن اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم] قال أبو عمر : إنما قيل للأطفال اللاهين لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقد ولا عزم من قولهم هيت في الشيء أي لم أعتقده كقوله { لاهية قلوبهم } وقالت طائفة : أولاد المشركين خدم أهل الجنة وحجتهم ما رواه الحجاج بن نصير [عن مبارك بن فضالة بن علي بن زيد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : أولاد المشركين خدم أهل الجنة] ذكره أبو عمر

قلت : وإسناده إذا الحديث ليس بالقوي لكن يدل على صحة هذا القول أعني أنهم في الجنة أو أنهم خدم أهل الجنة ما ذكر جماعة من العلماء بالتأويل أن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صور الذر أقروا له بالربوبية وهو قوله { وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا } ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بأنه لا إله إلا هو ثم يكذب العبد في بطن أمه شقيا أو سعيدا على الكتاب الأول فمن كان في الكتاب الأول شقيا عمر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ومن كان في الكتاب الأول سعيدا عمر حتى يجري عليه القلم فيؤمن فيصير سعيدا ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم في النار لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم صلى الله عليه وسلم ولم ينقضوا الميثاق

قلت : وغفر له وهذا أيضا حسن فإنه جمع بين الأحاديث ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : [الله أعلم بما كانوا عاملين] يعني لو بلغوا بدليل حديث البخاري وغيره مما ذكرناه وقد روى أبان [عن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : لم يكن لهم حسنات فيجزوا بما فيكونوا من ملوك الجنة ولم يكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار فهم خدم لأهل الجنة]

ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وأبو داود الطيالسي في مسنده وأبو نعيم الحافظ أيضا [عن يزيد الرقاشي عن أنس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون عليها فيدخلون النار ولم تكن لهم حسنات يجازون بها فيكونوا من ملوك الجنة فقال النبي : من خدم أهل الجنة] روى أبو عبد الله الترمذي الحكيم قال : حدثنا أبو طالب الهروي قال : حدثنا يوسف بن عطية عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم فإنما يولدون

على الفطرة على الإسلام كلهم و لكن الشياطين أتتهم فاختلفت عن دينهم فهو دقتهم و نصرتهم و مجستهم و أمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا
و خرج من حديث عياض بن حماد الجاشعي [عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال في خطبته : أن الله أمرني أن أعلمكم و قال إني خلقت عبادي كلهم حفاء فأتتهم الشياطين فاختلفت عن دينهم و أمرتهم أن يشركوا بي و حرمت عليهم ما أحللت لهم]

قال أبو عبد الله الترمذي : هذا بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا و تأكدت حجة عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة من خلق السموات و الأرض و الشمس و القمر و البر و البحر و اختلاف الليل و النهار فلما غلبت أهوازهم عليهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية و النصرانية بأهوائهم يمينا و شمالا
قلت : و هذا أيضا يقوي ما أخذناه من أطفال المشركين في الجنة و حديث عياض بن حماد خرجه مسلم في صحيحه و حسبك حسبك و للعلماء في الفطرة أقول قد ذكرناها في كتاب جامع أحكام القرآن من سورة الروم و الحمد لله

باب منه و في ثواب من قدم ولدا

مسلم عن أبي حسان قال : قلت لأبي هريرة رضي الله عنه أنه مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فأخذ بثوبه أو قال بيده كما أخذ أنا بصنيعة ثوبك هذا فلا ينتهي أو قال فلا ينتهي حتى يدخله الله و أبويه الجنة
و خرج أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا شعبة عن معاوية بن قررة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يختلف إليه رجل من الأنصار معه ابن له فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم : أتجبه يا فلان ؟ فقال : نعم قال : أحبك الله كما أحبه ففقده النبي صلى الله عليه و سلم فسأله عنه فقالوا يا رسول الله مات ابنة فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أما ترضى أو لا ترضى أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا جاء يسعى حتى يفتحه لك فقالوا يا رسول الله : آله واحده ألم لنا كلنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم بل لكلكم] ذكره أبو عمر في التمهيد أيضا و قال هذا حديث حسن ثابت صحيح

و خرج أبو داود الطيالسي في مسنده قال : [حدثنا هشام عن قتادة عن راشد عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : و النفساء يجرها ولدها يوم القيامة بسرره إلى الجنة]

فصل

هذا الحديث يدل على أن صغار أولاد المؤمنين في الجنة و هو قول أكثر أهل العلم كما بينا في الباب قبل هذا و هو مقتضى ظاهر قول الله عز و جل { و الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } كما تقدم
و قد أنكر بعض العلماء الخلاف فيهم و هذا فما عدا أولاد الأنبياء عليهم السلام فإنه قد تقرر الإجماع على أنهم في الجنة حكاة أبو عبد الله المازري و دعاميص : جمع دعووص و هو دويبة تغوص في الماء و الجمع دعاميص و دعامص قال الأعشى :

(فما ذنبنا أن حاش لي بحر علمكم ... و بحرك ساج لا يوارى الدعامصا)

و قد قيل : إن الدعموص يراد به الآذن على الملوك المتصرف بين أيديهم

قال أمية ابن الصلت :

دعموص أبواب الملوك و جانب للخرق فاتح

و هذا هو المراد بالحديث

و في صحيح البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم : من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجابا من النار و أدخله الجنة]

قال المؤلف رحمه الله : قوله عليه الصلاة و السلام : لم يبلغوا الحنث معناه عند أهل العلم : لم يبلغوا الحلم و لم يبلغوا أن يلزمهم حنث

و قد روى الترمذي [عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحلم كانوا له حصنا حصينا من النار قال أبو ذر قدمت اثنين قال و اثنين فقال أبي بن كعب سيد القراء قدمت واحدا قال و واحدا و لكن إنما ذاك عند الصدمة الأولى] قال أبو عيسى : هذا حديث غريب و أبو عبيدة لم يسمع من أبيه خرج ابن ماجه أيضا و في هذا كله دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة لأن الرحمة إذا نزلت بأبائهم استحال أن يرحموا من أجل من ليس بمرحوم قال أبو عمر بن عبد البر : و هذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة و لم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من الجرة فجعلتهم في المشية و هو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا يجوز مخالفتهم و لا يجوز على مثلهم الغلط

إلا ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم من أخبار الآحاد الثقات العدول و أن قوله صلى الله عليه و سلم : [الشقي من شقى في بطن أمه و أن الملك ينزل فيكتب أجله و رزقه] الحديث مخصوص و أن مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد و هو في بطن أمه و لم يشق بدليل الأحاديث و الإجماع و كذلك قوله صلى الله عليه و سلم لعائشة : [إن الله خلق الجنة و خلق لها أهلا و هم في أصلاب آبائهم و خلق النار و خلق لها أهلا و هم في أصلاب آبائهم] ساقط ضعيف مردود بالإجماع و الآثار و طلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يحتج به و هذا الحديث مما انفرد به فلا يعرج عليه

باب ما جاء في نزل أهل الجنة و تحفهم إذا دخلوها

روى البخاري و مسلم [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفئها الجبار بيده كما يكفئ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة قال : فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه قال ألا أخبرك بإدامهم ؟ قال : بلى قال : بالأم و نون قالوا و ما هذا ؟ قال : ثور و نون يأكل من زائدة كبدها سبعون ألفا]

و خرج مسلم [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كنت قاعدا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : يا رسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن اسمي محمد الذي سماه به أهلي فقال اليهودي : جئت أسألك فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم أينفعك شيء إن حدثك ؟ قال : أسمع بأذني فكنت رسول الله صلى الله عليه و سلم بعود معه فقال : سل فقال اليهودي : أين تكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هم في الظلمة دون الجسر قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقراء المهاجرين قال اليهودي : فما تحفهم

حين يدخلون الجنة؟ قال : زيادة كبد النون قال : فما غذاؤهم؟ قال : ينحرو لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها قال : فما شربهم على إثرها؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلا فقال : صدقت] و ذكر الحديث فصل

قلت : هذا الحديث انفرد به مسلم و هو أبين من الحديث الآخر الذي قبله لأنه من قول النبي صلى الله عليه و سلم جوابا لليهودي و الحديث الذي قبله آخره من قول اليهودي و هو يدخل في المسند لإقرار النبي صلى الله عليه و سلم و الجبار اسم من أسماء الله تعالى قد أتينا على ذكره في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى و يكفئها و يقلبها و يميلها من قولك كفأت الإناء إذا كبته و قد تقدم أن أرض المحشر كقرصة النقي ليس فيها أعلم لأحد و النزول ما يعد للضيف من الطعام و الشراب و يقال نزل أو نزل بتخفيف الزاي و تثقيلها و قريء بذلك قوله { نزلا من عند الله } قال أهل اللغة : النزول ما يهياً للنزول و النزول الضيف قال الشاعر :
(نزول القوم أعظمهم حقوقا ... و حق الله في حق النزول)

و حظ النزول مجتمعا و التحفة ما يتحف به الإنسان من الفواكه و الطرف محاسنة و ملاطفة و زيادة كبد النون قطة منه كالإصبع و بالأمر قد جاء مفسرا في متن الحديث أنه الثور و لعل اللفظ عبرانية و النون الحوت و هو عربي و في الخبر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال سيد إدام الدنيا و الآخرة اللحم ذكره أبو عمرو في التمهيد و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا ابن لهيعة قال : حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير أخبره ابن العوام مؤذن إيليا أول رجل أذن بإيليا أخبره أنه سمع كعبا يقول إن الله تبارك و تعالى يقول لأهل الجنة إذا دخلوها : إن لكل ضعيف جزورا و إني أجزركم اليوم حوتا و ثورا فيجزر لأهل الجنة

باب ما جاء أن مفتاح الجنة لا إله إلا الله و الصلاة

أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا سليم بن معاذ الضبي عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : مفتاح الصلاة الوضوء و مفتاح الجنة الصلاة]
و البيهقي [عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : حين بعثته إلى اليمن أنك ستأتي أهل الكتاب فيسألونك عن مفتاح الجنة فقل شهادة أن لا إله إلا الله]
و في البخاري : و قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال : بلى و لكن ليس مفتاح إلا و له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك و إلا لم يفتح لك

فصل

قلت : الأسنان عبارة عن توحيد الله و عبادته جميعا و عن توحيد الله أيضا فقط
قال الله تعالى { و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار } و قال : { إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا } و هو في القرآن كثير الإيمان مع العمل و هو مقتضى الحديث الأول حديث جابر رضي الله عنه و عن توحيد الله فقط
و في الصحيحين [عن أبي ذر رضي الله عنه و غيره عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قالت : و إن زنى و إن سرق؟ قال و إن زنى و إن سرق]

و ذكر الطبراني [من حديث موسى بن عقبة عن إسحاق بن يحيى بن طلحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : حضر ملك الموت عليه السلام رجلا فنظر في كل عضو من أعضائه فلم يجد فيه

حسنة ثم شق قلبه فلم يجد فيه شيئا ثم فك عن لحيته فوجد طرف لسانه لاصقا بحكه يقول : لا إله إلا الله فقال :
وجبت لك الجنة بقول كلمة الإخلاص]

باب الكف عمن قال : لا إله إلا الله

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله
و يؤمنوا بي و بما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله]

باب ما جاء أن المؤمن حرام دمه و ماله و عرضه و في تعظيم حرمة عند الله

تعالى

ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : ألا إن أحرم الأيام
يومكم هذا و إن أحرم الشهور شهركم هذا و إن أحرم البلد بلدكم هذا ألا و إن دماءكم و أموالكم عليكم حرام
كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد] خرجه مسلم
من حديث أبي بكر و جابر بمعناه

و خرج ابن ماجه أيضا [عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة و
يقول : ما أطيبك و أطيب رائحتك ما أعظمك و أعظم حرمتك و الذي نفسي بيده حرمة المؤمن أعظم عند الله
حرمة منك ماله و دمه و أن لا يظن به إلا خيرا]

مسلم [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه
]

النسائي [عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قتل المؤمن عند الله أعظم من زوال الدنيا]
الترمذي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أشار على أخيه بمديدة لعنته الملائكة] قال :
حديث حسن صحيح غريب

باب ما جاء في قتل مؤمنا و الإعانة على ذلك

قال الله تعالى : { و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها و غضب الله عليه و لعنه و أعد له عذابا
عظيما } و قال تعالى : { و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر و لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق و لا يزنون
و من يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة و يجلد فيه مهانا }

و روى عبد العزيز بن يحيى المدني قال : [حدثنا مالك بن أنس عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد عن ثابت قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظنا و يحدثنا و يقول : و الذي نفسي بيده ما عمل على وجه الأرض قط
عمل أعظم عند الله بعد الشرك من سفك دم حرام و الذي نفسي بيده إن الأرض لتضج إلى الله تعالى من ذلك
ضحيجا تستأذنه فيمن عمل ذلك على ظهرها لتخسف به]

و ذكره أبو نعيم قال : حدثنا شافع بن محمد بن أبي عوانة الأسفرايني قال : حدثنا أحمد بن عبد الجوهري قال :

حدثنا علي بن حرب قال : حدثنا عبد العزيز بن يحيى قال : حدثنا مالك فذكره

أبو داود [عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من

مات مشركا أو مؤمنا قتل مؤمنا متعمدا]

و عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما فإذا أصاب دما حراما بلح] قال الهروي : بلح أي أعيا و انقطع به يقال : بلح الفرس إذا انقطع جريه و بلحت الركبة إذا انقطع ماؤها

و ذكر أبو بكر النيسابوري قال : [حدثنا زكريا بن يحيى قال : حدثنا عمرو قال : حدثنا الفزاري عن زياد بن أبي زيادة الشامي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أعان في قتل مسلم بشرط كلمة لقي الله يوم يلقاه القيامة مكتوب على جبهته آيس من رحمة الله] قال الهروي و في الحديث [من أعان على قتل مؤمن بشرط كلمة] قال : شقيق هو أن يقول في أقتل أو كما قال عليه الصلاة و السلام : [كفى بالسيف مئا] معناه : شافيا

باب إقبال الفتن و نزولها كمواقع القطر و الظل و من أين تجيء و التحذير

منها و فضل العبادة عندها

قال الله تعالى { و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } و قال تبارك و تعالى : { و نبلوكم بالشر و الخير فتنة } ففي هذا تنبيه بالغ على التحذير من الفتن

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا يمسي كافرا و يمسي مؤمنا و يصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا]

[و عن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه و سلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما فرعا محمرا و وجهه يقول : لا إله إلا الله و يل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذه و حلق بإصبعين الإبهام و التي تليها قالت فقلت يا رسول الله أهلك و فينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث] و [عن أسامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم أشرف على أطم من آطام المدينة ثم قال : هل تدون ما أرى ؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر] أخرجهما البخاري

السيهقي [عن كرز بن علقمة الخزاعي قال : سألت رجل النبي صلى الله عليه و سلم : هل للإسلام من منتهى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرا أدخل عليهم الإسلام فقال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تقع الفتن كالظلل فقال الرجل كلا و الله إن شاء الله قال بلى و الذي نفسي بيده لتعودن فيها أساود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض] قال الزهري : أساود صبا : الحية السوداء إذا أراد أن ينهش ارتفع

هكذا ثم انصب

خرجه أبو داود الطيالسي أيضا

قال ابن دحية أبو الخطاب الحافظ : هذا الحديث لا مطعن في صحته إسناده رواه سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة بن الزبير عن كرز قرأته بجامع قرطبة و بمسجد الغدير و بمسجد أبي علاقة على الحدوث المؤرخ أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاري قال سمعت جميع هذا الكتاب و هو جامع الخير للإمام سفيان بن عيينة عن الشيخين الجليلين الثقة المفتي أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب و الوزير الكتاب الثقة أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف فإذا قرأناه على العدل أبي القاسم حاتم بن محمد التميمي بحق سماعه على الثقة الفاضل أبي الحسن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن فراس رحمه الله بمكة حرسها الله تعالى بالمسجد الحرام بحق سماعه على الثقة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم الديلي بحق سماعه على الثقة الصالح أبي عبيد سعيد بن عبد الرحمن المخزومي بحق سماعه من الإمام

الفقيه أبي محمد سفيان بن عيينة

قال المؤلف رحمه الله : و قد حدثني بهذا السند المذكور الفقيه القاضي أبو عامر يحيى ابن عبد الرحمن إجازة عن أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال و كرز هو كرز بن علقمة بن هلال الخراعي أسلم يوم الفتح و عمر طويلا و هو الذي نصب أعلام الحرم في خلافة معاوية و إمارة مروان بن الحكم و فيه ثم مه قال ثم تعود الفتن بدل قال : ثم ماذا قال : ثم تقع الفتن و لم يذكر قول الزهري إلى آخره

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : قول الرجل : ثم مه هنا على الاستفهام أي ثم ما يكون و مه : في غير هذا الموضوع زجر و إسكات كقوله عليه الصلاة و السلام : [مه إنكن صواحب يوسف] و قوله [كأنها الضلل] الظلل السحاب و الظلة السحابة و منه قوله تعالى : { فأخذهم عذاب يوم الظلة } و قول الرجل بجعله : كلا و الله معناه الجحد بمعنى لا و الله

و قيل : هي بمعنى الزجر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [بلى و الذي نفسي بيده] و بلى للنفي استفهاما كان أو خبرا أو نهما فلا استفهام { ألت بربكم } و { أليس ذلك بقادر } جوابه : بلى هو قادر و مثال الخبر { لن تمسنا النار } جوابه قالوا : بل تمسكم و مثال النهي لا تلق زيدا جوابه : بلى لألقينه

قال أبو الخطاب بن دحية : و قوله صبا هكذا قيدناه بضم الصاد و تشديد الباء على مثال غر و الأسود : نوع من الحيات عظام فيها سوداء و هو أخبثها و الصب منها التي روى تنهش ثم ترتفع ثم تنصب شبههم فيما يولونه من الفتن و الأذى بالصب من الحيات

قال المؤلف رحمه الله : الأسود جمع أسود و هو الحية و صبا جمع كغار و غز و هو الذي يميل و يلتوي وقت الهش ليكون أنكي في اللدغ و أشد صبا للسم و يجوز أن يكون جمع أصب و هو الذي كأنه عند الهش انصابا و الأول من صبا إذا مال و الثاني من صب إذا سكب

مسلم [عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه و سلم قالت : استيقظ النبي صلى الله عليه و سلم ليلة فزعا مرعوبا يقول : سبحان الله ماذا فتح اللية من الخرائن و ماذا أنزل من الفتن من يوقظ صواحب الحجر يريد أزواجه لكي يصلين رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة]

[و عن عبيد بن عمير قال : خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا أصحاب الحجرات سعرت النار و جاءت الفتن كأنها قطع الليل المظلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبيكتم كثيرا]

قال أبو الحسن القابسي هذا و إن كان مرسلا فإنه من جيد المراسيل و عبيد ابن عمير من أئمة المسلمين مسلم [عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة و أركبكم للكبيرة سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الفتنة تجيء من ها هنا و أوما بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان و أنتم يضرب بعضكم رقاب بعض و إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله تعالى له : { و قتلنا نفسا فنجيناك من الغم و فتنناك فتونا }]

[و عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : العبادة في الهرج كهجرة إلي]

فصل

قوله : [ويل للعرب من شر قد اقترب] قد تقدم معنى الويل و المراد هنا الحزن قاله ابن عرفة فأخبر عليه الصلاة و السلام بما يكون بعده من أمر العرب و ما يستقبلهم من الويل و الحرب و قد وجد ذلك بما استؤثر عليهم به من الملك و الدولة و الأموال و الإمارة فصار ذلك في غيرهم من الترك و العجم و تشتتوا في البراري بعد أن كان العز

و الملك و الدنيا لهم ببركته عليه الصلاة و السلام و ما جاءهم به من الدين و الإسلام فلما لم يشكروا النعمة و كفروها يقتل بعضهم بعضا و سلب بعضهم أموال بعض سلبها الله منهم و نقلها إلى غيرهم كما قال تعالى { و إن تتولوا يستبدل قوما غيركم } ولهذا لما قالت زينب في سياق الحديث : [أهلك و فينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبيث]

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : قولها أهلك و فينا الصالحون ؟ قول : [نعم إذا كثر الخبيث] دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون

فأما إذا كثر المفسدون و قل الصالحون هلك المفسدون و الصالحون معهم إذا لم يأمرؤا بالمعروف و يكرهوا ما صنع المفسدون و هو معنى قوله { و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } بل يعم شؤمها من تعاطاها و من رضيها هذا بفساده و هذا برضاه و إقراره على ما نبينه

فإن قيل فقد قال الله تعالى : { و لا ترر وازرة وزر أخرى } — { كل نفس بما كسبت رهينة } — { لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت } و هذا يوجب أن لا يؤاخذ أحد بذنب أحد و إنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب و قريء { و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } و على هذه القراءة يكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة و هي قراءة زيد بن ثابت و علي و أبي و ابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين

و الجواب : أن الناس إذا تظاهروا بالنكر فمن الفرض على من رآه أن يغيره إما بيده فإن لم يقدر فلبسانه فإن لم يقدر فبقلمه ليس عليه أكثر من ذلك و إذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطيع سوى ذلك

روى الأئمة [عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطيع فلبسانه فإن لم يستطيع فبقلمه ليس عليه غيره و ذلك أضعف الإيمان]

روي عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات : اللهم إن هذا منكرا لا أرضاه فإذا قال ذلك فقد أدى ما عليه فأما إذا سكت عليه فكلهم عاص هذا بفعله و هذا برضاه كما ذكرنا و قد جعل الله في حكمه و حكمته الراضي بمنزلة الفاعل فانتظم في العقوبة دليله قوله تعالى { إنكم إذا مثلهم } فأما إذا كره الصالحون ما صنع المفسدون و أخطصوا كراهيتهم لله تعالى و تبرأوا من ذلك حسب ما يلزمهم و يجب لله عليهم غير معتدين سلموا قال الله تعالى { فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم } و قال : { فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء و أخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون }

و قال ابن عباس : قد أخبرنا الله عز و جل عن هذين و لم يخبرنا عن الذين قالوا : { لم تعظون قوما الله مهلكهم } و روى سفيان بن عيينة قال : حدثنا سفيان بن سعيد عن مسعد قال : بلغني أن ملكا أمر أن يخسف بقرية فقال يا رب إن فيها فلانا العابد فأوحى الله تعالى إليه أن به فابدأ فإنه لم يتغير وجهه في ساعة قط

و قال وهب بن منبه : لما أصاب داود الخطيئة قال : يا رب اغفر لي قال : قد غفرتما لك و ألزمت عارها بني إسرائيل قال : كيف يا رب و أنت الحكم العدل الذي لا تظلم أحدا أعمل أنا الخطيئة و يلزم عارها غيري فأوحى الله تعالى إليه : يا داود إنك لما اجتبرأت علي بتلك المعصية لم يعجلوا عليك بالنكرة

و روى أبو داود [عن العرس بن عميرة الكندي عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها و قال مرة : فأنكرها كمن غاب عنها و من غاب عنها فرضيتها كان كمن شهدها

[وهذا نص في القرض و حسن رجل عند الشعبي قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال الشعبي : قد شرت في دمه

و في صحيح الترمذي : أن الناس إذا رأوا الظالم و لم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده فالفتنة إذ عمت هلك الكل و ذلك عند ظهور المعاصي و انتشار المنكر و عدم التغيير و إذا لم تغير و جب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة و الهرب منها و هكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم كما في قصة السبت حين هجروا العاصين و قالوا : لا نساكنكم و بهذا قال السلف رضي الله عنهم

روى ابن وهب عن مالك قال : تمجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا و لا يستقر فيها و احتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلى بالرباء فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها خروجه أهل الصحيح و قال مالك في موضع آخر : إذا ظهر الباطل على الحق كان الفساد في آخر الأرض و قال : إن لزوم الجماعة نجاة و أن قليل الباطل و كثيرة هلكه و قال : ينبغي للناس أن يغضبوا لأمر الله تعالى في أن تنتهك فرائضه و حرمة و الذي أتت به كتبه و أنبيأؤه أو قال : يخالف كتابه

قال أبو الحسن القاسمي : الذي يلزم الحق و يغضب لأمر الله تعالى على بينة من النجاة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله]

قال أبو عمرو و روى أشهب بن عبد العزيز قال : قال مالك لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق و السب للسلف قال أبو عمر : أما قول مالك هذا فمعناه إذا وجد بلدا يعمل فيه الحق في الأغلب و قد قال عمر بن عبد العزيز : فلان بالمدينة و فلان بمكة و فلان باليمن و فلان بالعراق و فلان بالشام امتألت الأرض و الله جورا و ظلما قال أبو عمر : فأين الهرب إلى السكوت و لزوم البيوت و الرضي بأقل قوت و قال منصور بن الفقيه فأحسن :

(الخير أجمع في السكوت ... و في ملازمة البيوت)

(فإذا استوى لك ذا و ذا ... فاقنع له بأقل قوت)

و كان سفيان الثوري يقول : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين هذا زمان ينتقل فيه الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن

و يحكى عنه أنه قال : و الله ما أدري أي البلاد أسكن فقيل له خراسان ؟ فقال : مذاهب مختلفة و آراء فاسدة فقيل الشام ؟ فقال : يشار إليكم بالأصابع أراد الشهرة فقيل له : العراق ؟ قال بلد الجبابرة فقيل له : فمكة ؟ قال :

مكة تذيب الكيس و البدن

و قال القاضي أبو بكر العربي قال شيخني في العبادة : لا يذهب بك الزمان في مصافاة الأقران و مواصلة الأحران و لم أر للخلاص طريقا أقرب من طريقين : إما أن يغلق المرء على نفسه بابه و إما أن يخرج إلى مواضع لا يعرف فيه فإن اضطر إلى مخالطة فليمن معه ببدنه و ليفارقهم بقلبه و لسانه فإن لم يستطع فبقلبه و لا يفارق السكوت أنشدني محمد بن عبد الملك الصوفي قال : أنشدني أبو الفضل الجوهري : [الخير أجمع في السكوت] البيتان :

قال القاضي : و لي في هذا المعنى شعر :

(حاز السلام مسلم ... يأوي إلى سكن وقوت)

(ماذا يؤمل بعد ما ... يأوي إلى بيت وقيت)

قال المؤلف رحمه الله : و لأبي سليمان الخطابي في هذا المعنى شعر :

(أنست بوحدتي و لزمت بيتي ... فدام الأنس لي و نما السرور)

(و أدبني الزمان فلا أبالي ... هجرت فلا أزار و لا أزور)

(و لست بسائل ما دمت حيا ... أسار الخيل أم ركب الأمير)

و الشعر في هذا المعنى كثير و سيأتي للعزلة له زيادات بيان من السنة إن شاء الله تعالى و كثرة الخبث ظهور الزنا و أولاد الزنا

و ذكر ابن وهب عن يحيى مولى الزبير أن في زمان رسول الله صلى الله عليه و سلم خسف قبل المشرق فقال بعض

الناس يا رسول الله : يخسف الأرض و فيها المسلمون ؟ فقال : [إذا كان أكثر أهلها الخبث]

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فيكون إهلاك جميع الناس عند ظهور المنكر و الإعلان بالمعاصي فيكون طهرة

للمؤمنين و نقمة للفاسدين لقوله عليه الصلاة و السلام : [ثم بعثوا على نياهم] و في رواية [على أعمالهم] و

قد تقدم هذا في المعنى :

فمن كانت نيته سالحة أئيب عليها و من كانت نيته سيئة جوزي عليها و في التنزيل { يوم تبلى السرائر } فاعلمه

باب ما جاء في رحي الإسلام و متى تدور

أبو داود [عن البراء بن ناجية عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : تلور رحي الإسلام

لخمس و ثلاثين أو ست و ثلاثين أو سبع و ثلاثين فإن يهلكوا فسييل من هلك و إن لم يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين

عاما قال : قلت : أما بقي ؟ قال : مما مضى]

فصل

قال الهروي في تفسير هذا الحديث : قال الحربي : و يروى تزول و كأن تزول أقرب لأنها تزول عن ثبوتها

و استقرارها و تلور يكون بما يحبون و يكرهون فإن كان الصحيح سنة خمس فإن فيها قام أهل مصر و حصروا عثمان

رضي الله عنه و إن كانت الرواية سنة ست ففيها خرج طلحة و الزبير إلى الجمل و إن كانت سنة سبع ففيها كانت

صفين غفر الله لهم أجمعين

و قال الخطابي : يريد عليه الصلاة و السلام أن هذه المدة إذا انقضت حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف على أهله

لذلك الهلاك يقال : الأمر إذا تغير و استحال دارت رحاه و هذا و الله أعلم إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة و قوله

ليقم لهم دينهم أي ملكهم و سطاتهم و ذلك من لدن بايع الحسن عليه السلام معاوية إلى إنقضاء بني أمية من

المشرق نحو من سبعين سنة و انتقله إلى بني العباس و الدين الملة و السلطان و من قوله تعالى { ليأخذ أخاه في دين

الملك } أي في سلطانه و قوله : [تدور رحي الإسلام] دوران الرحي كناية عن الحرب و القتال شبهها بالرحى

الدائرة التي تطحن لما يكون فيها من قبض الأرواح و هلاك الأنفس

باب ما جاء أن عثمان رضي الله عنه لما قتل سل سيف الفتنة

الترمذي عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال : لما أريد عثمان رضي الله عنه جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان بن

عفان رضي الله عنه : ما جاء بك ؟ قال : جئت في نصرتك قال : أخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارجا خير

لي من داخل قال : فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس إنه كان في الجاهلية اسمي فلان بن فلان

فسماني رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله و نزلت في آيات من كتاب الله تعالى نزلت { و شهد شاهد من بني

إسرائيل على مثله فآمن و استكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين { و نزلت في { قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب { إن الله سيفا مغمودا عنكم و إن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه نبيكم فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه فوالله إن قتلتموه لتطردن جيرانكم للملائكة و لتسلن سيف الله المغمود عنكم فلا يغمد إلى يوم القيامة قال : فقالوا اقتلوا اليهودي و اقتلوا عثمان قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب

قلت : و مثل هذا من عبد الله لا يكون إلا عن علم من الكتاب أعني التوراة على ما يأتي أو سمعه من النبي صلى الله عليه و سلم و سيأتي قول حذيفة لعمران : إن بينك و بينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر

فصل

قال العلماء بالسير و الأخبار : إنه دخل على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في الدار جماعة من الفجار منهم : كنانة بن بشر التجبي فأشعره مشقضا أي قتله به فافضح الدم على المصحف و وقع على قوله تعالى { فسيكفيكم الله و هو السميع العليم { و قيل ذبحه رجل من أهل مصر يقال له عمار و قيل ذبحه رومان و قيل قتله الموت الأسود يقال له أيضا الدم الأسود من طغاة مصر فقطع يده فقال عثمان : أما و الله إنها لأول كف خطت في المصحف و هذه البلوى التي ثبتت في الصحيح [عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل حائطا و أمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال : ائذن له و بشره بالجنة فإذا أبو بكر ثم جاء آخر يستأذن فقال : ائذن له و بشره بالجنة فإذا عمر ثم جاء آخر يستأذن فسكت هنيهة ثم قال ائذن له و بشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان بن عفان] لفظ البخاري ذكره في مناقب عثمان

و قد قيل : إن الصحيح في مقتله رضي الله عنه أنه لم يتعين له قاتل معين بل أخلاط الناس و هم رعا ع جاءوا من مصر و من غير قطر و جاء الناس إلى عثمان فيهم عبد الله بن عمر متقلدا سيفه و زيد بن ثابت فقال له زيد بن ثابت : إن الأنصار بالباب يقولون إنشئت كما أنصار الله مرتين قال : لا حاجة لي في ذلك كفوا و كان معه في الدار الحسن و الحسين و ابن عمر و عبد الله بن الزبير و أبو هريرة و عبد الله بن عامر بن ربيعة و مروان بن الحكم كلهم يحملون السلاح فعزم عليهم في وضع أسلحتهم و خروجهم و لزوم بيتهم فقال له الزبير و مروان : نحن نعزم على أنفسنا أن لا نبرح فضاقت عثمان رضي الله عنه من الحصار و منع من الماء حتى أفطر على ماء البحر الملح قال الزبير بن بكار : حاصروه شهرين و عشرين يوما و قال الواقدي حاصروه تسعة و أربعين يوما ففتح الباب فخرج الناس و سلموا له راية في إسلام نفسه قال سليط بن أبي سليط : فنهانا الإمام عثمان عن قتالهم و لو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها و دخلوا عليه في أصح الأقوال و قتله من سفلة الرجال و روى أبو عمر بن عبد البر [عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ادعوا لي بعض أصحابي فقلت أبو بكر ؟ قال : لا فقلت : عمر ؟ فقال : لا فقلت : ابن عمك ؟ قال : لا فقلت عثمان قال : نعم فلما جاءه قال لي بيده فتحييت فجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يساره و لون عثمان يتغير فما كان يوم الدار و حصر عثمان قيل له ألا تقاتل عنك قال : لا إن رسول الله صلى الله عليه و سلم عهد إلي عهدا و أنا صابر عليه]

و في الترمذي [عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : يا عثمان لعل الله يقمصك قميصا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم] قال : هذا حديث حسن غريب

و فيه [عن ابن عمر قال : ذكر النبي صلى الله عليه و سلم فتنة فقال : يقتل فيها هذا مظلوما لعثمان] و قال

حديث حسن غريب و يروى أنه دخل عليه عبد الله بن عمر بن الخطاب قال انظر ما يقول هؤلاء يقولون اخلع نفسك أو نقتلك قال له : أمخلد أنت في الدنيا؟ قال : لا فهل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال : لا قال : هل يملكون لك جنة أو ناراً قال : لا قال : فلا تخلع قميص الله عليك فيكون سنة كلما كره قوم خليفة خلعه و قتلوه و اختلف في سنة رضي الله عنه حين قتله من قتله من الفجار — أدخلهم الله بحبوة النار — فقيل : قتل و هو ابن ثمان و ثمانين و قيل ابن تسعين سنة و قال قتادة : قتل عثمان و هو ابن ست و ثمانين و قيل غير هذا و قتل مظلوما كما شهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم و جماعة أهل السنة و ألقى على مزبلة فأقام فيها ثلاثة أيام لم يقدر أحد على دفنه حتى جاء جماعة بالليل خفية فحملوه على لوح وصلوا عليه و دفن في موضع من البقيع يسمى حوش كوكب و كان مما حبسه عثمان رضي الله عنه و زاده في البقيع و كان إذا مر به يقول يدفن فيك رجل صالح و كان هو المدفون فيه و عمي قبره لنلا يعرف و قتل يوم الجمعة لثمان ليال خلون من ذي الحجة يوم التروية سنة خمس و ثلاثين قاله الواقدي و قيل ليلتين بقيتا من ذي الحجة و كانت خلافته إحدى عشر سنة إلا أياما اختلف فيها رضي الله عنه و قيل إن المتعصين على عثمان رضي الله عنه من المصريين و من تابعهم من البلدان كانوا أربعة آلاف و بالمدينة يومئذ أربعون ألفا

و قد اختلف العلماء فيمن نزل به مثل نازلة عثمان ألحقه الله جناح المغفرة و الرضوان هل يلقي بيده أو يستنصر فأجاز جماعة من الصحابة و التابعين و فقهاء المسلمين أن يستسلم و هو أحد قولي الشافعي و قال بعض العلماء : لا يسلم بيده بل يستنصر و يقاتل و لكل من القولين وجه و دليل و سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى و قال بعض العلماء : و لو اجتمع أهل المشرق و المغرب على نصر عثمان لم يقدروا على نصرته لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنذره في حياته فأعلمه بالبلوى التي تصيبه فكان ذلك من المعجزات التي أخبر بوقوعها بعد موته صلى الله عليه و سلم و ما قال رسول الله شيئا قط إلا كان و قال حسان بن ثابت :

(قتلتم ولي الله في جوف داره ... و جتتم بأمر جائر غير مهتد)

(فلا ظفرت إيمان قوم تعاونا ... على قتل عثمان الرشيد المسدد)

و خرج مسلم في صحيحه قال : و حدثنا محمد بن المثني و محمد بن حاتم قالا : حدثنا معاذ بن جبل قال : حدثنا ابن عوف عن محمد قال : قال جنذب جنت يوم الجرعة فإذا رجل جالس فقلت له ليهاقن اليوم ههنا دم فقال ذلك الرجل : كلا و الله قلت : بلى و الله قال : كلا و الله قلت : بلى و الله قال ثلاثا كلا إنه لحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم حدثني قلت : بس الجليس لي أنت منذ اليوم تسمعي أحائك و قد سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم فلا تنهني ثم قلت : ما هذا الغضب فأقبلت عليه أسانله فإذا الرجل حذيفة و الجرعة : موضع بجهة الكوفة على طريق الحيرة قيده الحفاظ بفتح الجيم والراء و قيده بعض رواة الحفاظ بإسكان الراء و هو يوم خرج فيه أهل الكوفة متألين معصيين ليردوا إلى عثمان بن عفان و هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس و كتبوا إلى عثمان لا حاجة لنا في سعيدك و لا وليدك و كان رده سنة أربع و ثلاثين و كتبوا إلى عثمان ان يولي عليهم أبا موسى الأشعري فلم يزل واليا عليهم إلى أن قتل عثمان و لما سمع بقتله يعلى بن أمية التميمي الحنظلي أبو صفوان أبي هريرة يقال له خالد أسلم يوم الفتح و شهد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم حنيناً و الطائف و تبوك و كان صاحب الجند و صنعاء أقبل لينصره فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه فقدم مكة بعد انقضاء الحج فخرج إلى المسجد و هو كسير على سرير و استشرف إليه الناس و اجتمعوا فقال : من خرج

يطلب بدم عثمان فعلي جهازه فأعان الزبير بأربعمائة ألف و حمل سبعين رجلا من قريش و حمل رضي الله عنها على حمل أذب و يقال أذب لكثرة و بره اشتراه ابن أمية الحنظلي بمائتي دينار قاله ابن عبد البر في الاستيعاب و قال ابن شبة في كتاب الجمل له : اشتراه بثمانين دينارا و الأول أصح و اسمه عسكر

و ذكر ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني اسماعيل بن إبراهيم عن أبيه قال : كان عبد الله بن أبي ربيعة عاملا لعثمان على صنعاء فلما بلغه خبر عثمان أقبل سريعا لينصره فلقيه صفوان بن أمية و صفوان على فرس و عبد الله بن أبي ربيعة على بغلة فدنا منها الفرس فحادث فطرح ابن أبي ربيعة فكسرت فخذه فقدم مكة بعد الضرر و عائشة بمكة يومئذ تدعو إلى الخروج تطلب دم عثمان فأمر بسرير فوضع له سرير في المسجد ثم حمل فوضع على سيره فقال : أيها الناس من خرج في طلب دم عثمان فعلي جهازه قال : فجهز ناسا كثيرا و حملهم و لم يستطع إلى الجمل لما كان برجله

أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني محمد بن عبد الله ابن عبيد عن أبي مليكة عن عبد الله بن أبي السائب قال : رأيت عبد الله بن أبي ربيعة على سرير في المسجد الحرام يحض الناس على الخروج في طلب دم عثمان و يحمل ما جاء انتهى كلام ابن سعد في الطبقات و لا تعارض و الحمد لله فإنه يجهز ناسا كثيرا و حملهم و لم يستطع إلى الجمل لما كان برجله

و كانت عائشة رضي الله عنها حاجة في السنة التي قتل فيها عثمان و كانت مهاجرة له فاجتمع طلحة و الزبير و يعلى و قالوا لها بمكة : عسى أن تخرجي رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم و يراعوا نبيهم و هي تمتنع عليهم فاحتجوا عليها بقوله تعالى { لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس } و قالوا لها : إن المتألمين على عثمان بالبصرة كثير فبلغت الأفضية مقاديرها فاصطف الناي للقتال و رموا عليا و أصحابه بالنبال فقال علي : لا ترموا بسهم و لا تضربوا بسيف و لا تطعنوا برمح فرمى رجل من عسكر القوم بسهم فقتل رجلا من أصحاب علي فأتى به إلى علي فقال : اللهم أشهد ثم رمى آخر فقال علي : اللهم أشهد و قد كان علي نادى الزبير يا أبا عبد الله : ادن إلي أذكرك كلاما سمعته أنا و أنت من رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : علي الأمان فقال : علي الأمان فبرز فأذكره أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له و قد و جدتهما يضحكان بعضهما إلى بعض [أما أنك ستقاتل عليا و أنت له ظالم] فقال الزبير : اللهم إني ما ذكرت هذا إلا في هذه الساعة و ثنى عنان فرسه لينصرف فقال له ابنه عبد الله : إلى أين ؟ قال : أذكرك علي كلاما قاله له رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كلا و لكنك رأيت سيوف بني هاشم حدادا و يحملها حدادا و يحملها رجال شداد قال : و يلك و مثلي يعير بالجبن هلم الرمح فأخذ الرمح و حمل في أصحاب علي فقال علي : افرجو للشيخ فإنه محرج فشق الميمنة و الميسرة و القلب ثم رجع و قال لابنه : لا أم لك أنفعل هذا جبان و انصرف و قامت الحرب على ساق و بلغت النفوس إلى التراق فأفرجت عن ثلاثة و ثلاثين ألف قتيل و قيل عن سبعة عشر ألفا و فيه اختلاف فيهم من الأزد أربعة آلاف و من ضبة ألف و مائة و باقيهم من سائر الناس كلهم من أصحاب عائشة و قتل فيها من أصحاب علي نحو من ألف رجل و قيل أقل و قطع على خطام الجمل سبعون يدا من بني ضبة كلما قطعت يد رجل أخذ الزمام آخر و هم ينشدون :

(نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ... ننازل الموت إذا الموت نزل)

(والموت أشهى عندنا من العسل)

و كان الجمل للراية إلى أن عقير الجمل و كانوا قد ألبسوه الأذراع و قال جملة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة

بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة و على سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به لأن الأمر كان انتظم بينهم على الصلح و التفريق على الرضا فخاف قتلة عثمان من التمكن منهم والإحاطة بهم فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين و يبدوا في الحرب شجرة في العسكرين و تختلف السهام بينهم و يصيح الفريق الذي في عسكر علي غدر طلحة و الزبير و الذي في عسكر طلحة و الزبير غدر علي فتم لهم ما أرادوا و دبروه و نشبت الحرب فكان كل فريق دافعا لمكرته عند نفسه و مانعا من الإشاطة بدمه و هذا صواب من الفريقين و طاعة الله إذ وقع القتال و الامتناع منهما على هذا السبيل و هذا هو الصحيح المشهور و كان قتالهم من ارتفاع النهار يوم الخميس إلى قريب العصر لعشر ليال خلون من جمادي الآخرة سنة ست و ثلاثين

و في صحيح مسلم من كتاب الفتن [عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من بيت عائشة فقال : رأس الكفر من ها هنا من حيث يطلع قرنا الشيطان] يعني المشرق و قيل : هذا بنصف ورقة بأسايد منها عن عبد الله بن عمر القواريري و محمد بن المثنى باضطراب في بيت حفصة ثم قال و قال عبد الله بن سعيد في روايته قام رسول الله صلى الله عليه و سلم عند باب عائشة فقال بيده نحو المشرق [الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرنا الشيطان] قالها مرتين أو ثلاثا

و ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده في الخامس عشر من مسند عائشة رضي الله عنها قال : حدثني محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أن عائشة رضي الله عنها لما أتت الحوبة سمعت نباح الكلاب فقالت : ما أظنني ألا راجعة إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لنا : [أيتكن تبيح كلاب الحوآب] فقال لها الزبير : ترجعين عسى الله أن يصلح لك بين الناس

و روى أبو بكر بن أبي شيبة قال : [حدثنا وكيع بن الجراح عن عصام بن قدامة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أيتكن صاحبة الجمل الأذيب يقتل حولها قتلى كثيرة و تنجو بعد ما كادت] و هذا حديث ثابت صحيح رواه الإمام المجمع على عدالته و قبول روايته الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة و كذلك وكيع مجمع على عدالته و حفظه و فقهه عن عصام و هو ثقة عدل فيما ذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب له عن عكرمة و هو عند أكثر العلماء ثقة عالم و هذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه و سلم و هو إخباره بالشيء قبل كونه

و قوله [الأذيب] أراد الأذب فأظهر التضعيف و العجب من القاضي أبي بكر بن العربي كيف أنكر هذا الحديث في كتبه منها في كتاب العواصم من القواصم و ذكر أنه لا يوجد أصلا و أظهر لعلماء الحديث إنكاره غباوة و جهلا و شهرة هذا الحديث أوضح من فلق الصبح و أجلى و قد رواه أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب فقال حدثنا سعيد بن نصر قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا محمد بن وضاح قال : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة فذكره بسنده المقدم

و روى أبو جعفر الطبري قال : لما خرجت عائشة رضي الله عنها من البصرة طالبة المدينة بعد اقتضاء الحرب جهزها علي رضي الله عنه جهازا حسنا و أخرج معها من أراد الخروج و اختار عليها أربعين امرأة معروفة من نساء البصرة و جهز معها أخاها محمدا و كان خروجها من البصرة يوم السبت غرة رجب سنة ست و ثلاثين و شيعها علي رضي الله عنه على أميال و سرح معها بنيه يوما

فصل :

فإن قيل : فلم ترك علي القصاص من قتلة عثمان ؟ فالجواب إنه لم يكن ولي دم و إنما كان أولياء الدم أولاد عثمان و هم جماعة : عمرو و كان أسن و لد عثمان و أبان و كان محدثا فقيها و شهد الجمل مع عائشة و الوليد بن عثمان و كان عنده مصحف عثمان الذي كان في حجره حين قتل و منهم الوليد بن عثمان ذكر ابن قتيبة في المعارف أنه كان صاحب شارب و فتوة و منهم سعيد بن عثمان و كان واليا لمعاوية على خراسان فهؤلاء بنو عثمان الحاضرون في ذلك الوقت و هم أولياء الدم غيرهم و لم يتحاكم إلى علي أحد منهم و لا نقل ذلك عنهم فلو تحاكموا إليه لحكم بينهم إذ كان قضى الصحابة للحديث المروي فيه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و جواب ثان : أنه لم يكن في الدار عدلان يشهدان على قاتل عثمان بعينه فلم يكن له أن يقتل بمجرد دعوى في قاتل بعينه و لا إلى الحاكم في سبيل ذلك مع سكوت أولياء الدم عن طلب حقهم ففي تركهم له أوضح دليل و كذلك فعل معاوية حين تمت له الخلافة و ملك مصر و غيرها بعد أن قتل علي رضي الله عنه لم يحكم على واحد من المتهمين بقتل عثمان بإقامة قصاص و أكثر المتهمين من أهل مصر و الكوفة و البصرة و كلهم تحت حكمه و أمره و نهيته و غلبته و قهره و كان يدعي المطالبة بذلك قبل ملكه و يقول : لا نبايع من يؤوي قتلة عثمان و لا يقتص منهم و الذي كان يجب عليه شرعا أن يدخل في طاعة علي رضي الله عنه حين انعقدت خلافته في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم و مهبط و حية و مقر النبوة و موضع الخلافة بجميع من كان فيها من المهاجرين و الأنصار يطوع منهم و ارتضاء و اختيار و هم أمم لا يحصون و أهل عقد و حل و البيعة تنعقد بطائفة من أهل الحل و العقد فلما بويع له رضي الله عنه طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان و أخذ القود منهم فقال لهم علي عليه السلام : ادخلوا في البيعة و اطلبوا الحق تصلوا إليه فقالوا لا تستحق بيعة و قتلة عثمان معك نراهم صباحا و مساء و كان علي في ذلك أسد رأيا و اصوب قيلا لأن عليا لو تعاطى القود معهم لتعصب لهم قبائل و صارت حربا ثالثة فانتظر بهم إلى أن يستوثق الأمر و تنعقد عليه البيعة و يقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم فيجري القضاء بالحق

قال ابن العربي أبو بكر و لا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى إلى إثارة فتنة أو تشتيت الكلمة و كذلك جرى لطلحة و الزبير فإنهما ماخلاعا عليا من ولاية و لا اعتراضا عليه في ديانة و إنما رأوا أن البداية بقتل أصحاب عثمان أولى

و ذكر ابن وهب قال : حدثني حرملة بن عمران عن يزيد بن أبي حبيب أنه سمعه يحدث محمد بن أبي زياد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة و كعب الكناني حتى إذا بلغا صفيين وقف كعب ثم نظر ساعة فقال : لا إله إلا الله ليهاقن في هذه البقعة من دماء المسلمين ما لم يهرق ببقعة من الأرض فغضب قيس ثم قال : و ما يدريك يا أبا إسحاق ما هذا فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى به فقال كعب : ما من سبر من الأرض إلا هو مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى بن عمران ما يكون عليه إلى يوم القيامة

أخبرنا شيخنا القاضي لسان المتكلمين أبو عامر بن الشيخ الفقيه الإمام أبي الحسين بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري إجازة عن شيخه أحدث الثقة المؤرخ أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال قال : حدثنا جماعة من شيوخنا رحمهم الله منهم الفقيه المفتي أبو محمد بن عنان قال : أنبأنا الإمام أبو عمر بن عبد البر فيما أجازه لنا بخطه قال : حدثنا خلف بن القاسم قال : حدثنا عبد الله بن عبد البر قال : حدثنا أحمد بن يحيى قال : حدثنا أحمد بن محمد بن الحجاج قال : حدثني خالد أبو الربيع و أحمد بن صالح و أحمد بن عمر و ابن السرح و يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب فذكره و أحمد بن محمد بن الحجاج هو ابن رشيد بن سعد أبو جعفر مصري قال أبو أحمد بن علي

: كذوبه و أنكرت عليه أشياء و محمد بن يزيد بن أبي زياد مجهول قاله الدار قطني و باقي السند ثقات معروفون
و أما وقعة صفين فإن معاوية لما بلغه مسير أمير المؤمنين علي كرم الله و وجهه إليه من العراق خرج من دمشق حتى
ورد صفين في النصف من الحرم فسبق إلى سهولة المنزل و سعة المناخ و قريب الماء من الفرات و بنى قصرًا ليبيت
ماله و صفين صحراء ذات كدى و أكمانت و كان أهل الشام قد سبقوا إلى المشرعة من سائر الجهات و لم يكن ثم
مشرعة سواها للواردين و الواردات فمعت عليا رضي الله عنه إياها و حمتها تلك الكفاءة فذكروهم بالمواعظ الحسنة
و الآيات و حذرهم بقول النبي صلى الله عليه و سلم فيمن منع فضل الماء بالقلادة فردوا قوله و أجابوا بالسننة
الطغاة إلى أن قاتلهم بالقواضب و السمهرات فلما غلبهم عليها رضي الله عنه أباحها للشاربين و الشاربين ثم بنى
مسجدا على تل بأعلى الفرات ليقيم فيه مدة مقامه فرائض الصلوات لفضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع
و عشرين من الدرجات على ما ثبت في الصحيح من رواية ابن عمر و غيره من الصحابة العدول الثقة و حضرها
مع علي جماعة من البدرين و من بايع تحت الشجرة من الصحابة المرضيين و كان مع علي رايات كانت مع رسول
الله صلى الله عليه و سلم في قتل المشركين و كان مقام علي رضي الله عنه و معاوية بصفين سبعة أشهر و قيل تسعة
و قيل ثلاثة أشهر و كان بينهم قبل القتال نحو من سبعين زحفا و قتل في ثلاثة أيام من أيام البيض و هي ثلاث
عشرة و أربعة عشرة و خمسة عشرة ثلاثة و سبعون ألفا من القرينين
و ذكره الثقة العدل أبو إسحاق و إبراهيم بن الحسين الكسائي الهمداني المعروف بابن ديزيل و هو الملقب بسفينة و
سفينة طائر إذا وقع على الشجرة لم يقم عنها و يترك فيها شيئا وهو في تلك الليالي هي ليله الهرير جعل يهر بعضهم
على بعض و الهرير : الصوت يشبه الباح لأنهم تراموا بالنبل حتى فنيت و تطاعوا الرماح حتى اندقت و تضاربوا
بالسيوف حتى انقضت ثم نزل القوم يمشي بعضهم إلى بعض قد كسروا جفون سيوفهم و اضطربوا بما بقي من
السيوف و عمد الحديد فلا تسمع إلا غمغمة القوم و الحديد في الهام و لما صارت السيوف كالمنجل بالحجارة ثم
جتوا على الركب فتحاثوا بالتراب ثم تكادموه بالأفواه و كسفت الشمس و تار القتام و ارتفع الغبار و ضلت
الألوية و الرايات و مرت أوقات أربع صلوات لأن القتال كان بعد صلاة الصبح و اقتتلوا إلى نصف الليل و ذلك
في شهر ربيع الأول سنة تسع و ثلاثين قال الإمام أحمد بن حنبل في تاريخه و قال غيره في شهر ربيع الأول
و كان أهل الشام يوم صفين خمسة و ثلاثين و مائة و ألفا و كان أهل العراق عشرين أو ثلاثين و مائة و ألفا ذكره
الزبير بن بكار أبو عبد الله القاضي العدل قال : حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي عن زكريا بن عيسى عن ابن
شهاب عن محمد بن عمرو بن العاص و كان من شهد صفين و أبلى فيه و فيه يقول :

(فلو شهدت جمل مقامي و مشهدي ... بصفين يوما شاب منها الذوائب)

(غداة أتى أهل العراق كأنهم ... من البحر لج موجه متراكب)

(و جئناهم ثمشي كأن صفوفنا ... سحائب غيث رفعتنا الجنائب)

و يروى : شهاب حريق رفته الجنائب

(و قالوا لنا إنا نرى أن تبايعوا ... عليا فقلنا بل نرى أن نضارب)

(و طارت إلينا بالرماح كماقم ... و طرنا إليهم بالأكف قواضب)

(إذا نحن قنا استهزموا عرضت لنا ... كئيب منهم و أشمأزت كئائب)

(فلا هم يولون الظهور فيدبروا ... فرارا كفعل الخادرات الدرائب)

قال ابن شهاب : فأنشدت عائشة رضي الله عنها أبياتة هذه فقالت ما سمعت بشاعر أصدق شعرا منه

قال الحافظ ابن دحية : قوله : بل نرى أن نضارب أن هنا مخففة من الثقيلة محذوفة الاسم تقديره أننا نضارب و قوله [كفعل الخادرات الدرائب] الخادرات : الأسود يقال أسود خادر كأن الأجمة له خدر فمعناه أنهم لا يدبرون كالأسود التي لا تدبر عن فرائسها لأنها قد ضربت بها و دربت عليها و الدربة الضراوة يقال : درب يدرب و رفع الدرائب لأنها بدل من الضمير في يدبروا

قال : و الإجماع منعقد على أن طائفة الإمام طائفة عدل و الأخرى طائفة بغي و معلوم أن عليا رضي الله عنه كان الإمام

و روى مسلم في صحيحه قال : [حدثنا محمد بن المنثى و ابن بشار و اللفظ لابن منثى قال : حدثنا محمد بن جعفر : حدثنا شعبة عن أبي سلمة قال : سمعت أبا نصره يحدث عن أبي سعيد الخدري قال : أخبرني من هو خير مني أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعمار حين جعل يحفر الخندق جعل يمسح راسه و يقول : بوس بن سمية تقتلك فئة باغية]

و خرجه أيضا من حديث إسحاق بن إبراهيم و إسحاق بن منصور و محمد بن غيلان و محمد بن قدامة قالوا : أخبرنا النضر بن شميل عن شعبة عن أبي سلمة بهذا الإسناد نحوه غير أن في حديث النضر قال أخبرني من هو خير مني أبو قتادة و له طرق غير هذا في صحيح مسلم

و قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب له في ترجمة عمار و تواترت الأخبار عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [يقتل عمار الفئة الباغية] و هو من أصح الأحاديث

و قال فقهاء الإسلام فيما حكاه الإمام عبد القاهر في كتاب الإمامة من تأليفه و أجمع فقهاء الحجاز و العراق من فريق الحديث و الرأي منهم مالك و الشافعي و أبو حنيفة و الأوزاعي و الجمهور الأعظم من المتكلمين إلى أن عليا مصيب في قتاله لأهل صفين كما قالوا بإصابته في قتل أصحاب الجمل و قالوا أيضا بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له ولكن لا يجوز تكفيرهم ببيعتهم

و قال الإمام أبو منصور التيمي البغدادي في كتابه الفرق من تأليفه في شان القصة عقيدة أهل السنة و أجمعوا أن عليا كان مصيبا في قتاله لأهل صفين كما قالوا بإصابته في قتل أصحاب الجمل و قالوا أيضا : بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له و لكن لا يجوز تكفيرهم ببيعتهم

و قال الإمام أبو منصور التيمي البغدادي في كتاب الفرق في بيان عقيدة أهل السنة : و أجمعوا أن عليا كان كصيبا في قتال أهل الجمل : أعني طلحة و الزبير و عائشة بالبصرة و أهل صفين : أعني معاوية و عسكره

و قال الإمام أبو المعالي في كتاب الإرشاد فصل : علي رضي الله عنه كان إماما حقا في توليته و مقاتلوه بغاة و حسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير و إن أخطأوه فهو آخر فصل ختم به كتابه و حسبك يقول سيد المرسلين و إمام المتقين لعمار رضي الله عنه [تقتلك الفئة الباغية] و هو من أثبت الأحاديث كما تقدم و لما لم يقدر معاوية على إنكاره لثبوته عنده قال : إنما قتله من أخرجه و لو كان حديثا فيه شك لرده معاوية و امكره و أكذب ناقله و زوره

و قد أجاب علي رضي الله عنه عن قول معاوية بان قال : فرسول الله صلى الله عليه و سلم اذن قتل حمزة حين أخرجه و هذا من علي رضي الله عنه إلزام لا جواب عنه و حجة لا اعتراض عليها قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية

باب — لا يأتي زمان إلا و الذي بعده شر منه و في ظهور الفتن

البخاري عن الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال : [اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم] سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم وخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح

[وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يتقارب الزمان وينقص العلم و يلقى الشح و تظهر الفتن و يكثر الهرج قالوا يا رسول الله : أيم هو ؟ قال : القتل القتل] أخرجه البخاري و مسلم
فصل

قوله : [يتقارب الزمان] قيل معناه قصر الأعمار و قلة البركة فيها و قيل هو دنو زمان الساعة و قيل هو قصر مدة الأيام على ما روي [أن الزمان يتقارب حتى تكون السنة كالشهر و الشهر كالجمعة و الجمعة كاليوم و اليوم كالساعة و الساعة كاحتراق الشمعة] أخرجه الترمذي و قال هذا حديث حسن غريب و قيل في تأويله غير هذا و ق حماد بن سلمة : سألت أبا سنان عن قوله يتقارب الزمان حتى تكون السنة كالشهر و قال : ذلك من استلذاذ العيش قال الخطابي : يريد و الله أعلم زمان خروج المهدي و وقوع الأمانة في الأرض فيما يسطه من العدل فيها على ما يأتي و يستلذ عند ذلك و تستقصر مدته و لا يزال الناس يستقصرون مدة أيام الرخاء و إن طالت و امتدت و يستطيلون أيام المكروه و إن قصرت و قلت و العرب تقول في مثل هذا : مر بنا يوم كعرقوب القطا قصرا و يلقى الشح بمعنى يتلقى و يتعلم و يواصى عليه و يدعى إليه و منه قوله تعالى { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه } أي تقبلها و تعلمها و يجوز يلقى بتخفيف اللام و القاف على معنى يترك لإفاضة المال و كثرته حتى بهم رب المال من يقبل صدقته فلا يجد من يقبلها على ما يأتي و لا يجوز أن يكون يلقى بمعنى يوجد لأن الشح مازال موجودا قبل تقارب الزمان

باب ما جاء في الفرار من الفتن و كسر السلاح و حكم المكره عليها

مالك [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع شغف الجبال و مواقع القطر يفر بدينه من الفتن]

مسلم [عن أبي بكر قال : قال رسول الله : إنها ستكون فتن ألا ثم تكون فتن القاعد فيها خير من الماشي و الماشي فيها خير من الساعي إليها ألا فإذا نزلت و وقعت فمن كانت له إبل فليحلق بإبله و من كان له غنم فليحلق بأرضه قال فقال له رجل يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل و لا غنم و لا أرض قال : يعمد إلى سيفة فيدق عليه بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت قال فقال رجل يا رسول الله : أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفيين أو إحدى الفتنين فيضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني قال يبوء بإثمه و إثمك و يكون من أصحاب النار]

[و عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم و القائم فيها خير من الماشي و الماشي خير من الساعي من يشرف لها تستشرفه و من وجد فيها ملجأ فليعد به] قال : حديث حسن صحيح

باب منه و الأمر بلزوم البيوت عند الفتن

ابن ماجه [عن أبي بردة قال : دخلت على محمد بن مسلمة فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها ستكون فتنة و خلاف و فرقة و اختلاف فإذا كان ذلك فانت بسيفك أحدا فاضرب به حتى ينقطع ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية] قد وقعت و فعلت ما قال النبي صلى الله عليه وسلم
أبو داود [عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بين أيديكم فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا و يمسي كافرا القاعد فيها خير من القائم و القائم فيها خير من الساعي قالوا فما تأمرنا ؟ قال و كونوا أحلاس بيوتكم]

فصل

قال علماؤنا رحمه الله عليهم : كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه ممن اجتنب ما وقع بين الصحابة من الخلاف و القتال و أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره إذا كان ذلك أن يتخذ سيفا من خشب ففعل و أقام بالربذة و ممن اعتزل الفتنة أبو بكر و عبد الله بن عمر ! و أسامة ابن زيد و أبو ذر و حذيفة و عمران بن حصين و أبو موسى و أهبان و سعد بن أبي وقاص و غيرهم و من التابعين شريح و النخعي و غيرهما رضي الله عنهم
قلت : هذا و كانت تلك الفتنة و القتال بينهم على الاجتهاد منهم فكان المصيب منهم له أجران و المخطئ له أجر و لم يكن قتال على الدنيا فكيف اليوم الذي تسفك فيه الدماء باتباع الهوى طلبا للملك و الاستكثار من الدنيا فواجب على الإنسان أن يكف اليد و اللسان عند ظهور الفتن و نزول البلياء و الخن نسأل الله السلامة و الفوز بدار الكرامة بحق نبيه و آله و أتباعه و صحبه و قوله : [كونوا أحلاس بيوتكم] حض على ملازمة البيوت و القعود فيها حتى يسلم من الناس و يسلموا منه و من مراسيل الحسن و غيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [نعم صوامع المؤمنين بيوتهم] و قد تكون العزلة في غير البيوت كالبادية و الكهوف قال الله تعالى { إذ أوى الفتية إلى الكهف }

و دخل سلمة بن الأكوع على الحجاج و كان قد خرج إلى الربذة حين قتل عثمان و تزوج امرأة هناك و ولدت له أولادا فلم يزل بها حتى كان قبل أن يموت بليال فدخل المدينة له الحجاج : ارتددت على عقبيك ؟ قال : لا و لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لنا في البدو

و خرج مسلم و غيره و قد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم [يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع به شغف الجبال و مواقع القطر يفر بدينه مئة الفتن] و ما زال الناس يعتزلون و يخالطو كل واحد منهم على ما يعلم من نفسه و يتأتى له من أمره و قد كان العمري بالمدينة معتزلا و كان مالك مخالطا للناس ثم اعتزل مالك آخر عمره رضي الله عنه فيروي عنه أنه أقام ثمان سنة لم يخرج إلى المسجد فقليل له في ذلك فقال : ليس كل واحد يمكنه أن يخبر بعذره و اختلف الناس في عذره على ثلاثة أقوال فقليل لئلا يرى المناكير و قيل لئلا يمشی إلى السلطان و قيل كانت به أبردة فكان يرى تنزيه المسجد عنها ذكره القاضي أبو بكر بن العربي كتاب سراج المريدين له

باب منه و كيف التثبت في الفتنة و الاعتزال عنها و في ذهاب الصالحين

ابن ماجه عن عديسة بنت أعبان قالت : لما جاء علي بن أبي طالب ها هنا بالبصرة دخل على أبي فقال يا أبا مسلم : ألا تعينني على هؤلاء القوم ؟ قال : بلى فدعى جاريته فقال يا جارية : أخرجي سيفي قالت فأخرجته فسل منه قدر شبر فإذا هو خشب فقال : إن خليلي و ابن عمك صلى الله عليه وسلم عهد إلي إذا كانت فتنة بين المسلمين فاتخذ سيفا من خشب فإن شئت خرجت معك قال : لا حاجة لي فيك و لا في سيفك

[و عن زيد بن شريحيل عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن بين يدي الساعة فتننا كقطع الليل المظالم يصبح الرجل فيها مؤمنا و يمسي كافرا و يصبح كافرا و يمسي مؤمنا و القاعد فيها خير من القائم و القائم فيها خير من الماشي و الماشي فيها خير من الساعي فكسروا قسيكم و قطعوا أوتاركم و اضربوا بسيفكم الحجارة فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير بني آدم] أخرجه أبو داود أيضا

و خرج [من حديث سعد بن أبي وقاص قلت يا رسول الله : إن دخل على بيتي و بسط يده إلي ليقتلني قال : فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم كن كخير ابني آدم و تلا هذه الآية { لئن بسطت إلي يدك لتقتلني }] و ابن ماجه [عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال كيف بكم و بزمان يوشك أن يأتي فيغربل الناس فيه غربلة يبقى حثالة من الناس قد مزجت عهودهم و خفت أمانتهم و اختلفوا فكانوا هكذا و هكذا و شبك بين أصابعه قالوا : كيف بنا يا رسول الله ؟ إذا كان ذلك الزمان ؟ قال : تأخذون بما تعرفون و تدعون بما تنكرون و تقبلون على خاصتكم و تذرون أمر عامتكم] أخرجه أبو داود أيضا

و أخرجه أبو نعيم الحافظ بإسناده [عن محمد بن كعب القرظي أن الحسن بن أبي الحسن حدثه أنه سمع شريحا و هو قاضي عمر بن الخطاب يقول : قال عمر بن الخطاب قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ستغربلون حتى تصيروا في حثالة من الناس قد مزجت عهودهم و خربت أماناتهم فقال قائل : كيف بنا يا رسول الله ؟ قال تعلمون بما تعرفون و تتركون ما تنكرون و تقولون : أحد أحد أنصرنا على من ظلمنا و اكفنا من بغانا] غريب من حديث محمد بن كعب و الحسن و شريح ما علمت له و جهها غير هذا

النسائي [عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا رأيت الناس مزجت عهودهم و خفت أماناتهم و كانوا هكذا و هكذا و شبك بين أصابعه فقمت إليه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك يا رسول الله جعلني الله فداك ؟ قال : الزم بيتك و أملك عليك لسانك و خذ ما تعرف و دع ما تنكر و عليك بأمر خاصة نفسك و دع عنك أمر العامة] أخرجه أبو داود أيضا

الترمذي [عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به و هلك و يأتي على الناس زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجأ] قال هذا حديث غريب و في الباب عن أبي ذر رضي الله عنه

فصل

قوله : و يوشك معناه يقرب و قوله : فيغربل الناس فيها غربلة عبارة عن موت الأخيار و بقاء الأشرار كما يبقى الغراب من حثالة ما يغربله و الحثالة ما يغربله و الحثالة : ما يسقط من قشر الشعير و الأرز و التمر و كل ذي قشر إذا بقي و حثالة الدهن تفلته و كأنه الرديء من كل شيء و يقال : حثالة و حفالة بالناء و الفاء معا كما روى ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لتنتقون كما ينتقي التمر من أغفاله و ليذهبن خياركم و ليبقين شراركم فموتوا إن استطعتم]

و خرج البخاري [عن مرداس الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يذهب الصالحون الأول فالأول و يبقى حفالة كحفالة الشعير و التمر لا يباليهم الله بالة] و في رواية لا يعبا الله بهم يقال ما يباليه بالة و بال و بلى مقصور و مكسور الأول مصدر و قيل اسم أي ما كثرت به و البال الاكتراث و الاهتمام بالشيء و الصالحون هم الذين أطاعوا الله و رسوله و عملوا بما أمرهم به و انتهوا عما نهاهم عنه

قال أبو الخطاب بن دحية و مرداس و هذا هو مرداس بن مالك الأسلمي من أسلم بفتح اللام سكن الكوفة و هو

معدود في أهلها و لم يحفظ له من طريق صحيح سوى هذا الحديث
قال المؤلف رحمه الله : انفراد به البخاري رحمه الله روى عن قيس بن أبي حازم في الرقاق و مزجت معناه اختلطت و
اختلفت و المرجح الاختلاط و الاختلاف

باب الأمر بتعليم كتاب الله و اتباع ما فيه و لزوم جماعة المسلمين عند

غلبة الفتن و ظهورها و صفة دعاة آخر الزمان و الأمر بالسمع و الطاعة للخليفة و إن ضرب الظهور و أخذ المال
أبو داود [عن نصر بن عاصم الليثي قال : أتينا اليشكري في رهط من بني ليث فقال : من القوم ؟ قال بنو الليث
أتينك نسألك عن حديث حذيفة فقال : أقبلنا مع أبي موسى قافلين و غلت الدواب بالكوفة قال : فسألت أبا
موسى الأشعري أنا و صاحب لي فأذن لنا فقدمنا الكوفة فقلت لصاحبي : أنا داخل المسجد فإذا قامت السوق
خرجت إليك قال : فدخلت المسجد فإذا فيه حلقة كأنما قطعت رؤوسهم يستمعون إلى حديث رجل واحد قال
فقمتم عليهم فجاء رجل فقام إلى جنبي قال فقلت من هذا ؟ قال : أبصري أنت ؟ قال : قلت نعم قال : قد عرفت
و لو كنت كوفيا لم تسأل عن هذا هذا حذيفة فدنوت منه فسمعت حذيفة رضي الله عنه يقول : كان الناس
يسألون رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الخير و كنت أنا أسأله عن الشر و عرفت أن الخير لن يسبقني قال
فقلت يا رسول الله بعد هذا الخير شر قال : يا حذيفة تعلم كتابي الله و اتبع ما فيه ثلاث مرات قلت يا رسول الله
بعد هذا الخير شر ؟ قال : فتنة و شر قلت يا رسول الله : بعد هذا الخير شر ؟ قال : فتنة و شر قلت يا رسول الله
بعد هذا الشر خير ؟ فقال : يا حذيفة تعلم كتاب الله و اتبع ما فيه قال : قلت يا رسول الله بعد هذا الشر خير ؟
قال : هدنة على دخن و جماعة على أقداء فيهم أو فيها قلت يا رسول الله : الهدنة على الدخن ما هي ؟ قال : لا
ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه قال قلت يا رسول الله بعد هذا الخير شر ؟ قال : فتنة عمياء صماء عليها
دعاة على أبواب النار فإن مت يا حذيفة و أنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم]
و خرج أبو نعيم الحافظ [عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : خذوا العطاء ما
دام عطاء فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه و لستم بتاركيه يمنعكم من ذلك الفقر و الحاجة إلا أن رحي
الإسلام دائرة فلوروا مع الكتاب حيث دار إلا أن الكتاب و السلطان سينفركان فلا تفارقوا الكتاب إلا أنه
سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم إن عصيتوهم قتلوكم و إن أطعتموهم أضلوكم قالوا يا
رسول الله : كيف نصنع ؟ قال : كما صنع أصحاب عيسى بن مريم عليهما الصلاة و السلام نشروا بالناشير و
حملوا على الخشب موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله] خرجه في باب يزيد بن مرثد غريب من حديث
معاذ لم يروه عنه إلا يزيد بن مرثد و عن الرضين بن عطاء
و خرج البخاري و مسلم و أبو داود [عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة يقول : كان الناس يسألون رسول
الله صلى الله عليه و سلم عن الخير و كنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية
و شر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر ؟ قال : نعم فقلت : هل بعد ذلك من خير ؟ قال : نعم و فيه
دخن قلت : و ما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي و يهتدون بغير هديي تعرف منهم و تنكر فقلت : هل بعد
ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت يا رسول الله : صفهم لنا
قال : نعم قوم من جلدتنا و يتكلمون بألسنتنا فقلت يا رسول الله : فما تأمرني إن أدركت ذلك ؟ قال : تلزم جماعة
المسلمين و إمامهم قلت : فإن لم يكن لهم جماعة و لا إمام ؟ قال فاعتزل الفرق كلها و لو إن تعض على أصل

شجرة حتى يدركك الموت و أنت على ذلك]

و في رواية قال : [تكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي و لا يستنون بسنتي و سيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس قال فكيف أصنع يا رسول الله إن إدركت ذلك ؟ قال : تسمع و تطيع و إن ضرب ظهرك و أخذ مالك فاسمع و أطع] لفظ مسلم

و في كتاب أبي داود [بعد قوله هدنة على دخن قال قلت يا رسول الله : ثم ماذا ؟ قال إن كان الله خليفة في الأرض فضرب ظهرك و أخذ مالك فأطعه و إلا فمت و أنت عاض في جندل شجرة قلت ثم ماذا ؟ قال : ثم يخرج الدجال و معه نمر و نار فمن وقع في ناره و جب أجره و حط وزره و من وقع في نمره و جب وزره و حط أجره قال ثم ماذا ؟ قال : هي قيام الساعة]

فصل

قوله : على أقداء الأقداء جمع القذا و القذا جمع قذاة و هو ما يقع في العين من الأذى و في الطعام و الشراب من تراب أو نتن أو غير ذلك فالمراد به في الحديث الفساد الذي يكون في القلوب أي أنهم يتقون بعضهم بعضا و يظهرون الصلح و الاتفاق و لكنهم في باطنهم خلاف ذلك و الجدل : الأصل كما هو مبين في كتاب مسلم على أصل شجرة

باب منه إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل و المقتول في النار

مسلم [عن الأحنف بن قيس قال : خرجت و أنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكر فقال : أين تريد يا أحنف ؟ قال : فقلت أريد نصرة ابن عم رسول الله صلى الله عليه و سلم يعني عليا قال فقال لي : يا أحنف ارجع فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إذا توجه المسلمان بسيفهما فالقاتل و المقتول في النار قال فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه قد أراد قتل صاحبه] أخرجه البخاري و في بعض طرقه [أنه كان حريصا على قتل صاحبه]

فصل

قال علماؤنا : ليس هذا الحديث في أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم بدليل قوله تعالى { و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تهيء إلى أمر الله } فأمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية و لو أمسك المسلمون عن قتال أهل البغي لتعطلت فريضة من فرائض الله و هذا يدل على أن قوله القاتل و المقتول في النار ليس في أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم لأنهم إنما قاتلوا على التأويل قال الطبري : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه و لزوم المنازل و كسر السيوف لما أقيم حد و لا أبطل باطل و لوجد أهل النفاق و الفجور سبيلا إلى استحالة كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين و سبي نساءهم و سفك دماهم بأن يتحزبوا عليهم و يكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولون هذه فتنة قد تمينا عن القتال فيها و أمرنا بكف الأيدي و الهرب منها و ذلك مخالف لقوله عليه الصلاة و السلام [خذوا على أيدي أسفهاكم]

قلت : فحديث أبي بكره محمول على ما إذا كان القتال على الدنيا و قد جاء هكذا منصور فيما سمعناه من بعض

مشايخنا : إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل و المقتول في النار أخرجه البزار

و مما يدل على صحة هذا ما أخرجه مسلم عن صحيحه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم

و الذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل و لا المقتول فيما قتل فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال المخرج القاتل و المقتول في النار [فبين هذا الحديث أن القتال إذا كان على جهالة من طلب الدنيا أو أتباع هوى كان القاتل و المقتول في النار فأما قتال يكون على تأويل ديني فلا و أما أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم و رضي عنهم فيجب على المسلمين توقيفهم و الإمساك عن ذكر زلهم و نشر محاسبتهم لثناء الله عز و جل في كتابه فقال و قوله الحق { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة } و قال : { محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } إلى آخر السورة و قال : { لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل } و كل من ذهب منهم إلى تأويل فهو معذور و إن كان بعضهم أفضل من بعض و أكثر سوابق و قيل : إن من توقف من الصحابة حملوا الأحاديث الواردة بالكف عن عمومها فاجتنبوا جميع ما وقع بين الصحابة من الخلاف و القتال و ربما ندم بعضهم على ترك ذلك كعبد الله ابن عمر فإنه ندم على تخلفه عن نصره علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال عند موته ما آسى على شيء ما آسى على تركي قتال الفئة الباغية يعني فئة معاوية و هذا هو الصحيح إن الفئة الباغية إذا علم منها البغي قوتلت قال عبد الرحمن بن أزي : شهدنا صفين مع علي في ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان : قتل منهم ثلاث و ستون منهم عمار بن ياسر

و قال أبو عبد الرحمن السلمي : شهدنا مع علي صفين فرأيت عمار بن ياسر لا يأخذ في ناحية من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم يتبعونه كأنه علم لهم قال و سمعته يقول يومئذ لهاشم بن عتبة يا هاشم : تقدم الجنة تحت الأبارقة اليوم ألقى الأحبة محمدا و حزبه و الله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا شغفات الجبال لعلمنا أنا على الحق و أنهم على الباطل قال :

(نحن ضربناكم على تنزيلة ... فالיום نضربكم على تأويله)

(ضربا يزيد الهام عن مقيلة ... و يذهل الخليل عن خليلة)

(أو يرجع الحق إلى سبيله)

قال : فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم قتلوا في موطن ما قتلوا يومئذ و سئل بعض المتقدمين عن الدماء التي وقعت بين الصحابة فقال : { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم و لا تسألون عما كانوا يعملون }

و قد أشبعنا القول في هذه المسألة في كتاب الجامع لأحكام القرآن في سورة الحجرات و الصواب ما ذكرناه لك أولا و الله أعلم

و روي عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال : [سيكون بين أصحابي فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياي ثم يستن بها قوم من بعدهم يدخلون به النار]

باب جعل الله بأس هذه الأمة بينها

قال الله تعالى { أو يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض } مسلم [عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها و مغاربتها و إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها و أعطيت الكثرين الأحمر و الأبيض] قال ابن ماجه في سننه يعني الذهب و الفضة [و إني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة و أن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم و إن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد و إني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلهم بسنة عامة و

أن لا يسلط عليهم من سوى أنفسهم فيستريح يرضيهم و لو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبي بعضهم بعضا [زاد أبو داود :] و إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين و إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة و لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي المشركين و حتى يعبد قبائل من أمتي الأوثان و أنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون يزعم كلهم أنه نبي و أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي و لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله [

ابن ماجه] عن معاذ بن جبل قال : صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما صلاة فأطال فيها فلما نصرنا قلنا أو قالوا يا رسول الله : أطلت اليوم الصلاة قال : إني صليت صلاة رغبة و رهبة سألت الله لأمتي ثلاثا فأعطاني اثنتين و رد علي واحدة سألته ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها و سألته ألا يهلكهم غرقا فأعطانيها و سألته ألا يجعل بأسهم بينهم فردها علي [

و أخرجه مسلم] عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقبل ذات يوم من العالية و في رواية : في طائفة من أصحابه حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع ركعتين فصلينا معه و دعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعتني واحدة سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها و سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها و سألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها [و أخرجه الترمذي و النسائي و صححه و اللفظ النسائي

[و عن خباب بن الأرت و كان شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه راقب رسول الله صلى الله عليه و سلم الليل كلها حتى كان الفجر فلما سلم رسول الله صلى الله عليه و سلم من صلاته جاء خباب فقال يا رسول الله : بأبي أنت و أمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أجل إنما صلاة رغب و رهب سألت الله فيها لأمتي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين و منعتني واحدة سألت ربي ألا يهلكنا بما أهلك الأمم فأعطانيها و سألت ربي عز و جل ألا يظهر عليها عدوا من غيرنا فأعطانيها و سألت ربي عز و جل ألا يلبسنا شيئا فمنعنيها [

ابن ماجه] عن أبي موسى قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن بين الساعة هرجا قال قلت يا رسول الله ما الهرج ؟ قال : القتل القتل فقال بعض المسلمين : يا رسول الله إنا نقتل الآن في العام الواحد من المشركين كذا و كذا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم ليس يقتل المشركين و لكن يقتل بعضكم بعضا حتى يقتل الرجل جاره و ابن عمه و ذا قرينته [و ذكر الحديث و الله أعلم

باب — ما يكون من الفتن و إخبار النبي صلى الله عليه و سلم بما

مسلم] عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم مقاما ما ترك فيه شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به حفظ من حفظه و نسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء و إن ليكون منه الشيء قد نسيه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه [و خردج أبو داود أيضا عنه قال : [و الله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه و الله ما ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه و اسم أبيه و اسم قبيلته [

مسلم] عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم مجلسا أنبأنا فيه عن الفتنة فقال و هو

يعد الفتن : منها ثلاثة لا يكدن يذرن شيئا و منهن فتن كرياح الصيف منها صغارا و منها كبار] قال حذيفة :

فذهب أولئك الرهط كلهم غيري

أبو داود [عن عبد الله بن عمر : كنا قعودا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكر الفتن فأكثر فيها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل يا رسول الله : و ما فتنة الأحلاس ؟ قال : هي هرب و خرب ثم فتنة السوء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني و ليس مني و إنما أوليائي المتقون ثم يصطليح الناس على رجل كودك على ضلع ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمه فإذا قيل انقضت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمنا و يمسي كافرا و يمسي مؤمنا و يصبح كافرا حتى يصير الناس فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه و فسطاط نفاق لا إيمان فيه فإذا كان ذلكم فانتظروا الدجال من سومه أو من غده]

فصل

قول حذيفة : قيام فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم مقاما و في الرواية الأخرى مجلسا قد جاء مبينا في حديث أبي زيد قال : [صلى بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم القجر و صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلي ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلي فصعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان و ما هو كائن فأعلمنا أحفظنا] أخرجه مسلم

و روى الترمذي [من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة العصر ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه و نسيه من نسيه] فظاهر هذا أن ذلك المقام كان من بعد العصر لا قبل ذلك و هذا تعارض فيجوز أن يكون ذلك كله في يومين فيوم خطب فيه من بعد العصر و يوم قام فيه خطيبا كله و يجوز أن تكون الخطبة من بعد صلاة الصبح إلى غروب الشمس كما في حديث أبي زيد و اقتصر بعض الرواة في الذكر على ما بعد العصر كما في حديث أبي سعيد الخدري و فيه بعد و الله أعلم

و قوله : حتى ذكر فتنة الأحلاس قال الخطابي : إنما أضيفت الفتنة إلى الأحلاس لدوامها و طول لبثها يقال للرجل إذا كان يلزم بيته لا يرح منه : هو جلس بيته و يحتمل أن تسمى هذه الفتنة بالأحلاس لسوادها و ظلمتها و الحرب ذهاب الأهل و المال يقال حرب الرجل فهو حريب إذا سلب أهله و ماله و من هذا المعنى أخذ لفظ الحرب لأن فيها ذهاب النفوس و الأموال و الله أعلم و الدخن : الدخان يريد أنما تنور كالدخان من تحت قدميه و قوله : كودك على ضلع مثل و معناه الأمر الذي لا يثبت و لا يستقيم يريد أن هذا الرجل غير خليق بالملك و الدهيماء : تصغير الدهماء على معنى المذمة لها و التعظيم لأمرها كما قال : [دويهيّة تصفر منها الأنامل] أي ههد الفتنة سوداء مظلمة و دلت أحاديث هذا الباب على أن الصحابة رضي الله عنهم كان عندهم من علم الكوائن إلى يوم القيامة العلم الكثير لكن لم يشيعوها إذ ليست من أحاديث الأحكام و ما كان فيه شيء من ذلك حدثوا به و تقصروا عنه

و قد روى البخاري عن أبي هريرة قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه و سلم وعاءين أما أحدهما فبثته و أما الآخر فلو بثنته لقطع مني هذا البلعوم قال أبو عبد الله البلعوم مجرى الطعام و القسطاط الخيمة الكبيرة و تسمى مدينة مصر القسطاط و المراد به في هذا الحديث الفرقة المجتمعة المنحازة عن الفرقة الأخرى تشبيها بانفراد الخيمة عن الأخرى و تشبيها بانفراد المدينة عن الأخرى حملا على تسمية مصر بالقسطاط و الله أعلم

باب ذكر الفتنة التي توجج موج البحر و قول النبي صلى الله عليه و سلم : هلاك أمتي على يد أغيلمة من سفهاء قريش

ابن ماجه عن شقيق عن حذيفة قال : كنا جلوسا عند عمر بن الخطاب فقال : أيكمك يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم في الفتنة ؟ قال حذيفة : فقلت أنا فقال إنك لجزيء قال : كيف سمعه يقول ؟ قلت سمعته يقول [فتنة الرجل في أهله و ماله و جاره يكفرها الصلاة و الصيام و الصدقة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر] فقال عمر : ليس هذا أريد التي توجج موج البحر قال مالك و لها يا أمير المؤمنين إن بينك و بينها بابا مغلقا قال [يفتح الباب أو يكسر قال : بل يكسر قال : ذلك أجدر أن لا يغلق فقلت لحذيفة أكان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم كما يعلم أن دون غد الليلة فقلت لحذيفة أكان عمر يعلم من الباب ؟ قال نعم كما يعلم أن دون غد الليلة] إني حدثته حديثنا ليس بالأغاليط قال فهينا أن نسأله من الباب فقلنا لمسروق : سله فسأله : هو عمر أخرجه البخاري و مسلم أيضا

و خرج الخطيب أبو بكر بن أحمد بن علي من حديث مالك بن أنس أن عمر بن الخطاب دخل على بني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فوجدها تبكي فقال : ما يبكيك ؟ قالت هذا اليهودي لكعب الأحمق يقول إنك باب من أبواب جهنم فقال عمر : ما شاء الله إني لأرجو أن يكون الله خلقني سعيدا قال ثم خرج فأرسل إلى كعب فدعاه فلما جاءه كعب قال يا أمير المؤمنين : و الذي نفسي بيده لا تسليخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة فقال عمر : أي شيء هذا ؟ مرة في الجنة و مرة في النار قال : و الذي نفسي بيده إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقفوا فيها فإذا مت لم يزالوا يتفحمون فيها إلى يوم القيامة

البخاري عن عمرو بن يحيى بن سعيد قال : أخبرني جدي قال : كنت جالسا مع أبي هريرة في مسجد النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة و معنا مروان فقال أبو هريرة : سمعت الصادق المصدوق يقول : [هلكت أمتي على يد أغيلمة من قريش] قال مروان لعنة الله عليهم من أغيلمة قال أبو هريرة : لو شئت أن أقول بني فلان و بني فلان لفعلت فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حتى تملكوا بالشام فإذا رأهم أحداثا و غلمانا قال لنا : عسى هؤلاء أن يكونوا منهم قلنا : أنت أعلم

الغلام الطار الشارب و الجمع الغلظة و الغلمان و نص مسلم في صحيحه في كتاب الفتن [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يهلك أمتي هذا الحي من قريش قال : فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم] فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : هذا الحديث يدل على أن أبا هريرة كان عنده من علم الفتن ؟ العلم الكثير و التعيين على من يحدث عنه الشر الغزير ألا تراه يقول لو شئت قلت لكم هم بنو فلان و بنو فلان لكنه سكت عن تعيينهم مخافة ما يطرأ من ذلك من المفاسد و كآتهم و الله أعلم يزيد بن معاوية و عبيد الله بن زياد و من تنزل منزلتهم من أحداث ملوك بني أمية فقد صدر عنهم من قتل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم و سبيهم و قتل خيار المهاجرين و الأنصار بالمدينة و بمكة و غيرها و غير خاف ما صدر عن الحجاج و سليمان بن عبد الملك و ولده من سفك الدماء و إتلاف الأموال و إهلاك الناس بالحجاز و العراق و غير ذلك و بالجملة و بالجملة فبنو أمية قابلوا وصية النبي صلى الله عليه و سلم في أهل بيته و أمته بالمخالفة و العقوق فسفكوا دماءهم و سبوا نساءهم و أسروا صغارهم و خربوا ديارهم و جحلوها فضلهم و شرفهم و استباحوا لعنهم و شتمهم فخالفوا

رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته و قابله بنقيض مقصودة و أمنيته فواحجلتهم إذا وقفوا بين يديه و
افضحيتهم يوم يعرضون عليه و الله أعلم

باب ما جاء في بيان مقتل الحسين رضي الله عنه و لا رضي عن قاتله

ذكر أبو علي سعيد بن عثمان بن السكن الحافظ قال : [حدثنا أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل قال : حدثنا محمد بن إبراهيم الحلواني قال ابن السكن و أخبرني أبو بكر محمد بن محمد بن إسماعيل حدثنا أحمد بن عبد الله بن زياد الحداد قال : حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد قال : حدثنا عطاء بن مسلم عن أشعث بن سحيم عن أبيه عن أنس بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابني هذا يقتل بأرض من أرض العراق فمن أدركه منكم فلينصره] فقتل أنس يعني مع الحسين بن علي عليهما السلام

أنبأناه إجازة الشيخ الفقيه القاضي أبو عامر عن أبي القاسم بن بشكوال عن أبي محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عتاب و أبي عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد عن أبي عمر بن عبد البر قال : حدثنا الحافظ أبو القاسم خلف بن القاسم قال : حدثنا الإمام الحافظ أبو علي بن السكن فذكره

و خرج الإمام أحمد في مسنده قال : [حدثنا مؤمل قال : حدثنا عمارة بن زاذان حدثنا ثابت عن أنس أن ملك المطر استأذن أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأذن له فقال لأُم سلمة : أملكني علينا الباب لا يدخل علينا أحد قال : و جاء الحسين ليدخل فمنعه فوثب فدخل فجعل يقعد على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم و على منكبيه و على عاتقه قال : فقال الملك للنبي صلى الله عليه وسلم أتجبه ؟ قال : نعم قال : أما إن أمتك ستقتله و إن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه فضرب بيده فجاء بطينة حمراء فأخذتها أم سلمة فصرتها في حمارها] قال ثابت : بلغنا أنها كربلاء

و قال مصعب بن الزبير : حج الحسين خمسة و عشرين حجة ماشيا و قد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه و في الحسن : [إنهما سيدا شباب أهل الجنة و قال : هما ريحانتي من الدنيا و كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهما هش لهما و ربما أخذهما] كما روى أبو داود أنهما دخلا للمسجد و هو يحطّب فقطع خطبته و نزل فأخذهما و صعد بهما قال : [رأيت هذين فلم أصبر] و كان يقول فيهما [اللهم إني أحبهما و أحب من يحبهما] و قتل رحمه الله و لا رحم قاتله يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة إحدى و ستين بكربلاء بقرب موقع يقال له الطف بقرب من الكوفة

قال أهل التواريخ : لما مات معاوية و أفضت الخلافة إلى يزيد و ذلك سنة ستين — و وردت البيعة على الوليد بن عتبة بالمدينة ليأخذ بالبيعة إلى أهلها أرسل إلى الحسين بن علي و إلى عبد الله بن الزبير ليلا فأتى بهما فقال : بايعا فقالا : مثلنا لا يبايع سرا و لكن نبايع على رؤوس الناس إذ أصبحنا فرجعا إلى بيوتنا و خرجا من ليلتهما إلى مكة و ذلك ليلة الأحد بقيتا من رجب فأقام الحسين بمكة شعبان و رمضان و شوالا و ذا القعدة و خرج يوم التروية يريد الكوفة فبعث عبد الله بن زياد خيلا لمقتل الحسين و أمر عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فأدركه بكر بلاء و قيل : إن عبيد الله بن زياد كتب إلى الحر بن يزيد الرياحي أن جمع بالهسين قال أهل اللغة أراد أحبس و ضيق عليه و الجمع : الجمع الموضع الضيق من الأرض ثم أمده بعمر بن سعد في أربعة آلاف ثم ما زال عبيد الله يزيد العساكر و يستفز الجماهير إلى أن بلغوا اثنين و عشرين ألفا و أميرهم عمرو بن سعد و وعده أن يملكه مدينة الري فباع الفاسق الرشيد بالغي و في ذلك يقول :

(أترك ملك الري و الري منيتي ... و أرجع مأثوما بقتل حسين)

فضيق عليه اللعين أشد تضيق و سد بين يديه وضح الطريق إلى أن قتله يوم الجمعة و قيل يوم السبت العاشر من الحرم و قال ابن عبد البر في الاستيعاب : قتل يوم الأحد لعشر مضين من الحرم بموضع من أرض الكوفة يقال له كربلاء و يعرف بالطف أيضا و عليه جبة خزد كفاء و هو ابن ست و خمسين سنة قاله نسابه قريش الزبير بن بكار و مولده الخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة و فيها كانت غزوة ذات الرقاع و فيه قصرت الصلاة و تزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم أم سلمة و اتفقوا على أنه قتل يوم عاشوراء العاشر من الحرم سنة إحدى و ستين و يسمى عام الحزن و قتل معه اثنان و ثمانون رجلا من الصحابة مبارزة منهم الحر بن يزيد لأنه تاب و رجع مع الحسين ثم قتل جميع بنيه إلا عليا المسمى بعد ذلك بزین العابدين كان مريضا أخذ أسيرا بعد قتل أبيه و قتل أكثر إخوة الحسين و بني أعمامه رضي الله عنهم ثم أنشأ يقول :

(يا عين إبكي بعبرة و عويل ... و انديي — إن ندبت آل الرسول)

(سبعة كلهم لصلب علي ... قد أصيبوا و تسعة لعقيل)

قال جعفر الصادق : وجد بالحسين ثلاث و ثلاثون طعنة بالسيف و أربع و ثلاثون ضربة و اختلفوا فيمن قتله فقال يحيى بن معين : أهل الكوفة يقولون : إن الذي قتل الحسين عمرو بن سعد قال ابن عبد البر : إنما نسب قتل الحسين إلى عمرو بن سعد لأنه كان الأمير على الخيل التي أخرجها عبيد الله بن زياد إلى قتال الحسين و أمر عليهم عمرو بن سعد و وعده أن يوليه الري إن ظفر بالحسين و قتله و كان في تلك الخيل و الله أعلم قوم من مصر و من اليمين و في شعر سليمان بن فتنه الخزاعي و قيل : إنما لأبي الرميح الخزاعي ما يدل على الاشتراك في دم الحسين و قيل : قتله سنان بن أبي سنان النخعي و قال مصعب النسابة الثقة : قتل الحسين بن علي سنان بن أبي سنان النخعي و هو جد شريك القاضي و يصدق ذلك قول الشاعر :

(و أي رزية عدلت حسينا ... غداة تبيده كفا سنان)

و قال خليفة بن خياط : الذي ولي قتل الحسين شمر بن ذي الجوشن و أمير الجيش عمرو بن سعد و كان شمر أبرص و أجهز عليه خولي بن يزيد الأصبحي من حمير حز رأسه و أتى به عبيد الله بن زياد و قال :

(أوقر ركابي فضة ذهباً ... أي قتلت الملك الخجبا)

(قتلت خير الناس أما و أبا ... و خيرهم — إذ ينسبون — نسباً)

هذه رواية أبي عمر بن عبد البر في الاستيعاب و قال غيره : تولى حمل الرأس بشر بن مالك الكندي و دخل به على ابن زياد و هو يقول :

(أوقر ركابي فضة ذهباً ... إن قتلت الملك الخجبا)

(و خيرهم إذ يذكرون النسبا ... قتلت خير الناس أما و أبا)

في أرض نجد و حرا و يثربا

فغضب ابن زياد من قوله و قال : إذا عملت أنه كذلك فلم قبلته ؟ و الله لا نلت مني خيرا أبدا و لألحقنك به ثم قدمه فضرب عنقه

و في هذه الرواية اختلاف و قد قيل إن يزيد بن معاوية هو الذي قتل القاتل

و قال الإمام أحمد بن حنبل : قال عبد الرحمن بن مهدي : [حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه و يتتبعه

فيها قال قلت يا رسول الله ما هذا؟ قال : دم الحسين وأصحابه لم أزل أتبعه منذ اليوم [قال عمار : فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قتل ذلك اليوم وهذا سند صحيح لا مطعن في وساق القوم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تساق الأسرى حتى إذا بلغوا بهم الكوفة خرج الناس فجعلوا ينظرون إليهم وفي الأسارى علي بن حسين وكان شديد المرض قد جمعت يدها إلى عنقه وزينب بنت علي و بنت فاطمة الزهراء وأختها أم كلثوم وفاطمة وسكينة بنت الحسين وساق الظلمة والفسقة معهم رؤوس القتلة روى قطر عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية قال : قتل مع الحسين سبعة عشر رجلا كلهم من ولد فاطمة عليها الصلاة والسلام

و ذكر أبو عمر بن عبد البر عن الحسن البصري قال : أصيب مع الحسين بن علي ستة عشر رجلا من أهل بيته ما على وجه الأرض لهم يومئذ شبيهه وقيل : إنه قتل مع الحسين من ولده وأخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلا وفي صحيح البخاري في المناقب عن أنس بن مالك : أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعل في طست فجعل ينكت وقال في حسنة شيئا فقال أنس : كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مخضوبا بالوسمة يقال : نكت في الأرض إذا أثر فيها ونكت بالحصباء إذا ضرب بها وكان الفاسق يؤثر في رأسه للمكرم بالقضيب وأمد عبيد الله بن زياد من قور الرأس حتى ينصب في الرمح فتحاماه أكثر الناس فقام رجل يقال له طارق بن المبارك بل هو ابن المشؤوم الملعون المذموم فقوره ونصبه بباب دار عبيد الله ونادى في الناس وجمعهم في المسجد الجامع وخطب الناس خطبة لا يحل ذكرها ثم دعا زياد ابن حر بن قيس الجعفي فسلم إليه رأس الحسين ورؤوس أخوته وبنيه وأهل بيته وأصحابه ودعي بعلي بن الحسين فحمله وحمل عماته وأخواته إلى يزيد على محامل بغير وطء والناس يخرجون إلى لقائهم في كل بلد ومنزل حتى قدموا دمشق ودخلوا من باب توما وأقيموا على درج باب المسجد الجامع حيث يقام السبي ثم وضع الرأس المكرم بين يدي يزيد فأمر أن يجعل في طست من ذهب وجعل ينظر إليه ويقول هذه الأبيات :

(صبرنا وكان الصبر منا عزيمة ... وأسيفنا يقطعن كفا ومعصما)

(نعلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعتق وأظلما)

ثم تكلم بكلام قبيح وأمر بالرأس أن تصلب بالشام ولما صليت أخفى خالد بن عفان شخصه من أصحابه وهو من أفاضل التابعين فطلبوه شهرا حتى وجدوه فسألوه عن عزلته فقال : ألا ترون ما نزل بنا :

(جاءوا برأسك يا ابن بنت محمد ... متزمتا بلماثة ترميلا)

(وكانما بك يا ابن بنت محمد ... قتلوا جهارا عامدين رسولا)

(قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا ... في قتلتك التنزيل والتأويلا)

(ويكبرون بأن قتلتم وإنا ... قتلوا بك التكبير والتهليلة)

و اختلف الناس في موضع الرأس المكرم؟ و أين حمل من البلاد؟ فذكر الحافظ أبو العلاء الهمداني أن يزيد حين قدم عليه رأس الحسين بعث به إلى المدينة فأقدم إليه عدة من موالي بني هاشم و ضم إليهم عدة من موالي أبي سفيان ثم بعث بث الحسين و بقي من أهله معهم و جهزهم بكل شيء و لم يدع لهم حاجة المدينة إلا أمر بها و بعث برأس الحسين عليه السلام إلى عمرو بن سعيد العاص و هو إذ ذلك علمه على المدينة فقال عمرو وددت أنه لم يبعث به إلي ثم أمر عمرو بن سعيد بن العاص برأس الحسين عليه السلام فكفن و دفن بالقيع عند قبر أمه فاطمة عليها الصلاة والسلام وهذا أصح ما قيل في ذلك و لذلك قال الزبير بن بكار الرأس حمل إلى المدينة و الزبير أعلم أهل

النسب و أفضل العلماء لهذا السبب قال : حدثني بذلك محمد بن حسن المخزومي النسابة و الإمامية تقول إن الرأس أعيد إلى الجثة بكر بلاء بعد أربعين يوما من المقتل و هو يوم معروف عندهم يسمون الزيارة فيه زيارة الأربعين و ما ذكر أنه في عسقلان في مشهد هناك أو بالقاهرة فشيء باطل لا يصح و لا يثبت و قد قتل الله قاتله صبيرا و لقي حزنا و ذعرا و جعل رأسه الذي اجتمع فيه العيب و الدم في الموضع الذي جعل فيه رأس الحسين و ذلك بعد قتل الحسين بستة أعوام و بعث المختار به إلى المدينة فوضع بين يدي بني الحسين الكرام و كذلك عمرو بن سعد و أصحابه اللثام ضربت أعناقهم بالسيف و سقوا كأس الحمام و بقي الوقوف بين يدي الملك العلام في يوم { يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام } و في الترمذي : حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير قال : لما أتى برأس عبيد الله بن زياد و أصحابه نصبت في المسجد في الرحبة فانتهيت إليهم و هم يقولون قد جاءت فإذا هي حية قد جاءت تخلل الرؤوس حتى دخلت في منحري عبيد الله فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا : جاءت قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثا

قال العلماء : و ذلك مكافأة لفعله برأس الحسين و هي من آيات العذاب الظاهرة عليه ثم سلط الله عليهم المختار فقتلهم حتى أوردتهم النار و ذلك أن الأمير مذحج بن إبراهيم بن مالك لقي عبيد الله بن زياد على خمسة فراسخ من الموصل و عبيد الله في ثلاثة و ثلاثين ألفا و إبراهيم في أقل من عشرين ألفا فتطاعنوا بالرمح و تراموا بالسهام و اصطفقا بالسيف إلى أن اختلط الظلام فنظر إبراهيم إلى رجل عليه بزة حسنة و درع سابعة و عمامة خز دكناء و دياجة خضراء من فوق الدرع و قد أخرج يده من الديباجة و رائحة المسك تشم عليه و في يده صحيفة له مذهبة فقصدته الأمير إبراهيم لا لشيء إلا لتلك الصحيفة و القرس الذي تحته حتى إذا لحقه لم يلبث أن ضربه ضربة كانت فيها نفسه فتناول الصحيفة و غار الفرس فلم يقدر عليه و لم يبصر الناس بعضهم بعضا من شدة الظلمة فترجع أهل العراق إلى عسكرهم و الخيل لا تطأ إلا على القتلى فأصبح الناس و قد فقد من أهل العراق ثلاثة و سبعون رجلا و قتل من أهل الشام سبعون ألفا

(فيتعشوا منهم بسبعين ألفا ... أو يزيدون قبل وقت العشاء)

فلما أصبح وجد الأمير الفرس رده عليه رجل كان أخذه و لما علم أن الذي قتل هو عبيد الله بن زياد كبر و خر ساجدا و قال : الحمد لله الذي أجرى قتله على يدي فبعث به إلى المختار زيادة على سبعين ألف رأس في أولها أشد رؤوس أهل الفساد عبيد الله المنسوب إلى زياد

قال المؤلف رحمه الله : فقلت هذا من كتاب مرج البحرين في مزاید المشرقين و المغربين للحافظ أبي الخطاب بن دحية رضي الله عنه

فصل

و مثل صنيع عبيد الله بن زياد صنع قبله بشر بن أرطاة العامري الذي هتك الإسلام و سفك الدم الحرام و أذاق الناس الموت الزؤام لم يدع لرسول الله صلى الله عليه و سلم الذمام فقتل أهل بيته الكرام و حكم في مفارقهم الحسام و عجل لهم الحمام ذبح ابني عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب و هما صغيران بين يدي أمهما يمرحان و هما قثم و عبد الرحمن فوسوست أمهما و أصابها ضرب من الجان لم أشعله النكل في قلبها من لب النيران روى أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه في حديث فيه طول : كان أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله يتعوذ من شر يوم البلاء و يوم العورة في صلاة صلاها أطال قيامها و ركوعها و سجودها قال : فسألناه مم تعوذت و فيم دعوت

؟ فقال : تعوذت من يوم البلاء و يوم العورة فإن نساء من المسلمات ليسين ليكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقا اشترت على عظم ساقها فدعوت الله عز و جل أن لا يدركني هذا الزمان و لعلكما تدركانه و ذكر أبو عمر بن عبد البر قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن أنبأنا أبو محمد إسماعيل بن محمد الحبطلي ببغداد في تاريخه الكبير حدثنا محمد بن مؤمن بن حماد قال : حدثنا سلمان بن شيخ قال : حدثنا محمد بن عبد الحكم عن عوانة قال : أرسل معاوية بعد تحكيم الحكيمين بشر بن أرطاة في جيش فساروا من الشام حتى قدموا المدينة و عامل المدينة يومئذ لعلي عليه السلام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم ففر أبو أيوب و لحق بعلي رضي الله عنهما و دخل بشر للمدينة فصعد منبرها فقال : أين شيعي الذي عهدته هنا بالأمس يعني عثمان بن عفان ثم قال يا أهل المدينة : و الله لولا ما عهدته إلى معاوية ما تركت فيها محتلما إلا قتلته ثم أمر أهل المدينة بالبيعة لمعاوية و أرسل إلى بني سلمة فقال ما لكم عند أمان و لا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله فأخبر جابر فانطلق حتى جاء الشام فأتى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه و سلم فقال لها : ماذا ترين فإني خشيت أن أقتل و هذه بيعة ضلالة فقالت : أرى أن تباع و قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبيع فأتى جابر بشرا فبايعه لمعاوية و هدم بشر دورا بالمدينة ثم انطلق حتى أتى مكة و بها أبو موسى الأشعري فخاف أبو موسى على نفسه أن يقتله فهرب فقبل ذلك لبشر فقال : ما كنت لأقتله و قد خلع عليا و لم يطلبه و كتب أبو موسى إلى اليمن أن خيلا مبعوثة من عند معاوية تقتل من الناس من أبي أن يقر بالحكومة ثم مضى بشر إلى اليمن و عامل اليمن لعلي رضي الله عنه عبيد الله بن العباس فلما بلغه أمر بشر فر إلى الكوفة و استخلف على المدينة عبيد الله بن عبد مدان الحارثي فأتى بشر فقتله و قتل ابنه و لقي ثقل عبيد الله بن العباس و فيه ابنان صغيران لعبيد الله بن عباس فقتلهما و رجع إلى الشام

و ذكر أبو عمرو الشيباني قال : لما وجه معاوية بشر بن أرطاة لقتل شيعة علي رضي الله عنه سار إلى أن أتى المدينة فقتل ابني عبيد الله بن العباس و فر أهل المدينة حتى دخلوا الحرة حرة بني سليم و هذه الخرجة التي ذكر أبو عمرو الشيباني أغار بشر على همدان فقتل و سبى نساءهم فكن أول نساء سبين في الإسلام و قتل أحياء من بني سعد و قد اختلفوا كما ترى في أي موضع قتل الصغيرين من أهل البيت هل في المدينة أو في مكة أو في اليمن لأنه دخل هذه البلاد و أكثر فيها الفساد و أظهر لعلي رضي الله عنه العناد و أفرط في بعضه و زاد و سلط على أهل البيت الكريم الأجناد فقتل و سبى و أباد و لم يبق إلا أن يخذ الأخاديد و يعد الأوتاد و كان معاوية قد بعته في سنة أربعين إلى اليمن و عليها عبيد الله ابن العباس أخو عبد الله بن العباس ففر عبيد الله و أقام بشر باليمن و باع دينه ببخس من الثمن فأخاف السيل و رعى المرعى الوبيل و باع المسلمات و هتك الحرمات فبعث علي رضي الله عنه في طلبه حارثة بن قدامة السعدي فهرب بشر إلى الشام و قد ألبس بدميم أفعاله ثياب العار و الدمام و بقي الوقوف بين يدي الملك العلام { يعرف الجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام } و رجع الشريف أبو عبد الله محمد إلى بلاد اليمن فلم يزل و اليا عليهم حتى قتل علي رضي الله عنه و يقال : إن بشر بن أرطاة لم يسمع من النبي صلى الله عليه و سلم حرفا لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم قبض و هو صغير فلا تصح له صحبة قاله الإمام أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و غيرهما و قال آخرون : خوف في آخر عمره قال يحيى بن معين : و كان الرجل سوء قال المؤلف رحمه الله : كذا ذكره الحافظ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله

و قد ذكر أبو داود [عن جنادة عن ابن أبي أمية قال : كنا مع بشر بن أرطاة في البحر فأتى بشارق يقال له منصور و قد سرق بختية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لا تقطع الأيدي في الغزو و لولا ذلك لقطعته

[

قال أبو محمد عبد الحق : بشر هذا يقال ولد في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت له أخبار سوء في جانب علي وأصحابه وهو الذي ذبح طفلين لعبيد الله بن العباس ففقدت أمهما عقلها وهامت على وجهها فدعا عليه علي رضي الله عنه أن يطيل الله عمره ويذهب عقله كان كذلك قال ابن دحية : ولما ذبح الصغيرين وفقدت أمهما عقلهما كانت تقف في الموسم تشعر شعرا يبكي العيون ويهيج بلابل الأحران والعيون وهو هذا :

(هامن أحس يابني اللذين هما ... كالدرتين تسطا عنهما الصدف)

يقال تسطعت العصاة إذا صارت فلما قاله في المجمل وغيره

(هامس أحس يابني اللذين هما ... سمعي وعقلي فقلبي اليوم محتطف)

(حدثت بشرا و ما صدقت ما زعموا من قولهم و من الإفك الذي اقترف)

(أحنى على و دجي إبن مرهف ... مشحودة وكذاك الإثم يقترف)

باب ما جاء أن اللسان في الفتنة أشد من وقع السيف

أبو داود [عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون تستطف قتلاها في النار اللسان فيها أشد من وقع السيف] أخرجه الترمذي و قال في حديث غريب و سمعت محمد بن إسماعيل يقول : لا يعرف لزياد بن سمين كوشى عن عبد الله بن عمر غير هذا الحديث الواحد

و روي موقوفا و ذكره أبو داود [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له اللسان فيها كوقوع السيف] أخرجه ابن ماجه أيضا [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم و الفتنة فإن اللسان فيها مثل وقع السيف]

فصل

قلت : قوله [تستنطف] أي ترمي مأخوذ من نطف الماء أي قطر و النطفة الماء الصافي قل أو كثر و الجمع النطاف أي أن هذه الفتنة تقطر قتلاها في النار أي ترميهم فيها لأقتالهم على الدنيا و اتباع الشيطان و الهوى و قتلاها بدل من قوله العرب هذا المعنى الذي ظهر لي في هذا و لم أقف فيه على شيء لغيري و الله أعلم قوله : [اللسان فيها أشد من وقع السيف] أي بالكذب عند أئمة الجور و نقل الأخبار إليهم فرجما ينشأ عن ذلك من النهب و القتل و الجلد و المفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها

و في الصحيحين [عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار بعد ما بين المشرق و المغرب] و في رواية عنه قال : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي في النار أبعد ما بين المشرق و المغرب] لفظ مسلم

و قد روي [أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا] فقوله : من سخط الله أي مما يسخط الله و ذلك بأن يكون كذبة أو بهتاناً أو نجسا أو باطلا يضحك به الناس كما جاء [عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ويل للذي تكلم بالكلمة من الكذب ليضحك الناس ويل له و ويل له]

و في حديث ابن مسعود [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الرفاهية من سخط الله ترد به بعد ما بين السماء و الأرض] قال أبو زياد الكلابي : الرفاهية السعة في المعاش و الخصب و هذا أصل الرفاهية فأراد عبد الله بن أن يتكلم بالكلمة في تلك الرفاهية و الأتراف في دنياه مستهينا بما هو فيه من النعمة فيسخط الله عز و جل عليه قال أبو

عبيدة و في الرفاهية لغة أخرى الرفاعية و ليس في هذا الحديث يقال : هو في رفاهية و رفاعية من العيش و قوله :
صماء بكاء عمياء يريد أن هذه الفتنة لا تسمع و لا تبصر فلا تفلح و لا ترتفع لأنها لا حواس لها فترعوى إلى الحق
و أنه شبهها لاختلاطها و قتل البريء فيها و السقيم بالأعمى الأصم الأخرس الذي لا يهتدي إلى شيء فهو يحبط
عشواء و البكم الخرس في أصل الخلقة و الصم الطرش

باب الأمر بالصبر عند الفتن و تسليم النفس للقتل عندها و السعيد من جنبها

أبو داود [عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يا أبا ذر قلت : لبيك رسول الله و سعديك و
ذكر الحديث قال : كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت بالوصيف يعني القبر قلت الله و رسوله أعلم أو
قال ما خار الله لي و رسوله قال عليك بالصبر أو قال تصبر ثم قال يا أبا ذر قلت لبيك و سعديك ؟ قال : كيف
أنت إذا رأيت أحجار الزيت أحجار قد غرقت بالدم قلت : ما خار الله لي و رسوله قال عليك بمن أنت منه قال :
قلت يا رسول الله أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي ؟ قال : شاركت القوم إذا قال : قلت : فما تأمرني ؟ قال
تلزم بيتك قال قلت فإن دخل على بيتي ؟ قال : فإن خشيت أن يهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك بيوء
ياثمه و إثمك خرجه ابن ماجه و قال تصبر من غير شك و زاد بعده قال : كيف أنت و جوع يصيب الناس حتى تأتي
مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك أو لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك
قال : قلت الله و رسوله أعلم ما خار الله لي و رسوله قال : عليك بالعفة ثم قال : كيف أنت و قتل يصيب الناس
حتى تغرق حجارة الزيت بالدم الحديث

و قال : فألق طرف ردائك على وجهك فيبوء ياثمه و إثمك فيكون من أصحاب النار]

و في حديث عبد الله بن مسعود حين ذكر الفتنة قال : الزم بيتك قيل : فإن دخل على بيتي ؟ قال : فكن مثل
الجمل الأورق الثقال الذي لا ينبعث إلا كرها و لا يمشی إلا كرها ذكره أبو عبيدة قال : حدثني أبو النضر عن
المسعودي عن علي بن مدرك عن أبي الرواع عن عبد الله قال أبو عبيدة سمعت بعض الرواة يقول : الرواع و الوجه
الرواع بضم الراء

أبو داود قال [عن المقداد بن الأسود قال : و ايم الله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن السعيد
لمن جنب الفتن و لمن ابتلى فصبر فواها]

الترمذي [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يأتي على الناس زمان الصابر فيه على
دينه : كالتبايض على الجمر] قال : حديث غريب

فصل

قوله بالوصيف الوصيف الخادم يريد أن الناس يشتغلون عن دفن موتاهم حتى لا يوجد فيهم من يحفر قبر الميت و
يدفنه إلا أن يعطى وصيفا أو قيمته و قد يكون معناه أن مواضع القبور تضيق عليهم فيبتاعون لموتاهم القبور كل قبر
بوصيف و قوله : غرقت بالدم أي لزمت و الغروق اللزوم فيه و يروى غرقت و أحجار الزيت موضع المدينة
روى الترمذي [عن عمير مولى بن أبي اللحم عن أبي اللحم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم يستسقي و
هو مقنع بكفيه يدعو]

و ذكر عمر بن أبي شيبه في كتاب المدينة على ساكنها الصلاة و السلام قال : حدثنا محمد بن يحيى عن ابن أبي
فديك قال : أدركت أحجار الزيت ثلاثة أحجار مواجهة بيت أم كلاب و هو اليوم يعرف بيت بني أسد فعلا

الكنيس الحجارة فاندفت قال : و حدثنا محمد بن يحيى قال : و حدثنا محمد يحيى قال أخبرني أبو ضمرة الليثي عن عنان عن ابن الحارث بن عبيد عن هلال بن طلحة الفهري أن حبيب بن سلمة الفهري كتب إليه أن كعبا سألني أن أكتب له إلى رجل من قومي عالم بالأرض قال : فلما قدم كعب المدينة جاءني بكتابه ذلك فقال : أعلم أنت بالأرض ؟ قلت : نعم و كانت بالزوراء حجارة يضعون عليها الزياتون رواياهم فأقبلت حتى جنتها فقلت هذه أحجار الزيت فقال كعب لا و الله ما هذه صفتها في كتاب الله انطلق أمامي فإنك أهدى بالطريق مني فانطلقنا حتى جئنا بني عبد الأشهل فقال يا أبا هلال : إني أجد أحجار الزيت في كتاب الله تعالى فسأل القوم عنها و هم يومئذ متوافرون فسأهم عن أحجار الزيت و قال إنها ستكون بالمدينة ملحمة عندها

فصل

و أما حديث ابن مسعود : كن مثل الجمل الأورق فقال الأصمعي الأورق و هو الذي في لونه بياض إلى سواد و منه قيل للرماد أورق و الحمامة ورقاء ذكره الأصمعي قال : و هو أطيب الإبل لحما و ليس بمحمود عند العرب في عمله و سيره و أما الثقال فهو البطيء قال عبيد : إنما خص عبد الله الأورق من الإبل لما ذكر من ضعفه عن العمل ثم اشترط القتال أيضا فزاده إبطاء و ثقلا فقال : كن في الفتنة مثل ذلك و هذا إذا دخل عليك و إنما أراد عبد الله بهذا التنبط عن الفتنة و الحركة فيها

فصل

و أما أمره صلى الله عليه و سلم أبا ذر بلزوم البيت و تسليم النفس للقتل فقالت طائفة : ذلك عند جميع الفتن و غير جائز لمسلم النهوض في شيء منها قالوا : و عليه أن يستسلم للقتل إذا أريدت نفسه و لا يدفع عنها و حملوا الأحاديث على ظاهرها و ربما احتجوا من جهة النظر بأن قالوا : إن كل فريق من المقتتلين في الفتنة فإنه يقاتل على تأويل و إن كان في الحقيقة خطأ فهو عند نفسه محق و غير جائز لأحد قتله و سبيله سبيل حاكم من المسلمين يقضي بقضاء مما اختلف فيه العلماء على ما يراه صوابا فغير جائز لغيره من الحكام تقضه إذا لم يخالف بقضائه ذلك كتابا و لا سنة و لا جماعة و كذلك المقتتلون في الفتنة كل حزب منهم عند نفسه محق دون غيره مما يدعون من التأويل فغير جائز لأحد قتالهم و إن هم فصلوا القتلى فغير جائز دفعهم و قد ذكرنا من تخلف عن الفتنة و قعدوا منهم عمران بن الحصين و ابن عمر و قد روي عنهما و عن غيرهما منهم عبيدة السلماني أن من اعتزل الفريقين فدخل بيته فأتى يريد نفسه فعليه دفعه عن نفسه و إن أبي الدفع عن نفسه فغير مصيب كقوله عليه الصلاة و السلام [من أريدت نفسه و ماله فقتل فهو شهيد] قالوا فالواجب على كل من أريدت نفسه و ماله فقتل ظلما دفع ذلك ما وجد إليه السبيل متأولا كان المرید أو معتمدا للظلم

قلت : هذا هو الصحيح من القولين إن شاء الله تعالى و في صحيح مسلم [عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال : فلا تعطه مالك قال : أرأيت إن قاتلني قال : قاتله قال : أرأيت إن قاتلني قال : فأنت شهيد قال : أرأيت إن قتلته قال : هو في النار] و قال ابن المنذر : ثبت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : [من قتل دون ماله فهو شهيد] و قد روينا عن جماعة من أهل العلم أنهم رأوا قتال اللصوص و دفعهم عن أنفسهم و أموالهم و هذا مذهب ابن عمر و الحسن البصري و قتادة و مالك و الشافعي و أحمد و إسحاق و النعمان و قال أبو بكر : و بهذا يقول عوام أهل العلم أن للرجل أن يقاتل عن نفسه و ماله إذا أريد ظلما للأخبار التي جلت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يخص وقتنا من وقت و لا حالا دون إلا السلطان فإن جماعة من أهل العلم كاجتمعين على أن من لم يمكنه أن يمنع

نفسه و ماله إلا بالخروج على السلطان و محاربتة أنه لا يجاربه و لا يخرج عليه للأخبار الواردة الدالة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بالصبر على ما يكون منهم من الجور و الظلم و قد تقدم ذلك في بابه و الحمد لله

باب — جعل الله في أول هذه الأمة عافيتها و في آخرها بلاءها

مسلم [عن عبد الله بن عمر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خبائه و منا من ينتضل و منا من هو في جشره إذ نادى منادي يا رسول الله صلى الله عليه و سلم الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم و إن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها و سيصيب آخرها بلاء و أمور تنكرونها و تجيء فتنة فيدقق بعضها بعضا و تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ثم تكشف و تجيء الفتنة فيقول هذه منه فمن أراد أن يزرح عن النار و يدخل الجنة فلتأته و هو يؤمن بالله و اليوم الآخر و ليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه و من بايع إماما فأعطاه صفقة يده و ثمرة قلبه فليعطه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر قال ابن عبد الرحمن عبد رب الكعبة : فدنوت منه فقلت له : ناشدتك الله أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه و سلم فأهوى إلى أذنيه و قلبه بيديه و قال : سمعته أذناي و وعاه قلبي فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل و نقتل أنفسنا و الله عز و جل يقول : { يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم و لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما } فسكت ساعة ثم قال : أطيعه في طاعة الله و اعصه في معصية الله]

فصل

قوله : ينتضل الانتضال الرمي بالسهم و الجشر المال من المواشي التي ترعى أمام البيوت و الديار يقال : مال جشش يرعى في مكانه لأنه يرجع إلى أهله يقال : جششنا دوابنا أي أخرجناها إلى المرعى و أصله البعد و منه يقال للأعزب : جشش و جشش لبعده عن النساء و في الحديث : [من ترك قراءة القرآن شهرين فقد جششه] أي بعد عنه و قوله : [يدقق بعضها بعضا] أي يتلو بعضها بعضا و ينصب بعضها على بعض و التدقيق التصبب و هذا المعنى مبين في نفس الحديث لقوله و تجيء الفتنة ثم تكشف و تجيء الفتنة و تزرح أي تبعد و منه قوله تعالى { و ما هو بجزحزحه من العذاب } أي بمجمعه و صفقة اليد أصلها ضرب الكف على الكف زيادة في الاستيثاق مع النطق باللسان و الالتزام بالقلب و في التزليل { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم } الآية و قوله : فاضربوا عنق الآخر قيل : المراد عنه و خلعه و ذلك قتله و موته و قيل : قطع رأسه و إذهاب نفسه يدل عليه قوله في الحديث الآخر : فاضربوه بالسيف كأننا ما كان و هو ظاهر الحديث هذا إذا كان الأول عدلا و الله أعلم

باب جواز الدعاء بالموت عند الفتن و ما جاء أن بطن الأرض خير من ظهرها

مالك [عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يدعو فيقول : اللهم إني أسألك فعل الخيرات و ترك المنكرات و حب للساكنين و إذا أردت الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون] و قد تقدم هذا في أول الكتاب قال ابن وهب : و حدثني مالك قال : كان أبو هريرة يلقي الرجل فيقول له : مت إن استطعت فيقول له لم ؟ قال تموت و أنت تدري على ما تموت خير لك من أن تموت و أنت لا تدري على ما تموت عليه قال مالك : و لا أرى عمر دعا ما دعا به من الشهادة إلا خالف التحول من الفتن

قلت : و قد جاء هذا المعنى مرفوعا عن أبي هريرة روى النضر بن شميل [عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ويل للعرب من شر قد اقترب موتوا إن استطعتم] و هذا غاية في التحذير من الفتى و الخوض فيها حين جعل الموت خيرا من مباشرتها و روى الترمذي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا كان أمراؤكم خياركم و أغنياؤكم سمحاءكم و أموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها و إذا كان أمراؤكم شراركم و أغنياؤكم بخلاءكم و أموركم إلى نساتكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها] قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المري في حديثه غرائب لا يتابع عليها و هو رجل صالح البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه] أخرجه مسلم و ابن ماجه بمعناه و زاد مثنى و ليس به الدين إلا البلاء و روى شعبة عن سلمة بن كهيل سمعت أبا الزعراء يحدث عن عبد الله قال : [ليأتين على الناس زمان يأتي الرجل القبر فيقول يا ليتني مكان هذا ليس به حب الله و لكن من شدة ما يرى من البلاء] قلت : و كان هذا إشارة إلى أن كثرة الفتى و شدة الحن و المشقات و الأكداد اللاحقة للإنسان في نفسه و ماله و ولده قد أذهبت الدين منه و من أكثر الناس أو قلة الاعتناء به من الذي يتمسك بالدين عند هجوم الفتى و كذلك عظم قدر العبادة في حالة الفتى حتى قال النبي صلى الله عليه و سلم [العبادة في الهرج كهجرة إلي] و قد مضى الكلام في هذا المعنى في أول الكتاب و نزيده و وضوحا إنه شاء الله تعالى و الله أعلم

باب أسباب الفتى و الحن و البلاء

أبو نعيم [عن إدريس الخولاني عن عبيدة بن الجراح عن عمر بن الخطاب قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بلحيتي و أنا أعرف الحزن في وجهه فقال : إنا لله و إنا إليه راجعون أتاني جبريل أنفا فقال : إنا لله و إنا إليه راجعون فقلت إنا لله و إنا إليه راجعون فمم ذلك يا جبريل ؟ فقال : إن أمتك مفتتنة بعدك من دهر غير كثير فقلت : فتنة كفر أو فتنة ضلال ؟ فقال : كل سيكون فقلت و من أين و أنا تارك فيهم كتاب الله ؟ قال فبكتاب الله يفتنون و ذلك من قبل أمرائهم و قرائهم يجمع الأمراء الناس الحقوق فيظلمون حقوقهم و لا يعطونها فيقتتلوا و يفتنوا و يتبع القراء أهواء الأمراء الناس الحقوق فيظلمون حقوقهم و لا يعطونها فيقتتلوا و يتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون قلت : كيف يسلم من يسلم منهم ؟ قال : بالكف و الصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه و إن منعوا تركوه]

اليزار [عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لم تظهر الفاحشة في قوم فيهم الطاعون و الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم و لا نقضوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين و شدة المؤنة و جوار السلطان و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء و لولا البهائم لم يمطروا و لم ينقضوا عهد الله و لا عهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم فأخذ بعض ما كان في أيديهم و إذا لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم] أخرجه ابن ماجه أيضا في سننه

و ذكره أبو عمر بن عبد البر و أبو بكر الخطيب من حديث [سعيد بن كثير بن عفير بن مسلم بن يزيد قال : حدثنا مالك عن عمه أبي سهيل عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه و سلم : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقا قال : فأبي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكرا و أحسنهم له

استعدادا أولئك الأكياس ثم قال يا معشر المهاجرين : لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون و الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم] و ذكر الحديث

و قال عطاء الخراساني : إذا كان خمس كان خمس : إذا أكل الربا كان الخسف و الزلزلة و إذا جار الحكام فحط المطر و إذا ظهر الزنا كثر الموت و إذا منعت الزكاة هلكت الماشية و إذا تعدى على أهل الذمة كانت الدولة ذكره أبو نعيم

الترمذي [عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا مشت أمتي المطيطا و خدمها أبناء الملوك فارس و الروم سلط شرارها على خيارها] قال : هذا حديث غريب

ابن ماجه [عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله و أثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } و إنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أو شك أن يعمهم الله بعقابه] أخرجه أبو داود في سننه و الترمذي في جامعه

مسلم [عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا فتحت عليكم فارس و الروم أي قوم أنتم ؟ قال عبد الرحمن بن عوف : نكون كما أمر الله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أو غير ذلك تنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض]

و أخرج أيضا [عن عمرو بن عوف و هو حليف بني عامر بن لؤي و كان شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث أبو عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد صالح أهل البحرين و أمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين قالوا أجل يا رسول الله قال : فأبشروا و أملوا ما بسرکم فو الله ما الفقير أخشى عليكم و لكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم كما بسطت على من كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم]

و في رواية : [فتلهيكم كما أهلككم بدل فتهلككم]

و أخرج ابن ماجه [عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما أدع بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء] أخرجه البخاري و مسلم أيضا

و أخرج ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من صباح إلا و ملكان يناديان ويل للرجال من النساء و ويل للنساء من الرجال]

و أخرج أيضا [عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قام خطيبا و كان فيما قال : إن الدنيا خضرة حلوة و إن الله مستخفلكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الله و اتقوا النساء] أخرجه مسلم أيضا و قال : بدل قوله فاتقوا الله فاتقوا النار و اتقوا النساء و زاد [فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء]

الترمذي [عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن لكل أمة فتنة و فتنة أمتي المال] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب

و [عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من سكن البادية جفا و من اتبع الصيد غفل و من أتى أبواب السلطان افتتن] قال : و في الباب عن أبي هريرة
و هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من حديث الثوري

فصل

حذر الله سبحانه و تعالى عباده فتنة المال و النساء في كتابه و على لسان نبيه صلى الله عليه و سلم فقال عز من قائل { يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم فاحذروهم } و قال تعالى : { إنما أموالكم و أولادكم فتنة } ثم قال سبحانه و تعالى : { فاتقوا الله ما استطعتم و اسمعوا و أطيعوا و أنفقوا خيرا لأنفسكم و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم } فنبه الله على ما يعتصم به من فتنة حب المال و الولد في آي ذكر الله فيها فتنة و ما كان عاصما من فتنة المال و الولد فهو عاصم من كل الفتنة و الأهواء و قال تعالى { زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث } ثم قال تعالى : { قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات } فوصف تعالى ما للمتقين عند ربهم ثم وصف أحوالهم بنعتهم إلى قوله { و المستغفرين بالأسحار } و هذا تنبيه لهم على تزهيلهم فيما زين لهم و ترغيبهم فيما هو خير منه و مثل هذا في القرآن كثير و المطيطاء : بضم الميم و المد : المشي بتختر و هي مشية المتكبرين المفتخرين و هو مأخوذ من مط يمط إذا مد قال الجوهري : و المطيطاء بضم الميم ممدودا التختر و مد اليدين في المشي و في الحديث [إذا مشت أمتي المطيطاء و خدمتهم فارس و الروم كان بأسهم بينهم] و قوله : ثم ينطلقون في مساكن المهاجرين قيل في الكلام حذف أي في مساكن المهاجرين و المعنى أنه إذا وقع التنافس و التباغض حملهم ذلك على أن يأخذ القوي على ما أفاء الله للمساكين الذي لا يقدر على مدافعتة فيمنعه عنه ظلما و قهرا بمقتضى التنافس و التباغض و قيل : ليس في الكلام حذف و أن المعنى المراد أن مساكين المهاجرين و ضعفاءهم سيفتح عليهم إذ ذاك من الدنيا حتى يكونوا أمراء بعضهم على رقاب بعض و هذا اختيار القاضي عياض و الأول اختيار شيخنا أبي العباس القرطبي قال : و هو الذي يشهد له مساق الحديث و معناه و ذلك أنه عليه الصلاة و السلام أخبرهم أنه يتغير بهم الحال و أنهم عنهم أو عن بعضهم أحوال غير مرضية تخالف أحوالهم التي كانوا عليها من التنافس و التباغض و انطلاقهم في مساكن المهاجرين فلا بد أن يكون هذا الوصف غير مرضى كالأوصاف التي قبله و أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة توجيها و حيثئذ يلتزم الكلام أوله و آخره و الله أعلم و يعضده رواية السمرقندي فيحملون بعضهم على رقاب بعض أي بالقهر و الغلبة

باب منه و ما جاء أن الطاعة سبب الرحمة و العافية

ذكر أبو نعيم الحافظ قال : [حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا المقدم بن داود حدثنا علي بن معبد الرقي حدثنا وهب بن راشد حدثنا مالك بن دينار عن خلاس بن عمرو عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله عز و جل يقول : أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك و ملك الملوك قلوب الملوك بيدي و أن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة و الرحمة و إن العباد إذا عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط و النقمة فساموهم سوء العذاب فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك و لكن اشغلوا أنفسكم بالذكر و التضرع إلي أهلكم ملوككم] غريب من حديث مالك مرفوعا تفرد به علي بن معبد عن وهب ابن راشد

أبواب الملاحم — باب أمارات الملاحم

أبو داود [عن معاذ بن جبل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عمران بيت المقدس خراب يشرب و خراب يثرب خروج الملحمة فتح القسطنطينية و فتح القسطنطينية خروج الدجال]
البخاري [عن عوف بن مالك قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك و هو في قبة من آدم فقال : أعدد ستا بين يدي الساعة موتى ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم كقفاص الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلناه ثم هدنة تكون بينكم و بين بني الأصفر فيعذرون فيأتونكم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا]
و خرج أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير بمعناه و زاد بعد قوله اثنا عشر ألفا [فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها دمشق] ذكره بإسناده أبو الخطاب بن دحية في كتاب مرج البحرين في فوائد المشرقين و المغربين

و قال : عوف بن مالك الأشجعي : شهد موت النبي و حضر فتح بيت المقدس
مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتحه صلحا لحمس خلون من ذي القعدة سنة عشر من الهجرة ثم حضر قسمة كنوز كسرى على يد أمير المؤمنين عمر ثم شاهد قتال الجمل و صفين و شاهد عوف رضي الله عنه أيضا الموتان الذي كان بالشام قبل ذلك و هو المسمى بطاعون عمواس مات يومئذ ستة و عشرون ألفا و قال المدني خمسة و عشرين ألفا و عمواس : بفتح العين و الميم لأنه [عم و أسى] أي جعل بعض الناس أسوة بعض و عمواس قرية بين الرملة و بيت المقدس مات فيه أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح و الأمير الفقيه أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل قال الإمام أحمد بن حنبل في تاريخه كان الطاعون عمواس سنة ثمانية عشر رواه عن أحمد أبو زرعة الرازي قال : كان الطاعون سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة و في سنة سبع عشرة رجع عمر من سرغ و موتان بضم الميم هي لغة و غيرهم يفتحونها و هم اسم الطاعون و الموت
و قوله : كقفاص الغنم هو داء يأخذها لا يلبثها قاله أبو عبيدة لأن القفاص الموت العجل و يقال بالسین و قيل هو داء يأخذ في الصدر كأنه يكسر العنق و قد انقضت هذه الخمس و عاش عوف بن مالك إلى زمن عبد الله بن مروان سنة ثلاث و سبعين من الهجرة و قد أربى بصفين على المائة و قال الواقدي : مات عوف بن مالك بالشام سنة ثلاث و تسعين فإن صح ما قال فقد مات في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان إن لم يكن تصحيفا منه و الله أعلم

باب ما ذكر في ملاحم الروم و تواترها و تداعي الأمم على أهل الإسلام

ابن ماجه [عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بينكم و بين بني الأصفر هدنة فيغدرون بكم فيسيرون إليكم في ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا]
و [عن ذي مخمر و كان رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ستصالحكم الروم صلحا آمننا ثم تغزون أنتم و هم علوا فتنصرون و تغنمون و تقتسمون و تسلمون ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمرج ذي تلؤل فيرفع رجل من أهل الصليب صليبه فيقول غلب الصليب فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدفعه فعند ذلك تغدر الروم و يجمعون الملحمة فيأتون تحت ثمانين راية اثنا عشر ألفا]
و أخرجه أبو داود و زاد [و يثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتلون فيكرم الله تلك العصاة بالشهادة]

و أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده و إسناده صحيح ثابت و ذو مخمر بالميم لا غير و هو ابن أخي النجاشي
قاله الأوزاعي و قد عدّه أبو عمر في موالي رسول الله صلى الله عليه و سلم قاله ابن دحية
و خرجا جميعا عن ابن ماجه و أبو داود [عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الملحمة الكبرى
و فتح قسطنطينية و خروج الدجال في سبعة أشهر] و أخرجه الترمذي و قال : حديث حسن صحيح
[و عن عبد الله بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بين الملحمة و فتح المدينة ست سنين و يخرج
الدجال في السابعة] أخرجه ابن ماجه و أبو داود و قال أبو داود : هذا صحيح من حديث عيسى
قلت : يريد حديث معاذ المذكور قبله

مسلم عن بشير بن جابر قال : هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرأ ألا يا عبد الله بن مسعود
جاءت الساعة قال : ففعد و كان متكئا فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث و لا يفرح بغنيمة ثم قال
بيده هكذا و نحاه نحو الشام فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام و تجمع لهم أهل الإسلام قلت : الروم تعني ؟ قال
: نعم و يكون عند ذلك القتال ردة شديدة فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبية فيقتتلون حتى يحجر
بينهم الليل فيبقى هؤلاء و هؤلاء كل غير غالب و تفنى الشرطة ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا
غالبية فيقتتلون حتى يمسا فيبقى هؤلاء و هؤلاء كل غير غالب و تفنى الشرطة ثم يشترط المسلمون شرطة للموت
لا ترجع إلا غالبية فيقتتلون حتى يمسا فيبقى هؤلاء و هؤلاء كل غير غالب و تفنى الشرطة و إذا كان اليوم الرابع
نهد إليهم بقية الإسلام فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتتلون مقتلة إما قال لم ير مثلها و إما قال لا يرى مثلها حتى إن
الطائر ليمر بجثمانهم فما يخلفهم حتى يخر ميتا فيتعادى بنو الأب كانوا مائة فلا يجدون بقي منهم إلا الرجل الواحد
فبأي غنيمة يفرح و بأي ميراث يقسم فيبينما هم كذلك إذ سمعوا بناس هم أكثر من ذلك فجاءهم الصريخ فقال :
إن الدجال قد خرج في ذراريهم فيرفضون ما بأيديهم و يقبلون فيبعثون عشر فوارس طليعة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه و سلم إني لأعرف أسماءهم و أسماء آبائهم و ألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض أو من
خير فوارس يومئذ

أبو داود [عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة
إلى قصعتها فقال قائل من القوم : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير و لكنكم غناء كغناء السيل و لينزعن الله
من صدور عدوكم المهابة و ليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله و ما الوهن ؟ قال : حب الدنيا و
كراهة الموت]

فصل

قوله : بني الأصفر يعني الروم و في تسميتهم بذلك قولان

أحدهما : أن جيشا من الحبشة غلبوا على ناحيتهم في بعض الدهر فوطئوا نساءهم فولدوا أولادا صفرا قاله ابن
الأنباري

الثاني : أنهم نسبوا إلى الأصفر ابن الروم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام قاله ابن إسحاق و هذا أشبه
من القول الأول و الهدنة : الصلح و الغاية الرأية كما جاء مفسرا في الحديث بعده سميت بذلك لأنها تشبه السحابة
لمسيرها في الجو و الغاية و الصابة السحابة و قد رواها بعض رواة البخاري تحت ثمانين غابة بباء مفردة النقطة و هي
الأجمة شبه اجتماع رماحهم و كثرتها بالأجمة التي هي الغابة و الصحيح الأول لأنها تظل الأجناد لكثرة رايقتهم و
اتصال أوليئهم و علاماتهم كالسحاب الذي يظل الإنسان

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [إن تحت كل غاية اثني عشر ألفا فجملة العدو تسعمائة ألف وستون ألفا] ذكره الحافظ أبو الخطاب بن دحية وقد روي مرفوعا في حديث فيه طول عن حذيفة : أن الله تعالى يرسل ملك الروم وهو الخامس من الهرقل يقال له ضمارة وهو صاحب الملاحم فيرغب إلى المهدي في الصلح وذلك لظهور المسلمين على المشركين فيصالحه إلى سبعة أعوام فيضع عليهم الجزية عن يد وهم صاغرون فلا تبقى لرومي حرمة و يكسرون لهم الصليب ثم يرجع المسلمون إلى دمشق فيبينما الناس كذلك إذا برجل من الروم قد الفت فرأى أبناء الروم و بناتهم في القيود و الأغلال فتعير نفسخ فيرفع الصليب و يرفع صوته فيقول : ألا من كان يعبد الصليب فينصره فيقوم رجل من المسلمين فيكسر الصليب و يقول : الله أغلب و أنصر فحينئذ يغدرون و هم أولى بالعدو فيجمعون عند ذلك ملوك الروم في بلادهم خفية فيأتون إلى بلاد المسلمين حيث لا يشعر بهم المسلمون و المسلمون قد أخذوا منهم الأمن و هم على غفلة أنهم مقيمون على الصلح فيأتون أنطاكية في اثني عشر ألف راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا فلا يبقى بالجزيرة و لا بالشام و لا بأنطاكية نصراني إلا و يرفع الصليب فعند ذلك يبعث المهدي إلى أهل الشام و الحجاز و اليمن و الكوفة و البصرة و العراق يعرفهم بخروج الروم و جمعهم و يقول لهم أعينوني على جهاد عدو الله و عدوكم فيبعث إليه أهل المشرق أنه قد جاء عدو من خراسان على ساحل الفرات و حل بنا ما شغلنا عنك فيأتي إليه بعض أهل الكوفة و البصرة و يخرج إليه المهدي و يخرج معهم المسلمون إلى لقائهم فيلتقي بهم المهدي و من معه من المسلمين فيأتون إلى دمشق فيدخلون فيها فتأتي الروم إلى دمشق فيكونون عليها أربعين يوما فيفسدون البلاد و يقتلون العباد و يهدمون الديار و يقطعون الأشجار ثم إن الله تعالى ينزل صبره و نصره على المؤمنين فيخرجون إليه فتشند الحرب بينهم و يستشهد من المسلمين خلق كثير فيا لها من وقعة و مقتلة ما أعظمها و ما أعظم هولها و يرتد من العرب يومئذ أربع قبائل سليم و نهد و غسان و طي فيلحقون بالروم و ينتصرون مما يعاينون من الهول العظيم و الأمر الجسيم ثم إن الله تعالى ينزل النصر و الصبر و الظفر على المسلمين فيقتل من الروم مقتلة عظيمة حتى يخوض الخيل في دمائهم و تشتعل الحرب بينهم حتى إن الحديد يقطع بعضه بعضا و إن الرجل من المسلمين ليطعن العلق بالسفود فيفذه و عليه الدرع من الحديد فيقتل المسلمون من المشركين خلقا كثيرا حتى تخوض الخيل في الدماء و بنصر الله تعالى المسلمين و يغضب على الكافرين و ذلك رحمة من الله تعالى لهم فعصاة من المسلمين يومئذ خير خلق الله و المخلصين من عباد الله ليس فيهم مارد و لا مارق و لا شارد و لا مراتب و لا منافق ثم إن المسلمين يدخلون إلى بلاد الروم و يكبرون على المدائن و الحصون فتقع أسوارها بقدرة الله فيدخلون المدائن و الحصون و يغنمون الأموال و يسبون النساء و الأطفال و يكون أيام المهدي أربعين سنة عشر سنين في المغرب و اثنا عشرة سنة بالكوفة و اثنا عشرة بالمدينة و ستة بمكة و تكون منيته فجأة بينما الناس كذلك إذ تكلم الناس بخروج الدجال اللعين و سيأتي من أخبار المهدي ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى و قوله : ليس له هجير الدأب و العادة يقال : ما زال ذلك هجيرا و إهجيرا و إجيرا أي دأبه و عادته و هاجت : أي تحركت ربيع هراء أي شديدة احمرت لها الشجر و انكشفت الأرض فظهرت حمرةها و لما رأى ذلك الرجل جاء مجيء الخائف من قرب الساعة و الشرطة هنا بضم الشين أول طائفة من الجيش تقابل سما بذلك لعلامة تميزوا بها و الأشرار العلامات و تفنى الشرطة أي تقتل و تفنى ترجع و منه حتى تفنى إلى أمر الله و نهد تقدم و منه سمي النهدي نهدا لتقدمه الصدر و الدائرة و بيروي و الدائرة و المعنى متقارب قال الأزهري : الدائرة الدولة تلور على الأعداد و الدائرة النصر و الظفر يقال : لمن الدائرة أي لمن الدولة و على من الدائرة ؟ أي الهزيمة قاله أبو عبيد الهروي : و الجنبات جمع جنب و هي الجانب و يروى بجنبتهم أي بأشخاصهم و قوله : إذ سمعوا بناس بنون و سين

هم أكثر بالثناء المثلثة و يروى بباء واحدة أكبر بباء واحدة أيضا و هو الأمر الشديد و هو الصواب لرواية أبي داود و إذ سمعوا بأمر هو أكبر من ذلك و الصريح الصارخ أي المصوت عند الأمر الهائل و يرفضون أي يرمون و يتركون و الطليعة الذي يتطلع الأمر و يسكتشفه و تداعى الأمم اجتماعها و دعا بعضها بعضا حتى تصير العرب بين الأمم كالقصة و الأكلة و غناء السيل ما يقذف به على جانب الوادي من الحشيش و النبات و القماش و كذلك الغناء بالتشديد و الجمع : الأغناء و الله أعلم

باب منه و بيان قوله تعالى حتى تضع الحرب أوزارها

[عن حذيفة قال : فتح لرسول الله صلى الله عليه و سلم فتح فأتيته فقلت : الحمد لله يا رسول الله ألقى الإسلام بجرانه و وضعت الحرب أوزارها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن دون أن تضع الحرب أوزارها خلالاتنا ستأقلا تسألني عنها يا حذيفة ؟ قلت : بلى يا رسول الله فما أولها ؟ قال : موتى و فتح بيت المقدس ثم فتنان دعواهما واحدة يقتل بعضهم بعضا ثم يفيض المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيسخطها و موت كقفاص الغنم و غلام من بني الأصفر يبيت في اليوم كنبات أشهر و في الشهر كنبات السنة فيرغب قومه فيه فيملكونه و يقولون نرجو أن يرد بك علينا ملكنا فيجمع جمعا عظيما ثم يسير حتى يكون بين العريش و أنطاكية فأمرهم يومئذ نعم الأمير فيقول لأصحابه : كيف ترون ؟ فيقولون : نقاتلهم حتى يحكم الله بيننا و بينهم فيقول : لا أرى ذلك و لكن تخلي لهم أرضهم و نسير بذرارينا و عيالنا حتى نحرزهم ثم يغزوهم و قد أحرزنا ذرارينا و عيالنا فيسيرون حتى يأتوا مدينتي هذه و يستمد أهل الشام فيملونه فيقول : لا يتتدب معي إلا من باع نفسه الله حتى يلقاهم فيلقاهم ثم يكسر غمده ثم يقاتل حتى يحكم الله بينهم فيتدبون سبعون ألفا أو يزيدون على ذلك فيقول حسبي سبعون ألفا لا تحملهم الأرض و في القوم عين العدو فيخبرهم بالذي كان فيسير إليهم حتى إذا التقوا سألوه أن يخلي بينهم و بين من كان بينهم نسب فيأتي و يدعو أصحابه فيقول : أتدرون ما يسأل هؤلاء ؟ فيقولون : ما أحد أولى بنصر الله و قتاله منا فيقول : امضوا و اكسروا أعماذكم فيسل الله سيفه عليهم فيقتل منهم الثلثان و يفر في السفن منهم الثلث حتى إذا تراءت لهم جباههم فبعث الله عليهم ريحا فردقهم إلى مراسيمهم إلى الشام فأخذوا و ذبحوا عند أرجل سفنهم عند الشاطئ فيومئذ تضع الحرب أوزارها] رواه إسماعيل بن عياش عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن ربيعة بن سفيان بن مافع المغافري عن مكحول عن حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كذا ذكره الفقيه بن برجان في كتاب الإرشاد له و منه نقلته و في إسناده مقال و الله أعلم

باب ما جاء في قتال الترك و صفتهم

البخاري [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا و كرمان من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين و جوههم الحجان المطرقة نعالمهم الشعر] و خرج مسلم [عن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يقاتلون بين يدي الساعة قوما نعالمهم الشعر كأن وجوههم المطرقة حمر الوجوه صغار الأعين ذلف الأنوف] و في رواية [يلبسون الشعر و يمشون في الشعر] خرجه البخاري و أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الترمذي و غيرهم و خرجه ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغارا الأعين عراض الوجوه كأن أعينهم حدق الجراد و كأن وجوههم الحجان المطرقة ينتعلون الشعر و

يتخذون الدرق يربطون خيولهم بالنخيل [

أبو داود] عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث يقاتلونكم قوم صغارا الأعين يعني الترك قال تسوقوهم ثلاث مرات حتى تلحقوهم بجزيرة العرب فأما في السياقة الأولى فينجوا منهم من هرب و أما في الثانية فينجو بعضهم و يهلك بعض و أما في الثالثة فيصطلمون]

فصل

قوله : الجان المطرقة الجان جمع مجن و هو الترس و المطرقة هي التي قد عوليت بطراق و هو الجلد الذي يغشاه شبه وجوههم في عرضها و نتوء و جناحا بالترس و المطرقة قال معناه الخطاي و غيره و قيده القاضي عياض رحمه الله في كتاب مشارق الأنوار له فقال : الصواب فيه المطرقة بفتح الطاء و تشديد الراء

قاله الحافظ أبو الخطاب بن دحية قال لي شيخنا احدث الكبير اللغوي النحوي أبو إسحاق الحمزي بل الصواب فيه المطرقة بسكون الطاء و فتح الراء أي التي أطرقت بالعقب أي ألبست حتى غلظت و كأنها ترس على ترس و منه طارقت النعل إذا ركبت جلدا على جلد و خرزته عليه

قال المؤلف رحمه الله تعالى : هذا معنى ما نقلناه عن الخطابي و قال أهل اللغة : و في الصحاح و الجان المطرقة التي يطرق بعضها على بعض كالنعل المطرقة المخصوصة يقال : أطرقت الجلد و العصب أي ألبسته و ترس مطرق و قوهم : نعالهم الشعر أي يصنعون من الشعر حبالا و يصنعون منها نعالا كما يصنعون منه ثيابا و يشهد بهذا قوله يلبسون الشعر و يمشون في الشعر هذا ظاهره و يحتمل أن يريد بذلك أن شعورهم كثيفة طويلة فهي إذا أسدلوها كاللباس و ذواتها لوصولها إلى أرجلهم كالنعال و الأول أظهر

قال ابن دحية : إنما كان نعالهم من صفائر الشعر أو من جلود مشعرة لما في بلادهم من الثلج العظيم الذي لا يكون في بلد كبلادهم و يكون من جلد الذئب و غيره و قوله : يلبسون الشعر فهو إشارة إلى الشرايش التي يدار عليها بالقدس و القدس كلب الماء و هو من ذوات الشعر كالمعز و ذوات الصوف كالضأن و ذوات الوبر الإبل و قوله : ذلف الأنف أي غلاظها يقال : أنف أذلف إذا كان فيه غلظ و انبطاح و الذلف في اللغة تأخر الأرنبة و قيل تطامن فيها و قيل فطس الأنوف كما في حديث البخاري عن أبي هريرة فالحديث كالتقرآن يفسر بعضه بعضا و يروى ذلف الأنوف بالبدال المهملة و المعجمة أكثر

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية رضي الله عنه : و خوزا قيدناه في صحيح البخاري و مسلم بالزاي و قيده الجرجاني في خور كورمان بالراء المهملة مضافا إلى كرمان و كذا صوبه الدارقطني بالراء المهملة مع الإضافة و حكاه عن الإمام أحمد بن حنبل و قال : إن غيره صحف فيه و قال غير الدارقطني إذا أضيف بالراء المهملة لا غير و إذا عطفته بالزاي لا غير و يقال : إنهما جنسان

باب في سياقة الترك للمسلمين و سياقة المسلمين لهم

روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده قال : [حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن المهاجر قال : حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه و سلم فسمعت النبي يقول : إن أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صغارا الأعين كأن وجوههم الحجف ثلاث مرات حتى يلحقوهم بجزيرة العرب أما السياقة الأولى فينجو من هرب منهم و أما السياقة الثانية فيهلك بعض و ينجو بعض و أما السياقة الثالثة فيصطلمون كلهم من بقي منهم قالوا يا نبي الله من هم ؟ قال : هم الترك قال : أما و الذي نفسي بيده ليربطون خيولهم إلى سواري مساجد

المسلمين قال : و كان بريدة لا يفارقه بعيران أو ثلاثة و متاع السفر و الأسقية بعد ذلك للهرب مما سمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم من البلاء من الترك [

قال الإمام أبو الخطاب عمر بن دحية و هذا سند صحيح أسنده إمام السنة و الصابر على المحنة أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني عن الإمام العدل الجمع على ثقته أبي نعيم الفضل بن دكين و بشير بن المهاجر و ثقه رأى أنس بن مالك روى عن جماعة من الأئمة فوتقوه

قال المؤلف رحمه الله : و خرج أبو داود قال [حدثنا جعفر بن مسافر قال : حدثنا خلاد بن يحيى : حدثنا بشير بن مهاجر قال : حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث يقاتلونكم صفار الأعين يعني الترك قال : تسوقوهم ثلاث مرات حتى تلحقوهم بجزيرة العرب فأما في السياقة الأولى فينجو منهم من هرب و أما الثانية فينجو بعض و يهلك بعض و أما في الثالثة فيصطلمون]

فصل

الاصطلام : الاستئصال و أصله من الصلم و هو القطع اصطملت أذنه إذا استوفيت بالقطع و أنشد الفراء :
(ثم اصطمت إلى الصماخ فلا قرن و لا أذن)

و الحديث الأول يدل على خروجهم و قتلهم المسلمين و قتلهم و قد وقع ذلك على نحو ما أخبر صلى الله عليه و سلم فخرج منهم في هذا الوقت أنهم لا يحميهم إلا الله و لا يردهم عن المسلمين إلا الله حتى كأنهم بأجوج و مأجوج أو مقتدمهم

قال الحافظ السيد بن دحية رضي الله عنه : يخرج في جمادى الأولى سنة سبع عشرة و ستمائة جيش من الترك يقال له الططر عظم في قتله الخطب و الخطر و قضى له من قتل النفوس المؤمنة الوطر و لم تهتد إلى دفعه بالحيل الفطر يقتلون من وراء النهر و ما دونه من جميع البلاد بلاد خراسان و نحو رسوم ملك بني ساسان و هذا الجيش ممن يكفر بالرحمن و يرى أن الخالق المصور هما النيران و ملكهم يعرف بخان خاقان و حربوا بيوت مدينة نشاور و أطلقوا فيها النيران و خار عنهم من أهل خوارزم كل إنسان و لم يبق منهم إلا من اختبأ في المغارات و الكهفان حتى و صلوا إليها و قتلوا و سبوا و خبروا البنيان أطلقوا الماء على المدينة من نهر جيحان فغرق فيها مباني الذرا و الأركان ثم صبروا المشهد الرضوي بطوس أرضا بعد أن كانوا و قطعوا ما أمر الله عز و جل به أن يوصل من الدين بأخسر الأديان إلى أن و صلوا بلا قهستان فخرى بوا مدينة الري و قزوین و أهر و زنجان و مدينة أردبيل و مدينة مراغي كرسي بلاد أذربيجان و استأصلوا شأفة من في هذه البلاد من العلماء و الأعيان و استباحوا قتل النساء و ذبح الولدان ثم و صلوا إلى العراق الثاني و أعظم مدنه مدينة أصبهان و دور سورها أربعون ألف ذراع في غاية الارتفاع و الإتقان و أهلها مشتلون بعلم الحديث فحفضهم الله بهذا الشأن و كف كفر عنهم بأيمان الإيمان و أنزل عليهم مواد التأييد و الإحسان فتلقوهم بصدور هي في الحقيقة صلور الشجعان و حققوا الخبر بأنما بلد الفرسان و اجتمع فيها مائة ألف إنسان و خرجوا إليهم كأسد و لكن غاباها عوامل الخرصان و قد لبسوا الليضا كتغور الأقحوان و عليهم دروع فضفاضة في صفاء الغدران و هيئات للمجاهدين درجات الجنان و أعدت للكافرين دركات النيران و برز إلى الططر القتل في مضاجعهم و ساقهم القدر المحتوم إلى مصارعهم فمرفوا عن أصبهان مروق السهم من الرمي و أنشلوا :

(إلى الوادي فطم على القرى)

ففرروا منهم فرار الشيطان يوم بدر له خصاص و رأوا أنهم إن وقفوا لم يمكن لهم من الهلاك محاص و واصلوا السير

بالسرى و هلوا من همدان الوهاد و الذرى بعد أن قامت الحرب على ساق و الأرواح في مساق من ذبح مثله و ضرب الأعناق و صعدا جبل أوزند فقتلوا من فيه من جموع صلحاء المسلمين و خربوا ما فيه من الجنات و البساتين و انتهكوا منهم و من نسائهم حرمت الدين و كانت استطالهم على مقدار ثلثي بلاد المشرق الأعلى و قتلوا فيها من الخلائق ما لا يحصى و قتلوا في العراق الثاني عدة تقرب أن يستقصى و ربطوا خيولهم في سوارى المساجد و الجوامع كما جاء في الحديث المنذر لخروجهم الشارح الجامع و أوغلوا في بلاد المشرق أي إيغال و قادوا الجيوش إليها مقادة أبي رغال في كلام له إلى أن قال : و قطع السبل و أخافوها و جاسوا خلال الديار و طافوها و ملأوا قلوب المؤمنين رعبا و سحبوا ذيل الغلبة على تلك البلاد سحبا و حكموا سيوفهم في رقاب أهلها و أطلقوا يد التخريب في وعرها و سهلها و لا شك أنهم هم المنذر بهم في الحديث و أن لهم ثلاث خرجات يصطلمون في الآخرة منها

قال المؤلف رحمه الله : فقد كملت بحمد الله خراجهم و لم يبق إلا قتلهم و قتلهم فخرجوا على العراق الأول و الثاني كما ذكرناه و خرجوا في هذا الوقت على العراق الثالث بغداد و ما اتصل بها من البلاد و قتلوا جميع من كان فيها من الملوك و العلماء و الفضلاء و العباد و حصروا ميا فارقين و استباحوا جميع من فيها من الملوك و المسلمين و عبروا القرات إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب فخربوها و قتلوا من فيها إلى أن تركوها خالية يبابا ثم أوغلوا إلى أن ملكوا جميع الشام في مدة يسيرة من الأيام و فلقوا بسيوفهم الرؤوس و الهام و دخل رعيهم الديار المصرية و لم يبق إلا الحوق بالدار الأخرية فخرج إليهم من مصر الملك المظفر الملقب بقطر رضي الله عنه بجميع من معه من المعسكر و قد بلغت الحناجر القلوب و الأفس بعزيمة صادقة و نية خالصة إلى أن التقى بعين جالوت فكان له عليهم من النصر و الظفر كما كان لطالوت فقتل منهم جمع كثير و عدد غزير و انجلوا عن الشام من ساعتهم و رجع جميعه كما كان إلى الإسلام و عبروا القرات منهزمين و رأوا ما لم يشاهدوه منذ زمان و لا حين و راحوا خائبين خاسرين مدحورين أذلاء صاغرين

باب منه و ما جاء في ذكر البصرة و الأيلة و بغداد و الإسكندرية

أبو داود الطيالسي قال : حدثنا الحشرج بن نباتة الكوفي حدثنا سعيد بن جيهان [عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لتزلن طائفة من أمتي أرضا يقال لها البصرة و يكثر بها عددهم و نحلهم ثم يجيء قوم من بني قنطورا عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على جسر لهم يقال له دجلة فيتفرق المسلمون ثلاث فرق : أما فرقة فتأخذ بأذنان الإبل فتلحق البادية فهلكت و أما فرقة فتأخذ على أنفسها و كفرت و هذه و تلك سواء و أما فرقة فيجعلون عيالهم خلف ظهورهم و يقاتلون فقتلهم شهداء و يفتح الله على بقيتهم] و خرج أبو داود السخيتاني في سننه بمعناه فقال : [حدثنا محمد بن يحيى بن فارس قال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال : حدثني سعيد بن جيهان : حدثنا مسلم بن أبي بكر قال : سمعت أبي يحدث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها و تكون من أمصار المهاجرين قال ابن يحيى و هو محمد قال معمر : و يكون من أمصار المسلمين فإذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطورا عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شط النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق : فرقة تأخذ أذنان البقر و البرية و هلكوا و فرقة يأخذون لأنفسهم و كفروا و فرقة يجعلون ذريتهم خلف ظهورهم و يقاتلون و هم الشهداء]

قال أبو داود : و [حدثنا محمد بن المثني قال : حدثني إبراهيم بن صالح بن درهم قال : سمعت أبي يقول : انطلقنا حاجين فإذا رجل فقال لنا : إلى جنبكم قرية يقال لها الأيلة قلنا : نعم قال : من يضمن لي منكم أن يصلي في مسجد العشار ركعتين أو أربعاً و يقول لأبي هريرة سمعت خليلي يقول : إن الله يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء لا يقوم مع شهداء بدر غيرهم]

ذكر الخطيب أبو بكر بن أحمد بن ثابت في تاريخ بغداد أنبأنا أبو القاسم الأزهري [حدثنا أحمد بن محمد بن موسى قال : حدثنا أحمد بن جعفر بن المادني قال : ذكر في إسناد شديد الضعف عن سفیان الثوري عن أبي إسحاق الشيباني عن أبي قيس عن علي رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : تبني مدينة بين الفرات و دجلة يكون فيها شر ملك بني العباس و هي الزوراء يكون فيها حرب مقطعة تسمى فيها النساء و يذبح فيها الرجال كما تذبح الغنم] قال أبو قيس فليل لعلي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين : قد سماها رسول الله صلى الله عليه و سلم الزوراء فقال : لأن الحرب تزور في جوانبها حتى تطبقها

و قال أرطاة بن المنذر قال رجل لابن عباس و عنده حذيفة بن اليمان أخبرني عن تفسير قوله تعالى { حم * عسق } فأعرض عنه حتى أعاد ثلاثاً فقال حذيفة : أنا أنبأك بما قد عرفت لم تركها نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله ينزل على نمر من أثمار المشرق بيني عليه مدينتين بشق النهر بينهما شقا فإذا أراد الله زوال ملكهم و انقطاع دولتهم بعث الله على إحداها ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة فتحترق كلها كأنها لم تكن في مكانها فتصبح صاحبها معجبة كيف قلبت فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد ثم يخسف الله بها و بهم جميعاً فذلك { حم * عسق } أي عزيمة من عزمات الله و فتنة و قضاء حم أي حم ما هم كائن ع عدلاً منه س سيكون ق واقع في هاتين المدينتين

و نظير هذا التفسير ما [روى جرير بن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : تبني مدينة بين دجلة و دجيل و قطربل و الفرات يجتمع فيها جبابرة الأرض تجيء إليها الخزائن يخسف بها و في رواية يخسف بأهلها فلهي أسرع ذهاباً في الأرض من الودت الجيد في الأرض الرخوة] و قرأ ابن عباس [حم عسق] بغير عين و كذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود حكاه الطبري و قال العباس و كان علي يعرف الفتى بها و [ذكر القشيري و الثعلبي في تفسيرهما أن النبي صلى الله عليه و سلم لما نزلت هذه الآية عرفت الكآبة في وجهه فقيل له يا رسول الله : ما أحزنك ؟ قال : أخبرت ببلايا تصيب أمي من خسف و قذف و نار تحشرهم و ريح

تقذفهم في البحر و آيات متتابعات بنزول عيسى و خروج الدجال] لفظ الثعلبي و قد روي حديث الزوراء محمد بن زكريا الغلابي و أسند عن [علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : أما هلاكها على يد السفيناني كأني بها و الله قد صارت خاوية على عروشها] و محمد بن زكريا قال الدارقطني كان يضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه و سلم

و ذكر ابن وهب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قيل له بالاسكندرية : إن الناس قد فرغوا فأمر بسلاحه و فرسه فجاءه رجل فقال من أين هذا الفرع ؟ قال : سفن تراءت من ناحية قبرس قال : انزعوا عن فرسي قال : قلنا اصلحك الله إن الناس قد ركبوا فقال : ليس هذا بملحمة الإسكندرية إنما يأتون من ناحية المغرب من نحو أنطابلس فيأتي مائة ثم مائة حتى عدد تسعمائة

و خرج الوائلي أبو نصر في كتاب الإبانة من حديث رشدين بن سعد عن عقيل عن الزهري عن كعب قال : إني لأجد في كتاب الله المنزل على موسى بن عمران أن للإسكندرية شهداء يستشهدون في بطحائها خير من مضى و

خير من بقى و هم الذين يباهي الله عز و جل بهم شهداء بدر

فصل

قوله : الجان يفتح الجيم جمع مجن بكير الميم و هو الترس و المطرقة هي التي قد عدلت بطراق و هو الجلد الذي يغشاه شبه و جوههم في عرضها و نتوء و جناحها بالترسة و المطرقة و في الصحاح و الجان المطرقة التي يطرق بعضها على بعض كالنعل المطرقة للمخسوفة و يقال : أطرقت بالجلد و العصب أي لبست و ترس مطرق و قوله : نعالهم الشعر أي يصنعون من الشعر حبلا و يصنعون منها نعالا كما يصنعون منه ثيابهم و يشهد لهذا قوله يلبسون الشعر و يمشون في الشعر هذا ظاهره و يحتمل أن يريد بذلك أن شعورهم كثيفة طويلة فهي إذ أسدلوها كاللباس و ذواتها لوصولها إلى أرجلهم كالنعال و الأول أظهر و الله أعلم و قوله : ذلف الأنف أي غلاظها يقال : أنف إذا كان فيه غلظ و انبطاح و أنوف ذلف و الاصطلام : الاستئصال و أصله من الصلم و هو القطع قوله : بغائط الغائط المظمن من الأرض و البصرة الحجارة الرخوة و بها سميت البصرة و بنوا قنطورا هم الترك يقال إن قنطورا جارية كانت لإبراهيم عليه السلام ولدت له أولادا من نسلهم الترك و قيل : هم من ولد يافث و هم أجناس كثيرة فمنهم أصحاب مدن و حصون و منهم قوم في رؤوس الجبال و البراري و الشعاب ليس لهم عمل غير الصيد و من لم يصد منهم ودج دابته فشوى الدم في مصران فأكله و هم يأكلون الرخم و الغربان و غيرهما و ليس لهم دين و منهم من كان على دين الجوسية و منهم من هود و ملكهم الذي يقال له خاقان يلبس الحرير و تاج الذهب و يحتجب كثيرا و فيهم بأس شديد و فيهم سحر و أكثرهم مجوس و قال وهب بن منبه : الترك بنو عم يأجوج وز مأجوج يعني أنهم كلهم من ولد يافث و قيل : إن أصل الترك أو بعضهم من اليمن من حمير و قيل فيهم : إنهم من بقايا قوم تبع و الله أعلم ذكره أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإبانة

باب

ذكر أبو نعيم الحافظ [عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يوشك أن يملأ الله أيديكم مالك العجم ثم يجعلهم أسدا لا يفرون فيقتلون مقاتلكم و يأكلون فينكم] غريب من حديث يونس تفرد به عنه حماد

باب ما جاء في فضل الشام و أنه معقل من الملاحم

اليزار [عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهب به فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام ألا و إن الإيمان حين تقع الفتنة بالشام] خرجه أبو بكر أحمد بن سلمان النجار و قال عود الإسلام قال أبو محمد عبد الحق : هذا حديث صحيح و لعل هذه الفتنة هي التي تكون عند خروج الدجال و الله و رسوله أعلم

قلت : و خرجه الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الحكم بن عبد الله بن خطاف الأزدي و هو متروك [عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : هب رسول الله صلى الله عليه و سلم من نومه مذعورا و هو يرجع فقلت : مالك بأبي أنت و أمي ؟ قال : سل عمود الإسلام من تحت رأسي ثم رميت بصري فإذا هو قد غرز في وسط الشام فقيل لي يا محمد إن الله اختار لك الشام و جعلها لك عزا و محشرا و منعة و ذكر أن من أراد الله به خيرا أسكنه الشام و أعطاه نصيبه منها و من أراد الله به شرا أخرج سهما من كنانته فهي معلقة

وسط الشام فرماه به فلم يسلم دنيا و لا أخرى]

و روي عن عبد الملك بن حبيب أن قال : حدثني من أثق به أن الله عز و جل قال للشام : أنت صفوتي من أرضي و بلادي ليسكنك خيرتي من خلقي و إليك المحشر من خرج منك رغبة عنك فبسخط مني عليه و من دخلك رغبة فيك فبرضى مني دخلك

أبو داود [عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام]

و ذكر أبو بكر بن أبي شيبة [عن أبي الزاهرية قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : معقل المسلمين من الملاحم دمشق و معقلهم من الرجال بيت المقدس و معقلهم من يأجوج و مأجوج الطور]
قلت : هذا صحيح ثبت معناه مرفوعا في غير ما حديث و سياقي

باب ما جاء أن الملاحم إذا وقعت بعث الله جيشا يؤيد به الدين

ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا وقعت الملاحم بعث الله جيشا من المولي هم أكرم العرب فرسانا و أجوده سلاحا يؤيد الله بهم الدين]

باب ما جاء في المدينة و مكة و خراجهما

مسلم [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : تبلغ المساكن أهاب أو يهاب]
قال زهير : قلت لسهيل فكم ذاك من المدينة ؟ قال كذا و كذا ميلا
أبو داود [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح] قال الزهري : و سلاح قريب من خير
قلت : المسالخ : المطالع و يقال القوم مستعد بهم في المراصد و يرتبون لذلك و سموا بذلك لحمهم السلاح و قال الجوهري : و المسلحة كالنخري و المرقب و في الحديث كان أدنى مسالخ فارس إلى العرب العذيب قال بشر :
(بكل قياد مسنفة عنود ... أضر بها المسالخ و الفرار)

القياد : جبل تقاد به الدابة و المسنف : المتقدم يقال : أسنف الفرس أي تقدم الخيل فإذا سمعت في الشعر مسنفة بكسر النون فهي من هذا و هي الفرس التي تتقدم الخيل في سيرها و العنود : من عند الطريق يعند بالضم عنودا أي عدل فهم عنود و العنود أيضا من النوق التي ترعى ناحية و الجمع عند و منه قوله تعالى : { إنه كان لآياتنا عنيدا } أي مجانيا للحق معاندا له معرضا عنه يقال عند الرجل إذا عتا و جاوز قدره

مسلم [عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : تتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشها إلا العوافي يريد عوافي السباع و الطير ثم يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدان و حشا حتى إذا بلغ ثمانية الوداع خرا على و جهيهما]

[و عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم للمدينة : ليرتكها أهلها على خير ما كانت مذلة للعوافي يعني السباع و الطير] و عن [حذيفة قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه و سلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فما منه شيء إلا قد سألته إلا أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة]

و ذكر أبو زيد عمر بن شبة في كتاب المدينة على ساكنها الصلاة و السلام عن أبي هريرة قال : ليخرجن أهل

المدينة خير ما كانت نصفها زهو و نصفها رطب قيل و من يخرجهم منها يا أبا هريرة؟ قال : أمراء السوء
قال أبو زيد [و حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر أنه سمع
عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر يقول إنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يخرج أهل المدينة
منها ثم يعودون إليها فيعمرونها حتى تمتلئ ثم يخرجون منها فلا يعودون إليها أبدا]
و خرج [عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ليخرجن أهل المدينة ثم ليعودن إليها ثم
ليخرجن منها ثم لا يعودن إليها أبدا و ليدعنها و هي خير ما تكون مونة قبل فمن يأكلها؟ قال الطير و السباع]
و خرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : و الذي نفسي بيده لتكونن بالمدينة ملحمة يقال لها الحالقة لا أقول
حالقة الشعر و لكن حالقة الدين فاخرجوا من المدينة و لو على قدر بريد

و عن الشيباني قال : لتخربن المدينة و البود قائمة البود جمع بند و هو العلم الكبير قاله في النهاية قال مسلم [عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم : يخرب الكعبة ذو السويقتين رجل من الحبشة] البخاري [عن عباس
عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كأني به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا] الفحج : تباعد ما بين الفخذين
و في حديث [حذيفة الطويل عنه صلى الله عليه و سلم : كأني بحبشي أفحج الساقين أزرق العينين أفضس الأنف
كبير البطن و أصحابه ينقضونها حجرا حجرا و يتناولنها حتى يرموا بها إلى البحر يعني الكعبة] ذكره أبو الفرج بن
الجوزي و هو حديث فيه طول و قال أبو عبيدة القاسم بن سلام في حديث علي عليه السلام استكثروا من الطواف
بهذا البيت قبل أن يحال بينكم و بينه فكأني برجل من الحبشة أصعل أصمغ أمش الساقين قاعد عليها و هي تدم
قال : حدثنا يزيد بن هارون عن هشام بن حسان عن حفصة عن أبي العالية عن علي قال الأصمعي قوله أصعل
هكذا يروى فأما كلام العرب فهو صعل بغير ألف و هو الصغير الرأس الحبشة كلهم قال و الأصمغ الصغير الأذن
يقال منه رجل أصمغ و امرأة صمغاء و كذلك غير الناس

أبو داود الطيالسي [عن أبي هريرة النبي صلى الله عليه و سلم يبيع لرجل بين الركن و المقام و أول من يستحل
هذا البيت أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خراب لا يعمر بعده أبدا و هم
الذين يستخرجون كنزه] ذكر الحلبي فيما ذكر أنه يكون في زمن عيسى عليه السلام و أن الصريخ يأتيه بأن ذا
السويقتين الحبشي قد سار إلى البيت لهدمه فيبعث إليه عيسى عليه السلام طائفة من الناس ما بين الثمان إلى التسع
و ذكر أبو حامد في كتاب مناسك الحج له و غيره و يقال : لا تغرب الشمس يوما إلا و يطوف بهذا البيت رجل من
الأبدل و لا يطلع القجر من ليلة إلا طاف به و احد من الأوتاد و إذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض
فيصبح الناس و قد رفعت الكعبة ليس فيها أثر و هذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد ثم يرتفع القرآن من
المصاحف فيتصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة
واحدة ثم ترجع الناس إلى الأشعار و الأغاني و أخبار الجاهلية ثم يخرج الدجال و ينزل عيسى بن مريم عليه السلام
فيقتل الدجال و الساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب تتوقع ولادتها و في الخبر استكثروا من الطواف بهذا البيت
قبل أن يرفع فقد هدم مرتين و يرفع في الثالثة

قال المؤلف رحمه الله و قيل : إن خرابه يكون بعد رفع القرآن من صدور الناس و من المصاحف و ذلك بعد موت
عيسى عليه السلام و هو الصحيح في ذلك على ما يأتي بيانه

فصل : ثبت في الصحيح الدعاء للمدينة و الحث على سكنها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم [يأتي على
الناس زمن يدعو الرجل ابن عمه و قريبه هلم إلى الرخاء هلم إلى الرخاء و المدينة خير لهم كانوا يعلمون و الذي

بيده لا يخرج أحد منهم رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه إلا أن المدينة كالكبير تخرج الخبث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكبير خبث الحديد] رواه أبو هريرة وخرجه مسلم
خرج [عن سعيد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله
كما يذوب الملح في الماء]

ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه و مثل هذا كثير و هو خلاف ما تقدم و إذا كان هذا فظاهره التعارض و ليس
كذلك فإن الحضر على سكنها ربما كان عند فتح الأمصار و وجود الخيرات بها كما جاء في حديث [سفیان بن
أبي زهير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : تفتح اليمن فيأتي قوم يعيشون فيتحملون بأهلهم و
من أطاعهم و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ثم تفتح الشام فيأتي قوم يعيشون فيتحملون بأهلهم و من أطاعهم و
المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ثم تفتح العراق فيأتي قوم يعيشون فيتحملون بأهلهم و من أطاعهم و المدينة خير
لهم لو كانوا يعلمون] رواه الأئمة و اللفظ لمسلم فحضر صلى الله عليه و سلم على سكنها حين أخبر بانتقال
الناس عنها عند فتح الأمصار لأنها مستقر الوحي و فيها مجاورته ففي حياته صحبته و رؤية و جهه الكريم و بعد و
فاته مجاورة حدثه الشريف و مشاهدة آثاره العظيمة و لهذا قال : [لا يصبر أحد على لأوائها و شلتها إلا كنت
شفيعا أو شهيدا له يوم القيامة] و قال : [من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن مات بها ثم
إذ تغيرت الأحوال و اعتورتها الفتن و الأهوال كان الخروج منها غير قادم و الانتقال منها حسنا غير قادم]
فصل :

و أما قوله : [من أراد أهل المدينة بسوء] فذلك محمول على زمانه و حياته كما في الحديث الآخر [لا يخرج أحد
منهم رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه] و قد خرج منها بعد موته صلى الله عليه و سلم من الصحابة من لم
يعوضها الله خيرا منه فدل على أن ذلك محمول على حياته فإن الله تعالى كان يعوض أبدا رسوله صلى الله عليه و
سلم خيرا ممن رغب عنه و هذا واضح و يحتمل أن يكون قوله : أذابه الله كناية عن إهلاكه في الدنيا قبل موته و قد
فعل الله ذلك بمن غزاها و قاتل أهلها كمسلم بن عقبة إذ أهلكه الله عند مصرفه عنها إلى مكة لقتال عبد الله بن
الزبير بلاه الله بالماء الأصفر في بطنه فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث

و قال الطبري مات بمرشي و ذلك بعد الوقعة بثلاث ليال و مرشي جبل من بلاد تامة على طريق الشام و المدينة
قريب من الجحفة و كإهلاك يزيد بن معاوية إثر إغرائه أهل المدينة حرم النبي المختار و قتله بها بقايا المهاجرين و
الأنصار فمات بعد هذه الوقعة و إحراق الكعبة بأقل من ثلاثة أشهر و لأنه توفي بالدبحة و ذات الحنب في نصف
ربيع الأول بحوارين من قرى حمص و حمل إلى دمشق و صلى عليه ابنه خالد و قال المسعودي : صلى عليه ابنه
معاوية و دفن في مقبرة باب الصغير و قد بلغ سبعا و ثلاثين سنة فكانت ولايته ثلاث سنين و ثمانية أشهر و اثني
عشر يوما

فصل :

و أما قوله : [تتركون المدينة] حدثنا المخاطب فمرداه غير المخاطبين لكن نوعهم من أهل المدينة أو نسلهم و على
خير ما كانت عليه فيما قبل و قد و جد هذا الذي قاله النبي صلى الله عليه و سلم و ذلك أنها صارت بعده صلى
الله عليه و سلم معدن الخلافة و موضعها و مقصد الناس و ملجأهم معلقهم حتى تنافس الناس فيها و توسعوا في
خططها و غرسوا و سكنوا منها ما لم يسكن قبل و بنوا فيها و سيدوا حتى بلغت للسكان أهاب فلما انتهت حايها
كمالا و حسنا تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها بتغلب الأعراب عليها و توالي الفتن فيها فخاف أهلها و ارتحلوا

عنها و صارت الخلافة بالشام و وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المزري في جيش عظيم من أهل الشام فنزل بالمدينة فقاتل أهلها فهزمهم و قتلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا و استباح المدينة ثلاثة أيام فسميت و قعة الحرة لذلك و فيه يقول الشاعر :

(فإن تقتلونا يوم حرة واقم ... فإننا على الإسلام أول من قتل)

و كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا لذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين و يقال لها حرة زهرة و كانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم فقتل بقايا المهاجرين و الأنصار و خيار التابعين و هم ألف و سبع مائة و قتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء و الصبيان و قتل بها من حملة القرآن سبعمائة رجل من قريش و سبعة و تسعون قتلوا جهرا ظلما في الحرب و صبوا و قال الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم في المرتبة الرابعة و جالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم و بالت وراثت بين القبر و المنبر أدام الله تشريفها و أكره الناس على أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع و إن شاء أعتق و ذكر له يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن و السنة فأمر بقتله فضربت عنقه صبوا و ذكر الأخباريون أنها خلت من أهلها و بقيت ثمارها لعوا في الطير و السباع كما قال صلى الله عليه و سلم ثم تراجع الناس إليها و في حال خلوها غدت الكلاب على سواري المسجد و الله أعلم و ذكر أبو زيد عمر بن شبة قال : حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتابا بالكعبة : ليغشين أهل المدينة أمر يفزعهم أمر يفزعهم حتى يتركوها و هي مذلة و حتى تبول السنائير على قطائف الخبز ما يروعها شيء و حتى تحرق الثعالب في أسواقها ما يروعها شيء و أما قوله في الراعيين حتى إذا بلغا ثنية المداع خرا على وجهيهما فقيل سقطا ميتين

قال علماؤنا : و هذا إنما يكون في آخر الزمان و عند انقراض الدنيا بدليل ما قال البخاري في هذا الحديث : آخر من يحشر راعيان من مزينة قيل : معناه آخر من يموت فيحشر لأن الحشر بعد الموت و يحتمل أن يتأخر حشرها لتأخر موتهما قال الداودي أبو جعفر أحمد بن نصر في شرح البخاري له : و قوله الراعيين ينعانان بغنمهما يعني يطلبان الكلاً

و قوله : و حشا يعني خالية و قوله ثنية الوداع يعني موضعا قريبا من المدينة مما يلي مكة

و قوله : خرا على و جهيهما يعني أخذتهما الصعقة حين الفخة الأولى و هو الموت

و قوله : آخر من يحشر يعني أهما بأقصى المدينة فيكونان في أثر من يبعث منها ليس أن بعض الناس يخرج بعد بعض من الأحداث إلا بالشيء المتقارب يقول الله تعالى : { إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون } و قوله النبي صلى الله عليه و سلم [يصعق الناس فأكون أول من تنشق عنه الأرض فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو كان من الذين استثنى الله]

و قال شيخنا أبو العباس القرطبي : و يحتمل أن يكون معناه آخر من يحشر إلى المدينة أي يساق إليها كما في كتاب مسلم رحمه الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله : و قد ذكر ابن شبة خلاف هذا كله فذكر عن حذيفة بن أسيد قال : آخر الناس يحشر

رجالان من مزينة يقدان الناس فيقول أحدهما لصاحبه : قد فقدنا الناس منذ حين انطلق بنا إلى شخص بني فلان

فينطلقان فلا يجدان بها أحدا ثم يقول : انطلق بنا إلى المدينة فينطلقان فلا يجدان بها أحدا ثم يقول : انطلق بنا إلى

منازل قريش بقبيع العرقد فينطلقان فلا يريان إلا السباع و الثعالب فيوجهان نحو البيت الحرام

وقد ذكر عن أبي هريرة قال : [آخر من يحشر رجلا ن رجل من جهينة و آخر من مزينة فيقولان : أين الناس فيأتیان المدينة فلا يريان إلا الثعلب فينزل إليهما ملكان فيسحباهما على و جهيهما حتى يلحقاهما بالناس] فصل :

و أما قوله في حديث أبي هريرة : يباع لرجل بين الركن و المقام فهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان على ما ذكره أيضا يملك الدنيا كلها و الله أعلم
فروي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة : مؤمنان و كافران فالمؤمنان سليمان بن داود و الإسكندر و الكافران عمروذ و بخت نصر و سيملكها من هذه الأمة خامس و هو المهدي

كتاب : التذكرة

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي

باب — في الخليفة الكائن في آخر الزمان المسمى بالمهدي و علامة خروجه

مسلم عن أبي نضيرة قال : كنا جلوسا عند جابر بن عبد الله فقال : يوشك أهل العراق أن لا يجيء قفيز و لا درهم قلنا : من أين ؟ قال : من قبل العجم يمنعون ذلك ثم قال : يوشك أهل الشام أن لا يجيء دينار و لا مدى قلنا من أين لك ذلك ؟ قال من قبل الروم ثم سكت هنيهة ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [يكون في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثيا و لا يعده عدا] قيل لأبي نضيرة و أبي العلاء تريان أنه عمر بن عبد العزيز قالا : لا

أبو داود [عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه و سلم عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه و هو كاره فيبايعونه بين الركن و المقام و يبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم البيداء بين مكة و المدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام و عصاب العراق فيبايعونه ثم ينشر رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم و ذلك بعث كلب و الحبيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيغتم المال و يعمل في الناس بسنة نبهم صلى الله عليه و سلم و يلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى و يصلي عليه المسلمون] و ذكر ابن شبة فقال : حدثنا موسى بن إسماعيل قال : حدثنا حماد بن مسلمة قال : حدثنا أبو المهزم عن أبي هريرة قال : يجيء جيش من قبل الشام حتى يدخل المدينة فيقتل مقاتلة و يقرر بطون النساء و يقولون للحبلى في البطن اقتلوا صباة السوء فإذا علوا البيداء من ذي الخليفة خسف بهم فلا يدرك أسفلهم أعلاهم و لا أعلاهم أسفلهم قال أبو المهزم : فلما جاء جيش ابن دلجة قلناهم فلم يكونوا هم

قال : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا أبو ضمرة اللبثي عن عبد الرحمن بن الحرب بن عبيد عن هلال بن طلحة الفهري قال : قال كعب الأحبار : تجهز يا هلال قال فخرجنا حتى إذا كنا بالعقيق ببطن المسيل دون الشجرة و الشجرة يومئذ قائمة قال يا هلال إني أجد صفة الشجرة في كتاب الله قلت هذه الشجرة قال : فنزلنا فصلينا تحتها ثم ركبنا حتى إذا استوينا على ظهر البيداء قال يا هلال : إني أجد صفة البيداء قلت أنت عليها قال : و الذي نفسي بيده إن في كتاب الله جيشا يؤمون البيت الحرام فإذا استووا عليها نادى آخرهم أولهم ارفقوا فخسف بهم و بأمتعتهم و أموالهم و ذرياتهم إلى يوم القيامة ثم خرجنا حتى إذا انهبطت روحنا أدنى الروحاء قال يا هلال : إني أجد صفة الروحاء قال قلت الآن حين دخلنا الروحاء قال : و حدثنا أحمد بن عيسى قال : و حدثنا ابن عيسى قال : و حدثنا عبيد الله بن وهب قال : و حدثني ابن لهيعة عن بشر بن محمد المعفري قال : سمعت أبا نواس يقول : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إذا أخسف الجيش بالبيداء فهو ظهور المهدي قلت : و لخروجه علامتان يأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى

فصل :

قوله : ثم سكت هنيهة بضم الهاء و تشديد الياء أي مدة يسيرة بتصغيرهن و يروى بهاءين و رواه الطبري هنيهة مهموز و هو خطأ لا وجه له فيه دلالة على صدق النبي صلى الله عليه و سلم حيث أخبر عما سيكون بعد

فكان ومثله الحديث الآخر : منعت العراق درهمها وقفيزها الحديث أي ستمنع و أتى بلفظ الماضي في الأخبار لأنه ماض في علم الله أنه سيكون كقوله عز من قائل { أتى أمر الله فلا تستعجلوه } والمعنى أنه لا يجيء إليها كما جاء مفسرا في هذا الحديث ومعناه والله أعلم سيرجعون عن الطاعة و يأبون من إذا ما وظف عليهم في أحد الأمر و ذلك أنهم يرتدون عن الإسلام و عن أداء الجزية و لم يكن ذلك في زمانه و لكن أخبر أنهم سيفعلون ذلك و قوله [يحثي المال حثيا] قال ابن الأنباري أعلى اللغتين حثا يحثي و هو أصح و أفصح و يقال حثا يحثو و يحثي و احث بكسر التاء و ضمها كلها المعنى اغرف بيديك

باب — منه في المهدي و خروج السفيناني عليه و بعثه الجيش لقتاله و أنه

الجيش الذي يخسف به

روي من حديث [حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق و المغرب فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفيناني من الوادي اليابس في فوره ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق و جيشا إلى المدينة فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزل بأرض بابل في المدينة المعونة و البقعة الحبيثة يعني مدينة بغداد قال فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف و يفتضون أكثر من مائة امرأة و يقتلون بها أكثر من ثلاثمائة كبش من ولد العباس ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش على ليلتين فيقتلونهم حتى لا يفلت منهم مخبر و يستنقذون ما في أيديهم من السبي و الغنائم و يحل جيشه الثاني بالمدينة فيهبونها ثلاثة أيام و لياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل إذهب فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم و ذلك قوله تعالى عز و جل { و لو ترى إذ فزعوا فلا فوت و أخذوا من مكان قريب } فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير و الآخر نذير و هما من جهينة [و لذلك جاء القول : و عند جهينة الخبر اليقين قلت : حديث حذيفة هذا فيه طول و كذلك حديث ابن مسعود فيه ثم إن عروة بن محمد السفيناني يبعث جيشا إلى الكوفة خمسة عشر ألف فارس و يبعث جيشا آخر فيه خمسة عشر ألف راكب إلى مكة و المدينة لخاربة المهدي و من تبعه فأما الجيش الأول فإنه يصل إلى الكوفة فيتغلب عليها و يسبي من كان فيها من النساء و الأطفال و يقتل الرجال و يأخذ ما يجد فيها من الأموال ثم يرجع فتقوم صيحة بالمشرق فيتبعهم أمير من أمراء بني تميم يقال له شعيب بن صالح فيستنفذ ما في أيديهم من السبي و يرد إلى الكوفة و أما الجيش الثاني فإنه يصل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم فيقاتلونها ثلاثة أيام ثم يدخلونها عنوة و يسبون ما فيها من الأهل و الولد ثم يسرون نحو مكة أعزها الله لخاربة المهدي و من معه فإذا وصلوا إلى البيداء مسحهم الله أجمعين فذلك قول الله تعالى { و لو ترى إذ فزعوا فلا فوت و أخذوا من مكان قريب }

و قد ذكر خبر السفيناني مطولا بتمامة أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي في كتاب الملاحم له و أنه الذي يخسف بجيشه قال : و اسمه عتبة بن هند و هو الذي يقوم في أهل دمشق فيقول يا أهل دمشق : أنا رجل منكم و أنت خاصتنا جدي معاوية بن أبي سفيان و ليكم من قبل فأحسن و أحسنتم و ذكر كلاما طويلا إلى أن ذكر كتابه إلى الجرهمي و هو على ما يليه من أرض الشام و أتى البرقي و هو على ما يليه من حد برقة و ما وراء برقة من المغرب إلى أن قال : فيأتي الجرهمي فيبايعه و اسم الجرهمي عقيل بن عقال ثم يأتيه البرقي و اسم البرقي همام

بن الورد ثم ذكر مسيره إلى أرض مصر و قتاله لملكها فيقتلون على قنطرة الفرما أو دونها بسبعة أيام ثم ينصر أهل مصر و قد قتل منهم زهاء سبعين ألفا و نيفا ثم يصالحه أهل مصر و يباعدونه فينصرف عنهم إلى الشام ثم ذكر تقدميه الأمراء من العرب رجل من حضرموت و لرجل من خزاعة و لرجل من عيس و لرجل من ثعلبة و ذكر عجائب و أن جيشه الذي يخسف بهم تبتلعهم الأرض إلى أعناقهم و تبقى رؤوسهم خارجة و يبقى جميع خيلهم و أموالهم و أثقالهم و خزائهم و جميع مضارهم و السبي على حاله إلى أن يبلغ الخبر الخارج بمكة و اسمه محمد بن علي من ولد السيط الأكبر الحسن بن علي فيطوي الله تعالى له الأرض فيبلغ البيداء من يومه فيجد القوم أبادهم داخله في الأرض و رؤوسهم خارجة و هم أحياء فيحمد الله عز و جل هو و أصحابه و ينتحبون بالبكاء و يدعون الله عز و جل و يسبحونه و يمدونه على حسن صنيعه إليهم و يسألونه تمام النعمة و العافية فتبلغهم الأرض من ساعتهم يعني أصحاب السفياي و يجد الحسنى العسكر على حاله و السبي على حاله و ذكر أشياء كثيرة الله أعلم بصحتها أخذها من كتاب دانيال فيما زعم

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : و دانيال نبي من أنبياء إسرائيل كلامه عبراني و هو على شريعة موسى بن عمران و كان قبل عيسى بن مريم بزمان و من أسند مثل هذا إلى نبي عن غير ثقة أو توقيف من نبينا صلى الله عليه و سلم فقد سقطت عدالته إلا أن يبين وضعه لتصح أمانته و قد ذكر في هذا الكتاب من الملاحم و ما كان من الحوادث و سيكون و جمع فيه التنافي و التناقض بين الضب و النون و أغرب فيما أغرب في روايته عن ضرب من الهوس و الجنون و فيه من الموضوعات ما يكذب آخرها أولها و يتعذر على المتأول لها تأويلها و ما يتعلق به جماعة الزنادقة من تكذيب الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه و سلم أن في سنة ثلاثمائة يظهر الدجال من يهودية أصبهان و قد طعنا في أوائل سبعمائة في هذا الزمان و ذلك شيء ما وقع و لا كان و من الموضوع فيه المصنوع و التهافت الموضوع الحديث الطويل الذي استفتح به كتابه فهلا اتقى الله و خاف عقابه و أن من أفصح فضيحة في الدين نقل مثل هذه الاسرائيليات عن المتهودين فإنه لا طريق فيما ذكر عن دانيال إلا عنهم و لا رواية تؤخذ في ذلك إلا منهم

و قد روى البخاري في تفسير سورة البقرة [عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا]

و قد ذكر في كتاب الاعتصام أن ابن عباس قال : كيف تسألونه أهل الكتاب عن شيء و كتابكم الذي أنزله الله على رسوله أحدث شيء تقرؤونه محضا لم يشب و قد حدثكم أهل الكتاب بدلوا كلام الله و غيره و قد كتبوا بأيديهم الكتاب و قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم لا و الله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم

قال ابن دحية رضي الله عنه : و كيف يؤمن من خان الله و كذب عليه و كفر و استكبر و فجر و أما حديث الدابة فقد نطق بخروجها القرآن و وجب التصديق بها و الإيمان قال الله تعالى { و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم } و كنت بالأندلس قد قرأت أكثر من كتب المقرئ الفاضل أبي عمر عثمان بن سعيد بن عثمان توفي سنة أربع و أربعين و أربعمائة فمن تأليفه : كتاب السنن الواردة بالفتن و غوائلها و الأزمنة و فسادها و الساعة و أشراطها و هو مجلد مزج فيه الصحيح بالسقيم و لم يفرق فيه بين نسر و ظلم و

أتى بالموضوع و أعرض عما ثبت من الصحيح المسموع فذكر الدابة في الباب الذي نصه باب ما روي أن الواقعة التي تكون بالزوراء و ما يتصل بها من الوقائع و الآيات و الملاحم و الطوام و أسند ذلك [عن عبد الرحمن عن سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن ربيعي بن خدّاش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم تكون وقعة بالزوراء قالوا يا رسول الله و ما الزوراء ؟ قال : مدينة بالمشرق بين أنهارها يسكنها شرار خلق الله و جبابرة من أمّتي تعذب بأربعة أصناف من العذاب ثم ذكر حديث خروج السفيناني في ستين و ثلاثمائة راكب حتى يأتي دمشق ثم ذكر خروج المهدي قال و اسمه أحمد بن عبد الله و ذكر خروج الدابة قال : قلت يا رسول الله : و ما الدابة ؟ قال : ذات وبر و ريش عظمها ستون ميلا ليس يدركها طالب و لا يفوقها هارب و ذكر يأجوج و مأجوج و أنهم ثلاثة أصناف : صنف مثل الأرز الطوال و صنف آخر منهم عرضه و طوله سواء عشرين و مائة ذراع في عشرين و مائة ذراع في عشرين و مائة ذراع هم الذين لا يقوم لهم الحديد و صنف يفترش إحدى أذنيه و يلتحف بالأخرى] و هذه الأسانيد عن حذيفة في عدة أوراق ظاهرة الوضع و الاختلاف و فيها ذكر مدينة يقال لها [المقاطع] و هي على البحر الذي لا يحمل جارية قال لأنه ليس له قعر إلى أن قال حذيفة قال عبد الله بن سلام : و الذي بعثك بالحق إن صفة هذه في التوراة طولها ألف ميل و عرضها خمسمائة ميل قال : [لارسل الله صلى الله عليه و سلم لها ستون و ثلاثمائة باب يخرج من كل باب منها مائة ألف مقاتل] قال الخطاف أبو الخطاب رضي الله عنه : و نحن نرغب عن تسويد الورق بالموضوعات فيه و نثبت الصحيح الذي يقربنا من إله الأرضين و السموات فعبد الرحمن الذي يرويه عن الثوري هو ابن هاني أبو نعيم النخعي الكوفي قال يحيى بن معين : كذاب و قال أحمد : ليس بشيء و قال ابن عدي : عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه و قد رواه عن الثوري عمر بن يحيى بالسند المذكور آنفا و قال : [تعذب بأربعة أصناف بخسف و مسح و قذف] قال البرقاني و لم يذكر الرباع و عم ابن يحيى متروك الحديث و قد روى حديث الزوراء محمد بن زكريا الغلابي و أسند [عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : أما أن هلاكها على يد السفيناني كأني و الله بما قد صارت خاوية على عروشها] و محمد بن زكريا الغلابي قال أبو الحسن الدارقطني : كان يضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه و سلم و عظم هذه الدابة المذكورة و طول يأجوج و مأجوج على تلك الصورة يدل على وضع هذا الحديث بالتصريح و يقطع العاقل بأنه ليس بصحيح لأنه مثل هذا القدر في العظم و الطول يشهد على كذب واضعه في المنقول و أي مدينة تسع طرفاتها دابة عرضها ستون ميلا ارتفاعا و أي سبيل يضم يأجوج و مأجوج و أحدهم طولاً و عرضاً مائتان و أربعون ذراعاً لقد اجترأ هذا الفاسق على الله العزيز الجبار بما اختلقه على نبيه المختار فقد صح عنه ياجماع من أئمة الآثار أنه قال : [من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ثم يطرق إلينا تكذيب اليهود لنا فيما نقلناه عن توراتهم و يكذبوننا بسبب ذلك في كل حال]

مسلم [عن أم سلمة و سئلت عن الجيش الذي يخسف به و كان ذلك في أيام ابن الزبير فقالت قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يعوذ بالبيت عائد فيبعث إليه بعث فإذا كانوا يبدياء من الأرض خسف بهم فقلت يا رسول الله : و كيف بما كان كارها ؟ قال : يخسف به معهم و لكنه يبعث يوم القيامة على نبيته] و قال أبو جعفر : هي بدياء المدينة و قال عبد العزيز بن رفيع : إنما قال بدياء من الأرض قال كلا إنها و الله لبدياء المدينة [و عن عبد الله بن صفوان قال : أخبرني حفصة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول ليؤمن هذا

الله عليه يصلي خلفه في طول من قصته و أمره
قلت : و يحتمل أن يكون قوله عليه الصلاة و السلام : [و لا مهدي إلا عيسى] أي لا مهدي كاملا معصوما
إلا عيسى و على هذا تجتمع الأحاديث و يرتفع التعارض

باب منه في المهدي و من أين يخرج و في علامة خروجه و أنه يبائع مرتين و

يقاتل السفياي و يقتله

تقدم من حديث أم سلمة و أبي هريرة أن المهدي يبائع بين الركن و المقام و ظاهر أنه لم يبائع و ليس كذلك فإنه
روي من حديث ابن مسعود و غيره من الصحابة أنه يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى يمشي النصر بين
يديه أربعين ميلا رايته بيض و صفر فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب : فلا تهزم له راية و قيام هذه
الرايات و انبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له ماسنة من قبل المغرب فيعقد هذه الرايات مع قوم قد أخذ
الله لهم ميثاق النصر و الظفر { أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون } الحديث بطوله و فيه : []
فيأتي الناس من كل جانب و مكان فيبايعونه يومئذ بمكة و هو بين الركن و المقام و هو كاره لهذه المبايعة الثانية
بعد البيعة الأولى التي بايعه الناس بالمغرب ثم إن المهدي يقول : أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدو الله و عدوكم
فيجيئونه و لا يعصون له أمرا فيخرج المهدي و من معه من المسلمين من مكة إلى الشام لخاربة عروة بن محمد
السفياي و كل من معه من كلب ثم يتبدد جيشه ثم يوجد عروة السفياي على أعلى شجرة و على بحيرة طبرية
و الخائب من خاب يومئذ من قتال كلب و لو بكلمة أو بتكبيرة أو بصيحة []

فيروي [عن حذيفة أنه قال : قلت يا رسول الله : كيف يجل قتلهم و هم مسلمون موحدون ؟ فقال النبي
صلى الله عليه و سلم : إنما إيمانهم على ردة لأنهم خوارج و يقولون برأيهم إن الخمر حلال و مع ذلك إنهم
يجاربون الله قال الله تعالى : { إنما جزاء الذين يجاربون الله و رسوله و يسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو
يصلبوا أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا و لهم في الآخرة
عذاب عظيم } [] و ذكر الحديث و سياقي تمامه

و خبر السفياي خروجه عمرو بن عبيد في مسنده و الله أعلم

و روى من حديث [معاوية بن أبي سفيان في حديث فيه طول عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : ستفتح
بعدي جزيرة تسمى بالأندلس فتغلب عليهم أهل الكفر فيأخذون من أموالهم و أكثر بلدهم و يسبون نساءهم
و أولادهم و يهتكون الأستار و يخربون الديار و يرجع أكثر البلاد فيافي و قفارا و تنجلي أكثر الناس عن
ديارهم و أموالهم فيأخذون أكثر الجزيرة و لا يبقى إلا أقلها و يكون في المغرب المهرج و الخوف و يستولي
عليهم الجوع و الغلاء و تكثر الفتنة و يأكل الناس بعضهم بعضا فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من
أهل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو المهدي القائم في آخر الزمان و هو أول أشراط الساعة
[]

قلت : كل ما وقع في حديث معاوية هذا فقد شاهدنا بتلك البلاد و عاينا معظمه إلا خروج المهدي

و يروي من حديث شريك أنه بلغه أن قبل خروج المهدي تكسف الشمس في رمضان مرتين و الله أعلم

و ذكر الدراقطني في سننه قال : حدثنا أبو سعيد الإصطخري قال : حدثني محمد بن عبد الله بن نوفل حدثنا

عبيد بن يعيش حدثنا يونس بن بكير عن عمر بن شمر عن جابر عن محمد بن علي قال : إن المهدينا آيتين لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض ينكسف القمر لأول ليلة من رمضان و تنكسف الشمس في النصف منه و لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض

باب ما جاء أن المهدي يملك جبل الديلم و القسطنطينية و يستفتح رومية و

أنطاكية و كنيسة الذهب و بيان قوله تعالى فإذا جاء وعد أولاهما الآية
ابن ماجه [عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوله عز و جل حتى يملك رجل من أهل بيتي جبل الديلم و القسطنطينية] إسناده صحيح
و روى [من حديث حذيفة عن النبي و فيه بعد قوله { ذلك لهم خزي في الدنيا و لهم في الآخرة عذاب عظيم } ثم إن المهدي و من معه من المسلمين يأتون إلى مدينة أنطاكية و هي مدينة عظيمة على البحر فيكبرون عليها ثلاثة تكبيرات فيقع سورها من البحر بقدره الله عز و جل فيقتلون الرجال و يسبون النساء و الأطفال و يأخذون الأموال ثم يملك المهدي أنطاكية و يبني فيها المساجد و يعمر عمارة أهل الإسلام ثم يسرون إلى الرومية و القسطنطينية و كنيسة الذهب فيقتحمون القسطنطينية و رومية و يقتلون بها أربعمئة ألف مقاتل و يفتضون بها سبعين ألف بكر و يستفتحون المدائن و الحصون و يأخذون الأموال و يقتلون الرجال و يسبون النساء و الأطفال و يأتون كنيسة الذهب فيجدون فيها الأموال التي كان المهدي أخذها أول مرة و هذه الأموال هي التي أودع فيها ملك الروم قيصر حين غزا بيت المقدس فوجد في بيت المقدس هذه الأموال فأخذها و احتملها على سبعين ألف عجلة إلى كنيسة الذهب بأسرها كاملة كما أخذها ما نقص منها شيئاً فأخذ المهدي تلك الأموال فبردها إلى بيت المقدس قال حذيفة قلت يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيماً الخطر العظيم القدر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هو من أجل البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب و فضة و در و ياقوت و زمرد و ذلك أن سليمان بن داود سخر الله له الجن فأتوه بالذهب و الفضة من المعادن و أتوه بالجواهر و الياقوت و الزمرد من البحار يغوصون كما قال الله تعالى { كل بناء و غواص } فلما أتوه بهذه الأصناف بناه منها فجعل فيه بلاطاً من ذهب و بلاطاً من فضة و أعمدة من ذهب و أعمدة من فضة و زينه بالدر و الياقوت و الزمرد و سخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف قال حذيفة : فقلت يا رسول الله و كيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن بني إسرائيل لما عصوا و قتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بخت نصر و هو من الجوس فكان ملكه سبعمئة سنة و هو قوله تعالى { فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار و كان وعدا مفعولاً } فدخلوا بيت المقدس و قتلوا الرجال و سبوا النساء و الأطفال و أخذوا الأموال و جميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف و احتملوها على سبعين ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل و أقاموا يستخدمون بني إسرائيل و يستملكونهم بالخزي و العقاب و النكال مائة عام ثم إن الله عز و جل رحمهم فأوحى الله إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى الجوس في أرض بابل يستنقذ ما في أيديهم من بني إسرائيل فسار إليهم ذلك الملك حتى ذلك أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي الجوس و استنقذ ذلك الحلى الذي كان في بيت المقدس و رده إليه كما كان أول مرة و قال لهم يا بني إسرائيل : إن عدمتم

إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي و القتل و هو قوله تعالى { عسى ربكم أن يرحمكم و إن عدتم عدنا } يعني إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالعقوبة فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر و هو قوله تعالى : { فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا } فغزاهم في البر و البحر فسبقتهم و قتلهم و أخذ أموالهم و نساءهم و أخذ حلى جميع بيت المقدس و احتمله على سبعين ألف عجلة حتى أودعه كنيسة الذهب فهو فيها إلى الآن حتى يأخذه المهدي و يرده إلى بيت المقدس و يكون المسلمون ظاهرين على أهل الشرك فعند ذلك يرسل الله عليهم ملك الروم و هو الخامس من آل هرقل [على ما تقدم من تمام الحديث و الله أعلم

باب ما جاء في فتح القسطنطينية من أين تفتح و فتحها علامة خروج الدجال و

نزول عيسى عليه السلام و قتله إياه

مسلم [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا و بين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون : لا و الله لا نخلي بينكم و بين الذين هم إخواننا فيقاتلهم فيهزم الثلث لا يتوب الله عليهم أبدا و يقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله و يفتح الثلث لا يفتنون أبدا فيفتحون القسطنطينية فيبينما هم يقتسمون الغنائم و قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهلكم فيخرجون و ذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فيبينما هم يعدون للقتال و يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى بن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك و لكن يقتله الله بيده فير بهم دمه في حربته]

و خرج ابن ماجه قال : [حدثنا علي بن ميمون الرقي قال : حدثنا يعقوب الحنيني عن كثير بن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يكون أدنى مسالح المسلمين ببولاء ثم قال يا علي يا علي يا علي ثم قال يا بني قال : إنكم ستقاتلون بني الأصفر و يقاتلهم الذين من بعدكم حتى يخرج إليهم روقة الإسلام أهل الحجاز الذين لا يخافون في الله لومة لائم ثم فيفتحون قسطنطينية بالتسيح و التكبير فيصيبون غنائم لم يصيبوا مثلها حتى يقتسموا بالأتربة فيأتي آت فيقول إن المسيح قد خرج إلى بلادكم ألا و هي كذبة فالأخذ نادم و التارك نادم]

و خرج مسلم [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : سمعت بمدينة جانب منها في البر و جانب منها في البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها ألفا من بني إسحاق فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح و لم يرموا بسهم قالوا لا إله إلا الله و الله أكبر فيسقط أحد جانبيها قال ثور لا أعلمه قال إلا الذي في البحر ثم يقولون الثانية لا إله إلا الله و الله أكبر فيسقط جانبها الآخر ثم تقول الثالثة لا إله إلا الله و الله أكبر فيفرج لهم فيدخلونها فيغنمون فيبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء و يرجعون]

الترمذي عن أنس قال : فتح القسطنطينية مع قيام الساعة هكذا رواه موقوفا و قال حديث غريب و القسطنطينية مدينة الروم و تفتح عند خروج الدجال و القسطنطينية قد فتحت في زمن بعض أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم

قلت : هو عثمان بن عفان ذكر الطبري في التاريخ له ثم دخلت سنة سبع و عشرين ففيها كان فتح أفريقية على يد عبد الله بن أبي سرح و ذلك أن عثمان رضي الله عنه لم ولي عمرو بن العاص على عمله بمصر كان لا يعزل أحدا إلا عن شكاية و كان عبد الله بن أبي سرح من جند عثمان فأمره عثمان رضي الله عنه على الجند و رماه بالرجال و سرحه إلى أفريقية و سرح معه عبد الله بن نافع بن قيس و عبد الله بن نافع بن الحصين الفهري فلما فتح عبد الله أفريقية خرج عبد الله و عبد الله إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر و كتب إلى عثمان رضي الله عنه إلى من انتدب إلى الأندلس :

أما بعد : فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس و إنكم إن افتتحتها كنتم شركاء في الآجر فيقال إنما فتحت في تلك الأزمان و ستفتح مرة أخرى كما في أحاديث هذا الباب و الذي قبله و قد قال بعض علماءنا : أن حديث أبي هريرة أول الباب يدل على أنها تفتح بالقتال و حديث ابن ماجه يدل على خلاف ذلك مع حديث أبي هريرة و الله أعلم

قلت : لعل فتح المهدي يكون لها مرتين مرة بالقتال و مرة بالتكبير كما أنه يفتح كنيسة الذهب مرتين فإن المهدي إذا خرج بالمغرب على ما تقدم جاءت إليه أهل الأندلس فيقولون يا ولي الله : انصر جزيرة الأندلس فقد تلفت و تلفت أهلها و تغلب عليها أهل الكفر و الشرك من أبناء الروم فيبعث كتبه إلى جميع قبائل المغرب و هم قزولة و خذالة و قذالة و غيرهم من القبائل من أهل المغرب أن انصروا دين الله و شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون إليه من كل مكان و يجيونه و يقفون عند أمره و يكون على مقدمته صاحب الخرطوم و هو صاحب الناقة الغراء و هو صاحب المهدي و ناصر دين الإسلام و ولي الله حقا فعند ذلك يباعونه ثمانون ألف مقاتل بين فارس و راجل قد رضي الله عنهم { أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون } فباعو أنفسهم لله و الله ذو الفضل العظيم فيعبرون البحر حتى ينتهوا إلى حمص و هي إشبيلية فيصعد المهدي المنبر في المسجد الجامع و يخطب خطبة بليغة فيأتي إليه أهل الأندلس فيبايعه جميع من بها من أهل الإسلام ثم يخرج بجميع المسلمين متوجها على البلاد بلاد الروم فيفتح فيها سبعين مدينة من مدائن الروم يخرجه من أيدي العدو عنوة الحديث و فيه : ثم إن المهدي و من معه يصلون إلى كنيسة الذهب فيجدون فيها أموالا فأخذها المهدي فيقسمها بين الناس بالسوية ثم يجد فيها تابوت السكينة و فيها غفارة عيسى و عصا موسى عليهما السلام و هي العصا التي هبط بها آدم من الجنة حين أخرج منها و كان قيصر ملك الروم قد أخذها من بيت المقدس في جملة السبي حين سبي بيت المقدس و احتمل جميع ذلك إلى كنيسة الذهب فهو فيها إلى الآن حتى يأخذها المهدي فإذا أخذ المسلمون العصا تنازعوا عليها فكل منهم يريد أخذ العصا فإذا أراد الله تمام أهل الإسلام من الأندلس خذل الله رأيهم و سلب ذوي الألباب عقولهم فيقسمون العصا على أربعة أجزاء فأخذ كل عسكر منهم جزءا و هم يومئذ أربعة عساكر و إذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم الظفر و النصر و وقع الخلاف في ذلك بينهم قال كعب الأحبار : و يظهر عليهم أهل الشرك حتى يأتوا البحر فيبعث إليهم ملكا في صورة إبل فيجوز بهم القنطرة التي بناها ذو القرنين لهذا المعنى خاصة فيأخذ الناس وراءه حتى يأتوا إلى مدينة فارس و الروم و وراءهم فلا يزالون كذلك كلما ارتحل المسلمون مرحلة ارتحل المشركون كذلك حتى يأتوا إلى أرض مصر و الروم وراءهم و في حديث حذيفة و يتملكون مصر إلى الفيوم ثم يرجعون و الله تعالى أعلم

باب أشرطة الساعة وعلاماتها

فأما وقتها فلا يعملها إلا الله و في حديث جبريل : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل الحديث خرج مسلم
و كذلك روى الشعبي قال : لقي جبريل عيسى عليه السلام فقال له عيسى : متى الساعة ؟ فانتفض جبريل
عليه السلام في أجنحته و قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ثقلت في السموات و الأرض لا تأتكيم إلا
بغثة

و ذكر أبو نعيم [من حديث مكحول عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم للساعة أشرطة
قيل : و ما أشرطةها ؟ قال : علو أهل الفسق في المساجد و ظهور أهل المنكر على أهل المعروف قال أعرابي :
فم تأمري يا رسول الله ؟ قال : دع و كن حلسا من أحلاس بيتك] غريب من حديث مكحول لم نكتبه إلا من
حديث حمزة النصيبي عن مكحول

فصل

قال العلماء رحمهم الله تعالى : و الحكمة في تقديم الأشرطة و دلالة الناس عليها تنبيه الناس من رقدتهم و حنهم
على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة و الإنابة كي لا يباغتوا بالحول بينهم و بين تدارك العوارض منهم فينبغي للناس
أن يكونوا بعد ظهور أشرطة الساعة قد نظروا لأنفسهم و انقطعوا عن الدنيا و استعدوا للساعة الموعود بها و
الله أعلم و تلك الأشرطة علامة لانتهاء الدنيا و انقضائها فمنها : خروج الدجال و نزول عيسى و قتله الدجال
و منها خروج يأجوج و مأجوج و دابة الأرض و منها طلوع الشمس من مغربها هذه هي الآيات هذه هي
الآيات العظام على ما يأتي بيانه و أما ما يتقدم من هذه قبض العلم و غلبة الجهل و استيلاء أهله و بيع الحكم و
ظهور المعازف و استفاضة شرب الخمر و اكتفاء النساء و الرجال بالرجال و إطالة البنيان و زخرفة المساجد
و إمارة الصبيان و لعن آخر هذه الأمة أولها و كثرة الهرج فإمّا أسباب حادثة و رواية الأخبار المنذرة بما بعدما
صار الخبر بما عيانا تكلف لكن لا بد من ذكرها حتى يوقف عليها و يتحقق بذلك معجزة النبي صلى الله عليه و
سلم و صدقه في كل ما أخبر به صلى الله عليه و سلم

باب قول النبي صلى الله عليه و سلم : بعثت أنا و الساعة كهاتين

مسلم [عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بعثت أنا و الساعة كهاتين و ضم السبابة و
الوسطى

و روي من طرق أخرجه البخاري و مسلم و الترمذي و ابن ماجه رضي الله عنهم و معناها كلها على
اختلاف ألفاظها تقرب من الساعة التي هي القيامة و سرعة مجيئها و هذا كما حدثنا الله تعالى { فقد جاء
أشراطها } و قوله { و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر } و قوله تعالى :

{ اقترب للناس حسابهم } و قوله تعالى : { اقتربت الساعة و انشق القمر } و قال : { أتى أمر الله فلا
تستعجلوه } [

[و يروي أن النبي صلى الله عليه و سلم لما أنزل عليه قوله تعالى { أتى أمر الله } و ثبت فلما أنزل { تستعجلوه
{ جلس] قال بعض العلماء إنما وثب عليه الصلاة و السلام خوفا منه أن تكون الساعة قد قامت و قام
الضحاك و الحسن : أول أشرطةها محمد صلى الله عليه و سلم و روى موسى ابن جعفر عن جعفر بن محمد عن

أبيه عن جده قال علي عليه السلام : من اقترب الساعة ظهور البواسير وموت الفجاءة
فصل

إن قيل ثبت [أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن الساعة فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من
السائل] الحديث فهذا يدل على أنه لم يكن عنده علم ورويت عنه أنه قال [بعثت أنا والساعة كهاتين] و
هذا يدل على أنه كان عالماً فكيف يتألف الخبران ؟ قيل له قد نطق القرآن بقوله الحق { قل إنما علمها عند ربي
{ الآية فلم يكن يعلمها هو ولا غيره وأما قوله [بعثت أنا والساعة كهاتين] فمعناه أنا النبي الأخير فلا
يليني نبي آخر وإنما تليني القيامة كما تلي السبابة الوسطى وليس بينهما أصعب أخرى وهذا لا يوجب أن
يكون له علم بالساعة نفسها وهي مع ذلك كائنة لأن أشراتها متتابعة وقد ذكر الله الأشراف في القرآن فقال
{ فقد جاء أشراتها } أي دنت وأولها النبي صلى الله عليه وسلم لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بيني
وبين القيامة نبي ثم بين صلى الله عليه وسلم ما يليه من الأشراف فقال : [أن تلد الأمة ربتها] إلى غير ذلك
مما سنذكره ونبينه بحول الله تعالى في أبواب إن شاء الله تعالى

باب أمور تكون بين يدي الساعة

البخاري [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان
يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه
رسول الله وحتى يقبض العلم ويكثر الزلازل ويتقارب الزمان ويظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل وحتى
يكثر فيكم المال فيفيض وحتى يهمل رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب
لي فيه وحتى يتناول الناس في البنيان وحتى يمر الرجل يقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه وحتى تطلع
الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين { لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو
كسبت في إيمانها خيراً } ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقوم الساعة
وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه — ولتقوم
الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها]

فصل قال علماؤنا رحمة الله عليهم : هذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد ولم يبق بعد هذا
ما ينظر فيه من العلامات والأشراط في عموم إنذار النبي صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وتغيير الدين و
ذهاب الأمانة ما يغني عن ذكر التفاصيل الباطلة والأحاديث الكاذبة في أشراف الساعة ومن ذلك حديث ما
رواه قتادة [عن أنس بن مالك عن رسول الله : أن في سنة مائتين يكون كذا وكذا وفي العشر والمائتين
يكون كذا وكذا وفي العشرين كذا وفي الثلاثين كذا وفي الأربعين كذا وفي الخمسين كذا وفي الستين و
المائتين تعتكف الشمس ساعة فيموت نصف الجنة والإنس] فهل كان هكذا وقد مضت هذه المدة وهذا
شيء يعم وسائر الأمور التي ذكرت قد تكون في بلدة وتخلو منه أخرى فهذا عكوف الشمس لا يخلو منه أحد
في شرق ولا غرب فإن كان المائتين من الهجرة فقد مضت وإن كان من موت النبي صلى الله عليه وسلم فقد
مضت وأيضاً دلالة أخرى على أنه مفتعل أن التاريخ لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما
وضعه على عهد عمر رضي الله عنه فكيف يجوز هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال في

سنة مائتين أو سنة عشرين و مائتين و لم يكن وضع شيء من التاريخ ؟
و كذلك ما روى [عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم : إذا كانت سنة تسع و تسعين و
خمس مائة يخرج المهدي في أمتي على خلاف من الناس يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا و ظلما يرضى عنه
ساكن السماء و ساكن الأرض و يفتح الله له كنوز الأرض و تنزل السماء قطرها و تخرج الأرض ثمرها و
يزرع الزارع في الأرض صاعا فيصيب مائة صاع و يذهب الغلاء و القحط و الجوع عن الناس و يجوز إلى
الأندلس و يقيم فيها و يملكها تسع سنين و يستفتح فيها سبعين مدينة من مدائن الروم و يغنم رومية و كنيسة
الذهب فيجد فيها تابوت السكينة و فيها غفارة عيسى و عصا موسى عليهما السلام فيكسرون العصا على
أربعة أجزاء فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم النصر و الظفر و يخرج عليهم ذو العرف في مائة ألف مقاتل بعد أن
يتحالف الروم أنهم لا يرجعون أو يموتون فينهزم المسلمون حتى يأتوا سرقسطة البيضاء فيدخلوها بإذن الله تعالى
و يكرم الله من فيها بالشهادة و لا يكون للمسلمين بعد خراب سرقسطة سكنى و لا قرار بالأندلس و ينتهون
إلى قرطبة فلا يجدون فيها أحدا لما أصاب الناس من شدة الفزع من الروم يهربون من الأندلس يريدن العدو
فإذا اجتمعوا على ساحل البحر ازدحموا على المراكب فيموت منهم خلق كثير فينزل الله إليهم ملكا في صورة
إبل فينجو من نجا و غرق من غرق]

قلت : كل ما جاء في هذا الحديث المذكور في حديث حذيفة و غيره و إنما المنكر فيملك الروم و الأندلس إلى
خروج الدجال

و منه تعيين التاريخ و قد كان سنة و تسعين و خمسمائة و لم يكن شيء من ذلك بل كان بالأندلس تلك السنة
و قعة الأرك التي أهلكت الله فيها الروم و لم يزل المسلمون في نعمة و سرور إلى سنة تسع و ستمائة فكانت فيها
و قعة العقاب هلك فيها كثير من المسلمين و لم يزل المسلمون في تلك الوقعة بالأندلس يرجعون القهقري إلى أن
استولى عليهم العدو و غلبهم بالفتن الواقعة بينهم و التفصيل يطول و لم يبق الآن من الأندلس إلا اليسير فتعود
بالله من الفتن و الخذلان و المخالفة و العصيان و كثرة الظلم و الفساد و العدوان و الذي ينبغي أن يقال به في
هذا الباب أن ما أخبر به النبي صلى الله عليه و سلم من الفتن و الكوائن أن ذلك يكون و تعيين الزمان في ذلك
من سنة كذا و يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر و إنما ذلك كوقت قيام الساعة فلا يعلم أحد أي سنة هي و
لا أي شهر إما أنها تكون في يوم جمعة في آخر ساعة منه و هي الساعة التي خلق فيها آدم عليه السلام و لكن
أي جمعة لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله و حده لا شريك له و كذلك ما يكون من الأشراف تعيين الزمان لها لا
يعلم و الله أعلم

و قد سمعت من بعض أصحابنا : أنا ما وقع من التاريخ [في حديث أبي سعيد الخدري إنما ذلك بعد المائة التي
قال النبي صلى الله عليه و سلم إن يعيش هذا الغلام فعس هذا أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة] و في
رواية : قال أنس ذلك الغلام من أترابي يومئذ خرج مسلم
و في حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [ما على الأرض نفس منقوسة يعني اليوم يأتي
عليها مائة سنة]

قال أبو عيسى : هذا الحديث حسن صحيح
و معلوم أن أنس توفي في عشر المائة بالبصرة فعلى هذا يكون سنة سبع و تسعين و ست مائة و هذا لم يجيء بعد

فالله تعالى أعلم

قال المؤلف رحمه الله : و بحديث أبي سعيد الخدري و ابن عمر و جابر استدل من قال إن الخضر ميت ليس بحي و قال الثعالبي في كتاب العرائس : و الخضر على جمع الأقوال نبي معمر محجوب عن الأبصار و ذكر عمرو بن دينار قال : إن الخضر و إلياس لا يزالان يحييان في سورة فإذا رفع القرآن ماتا و هذا هو الصحيح في الباب على ما بيناه في سورة الكهف من كتاب جامع أحكام القرآن و الحمد لله
فصل

و أما الثلاث عشرة خصلة : فقد ظهر أكثرها من ذلك قوله عليه الصلاة و السلام [لا تقوم الساعة حتى يقتتل فنتان عظيمتان دعواهما واحدة] يريد فيه معاوية و عليا كرم الله وجهه بصفين و قد تقدم الإشارة إليهما قال القاضي أبو بكر بن العربي و هذا أول خطب طرق في الإسلام قلت : بل أول أمر دهم الإسلام موت النبي صلى الله عليه و سلم ثم بعده موت عمر فموت النبي صلى الله عليه و سلم انقطع الوحي و ماتت النبوة و كان أول أظهر الشر بارتداد العرب و غير ذلك و كان أول انقطاع الخير و أول نقصانه قال أبو سعيد : ما نقصنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أنكرنا قلوبنا

و قال أبو بكر الصديق في آيات يرثي بها النبي صلى الله عليه و سلم :

(فلتحدثن حوادث من بعده ... تعنى بمن جوانح و صدور)

و قالت صفية بنت عبد المطلب في آيات ترثي بها النبي صلى الله عليه و سلم :

(لعمرك ما أبكي النبي لفقده ... و لكن ما أخشى من المهرج آتيا)

و بموت عمر سل سيف الفتنة و قتل عثمان و كان من قضاء الله و قدره ما يكون و كان على ما تقدم و قوله : حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين

الدجال ينطلق في اللغة على أوجه كثيرة يأتي ذكرها أحدها الكذاب كما جاء في هذا الحديث

و صحيح مسلم : [يكون في آخر الزمان دجالون كذابون] الحديث و لا يجمع ما كان على فعال جمع

التكسير عند الجماهير من النحويين لئلا يذهب بناء المبالغة منه فلا يقال إلا دجالون كما قال عليه الصلاة و

السلام [و إن كان قد جاء مكسرا] و هو شاذ أنشد سيبويه لابن مقبل :

(إلا الإفادة فاستولت ركائبنا ... عند الجبابير بالبأساء و النقم)

و قال مالك بن أنس في محمد بن إسحاق إنما هو دجال من الدجاجلة نحن أخرجناه من المدينة قال عبد الله بن إدريس الأودي : و ما عرفت أن دجالا يجمع على دجالة حتى سمعتها من مالك بن أنس

و قوله : قريب من ثلاثين قد جاء عددهم معينا في حديث حذيفة قال : قال رسول الله : [تكون في أمتي

دجالون كذابون سبعة و عشرون منهم أربع نسوة و أنا خاتم النبيين و لا نبي بعدي] خرج أبو نعيم الحافظ و

قال : هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام و وجد في كتابه بخط أبيه حدث به أحمد بن حنبل عن علي

بن المديني

و قال القاضي عياض : هذا الحديث قد ظهر فلو عد من تنبأ من زمي النبي إلى الآن ممن أشهر بذلك و عرف و

اتبه جماعة على ضلالته لوجد هذا العدد فيهم و من طالع كتاب الأخبار و التواريخ عرف صحة هذا

وقوله : حتى يقبض العلم فقد قبض العمل به و لم يبق إلا رسمه على ما يأتي بيانه و قوله : و تكثر الزلازل فقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي أنه وقع منها بعراق العجم كثير و قد شاهدنا بعضها بالأندلس و سيأتي وقوله : و يتقارب الزمان قيل : المعنى يتقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر كما هو اليوم لغلبة الفسق و ظهور أهله و في الحديث : لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا فإذا تساوا هلكوا يعني لا يزالون بخير ما كان فيهم أهل فضل و صلاح و خوف الله عز و جل يلجأ إليهم عند الشدائد و يستقسي بآرائهم و يتبرك بدعائهم و آثارهم و قيل : غير هذا حسب ما تقدم في باب لا يأتي زمان إلا و الذي بعده شر منه

وقوله : حتى يكثر فيكم المال فيفيض و حتى يهيم رب المال من يقبل صدقته هذا مما لم يقع بل يكون على ما يأتي و رب مفعول يهيم و من يقبل فاعل يهيم يقال : أهمني ذلك الأمر أحزني و أقلقني و همه يهيمه إذا بالغ في ذلك و قوله : حتى يتناول الناس في البنيان هذا مشاهد في الوجوه مشاهدته تغني عن الكلام فيه و قوله : حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ذلك لما يرى من عظيم البلاء و ربح الأعداء و غبن الأولياء و رئاسة الجهلاء و تحول العلماء و استيلاء الباطل في الأحكام و عموم الظلم و الجهر بالمعاصي و استيلاء الحرام على أموال الخلق و التحكم في الأبدان و الأموال و الأعراض بغير حق كما في هذا الزمان و قد تقدم أول الكتاب حديث أبي عيسى الغفاري عن النبي صلى الله عليه و سلم [بادروا بالأعمال ستا] الحديث و روى الأعمش سليمان بن مهران عن عمرو بن مرة عن أبي نضرة عن عبد الله بن الصامت قال : قال أبو ذر رضي الله عنه : يوشك أن يأتي على الناس زمان يغبط فيه خفيف الحاذ كما يغبط اليوم أبو عشرة و يغبط الرجل باختفائه عن السلطان و جفائه عنه كما يغبط اليوم بمعرفته إياه و كرامته عليه و حتى تمر الجنازة في السوق على الجماعة فينظر إليها الرجل تهتز بهذا رأسه فيقول يا ليتني مكان هذا قال قلت يا أبا ذر : و إن ذلك من أمر عظيم ؟ قال : يا ابن أخي عظيم عظيم

قلت : هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق و تغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق فباعوا الأحكام و رضي بذلك منهم الحكام فصار الحكم مكسا و الحق عكسا لا يوصل إليه و لا يقدر عليه بدلوا دين الله و غيروا حكم الله سماعون للكذب أكالون للسحت } و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } و { الظالمون } و { الفاسقون } في الكفار خاصة كلها و قيل عامة فيمن بدل حكم الله و غيره قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله : اليهود و الناصري ؟ قال : فمن] و لقد أحسن ابن المبارك حيث يقول في أبيات له :

(و هل أفسد الدين إلا الملوك ... و أخبار سوء و رهابها)

وقوله : حتى تطلع الشمس من مغربها إلى آخره يأتي القول فيه إن شاء الله تعالى و اللقحة : الناقة العزيزة اللبن و يليط يصلح يقال : لاط حوضه يليط و يلوط ليطا و لوطا إذا لطحه بالطين و أصلحه و الأكلة بضم الهمزة اللقمة فإذا كانت بمعنى المرة الواحدة فهي بالفتح لأنها مصدر و هي المرة الواحدة من الأكل كالضربة من الضرب فأخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعاجله من أمر الساعة ما يمنع من تمام فعله و اقترب من ذلك رفع الأكلة و هي اللقمة إلى فيه فتقوم الساعة دون بلوغها إليه و كذلك القول في المتتابعين من نشر

الثوب و طبه فاعلمه

باب منه

أبو نعيم الحافظ [عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم سيكون في آخر الزمان عباد جهال و قراءة فسقة] هذا حديث غريب من حديث ثابت لم نكتبه إلا من حديث يوسف بن عطية عن ثابت و هو قاض بصري في حديثه نكارة

قلت : صحيح المعنى لما ظهر في الوجود من ذلك و قال مكحول : [يأتي على الناس زمان يكون عالمهم أنتن من جيفة الحمار]

و قد خرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول قال : [حدثنا أبي رحمه الله قال : حدثنا حوشب بن عبد الكريم : حدثنا حماد بن زين عن أبان عن أنس قال : قال رسول الله يكون في آخر زمان ديدان القراء فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم و هم الأنتنون ثم تظهر قلانس البرد فلا يستحي يومئذ من الزنا و المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمرة و المتمسك يومئذ بدينه أجره كأجر خمسين قالوا : منا أو منهم ؟ قال : بل منكم]

و أخرج الدارمي أبو محمد قال : [أخبرنا محمد بن المبارك : حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل قال : سببى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرأونه لا يجدون له شهوة و لا لذة يلبسون جلود الضأن على قلوب الذناب أعمالهم طمع لا يخالطهم خوف إن قصدوا قالوا سنبلغ و إن أساءوا قالوا سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً و قد تقدم في باب { وقودها الناس و الحجارة } حديث العباس بن عبد المطلب و فيه ثم يأتي أقوام يقرأون القرآن فإذا قرأوه قالوا من قرأ منا من أعلم منا ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون في أولئك من خير ؟ قالوا : لا قال أولئك منكم و أولئك من هذه الأمة و أولئك هم وقود النار]

باب منه

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى تضطرب البيات دوس حول ذي الخلصة و كانت صنما تعبدها دوس في الجاهلية]

[و عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لا تذهب الليالي حتى يملك رجل يقال له الجهجاه] في غير مسلم رجل من الموالي يقال له جهجاه فسقط من رواية الجلودي من الموالي و هو خطأ [و عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان بسوق الناس بعصاه] و خرج البخاري و مسلم [عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى]

الترمذي [عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : عليكم بالشام] قال حديث حسن غريب صحيح من حديث ابن عمر البخاري [عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أول أشرار الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب]

الترمذي [عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و الذي نفسي بيده لا تقوم

الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتحتلدوا بأسيا فكم و يرث دنياكم شراركم] قال هذا حديث غريب خرج ابن ماجه أيضا

و ذكر عبد الرزاق قال [أخبرنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه قال فقعد الذئب على تل فأقعى و استقر و قال : عمدت إلى رزق رزقي الله أخذته ثم انتزعتني فقال الرجل بالله إن رأيت كاليوم ذئب يتكلم ! فقال الذئب أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى و ما هو كائن بعدكم قال : فكان الرجل يهوديا فجاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم فأخبره و أسلم فصدقه النبي صلى الله عليه و سلم ثم قال النبي صلى الله عليه و سلم : إنما أمارات بين يدي الساعة قد يوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدته نعلاه و سوطه بما أحدث أهله بعده] و يروى هذا [عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري و فيه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم صدق الراعي إلا أن من أشراط الساعة كلام السباع للإنس و الذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس و حتى تكلم الرجل عذبة سوطه و شراك نعله و تخبره فخذه بحديث أهله بعده]

[الترمذي] عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله و الذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس و حتى يكلم الرجل عذبة سوطه و شراك نعله و تخبره فخذه بما أحدث أهله بعده] قال هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرف إلا من حديث القاسم بن الفضل و القاسم بن الفضل ثقة مأمون قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : حكم أبو عيسى بصحته و نظرنا سنده دون أن نقله فوجدناه له علة قال أبو عيسى : حدثنا سفيان بن وكيع : حدثنا أبي عن القاسم بن الفضل قال : حدثنا أبو نضرة العبدي عن أبي سعيد الخدري فذكره قال ابن دحية : سفيان بن وكيع لم يخرج له البخاري و مسلم حرفا واحدا في صحيحهما و ذلك بسبب وراق كان له يدخل عليه الحديث الموضوع يقال له قرطمة قال البخاري : يتكلمون في سفيان لأشياء لقنوه إياه

و قال أبو محمد بن عدي : كان سفيان إذا لقن يتلقن فهذه علة الحديث التي جهلها أبو عيسى الترمذي مسلم [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا تقوم الساعة حتى يكسر المال و يفيض و حتى يخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه و حتى تعود أرض العرب مروجاً و أنهاراً]

فصل حول ذي الخلصة و الخلصة

ثبت حديث ذي الخلصة في الصحيحين [أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى هذا البيت قال جرير : فنفرت إليها مائة و خمسين من أحبس فكسرناه و قتلنا من وجدنا عنده] قال أبو الخطاب بن دحية : و ذو الخلصة بضم الخاء و اللام في قول أهل اللغة و اليسير و بفتحها قيدناه في الصحيحين و كذا قال ابن هشام و قيده الإمام أبو الوليد الكنائي الواقشي بفتح الخاء و سكون اللام و كذا قال ابن زيد و اختلف فيه فقيل هو بيت أصنام كان لدوس و خنعم و بجيلة و من كان ببلادهم من العرب و قيل : هو صنم كان عمرو بن لحي نصبه بأسفل مكة حتى نصبت الأصنام في مواضع شتى و كانوا يلبسونه القلائد و يعلقون عليه بيض النعام و يذبحون عنده و قيل : ذو الخلصة هي الكعبة اليمانية فكان معناهم في تسميتها بذلك أن عبادة خالصة و المعنى المراد بالحديث أنهم يرتدون و يرجعون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان فترسل نساء دوس

طائفات حوله فترتج أردافهن عند ذلك في آخر الزمان و ذلك بعد موت جميع من قلبه مثقال حبة من إيمان و هو كم جاء في عائشة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [لا تذهب الليالي و الأيام حتى تعبد اللات و العزى] الحديث و سيأتي بكماله

و قوله : يسوق الناس بعصاه كناية عن استقامة الناس و انقيادهم إليه و اتفاهم عليه و لم يرد نفس العصا و إنما ضرب بما مثلاً لطاعتهم له و استيلائه عليهم إلا أن في ذكرها دليلاً على خشونته عليهم و عسفه بهم و قد قيل : إنه يسوقهم بعصاه كما تساق الإبل و الماشية و ذلك لشدة عنفه و عدواه و لعل هذا الرجل القحطاني هو الرجل الذي يقال له الجهجاه و أصل الجهجهة الصياح بالسبع يقال : جهجهت بالسبع أي زجرته بالصياح و يقال : جهجه عني أي انته و هذه الصفة توافق ذكر العصا و الله أعلم

و ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم من رواية عائذ بن عمرو و كان ممن بايع تحت الشجرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم [إن شر الرعاة الحطمة] و الرعاة في اللغة جمع راع و ضرب رسول الله بهذا مثلاً لوالي السوء لأن الحطمة هو الذي يعنف بالإبل في السوق و الإيراد و الإصدار فيحطمها أي يكسرها و لا يكاد يسلم من فساده شيء و سواق حطم كذلك يعنف في سوقه

و قوله : حتى تخرج نار من أرض الحجاز فقد خرجت نار عظيمة و كان بدؤها زلزلة عظيمة و ذلك ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع و خمسين و ستمائة إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت و ظهرت النار بقرطبة عند قاع التنعيم بطرف الحرة يحيط بها قرى في صورة البلد العظيم كأعظم ما يكون البلدان عليها سور يحيط بها عليه شرافات كشرافات الحصون و أبراج و مآذن و يرى رجال يقودونها لا تمر على جبل إلا دكنته و أذابتته و يخرج من مجموع ذلك نهر أحمر و نهر أزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور و الجبال بين يديه و ينتهي إلى البحرة محط الركب العراقي فأجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم و انتهت النار إلى قرب المدينة و كان يلي المدينة بركة النبي صلى الله عليه و سلم نسيم بارد و يشاهد من هذه النار غليان كغليان البحر و انتهت إلى قرية من قرى اليمن فأحرقتها قال لي بعض أصحابنا : و لقد رأيته صاعدة في الهواء من جحر مسيرة خمسة أيام من المدينة

قلت : و سمعت أنها رثيت من مكة و من جبال بصرى من بعد هذه النار أخرى أرضية بحرم المدينة أحرقت جميع الحرم حتى إنها أذابت الرصاص التي عليها العمدة فوقعت و لم يبق غير السور واقفا و نشأ بعد ذلك أخذ بغداد يتغلب التتر عليها فقتل من كان فيها و سباه و ذلك عمود الإسلام و ماؤه فانتشر الخوف و عظم الكرب و عم الرعب و كثر الحزن فانتشار التتر في البلاد و بقي الناس حيارى سكارى بغير خليفة و لا إمام و لا قضاء فزادت المحنة و عظمت الفتنة لم يتدارك الله سبحانه بالعفو و الفضل و المنة أما قوله : و ستخرج نار من

حضرموت أو من نحو حضرموت قبل القيامة فلعلها النار التي جاء ذكرها في حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [لتقصدنكم اليوم نار هي اليوم خامدة في واد يقال له برجوت يغشى الناس فيها عذاب أليم تأكل الأنفس و الأموال تلور الدنيا كلها في ثمانية أيام تطير طير الريح و السحاب حرها بالليل أشد من حرها بالنهار و لها بين الأرض و السماء دوي كدوي الرعد القاصف هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش قلت : يا رسول الله هي يومئذ على المؤمنين و المؤمنات ؟ قال : و أين المؤمنون و المؤمنات يومئذ ؟ هم شر من الحمر يتسافدون كما تتسافد البهائم و ليس فيهم رجل يقول : مه مه [كذا

رواه أبو نعيم الحافظ في باب مكحول أبي عبد الله إمام أهل الشام عن أبي سلمة عنه عن حذيفة
وقوله : عذبة سوطه يريد السير المعلق في طرف السوط و في هذين الحديث ما يرد على كفر الأتية و
الزنادقة الملحدين و أن الكلام ليس مرتبطا بالهيبه و البله و إنما الباري جلت قدرته يخلقه متى شاء في أي شاء
من جماد أو حيوان على ما قدره الخالق الرحمن فقد كان الحجر و الشجر يسلمان عليه صلى الله عليه و سلم
تسليم من نطق و تكلم ثبت ذلك في غير ما حديث و هو قول أهل أصول الدين في القديم و الحديث و ثبت
باتفاق حديث البقرة و الذئب و أنهما تكلما على ما أخبر عنهما صلى الله عليه و سلم في الصحيحين قاله ابن
دحية

وقوله : حتى تعود أرض العرب مروجاً و أنهاراً إخبار عن خروج عادتهم من إنتاج الكلاً و مواضع العشب
بجفر الأثمار و غرس الأشجار و بناء الديار
باب منه آخر

أبو عمر بن عبد البر [عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن بين يدي الساعة التسليم على
الخاصة و فشو التجارة حتى تعيب المرأة زوجها على التجارة و قطع الأرحام و فشو القلم و ظهور شهادة
الزور و كتمان شهادة الحق] قال أبو عمر ابن عبد البر : أما قوله : و فشو القلم فإنه أراد ظهور الكتاب و
كثرة الكتاب خرج أبو جعفر الطحاوي بلفظه و معناه إلا أنه قال : حتى تعين المرأة بدل تعيب و لم يذكر و
قطع الأرحام ذكره أبو محمد عبد الحق

و خرج أبو داود الطيالسي يقال : [حدثنا ابن فضالة عن الحسن قال : قال عمرو بن ثعلبة سمعت رسول الله
صلى الله عليه و سلم يقول : إن من أشراط الساعة أن تقتاتلوا قوما نعالهم الشعر و إن من أشراط الساعة أن
تقتاتلوا قوما كأن و جوههم المجرى المطرقة و إن من أشراط الساعة أن تكثر التجارة و يظهر القلم]
و ذكر ابن المبارك بن فضالة [عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى
يرفع العلم و يفيض المال و يظهر القلم و تكثر التجارة] قال الحسن : لقد أتى علينا زمان إنما يقال تاجر بني
فلان و كاتب بني فلان ما يكون في الحي إلا التاجر الواحد و الكاتب الواحد و ذكره أبو داود الطيالسي عن
عبد الله بن مسعود قال : كان يقال إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً و أن يسلم الرجل على
الرجل بالعرفه و أن يتجر الرجل و امرأته جميعاً و أن تغلو مهور النساء و الخيل ثم ترخص فلا تغلو إلى يوم
القيامة

باب منه

البخاري [عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن من أشراط الساعة أن يقل العلم
و يظهر الجهل و يظهر الزنا و تكثر النساء و يقل الرجال حتى يكون خمسين امرأة القيم الواحد] أخرجه
مسلم من حديث أنس

مسلم [عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل بالصدقة من
الذهب لا يجد أحدا يأخذها منه قال : و يرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال و كثرة

[النساء]

فصل

قوله : [و يرى الرجل يتبعه أربعون امرأة] يريد و الله أعلم أن الرجال يقتلون في الملاحم و تبقى نساؤهم أرامل فيقبلن على الرجل الواحد في قضاء حوائجهن و مصالح أمورهن كما قال في الحديث الآخر قبله : حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد الذي يسوسهن و يقوم عليهن من بيع و شراء و أخذ و عطاء و قد كان هذا عندنا أو قريبا منه بالأندلس و قيل : إن لقللة الرجال و غلبة الشبق على النساء يتبع الرجل الواحد أربعون امرأة كل واحدة تقول أنكحني أنكحني و الأول أشبه و يكون معنى يلذن يستترن و يتحرزن من الملاذ الذي هو السترة لا من اللذة

و لقد أخبرني صاحبنا أبو القاسم رحمه الله أخو شيخنا أبو العباس أحمد ابن عمر رحمه الله : أنه ربط نحوًا من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في حبل واحد مخافة سبي العدو حتى خرجوا من قرطبة أعادها الله و أما ظهور الزنا فذلك مشهور في كثير من الديار المصرية من ذلك مأثور و من ذلك إظهار الخمر و المأخوذ نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن و أما قلة العلم و كثرة الجهل فذلك شائع في جميع البلاد ذائع أعني برفع العلم و قلة ترك العمل به كما قال عبد الله بن مسعود [ليس حفظ القرآن بحفظ حروفه و لكن إقامة حدوده] ذكره ابن المبارك و سيأتي هذا المعنى مبينا مرفوعا إن شاء الله تعالى

باب كيف يقبض العلم

البخاري و مسلم رحمهما الله عن عبد الله بن عمرو قال : [سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعا و لكن ينزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يستفتون برأيهم فيضلون و يضلون] و في رواية : [حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فاستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا و أضلوا انتزاعا مصدر من غير اللفظ كما قال الله عز و جل { و الله أنبتكم من الأرض نباتا }] أبو داود [عن سلامة بن الحر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من أشرط الساعة أن يتدافع أهل المسجد الإمامة فلا يجدو إماما يصلي بهم]

باب ما جاء أن الأرض تخرج ما في جوفها من الكنوز و الأموال

روى الأئمة [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا] و في رواية : [عن جبل من ذهب] لفظ البخاري و مسلم و قال مسلم في رواية : [فيقتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة و تسعون و يقول كل واحد منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو] و قال ابن ماجه [فيقتل الناس عليه فيقتل من كل عشرة تسعة] و خرج مسلم و الترمذي [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة فيجىء القاتل فيقول في هذا قتلت و يجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي و يجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ثم يدعونه لا يأخذون منه شيئا] لم يذكر الترمذي السارق و قطع يده و قال حديث حسن غريب

فصل

قال الحلبي رحمه الله في كتاب منهاج الدين له و قال عليه الصلاة و السلام : [يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً] فيشبهه أن يكون هذا في آخر الزمان الذي أخبر النبي صلى الله عليه و سلم أن المال يفيض فيه فلا يقبله أحد و ذلك زمن عيسى عليه السلام فلعل بسبب هذا الفيض العظيم ذلك الجبل مع ما يغنمه المسلمون من أموال المشركين و يحتمل أن يكون نهيهم عن الأخذ من ذلك الجبل لتقارب الأمر و ظهور أشراطه فإن الركون إلى الدنيا و الاستكثار مع ذلك جهل و اغترار و يحتمل أن يكون إذا حرصوا على النيل منه تدافعوا و تقاتلوا و يحتمل أن يكون لا يجري به مجرى المعدن فإذا أخذه أحدهم ثم لم يجد من يخرج حق الله إليه لم يوفق بالبركة من الله تعالى فيه فكان الانقباض عنه أولى قال المؤلف رحمه الله : التأويل الأوسط هو الذي يدل عليه الحديث و الله أعلم

باب في ولاة آخر الزمان و صفتهم و فيمن ينطق في أمر العامة

البخاري [عن أبي هريرة قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه و سلم في مجلس يحدث القوم إذ جاء أعرابي فقال متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه و سلم في حديثه فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال و قال بعضهم : بل لم يسمع ما قال حتى إذا قضى حديثه قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا ذا يا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال : و كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة]

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله : الرواية الصحيحة عند جميع رواة البخاري [إذا وسد] و رواه الفقيه الإمام المحدث أبو الحسن القاسبي : [أسد] قال : و الذي أحفظ [وسد] و في نسخة من البخاري إشكال بين وسد أو أسد على ما قيد له لأنه كان أعمى و هما بمعنى قال أهل اللغة : يقال إساد و وساد و اشتقاقهما واحد يقال : إساد و وسادة و وساد فمعنى قوله صلى الله عليه و سلم : [إذا وسد الأمر إلى غير أهله] أي أسند و جعل إليهم و قلده بمعنى الإمارة كما في زماننا اليوم لأن الله تعالى ائتمن الأئمة و الولاة على عباده و فرض عليهم النصيحة لهم لقوله صلى الله عليه و سلم [كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته] فينبغي لهم تولية أهل الدين و الأمانة للنظر في أمور الأمة فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي فرض الله عليهم

و خرج مسلم [من حديث جبريل الطويل و فيه قال : أخبرني عن الساعة قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها و أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان]

و في رواية : [إذا رأيت المرأة تلد ربها فذاك من أشراطها و إذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها]

الترمذي [عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع] قال حديث حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث عمرو بن أبي عمرو و خرج الغيلاني أبو طالب محمد : [حدثنا أبو بكر و الشافعي : حدثنا موسى بن سهل بن كثير أخبرنا يزيد بن

هارون أخبرنا محمد بن عبد الملك بن قدامة عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال :
سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب و يكذب فيها الصادق و يؤتمن فيها الخائن و يخون
فيها الأمين و ينطق فيها الروبيضة قيل يا رسول الله و ما الروبيضة ؟ قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة] و
قال أبو عبيد : التافه الرجل الخسيس الخامل من الناس و كذلك كل شيء خسيس فهو تافه قال : و مما يثبت
حديث الروبيضة الحديث الآخر أنه قال : [من أشراط الساعة أن ترى رعاء الشاء رؤوس الناس و أن ترى
العراة الحفاة يتبارون في البنيان و أن تلد الأمة ربتها]

و ذكر أبو عبيد في الغريب له في حديث النبي صلى الله عليه و سلم [لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش و
البخل و يخون الأمين و يؤتمن الخائن و يهلك الوعول و يظهر التحوت قالوا يا رسول الله صلى الله عليه و سلم
و ما الوعول و ما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس و التحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم
] و أسند أبو نعيم عن حذيفة مرفوعا : من أشراط الساعة علو أهل الفسق في المساجد و ظهور أهل المنكر
على أهل المعروف فقال أعرابي فما تأمرني يا رسول الله ؟ قال : [دع و كن حلسا من أحلاس بيتك] و في
معناه أنشدوا :

(أيا دهر أعملت فينا أذاكا ... و ليتنا بعد وجه قفاكا)

(قلبت الشرار علينا رؤوسا ... و أجلست سفلتنا مستواكا)

(فيا دهر إن كنا عاديتنا ... فهذا قد صنعت بنا ما كفاكا)

و قال آخر :

(ذهب الرجال الأكرمون ذوو الحجا ... و المنكرون لكل أمر منكر)

(و بقيت في خلف يزين بعضهم ... بعضا ليدفع مغرور عن معور)

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ما أخبر به النبي صلى الله عليه و سلم في هذا الباب و غيره مما تقدم و يأتي قد
ظهر أكثره و شاع في الناس معظمه فوسد الأمر إلى غير أهله و صار رؤوس الناس أسافلهم عبيدهم و جهالهم
فيملكون البلاد و الحكم في العباد فيجمعون الأموال و يطيلون البنيان كما هو مشاهد في هذه الأزمان فلا
يسمعون موعظة و لا ينزحرون عن معصية فهم صم بكم عمي قال قتادة : صم عن استماع الحق بكم عن
التكلم به عمي عن الإبصار له و هذه صفة أهل البادية و الجهالة

و البهم : جمع بهيمة و أصلها صغار الضأن و المعز و قد فسره في الرواية الأخرى في قوله : رعاء الشاه و قوله
و أن تلد الأمة ربها و في رواية ربتها تأنيث رب أي سيدها و قال وكيع و هو أن تلد العجم العرب ذكره ابن
ماجه في السنن

قال علماؤنا : و ذلك بأن يستولي المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسري فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة
سيدها لشرفه و منزلته بأبيه و على هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين و اتساع خطتهم و
كثرة الفتوح و هذا قد كان و قيل : هو أن يبيع السادات أمهات الأولاد و يكثر ذلك فيتداول الملاك
المستولدت فرما يشتريها ولدها و لا يشعر فيكون ربها و على هذا الذي يكون من أشراط الساعة غلبة الجهل
بتحريم بيع أمهات الأولاد و هم الجمهور

وقيل : المراد أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة و السب و يشهد لهذا ما جاء في حديث أبي هريرة المرأة مكان الأمة و قوله عليه الصلاة و السلام : [حتى يكون الولد غيظا] و سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى

قلت : و هذا ظاهر في الوجود من غير نكير مستفيض و شهير و قيل : إنما كان سيدها و ربها لأنه كان سبب عتقها كما قال عليه الصلاة و السلام في مارية : [أعتقها ولدها]

قلت : و قول خامس سمعت شيخنا الأستاذ احدث النحوي المقرئ أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن حجة يقوله غير مرة و هو الإخبار عن استيلاء الكفار على بلاد المسلمين كما في هذه الأزمان التي قد استولى فيها العدو على بلاد الأندلس و خراسان و غيرها من البلدان فتسبى المرأة و هي حبلية أو ولدها صغير فيفرق بينهما فيكبر الولد فرجما يجتمعان و يتزوجها كما قد وقع من ذلك كثير فإننا لله و إنا إليه راجعون و يدل على هذا قوله : إذا ولدت المرأة بعلمها و هذا هو المطابق للأشراط مع قوله عليه الصلاة و السلام [لا تقوم الساعة حتى تكون الروم أكثر أهل الأرض] و الله أعلم

باب إذا فعلت هذه الأمة خمس عشرة خصلة حل بها البلاء

الترمذي [عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء قيل و ما هي يا رسول الله قال :

إذا كان المغنم دولا و الأمانة مغنما و الزكاة مغرما و أطاع الرجل زوجته و عق أمه و بر صديقه و جفا أباه و ارتفعت الأصوات في المساجد و كان زعيم القوم أرذلهم و أكرم الرجل مخافة شره و شربت الخمر و لبس الحرير و اتخذت القينات و المعازف و لعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو خسفا أو مسخا] قال : هذا حديث غريب و في إسناده فرج بن فضالة و ضعف من قبل حفظه

و خرج أيضا [من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا اتخذ الفيء دولا و الأمانة مغنما و الزكاة مغرما و تعلم لغير الدين و أطاع الرجل امرأته و عق أمه و أدنى صديقه و أقصى أباه و ظهرت الأصوات في المساجد و ساد القبيلة فاسقهم و كان زعيم القوم أرذلهم و أكرم الرجل مخافة شره و ظهرت القينات و المعازف و شربت الخمر و لعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو زلزلة و خسفا و مسخا و قذفا و آيات متتابعات كنظام بال قطع سلكه فتتابع] قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

باب منه

أبو نعيم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يمسخ قوم من أمتي في آخر الزمان قردة و خنازير قيل : يا رسول الله صلى الله عليه و سلم و يشهدون أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله و يصومون ؟ قال : نعم قيل : فما بالهم يا رسول الله ؟ قال : يتخذون المعازف و القينات و الدفوف و يشربون الأشرطة فباتوا على شربهم و هههم فأصبحوا و قد مسخوا قردة و خنازير]

ابن ماجه [عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يضرب على رؤوسهم بالدفوف و المغنيات يخسف الله بهم الأرض و يجعل منهم القردة و

الخنزير [

وخرجه أبو داود [عن مالك بن أبي مريم : قال دخلنا على عبد الرحمن بن غنم فتذاكرنا الطلاء قال : حدثني أبو مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها] زاد ابن أبي شيبة [يضرب على رؤوسهم بالمعازف و المغنيات يخسف الله بهم الأرض] قال أبو محمد عبد الحق : روياه جميعا من حديث معاوية بن صالح الحمصي و قد ضعفه قوم منهم يحيى بن معين و يحيى بن سعيد فيما ذكره ابن أبي حاتم و قال أبو حاتم فيه : حسن الحديث يكتب حديثه و لا يحتج به و وثقه أحمد بن حنبل و أبو زرعة

البخاري [عن أبي مالك الأشعري أو عن عامر سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليكونن ناس من أمتي يستحلون الحر و الحرير و المعازف و لينزلن أقوام إلى جنب عالم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون : ارجع إلينا غدا فيبيتهنم الله و يضع العلم و يمسخ آخرين قردة و خنازير إلى يوم القيامة]

قال المؤلف رحمه الله : هذا يصحح ما قبله من الأحاديث و الحر : هو الزنا قاله الباهلي و يروى الخز بالخاء و الزاي و الصواب ما تقدم

باب منه

ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي عن عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي قال : أنبأنا مالك بن أنس عن نافع بن عمر قال : كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص و هو بالقادسية أن وجه نضلة أبا معاوية الأنصاري إلى حلوان العراق فليغيروا على ضواحيها قال : فوجه سعد نضلة في ثلاثمائة فارس فخرجوا حتى أتوا حلوان العراق فأغاروا على ضواحيها فأصابوا غنيمة و سبيا فأقبلوا يسرقون الغنيمة و السبي حتى رهقهم العصر و كادت الشمس أن تروب قال : فألجأ نضلة الغنيمة و السبي إلى سفح الجبل ثم قال : فأذن فقال : الله أكبر فإذا مجيب من الجبل يجيب كبرت تكبيرا يا نضلة ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله قال كلمة الإخلاص يا نضلة قال أشهد أن محمدا رسول الله قال : هذا النذير و هو الذي بشر به عيسى عليه السلام و على رأس أمته تقوم القيامة قال حي على الصلاة قال : طوبى لمن مشى إليها و واطب عليها قال حي على الفلاح قال : أفلح من أجاب محمدا صلى الله عليه وسلم و هو البقاء لأمة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله قال : أخلصت الإخلاص كله يا نضلة فحرم الله بها جسدي على النار فلما فرغ من أذانه قمنا فقلنا له : من أنت يرحمك الله أملك أنت أم ساكن من الجن أم طائف من عباد الله ؟ أسمعنا صوتك فأرنا شخصك فإنا وفد الله و وفد رسوله و وفد عمر بن الخطاب قال : فانفلق الجبل عن هامة كالرحاء أبيض الرأس و اللحية و عليه طمران من صوف فقال : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته قلنا : و عليك السلام و رحمته و بركاته من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا زرنب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسى بن مريم أسكنني هذا الجبل و دعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء فيقتل الخنزير و يكسر الصليب و يتبرأ مما نحلته النصرى فأما إذا فاتني لقاء محمد صلى الله عليه وسلم فأقروا عمر مني السلام و قولوا له يا عمر : سدد و قارب فقد دنا الأمر و أخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها إذا ظهرت هذه الخصال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم الهرب فالهرب : إذا استغنى الرجال بالرجال و النساء بالنساء و انتسبوا في غير مناسبتهم و انتموا إلى غير مواليهم و لم يرحم كبيرهم صغيرهم و لم يوقر صغيرهم كبيرهم و ترك المعروف فلم يؤمر به و ترك المنكر فلم ينه عنه و تعلم عالمهم العلم

ليجلب به الدراهم و الدنانير و كان المطر قيظا و الولد غيظا و طولوا المنارات و فضضوا المصاحف و شيّدوا البناء و اتبعوا الشهوات و باعوا الدين بالدنيا و استخفوا بالدماء و قطعت الأرحام و بيع الحكم و أكل الربا و صار الغني عز و خرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه فسلم عليه و ركبت النساء السروج ثم غاب عنا قال : فكتب بذلك نضلة إلى سعد فكتب سعد إلى عمر و كتب عمر إلى سعد يا سعد : لله أبوك سر أنت و من معك من المهاجرين و الأنصار حتى تنزلوا هذا الجبل فإن لقيته فأقرئه مني السلام فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم أخبرنا أن بعض أوصياء عيسى بن مريم نزل ذلك الجبل ناحية العراق قال : فخرج سعد في أربعة آلاف من المهاجرين و الأنصار حتى نزل ذلك الجبل فأقام أربعين يوما ينادي بالأذان في كل وقت صلاة فلا جواب

قال الخطيب : تابع إبراهيم بن رجاء أبو موسى عبد الرحمن الراسبي على رواية عن مالك و ليس بثابت من حديثه

باب منه آخر

خرج أبو نعيم [من حديث حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من اقترب الساعة اثنتان و سبعون خصلة إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة و أضاعوا الأمانة و أكلوا الربا و استحلوا الكذب و استخفوا بالدماء و استعملوا البناء و باعوا الدين بالدنيا و تقطعت الأرحام و يكون الحكم ضعفا و الكذب صدقا و الحرير لباسا و ظهر الجور و كثر الطلاق و موت الفجأة و ائتمن الخائن و خون الأمين و صدق الكاذب و كذب الصادق و كثر القذف و كان المطر قيظا و الولد غيظا و فاض اللئام فيضا و غاص الكرام غيضا و كان الأمراء فجرة و الوزراء كذبة و الأمناء خونة و العرفاء ظلمة و القراء فسقة إذا لبسوا مسوح الضأن قلوبهم أنتن من الحيفة و أمر من الصبر يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تماوك اليهود الظلمة و تظهر الصفراء يعني الدنانير و تطلب البيضاء يعني الدراهم و تكثر الخطايا و تغل الأمراء و حليت المصاحف و صورت المساجد و طولت المنابر و خربت القلوب و شربت الخمر و عطلت الحدود و ولدت الأمة ربتها و ترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكا و شاركت المرأة زوجها في التجارة و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال و حلف بالله و شهد المرء من غير أن يستشهد و سلم للعرفة و تفقه لغير الدين و طلبت الدنيا بعمل الآخرة و اتخذ المغنم دولا و الأمانة مغنما و الزكاة مغرما و كان زعيم القوم أرذلهم و عق الرجل أباه و جفا أمه و بر صديقه و أطاع زوجته و علت أصوات الفسقة في المساجد و اتخذت القينات و المعازف و شربت الخمر في الطرق و اتخذ الظلم فخرا و بيع الحكم و كثر الشرط و اتخذ القرآن مزامير و جلود السباع صفاقا و المساجد طرقا و لعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء و خسفا و مسخا و قذفا و آيات] غريب من حديث عبد الله بن عمير عن حذيفة لم يروه عنه فيما أعلم إلا فرج بن فضالة قال المؤلف رحمه الله : و هذه الخصال قد تقدم ذكرها في أحاديث متفرقة و كلها بنية المعنى إلا قوله و جلود السباع صفاقا قال الجوهري : الصفاق الجلد الرقيق تحت الجلد الذي عليه الشعر و خرج الدارقطني [عن عامر الشعبي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من اقترب الساعة أن يرى الهلال قبلا فيقال : لليلتين و أن تتخذ المساجد طرقا و أن يظهر موت الفجأة] قاله الجوهري معنى قبلا أن يرى ساعة يطلع لعظمه و يوضحه حديث آخر من أشرط الساعة انتفاخ الأهلة و يقال

: رأيت الهلال قبلا و قبلا أي معاينة

باب منه

الترمذي الحكيم في نوادر الأصول قال : [حدثنا عمر بن أبي عمر قال : حدثنا هشام بن خالد الدمشقي عن إسماعيل بن عياش عن ليث عن ابن سابط عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يكون في أمتي فرعة فيصير الناس إلى علمائهم فإذا هم قردة و خنازير] قال أبو عبد الله : فالمسوخ تغير الخلقة عن جهتها فإنما حل بهم المسوخ لأنهم غيروا الحق عن جهته و حرفوا الكلم عن مواضعه فمسوخوا أعين الخلق و قلوبهم عن رؤية الحق فمسوخ الله صورهم و بدل خلقهم كما بدلوا الحق باطلا

باب في رفع الأمانة و الإيمان عن القلوب

روى الأئمة البخاري و مسلم و ابن ماجه و غيرهم و اللفظ لمسلم [عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم حديثين قد رأيت أحدهما و أنا أنتظر الآخر حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال] قال ابن ماجه : حدثنا الطنافسي يعني وسط قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن و علموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : [ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النوم فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الجمل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبرا و ليس فيه شيء ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فنفظ فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أميننا حتى يقال للرجل ما أجده ما أظرفه ما أعقله و ما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان و لقد أتى على زمان ما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه و لئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه فأما فما كنت أباع منكم إلا فلانا و فلانا]

فصل

الجذر بالذال المعجمة و يقال بفتح الجيم و كسرهما و هو الأصل من كل شيء من النسب و الحساب و الشجر و غيره و الوكت : بإسكان الكاف و هو الأثر اليسير يقال : أوكتت البسرة : إذا ظهرت فيها نكتة من الإرتاب و هو مصدر و كته يكتنه و كتنا و هو أيضا مثل نكتته في العين و غيرها و الجمل : هو النفخ الذي يرتفع من جلد باطن اليد عند العمل بفأس أو محذاف أو نحوه يحتوي على ماء ثم يصلب و يبقى عقدا قال ابن دحية قيده في الحديث بسكون الجيم و أجاز أهل اللغة و النحو فتح الجيم مصدر مجلت يده تمجل مجلا بفتح الجيم في المصدر إذا غلظت من العمل و قوله : فنفظ أي ارتفع جلدها و انتفخ فتراه منتبرا أي منتفطا و معناه مرتفعا جلده من لحمه و هو افتعال من النبر و هو الرفع و كل شيء رفع شيئا فقد نبره و منه اشتق المنبر و أراد بذلك خلو القلوب من الأمانة كما يخلو الجمل المنتبر عن شيء يحويه كجمر دحرجته يعني أطلقته فينتلق ظهر اليبدين من ذلك

و قول حذيفة : لقد أتى على زمان الحديث : يعني كانت الأمانة موجودة ثم قلت في ذلك الزمان و قوله ليردنه على ساعيه يعني من كان رئيسا مقدما فيهم واليا عليهم أن ينصفني منه و إن لم يكن له الإسلام و كل من ولوي على قوم ساع لهم و قوله فما كنت أباع منكم إلا فلانا و فلانا قال أبو عبيدة : هو من البيع و الشراء لقلته

الأمانة

باب في ذهاب العلم ورفعه و ما جاء أن الخشوع و الفرائض أول علم يرفع من

الناس

ابن ماجه قال : [حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن زياد بن ليبيد قال : ذكر النبي صلى الله عليه و سلم شيئا قال : ذلك عند أوان ذهاب العلم قلت يا رسول الله : كيف يذهب العلم و نحن نقرأ القرآن و نقرئه أبناءنا و يقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك أمك يا زياد : إن كنت لأراك من أफقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود و النصارى يقرأون التوراة و الإنجيل لا يعملون بشيء منهما]

و خرجه الترمذي [عن جبير بن نفيير عن أبي الدرداء قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فشحخص ببصره إلى السماء ثم قال : هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرُوا على شيء منه فقال زياد بن ليبيد الأنصاري : كيف يختلس منا و نحن قد قرأنا القرآن فو الله لنقرؤه و لنقرئه نساءنا و أبناءنا فقال : ثكلتك أمك يا زياد : إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة هذه التوراة و الإنجيل عند اليهود و النصارى فماذا تغني عنهم] قال جبير : فلقيت عبادة بن صامت فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء قال صدق أبو الدرداء إن شئت لأحدثك بأول علم يرفع من الناس الخشوع يوشك أن يدخل الرجل مسجد جماعة فلا يرى فيه رجلا خاشعا قال أبو عيسى : هذا حديث غريب و معاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث و لا أعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان

و روى بعضهم هذا الحديث عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه عن عوف بن مالك قال المؤلف رحمه الله : خرجه لهذا الإسناد الحافظ أبو محمد عبد الغني فقال : [حدثنا عبد الله بن جعفر بن الورد قال : حدثنا يحيى بن أيوب : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث قال : حدثني إبراهيم بن أبي عبلة عن الوليد بن عبد الرحمن عن جبير بن نفيير قال : حدثني عوف بن مالك الأشجعي قال : نظر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى السماء يوما و قال : هذا أوان رفع العلم فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن ليبيد يا رسول الله : و كيف يرفع العلم و قد كتب في الكتب و وعته الصدور ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن كنت لأحسبك من أफقه أهل المدينة و ذكر اليهود و النصارى و ضاللتهم على ما في أيديهم من كتاب الله] فذكرت ذلك لشداد بن أوس فقال : صدق عون بن مالك ألا أخبرك بأول ذلك : يرفع الخشوع حتى لا ترى رجلا خاشعا ذكره في باب تقييد الحديث بالكتابة و هو حديث حسن

قلت : و قد ذكرناه في مسند زياد بن ليبيد بإسناد صحيح على ما ذكره ابن ماجه و هو يبين لك ما ذكرناه من أن المقصود برفع العلم العمل به كما قال عبد الله بن مسعود : ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف و لكن إقامة حدوده ثم بعد رفع العمل بالعلم يرفع القلم و الكتاب و لا يبقى في الأرض من القرآن آية تتلى على ما يأتي في الباب بعد هذا

و قد خرج الدراقطني و ابن ماجه [من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : تعلموا الفرائض و علموها للناس فإنما تصف العلم و هو ينسى و هو أول شيء ينزع من أمي] لفظ الدراقطني و لا تعارض و الحمد لله فإن الخشوع من علم القلوب و الفرائض علم الظاهر فافترقا و الحمد لله

باب في دروس الإسلام و ذهاب القرآن

ابن ماجه قال : [أخبرنا علي بن محمد قال : أنبأنا أبو معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربيعي بن خراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يدرس الإسلام كما يدرس و شى الثوب حتى لا يدري ما صيام و لا صلاة و لا نسك و لا صدقة و يسري بكتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية و تبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير و العجوز يقولون أدر كنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها قال له صلة : ما تغني عنهم لا إله إلا الله و هم لا يدرون ما صلاة و لا صيام و لا نسك و لا صدقة فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلة تنجيهم من النار ثلاثا]

قلت : هذا إنما يكون بعد موت عيسى عليه السلام لا عند خروج يأجوج و مأجوج على ما تقدم من رواية مقاتل

و ذكر أبو حامد من رفعه فإن عيسى عليه السلام إنما ينزل مجددا لما درس من هذه الشريعة فإنه يحججه على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

باب العشر آيات التي تكون قبل الساعة و بيان قوله تعالى : اقتربت الساعة و انشق القمر [روي عن حذيفة أنه قال : كنا جلوس بالمدينة في ظل حائط و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في غرفة فأشرف علينا و قال : ما يجلسكم ؟ فقلنا : نتحدث فقال : فيماذا ؟ فقلنا : عن الساعة فقال : إنكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات أولها طلوع الشمس من مغربها ثم الدخان ثم الدجال ثم الدابة ثم ثلاث خسوف : خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و خروج عيسى و خروج يأجوج و مأجوج و يكون آخر ذلك ناراً تخرج من اليمن من حفرة عدن لا تدع أحدا خلفها إلا تسوقه إلى المحشر] ذكره القتيبي في كتاب عيون الأخبار له

و خرجه مسلم بمعناه [عن حذيفة قال : اطلع رسول الله صلى الله عليه و سلم من غرفة و نحن نتذاكر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها و الدجال و الدخان و الدابة و يأجوج و مأجوج و خروج عيسى بن مريم و ثلاث خسوف : خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و نار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم إذا باتوا و تقيل معهم إذا قالوا [خرجه ابن ماجه و الترمذي و قال : حديث حسن و في رواية : [الدخان و الدجال و الدابة و طلوع الشمس من مغربها و نزول عيسى بن مريم و ثلاث خسوفات : خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و آخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردهم إلى محشرهم] و في البخاري [عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أول أشرار الساعة نار تخرج تحشر الناس من المشرق إلى المغرب]

مسلم [عن عبد الله بن عمر قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إن أول الآيات خروجاً عن طلوع الشمس من مغربها و خروج الدابة على الناس ضحى و أيهما ما كانت قبل صاحبيتها فأخرى على أثرها قريباً منها] و في حديث حذيفة مرفوعاً ثم قال عليه الصلاة و السلام : [كأني أنظر إلى حبشي

أحمر الساقين أزرق العينين أفضس الأنف كبير البطن و قد صف قدميه على الكعبة هو و أصحاب له و هم ينقضونها حجرا حجرا و يتداولونها بينهم حتى يطرحوها في البحر فعند ذلك تكون علامات منكرات طلوع الشمس من مغربها ثم الدجال ثم يأجوج و مأجوج ثم الدابة] و ذكر الحديث

فصل

جاءت هذه الآيات في هذه الأحاديث مجموعة غير مرتبة ما عدا حديث حذيفة المذكور أولا فإن الترتيب فيه بش و ليس الأمر كذلك على ما نبينه و قد جاء ترتيبها [من حديث حذيفة أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في غرفة و نحن أسفل منه فاطلع إلينا فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : الساعة قال : إن الساعة لا تكون حتى تتروا عشر آيات : خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و الدخان و الدجال و دابة الأرض و يأجوج و مأجوج و طلوع الشمس من مغربها و نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس] و قال بعض الرواة في العاشرة : و نزول عيسى بن مريم و قال بعضهم : و ريح يلقى الناس في البحر أخرجه مسلم فأول الآيات على ما في هذه الرواية الخسوفات الثلاثة و قد وقع بعضها في زمن النبي صلى الله عليه و سلم ذكره ابن وهب و قد تقدم

و قد ذكر أبو الفرج بن الجوزي أنه وقع بعراق العجم زلازل و خسوفات هائلة هلك بسببها خلق كثير قلت : و قد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا بقرية يقال لها [قطرطدة] من قطر دانية سقط عليها جبل هناك فأذهبها

و أخبرني أيضا بعض أصحابنا أن قرية من أعمال برقة يقال لها [ترسة] أصابها زلزلة شديدة هدت حيطانها و سقفها على أهلها فماتوا تحتها و لم ينج منهم إلا قليل و وقع في هذا الحديث دابة الأرض قبل يأجوج و مأجوج و ليس كذلك فإن أول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى عليه السلام ثم خروج يأجوج و مأجوج فإذا قتلهم الله بالنفخ في أعناقهم على ما يأتي و قبض الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام و خلعت الأرض منا و تطاولت الأيام على الناس و ذهب معظم دين الإسلام أخذ الناس في الرجوع إلى عاداتهم و أحدثوا الأحداث من الكفر و الفسوق كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه الله تعالى بينه و بينهم حجة عليهم ثم قبضه فيخرج الله تعالى لهم دابة من الأرض فتميز المؤمن من الكافر ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم و الفساق عن فسقهم و يستبصروا و ينزعوا عما هم فيه من الفسوق و العصيان ثم تغيب الدابة عنهم و يمهلون فإذا أصروا على طغيانهم طلعت الشمس من مغربها و لم يقبل ببعث ذلك لكافر و لا فاسق توبة و أزيل الخطاب و التكليف عنهم ثم كان قيام الساعة على أثر ذلك قريبا لأن الله تعالى يقول : { و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون } فإذا قطع عنهم التبعيد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زمانا طويلا هكذا ذكره بعض العلماء

و أما الدخان : فروي [من حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه و سلم إن من أشراط الساعة دخانا يملا ما بين المشرق و المغرب يمكث في الأرض أربعين يوما]

فأما المؤمن : فيصيبه منه شبه الزكام و أما الكافر : فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من أنفه و منخرية و عينيه و أذنيه و دبره و قيل : هذا الدخان من آثار جهنم يوم القيامة

و روي هذا عن علي و ابن عمر و أبي هريرة و ابن عباس و ابن أبي مليكة و الحسن و هو معنى قوله تعالى { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين }

وقال ابن مسعود في هذه الآية : إنه ما أصاب قريشا من القحط و الجهد حتى جعل الرجل يرى بينه و بين السماء كهياة الدخان من الجهد حتى أكلوا العظام و قد مضت البطشة و الدخان و اللزام و الحديث عنه بهذا في كتابي مسلم و البخاري و غيرهما و قد فسر البطشة بأما وقعة بدر
قال أبو الخطاب ابن دحية : و الذي يقتضيه النظر الصحيح حمل ذلك على قضيتين : إحداهما وقعت و كانت الأخرى ستقع و ستكون فأما التي كانت فالتى كانوا يرون فيها كهياة دخان و هي الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور آيات التي هي من الأشرط و العلامات و لا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا { ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون } فيكشف عنهم ثم يعودون لقرب الساعة و قول ابن مسعود لم يسنده إلى النبي صلى الله عليه و سلم إنما هو من تفسيره و قد جاء النص عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بخلافه قال المؤلف رحمه الله : قد روي عن ابن مسعود أنهما دخانان قال مجاهد : كان ابن مسعود يقول : هما دخانان قد مضى أحدهما و الذي بقي يملاً ما بين السماء و الأرض و لا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة و أما الكافر فتتقب مسامعه فتبعث مسامعه فتبعث عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن و مؤمنة و يبقى شرار الناس

و اختلف في البطشة و اللزام فقال أبي : هو القتل بالسيف يوم بدر و إليه نجا ابن مسعود و هو قول أكثر الناس و على هذا تكون البطشة و اللزام شيئاً واحداً قال ابن مسعود : البطشة الكبرى وقعة بدر و قيل : هي يوم القيامة و أصل البطش الأخذ بشدة وقع الألم و اللزام في اللغة : الفصل في القضية و فسره ابن مسعود بأن ذلك كان يوم بدر و هو البطشة الكبرى في قوله أيضا
و قيل : إن اللزام هو المذكور في قوله تعالى { فسوف يكون لزاما } و هو العذاب الدائم و أما الدجال فيأتي ذكره في أبواب أخرى و أما الدابة فهي التي قال الله تعالى { و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم }
و ذكر أهل التفسير أنه خلق عظيم يخرج من صدع من الصفا لا يفوقها أحد فتسم المؤمن فتسير وجهه و يكتب بين عينيه كافر و روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن هذه الدابة هي الجساسة على ما يأتي ذكره في خبر الدجال و روي عن ابن عباس أنها الثعبان الذي كان يبثر الكعبة فاخططفه العقاب و سيأتي بيانه
و أما قوله : و آخر ذلك نار تخرج من اليمن و في الرواية الأخرى من قعر عدن و في الرواية الأخرى من أرض الحجاز قال القاضي عياض فلعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس أو يكون ابتداء خروجهما من اليمن فظهورهما من الحجاز

قلت : أما النار التي تخرج من أرض الحجاز فقد خرجت على ما تقدم القول فيها و بقيت النار التي تسوق الناس إلى المحشر و هي التي تخرج من اليمن و قد مضى القول في الحشر و يأتي القول في طلوع الشمس من مغربها

فأما قوله الله تعالى : { اقتربت الساعة و انشق القمر } فقد روي أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم آية فأراهم القمر منشقا نصفين و الجبل بينهما فقال اشهدوا ثبت في الصحيحين و غيرهما و من العلماء مكن قال : إنه ينشق كقوله تعالى { أتى أمر الله } أي يأتي قال الحلبي أبو عبد الله في كتاب منهاج الدين له : فإن كان هذا فقد أتى و رأيت ببخاري الهلال و هو ابن ليلتين منشقا نصفين عرض كل واحد

منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس و ما زلت أنظر إليهما حتى اتصلا كما كانا و لكنهما في شكل واحد شكل أترجة و لم أمل طرفي عنهما إلى أن غابت و كان معي ليلتئذ كتيبة من شريف وفقهيه و غيرهما من طبقات الناس و كلهم رأى ما رأيت و أخبرني من وثقت به أنه رأى الهلال و هو ابن ثلاث منشقا نصفين : قال الحلبي : فقد ظهر أن قول الله { و انشق القمر } إنما خرج على الانشقاق الذي هو من أشراط الساعة دون الانشقاق الذي جعله الله آية لرسوله صلى الله عليه و سلم

باب ما جاء أن الآيات بعد المائتين

ابن ماجه [عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الآيات بعد المائتين] [و عن زيد الرقاشي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أمي على خمس طبقات فأربعون سنة أهل بر و تقوى ثم الذين يلونهم إلى عشرين و مائة سنة أهل تراحم و تواصل تم الذين يلونهم إلى ستين و مائة أهل تدابر و تقاطع ثم الهرج الهرج النجا النجا] و في رواية [عن أبي معن عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أمي على خمس طبقات كل طبقة أربعون عاما فأما طبقتي و طبقة أصحابي فأهل علم و إيمان و أما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين فأهل بر و تقوى] ثم ذكر نحوه

باب ما جاء فيمن يخسف به أو يمسخ

أبو داود [عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له : يا أنس إن الناس يمصرون أمصارا و إن مصرا منها يقال لها البصرة أو البصرة فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك و سابحها و كالأها و سوقها و باب أمرائها و عليك بضواحيها فإنه يكون بها خسف و رجف و قوم يبيتون فيصبحون قردة و خنازير] و خرج ابن ماجه [عن نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال : إن فلانا يقرأ عليك السلام فقال له : بلغني أنه قد أحدث فإن كان أحدث فلان فلا تقرئه السلام فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : يكون في أمي أو في هذه الأمة خسف مسخ و قذف و نحوه]

عن سهل بن سعد و قد تقدمت الأخبار و الأحاديث في خسف الجيش الذي يقصد مكة لقتال المهدي خرجهما مسلم و غيره

و كذلك تقدم حديث البخاري و غيره في باب إذا فعلت هذه الأمة خمس عشرة خصلة و ذكر الثعالي في تفسيره من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : [تبنى مدينة بين دجلة و دجيل و قطربل و السراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبي إليها الخزائن و يخسف بها و في رواية : يخسف بأهلها فلهي أسرع ذهابا في الأرض من الوتد الجيد في الأرض الرخوة يقال إنما بغداد] و قد تقدم و الله أعلم

باب — ذكر الدجال و صفته و نعته

ذكر الدجال و صفته و نعته و من أين يخرج و ما علامة خروجه و ما معه إذا خرج و ما ينجي منه و أنه يبرئ الأكمه و الأبرص و يجي الموتى

قال ابن دحية قال العلماء : الدجال في اللغة يطلق على عشرة وجوه :
الأول : أن الدجال الكذاب قاله الخليل وغيره و أنها دجلة بسكون الخيم و دجلة بفتحها كذبة لأنه يدجل الحق بالباطل و جمعه دجالون و دجاجة في التكسير و قد تقدم
الوجه الثاني : أن الدجال مأخوذ من الدجل و هو طلاء البعير بالقطران سمي بذلك لأنه يغطي الحق و يستره بسحره و كذبه كما يغطي الرجل جرب بعيره بالدجالة و هي القطران يهنأ به البعير و اسمه إذا فعل به ذلك المدجل قاله الأصمعي

الوجه الثالث : إنما سمي بذلك لضربه في نواحيه الأرض و قطعه لها يقال : دجل الرجل إذا فعل ذلك
الوجه الرابع : أنه من التغطية لأنه يغطي الأرض بمجموعه و الدجل التغطية قال دريد : كل شيء غطيته فقد دجلته و منه سميت دجلة لانتشارها على الأرض و تغطية ما فاضت عليه
الوجه الخامس : سمي دجالاً لقطعه الأرض إذ يطأ جميع البلاد إلا مكة و المدينة و الدجالة الدفقة العظيمة و أنشد ابن فارس في المجمل :

دجالة من أعظم الرقاق

الوجه السادس : سمي دجالاً لأنه يغر الناس بشره كما يقال لطخني فلان بشره

الوجه السابع : الدجال : المخرق

الوجه الثامن : الدجال : المموه قاله ثعلب و يقال سيف مدجل إذ كان قد طلى بالذهب

الوجه التاسع : الدجال : ماء الذهب الذي يطلى به الشيء فيحسن باطله و داخله خزف أو عود سمي الدجال بذلك لأنه يحسن الباطل

الوجه العاشر : الدجال : فرند السيف و الفرند جوهر السيف و ماؤه و يقال بالفاء و الباء إذ أصله عين صافية على ما تنطق به العجم فعربته العرب و لذلك قال سيبويه و هو عندهم خارج عن أمثله العرب و الفرند أيضا الحرير و أنشد ثعلب :

(بحلية الياقوت و الفرندا ... مع الملاب و عبير أصردا)

أي خالصا قال ابن الأعرابي يقال للزعفران الشعر و الملاب و العبير و المردقوش و الحشاد ذكر هذه الأقوال العشرة الحافظ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله في كتاب مرج البحرين في فوائد المشرقين و المغربين مسلم [عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال] و في رواية : [من آخر سورة الكهف]

أبو بكر بن أبي شيبة [عن الفلتان بن عاصم عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أما مسيح الضلالة فرجل

أجلى الجبهة مسوح العين اليسرى عريض المنخر فيه الدفاء] قوله فيه : دفا أي انحناء

[و عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الدجال أعور العين اليسرى جفال الشعر معه جنة و نار فواره جنة و جنته نار] و عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [أنا أعلم بما مع الدجال منه معه نمران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض و أحدهم الآخر رأي العين نار تأجج فأما أدركن أحد فليأت النهر الذي يراه نارا و ليغمض و ليطأطأ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد و أن الدجال مسوخ العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه يقرؤه كل مؤمن كاتب و غير كاتب]

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : كذا عند جماعة رواه مسلم فإما أدركن قال ابن دحية : و هو وهم فإن لفظه هو لفظ الماضي ولم أسمع دخول نون التوكيد على لفظ الماضي إلا ها هنا لأن هذه النون لا تدخل على الفعل و صوابه ما قيده العلماء في صحيح مسلم منهم التميمي أبو عبد الله : فإما أدركه أحد [و عن عبد الله بن عمر : قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم يوماً بين ظهراي الناس المسيح الدجال فقال : : إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية] قال : و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [أراي الليلة في المنام عند الكعبة فإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لمتة بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يده على منكبي رجلين و هو يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو المسيح بن مريم و رأيت وراءه رجلا جعدا قططا أعور العين اليمنى كأشبهه من رأيت من الناس بابين قطن واضعا يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت فقلت من هذت قالوا هو المسيح الدجال]

أبو بكر بن أبي شيبة [عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : الدجال أعور مدهجان أقرم كأن رأسه غضنة شجرة أشبه الناس بعد العزي بن قطن الخزاعي فإما أهلك هلك فإنه أعور و أن الله ليس بأعور

أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أما مسيح فإنه أعور العين أجلي الجبهة عريض المنحرف فيه اندفاء مثل قطن بن عبد العزي فقال له الرجل : أياضري يا رسول الله صلى الله عليه و سلم شبهه ؟ فقال : لا أنت مسلم هو كافر]

و خرج [عن أبي بن كعب قال ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه و سلم أو قال ذكر النبي صلى الله عليه و سلم الدجال فقال : إحدى عينيه كأنها زجاجة خضراء و تعوذ بالله من عذاب القبر]

الترمذي [عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الدجال ليخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أفواج كأن وجوههم الخجان المطرقة] إسناده صحيح و ذكر عبد الرزاق قال : [أخبرنا معمر بن عن أبي هانئ العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يتبع الدجال من أمي سبعون ألفا عليهم السيجان و السيجان جمع الساج و هو طيلسان أخضر] و قال الأزهري هو المطليل المقور بنسج كذلك

الطبراني [عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه و سلم ذكر عنده الدجال فقال : إن قبل خروجه ثلاث أعوام تمسك السماء في العام الأول ثلث قطرها و الأرض ثلث نباتها و العام الثاني تمسك السماء ثلثي قطرها و الأرض ثلثي نباتها و العام الثالث تمسك السماء قطرها و الأرض نباتها حتى لا يبقى ذات ضرس و لا ذات ظلف إلا مات] و ذكر الحديث

خرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا هشام عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أسماء و عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أسماء

و أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة و في بعض الروايات بعد قوله : و في السنة الثالثة يمسك الله المطر و جميع النبات فما ينزل من السماء قطرة و لا تنبت الأرض خضرة و لا نباتا حتى تكون الأرض كالتحاس و السماء كالزجاج فيبقى الناس يموتون جوعا و جهدا و تكثر الفتن و الهرج و يقتل الناس بعضهم بعضا و يخرج

الناس بأنفسهم و يستولي البلاء على أهل الأرض فعند ذلك يخرج الملعون الدجال من ناحية أصبهان من قرية يقال لها اليهودية و هو راكب حمارا أبتري يشبه البغل ما بين أذني حماره أربعون ذراعا و من نعت الدجال : أنه عظيم الخلقة طويل القامة جسيم أجعد ققط أعور العين اليمنى كأنها لم تخلق و عينه الأخرى مزوجة بالدم و بين عينيه مكتوب : كافر يقرؤه كل مؤمن بالله فإذا خرج يصيح ثلاث صيحات ليرسم أهل المشرق و المغرب و يروى أنه إذا كان في آخر الزمان تخرج من البحر امرأة ذات حسن و جمال بارع فتدعو الناس إلى نفسها و تحترق البلاد فكل من أتاها كفر بالله فعند ذلك يخرج الله عليكم الدجال و من علامة خروجه فتح القسطنطينية لأن الخبر ورد أن بين خروجه و فتح القسطنطينية سبعة أشهر و قد تقدم هذا

و ذكر أبو داود الطيالسي قال : [حدثنا الحشرج بن نبادة قال : حدثنا سعيد ابن جهمان عن سفينة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : إنه لم يكن نبي إلا و قد أندر أمته الدجال ألا و إنه أعور العين بالشمال و باليمين ظفرة غليظة بين عينيه كافر يعني مكتوب كافر يخرج معه واديان أحدهما جنة و الآخر نار فواره جنة و جنته نار فيقول الدجال للناس : أأست بربكم أحبي و أميت و معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء إني لأعرف اسمهما و اسم آباتهما لو شئت أن أسميهما سميتهما أحدهما عن يمينه و الآخر عن شماله فيقول : أأست بربكم أحبي و أميت ؟ فيقول أحدهما : كذبت فلا يسمعه من الناس أحد إلا صاحبه و يقول الآخر : صدقت و ذلك فتنة ثم يسير حتى يأتي المدينة فيقول هذه قرية ذاك الرجل فلا يؤذن له أن يدخلها ثم يسير حتى يأتي الشام فيهلكه الله عند عقبة أفيق]

و خرج أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي في الجزء العاشر من مختصر المعجم له بمعناه فقال : [حدثنا محمد بن عبد الوهاب قال : حدثنا حشرج عن سعيد ابن جهمان عن سفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إنه لم يكن نبي قبل إلا و قد حذر أمته من الدجال إنه أعور عينه اليسرى بعينه اليمنى ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن بالله معه واديان : أحدهما جنة و الآخر نار و معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء و لو شئت سميتهما بأسماء و أسماء آباتهما أحدهما عن يمينه و الآخر عن شماله فيقول الدجال : أأست بربكم أحبي و أميت فيقول أحد الملكين : كذبت فلا يسمعه أحد من الناس إلا صاحبه فيقول له صدقت فيسمعه الناس فيظنون أنه صدق الدجال فذلك فتنة ثم يسير الدجال حتى يأتي المدينة فلا يؤذن له فيقول هذه قرية ذلك الرجل ثم يسير حتى يأتي الشام فيهلكه الله عند عقبة أفيق]

قال ابن بركان في كتاب الإرشاد له : و الذي يغلب على ظني أن النبيين المشبه بهما أحدهما المسيح ابن مريم و الآخر محمد صلى الله عليه و سلم و لذلك ما أنذرا بذلك و وصيا

و خرج أبو داود في سننه [عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إني كنت حدثتكم عن المسيح الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا أن المسيح الدجال قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتنة و لا حجرا فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم عز و جل ليس بأعور]

فصل

وصف النبي صلى الله عليه و سلم الدجال و صفا لم يبق معه لذي لب إشكال و لتك الأوصاف كلها ذميمة تبين لكل ذي حاسة سليمة لكن من قضى الله عليه بالشقاوة تبع الدجال فيما يدعيه من الكذب و الغباوة و حرم اتباع الحق و نور التلاوة ففوله عليه الصلاة و السلام [إنه أعور و أن الله ليس بأعور] تبين للعقول القاصرة

أو الغافلة على أن من كان ناقصا في ذاته عاجزا عن إزالة نقصه لم يصلح أن يكون لها لعجزه و ضعفه و من كان عاجزا عن إزالة نقصه كان أعجز عن نفع غيره و عن مضرتة و جاء في حديث حذيفة : أعور العين اليسرى و في حديث ابن عمر : أعور العين اليمنى و قد أشكل الجمع بين الحديثين على كثير من العلماء قال : و حتى إن أبا عمر بن عبد البر ذكر ذلك في كتاب التمهيد له

و في حديث [سمرة بن جندب أن نبي الله صلى الله عليه و سلم كان يقول : إن الدجال خارج و هو أعور العين الشمال عليها ظفرة غليظة و أنه يرى الأكمة و الأبرص و يحيى الموتى و يقول للناس : أنا ربكم فمن قال : أنت ربي فقد فتن و من قال : ربي الله عز و جل حتى يموت على ذلك فقد عصم من فتنته و لا فتنة عليه و لا عذاب فيلث في الأرض ما شاء ثم يجيء عيسى عليه السلام من قبل المغرب مصدقا بمحمد صلى الله عليه و سلم و على ملته فيقتل الدجال ثم إنما هو قيام الساعة]

قال أبو عمر بن عبد البر ففي هذا الحديث أعور العين الشمال و في حديث مالك : أعور العين اليمنى فالله أعلم و حديث مالك أصح من جهة الإسناد لم يزد على هذا

قال أبو الخطاب بن دحية ليس كما قال بل الطرق كلها صحيحة في العينين و قال شيخنا أحمد بن عمر في كتاب المفهم له : و هذا اختلاف يصعب الجمع فيه بينهما و قد تكلف القاضي عياض الجمع بينهما فقال : الجمع بين الروایتين عندي صحيح و هو أن كل واحدة منهما عوراء من وجه ما إذ العور حقيقة في كل شيء العيب و الكلمة العوراء هي المعيبة فالواحدة عوراء بالحقيقة و هي التي وصفت بالحديث بأنها ليست بحجرا و لا ناتئة و مسوحة و مطموسة و طافية على رواية الهمز و الأخرى عوراء لعيبيها اللزوم لها لكونها جاحظة أو كأنها كوكب دري أو كأنها عنبة طافية بغير همز و كل واحدة منهما يصح فيه الوصف بالعور بحقيقة العرف و الاستعمال أو بمعنى العور الأصلي قال شيخنا و حاصل كلامه : أن كل واحدة من عيني الدجال عوراء أحدهما بما أصاب حتى ذهب إدراكها و الثانية عوراء بأصل خلقها معيبة لكن يبعد هذا التأويل أن كل واحدة من عينيها قد جاء و صفها في الرواية بمثل ما وصفت به الأخرى من العور فتأمله

قلت : ما قاله القاضي عياض و تأويله صحيح و أن العور في العينين مختلف كما بيناه في الروايات فإن قوله : كأنها لم تخلق هو معنى الرواية الأخرى مطموس العين مسوخها ليست بناتئة و لا حجرا و وصف الأخرى بالمرج بالدم و ذلك عيب عظيم لا سيما مع وصفها بالظفرة الغليظة التي هي عليها و هي جلدة غليظة تغشى العين و على هذا فقد يكون العور في العينين سواء لأن الظفرة مع غلظتها تمنع من الإدراك فلا تبصر شيئا فيكون الدجال على هذا أعمى أو قريبا منه إلا أنه جاء ذكر الظفرة في العين اليمنى في حديث سفينة و في الشمال في حديث سمرة بن جندب و قد يمتثل أن يكون كل عين عليها ظفرة غليظة فإن في حديث حذيفة : و إن الدجال مسوخ العين عليها ظفرة غليظة و إذا كانت المسوخة المطموسة عليها ظفرة فإني ليست كذلك أولى فتتفق الأحاديث و الله أعلم

و قيل في الظفرة : إنها لحمة تنبت عند المآقي كالعلقة و قيده بعض الرواة بضم الظاء و سكون الفاء و ليس بشيء قاله ابن دحية رحمه الله

فصل — الإيمان بالدجال و خروجه حق

الإيمان بالدجال و خروجه حق و هذا مذهب أهل السنة و عامة أهل الفقه و الحديث خلافا لمن أنكر أمره من الخوارج و بعض المعتزلة و وافقنا على إثباته بعض الجهنمية و غيرهم لكن زعموا أن ما عنده مخارق و حيل قالوا لأنهما لو كانت أمورا صحيحة لكان ذلك إلباسا الكاذب بالصادق و حينئذ لا يكون الفرق بين النبي و المنتبي و هذا هذيان لا يلتفت إليه و لا يعرج عليه فإن هذا إما كان يلزم لو أن الدجال يدعي النبوة و ليس كذلك فإنه إنما ادعى الإلهية و لهذا قال عليه الصلاة و السلام : [إن الله ليس بأعور] تنبيهها للعقول على فقره و حدثه و نقصه و إن كان عظيما في خلقه ثم قال : [مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن و مؤمنة كاتب أو غير كاتب] و هذا الأمر مشاهد للحس يشهد بكذبه و كفره و قد تأول بعض الناس : مكتوب بين عينيه كافر فقال : معنى ذلك ما ثبت من سمات حدثه و شواهد عجزه و ظهور نقصه قال : و لو كان على ظاهره و حقيقته لاستوى في إدراك ذلك المؤمن و الكافر و هذا عدول و تحريف عن حقيقة الحديث من غير موجب لذلك و ما ذكره من لزوم المساواة بين المؤمن و الكافر في قراءة ذلك لا يلزم لأن الله تعالى يمنع الكافر من إدراكه ليغتر باعتقاده التجسيم حتى يوردهم بذلك نار الجحيم فالدجال فتنة و محنة من نحو فتنة أهل المحشر بالصورة الهائلة التي تأتيهم فيقول لهم : أنا ربكم فيقول المؤمنون : نعوذ بالله منك حسب ما تقدم لا سيما و ذلك الزمان قد انخرقت فيه عوائد فليكن هذا منها و قد نص على هذا بقوله : يقرؤه كل مؤمن كاتب و غير كاتب و قراءة غير الكاتب خارقة للعادة و أما الكافر فمصرف عن ذلك بغفلته و جهله و كما انصرف عن إدراك نقص عوره و شواهد عجزه كذلك يصرف عن قراءة سطور كفره و رمزه

و أما الفرق بين النبي و المنتبي فالمعجزة لا تظهر على يد المنتبي لأنه لزم منه انقلاب دليل الصدق دليل الكذب و هو محال

و قولهم : إن ما يأتي به الدجال حيل و مخاريق فقول معزول عن الحقائق لأن ما أخبر به النبي صلى الله عليه و سلم من تلك الأمور حقائق و العقل لا يحيل شيئا منها فوجب إبقاؤها على حقائقها و سيأتي تفصيلها بعون الله تعالى

باب ما يمنع الدجال أن يدخله من البلاد إذ خرج

البخاري و مسلم [عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة و المدينة] و ذكر الحديث

و في حديث فاطمة بنت قيس : [فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة و طيبة هما محرمتان على كلتهما] الحديث و سيأتي

و ذكر أبو جعفر الطبري من حديث عبد الله بن عمرو و إلا الكعبة و بيت المقدس زاد أبو جعفر الطحاوي : و مسجد الطور رواه من حديث جنادة بن أبي أمية عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم عن النبي صلى الله عليه و سلم

و في بعض الروايات : فلا يبقى له موضع إلا و يأخذه غير مكة و المدينة و بيت المقدس و جبل الطور فإن الملائكة تطرده عن هذه المواضع

باب منه و ما جاء أنه إذا خرج يزعم أنه الله و يحصر المؤمنين في بيت

المقدس

أبو بكر بن أبي شيبه [عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه و سلم و ذكر الدجال قال : و إنه متى يخرج فإنه يزعم أنه الله فمن آمن به و اتبعه و صدقه فليس ينفعه صالح من عمل سلف و من كفر به و كذبه فليس يعاقب بشيء من عمل سلف و أنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحزم و بيت المقدس و أنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس]

قال : فيهمه الله و جنوده حتى إذا جدر الحائط و أصل الشجرة ينادي : يا مؤمن هذا كافر يستتر بي فقال : اقتله قال : و لن يكون قولك حتى تبدو أمور يتفاج شأهما في أنفسكم تتساءلون بينكم : هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرا و حتى تزول جبال من مراتبها على أثر ذلك القبض

باب منه و في عظم خلق الدجال و عظم فتنته و سبب خروجه و صفة حمارة و سعة

خطوه و في حصره المسلمين في جبال الدخان و كم ينكت في الأرض و في نزول عيسى عليه السلام وقت السحر لقتل الدجال و من اتبعه

مسلم [عن عمران بن حصين قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال] و في رواية [امرؤ بدل خلق]
و في حديث تميم الداري قال : فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فإذا أعظم إنسان رأيناه قط خلقا و أشده وثاقا الحديث و سيأتي

وعن ابن عمر أنه لقي ابن صياد في بعض طرق المدينة فقال قولاً أغضبه فانفخ حتى ملأ السكة فدخل ابن عمر على حفصة و قد بلغها فقالت : يرحمك الله ما أردت من ابن صياد أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [إنما يخرج من غضبة يغضبها] و سيأتي من أخبار ابن صياد ما يدل عليه أنه هو الدجال إن شاء الله تعالى و ذكر قاسم بن أصبغ

وخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده قال : [حدثنا محمد بن سابق حدثنا إبراهيم بن طهيمان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يخرج الدجال في خفقة من الدين و إدمار من العلم أي قلة من أهله و له أربعون ليلة يسيحها في الأرض اليوم منها كالسنة و اليوم منها كالشهر و اليوم منها كالجمعة ثم سائر أيامه كأيامكم هذه و له حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً فيقول للناس : أنا ربكم و هو أعور و إن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه : كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب و غير كاتب يرد كل ماء و منهل إلا المدينة و مكة حرمهما الله تعالى عليه و قامت الملائكة بأوامهما و معه جبال من خبز و الناس في جهد إلا من اتبعه و معه نمران أنا أعلم بما منه نمر يقول له : الجنة و نمر يقول له : النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهي النار و من أدخل الذي يسميه النار فهي الجنة قال : و تبعث معه شياطين تكلم الناس و معه فتنة عظيمة بأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس و يقتل نفساً ثم يحييها فيما يرى الناس فيقول للناس : أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب فيفر الناس إلى جبل الدخان و هو بالشام فيأتيهم فيحاصروهم فيشتد حصارهم و

يجهدهم جهدا شديدا ثم ينزل عيسى عليه السلام فيأتي في السحر فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث فيقولون : هذا رجل فينطلقون فإذا هم بعيسى بن مريم عليهما السلام فيقام للصلاة فيقال له : تقدم يا روح الله فيقول : ليتفضل إمامكم فليصل بكم فإذا صلوا صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب ينمات كما ينمات الملح في الماء فيقتله حتى إن الشجر والحجر ينادي : يا روح الله هذا يهودي فلا يترك ممن كان يتبعه أحدا إلا قتله]

قوله : ينمات كما ينمات الملح في الماء أي يذهب و ينحل و يتلاشى و في بعض الروايات : و ذكر أن حمارة حين يخطو من خطوة إلى خطوة ميل و لا يبقى له سهل و لا وعر إلا يطؤه و لا يبقى موضع إلا يأخذه غير مكة و المدينة حسبما تقدم و يأتي الكلام أبو حنيفة في حكم أيامه و ذكر عبد الرزاق قال : [أخبرنا معمر عن ابن خيثم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة و الجمعة كالיום و اليوم كالساعة و الساعة كاضطرام السعفة في النار] و الصحيح أنه يمكث أربعين يوما كما في حديث جابر و كذلك في صحيح مسلم على ما يأتي في الكتاب بعد هذا

باب منه آخر في خروج الدجال و ما يجيء به من الفتن و الشبهات و سرعة سيره

في الأرض و كم يلبث فيها و في نزول عيسى عليه السلام و نعته كم يكون في الأرض يومئذ من الصلحاء و في قتله الدجال و اليهود و خروج يأجوج و مأجوج و موهم و في حج عيسى و تزويجه و مكنته في الأرض و أين يدفن إذامات صلى الله عليه و سلم

و قد تقدم من حديث حذيفة رضي الله عنه أن له جنة و نارا فجننته نار و ناره جنة أبو داود [عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من سمع بالدجال فليأمنه فوالله إن الرجل ليأتيه و هو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات] مسلم [عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يخرج الدجال فيتوجه قبل رجل من المؤمنين فتلقاه المسالحة الدجال فيقولون له : أين تعمد فيقول : أعمد إلى هذا الرجل الذي خرج فيقولون له : أو ما تؤمن بربنا فيقول ما برنا حقا فيقولون : اقتلوه فيقول بعضهم لبعض أليس ربكم قد نهاكم أن تقتلوا أحدا دونه ؟ قال : فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : فيأمر به الدجال فيشج فيقول : خذوه و شجوه فيوجع ظهره و بطنه ضربا قال : فيقول : أما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكذاب فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجله قال : ثم يمشي بين القطعتين ثم يقول قم فيستوي قائما فيقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة ثم يقول : يا أيها الناس إنه يفعل بعدي بأحد من الناس قال : فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا فلا يستطيع إليه سبيلا قال : فيأخذ بيديه و رجله فيقذف به فيحسب الناس أنه إنما قذف به في النار و إنما ألقى به في الجنة]

قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم [هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين] قال أبو إسحاق السبيعي يقال : إن هذا الرجل هو الخضر و في رواية : قال [يأتي و هو محرم عليه أن يدخل

المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول :
أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم حديثه فيقول الدجال : أرايتم إن قتلت هذا
أتشكون في الأمر؟ فيقولون : لا قال : فيقتله ثم يحياه فيقول حين يحييه : و الله ما كنت فيك قط أشد بصيرة
مني الآن قال : ف يريد الدجال أن يقتله فلا يسلطه الله عليه [خرجه البخاري
] و عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس من بلد إلا سيطوه الدجال إلا مكة و المدينة و
ليس نقب من أنقابها إلا عليها الملائكة صافين يحرسونها فينزل بالسبخة فترجف ثلاث رجفات يخرج إليه كل
كافر و منافق] و في رواية : كل منافق و منافقة خرجه البخاري
] و عن النواس بن سمعان الكلبي قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم الدجال ذات غداة فخفض فيه
و رفع حتى ظنناه في طائفة النخل فقال : ما غير الدجال أخوفي عليكم أن يخرج و أنا منكم فأنا حجيجه
دونكم و إن يخرج و لست فيكم فامرؤ حجيج نفسه و الله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عيناه طافية
كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فلقراً عليه سورة الكهف إنه خارج حلة بين الشام و العراق
فعات يمينا و شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا : يا رسول الله و ما لبثه في الأرض؟ قال : أربعون يوماً يوم كسنة و
يوم كشهر و يوم كجمعة و سائر أيامه كأيامكم فقلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة
يوم؟ قال : لا اقدروا له قدره قلنا : يا رسول الله و ما إسرعه في الأرض؟ قال : كالغيث استدبرته الريح
فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به و يستجيبون له قال : فيأمر السماء فتمطر و الأرض فتنبت و تروح
عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا و أسبغة ضروعا و أمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله
فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم و يمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتبعه
كنوزها كيغاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعو فيقبل
ستهلل و جهه يضحك فيبنا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فنزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين
مهرودين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر و إذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحمل بكافر
يجد نفسه إلا مات و نفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتي عيسى عليه
السلام قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم و يحدثهم بدرجاتهم في الجنة فيبنا هو كذلك إذ أوحى
الله إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقاتلهم فحرز عبادي إلى الطور و بيعت الله
يأجوج و مأجوج } و هم من كل حدب ينسلون { فيمصر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها و يمر
آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء و يحضر نبي الله عيسى و أصحابه حتى يكون رأس الثور لأحلمهم خيرا
من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى و أصحابه فيرسل الله النعف في رقابهم فيصبحون فرسى
كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى و أصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملاء زهمهم و
نتنهم فيرغب عيسى و أصحابه فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله
مطرا لا يكون منه بيت مدر و لا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك وردي
بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة و يستظلون بقحفها و يبارك الله في الرسل أي اللبن حتى إن اللقحة من
الإبل لتكفي الفئام من الناس و اللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس و اللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من
الناس فيبنا هم كذلك إذ بعث الله رجلا طيبا فتأخذ بهم تحت آباطهم فيقبض روح كل مؤمن و كل مسلم و

يبقى شرار الناس يتهارجون فيها كتهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة زاد في أخرى بعد قوله مرة ماء ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض فلنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم محضوبة دما [أخرجه الترمذي في جامعه و ذكر رمى بأجوج و مأجوج بنشابهم متصلة بالحديث فقال : ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من الأرض فهلم فلنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم محمرا دما و يحاصر عيسى بن مريم الحديث و قال بدل قوله : فيطر حهم حيث شاء الله قال : فتحملهم فتطر حهم بالنهب قال : و يستوقد المسلمون من قسيهم و نشابهم سبع سنين قال : و يرسل الله عليهم مطرا الحديث إلى آخره في غير الترمذي فيطر حهم في المهيل و المهيل البحر الذي عند مطلع الشمس

و خرج ابن ماجه في سننه أيضا كما خرج مسلم و لم يذكر الزيادة التي ذكرها مسلم متصلة و لا الترمذي متصلة من حديث النواس بن سمعان و إنما ذكرها من حديث أبي سعيد الخدري و سيأتي و ذكر ما ذكره الترمذي فقال [حدثنا هشام بن عمار قال : حدثنا يحيى بن حمزة قال : حدثنا ابن جابر عن يحيى بن جابر الطائي قال : حدثنا عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه سمع النواس بن سمعان يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يستوقد المسلمون من قسي يأجوج و مأجوج و نشابهم و أترستهم سبع سنين]

قال : [و حدثنا علي بن محمد قال : حدثنا عبد الرحمن الحاربي عن إسماعيل بن رافع أبي رافع عن أبي عمر الشيباني زرة عن أبي أمامة الباهلي قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فكان أكثر خطبته حديثا حدثناه عن الدجال و حذرناه و كان من قوله أن قال : إنه لم يكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله تعالى آدم صلى الله عليه و سلم أعظم من فتنة الدجال و إن الله عز و جل لم يعث نبيا إلا حذر أمته الدجال و أنا آخر الأنبياء و أنتم آخر الأمم و هو خارج فيكم لا محالة فإن يخرج و أنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج كل مسلم و إن يخرج من بعدي فكل حجيج نفسه و الله خليفتي على كل مسلم و إنه يخرج من حلة بين الشام و العراق فبعث يمينا و يعث شمالا يا عباد الله أيها الناس فاثبتوا فإن سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي إنه يبدو فيقول : أنا نبي الله و لا نبي بعدي ثم يثني فيقول : أنا ربكم و لا ترون ربكم حتى تموتوا و إنه أعور و إن ربكم ليس بأعور و أنه مكتوب بين عينيه : كافر يقرؤه كل مؤمن من كاتب و غير كاتب و إن من فتنته أن معه جنة و ناراً فمن ابتلي بناره فليستعد بالله و ليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا و سلاما كما كانت النار على إبراهيم و إن فتنته أن يقول لأعرابي : رأيت إن أحييت لك أباك و أمك أتشهد أني ربك فيقول : نعم فيمثل له شيطانان في صورة أبيه و أمه فيقولان : يا بني اتبعه فإنه ربك و أن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها فينشرها بالمنشار حتى يلقي نصفين ثم يقول : انظروا إلى عبدي فإني أبعثه الآن ثم يزعم أنه له ربا غيري فيبعثه الله فيقول له الخبيث : من ربك ؟ فيقول : رب الله و أنت عدو الله أنت الدجال و الله ما كنت بعد أسد بصيرة بك مني اليوم]

قال أبو الحسن الطنفاصي : [فحدثنا الحاربي قال : حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافي عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك الرجل أرفع أمي درجة في الجنة] قال : قال أبو سعيد ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله

قال الحاربي : ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال : و إن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر و يأمر الأرض أن

تنبت فتنبت و إن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقوه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر و يأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح مواشيهم من بيوتهم ذلك أسمن ما كانت و أعظمه و أمده خواصر و أدره ضروعا و أنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطنه و ظهر عليه إلا مكة و المدينة فإنه لا يأتي من نقب من أنقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف المصلنة حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا بقى منافق و لا منافقة إلا خرج إليه فينفي الخبث منها كما ينفي الكبر خبث الحديد و يدعى ذلك اليوم يوم الخلاص

فقالت أم شريك بنت أبي العسكر : يا رسول الله فأين العرب ؟ قال : [هم قليل و جلهم ببيت المقدس و إمامهم رجل صالح قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام فيرجع ذلك الإمام ينكص القهقري ليتقدم عيسى يصلي بالناس فيضع عيسى عليه السلام يده على كتفه ثم يقول له : تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب فيفتح و وراءه الدجال و معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى و سلاح فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء و انطلق هاربا و يقول عيسى عليه السلام : إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند الباب اللد الشرقي فيضربه فيقتله فيهزم الله اليهود و لا يبقى شيء مما خلقه الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء و لا حجر و لا شجر و لا حائط و لا دابة إلا الغرقة فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم هذا يهودي فعال فاقنله [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم] و إن من أيامه أربعون سنة السنة كئصف سنة و السنة كالشهر و الشهر كالجمعة و آخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي]

فقيل : يا رسول الله : كيف نصلي في تلك الأيام القصار ؟ قال : [تقدرون فيها الصلاة كما تقدرونها في هذه الأيام الطوال ثم صلوا]

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [فيكون عيسى عليه السلام في أممي حكما و عدلا و غماما مقسطا يدف الصلب و يذبح الخنزير و يضع الجزية و يترك الصدقة فلا يسعى على شاة و لا بعير و ترفع الشحناء و التباغض و ترفع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره و تغز الوليدة الأسد فلا يضرها و يكون الذئب في الغنم كأنه كلبها و تملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء و تكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله و تضع الحرب أوزارها و تسلب قريش ملكها و تكون الأرض كفافور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم عليه السلام حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم و يجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم و يكون الثور بكذا و كذا من المال و تكون الفرس بالدريهمات]

قيل يا رسول الله و ما يرخص الفرس ؟ قال : [لا يركب الحرب أبدا فقيل له : يا رسول الله و ما يغلي الثور ؟ قال : تحرث الأرض كلها و إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب بها الناس جوع شديد يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها و يأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها ثم يأمر الله السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها و يأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تمطر قطرة و يأمر الأرض فتحبس نباتها فلا تنبت خضرا و لا يبقى ذات ظلف و لا ذات ضرس إلا هلكت إلا ما شاء الله فقيل : فما يعيش الناس في ذلك الزمان ؟ قال : التهليل و التكبير و التسيح و التحميد

و يجزي ذلك عنهم مجزى الطعام]

قال ابن ماجه : سمعت أبا الحسن الطنفاصي يقول : سمعت عبد الرحمن الخاربي يقول : ينبغي أن يرفع هذا

الحديث للمؤدب حتى يعلمه للصبيان في المكتب

و في حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية قالوا : يا رسول الله ذكرت الدجال فو الله إن أحدنا ليعجن عجينة فما

يجز حتى يخشى أن يفتن و أنت تقول : الأطمعة تزوي إليه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم [يكفي

المؤمن يومئذ ما يكفي الملائكة فقالوا فإن الملائكة لا تأكل و لا تشرب و لكنها تقدر فقال رسول الله صلى الله

عليه و سلم طعام المؤمنين يومئذ بالتسييح]

و ذكر عبد الرزاق [عن معمر عن قتادة عن شهر حديث حوشب عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت : قال

يا رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيتي فذكر الدجال فقال : إن بين يديه ثلاث سنين : سنة تمسك السماء

ثلاث مطرها و الأرض ثلاث نباتها و الثانية تمسك السماء ثلثي قطرها و الأرض ثلثي نباتها و الثالثة تمسك

السماء قطرها كله و الأرض نباتها كله فلا يبقى ذات ظلف و لا ذات ضرس من البهائم إلا هلكت و إن من

أشد فتنته أنه يأتي لأعرابي فيقول : أرايت إن أحييت لك أباك ألت تعلم أي ربك ؟ فيقول : بلى فيمثل

الشیطان له نحو إبله كأحسن ما تكون ضرورا و أعظمه سمعة قال : و يأتي الرجل مات أخوه و مات أبوه فيقول

: أرايت إن أحييت لك أخاك و أحييت لك أباك ألت تعلم أي ربك ؟ فيقول : بلى فيمثل الشيطان نحو أبيه

و أخيه قالت : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم لحاجته ثم رجع و القوم في اهتمام و غم مما حدثهم به

قالت فأخذت بجنبتي الباب فقال : مهيم يا أسماء قلت : يا رسول الله لقد خلعت أفتدتنا بذكر الدجال قال : إن

يخرج و أنا حي فأنا حجيجه و إلا فإن ربي خليفة على كل مؤمن قالت أسماء : فقلت يا رسول الله و إنا لنعجن

عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ ؟ قال يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسييح و التقديس

[

و خرج مسلم و ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لينزلن ابن مريم حكما

عدلا فليكسرن الصليب و ليقتلن الخنزير و ليضعن الجزية و ليتركن القلاص فلا يسعى عليها و ليذهبن

الشحناء و التباغض و التحاسد و ليدعون الناس إلى المال فلا يقبله أحد]

[و عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : كيف أنتم إذا نزل عيسى بن مريم فيكم و إمامكم منكم

[و في رواية [فأممكم منكم قال ابن أبي ذئب : تدري ما إمامكم منكم ؟ قلت تخبرني : قال : فأممكم بكتاب

ربكم عز و جل و سنة نبيكم صلى الله عليه و سلم قال و الذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بنفج من الروحاء

حاجا أو معتمرا أو ليشينهما]

و جاء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : [ليدركن المسيح بن مريم رجالا من أممي مثلكم أو خيرا

منك] يقول ذلك ثلاث مرات ذكره ابن بركان في كتاب الارشاد له

و روي [عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ينزل عيسى بن مريم على ثمانمائة رجل و

أربعمائة امرأة خيار من على الأرض يومئذ و كصلحاء من مضي]

[وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ينزل عيسى بن مريم فيتزوج و يولد له

ولد و يمكث خمسا و أربعين سنة و يدفن معي في قبري فأقوم أنا و عيسى من قبر واحد بين أبي بكر و عمر]

ذكره الميانشي أبو حفص و يقال : [إنه يتزوج امرأة من العرب بعد ما يقتل الدجال و تلد له بنتا فتموت ثم يموت هو بعد ما يعيش سنتين] ذكره أبو الليث السمرقندي و خالفه كعب في هذا و أنه يولد له و لدان و

سيأتي

و في حديث [أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يمكث عيسى في الأرض بعد ما ينزل أربعين سنة ثم يموت و يصلي عليه المسلمون و يدفنونه] ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده قال حدثنا هشام عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة و بهذا السند [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى و دينهم واحد و أنا أولى بالناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني و بينه نبي فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة و البياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر و لم يصبه بلل و أنه يقتل الخنزير و يكسر الصليب و يفيض المال حتى يهلك في زمانه الملك كلها غير الإسلام و حتى يهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الأعور الكذاب و تقع الأمانة في الأرض حتى يرعى الأسد مع الإبل و النمر مع البقر و الذئب مع الغنم و يلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضا يبقى في الأرض أربعين سنة ثم يموت و يصلي عليه المسلمون و يدفنونه] و في بعض الروايات : [أنه يمكث أربعاً و عشرين سنة]

و في حديث [عبد الله بن عمر : ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عدواة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام] الحديث خرج مسلم و قد تقدم بكماله و هذا يدل على أنه يمكث في الأرض سبع سنين و الله أعلم

و قال كعب الأحبار : إن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض أربعين سنة و يكثر الخير على يديه و تنزل البركات في الأرزاق حتى إن العنبة ليأكل منها الرجل حاجته و يفضل و القطف من العنب يأكل منه الجمع الغفير و الخلق الكثير حتى إن الرمانة لتثقل الجمل و حتى إن الحي لعبر بالميت فيقول : قم فانظر ما أنزله الله من البركة و أن عيسى عليه السلام يتزوج بامرأة من آل فلان و يرزق منها و لدين فيسمى أحدهما محمد و الآخر موسى و يكون الناس معه على خير و في خير زمان و ذلك أربعين سنة ثم يقبض الله روح عيسى و يذوق الموت و يدفن إلى جانب النبي صلى الله عليه و سلم في الحجرة و يموت خيار الأمة و يبقى شرارها في قلة من المؤمنين فذلك قوله عليه السلام : [بدأ الإسلام غريبا و سيعود غريبا كما بدأ] و قيل : إنه يدفن بالأرض المقدسة مدفن الأنبياء

فصل :

ذهب قوم إلى أن بنزل عيسى عليه السلام يرتفع التكليف لثلاثين رسولاً إلى أهل ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم و هذا أمر مردود بالأخبار التي ذكرناه من حديث أبي هريرة و بقوله تعالى : { و خاتم النبيين } و قوله عليه الصلاة و السلام : [لاني بعدي] و قوله [و أنا العاقب] يريد آخر الأنبياء و خاتمهم و إذا كان ذلك فلا يجوز أن يتوهم أن عيسى ينزل نبيا بشريعة متجددة و غير شريعة محمد نبينا صلى الله عليه و سلم بل إذا نزل فإنه يكون يومئذ من أتباع محمد صلى الله عليه و سلم كما أخبر صلى الله عليه و سلم حيث قال لعمر : [لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي]

[و قد روى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : لا تزال طائفة من أممي يقاتلون على الحق إلى يوم القيامة قال : فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم : تعالى صل

بنا فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء لكرامة الله لهذه الأمة [خرج مسلم في صحيحه وغيره فعيسى عليه السلام إنما ينزل مقررًا لهذه الشريعة ومجددا لها إذ هي آخر الشرائع ومحمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل فينزل حكما مقسطا وإذا صار حكما فإنه سلطان يومئذ للمسلمين ولا إمام ولا قاضي ولا مفتي قد قبض الله تعالى وخلا الناس منه فينزل وقد علم بأمر الله تعالى له في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس والعمل به في نفسه فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه ويحكمونه على أنفسهم إذ لا أحد يصلح لذلك غيره ولأن تعطيل الحكم غير جائز وأيضا فإن بقاء الدنيا إنما يكون بمقتضى التكليف إلى أن لا يقال في الأرض الله الله على ما يأتي وهذا واضح

فصل

فإن قيل : فما الحكمة في نزوله في ذلك الوقت دون غيره ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :
أحدها : يحتتمل أن يكون ذلك لأن اليهود همت بقتله وصلبه وجرى أمرهم معه على ما بينه الله تعالى في كتابه وهم أبدا يدعون أنهم قتلوه وينسبونه في السحر وغيره إلى ما كان الله يراه ونزهه منه ولقد ضرب الله عليهم الذلة فلم تقم لهم منذ أعر الله الإسلام وأظهره راية ولا كان لهم في بقعة من بقاع الأرض سلطان ولا قوة ولا شوكة ولا يزالون كذلك حتى تقرب الساعة فيظهر الدجال وهو أسحر السحرة ويباعه اليهود فيكون يومئذ جندة مقدرين أنهم ينتقمون به من المسلمين فإذا صار أمرهم إلى هذا أنزل الله تعالى الذي عندهم أنهم قد قتلوه وأبرزه لهم ولغيرهم من المنافقين والمخالفين حيا ونصره على رئيسهم وكبيرهم المدعي الربوبية فقتله وهزم جنده من اليهود بمن معه من المؤمنين فلا يجدون يومئذ مهربا وإن توارى أحد منهم بشجر أو حجر أو جدار ناداه : يا روح الله ها هنا يهودي حتى يوقف عليه فيما أن يسلم وإما أن يقتل وكذا كل كافر من كل صنف حتى لا يبقى على وجه الأرض كافر

و الوجه الثاني : وهو أنه يحتتمل أن يكون إنزاله مدة لدنو أجله لا لقتال الدجال لأنه لا ينبغي لمخلوق من التراب أن يموت في السماء لكن أمره يجري على ما قال الله تعالى : { منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى } فينزل الله تعالى ليقبره في الأرض مدة يراه فيها من يقرب منه ويسمع به من نأى عنه ثم يقبضه فيتولى المؤمنون أمره ويصلون عليه ويدفن حيث دفن الأنبياء الذين أمه مريم من نسلهم وهي الأرض المقدسة فينشر إذا نشر معهم فهذا سبب إنزاله غير أنه يتفق في تلك الأيام من بلوغ الدجال باب له هذا ما وردت به الأخبار فإذا اتفق ذلك وكان الدجال قد بلغ من فتنته أنه ادعى الربوبية ولم ينتصب لقتاله أحد من المؤمنين لقتلهم كان هو أحق بالتوجه إليه ويجري قتله على يديه إذ كان ممن اصطفاه الله لرسالته وأنزل عليه كتابه وجعله وأمه آية فعلى هذا الوجه يكون الأمر بإنزاله لا أنه ينزل لقتال الدجال قصدا

و الوجه الثالث : أنه وجد في الإنجيل فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم حسب ما قال وقوله الحق { ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل } فدعا الله عز وجل أن يجعله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فاستجاب الله تعالى دعاءه ورفعاه إلى السماء إلى أن ينزل آخر الزمان مجددا لما درس من دين الإسلام دين محمد عليه الصلاة والسلام فوافق خروج الدجال فقتله

و لا يبد على هذا أن يقال : إن قتاله للدجال يجوز أن يكون من حيث إنه إذا حصل بين ظهرائي الناس وهم مفتونون قد عم فرض الجهاد أعيانهم وهو أحدهم لزمه من هذا الفرض ما يلزم غيره فذلك يقوم به وذلك

داخل في اتباع نبينا محمد صلى الله عليه و سلم و بالله التوفيق
و اختلف حيث يدفن فقيل : بالأرض المقدسة ذكره الحلبي و قيل : يدفن مع النبي صلى الله عليه و سلم على
ما ذكرناه في الأخبار

فصل في الاختلاف في لفظة المسيح حواري عيسى عليه السلام — إذا نزل

و اختلف في لفظة المسيح على ثلاثة و عشرين قولاً ذكرها الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه مجمع البحرين
و قال : لم أر من جمعها قبلي ممن رحل و جال و لقي الرجال
القول الأول : و هو مسيح بسكون السين و كسر الياء على وزن مفعول فأسكنت الياء و نقلت حركتها إلى
السين لاستتقالمهم الكسرة على الياء
القول الثاني : قال ابن عباس : كان لا يمسخ ذا عامة إلا برىء و لا ميتا إلا حيى فهو هنا من أبنية أسماء
الفاعلين مسيح بمعنى ماسح

القول الثالث : قال إبراهيم النخعي المسيح : الصديق و قاله الأصمعي و ابن الأعرابي
القول الرابع : قال أبو عبيد : أظن هذه الكلمة [هاما شيحا] بالشين المعجمة فعربت إلى [مسيا] و كذلك
تنطق به اليهود

القول الخامس : قال ابن عباس أيضا في رواية عطاء عنه : سمي مسيحا لأنه كان أمسح الرجل ليس لرجله
أخص و الأخص ما لا يمس الأرض من باطن الرجل فإذا لم يكن للقدم أخص قيل فيه قدم رحاء و رجل رحاء
و رجل أرح و امرأة رحاء

القول السادس : قيل مسيحا لأنه خرج من بطن أمه كأنه ممسوح بالدهن

القول السابع : قيل سمي مسيحا لأنه مسح عند ولادته بالدهن

القول الثامن : قال الإمام أبو إسحاق الجواني في غريبه الكبير : هو اسم خصه الله تعالى به أو لمسح زكريا
القول التاسع : قيل : سمي بذلك لحسن وجهه إذ المسيح في اللغة الجميل الوجه يقال على وجهه مسعة من جمال
و حسن و منه ما يروى في الحديث الغريب الضعيف : يطلع عليكم من هذا الفج خير ذي يمن كأن على وجهه
مسحة ملك

القول العاشر : المسيح في اللغة : قطع الفضة و كذلك المسيحة : القطعة من الفضة و كذلك كان المسيح بن

مريم أبيض مشرب حمرة من الرجال عريض الصدر جعدا و الجعدها هنا اجتماع الخلق و شدة الأسر

القول الحادي عشر : المسيح في اللغة : عرق الخيل : و أنشد اللغويون :

إذا الجياد فضن بالمسيح

يعني العرق

ثبت في صحيح مسلم [من حديث أبي كعب : فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ما قد غشيتني
ضرب في صدري ففصدت عرقا و كأني أنظر إلى الله عز و جل فرقا] ذكره الخطابي في شرحه بالصاد و الضاد
و أنشد العجاج :

إذا الجياد فضن بالمسيح

يعني العرق

القول الثاني عشر : المسيح : الجماع يقال مسحها إذا جامعها قاله الجمل لابن فارس

القول الثالث عشر : المسيح : السيف قاله أبو عمرو المطرز

القول الرابع عشر : المسيح : المكاري

القول الخامس عشر : المسيح : الذي يمسخ الأرض أي يقطعها قاله الثقة اللغوي أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب و لذلك سمي عيسى مسيحا كان تارة بالشام و تارة بمصر و تارة على سواحل البحر و في المهامة و القفار و المسيح الدجال كذلك سميا بذلك لجولاهما في الأرض

القول السادس عشر : ذكره بسنده إلى أبي الحسن القاسمي و قد سأله الحافظ النقري أبو عمرو الداني : كيف يقرأ المسيح الدجال ؟ فقال : بفتح الميم و تخفيف السين مثل المسيح بن مريم لأن عيسى عليه السلام مسح بالبركة و هذا مسحت عينه

قال أبو الحسن : و من الناس من يقرؤه بكسر الميم و تثقيب السين فيعرف بذلك و هو وجه و أما أنا فلا أقرؤه إلا كما أخبرتك قال ابن دحية : و حكى الأزهرى أنه يقال : مسيح بالتشديد على وزن فعيل قال : فرقا بينه و بين عيسى عليه السلام ثم أسند عن شيخه أبا القاسم بن بشكوال عن أبي عمران بن عبد الرحمن قال : سمعت الحافظ أبا عمر بن عبد البر يقول : و منهم من قال ذلك بالخاء عني المعجمة و ذلك كله عند أهل العلم خطأ لا فرق بينهما و كذلك ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه نطق به و نقله الصحابة المبلغون عنه و أنشد في ذلك أهل اللغة قول عبد الله بن قيس الرقيات :
(و قالوا : دع رقية و اجتنبها ... فقلت لهم : إذا خرج المسيح)
يريد إذا خرج الدجال هكذا فسره و لذلك ذكرناه
قال الراجز :

(إذا المسيح قتل المسيحا)

يعني عيسى بن مريم عليه السلام يقتل الدجال ببنك قرآته في المجلد الأول من شرح ألفاظ الغريب من الصحيح
محمد بن إسماعيل تأليف القاضي الإمام المفتي أبي الأصمغ بن سهل

القول السابع عشر : قيل سمي الدجال مسيحا لأن المسيح الذي لا عين له و لا حاجب قال ابن فارس : و المسيح أحد شقي وجهه ممسوح لا عين له و لا حاجب و لذلك سمي الدجال مسيحا ثم أسند عن حذيفة مستدلا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة خرجة مسلم
القول الثامن عشر : : المسيح الكذاب : و هذا يختص به الدجال لأنه يكذب فيقول : أنا الله فهذا كذب البشر و لذلك خصه الله بالشوه و العار

القول التاسع عشر : المسيح : المارد و الخبيث و هو التمسح أيضا عن ابن فارس و يقال هو الكذاب و كذلك التمساح بألف

القول العشرون : قيل : الدجال : المسيح لسياحته وهو فعيل بمعنى فاعل و الفرق بين هذا و بين ما تقدم في الخامس عشر أن ذلك يختص بقطع الأرض و هذا بقطع جميع البلاد في أربعين ليلة أو مكة و المدينة
القول الحادي و العشرون : المسيح : الدرهم الأطلس بلا نقش قاله ابن فارس و ذلك مطابق لصفة الأعرور

الدجال إذ أحد شقي وجهه ممسوح وهو أشوه الرجال
القول الثاني والعشرون : قال الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة من تأليفه : سمي ابن مريم مسيحا لأن الله
مسح الذنوب عنه
القول الثالث والعشرون : قال الحافظ أبو نعيم في الكتاب المذكور : وقيل : سمي ابن مريم مسيحا لأن جبريل
عليه السلام مسحه بالبركة وهو قوله تعالى { وجعلني مباركا أين ما كنت }
فصل في بيان ما وقع في الحديث من الغريب
قوله : فيشج أي يمد والميشار مفعال من أيشرت و وشرت أشرا و وشرا ويقال منشار بالنون أيضا والوجهين
في الحديث وهو مفعال أيضا من نشرت
وقوله : فخفض ورفع بتخفيف الفاء أي أكثر من الكلام فيه فتارة يرفع صوته ليسمع من بعد وتارة يخفض
ليستريح من تعب الإعلان وهذه حالة الكثر في الكلام وروي بتشديد الفاء على التضعيف والتكثير
وقوله : إنه خارج محلة يروي بالخاء المعجمة و بالخاء المهملة المهملته قاله الهروي و الحلة موضع حزن و ضجور
و الحلة ما بين البلدين
وقال الحافظ ابن دحية : و رواه همام و الحميدي حله بفتح الحاء المهملة و ضم اللام وكأنه يريد حلوله قال
: و قرأت في أصل القطيعي من مسند الإمام أحمد بن حنبل و أنه يخرج حيله و لا أعلم روى ذلك أحد غيره و
قد سقطت هذه اللفظة لأكثر رواة مسلم و بقي الكلام أنه خارج بين الشام و العراق
و جاء في حديث الترمذي أنه يخرج بخراسان و في الرواية الآخرة : من ناحية أصبهان من قرية تسمى اليهودية
و في حديث ابن ماجه و مسلم بين الشام و العراق و وجه أم مبدأ خروجه من خراسان من ناحية أصبهان ثم
يخرج إلى الحجاز فيما بين العراق و الشام و الله أعلم
و عاث بالعين المهملة و الثاء المثناة و التنوين على أنه اسم فاعل و روى بفتح الثاء على أنه فعل ماض و وقع في
حديث أبي أمامة على الفعل المستقبل و الكل بمعنى الفساد عادت يعيث عيثا فهو عاث عثي يعثي عثلا يعثو
لعتان و في التنزيل : { و لا تعثوا في الأرض مفسدين }
وقوله : يا عباد الله فاثبتوا يعني على الإسلام يحذرهم من فتنته لأنه يأمر السماء فتمطر و الأرض فتنبت
وقوله : فاقدروا له قدره قال القاضي عياض : هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع و لو
وكلنا فيه لاجتهادنا لكانت الصلاة فيه عن الأوقات المعروفة في غيره من الأيام
قلت : و كذلك الأيام القصار الحكم فيها أيضا ما حكمه صاحبه الشرع و قد حمل بعض العلماء أن هذه الأيام
الطوال ليست على ظاهرها و إنما هي محمولة على المعنى أي يهجم عليكم غم عظيم لشدة البلاء و أيام البلاء
طوال ثم يتناقص ذلك الغم في اليوم الثاني ثم يتناقص في اليوم الثالث ثم يعتاد البلاء كما يقول الرجل : اليوم
عندي سنة و منه قولهم :
(و ليل المحب بلا آخر)
و قال آخر :
(و أيام لنا غير طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا)
و هذا القول يرده قولهم : أتكفنا فيه صلاة يوم و ليلة قال : لا اقدروا له قدره و المعنى قدروا الأوقات

للصلوات و كذلك لا التفات لطعنه في صحة هذه الألفاظ أعني قوله : أتكفيينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا اقدروا له قدره فقال : هذا عندنا من الدسائس التي كادنا بها ذرو الخلاف علينا و لو كان صحيحا لاشتهر على ألسنة الرواة كحديث الدجال و لو كان لقوي اشتهاره و لكان أعظم و أقطع من طلوع الشمس من مغربها و الجواب : أن هذه الألفاظ صحيحة حسب ما ذكره مسلم و حسيك به إماما و قد ذكرها الترمذي من حديث النواس أيضا و قال : حديث حسن صحيح و خرجها أبو داود أيضا و ابن ماجه من حديث أبي أمامة و قاسم بن أصبغ من حديث جابر و هؤلاء أئمة أجلة من أئمة أهل الحديث و تطرق إدخال المخالفين الدسائس على أهل العلم و التحرز و الثقة بعيد لا يلتفت إليه لأنه يؤدي إلى القدح في أخبار الآحاد ثم إن ذلك في زمن خرق العادات و هذا منها

و قوله : محلين أي مجدين و يروى : أزلين و الخل و الأزل و القحط و الجذب بمعنى واحد و يعاسب النحل فحولها و أحدهما يعسوب و قيل : امرأؤها و وجه التشبيه أن يعاسب النحل يتبع كل واحد منهم طائفة من النحل فتراها جماعات في تفرقة فالكنوز تتبع الدجال كذلك و قوله : بين مهروتين أي بين شقي ثوب و الشقة نصف الملاءة أو في حلتين مأخوذ من الهرد بفتح الهاء و سكون الراء و هو الشق و القطع

قال ابن دريد : إنما سمي الشق هردا للإفساد لا للإصلاح و قال يعقوب : هرد القصار الثوب و هردته بالتاء و المشاة باثنتين من فوق إذا أحرقه و خرقة

و قال أكثرهم : في ثوبين مصبوغين بالصفرة و كأنه الذي صبغ بالهرديء و وقع في بعض الروايات بدل مهرودين مصرتين كذلك ذكره أبو داود الطيالسي من حديث أبي هريرة و المصرة من الثياب هي المصبوغة بالصفرة و الجمان ما استدار من اللؤلؤ و الدر شبه قطرات العرق بمستدير الجوهر و هو تشبيه واقع و ليست بالمشبعة

و قال ابن الأنباري : مهرودتان بدال مهملة و ذال معجمة معا أي مصرتين كما جاء في الحديث الآخر و قال غيره : الهرد الذي يصبغ بالعروق التي يقال لها الهرد بضم الهاء و قال الهروي : هرد ثوبه بالهرد و هو صبغ يقال له العروق و قال القتيبي : إن كان الخفوظ بالدال فهو مأخوذ من الهرد و الهرد و الهرت : الشق و معناه بين شقين و الشقة نصف الملاءة و قال : و هذا عندي خطأ من النقلة و أراد مهرودين أي صفراوين يقال : هرت العمامة ألبستها صفرا و كان الثلاثي منه هروت فخالف الجماعة من أهل اللغة فيما قالوه و قد خطأه ابن الأنباري و قال : إنما يقول العرب هريت الثوب لا هروت و لو كان من ذلك لقليل مهرة لا مهرة و اللغة نقل و رواية لا قياس و العرب إنما تجوز ذلك في العمامة خاصة لا في الشقة و لا يجوز قياس الشقة على العمامة و أما رواية الذال المعجمة فهو إبدال من الدال المهملة فإن الذال و الدال قد يتعاقبان فيقال رجل مدل بالدال المهملة و مدل بالذال المعجمة إذا كان قيل اللحم خفي الشخص

و الجمان : ما استدار من اللؤلؤ و الدر شبه قطرات العرق بمستدير الجوهر و هو تشبيه حسن و قوله : فحرز عبادي إلى الطور أي ارتحل بهم إلى جبل بحرزون فيه أنفسهم و الطور : الجبل بالسريرية قال الحافظ بن دحية : قيدناه في صحيح مسلم جوز بالجيم و الواو و النزاي كذا قيدناه في جامع الترمذي و قيدناه أيضا حدر بدال مهملة فأما حرز فهو الذي رواه أكثرهم و صحح بعضهم رواية حدر و كلاهما صحيح

لأن ما خير فقد أحرز و كذلك جوز بالجيم و أما حدر بدال مهملة فمعناه أنزلهم إلى جهة الطور من حدرت الشيء فاحدر إذا أرسلته في صيب و حدر و النغف : جمع نغفة و هي الدود الذي يكون في أنوف الإبل و الغنم و فرسى أي هلكى و هو جمع فريس يعني مفروس مثل قتييل و قتلى و صريع و صرعى و أصله من فرس الذب الشاة و أفرسها أي قتلها كأن تلك النغف فرستهم و يروى فيصحبون موتى و الزهم : التنن و البخت : إبل غلاظ الأعناق عظام الأجسام و الزلفة : المصففة الممتلئة و الجمع زلف قال ابن دحية : قيدناه في صحيح مسلم بالفاء و القاف و هو المرأة كذا فسره ابن عباس و قاله اللغويان : أبو زيد الأنصاري و أبو العباس الشيباني و اللقحة : الناقة الحلوب و الغيام : الجماعة من الناس و الفخذ : دون القبيلة و فوق البطن و الفاثور بالفاء : الحوان يتخذ من الرخام و نحوه قال الأغلب العجيلي إذا نجلى فاثور عين الشمس يقال هم على فاثور واحد أي على مائدة واحدة منزلة واحدة و الفاثور أيضا : موضع قاله الجوهري و الله أعلم

باب ما جاء في أن حوارى عيسى عليه السلام — إذا نزل — هم أصحاب الكهف و

في حجهم معه

[حدثنا إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا ابن أبي أويس قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده قال : غزونا مع النبي صلى الله عليه و سلم الحديث و قد تقدم و فيه : و لا تقدم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد الله و رسوله حاجا أو معتمرا أو ليجمعن الله ذلك له] قال كثير : فحدثت بهذا الحديث محمد بن كعب القرظي قال : ألا أرشدك في حديثك هذا ؟ قلت : بلى فقال : كان رجل يقرأ التوراة و الإنجيل فأسلم و حسن إسلامه فسمع هذا الحديث من نص بعض القوم فقال : ألا أبشركم في هذا الحديث ؟ فقالوا : بلى فقال : إني أشهد أنه مكتوب في التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام و أنه مكتوب في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى بن مريم عليه السلام عبد الله و رسوله و أنه يمر بالروحاء حاجا أو معتمرا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف و الرقيم فيمرون حججا فإنهم لم يحجوا و لم يموتوا

باب ما جاء أن عيسى إذا نزل يجد في أمة محمد صلى الله عليه و سلم خلقا من

حواريه

ذكر الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول في الأصل الثالث و العشرين و المائة قال : [حدثنا الفضل بن محمد الواسطي قال : حدثنا إبراهيم بن الوليد اللمشقي قال : حدثني أبي قال : حدثنا عبد الملك بن عقبة الإفريقي عن أبي يونس مولى أبي هريرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال : بعثني خالد بن الوليد بشيرا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم مؤته فلما دخلت عليه قلت : يا رسول الله فقال : على رسلك

يا عبد الرحمن أخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل زيد حتى قتل رحمه الله زيدا ثم أخذ اللواء جعفر فقاتل جعفر حتى قتل رحمه الله جعفرا ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة فقاتل حتى قتل رحمه الله عبد الله بن رواحة ثم أخذ اللواء خالد ففتح الله لخالد فخالد سيف من سيوف الله فبكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و هم حوله فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : و ما لنا لا نبكي و قد قتل خيارنا و أشرفنا و أهل الفضل منا فقال : لا تبكوا فإنما مثل أمي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتنب رواكبها و هيا مساكبها و حلق سعتها فأطعمت عاما فوجا ثم عاما فوجا ففعل آخرها عاما طعما يكون أجودها قنوانا و أطولها شمراخا و الذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم في أمي خلقا من حواريه [

] حدثنا علي بن سعيد بن مرزوق الكندي قال : حدثنا عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو السكسكي عن عبد الرحمن بن حسين عن جبير بن نفير الحضري قال : لما اشتد جزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم على من أصيب مع زيد ابن حارثة يوم مؤته قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليدركن المسيح من هذه الأمة أقواما إنهم لمثلكم أو خير منكم ثلاث مرات و لن يخرى الله أمة أنا أولها و المسيح آخرها [و الله أعلم

باب ما جاء أن الدجال لا يضر مسلما

اليزار [عن حذيفة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكر الدجال فقال : لفتنة من بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال ليس من فتنة صغيرة و لا كبيرة إلا تضع لفتنة الدجال فمن نجا من فتنة ما قبلها فقد نجا منها و الله لا يضر مسلما مكتوب بين عينيه : كافر]

فصل

قلت : : إن قيل : كيف قال في هذا الحديث لا يضر مسلما و قد قتل الرجل الذي خرج إليه من المدينة و نشره بالنيشار و ذلك أعظم الضرر ؟ قلنا : ليس المراد ذلك و إنما المعنى أن المسلم الخقق لا يفتنه الدجال فيرده عن دينه لما يرى عليه من سيماء الحدث و من لم يكن بهذه الصفة فقد يفتنه و يتبعه لما يرى من الشبهات كما في الحديث المذكور في الباب قبل هذا و يحتمل أن يكون عموما يخصه ذلك الحديث و غيره و الله أعلم

باب ما ذكر من أن ابن صياد : الدجال و اسمه صاف و يكنى أبا يوسف و سبب

خروجه و صفة أبويه و أنه على دين اليهود
اليزار [عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد : الدجال فقلت له : أتخلف على ذلك ! قال : إني سمعت عمر يحلف بالله على ذلك عند النبي صلى الله عليه و سلم فلم ينكر النبي صلى الله عليه و سلم] و أخرجه أبو داود في سننه
و عن نافع قال : كان ابن عمر يقول : و الله ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد أخرجه أبو داود أيضا و إسناده صحيح

مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا حجاجا أو عمارا و معنا ابن صياد قال فنزلنا منزلا ففرق الناس و بقيت أنا و هو فاستوحشت منه و حشة شديدة مما يقال عليه قال : و جاء بمتاعه فوضعه على متاعي فقلت : إن

الحر شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة قال ففعل فرفعت لنا غنم فانطلق بعس فقال : اشرب أبا سعيد فقلت : إن الحر شديد و اللبن حار ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده أو قال : آخذه عن يده فقال : أبا سعيد من خفي عليه حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم ما خفي عليكم مشعر الأنصار ألسنت من أعلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ! أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [هو كافر و أنا مسلم] أو ليس قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [لا يدخل المدينة و لا مكة فقد أقبلت من المدينة و أنا مكة] ! و في رواية : و قد حججت قال أبو سعيد : حتى كدت أني أعذره ثم قال : أما و الله إني لأعرفه و أعرف مولده و أين هو الآن قال : قلت له : تبا لك سائر اليوم و في رواية : قال أبو سعيد و قيل له أيسرك أنك ذاك الرجل أي الدجال قال : فقال لو عرض علي ما كرهت

و عن ابن عمر قال : لقيت ابن صياد مرتين فقلت لبعضهم هل تحدثون أنه هو ؟ قال : لا و الله قال : قلت كذبتني و الله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا و ولدا فكذلك هو زعموا اليوم قال : فتحدثنا ثم فارقت قال فلقيته لقيه أخرى و قد نفرت عينه قال : فقلت متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدري قال : قلت : لا تدري و هي في رأسك قال : إن شاء الله خلقها في عصاك هذه قال : فنخر كأشد نخير حمار سمعت قال : فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعضا كانت معي حتى تكسرت و أما أنا فو الله ما شعرت قال : و جاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها فقالت ما تريد إليه ألم تعلم أنه قد قال إن أول ما يبعثه على الناس غضبه يغضبه و عنه قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صيد حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم النخل طفق يتقي بجذوع النخل و هو يحتل أن يسمع من ابن صياد شيئا قبل أن يراه ابن صياد فرآه رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو مضطجع على فراش في قطيفة له فيها زمزمة فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد : يا صاف و هم اسم ابن صياد هذا محمد فثار ابن صياد فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [لو تركته بين] و في رواية : [ثم قال له رسول الله صلى الله عليه و سلم : إني قد خبأت لك خبثا فقال ابن صياد : هو الدخ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : احسأ فلن تعدو قدرك فقال عمر بن الخطاب : ذرني يا رسول الله أضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن يكن فلن تسلط عليه و إن لم يكن فلا خير في قتله] أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : فقدنا ابن صياد يوم الحسرة

الترمذي [عن أبي بكر قال : قال لها رسول الله صلى الله عليه و سلم : يمكث أبو الدجال و أمه ثلاثين عاما لا يولد لهما ولد ثم يولد لهما ولد أعور أضر شيء و أقله منفعة تنام عينه و لا ينام قلبه ثم نعت لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أبويه فقال : أبوه طوال ضرب اللحم كأن أنفه منقار و أمه امرأة فراضحية طويلة اليدين] قال أبو بكر : فسمعنا بمولود في اليهود بالمدينة فذهبت أنا و الزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه فإذا نعت رسول الله صلى الله عليه و سلم فيهما فقلنا : هل لكما ولد ؟ فقالا : مكثنا ثلاثين عاما لا يولد لنا ولد ثم لنا غلام أعور أضر شيء و أقله منفعة تنام عيناه و لا ينام قلبه قال : فخرجنا من عندهما فإذا هو منجدل في الشمس في قطيفة و له همهمة فكشف عن رأسه فقال : ما قلتما ؟ قلنا : و هل سمعت ما قلنا ؟ قال : نعم تنام عيناي و لا ينام قلبي قال : حديث حسن غريب روى نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة

قلت : خرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه

و روي [من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه و سلم الحديث بطوله و في آخره : فأخبرني عن الدجال أمن ولد آدم هو أم من ولد إبليس ؟ قال : هو من ولد آدم لا أنه من ولد إبليس و أنه على دينكم معشر اليهود] و ذكر الحديث و قيل : إنه لم يولد بعد و سيولد في آخر الزمان و الأول أصح لما ذكرنا و بالله توفيقنا و سيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أن الدجال ابن صياد و الله أعلم

فصل في اختلاف الناس في ابن صياد

قال أبو سليمان الخطابي : و قد اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافا كثيرا و أشكل أمره حتى قيل فيه كل قول و قد يسأل عن هذا فيقال : كيف يقارن رسول الله صلى الله عليه و سلم من يدعى النبوة كاذبا و يتركه بالمدينة يساكنه في داره و يجاوره فيها و ما وجه امتحانه إياه بما خبأ له من آية الدخان و قوله بعد ذلك : احسأ فلن تعدو قدرك

قال أبو سليمان و الذي عندي أن هذه القضية إنما جرت معه أيام مهادنة رسول الله صلى الله عليه و سلم اليهود و حلفاءهم و ذلك أنه بعد مقدمه المدينة كتب بينه و بينهم كتابا و صالحهم فيه على أن لا يهاجروا و أن يتركوا على أمرهم و كان ابن صياد منهم أو دخيلا في جملتهم و كان يبذل رسول الله صلى الله عليه و سلم خبره و ما يدعيه من الكهانة و يتعاطاه من الغيب فامتحنوه بذلك ليروا آية أمره فلما علم أنه معطل و أنه من جملة السحرة و الكهنة يأتيه ريبب من الجنة أو يتعاهده شيطان فيلقى على لسانه بعض ما يتكلم به فلما سمع منه قول الدخ زجره و قال : احسأ و لن تعدو قدرك يريد أن ذلك شيء ألقاه إليه الشيطان و أجره على لسانه و ليس ذلك من قبل الوحي إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين يوحى إليهم علم الغيب و لا درجة الأولياء الذين يلهمون العلم و يصيرون بنور قلوبهم الحق و إنما كانت له تارات يصيب في بعضها و يخطئ في بعض و ذلك معنى قوله : [يأتي صادق و كاذب] فقال له عند ذلك خلط عليك

و الحكمة في أمره أنه كان فتنه امتحن الله بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينة و قد امتحن الله قوم موسى في زمانه بالعجل فافتتن به قوم و هلكوا و نجا من هداه الله و عصمه منهم و قد اختلف الروايات في أمر ابن صياد في ما كان من شأنه بعد كبره فروي أنه تاب عن ذلك القول ثم إنه مات بالمدينة و أنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن وجهه حتى رآه الناس و قيل لهم اشهدوا قال الشيخ : الصحيح خلاف هذا لخلق جابر و عمر أن ابن صياد الدجال و روي أن أبا ذر كان يقول هو الدجال و روي ذلك عن ابن عمر و قال ابن جابر فقدناه يوم الحرة هذا و ما كان مثله يخالف رواية من روى أنه مات بالمدينة و الله أعلم

و سيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أن الدجال ابن صياد عند كلامنا على خبر الجساسة إن شاء الله تعالى

باب في ما جاء في نقب يأجوج و مأجوج السد و خروجهم و صفتهم و في لباسهم و

طعامهم و بيان قوله تعالى فإذا جاء وعد ربي جعله دكا

ابن ماجه [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن يأجوج و مأجوج يخفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فتستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم و أراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فتستحفرونه غدا إن شاء فيرجعون إليه و هو كهيته حين تركوه فيحفرونه و يخرجون على الناس فينشقون الماء و يتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون سهامهم إلى السماء فيرجع إليها الدم الذي أحفظ فيقولون : قهرنا أهل الأرض و علونا أهل السماء فيبعث الله نغفا في أقتائهم فيقتلون قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و الذي نفسي بيده إن دواب الأرض تسمن و تشكر شكرا من كثرة ما تأكل من لحومهم]

قال الجوهري : شكرت الناقة تشكر شكرا فهي شكرة و اشكر الضرع امتلا

قال كعب الأحبار : إن يأجوج و مأجوج ينقرون بمنقرهم السد حتى إذا كادوا أن يخرجوا قالوا : نرجع إليه غدا و قد عاد كما كان فإذا بلغ الأمر الأمر ألقى على بعض أن يقولوا نرجع إن شاء الله غدا فنفرغ منه قال : فيرجعون إليه و هو كما تركوه فيخرقونه و يخرجون فيأتي أولهم البحيرة فيشربون ما فيها من ماء و يأتي أوسطهم عليها فيلحسون ما كان فيها من طين و يأتي آخرهم فيقولون : قد كان ها هنا ماء ثم يرمون بنبالهم نحو السماء فيقولون : قد قهرنا من في الأرض و ظهرنا على من في السماء قال : فيصب الله عليهم دواب يقال له النغف فيأخذ في أقتائهم فيقتلهم النغف حتى تنتن الأرض من ريجهم ثم يبعث الله عليهم طيرا فتنتقل أبدانهم إلى البحر فيرسل الله السماء أربعين فتنبت الأرض حتى إن الرمانة لتشيع السكن قيل لكعب : و ما السكن ؟ قال : أهل البيت قال : ثم يسمعون الصيحة

و خرج ابن ماجه [عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يفتح يأجوج و مأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى : { و هم من كل حدب ينسلون } فيعمون الأرض و ينحاز منهم المسلمون حتى يصير بقية المسلمين في مدائنهم و حصونهم و يضمون إليهم مواشيهم حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذروا فيه شيئا فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم : لقد كان بهذا المكان مرة ماء و يظهرون على الأرض فيقول قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم لننزلن أهل السماء حتى إن أحدهم ليهز حرته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم فيقولون : قد قتلنا أهل السماء فيبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم دواب كنعف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسا فيقولون : هل من رجل يشتري نفسه و ينظر ما فعلوا فينزل إليهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى فيناديهم ألا أبشروا فقد هلك عدوكم فيخرج الناس و يخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم مرعى إلا لحومهم فتشكر عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قطن]

و خرج ابن ماجه أيضا و أبو بكر بن أبي شيبة و اللفظ لابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسري برسول الله لقي إبراهيم و موسى و عيسى عليهما السلام فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسأله عنها فلم يكن عنده علم منها ثم سأله موسى فلم يكن عنده علم منها فردوا الحديث إلى عيسى قال : قد عهد إلي فيما دون و جبتها فأما و جبتها فلا يعلمها إلا الله فذكروا خروج الدجال قال فأنزلوا إليه فأقتله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج مأجوج { و هم من كل حدب ينسلون } فلا يمرون بماء إلا شربوه و لا شيء إلا

أفسدوه فيجأرون إلى الله فأدعو الله أن يميتهم ففتنت الأرض من ريحهم فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيرسل السماء فتحملهم فتلقيهم في البحر ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم فعهد إلي إذا كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل التي لا يدري أهلها متى تعجلهم بولادتها قال ابن أبي شيبة : ليلا أو نهارا
قال العوام : ووجه تصديق ذلك في كتاب الله تعالى : { حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون } فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا شيء إلا أفسده زاد ابن أبي شيبة : { واقترب الوعد الحق }
وروي عن عمر بن العاص قال : إن يأجوج ومأجوج ذرء ليس فيهم صديق وهم على ثلاثة أصناف : على طول الشر وعلى طول الشريرين وثلث منهم طوله وعرضه سواء وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام وروي عن عطية بن حسان أنه قال : يأجوج ومأجوج أمتان في كل أمة أربعمئة ألف ليس منها أمة تشبه بعضها بعضا

وروي عن الأوزاعي أنه قال : الأرض سبعة أجزاء فستة أجزاء منها : يأجوج ومأجوج وجزء فيه سائر الخلق وروي عن قتادة أنه قال : الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ يعني الجزء الذي فيه سائر الخلق غير يأجوج ومأجوج فإثنا عشر للهند والسند وثمانية آلاف للصين وثلاثة آلاف للروم وألف فرسخ للعرب وذكر علي بن معبد عن أشعث عن شعبة عن أرطاة بن المنذر قال : إذا خرج يأجوج ومأجوج أوحى الله تبارك وتعالى إلى عيسى عليه السلام أي قد أخرجت خلقا من خلقي لا يطيقهم أحد غيري فمر بمن معك إلى جبل الطور ومعه من الدراري اثنا عشر ألفا قال : يأجوج ومأجوج ذرء في جهنم وهم على ثلاث أثلاث : ثلث على طول الأرز وثلث مربع طوله وعرضه واحد وهم أشد وثلث يفترش إحدى أذنيه و يلتحف بالأخرى وهم من ولد يافث بن نوح

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [يأجوج أمة لها أربعمئة أمير وكذلك مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده صنف منهم كالأرز و صنف منهم طوله مائة وعشرون ذراعا و صنف منهم يفترش أذنه و يلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه و يأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بحراسان يشربون أمار المشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة و بيت المقدس]

ويروى أنهم يأكلون جميع حشرات الأرض من الحيات والعقارب وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض وليس لله خلق ينمي كمناتهم في العام الواحد ولا يزداد كزيادتهم ولا يكثر ككثرتهم يتداعون تداعي الحمام و يعوون عواء الكلاب و يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا : صح أصله في كتاب القصد والأمم في أنساب العرب والعجم قال : ومنهم من له قرن و ذنب و أنياب بارزة يأكلون اللحوم نيئة و قال كعب الأحبار : خلق الله يأجوج ومأجوج على ثلاثة أصناف : صنف أجسامهم كالأرز و صنف أربعة أذرع طولاً و أربعة أذرع عرضاً و صنف يفتشون آذانهم و يلتحفون بالأخرى فيأكلون مشائم نساءهم ذكره أبو نعيم الحافظ و ذكره عبد الملك بن حبيب أنه قال في قول الله عز وجل في قصة ذي القرنين : { فأتبع سبياً } يعني منازل الأرض و معاليها و طرقها حتى إذا بلغ بين السدين يعني الجبلين اللذين خلفهم يأجوج ومأجوج وجد من دولهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً أي كلاماً { قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض }

قال عبد الملك : و هما أمتان من ولد يافث بن نوح مد الله لهما في العمر و أكثر لهما في النسل حتى ما يموت الرجل من يأجوج و مأجوج حتى يولد له ألف ولد فولد آدم كلهم عشرة أجزاء : يأجوج و مأجوج منهم تسعة أجزاء و سائر ولده كلهم جزء واحد

قال عبد الملك : كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرض القوم الذين هم قريب منهم فلا يدعون لهم شيئا إذا كان إذا أخضر إلا أكلوه و لا يابسوا إلا حملوه فقال أهل تلك الأرض لذي القرنين : هل لك أن نجعل خرجا يعني جهلا { على أن نجعل بيننا و بينهم سدا } قال : ما مكني فيه ربي خير من جعلكم و لكن { أعينوني بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما } قالوا له و ما تريد ؟ قال : { آتوني زبر الحديد } أي قطع الحديد فوضع بعضها على بعض كههيئة البناء فيما بين السدين و هما جبالان { حتى إذا ساوى بين الصدفين } يعني جانبي الجبلين { قال انفخوا } أي أوقدوا { حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا * فما استطاعوا أن يظهره و ما استطاعوا له نقبا } أي من تحته و قال عبد الملك في قوله { أفرغ عليه قطرا } يعني نحاسا ليلتصق فأفرغه عليه فدخل بعضه في بعض قال { فإذا جاء وعد ربي جعله دكا }

و في تفسير الحوفي أبي الحسن : أن ذا القرنين لما عين ذلك منهم انصرف إلى ما بين الصدفين فقام ما بينهما و هو في منقطع الترك مما يلي مشرق الشمس فوجد بعد ما بينهما مائة فرسخ فلما أنشأ في عمله حفر له أساسا حتى إذا بلغ الماء جعل عرضه خمسين فرسخا و جعل حشوه الصخور و طينه النحاس يذاب ثم يصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثم علاه و شرفه بزبر الحديد و النحاس المذاب و جعل خلاله عرقا من نحاس فصار كأنه برد حبرة من صفرة النحاس و جمرته و سواد الحديد فلما فرغ منه و أحكمه انطلق عائدا إلى جماعة الإنس و الجن انتهى كلام الحوفي

و عن علي رضي الله عنه قال : و صنف منهم في طول شبر لهم مخالب و أنياب كالسباع و تداعي الحمام و تسافد البهائم و عواء الذئب و شعور تقيهم الحر و البرد و آذان عظام إحداهما و برة يشتون فيها و الأخرى جلدة يصيفون فيها

و عن ابن عباس رضي الله عنه قال : الأرض ستة أجزاء فخمسة أجزاء يأجوج و مأجوج و جزء فيه سائر الخلق

و قال كعب الأحبار : احتلم آدم عليه السلام فاختلف ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك قال علماؤنا : و هذا فيه نظر لأن الأنبياء صلوات الله عليهم و سلامه لا يحتلمون و قال الضحاك : هم من الترك

و قال مقاتل : هم من ولد يافث بن نوح و هذا أشبه كما تقدم و الله أعلم و قرأ عاصم يأجوج و مأجوج بالهمزة فيهما و كذلك في الأنبياء على أنهما مشتقان من أجة الحر و هي شدته و توقده و منه أجيج النار و من قولهم : ملح أجاج فيكونا عربيين من أج و مج و لم يصرفا لأنهما جعلتا اسمين فهما مؤنثتان معرفتان و الباقيون بغير همز جعلوهما لقبيلتين أعجميتين و لم يصرفا للعجمة و التعريف

باب ذكر الدابة و صفتها و متى تخرج و من أين تخرج و كم لها من خرجة و صفة

خروجها و ما معها إذا خرجت و حديث الجساسة و ما فيها من ذكر الدجال قال الله تعالى : و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم

و ذكر أبو بكر البزار قال : حدثنا عبد الله بن يوسف : حدثنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه قال : أكثروا من زيادة هذا البيت من قبل أن يرفع و ينسى الناس مكانه و أكثروا من تلاوة القرآن من قبل أن يرفع قالوا يا أبا عبد الرحمن : هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يصبحون فيقولون : قد كنا نتكلم بكلام و نقول قولاً فيرجعون إلى شعر الجاهلية و أحاديث الجاهلية و ذلك حين يقع القول عليهم

قال العلماء : معنى وقع القول عليهم : أي و جب الوعيد عليهم لتماديهم في العصيان و العقوق و الطغيان و إعراضهم من آيات الله و تركهم تدبرها و النزول على حكمها و انتهاجهم في المعاصي إلى ما لا يجمع معه فيهم موعظة و لا يصرفهم عن غيهم تذكرة يقول عز من قائل — فإذا صاروا كذاك : { أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلم } أي دابة تعقل و تنطق — و ذلك و الله أعلم ليقع لهم العلم بأنه آية من قبل الله تعالى ضرورة فإن الدواب في العادة لا كلام لها و لا عقل

ابن ماجه [عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال ذهب بي رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى موضع البادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا فتر في شبر] قال ابن بريدة : فحججت بعد ذلك بسنتين فأرانا عصا له فإذا هو بعصاي هذا و كذا الفتر ما بين السبابة و الإبهام إذا فتحتها قاله الجوهري

و خرج ابن ماجه أيضا [عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : تخرج الدابة و معها خاتم سليمان بن داود و عصا موسى بن عمران فتجلو وجه المؤمن بالعصا و تختم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فتقول هذا يا مؤمن و تقول هذا يا كافر] و أخرجه الترمذي و قال : حديث حسن و ذكر أبو داود الطيالسي في مسنده [عن حذيفة قال ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم الدابة فقال : لها ثلاث خرجات من الدهر : فتخرج في أقصى البادية و لا يدخل ذكرها القرية مكة ثم تكمن زمانا طويلاً ثم

تخرج خرقة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية و يدخل ذكرها القرية يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها و أكرمها على المسجد الحرام لن تدعهم إلا و هي ترغو بين الركن و المقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى و معا و تشيت عصا به من المؤمنين و عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت و جوههم حتى جعلتها كالكواكب الدري و ولت في الأرض لا يدركها طالب و لا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعود منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول له يا فلان : الآن تصلي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق و يشترك الناس في الأموال و يصطحبون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول : يا كافر اقض حقي و حتى إن الكافر يقول يا مؤمن اقض حقي

و قد قيل : إنها تسم و جوه الفريقين بالنفخ فتتنقش في وجه المؤمن مؤمن و في وجه الكافر كافر] قال المؤلف رحمه الله : و لا يبعد أن تظهر السمة و تتبين بالنفخ فتجمع عليه الأمرين و على هذا لا تعارض و الله أعلم

و ذكر البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز حدثنا علي بن الجعد عن فضيل بن مرزوق الرقاشي

الأعر : و سئل عنه يحيى بن معين فقال : ثقة

عن عطية العوفي عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من صدع في الكعبة كجري الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها و ذكر الميانشي [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : دابة الأرض تخرج من جيباد فيبلغ صدرها الركن و لم يخرج ذنبها بعد و هي دابة ذات وبر و قوائم]

فصل : هذه الأحاديث و ما تقدم من ذكر العلماء في الدابة و يأتي يرد قول من قال من المفسرين المتأخرين : إن الدابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع و الكفر و يجادلهم ليتقطعوا فيهلك من هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينة قال شيخنا أبو العباس : و على هذا لا يكون فيها آية خاصة خارقة للعادة و لا يكون من جملة العشر آيات المذكورة في الحديث لأن وجود المناظرين و المحتجين على أهل البدع كثير فلا آية خاصة ينبغي أن يذكر من العشر

قلت : فساد ما قاله هذا المتأخر واضح و أقوال المفسرين بخلافه

[و روى من حديث هشام بن يوسف القاضي أبي عبد الرحمن الصنعاني عن رباح بن عبيد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ينس الشعب جيباد قالوا : و فيم ذلك يا رسول الله ؟ قال : تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين لم يتابع رباح على هذا] أخرج الحديث أبو أحمد بن عدي الجرجاني رحمه الله و عن عمرو بن العاص قال : تخرج الدابة من مكة من شجرة و ذلك في أيام الحج فيبلغ رأسها السحاب و ما خرجت رجلاها بعد من التراب ذكره القتيبي في عيون الأخبار له و أصح أقوال المفسرين بخلاف ما قال : و إنما خلق عظيم يخرج من صدع من الصفا لا يفوقها أحد فتسم المؤمن فينير وجهه و تكتب بين عينيه : مؤمن و تسم الكافر فيسود وجهه و تكتب بين عينه كافر و قال عبد الله بن عمر : تخرج الدابة من جبل الصفا بمكة ينصدع فتخرج منه و قال عبد الله بن عمرو و نحوه و قال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت و روي عن قتادة أنها تخرج من تهامة و روي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث نار تنور نوح و قيل : من أرض الطائف و روي عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين و هي في السحاب و قوائمها في الأرض و روي عن ابن الزبير : أنها جمعت من خلق كل حيوان فرأسها رأس ثور و عينها عين خنزير و أذنها أذن فيل و قرنها قرن أيل و عنقها عنق نعامة و صدرها صدر أسد و لوها لون نمر و حاصرتها حاصرة هر و ذنبها ذنب كبش

و قوائمه قوائم بعير بين كل مفصل و مفصل اثنا عشر ذراعا ذكره الثعلبي و الماوردي و غيرهما و حكى النقاش عن ابن عباس : أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حتى أرادت قريش بناء الكعبة و يروى أنها دابة مزعجة شعرا ذات قوائم طولها ستون ذراعا و يقال إنها الجساسة في حديث فاطمة بنت قيس الحديث الطويل و خرج مسلم و ذكره الترمذي و أبو داود مختصرا و السياق لمسلم و فيه ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أتدرون لم جمعتمكم ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : [إني و الله ما جمعتمكم لرغبة و لا لرهبة و لكنني جمعتمكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا فبايع و أسلم و حدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لحم و جدام فلعب

بهم الموج شهرا في البحر ثم أرفأوا إلى جزيرة في البحر حيث مغرب الشمس قال : فجلسوا في أقرب السفينة
فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهدب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر [
وقال الترمذي : إن ناسا من أهل فلسطين ركبوا سفينة في البحر فجالت بهم حتى قذفتهم في جزيرة من جزائر
البحر فإذا هم بداية لباسة ناشرة شعرها فقالوا : من أنت ؟ قالت : أنا الجساسة و ذكر الحديث راجع سياق
مسلم فقالوا : ويلك ما أنت ؟ قالت : أنا الجساسة قالوا و ما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا
الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق قال لما سمعت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة قال : فانطلقنا
سراعا حتى دخلنا الدير فإذا هو أعظم إنسان رأيناه خلقا و أشد وثاقا مجموعة يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى
كعبيه بالحديد و قال الترمذي : فإذا رجل موثق بسلسلة

قال أبو داود : فإذا الرجل يجر شعره مسلسلا في الأغلال ينزو فيها بين السماء و الأرض قلنا : ويلك ما أنت
: قال : قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم قالوا : نحن ناس من العرب ركبنا سفينة بحرية فصادفنا البحر قد
اغتملم فلعب الموج بنا شهرا ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهدب كثيرة
الشعر لا ندري ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة فقلنا و ما
الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعا و فرعنا منها
و ما نأمن أن تكون شيطانة فقال : أخبروني عن نخل بيسان

وقال الترمذي : الذي بين الأردن و فلسطين قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل تثمر ؟
قلنا له : نعم قال : أما أنها يوشك أن لا تثمر قال : أخبروني عن بحيرة طبرية قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال
: هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء أما أن ماؤها يوشك أن يذهب قال : أخبروني عن عين زغر قالوا : عن
أي شأنها تستخبر ؟ قال هل في العين ماء و هل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا : نعم هي كثيرة الماء و أهلها
يزرعون من مائها قال أخبرني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة و نزل يثرب قال : أقاتله
العرب ؟ قلنا : نعم قال : كيف صنع بهم فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب و أطاعوه قال لهم قد
كان ذلك ؟ قلنا : نعم قال أما إن ذلك هو خير لهم أن يطيعوه و إني مخبركم عني أنا المسيح الدجال و إني
أوشك أن يؤذن لي بالخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة و طيبة
هما محرمتان علي كلتاها كلما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني ملك بيده السيف مصلتا يصدني عنها و
أن علي كل نقب منها ملائكة يحرسونها

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [و طعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم
ذلك ؟ فقال الناس : نعم قال : فإنه أعجيبني حديث تميم الداري فإنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه و عن
المدينة و مكة إلا أنه في بحر الشام و بحر اليمن لا بل من قبل المشرق و ما هو من قبل المشرق و أوما بيده إلى
المشرق] قال : حفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه و سلم

و قد خرج ابن ماجه [حديث فاطمة بنت قيس : قالت قام رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم و صعد
المنبر و كان لا يصعد عليه مثل ذلك اليوم إلا يوم الجمعة فاشتد ذلك على الناس فمن بين قائم و جالس فأشار
إليهم بيده أن اقعدوا فو الله ما قمت مقامي إلا لأمر ينفعكم لا رغبة و لا رهبة و لكن تميم الداري أتاني فأخبرني
خبرا منعي القيلولة من الفرح و قررة العين فأحببت أن أنشر عليكم فرح نبيكم صلى الله عليه و سلم إلا أن ابن

عم لتميم الداري أخبرني أن الريح ألجأتهم إلى جزيرة لا يعرفونها ففعدوا في قوارب السفينة فخرجوا بها فإذا هم بشيء أهدب أسود كثير الشعر قالوا لها : ما أنت ؟ قالت : أنا الجساسة قالوا : أخبرينا قالت : ما أنا مخبرتكم شيئاً ولا سائلتكم وليكن هذا الدير قد رهقتموه فأتوه فإن فيه رجلاً بالأشواق إلى أن تخبروه ويخبركم فأتوه فدخلوه عليه فإذا هم بشيخ موثق شديد الوثاق مظهر الحزن شديد التشكي قال لهم : من أين ؟ فقالوا : من الشام فقال : ما فعلت العرب ؟ قالوا : نحن قوم من العرب عم تسأل ؟ قال : ما فعل الرجل الذي خرج فيكم ؟ قالوا : خيراً أتى قوما فأظهره الله عليهم فأمرهم اليوم جميع إلهم واحد ودينهم واحد ونبئهم واحد قال : ما فعلت عين زغر ؟ قالوا : خيراً يسقون منها لزروعهم ويستقون منها لشعبهم قال : ما فعل نخل بين عمان وبيسان ؟ قالوا : يطعم ثمره كل عام قال : ما فعلت بحيرة الطبرية ؟ قالوا تدفق بجنباتها من كثرة الماء قال : فزفر ثلاث زفرات ثم قال : لو انفلت من وثاقي هذا لم أدع أرضاً إلا وطنتها برجلي هاتين إلا طيبة ليس لي عليها سبيل]

قال النبي صلى الله عليه وسلم : [إلى هذا انتهى وحى هذه طيبة و الذي نفسي بيده ما فيها طريق ضيق و لا واسع و لا سهل و لا جبل إلا و عليه ملك شاهر سيفه إلى يوم القيامة]
قال المؤلف رحمه الله : هذا حديث صحيح و قد خرجه مسلم و الترمذي و أبو داود و غيرهم رضي الله عنهم و قد قيل : إن الدابة التي تخرج هي الفصيل الذي كان لناقة صالح عليه السلام فلما قتلت الناقة هرب الفصيل بنفسه فانفتح له حجر فدخل فيه ثم انطبق عليه فهو فيه إلى وقت خروجه حتى يخرج بإذن الله تعالى
قلت : و يدل على هذا القول حديث حذيفة المذكور في هذا الباب و فيه : و هي ترغو و الرغال إنما هو للإبل و الله أعلم
و لقد أحسن من قال :

(و اذكر خروج فعيل ناقة صالح ... يسم الورى بالكفر و الإيمان)

فصل : و قد استدل من قال من العلماء : إن الدجال ليس ابن صياد بحديث الجساسة و ما كان في معناه و الصحيح أن ابن صياد هو الدجال بدلالة ما تقدم و ما يبعد أن يكون بالجزيرة ذلك الوقت و يكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر إلى أن فقدوه يوم الحرة و في كتاب أبي داود في خبر الجساسة من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : شهد جابر أنه هو ابن صياد قلت فإنه قد مات قال : و إن مات قلت : فإنه قد أسلم قال و إن أسلم قلت : فإنه قد دخل المدينة قال : و إن دخل المدينة

و ذكر سيف بن عمر في كتاب الفتوح و الردة : و لما نزل أبو سبرة في الناس على السوس و أحاط المسلمون بها و عليهم الشهر بان أخو الهرمزان ناوشوهم القتال كل ذلك يصيب أهل السوس من المسلمين فأشرف عليهم يوماً الرهبان و القسيسيون فقالوا : يا معشر العرب إن مما عهد علماؤنا و أوائلنا أنه لا يفتح السوس إلا ال أو قوم فيهم الدجال فإن كان الدجال فيكم فستفتحونها و إن لم يكن فيكم فستفتحونها و إن لم يكن فيكم فلا تعنوا أنفسكم بالحصار قال و صاف ابن صياد يومئذ مع النعمان في جند فأتى باب السوس غضبان فدقه برجله و قال : انفتح فطار فتقطعت السلاسل و تكسرت الأغلاق و تفتحت الأبواب و دخل المسلمون و قصته مع أبي سعيد و قوله : و الله إني لأعرفه و أعرف مولده و أين هو الآن و قال الترمذي : و أين هو الساعة من الأرض و أعرف والده كالنص في أنه هو و احتجاجه بأنه مسلم و ولد له و دخل المدينة و هو يريد مكة تلبس

منه و أنه سيكفر إذا خرج و حينئذ لا يولد له و لا يدخل مكة و المدينة و الله أعلم
و قوله : ارفأوا : أي الجأوا إلى جزيرة لجأوا مرفأ السفينة حيث ترسي يقال : أرفأت السفينة إذا قربتها من
الشط و ذلك الموضع مرفأ و أرفأت إليه لجأت إليه و أقرب السفينة هي القوارب الصغار يتصرف بها ركاب
السفينة و الواحد قارب على غير قياس
قال الخطابي و الماذري : و المهلب : الشعر الغليظ و قال : أهلب على معنى الحيوان أو الشخص و لو راعى
اللفظ لقال هلبا كأحمر و حمر و الأهلب أيضا عند بعض أهل اللغة : الذي لا شعر عليه و هو من الأضداد و
استفهامهم منها : ظنا منهم أنما ممن لا تعقل فلما كلمتهم فرقوا : أي فزعوا و اغتلام البحر : هيجانه و تلاطم
أمواجه و بيسان و زغر : موضعان بالشام بين الأردن و فلسطين كما في حديث الترمذي
قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : كانت بيسان مدينة و فيها سوق كبيرة و عين تسمى عين فلوس يسقى منها
و بحيرة طبرية هي بحيرة عظيمة طولها عشرة أميال و عرضها ستة أميال و موجهها في سور قلعتها و هي عميقة
تجري فيها السفن و يصاد منها السمك و ماؤها حلو فرات و بين بحيرة طبرية و بيت المقدس نحو من مائة ميل و
هي من الأردن و لزمتها هي لصغيرة بحرة و لا بحر لأن البحر مذكر و تصغيره بحيرة و عين زغر بضم الزاي و
فتح العين و امتناع صرفه للعلمية و العدل لأنه معدول عن زاغر كعمر معدول عن عامر و زعم الكلبي أن زغر
اسم امرأة نسبت هذه العين إليها فإن كان ما قاله حقا فالأن هذه المرأة استنبطتها و اتخذت أرضها دارا لها
فنسبت إليها ذكره ابن دحية في كتاب البشارات و الإنذارات له من تأليفه
و قوله عليه الصلاة و السلام : [إلا أنه في بحر الشام أو بحر اليمن] شك أو ظن منه عليه الصلاة و السلام أو
قصد على الإبهام على السامع ثم نفى ذلك و أضرب عنه بالتحقيق فقال : [لا بل من قبل المشرق] ثم أكد
ذلك بما الزائدة و بالتكرار اللفظي فما زائدة لا نافية فاعلم ذلك

باب طلوع الشمس من مغربها و إغلاق باب التوبة و كم يمكن الناس بعد ذلك ؟

مسلم [عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم
تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها و الدجال و دابة الأرض]
و خرج الترمذي و الدارقطني [عن صفوان بن عسال المرادي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم
يقول : إن بالمغرب بابا مفتوحا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه] قال الترمذي :
حديث حسن صحيح

و قال سفيان : [قبل الشام خلقه الله تعالى يوم خلق السموات و الأرض مفتوحا يعين التوبة لا يغلق حتى تطلع
الشمس منه] قال الترمذي : حديث حسن صحيح

و ذكر أبو إسحاق الثعلبي و غيره من المفسرين في حديث فيه طول [عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و
سلم ما معناه : أن الشمس تجس على الناس حتى تكثر المعاصي في الأرض و يذهب المعروف فلا يأمر به أحد
و يفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت و استأذنت ربها عز و جل من أين تطلع
لم يجر إليها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها و يستأذن من أين يطلع فلا يجر إليه جواب حتى يجلسا مقدار
ثلاث ليالي للشمس و ليلتين للقمر فلا يعرف ما طول تلك الليلة إلا المتهجدون في الأرض و هم يومئذ عصابة

قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين فإذا تم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريل عليه السلام فيقول : إن الرب سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فبتطلعا منه وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور فيطلعان من مغاربكما أسودين لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى { وجمع الشمس والقمر } وقوله { إذا الشمس كورت } فيرتفعان كذلك مثل البعيرين والفرسين فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرّة السماء وهي نصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونها وردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يرد المصرعين ثم يلتئم بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صدع فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجري عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تبارك وتعالى { يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا }

ثم إن الشمس والقمر يكسبان بعد ذلك الضوء والنور ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كان قبل ذلك يطلعان ويغربان [وذكر المياثشي وقال عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم] و يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة [

فصل

قال العلماء : وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس وتفتت كل قوة من قوى البدن فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت

قال صلى الله عليه وسلم : [إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغ] أي تبلغ روحه رأس حلقه وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة ومقعده من النار فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش لأن علمه بالله تعالى وبنبيه صلى الله عليه وسلم وبوعده قد صار ضرورة فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ولا يتحدثون عنه إلا قليلا فيصير الخبر عنه خاصا وينقطع التواتر عنه فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قبل منه والله أعلم

وقد قيل : إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمرود : { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر } وإن الملحدين والمنجمين عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون : هو غير كائن فيطلعها الله تعالى يوما من المغرب ليرى المنكرين لذلك قدرته من أن الشمس في قدرته إن شاء أطلعها من المشرق وإن شاء أطلعها من المغرب وعلى هذا يحتمل أن يكون رد التوبة والإيمان على من آمن وتاب من المنكرين لذلك المكذبين لخبر النبي صلى الله عليه وسلم فأما المصدق فإنه تقبل توبته وينفعه إيمانه قبل ذلك والله أعلم

وروي عن ابن عباس أنه قال : لا يقبل من كافر عمل ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيرا يومئذ فإنه لو أسلم بعد ذلك قبل منه ومن كان مؤمنا مذنبًا فتاب من الذنب قبل منه وروي عن عمران بن حصين أنه قال : إنما تقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك فيها كثير من الناس

فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت ثم هلك لم تقبل توبته و من تاب بعد ذلك قبلت توبته ذكره الليث
السمرقندي في تفسيره

فصل

و اختلفت الروايات في أول الآيات فروي أن طلوع الشمس من مغربها أولها على ما وقع حديث مسلم في هذا
الباب و قيل : خروج الدجال و هذا القول أولى القولين و أصح لقوله عليه الصلاة و السلام : [إن الدجال
خارج فيكم لا محالة] الحديث بطوله
فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها لم ينفع اليهود إيماهم أيام عيسى عليه السلام و لو لم ينفعهم لما
صار الدين واحدا ياسلام من أسلم منه

و قد تقدم القول مبينا في هذا و أن أول الآيات الخسوفات فإذا نزل عيسى عليه السلام و قتل الدجال خرج
حاجا إلى مكة فإذا قضى حجة انصرف إلى زيارة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم فإذا وصل إلى قبر الرسول
صلى الله عليه و سلم أرسل الله عند ذلك ريحا عنبرية فتقبض روح عيسى عليه السلام و من معه من المؤمنين
فيموت عيسى عليه السلام و يدفن مع النبي صلى الله عليه و سلم في روضته ثم تبقى الناس حيارى سكارى
فيرجع أكثر أهل الإسلام إلى الكفر و الضلالة و تستولي أهل الكفر على من بقي من أهل الإسلام فعند ذلك
تطلع الشمس من مغربها و عند ذلك يرفع القرآن من صدور الناس و من المصاحف ثم تأتي الحبشة إلى بيت الله
فينقضونه حجرا حجرا و يرمون بالحجارة في البحر ثم تخرج حينئذ دابة الأرض تكلمهم ثم يأتي دخان يملأ ما بين
السماء و الأرض فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام و أما الكافر و الفاجر فيدخل في أنوفهم فينقب مسامعهم و
يضيق أنفاسهم ثم يبعث الله ريحا من الجنوب من قبل اليمن مسها مس الحرير و ريحها المسك فتقبض روح
المؤمن و المؤمنة و تبقى شرار الناس و يكون الرجال لا يشبعون من النساء و النساء لا يشبعن من الرجال ثم
يبعث الله الرياح فتلقينهم في البحر هكذا ذكر بعض العلماء الترتيب في الأشراف و فيه بعض اختلاف و قد
تقدمت الإشارة إليه فيما تقدم و الله أعلم

و قيل : إذا أراد الله انقراض الدنيا و تمام لياليها و قربت النفخة خرجت نار من قعر عدن لتسوق الناس إلى
الحشر تبيت معهم و تقيل معهم حتى يجتمع الخلق بالحشر الإنس و الجن و الدواب و الوحوش و السباع و
الطيور و الهوام و خشاش الأرض و كل من له روح فبينما الناس قيام في أسواقهم يتبايعون و هم مشتغلون بالبيع
و الشراء إذا هم بمدة عظيمة من السماء يصعق منها نصف الخلق فلا يقومون من صعقتهم مدة ثلاثة أيام و
النصف الآخر من الخلق تذهل عقولهم فيبقون مدهوشين قياما على أرجلهم و هو قوله تعالى { ما ينظر هؤلاء
إلا صيحة واحدة ما لها من فواق } فبينما هم كذلك إذا هدة أخرى أعظم من الأولى غليظة فظيعة كالرعد
القاصف فلا يبقى على وجه الأرض أحد إلا مات كما قال ربنا جل و علا { و نفخ في الصور فصعق من في
السموات و من في الأرض إلا من شاء الله } فتبقى الدنيا بلا آدمي و لا جني و لا شيطان و يموت جميع من في
الأرض من الهوام و الوحوش و الدواب و كل شيء له روح و هو الوقت المعلوم الذي كان بين الله تعالى و بين
إبليس الملعون

باب خراب الأرض و البلاد قبل الشام

ما جاء في خراب الأرض و البلاد قبل الشام و مدة بقاء المدينة خرابا قبل يوم القيامة و في علامة ذهاب الدنيا و منالها و في أول ما يجرب ما يجرب منها

[روي من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : و يبدأ الخراب في أطراف الأرض حتى تخرب مصر و مصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة و خراب البصرة من العراق و خراب مصر من جفاف النيل و خراب مكة من الحيشة و خراب المدينة من الجوع و خراب اليمن من الجراد و خراب الأيلة من الحصار و خراب فارس من الصعاليك و خراب الترك من الديلم و خراب الديلم من الأرمن و خراب الأرمن من الخزر و خراب الخزر من الترك و خراب الترك من الصواعق و خراب السند من الهند و خراب الهند من الصين و خراب الصين من الرمل و خراب الحيشة من الرجفة و خراب الزوراء من السفياي و خراب الروحاء من الخسف و خراب العراق من القحط] ذكره أبو الفرج الجوزي رحمه الله في كتاب روضة المشتاق و الطريق إلى الملك الخلاق و سمعت أن خراب الأندلس من الريح العقيم و الله أعلم

و ذكر أبو نعيم الحافظ عن أبي عمران الجوني و أبي هارون العبدي أنهما سمعا نوبا البكالي يقول : إن الدنيا مثلت على طير فإذا انقطع جناحاه وقع و إن جناحي الأرض مصر و البصرة فإذا خربتا ذهبت الدنيا و ذكر أبو زيد عمر بن شبة [حدثنا موسى ابن إسماعيل قال : حدثنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير قال : ذكر لي عن عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أما و الله يا أهل المدينة لتتركها قبل يوم القيامة أربعين] و قال كعب : ستخرب الأرض قبل الساعة بأربعين سنة و ليهاجرن الرعد و البرق إلى الشام حتى لا تكون رعدة و لا برقة إلا ما بين العريش و الفرات

[و يروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : قال الله تعالى : إني إذا أردت أن أخرب الدنيا بدت بيبي فأخربه ثم أخرب الدنيا على أثره] قد تقدم أن الذي يجربه ذو السويقتين على ما تقدم و الله أعلم

باب لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله

مسلم [عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله]

و في رواية أخرى : [لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله]

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : قيد الله برفع الهاء و نصبها فمن رفعها فمعناه ذهاب التوحيد و من نصبها فمعناه انقطاع الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أي لا تقوم الساعة على أحد يقول : اتق الله

قال المؤلف رحمه الله : و يدل على صحة هذا التأويل قوله عليه الصلاة و السلام في حديث حذيفة : [لتقصدنكم نار هي خامدة] الحديث و فيه هم شر من الحمر يتسافدون تسافد البهائم و ليس فيهم رجل يقول : مه مه و قد قيل : إن هذه الإسم أجراه الله على السنة الأمم من لدن آدم عليه السلام و لم تنكره أمة بل هو دائر على ألسنتهم من عهد أبيهم إلى انقضاء الدنيا و قد قال قوم نوح : { و لو شاء الله لأنزل ملائكة } الآية و قال قوم هود : { أجنبتنا لعبد الله وحده } و قالوا { إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا } إلى غير ذلك و

قال : { و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن الله { فإذا أراد الله زوال الدنيا قبض أرواح المؤمنين و انتزع هذا الاسم من ألسنة الجاحدين و فجأهم عند ذلك الحق اليقين و هو قوله عليه الصلاة و السلام : [لا تقوم الساعة و على الأرض من يقول : الله] و في الخبر : إن الله تعالى يقول لإسرافيل عليه السلام : إذ سمعت قاتلا يقول : لا إله إلا الله فأخر النفخة أربعين سنة إكراما لقائلها و الله أعلم

باب على من تقوم الساعة ؟

مسلم [عن عبد الرحمن بن شماسه المهدي قال : كنت عند مسلمة بن مخلد و عنده عبد الله بن عمرو بن العاص فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق و هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم فبينما هم كذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له ابن شماسه يا عقبة : اسمع ما يقول عبد الله فقال عقبة : هو أعلم و أما أنا فسمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لا تزال عصاة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة و هم على ذلك فقال عبد الله : أجل ثم يبعث الله ريحا كريح المسك كمس الحرير لا تترك نفسا في قلبها مثقال حبة من إيمان إلا قبضتها ثم تبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة]

و في حديث عبد الله بن مسعود : لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس من لا يعرف معروفًا و لا ينكر منكرا يتهاجون كما تتهاج الحمير قال الأصمعي : قوله يتهاجون يقول : يتسافدون يقال : بات فلان يهرج و المهرج في غير هذا : الاختلاط و القتل

و خرج مسلم [عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لا تذهب الليالي و الأيام حتى تعبد اللات و العزى فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله : { هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون } أن ذلك عام قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم] و الله أعلم

فصل

ذكر أبو الحسن بن بطال رحمه الله في هذا الحديث في شرح البخاري له مينا حديث البخاري [عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة] الحديث و قد تقدم و قال : هذه الأحاديث و ما جاء فيها معناها الخصوص و ليس المراد بها أن الدين كله ينقطع في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء لأنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم [أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف و يعود غريبا كما بدأ]

[روى حماد بن سلمة عن قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :

لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال] و كان مطرف يقول هم أهل

الشام

قلت : ما ذكره من أن الدين لا ينقطع و أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة يرده حديث عائشة و عبد الله بن عمرو و ما ذكره من حديث عمران بن حصين و قد تقدم أن عيسى عليه السلام يقتل الدجال و يخرج يأجوج و مأجوج و يموتون و يبقى عيسى عليه السلام و دين الإسلام لا يعبد في الأرض غير الله كما تقدم و أنه يحج و يحج معه أصحاب الكهف فيما ذكره المفسرون و قد تقدم أنهم حوارية إذا نزل فإذا توفي عيسى عليه السلام بعث الله تعالى عند ذلك ريحا باردة من قبل الشام فتأخذ تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن و كل مسلم و يبقى شرار الناس يتهاجون فيها تمأرجح الحمير فعليهم تقوم الساعة كذا في حديث النواس بن سمعان الطويل و قد تقدم

و في حديث عبد الله بن عمرو : ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو دخل أحدكم في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه قال : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه و سلم و ذكر الحديث و قد تقدم بكماله و فيه ذكر النفخ و الصعق و البعث فهذا غاية في البيان في كيفية انقراض هذا الخلق و هذه الأزمان فلا تقوم الساعة و في الأرض من يعرف الله و لا من يقول : الله الله

و ذكر أبو نعيم عن أبي الزهراية عن كعب الأحبار قال : يمكث الناس بعد خروج و يأجوج و مأجوج في الرخاء و الخصب و الدعة عشر سنين حتى إن الرجلين ليحملان الرمانة الواحدة بينهما و يحملان العنقود الواحد من العنب فيمكنون على ذلك عشر سنين ثم يبعث الله ريحا طيبة فلا تدع مؤمنا إلا قبضت روحه ثم تبقى الناس بعد ذلك يتهاجون تمأرجح الحمير في المروج حتى تأتيهم أمر الله و الساعة و هم على ذلك نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يتوفانا مسلمين و أن يلحقنا بالشهداء و الصالحين و أن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين و يجعل ما كتبته خالصا لوجهه الكريم بمنه و كرمه و أن ينفعنا به و والدينا و غفر الله لصاحب هذا الكتاب و لوالديه و لسائر المسلمين أجمعين آمين يا رب العالمين

(تم الكتاب و ربنا محمود ... و له المكارم و العلاء و الجود)

(و على النبي محمد صلواته ... ما ناح قمري و أورق عود)

و وافق الفراغ من نسخه في منتصف شهر رمضان المعظم قدره من شهور سنة اثنتين و سبعين و سبعمائة

على يد أقل عباد الله و أحوجهم إلى لطفة الخفي

الحسين بن علي بن منصور بن ناصر الحنفي

غفر الله له و لوالديه و لمن قرأ فيه و دعا له بالتوبة النصوح و المغفرة و الرحمة يا رب العالمين و لسائر المسلمين أجمعين و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا حسينا الله و نعم الوكيل